جهاز النطق عند علماء العربية المتقدمين وعند المحدثين - ابن جني ولندرسي

Human Speech Organ Among The Advanced Arab Scholars And The Modernists Ibn Jinni And Landercy

الدكتورة : فوزية سرير عبد الله
قسم اللّغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللّغات - جامعة البليدة 2

ملخص البحث :

نقدّم في هذه الدراسة وصفا لجهاز النطق الإنساني مثلما تمثّله علماء العربية المتقدّمين الذين انحصر عندهم في بيان مخارج أصوات العربية، والتعرّف على صفاتها، في حين قدّم علماء الأصوات المعاصرون دراسة تشريحية لأعضاء النطق الإنساني، بالاستعانة بوسائل جدّ متطوّرة بغرض تحديد مخارج الأصوات، والتعرّف على صفاتها .

الكلمات المفتاحية :

جهاز النطق – مخارج الصوات – صفات الأصوات – الحروف الفرعية المستحسنة .

Abstract:

This study contains a description of the human speech organ, as represented by the applicants of Arab scholar who confined them in a statement exist Arab voices , and to identify it's qualities ,while scientists contemporaries study the members of human pronounciation ,using the means the most advanced in order to identify exists sounds , and to identify it's characteristics.

Keywords:

Haman speech organ – Point of articulation – Characteristics of Sounds – Sub-letters characterizes.

تمهيد

قدّم علماء الأصوات المحدثون دراسة تشريحية لأعضاء النطق الإنساني، تمثّلت في الوصف الدّقيق والمفصّل للمواضع التي يتمّ عندها اقتطاع الصوت بالاستعانة بوسائل جدّ متطوّرة لم تكن ميسّرة لعلمائنا القدامى، منهم ابن جني ، والذين انحصر وصف جهاز النطق الإنساني عندهم في بيان مخارج أصوات العربية، والتعرّف على صفاتها .

وبما أنّ الأبحاث الحديثة بيّنت أنّ التعرّف على صفات الأصوات عملية مرتبطة بجهاز النطق، ولفهم عمليتي تحديد المخارج ، و التعرّف على الصفات) بات من الضروري التحدّث، ولو باختصار عن جهاز النطق الإنساني، وقد شكّل هذا النوع من الدراسات فرعا خاصّا يعرف بعلم الأصوات النطقي (LA PHONETIQUE ARTICULATOIRE ، وهو يهتمّ بدراسة حركات أعضاء النطق من أجل إنتاج أصوات الكلام، أو .. يعالج عملية إنتاج الأصوات اللّغوية، وطريقة هذا الإنتاج ومن المعلوم أنّ لهذا الجهاز أدوارا أخرى لا تقلّ أهمّية عن عمليّة النطق التي تعدّ عملية عرضية لجهاز التنفّس، حتّى قيل بأنّ تسمية هذه الأعضاء بالجهاز النطقي فيها تجوّز كبير .

وقد رأيت أن أوجز الحديث عن أعضاء النطق بالقدر الذي وجدته عند ابن جني) إلا فيما تحتاج إليه بعض المسائل من الشرح والتفصيل، وهذا عرض لمخارج الأصوات مثلما وردت في سرّ الصناعة .

ـــ مخارج الحروف :

يطلق مخرج الحرف على النقطة التي يلتقي عندها طرفان من جدران أعضاء النطق ليمرّ الهواء بينهما [i] ومن هذا التعريف نرى أنّ الحديث عن مخارج الحروف يتطلّب منّا القيام بوصف تشريحي لهذه الآلة المنتجة للصوت البشري المتمثّلة في جهاز النطق .

لم يتحدّث علماء العربية المتقدمين أمثال الخليل بن أحمد وسيبويه وابن دريد صراحة عن جهاز النطق الذي يحدّد عندهم من أقصى الحلق إلى رأس الشفاه ، و لم يشذّ ابن جني عن هذا التقليد فقد رتّب ابن جني) هو الآخر مخارج الحروف البالغ عددها عنده ستة عشر مخرجا ، من أقصى الحلق إلى الشفتين، ثلاثة منها في الحلق، من هذا نظن أنّ أوّل أعضاء جهاز النطق هو الحلق، لكن المتأمّل في تعريف الصوت الذي ذكر فيه أنّ الصوت يخرج مع النفس، والنفس مركزه الصدر، وعلى هذا نرجّح أن يكون أوّل عضو يشارك في عملية التصويت عند ابن جني) هو الصدر، ولعلّ عدم التصريح به هنا يعود إلى أنّه لا يحتوي على مخارج .

يليه في الترتيب أوّل الأعضاء ذات المخارج، وهو الحلق، بحيث يضمّ ثلاثة مخارج هي : أسفل الحلق مخرج الهمزة، والألف، والها .

وترتيب الأصوات هذا هو ما يراه سيبويه ، ويختلف فيه مع أبي الحسن) الذي يرى أنّ ترتيبها الهمزة، وأنّ الهاء مع الألف لا قبلها ولا بعدها، رأي يرفضه ابن جني) بدليل أنّه " متى حرّكت الألف اعتمدت بها على أقرب الحروف منها إلى أسفل، فقلبتها همزة، ولو كانت الهاء معها لقلبتها ها " [i] . فلمّا قلبتها العرب همزة دلّ هذا على أنّها بعد الهمزة وقبل الهاء لا معها .

وهنا نرى كيف أنّ استخدام الحركة يعين على التعرّف بدقّة على مخرج الصوت بعد أن وجدنا ابن جني يثبت أنّ الحركة توتّر في الصوت وتجتذبه إلى جهة مخرجها هي [ii] ، فكما أنّ للسكون دورا في التعرّف على مخرج الصوت، نجد للحركة أيضا دورا خاصّا يساعد في تحديد المخرج بدقّة .

الحيّز الثاني هو وسط الحلق، وهو مخرج لحرفين هما العين والحاء غير أنّ الحاء مهموس، والعين مجهور .
ثالثهما، أدنى الحلق، وهو مخرج الغين والخاء، وقد ضمّ إليهما بعض الباحثين المحدثين حرف القاف وسمّى الثلاثة الأحرف اللّهوية[iii] والملاحظ أنّ ابن جني لم يذكر لفظة أدنى الحلق، بل فضّل أن يذكر وسط الحلق، وهو مخرج العين والحاء، ثمّ يقول : وممّا فويق ذلك مع أوّل الفم مخرج الغين والخاء " ، ربّما فعل هذا ليعلم القارئ أنّ العضو الموالي هو الفمّ، وأنّ هذه الأعضاء ليست منفصلة تمام الانفصال عن بعضها بعض .
ثالث الأعضاء هو الفمّ، وهو يضمّ مجموعة كبيرة من مخارج أصوات اللّغة، وينقسم إلى أوّل الفم، ووسط الفمّ، ومقدّم الفمّ، وهو يحتوي على ثلاثة أقسام كبرى هي : اللّسان، والثنايا، والشّفتان، يضمّ اللّسان وحده سبعة مخارج تتوزّع على النحو الآتي :

— من أقصاه أي أصله مخرج القاف .
— مقدّم الفمّ، مخرج الكاف .
— من وسط اللّسان مع ما يقابله من أعلى الحنك مخرج الجيم، والشين، والياء، علما أنّ هذه الياء، ياء صامتة وتختلف عن ياء المدّ، والتي هي كسرة مشبع .

ومن أول حافة اللّسان، وما يليها من الأضراس مخرج الضاد، وهذه الضاد امتازت عن بقيّة الحروف بأنّه في إمكانك أن تخرجها من الجانب الأيمن، وإن شئت أن تتكلّف " من الجانب الأيسر من اللّسان، وهذا الصوت الذي انفردت به اللّغة العربية حتى عرفت به، وأسميت لغة الضاد " وهو كما ترى يتميّز عن بقية الأصوات بأنّه يكون من حافّة اللّسان، أو من جانبيه، أي من الجانب الأيمن أو الجانب الأيسر من اللّسان . ولو لا حركة اللّسان وما قابله من الأضراس لما تمكّنت من إصداره، هذا الوصف لا يوافق نطق العرب اليوم لهذا الصوت، ممّا أثار الكثير من الجدل بين علماء الأصوات المحدثين الذين رأوا بأنّ هذا الصوت اضمحلّ من الألسن العربية المعاصرة التي فقدت نطقه تماما، في حين يرى آخرون أنّه تحول إلى ظاء عند قوم، وإلى دال مفخمة عند الآخرين، وإلى طاء كما في لهجات المغرب[i] .
وأعلى من مخرج الضاد، من حافة اللّسان من أدناها إلى منتهى طرف اللّسان من بينها، وبين ما يليها من الحنك الأعلى ممّا فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام، ومن طرف اللّسان والثنايا مخرج النون . ومن هذا المخرج غير أنّه أدخل في ظهر اللّسان قليلا، لانحرافه إلى اللام مخرج الراء .
وتوجد ثلاثة مخارج تنحصر بين اللّسان والثنايا :

— بين طرف اللّسان وأصول الثنايا مخرج حروف الصفير : الصاد، والزاي، والسين .
— بين طرف اللّسان وأطراف الثّنايا مخرج الظاء، والذال، والثاء .
— مخرج واحد يقع بين الثّنايا والشفة السفلى، هو مخرج الفاء .
— وآخر يتمركز على مستوى الشفتين هو مخرج الباء، والميم، والواو .

وقد رأى بعض المحدثين أنّ الوصف الدقيق يقتضي أن يقال عن مخرج الواو " أنّه من أقصى الحنك لأنّ اللّسان يقترب من هذا الموضع عند النطق بالواو " [ii] . واعتذر آخر لما يمكن أن يعدّ عدم دقة ملاحظة، أو خطأ في تحديد المخرج بالقول :" ويبدو أنّ العلماء العرب قد شغلهم وضع الشفتين في النطق بالواو عن تحسّس موضع اللّسان مع الحنك ولعلّ الذي أعان على إغفالهم دور أقصى الحنك واللّسان أنّ الشّفتين واضحة جدّا وأنّ اللّسان لا يقترب بصورة واضحة من الحنك [iii] . وللتأكيد من هذا جرّبنا مرارا نطق الواو " فكان ما لاحظناه هو استدارة الشفتين، وحركة جدّ خفيفة للّسان لا تكاد تذكر أمام هذه الاستدار .

وآخر المخارج يوجد على مستوى الخياشيم وهو مخرج النون، وهذه النون تختلف عن تلك التي ذكرها بين اللام والراء، وينبغي أن يلاحظ أنّه لا يريد بوصف الساكنة التي تسكن بعد حركة أو التي يمكن تحريكها فتلك سبق الكلام عليها بين اللام والراء، وإنّما يريد بها النون التي تسمع خفيفة من غير إدغام أو إظهار، ووصفها بالساكنة لأنه حينئذ لا تكون متحركة البتّة ويكون خفاؤها إذا جاءت متبوعة بحرف من خمسة عشر حرف [iv] .

وهكذا تمّت مخارج الحروف العربية البالغ عددها عند ابن جني ستة عشر مخرجا، والملاحظ أنّ ابن جني بيّن بدقة كبيرة الأعضاء المساعدة في تحديدها، فمثلا نرى أنّ المخرج الذي يكون بين طرف اللّسان والثنايا ثلاث مجموعات تختلف عن بعضها بعضا في الصفات، فبين طرف اللّسان وأصول الثنايا مخرج الطاء، والدال، والتاء، وبين الثنايا وطرف اللّسان مجموعة حروف الصفير الصاد، والزاي والسين [v] ، وبين طرف اللّسان وأطراف الثنايا مجموعة الحروف الظاء، والذال، والثاء، وهكذا نرى أنّه كلّما ابتعدنا عن الثنايا وبمساعدة حركة اللّسان ووظيفته المهمّة في إنتاج العديد من أصوات العربية، سمة تفطّن لها علماء العربية قديما، فأطلقوا على اللغة، مصطلح لسان ، فكانوا يقولون " اللّسان العربي " يقصدون " اللّغة العربية " مصداقا لقوله تعالى :" لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسان عربيّ مبين [vi] .

وفي ترتيبه للمخارج ذكر ابن جني مخرج النون، ثمّ مخرج الراء، في حين نجده في ترتيبه حروف المعجم جعل الراء أولا . هذا الترتيب للمخارج لا يختلف عن ذاك الذي أثبته سيبويه في الكتاب ، الذي يراه ابن جني ترتيبا صحيحا، في حين يرى في الترتيب المرويّ عن الخليل في معجم العين فيه خطل واضطراب [vii] ، مدحضا آراء أولئك الذين خالفوا ترتيب سيبويه كالأخفش الذي يرى بأنّ الألف والهاء لهما المخرج نفسه، حيث أثبت ابن جني أنّ الهاء تأتي بعد الألف في الترتيب .

والملاحظ أنّ ابن جني يربط في كثير من الأحيان مخرج هذا الصوت، بالمخرج السابق أو اللاحق له، وقد نجد بعضا من مخارج أصوات العربية لا توافق وصف المحدثين لها وهو ما اعتبره بعضهم خطأ في التقدير، ووقف بعضهم الآخر موقفا معتدلا فأرجعه إلى التطوّر الذي أصاب الأصوات، في حين يرى آخرون أنّه ربّما يكونون أي الأقدمون وصفوا أصواتا من اللّهجات العربية، ولم يصفوا أصواتا من الفصحى، وخاصة الأصوات القاف، والطاء، والضاد ، وهو رأي أقرب إلى الصواب، مع عدم تجاهل الرأيين السابقين اللّذين ربّما يكون لهما أيضا دور في التّأثير على تحديد المخارج .

والجديد الذي أضافه ابن جني يتمثّل في وصفه الحروف الفرعية المستحسنة، مبتدئا بالنون الخفيفة أي الساكنة، والتي مخرجها من الأنف، بخلاف النون المتحرّكة التي هي من حروف الفم متميّزة ببعض الغنّة من الأنف، مبيّنا بطريقة تقليدية كيف نتمكّن من التمييز بين هذين المخرجين المختلفين، ويدلّك على أنّ النون الساكنة إنّما هي من الأنف والخياشيم، أنّك لو أمسكت بأنفك، ثمّ نطقت بها لوجدتها مختلّ . وأما النون المتحرّكة فمن حروف الفم، كما قدّمنا، إلاّ أنّ فيها بعض الغنّة من الأنف[viii] .

وهذه الصفة التي امتازت بها النون عن بقية الحروف الأخرى لم يطل ابن جني الحديث عنها، فكلّ ما ذكره عنها أنّ مصدرها الخياشيم .

ينتقل بعد هذا إلى الهمزة المخفّفة والتي يطلق عليها سيبويه مصطلح همزة بين بين" مبيّنا غرض سيبويه من هذا قائلا " أي ضعيفة ليس لها تمكّن المحقّقة ولا خلوص الحرف الذي منه حركتها " [ix] ، إذن هي همزة بين الهمزة وبين الحرف الذي منه حركتها، وتتوقّف طبيعة هذه الهمزة على نوع الحركة القصيرة التابعة لها، فهي همزة ضعيفة ضعف الحرف الساكن، أي ليس لها تمكّن المحقّقة مع ذلك فهي بزنة المحقّقة، مقدّما أدلّة من فصيح الشّعر لتدعيم رأيه، منها قول كثير[x] :

أأن زمّ أجمال وفارق جيرة   وصاح غراب البين أنت حزين؟

فوزن أأن ز ": فعولن، الهمزة مقابلة لعين فعولن، وهي متحرّكة، وهكذا نرى أنّ هذه الهمزة التي قربت من الساكن تعتدّ في وزن العروض حركة، وهو استدلال علمي قويّ لجأ إليه ابن جني للتعليل لخاصية صوتية تتّصف بها الهمزة المخفّفة التي هي من الحروف الفرعية المستحسنة في قراءة القرآن، وفي الشّعر، تلحق بالحروف الصّحاح، بالاستعانة بعلم لغوي بعيد عن علم الأصوات . فابن جني يأخذ من العلوم التي يحسن لتوثيق رأيه، بل رأي سبقه إليه لغويون كبار دون إيراد تعليل له، وهي سمة تؤكّد إيمانه القويّ بتكامل العلوم بعضها بعضا، حسب رأيه الصريح[xi] .

ويتمثّل الحرف الفرعي الآخر في ألف الإمالة التي تجدها بين الألف والياء، نحو قولك في عالم وخاتم، عالم وخاتم .

بالإضافة إلى ألف التفخيم، وهي الألف التي تكون بين الألف، وبين الواو، وعلى هذا كتبوا الصلـــ ـــــــوة، والزكـ ـــوة، والحيـ وة بالواو لأنّ الألف مالت نحو الواو .

حرف آخر من الحروف الفرعية المستحسنة هو الشين التي كالجيم فالشّين يقلّ تفشيها واستطالتها، وتتراجع قليلا متصعّدة نحو الجيم، أي تقترب قليلا إلى الأمام نحو مخرج الجيم، والحرف الفرعي الأخير الذي وصفه ابن جني هو الصاد التي كالزاي، من مثل قولهم في يصدر وقصد، يزدر، وقزد، إذ تخلصها بعض العرب زايا إذا كانت ساكنة، أمّا إذا كانت متحرّكة فيجوز فيها إشمامها رائحة الزاي، وهذا كلّه يجوز في حالة ما إذا وقعت الصاد قبل الدال، فإن وقعت قبل غيرها لم يجز ذلك فيه[xii] .

وبهذا نكون قد أنهينا ذكر مخارج الحروف الأصلية منها والفرعية المستحسنة، دون التعرّض للفروع المستقبحة لأنها مهملة غير مستعملة، ولأنّ الأمر سوف يكون طويلا وخارجا عن غرض الكتاب الذي يسعى فيه صاحبه إلى تعليم الفصحى لا الحديث عن اللهجات، وخاصّة إذا كانت مرذولة، فمن رأينا أنّ مجرّد الإشارة إليها بذكر عددها، والتنبيه عليها يكون كافيا للوقاية من الوقوع في استعمالها باعتبارها من اللّغة الفصحى .

ومن هذه المخارج يمكن استنتاج أعضاء جهاز النطق الإنساني مثلما يرى ابن جني وهي مرتبة من الحلق إلى الشفتين :

1 – الصدر : هو مصدر الصوت عند ابن جني، ليس بمخرج ولكنّه يوفّر الهواء الذي بفضله يحدث تصويت .

2 – الحلق وهو ينقسم عنده إلى : أقصى الحلق، ووسط الحلق، والقسم الثالث الذي يطلق عليه بعضهم مصطلح أدنى الحلق " يذكره ابن جني بالقول : " وممّا فويق ذلك أي وسط الحلق مع أوّل الفمّ مخرج الغين والخاء "

3 – الفم : يذكر مقدّم الفمّ

4 – اللسان، وهو ينقسم إلى : أقصى اللسان، ، ووسط اللّسان، وأوّل حافة اللسان، ومنتهى طرف اللسان .

5 – الثنايا، وهي تضم : أصول الثنايا، وأطراف الثنايا .

6 – الشفتان

7 – الخياشيم

بعد ما تحدّثنا عن علم الأصوات في القرن الرابع الهجري من خلال سرّ الصناعة) وتعرّفنا على جهاز النطق ومختلف أقسامه، حسبما حمله لنا سرّ الصناعة) لابن جني) من خلال حديثه عن مخارج أصوات العربية، ننتقل مع لندرسي (في مبادئ الصوتيات) لنتبيّن من خلاله الوجهة العلمية التي اتخذها علم الأصوات الحديث الذي لم يعد يكتفي بوصف الأصوات وتبيّن مخارجها فقط، بل أصبح يعتمد على معطيات علم التّشريح، فيبادر بوصف جهاز النطق الذي يقسّم إلى ثلاثة أقسام كبرى، تحلّل بعناية، للنظر في الأعضاء المشاركة في عملية النطق من خلال تشريحها بدقّة كبيرة للتعرّف على الوظيفة الحقيقية لكلّ عضو لأنّ عملية الكلام هي نتاج عمل العديد من الأعضاء، بقي العديد منها مجهولا، أو لا تعرف له وظيفة قبل تطوّر علم التّشريح في العصر الحديث .

— جهاز النطق وأهمّ أقسامه : لقد درس علماء الأصوات — إذن — في العصر الحديث جهاز النطق دراسة علمية دقيقة وعرفوا أجزاءه عضوا عضوا بمساعدة علوم أخرى، كعلم الطب وخاصّة التّشريح، فوجدوا أنّه يتكوّن من الأقسام الرئيسية الآتية[xiii] :

— عضلات الصدر والبطن والحجاب الحاجز والرئتان والقصبة الهوائية التي تكون مصدر الطاقة اللازمة لإنتاج الأصوات الكلامية، ويمكن تسميتها بالمنفاخ تحت المزماري C'est la souflerie subglotique)

— الحنجرة Le larynx) عضو مسؤول عن التّصويت، يعدّ بمثابة صمّام ينظّم تدفّق تيار الهواء ويمكن تسميتها بالمصدر الصوتي C'est la source vocale).

— تجاويف الحلق والفم والأنف، وهي تقوم بدور حجرات الرنين وفيها يتمّ إنتاج معظم الضوضاء التي تستعمل في الكلام، ويمكن تسميتها بحجرات الرنين فوق المزماري .

فالأصوات اللغوية تنتج بفضل مجرى الهواء المندفع على طول قناة التنفّس، وهو ما عبّرنا عنه في السابق بالصدر، وتجويف الحلق والفمّ، وهي تختلف باختلاف مواضع أعضاء النطق وتحرّكاتها، أثناء اصطدامها بمجرى الهواء، وقبل التطرّق لدور هذه الأعضاء ارتأينا أنّه من الواجب التعرّف على بنيتها وطبيعتها أخذا بسنّة علماء الأصوات المحدثين .

— أعضاء التنفّس :

مثلما تبيّنا مع ابن جني) أنّ الأصوات اللغوية لا تنتج إلا بتوفّر هواء منبعث من الصدر[xiv] فإنّ النظريات الحديثة تشدّد هي الأخرى على أنّ إنتاج الأصوات اللغوية لا يتمّ إلا بوجود مجرى هواء مندفع، وذلك بفضل عمليات تشريح مختلف الأعضاء المساعدة في إصدار الصوت، فأظهرت أنّ الأعضاء التي تتوفّر هذا الهواء هي :

— الحجاب الحاجز : هو عضلة مسطّحة على هيئة صفحة من الورق، تمتدّ بين عظم القصّ والعمود الفقري عند الخاصرة مكسوة بنسيج غشائي أبيض، ولأنّه يفصل بين الأعضاء الأخرى كالرئتين والقلب وغيرهما سمي بالحجاب الحاجز[xv] .

ــ الرئتان : تقومان باستقبال الهواء وإخراجه، والرئة عبارة عن جسم مطّاطي قابل للتمدّد والانكماش بفضل حركات الحجاب الحاجز من جهة والقفص الصدري من جهة أخرى، ويندفع الهواء منهما إلى القصبة[xvi] .

ــ القصبة الهوائية : لها شكل أسطوانة (cylindre) مفلطحة من الخلف، مكوّنة من حلقات غضروفية متّصلة فيما بينها بواسطة غشاء مخاطي، وهي تقع بموازاة العمود الفقري .

2/ الحنجرة : عضو أساسي في التّصويت، بل مصدر الصوت لأنّها تحوي الوترين الصوتيين المسؤولين عن إنتاج الأصوات، ولهذين الوترين القدرة على اتّخاذ أوضاع متعدّدة تؤثّر في الأصوات الكلامية "[xvii] ، ووضع الأوتار الصوتية هو الذي يحدّد هيئة فتحة المزمار .

الأوضاع التي تتّخذها الأوتار الصوتية تتلخّص على النحو الآتي[xviii] :

ــ قفل مجرى الهواء .

ــ الامتداد .

ــ الارتخاء التامّ أثناء التنفس العادي .

وهذه الأوضاع المختلفة للأوتار الصوتية تعود لبنيتها المطاطية التي تسمح لها بأن تدخل في اهتزازات تنتج متتالية دورية، وذلك بفضل نفخات الهواء التي يوفّرها الدفق الحنجري المحرّض للتجاويف فوق المزمارية . وهذا الهواء هو الذي يكون منبع الأصوات المجهورة الناتجة عن اهتزازات دورية) للكلام، ويمكن أن نقول في كلمة واحدة أنّها تنتج الصوت (la voix)[xix] ، بالإضافة إلى هذه الوظيفة الأساسية للحنجرة فهي تمنع دخول الأجسام الغريبة للقصبة وقد تستغلّ كحجرة رنين حسبما بيّنته البحوث الحديثة .

3/ التجاويف فوق المزمارية (التجاويف الحنجرية) :

هي قناة وتسمى أيضا بالقناة الصوتية (canal vocal) تلعب في الأساس دور جهاز رنّان في إنتاج الأصوات الكلامية، وفي هذا المستوى يتمّ تعديل الدفق الحنجري وهذه القناة الصوتية عبارة عن أنبوب فيزيائي بفرع متغيّر، محدّد من جهة بالأوتار الصوتية، ومن جهة أخرى بالشفتين، وينقسم إلى قسمين كبيرين هما البلعوم والفم[xx] .

أ) البلعوم (le pharynx) : هو تجويف يقع بين الحنجرة والحنك الليّن (أو الطبق) ويقوم بدور الموزّع أي مفترق طريقي المريء والقصبة، محاط بجدران عضلية تسمح بتعديل الحجم والشكل . يلعب دور الموجّه لمصدر الصوت والمفخّم له ويقوم بدور آخر أقلّ أهمية في معظم اللغات لكنّه مهمّ في اللغة العربية هو دوره كموضع نطق لبعض الأصوات (صوتي العين والحاء)[xxxi]

ـــب) الفم (la bouche) : أهمّ تجاويف القناة الصوتية، وفيه يتمّ إنتاج معظم الأصوات الكلامية، تحيط به عضلات تغيّر من حجمه وشكله وفيه أيضا أعضاء تقوم بأدوار رئيسية في إخراج الأصوات الكلامية وهي سقف الحلق والأسنان واللّسان والشفتان[xxxii]

- ــ اللسان (la langue) : له دور أساسي في التصويت وبفضل حركاته هو الآخر يتغيّر شكل الفمّ وحجمه وهو عضو أملس يتكوّن من سبع عشرة عضلة موصولة بالعظم اللاّمي (l'os hyoïde) وهيكل ليفي، ارتفاعه يحدّد طول البلعوم، فكلّما كان اللّسان منخفضا كلّما كان البلعوم قصيرا، بالإضافة إلى هذا فإنّ تحرّكه إلى الوراء أو إلى الأمام يحدّد طول القناة الصوتية[xxiii] . ويقسم عادة اللّسان إلى أقسام تبيّناها مع (ابن جني)[xxiv] .

ــ الشفتان : هي أعضاء شديدة الحركة تساهم في إنتاج العديد من أصوات اللغة التي تدعى بالأصوات الشفهية .

) التجاويف الأنفية es cavités nasales : تعتبر حجرة رنين بشكل وحجم ثابت، تتصل بالقناة الصوتية، تتكون من أنبوبين تصل المنخرين بالبلعوم[xxv] .

ولها هي الأخرى دور في إنتاج بعض الأصوات، فتلوّنها بميزة تدعى على إثرها الأصوات خيشومية، صامتة كانت الأصوات أو مصوّتة في بعض اللّغات .

وهكذا فإنّ الكلام ينتج عن عمليات معقّدة مبتداها التجويف الصدري الذي هو بمثابة منفاخ يحوي الهواء الذي تنظّم الحنجرة تدفقه فهي مصدر التصويت لاحتوائها الأوتار الصوتية، التي تهتزّ بتحريض من الهواء المنبعث من الصدر، بالإضافة إلى بنيتها المطاطية وهي الاهتزازات التي تنتج الصوت a voix ، وتبعا للأوضاع التي تتخذها هذه الأوتار من قفل مجرى الهواء، وامتداد، وارتخاء تتباين الأصوات المنتجة مع الأخذ في الاعتبار العمل الذي تقوم به التجاويف فوق المزمارية التي تحدّد نهائيا طبيعة هذا الصوت وقد ثبت عن طريق التحليل الأكوستيكي للكلام أنّ الاختلافات الصوتية التي يمكن إدراكها تعود إلى :

) درجة الصوت المتكوّن في الحنجرة بالنسبة للأصوات المجهور .

ب) اختلافات الموجات الصوتية تبعا لاختلاف مكان النطق، ولاختلاف الشكل الكلّي لتجويف ما فوق الحنجرة أثناء نطق الأصوات[xxvi] .

وهكذا نكون قد تبيّنا وظيفة جهاز النطق بمختلف أجزائه وكيفية صدور الصوت اللّغوي الذي ينتجه الإنسان دون وعي منه، بتوفّر شروط في مقدّمتها إرادة الإنسان وسلامة كلّ الأعضاء المصوّتة، ولعلّ أهمّها توفّر الهواء الذي لا يحدث بدونه تصويت .

وهنا ننبّه أنّ تردّد اهتزاز الأوتار الصوتية يتوقّف على ضغطها، وكتلتها من جهة، وعلى ضغط التجاويف فوق المزمارية من جهة أخرى، وقد بيّن ابن جني) أنّ الصوت الذي يؤدّيه وتر العود تتوقّف ملوسته واهتزازه على مجموعات الصفات المميّزة للوتر من قوّة، وصلابة، وضعف، ورخاوة[xxvii] . مثلما تبيّن إحدى النظريات الحديثة[xxviii] أنّ درجة اهتزاز الوترين الصوتيين في الحلق تتوقّف على الضّغط الواقع عليها، وعلى كتلتها، وعلى ضّغط التجاويف الأنفية .

الخاتمة :

لقد اعتمد علماء العربية القدامى في بيان مخارج الأصوات وصفاتها على الملاحظة الذاتية، إلا أنّ الدارس يتبيّن أن الكثير من النتائج التي توصّلوا إليها يؤكده العلم الحديث الذي يتوسل بالأجهزة الآلية المتطورة، ويعتمد على بعض العلوم التجريبية في مقدمتها علم الفيزياء وعلم التشريح .

قائمة المصادر والمراجع :

أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي، الناشر عالم الكتب، القاهرة، 1991
إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 990 ، ط1
براهيم خليل العطي : في البحث الصوتي عند العرب، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1983
ابن جني : سرّ صناعة الإعراب، دراسة وتحق : حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، ط2 ، 1993
ينظ : البدراوي زهران : في علم الأصوات اللغوية وعيوب النطق، دار المعارف، مصر، ط1 /1994
الدقاق، عمر : مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، منشورات جامعة حلب، ط3 ، 1977
حسن ظاظ : كلام العرب من قضايا اللغة العربي، دار النهضة العربية، بيروت، 1976
كمال بشر : علم اللغة، قسم الأصوات، دار المعارف، مصر، 1973
ماريو باي : أسس علم اللغة، ت : أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط1 ، 1987
النعيمي، سعيد حسا : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، 1980
: ELEMENTS DE PHONETIQUE, Didier, Bruxelles ALBERT LANDERCY

الهوامش :

1 - أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي، الناشر عالم الكتب، القاهرة، 991 ، ص98

2 - ماريو باي : أسس علم اللغة، ت : أحمد مختار عمر، ص 97

3 ــ حسن ظاظ : كلام العرب من قضايا اللغة العربي، دار النهضة العربية، بيروت، 976 ، ص 7

4 - الدقاق، عمر : مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، منشورات جامعة حلب، ط 5 977 ، ص 165

5 ــ ابن جي : سرّ الصناعة ا 52

6 ــ ابن جي : سرّ الصناعة ا 52

7 - ينظ : ابن جي : سرّ الصناعة ا /

8 - ينظ : كانتينو : دروس في علم أصوات العربية، ت : صالح القرمادي، نشريات مركز الدراسات والبحوث الجامعة التونسية، 966 ، ص 31

9 - ابن جي : سرّ الصناعة ا 52

10 ــ ابن جي : سرّ الصناعة ا 52

11 ــ ينظ : ــ كانتينو : دروس في علم أصوات العربية ص 37 ، وكذلك : ــ النعيمي، سعيد حسا : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، 980 ، ص308

12 ــ كمال بشر : علم اللغة، قسم الأصوات، ص 89

13 ــ النعيمي، حسام الدير : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص 310

14 - نفسه ص 311

15 ـ ينظ : إبراهيم سر : الأصوات اللغوية ص 77

16 ــ النحل 103

17 ــ ينظ : ابن جي : سرّ الصناعة ا 50

18 ــ ينظ : النعيمي : الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص 306 ن وكذا ص 315

19 ــ ابن جي : سرّ الصناعة ا 53

20 ــ . نفس ا 54

21 ــ . نفس ا 55

22 ــ ينظ : ابن جي : سرّ الصناعة ا 56

23 ــ ينظ : لندرسي : المبادئ ص 75

24 ــ ينظ : ابن جي : سرّ الصناعة ا 9

25 ــ إبراهيم خليل العطي : في البحث الصوتي ص 13

26 ــ ينظ : البدراوي زهراد : في علم الأصوات اللغوية وعيوب النطق ص 27

27 ــ إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 990 ، ، ص 17

28 ــ لندرسي : المبادئ ص 79

29 ــ . نفسه ص 79

30 ــ ينظ : لندرسي : المبادئ ص 80

31 ــ إبراهيم خليل العطي : في البحث الصوتي ص 20

32 ــ ينظ : لندرسي : المبادئ ص 80

33 ــ ينظ : نفسه ص 81

34 ــ ينظ : زهران البدراوي : في علم الأصوات اللغوية ص 52

35 ــ ينظ : لندرسي : المبادئ ص 81

36 ــ أحمد مختار عمر : دراسة الصوت ص 37

37 - ينظ : ابن جي : سرّ الصناعة ا 10

38 - نظرية التمطّط العضلي

xxxix

xl

علم الصوت السمعي في بعض كتب العرب المحدثين

Auditory phonetic in some modernist arabic books

الأستاذة : كلثوم حسروف
قسم اللّغة العربية وآدابها
كلية آداب واللّغات – جامعة البليدة 2

ملخص

يتكلم المقال عن أهمية علم الصوت السمعي، ومدى اهتمام بعض اللغويين المحدثين بهذا العلم من خلال دراسة بعض كتبهم ،لتبيان أنه لم يحظ بالبحث الواسع والدراسة المستفيضة كما حظي علم الصوت الفيزيولوجي وعلم الصوت الفيزيائي .

و تعتبر وظيفة السمع من الوظائف الرئيسية والمهمة للكائن الحي، فللسمع أهمية عظيمة في حياة الإنسان، والأذن هي أداة السمع وقد درست في مجال علم الصوت السمعي auditory phonetics الذي يعتبر فرع من فروع علم الصوت العام، كما اهتم العلماء قديما وحديثا بدراسة الصوت اللغوي بكل فروعه، فأثمر هذا الاهتمام كتبا قيمة مازالت فخرا للأمة العربية، وسندرس إحدى هذه الفروع في كتب المحدثين وعليه فقد كانت الإشكالية التي سنجيب عنه : ما هو حظ علم الصوت السمعي في كتب العرب المحدثين؟

الكلمات المفاتيح : الصوت - السمع – علم الصوت السمعي

Abstract :

The article speaks about the importance of science auditory phonetics , and ranges interest of some linguists in right path of the science through the study of some of their books showing wide research and
Elaboration on them .

Hearing considered to be among the important and crucial functions in the human life ; and the ear is an instrument of hearing . It was studied in auditory phonetics field which is considered to be a branch from general phonetics. Scientists were interested before and now about the study of the
Linguistic sound with all his branches . So ; the more fruitful interest brings valuable works honored the arabic nation and one will study one of these branches in modernist books.Thus ; was the following question which we are about to answer. What is the importance of auditory phonetics in modernist books ?

Words Key:
Sound – audition - auditory phonetics

لقد ظهر الاهتمام بدراسة الصوت اللغوي عند القدماء في وقت مبكر ، تجلت معالمه في عصر **الخليل بن أحمد الفراهيدي** الذي حدد في كتابه العين) مخارج الأصوات، ثم تلاه تلميذه **سيبويه** ، فدرس كذلك أصوات العربية والظواهر الصوتية ،وتبع **سيبويه** في هذا المضمار سائر اللغويين الذين جاؤوا بعده، ومن أبرزهم **ابن جني** الذي أفرد مؤلفا خاصا بالأصوات أسماه سر صناعة الأعراب ، كما أن علماء القراءات والتجويد والنحو والبلاغة، وحتى الفلاسفة تنبهوا إلى الدراسات الصوتية، فحوت كتبهم وأبحاثهم مصطلحات صوتية، تنتظر من يتجشم عناء البحث عنها، وإخراجها من صفحات، بل من رفوف المكتبات لإثبات حقيقة مفادها ، أن علمائنا القدماء بمختلف اتجاهاتهم درسوا الصوت اللغوي دراسة واعية ومن جميع أبعاده الفيزيولوجية والفيزيائية والسمعية والفنولوجية، والأبحاث الأكاديمية، ومشاريع الدراسة الصوتية في مخابر البحث على مستوى كل جامعات الجزائر تدل على ذلك .

أما الصوت الذي نتكلم عنه فهو ذلك الأثر السمعي الذي تحدثه تموجات ناشئة من اهتزز جسم ما، أو بعبارة أخرى هو ظاهرة سمعية تنتج عن اهتزازات جسم معين تولد موجات في وسط معين ينقلها إلى الأذن، وقد فرق العلماء بين نوعين من الأصوات : النوع الأول هو الصوت الطبيعي وهو ما يصدر عن كل ظواهر الطبيعة وكل الموجودات فيها، ويحدث من تلقاء نفسه، ملازما لغيره كصوت الرعد، وخرير المياه وحفيف الأشجار .. أما النوع الآخر هو الذي يتولد عن قصد مقصود كالذي يصدر عن الإنسان والحيوانات والمنبهات .. من هنا يمكن تقسيم الاصطناعي إلى قسمين آخرين أيضا وهم : الصوت الآلي، كأصوات المحركات والمنبهات والآلات الموسيقية وآخر فيزيولوجي عضوي ... وينقسم الفيزيولوجي إلى فرعين أيض : صوت إنساني وآخر حيواني ... وينقسم الصوت الإنساني إلى قسمين : الأول منهما لغوي وآخر غير لغوي وهذا وفق الرسم التالي :

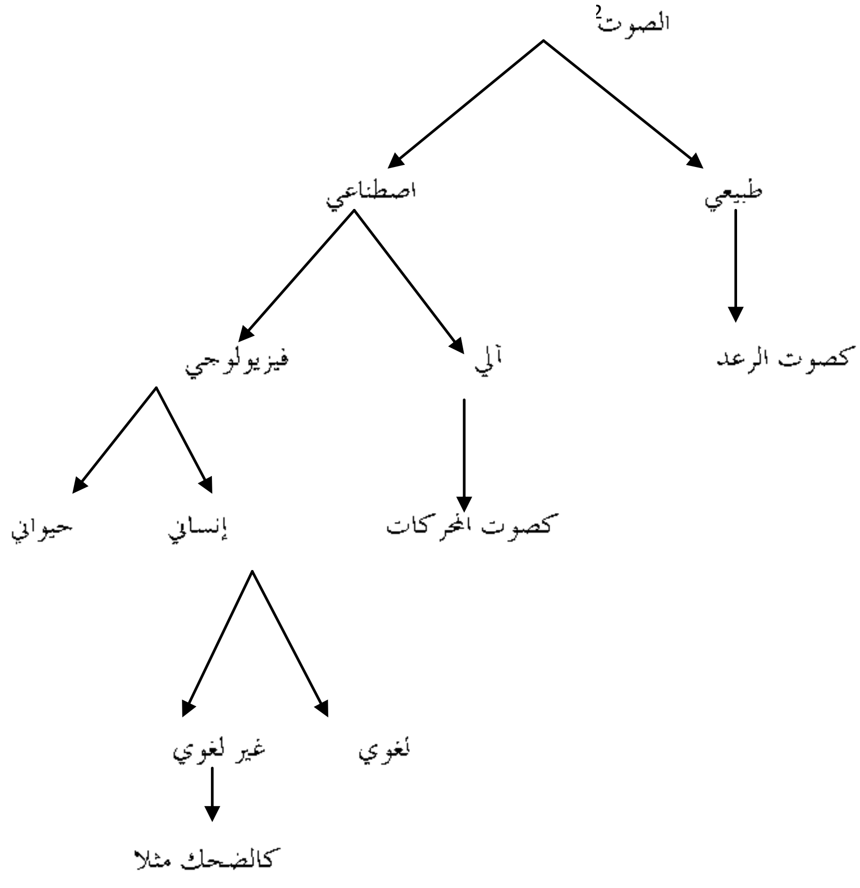

والصوت اللغوي هو ما يهمنا هنا، والعلم الذي يدرسه يسمى علم الصوت " حيث يعنى بالخصائص المميزة للأصوات الإنسانية ، وانتقالها عبر وسط ما، وإدراك السامع لها، كما يهتم بالصفات المشتركة للأصوات في جميع اللغات، وهو يرتبط بفروع أخرى من المعرف : كعلم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء، وعلم النفس وغيرها، يقول الدكتور **عبد القادر عبد الجليل** : يدرس علم الأصوات الصوت الإنساني بصورة عامة، باعتباره مادة حية ذات تأثير سمعي إن هذه الدراسة لا تشمل بطبيعتها النظر في الوظيفة الصوتية ولا القوانين التي تحكم بنيتَها، وإنما تنصب على الكيفية التباينية لطبيعة النتاج الصوتي وانتقاله ومن ثم استقباله "[3] إذًا فعلم الأصوات هو علم يدرس الأصوات البشرية بمعزل عن الوظائف اللغوية التي تؤديها، وهو يتفرع إلى ثلاثة فروع : علم الصوت الفيزيولوجي، وعلم الصوت الفيزيائي، وعلم الصوت السمعي .

وقد اخترنا الكلام عن علم الصوت السمعي، لأن أهمية دور السامع في العملية الكلامية لا تقل عن أهمية دور المتكلم، كما أننا وجدنا أن المكتبة العربية تكاد تخلو من كتب تدرس بصفة خاصة، ومركزة ودقيقة علم الصوت السمعي، أو تاريخه عند القدماء والمحدثين ،أو موضوعاته، لذلك سلطنا الضوء عليه، لدراسته في كتابات العرب المحدثين، بالوقوف على جوانب هذا العلم وأبعاده عندهم من جهة، ومنهجهم في دراسته من جهة أخرى .

وقبل أن نبدأ ما نحن عازمين عليه ،كان لابد أن نشير إلى مسألة تسمية هذا العلم ،لأننا وجدنا أن هناك من اللغويين من يطلق اسم علم الصوت السمعي على علم الصوت الفيزيائي " ،ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الدكتور " **روعة محمد ناجي** " في كتابها علم الأصوات) ، والدكتور **علي حسين خليف** ' حيث يقول ومهما يكن من أمر فعلم الأصوات السمعي فرع من فروع علم الأصوات العام يختص بدراسة الخصائص المادية الطبيعية لأصوات الكلام أثناء انتقالها من المتكلم إلى السامع"[4] وهذا تعريف علم الصوت الفيزيائي لأنه مايهتم بإنتقال الذبذبات من المتكلم إلى أذن السامع .

ومن اللغويين وعلى رأسهم **كمال بشر** "[5] من يرى أن لعلم الأصوات السمعي جانبين : جانب عضوي يقع في مجال علم وظائف أعضاء السمع hysiology of hearnining ،وجانب نفسي ميدانه الحقيقي هو علم النفس ، وهناك من يضم الجانبين تحت اسم علم الأصوات النفسي sychlogical phonetics مرجحين بذلك الجانب النفسي على الجانب الاخر

ونحن نقصد بعلم الصوت السمعي ، العلم الذي يهتم بالعملية السمعية، وجهاز الاستقبال من حيث تشريحه والأمراض التي تصيبه، وكيفية التقاطه للذبذبات الصوتية، فإذا حاولنا دراسته بهذا المفهوم في كتب العرب المحدثين، نجد أن معظمهم يشير إليه بشكل مقتضب في بضع صفحات مع نقل شكل يبين الأجزاء الرئيسية للأذن، اللهم إلا بعض المحاولات الجادة التي سنشير إليها في مكانها، وقد حاولنا دراسة بعض الكتب - التي توفرت عند – لمعرفة مدى اهتمامهم بهذا العلم، وهذا بيانها حسب الترتيب لسنة صدور الكتاب :

1 **كتاب أطلس أصوات اللغة العربية _ لوفاء محمد البيه** "[6] ؛ يتكلم على مدار خمسة وعشرين صفحة عن جهاز السمع، وفسيولوجيته وأهميته في إدراك الأصوات، كما ينقل رسومات تشريحية لكل أجزاء الأذن مهما كانت صغيرة، لكنها غير مترجمة بل نقلها باللغة الإنجليزية، وما يحمد له أنه - ر: – الكتاب الوحيد الذي فصل الكلام في فسيولوجية جهاز السمع بالصور الكثيرة والدقيقة لكنه لم يتطرق للأمراض التي تصيب الأذن وكيف تؤثر على عملية السمع وبالتالي على عملية التواصل ككل، بل لا يذكر أبدا أن هناك فرع من علم الأصوات العام يسمى علم الأصوات السمعي .

2 **دراسة الصوت اللغوي ـ لأحمد مختار عمر "** : يفرد الفصل الثاني من الكتاب للحديث عن علم الأصوات السمعي ، فيتكلم أولا عن تشريح جهاز السمع وتقسيمه إلى ثلاثة أجزاء ؛مع رسم وحيد يبين الأجزاء الرئيسية للأذن ، ثم يعرج ثانيا للكلام عن العملية السمعية كيف تتم؟ مع رسم يبين مجال السمع عند الإنسان في إطار حدود التردد والشدة لكل النغمات المسموعة، وعليه فقد حاول على مدار سبع صفحات أن يعطي معلومات قليلة عن هذا العلم، وهو يقر بوجود من يشك في قيمة هذا العلم نظرا لأنه لم يحقق حتى الآن تقدمًا كبيرا ، ولعل هذا السبب الذي جعله لا يدرس هذا العلم دراسة مستفيضة .

3 **الأصوات اللغوي ـ لعبد القادر عبد الجليل "** يدرس على مدار ست صفحات جهاز السمع تشريحا، بذكر اسم العضو بالعربية ثم بالإنجليزية، ثم يعرفه تعريفا موجزا مع نقل تسع صور للأجزاء الرئيسية للأذن، و هو يرى أن علماء الدراسات الصوتية أولوا أهمية بالغة في دراسة جهاز السمع والعملية السمعية [0] ، ولكن هذا مستبعد لأننا من النادر أن نجد بحثًا صوتيًا يعرض لهذا العلم ومشكلاته، بل أن بعض اللغويين لم يهتموا بهذا الفرع السمعي وأسقطوه من الحسبان، ومن تكلم عنه يعيد نفس المعلومات في عدة صفحات فقط .

4 **علم الأصوات ـ لكمال بشر "**[1] تطرق **كمال بشر** " لدراسة، علم الصوت السمعي بطريقة مركزة عمن سبقه، حيث يقر بأنه أحدث فروع علم الأصوات على الإطلاق، وهو ذو جانبين : جانب عضوي و جانب نفسي، وهذان الجانبان متصلان غير منفصلين، فهما خطوتان متتاليتان لعملية استقبال الأصوات، وهو أول من برر عدم الاهتمام بهذا العلم وحصره في دائرة ضيقة، هي دائرة المتخصصين تخصصا دقيقا في فسيولوجيا الجهاز السمعي وعلم النفس الإدراكي بأن هذه الدراسة تحتاج ولا شك – إلى أجهزة و آلات ليست متاحة للغوي العام، أو هو ليس بقادر على التعامل معها بطريقة تضمن له الدقة في عمله، فليس من الغريب إذن أن تتخلف الدراسة في علم الأصوات السمعي بجانبيه أشواطا بعيدة عن مثيلاتها في الفرعين الآخرين، وهما علم الأصوات النطقي وعلم الأصوات الفيزيائي"[12]

5 **دراسة السمع والكلام ـ لسعد مصلوح "**[3] : لقد خصص الباب الرابع من الكتاب لبيان علم الصوت السمعي حيث يقول : وأمحضنا الباب الرابع للسمع والإدراك وهما غاية التواصل ومنتهاه ، وبه يتحقق التمام ويتصل المبدأ بالختام، وعززنا ذلك كله بطائفة من الرسوم والأشكال التوضيحية " [4] وقد تكلم عن التشريح الوظيفي لجهاز السمع بذكر كل أجزائه بالصور، ثم يعرج لشرح الجهاز العصبي والجانب العصبي في عملية السمع، ليتكلم فيما بعد عن الإدراك ومجال السمع عند الإنسان ويختم بنظريات السمع وهو ما لم يذكره أصحاب الكتب التي قمنا بدراستها، وهو يعتبر من الكتب التي اهتمت بالجانب السمعي مقارنة بما نشر من كتب قبله .

6 **الصوتيات العربية ـ لمنصور بن محمد الغامدي "**[5] يعترف بأن هذا الفرع يهتم بالفترة التي تقع منذ وصول الموجات الصوتية إلى الأذن حتى إدراكها في الدماغ ، ثم يشرح أجزاء الأذن مع وظيفتها ورسم تخطيطي لأذن الإنسان [6] مع رسم بياني يُبين الترددات التي يمكن للنظام السمعي عند الإنسان سماعها، ويربط بين هذا الفرع والدراسة الأكوستيكية باقتراحه لاختبارات سمعية بآلات متطورة تكشف عن العملية السمعية كيف تتم؟ وهذا ما جادت به قريحة **الغامدي** على مدار سبعة عشر صفحة، وهو يركز على ربط السمعيات بالدراسة الأكوستيكية ، لكنه لا يعطي تفسيرا واضحا وفريدا للعملية السمعية مع ذكر الأمراض التي تصيب الأذن، ودواعي تأخر الدراسة في الفرع السمعي، أي لم يستفيض في دراسة هذا الجانب .

7 **الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث ـ لحسام البهنساوي** "[7] : حيث يعتبر علم الأصوات السمعي Auditory Phonetics من أحدث فروع علم الأصوات وهو ذو جانبين : جانب عضوي فسيولوجي وجانب نفسي ، كما يذكر مجموعة من الصعوبات التي تواجه الباحثين اللغويين في مجال هذا العلم ويكتفي بذلك على مدار صفحتين، وهي معلومات ذكرها **كمال بشر** "[8] قبلا .

8 **الأصوات اللغوية ـ لإبراهيم أنيس** "[9] : لم يتكلم **ابراهيم أنيس** عن فروع الصوتيات ، وبالتالي لم يشر لعلم الصوت السمعي في كتابه، لكنه يركز القول عن أهمية السمع في إدراك الصوت اللغوي ثم يعرج إلى تشريح الأذن بأقسامها الثلاثة مع نقل رسم لها، وبالتالي قد نقل معلومات مهمة عن جهاز الأذن على مدار أربع صفحات لا غير .

9 **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ـ لمحمود السعران** "[10] يتكلم في كتابه عن فروع الصوتيات ويوجب على علم الأصوات اللغوية (كما يسميه) دراسة ثلاث مسائل رئيسية : الأولى هي الدراسة الصوتية الفيزيولوجية ، والثانية الدراسة الصوتية الفيزيقية ،والثالثة الدراسة السمعية ويُقر بأن هذه الدراسة لا تزال تنتظر الإفاضة في البحث بخلاف المسألتين الأوليتين .

10. – **مدخل في الصوتيات ـــ لعبد الفتاح ابراهيم** "[11] : حيث أشار للسمع في أربع صفحات مع ذكر أقسام الأذن الثلاثة : الخارجية والوسطى والداخلية ، ونَقل رسما لجهاز السمع بأقسامه ومنحنى لمجال السمع بعد أن حدد مجال إدراك الصوت، ورغم عدم تفصيله في دراسة هذا المجال إلا أنه يقر بأهميته .

11. –" **السمعيات العربية في الأصوات اللغوية ـــ لسعاد بسناسي** "[12] : لعله الكتاب الوحيد - حسب اطلاعنا - الذي تكلم عن علم الصوت السمعي من بدايته إلى نهايته ، وتعلن الدكتورة في المقدمة أن هذا العلم ليس له أثر في الدراسات السابقة،حيث تقول :" وأما ما نعنيه بالسمعيات فلم نعثر له على أثر في آثار الدّارسين العرب "[13] ، ولو بحثَت في **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا** " وفي كتاب **الشفاء لابن سينا** " لوجدَت ما يثلج صدرها من دراسة سمعية صوتية مبكرة ، ورغم ذلك فالكتاب فريد في بابه لأنه ألمَّ بكل مايخص الجانب السمعي.

وهكذا نلاحظ أن معظم اللغويين الذين ذكرناهم أو لم نذكرهم، يكتفون بتقديم معلومات قليلة عن علم الصوت السمعي، معترفين بأهميته وبصعوبة دراسته وهذا أحدهم يقول : وقد يبدو النظر في عملية السمع (audition) في الدراسة الصوتية أمرا عديم الأهمية، ولكن الحقيقة عكس ذلك، لأنه لا وجود للصوت المادي ولا كيان له بغير وجود هذا الجهاز اللاقط ، ثم إن هذا الجهاز يكيف إدراك الأصوات (perception) ويؤثر فيها، وقد تكون المعطيات الفيزيولوجية والعصبية الفيزيولوجية في عملية السمع معقدة تعقيدا بالغا ولكن ذلك يجب أن لا يثنينا عن النظر في بعض أوجهها حتى وإن كان ذلك باختزال مفرط"[14]

وعليه فإننا نرى؛ بأن علم الصوت السمعي، يعتبر من أحدث فروع علم الصوت العام، وإذا كان لم يحظ بالدراسة المستفيضة مثلما حظي، علم الصوت النطقي وعلم الصوت الفيزيائي، ولعل سر ذلك هو وجود صعوبات جمة في طريق غير المختصين تخصصًا يكفل الوصول إلى نتائج علمية صحيحة، من هذه الصعوبات - كما يرى أحدهم - احتواء هذا الفرع على ميدان ينتظم عمليات نفسية معقدة لا تدخل في حقيقة الأمر في مجال البحث اللغوي بمعناه الاصطلاحي "[15]

وإننا ننادي بتوجيه الدراسات وتشجيع الباحثين على التخصص في هذا الميدان والتعمق في مسائله، لأن السمع حاسة فعالة في العملية الكلامية والأصل في الفهم والإفهام أن يكون عن طريق تلك الوسيلة الطبيعية التي هي عماد كل نمو عقلي، وأساس كل ثقافة ذهنية، تلك الوسيلة التي أشار إليها ابن خلدون في مقدمته بكلمته المشهورة حين قال : السمع أبو الملكات اللساني[26] وإذا كان لم يحظ بالدراسة العميقة عند المحدثين، فهو لظنهم أنه تابع لعلم وظائف الأعضاء وعلم النفس، وقد ذكر **فندريس**) أن علماء اللغة لا يكادون يشتغلون بالسماع بل يتركون دراسته إلى علماء وظائف الأعضاء .. ويترتب على ذلك أنه يمكن إسقاط الجزء السمعي من اللغة في دراسة الصوتيات [7] ونحن لا نرى ذلك بل ندعو إلى ضرورة توجيه الجهود للبحث : في الدراسة التشريحية للأذن بكل أجزائها وبالصور الواضحة، وشرح العملية السمعية منذ بدايتها عندما تتجمع الذبذبات الصوتية في الصيوان الأذن الخارجي) وانتقالها إلى القناة السمعية، فطَبلة الأذن، فالأذن الوسطى ثم الأذن الداخلية فينقلها العصب السمعي إلى مراكز السمع في المخ، كما لا بد من الإشارة لأمراض الأذن وكيف تؤثر على دورة التواصل ككل، وكيف يحدث الصمم وأنواعه وكيفية علاجه؟ وما هي الترددات التي يمكن للأذن أن تسمعها أو لا يمكن أن تسمعها؟ وكيف تحدث الإعاقة السمعية؟ كما يمكن توجيه الدراسة لتاريخ العلم في مؤلفات القدماء، و مصطلحاته قديما وحديثا والمقارنة بينهما وهكذا حتى نوفيه حقه من البحث والتمحيص .

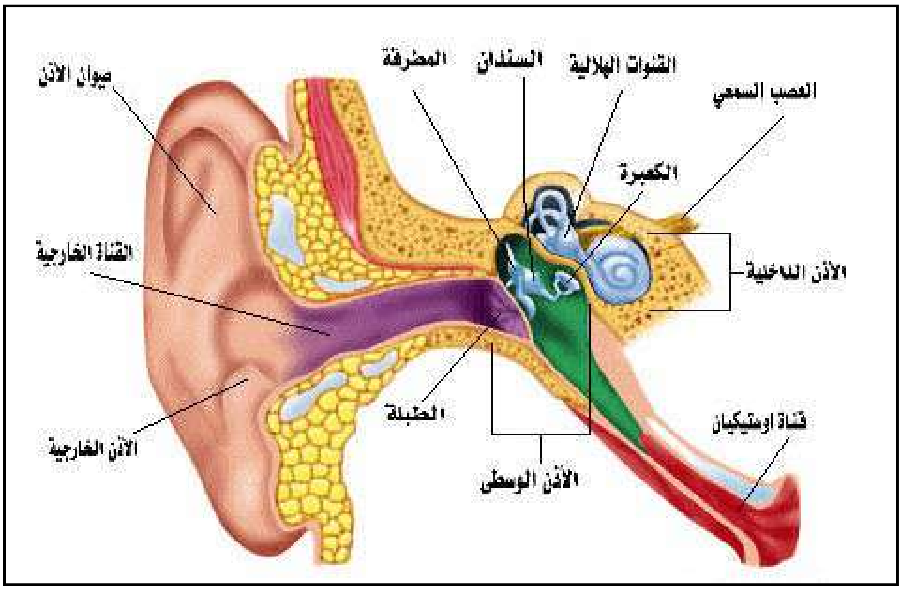

الشكل (1) : رسم تشريحي للأذن[39]

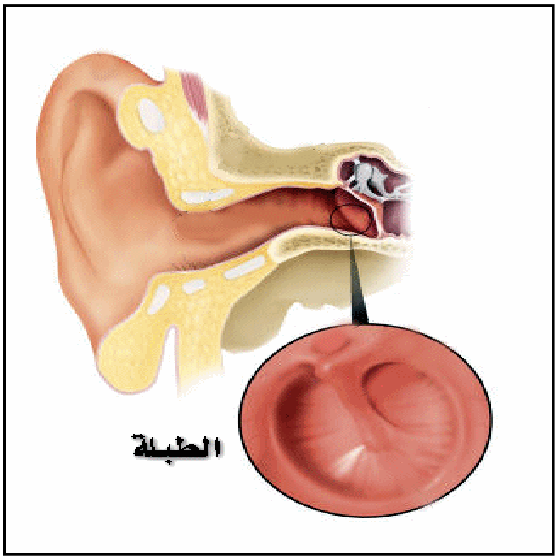

الشكل (2) : رسم تشريحي للأذن الخارجية[ii]

الشكل (3) : رسم تشريحي للأذن الداخلية[iii]

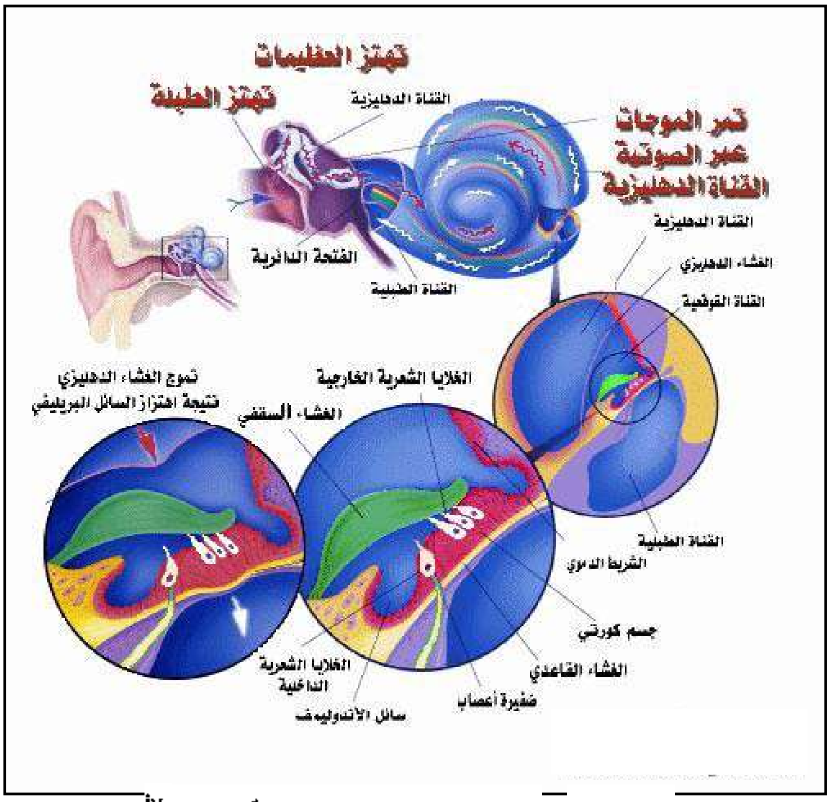

الشكل (04) : رسم تشريحي لكيفية السمع[iv]

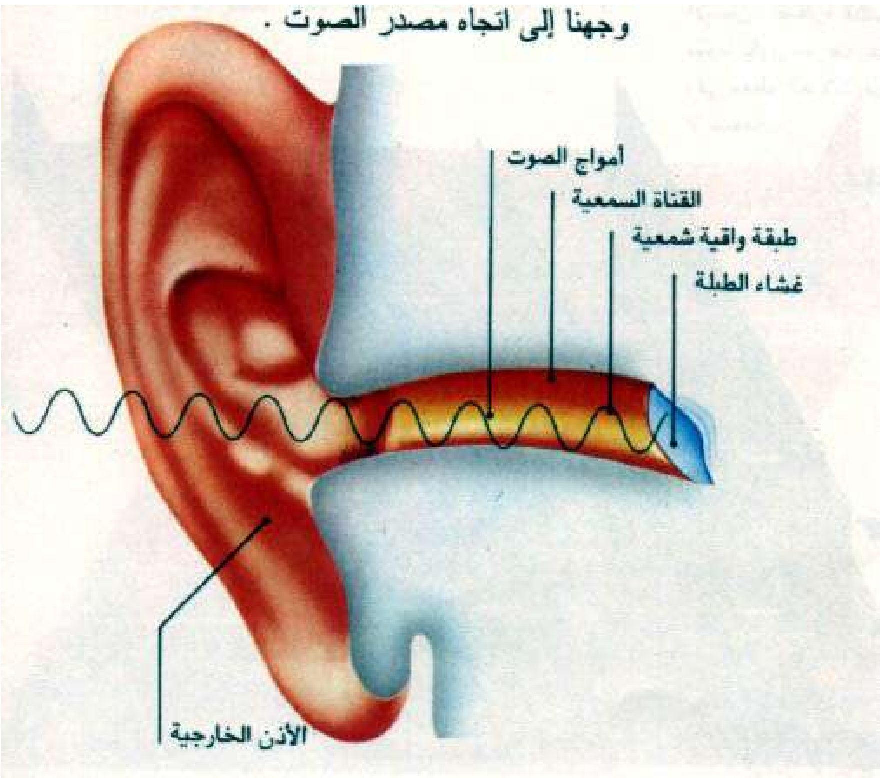

الشكل (05) : رسم تشريحي لكيفية وصول الصوت للأذن[v]

الشكل (06 : صورة لأذن إنسان[vi]

هوامش البحث :

ـ عيسى واضح حميداني : الصوت اللغوي دراسة وظيفية تشريحية، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 016 م، ص51
ـ نفسه بتصرف)
- عبد القادر عبد الجليل : الأصوات اللغوية، كلية العلوم والآداب، الجامعة الهاشمية، الأردن، 998 ، ص 21
ـ علي حسين خليف : منهج الدرس الصوتي عند العرب ،
ـ ينظر كمال بشر : علم الأصوات ،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ،القاهرة، 000 ، دط ،ص42 بتصرف)
ـ وفاء محمد البيه : أطلس أصوات اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1 ، 994 ، ص1145
ـ أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة،دط، 1997 /418 هـ،ص5 -51
ـ نفسه، ص45
ـ عبد القادر عبد الجليل : الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1 ، 1998 /418 هـ، ص 73
0. ـ نفسه
1. ـ كمال بشر : علم الأصوات ،ص 42
2. ـ نفسه، ص 44
3. ـ سعد عبد العزيز مصلوح : دراسة السمع والكلام صوتيات اللغة من الإنتاج إلى الإدراك ، عالم الكتب، القاهرة، ط 1، 000 م، ص241
4. ـ نفسه ، ص 285
5. ـ منصور بن محمد الغامدي : الصوتيات العربية، مكتبة التوبة، ط 1 ، الرياض، 431 هـ /001 م، ص7. و ص 139
6. ـ نفسه، ص 145

7. _ حسام البهنساوي : الدراسات الصوتية، زهراء الشرق، القاهرة،ط1 ،005 ،ص18 و 19
8. _ كمال بشر : علم الأصوات، ص 42
9. _ ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ،مطبعة نهضة مصر ،دط ،دت ،ص3. إلى ص16 .
0. _ محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي،
1. _ عبد الفتاح إبراهيم : مدخل في الصوتيات ، دار الجنوب للنشر، تونس، ط. ،د ت ، ص61
1. _ كمال بشر : علم الأصوات، ص44
2. _ سعاد بسناسي : السمعيات العربية في الأصوات اللغوية ،عالم الكتب الحديث ،إربد الأردن ،ط1 ، 2013 .
3. _ نفسه ،ص4 .
4. _ عبد الفتاح ابراهيم مدخل في الصوتيات ،ص61 .
5. _ كمال بشر : علم الأصوات ،ص44 .
6. _ ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية، القاهرة، 961. ، ص15
7 _ فندريس : اللغة، تعريب الأستاذين الدواخي والقصاص، 370 هـ /950. م، ص43 ،44 .

هوامش المواقع الإلكترونية لرسم الأذن :

- dd – sunach . net
- نفس الموقع .
- weratha.com
- نفس الموقع
- ouadie.ahlamontada.com
- ar.wikipedia.org

قائمـــــــة المراجـــــع

1 - أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي،عالم الكتب،القاهرة،دط،1997 /1418 .
2 - ابراهيم أنيس : الأصوات اللغوية، القاهرة، 1961 .
3 - حسام البهنساوي : الدراسات الصوتية، زهراء الشرق، القاهرة،ط1 ،2005 .
4 - سعاد بسناسي السمعيات العربية في الأصوات اللغوية ،عالم الكتب الحديث، إربد الأردن ،ط1 ، 2013 .
5 - سعد عبد العزيز مصلوح : دراسة السمع والكلام صوتيات اللغة من الإنتاج إلى الإدراك ، عالم الكتب، القاهرة،ط1 ،2000 .
6 - عبد الفتاح إبراهيم : مدخل في الصوتيات ، دار الجنوب للنشر، تونس، د ط، دت .
7 - عبد القادر عبد الجليل : الأصوات اللغوية، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1 ، 1998 /418 هـ .
8 - عيسى واضح حميداني : الصوت اللغوي دراسة وظيفية تشريحية، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1 ،2016.
9 - فندريس : اللغة، تعريب الأستاذين الدواخي والقصاص، 370 هـ /1950 ،د ».
10 كمال بشر، علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر،القاهرة،دط،2000 .
11 محمود السعران : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي،
12 منصور بن محمد العامدي : الصوتيات العربية، مكتبة التوبة، ط1 ، الرياض، 431 هـ /2001م .
13 وفاء محمد البيه : أطلس أصوات اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ط1 ،1994 .

الحَرَكَــاتُ ودَرجَاتُها، والظَّواهِرُ الكَمِّيَّةُ فِي العَرَبِيَّة ؛ مِنْ خِلَالِ عِلمِ الأَدَاءِ القُرآنِي .

Degrees And Quantitative Phenomena In Arabic ; Short Vowels ;
Via Science Of Quranic Performance

الدكتور عبد القادر منداس
أستاذ محاضر " ب " قسم اللّغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللغات – جامعة البليدة 2
mendas.kader@yahoo.fr

ملخص البحث :

يتناول البحث ظاهرة الحركات وكميَّاتها في أصوات اللّغة العربية، فالحركات الأصلية هي ثلاثٌ قصيرة ، وثلاثُ حركات طويلةٍ وهي مدودٌ تتولد عن إشباع الحركات، فالحركة تقع في نصف حجم المدود الصوتية وهي محدودةُ الحجم الامتدادي، بينما المدود تصل إلى حد ضِعف الحركة التي هي من جنسها، لتمتد إلى حد التوسط أو حد الإشباع . هذا عن درجات الحركات من حيث الحجم الضِّعفي، أما عن درجاتها في حدودها الدُّنيا، فالأصل في الحركة إتمامها دون انتقاص، لكنها قد تقع متوسطة الأحجام وقد تتقلص كميتها الطبيعية، إذ هناك حركة بين الفتحة والكسرة، وحركة بين الفتحة والضمة، وحركة بين الكسرة والضمة، وحركة بين الضمة والكسرة - وهي أقل وقوعا -. وقد ذكرنا كذلك ظاهرة اختزال حجم الحركات وتقليصها بالأخذ منها أو الإشارة إليها شفويا، وهي تتوزع إلى مرتبة الاختلاس وهو أخذُ ثلث الحركة والنطق بثلثيها، و الرَّوْمُ الأخذُ من الحركة واجتزاءُ ثلثيها فيخفَى منها أكثرها، والإشمَامُ لا يدركه إلا البصير، إذ يُشَار فقط إلى الحركة الأصلية بحركة شفوية تمثله .

Abstract :

This paper deals with the phenomenon of sounds , in particular short vowels and their quantities in the sounds of Arabic, which are extertions that an created by means the needs of those sounds . short vowels are positioned in halfe of the long vowels, which are the double of short vowels. Where as , long vowels reach the double size of short vowels that belong to its category , to reach an average level or an extrem level.

As to vowels ' grades , in particular , their lowest levels , the origine of sound is its fulfilment without reduction. how ever, it can occur in average levels and sizes , and can be reduced in relation to its natural quantity. There exists some sounds between the short vowels themselves , the phenomenan of vowel reduction reduces the size of the sound (short vowels) to reach the a weak form , often reterred to by means of physical articulation (lips) , the stage of a sound of obscuration.

الكلمات المفتاحية :

- الصوامت والصوائت – " Consonants and vowels " - الصائت القصير أو الحركات – " short vowels "
- الصائت الطويل أو المدود – " Long Vowels " - طول الصوت – " length of Sound " .
- كمية العلة أو طول الصائت – " Vowel quantity " – درجات الحركات – " Grades of vowels ".
- مدة الحركة – " Duration of Vowel " – الاختزال الحركي أو اختصار الصائت – "Vowel reduction".
- اختلاس الصوائت – " obscuration " - إضعاف الصوت – " weakening " .

" الحَرَكَــاتُ ودَرجَاتُها، والظَّواهِرُ الكَمِّيَّةُ فِي العَرَبيَّة ؛ مِنْ خِلَالِ عِلمِ الأَدَاءِ القُرآنِي . "

- تمهيد :

يقع الحديث عن الحركات - أو الصوائت القصير - في صلب القضايا الصوتية العربية ، إذ تندرج الحركات ضمن أهم التصنيفات التي يضعها الصوتيون قديما وحديثا ، فهي قسيمةٌ للأصوات المنطوقة التي تشكل أكبر جزء من أصوات اللغة العربية، ويبدو أن حصر الحركة في العربية إلى فتح وكسر وضم وسكون فيه من الناحية الصوتية جانب من السطحية، فقد ورد الحديث عن درجاتٍ وكمياتٍ متفاوتة للحركة في ثنايا البحوث اللسانية القديمة والحديثة، فهل هناك درجات للحركة تتوسطها أو تتولد عنها؟ وهل لها كمية معينة تُضبط بها ؟ وهل عُبِّر عن تلك الظواهر بمصطلحات محددة تصفها، مما نجده في علم الأداء القرآني .

أولا - في مفهوم الحركة وعلّة التسمية :

الحركةُ عبارةٌ عن تحريكِ العُضوِ الذي هو الشفتان عند النطق بالصوت الذي هو الحرف، والحرف عبارة عن جزء من الصوت .[1] ومحالٌ أن تقومَ الحركة بالحرف حتى يقال : حرف متحركٌ حقيقةً، ..) فقولنا حرفٌ متحركٌ أو سَاكن مجازٌ ، لأن السكون أيضا ضد الحركة ومحلُّه محلها، وهو العضو، إذ لا تقومُ الحركة والسكون إلا بجسم أو جوهر، فإذا ثبت ذلك فالضمة عبارةٌ عن تحريك الشفتين بالضمِّ عند النطق بالحرف، فيحدث عند ذلك صوتٌ خفيٌّ مقارنٌ للحرف ، وإن امتد كان واوا، والفتحة عبارة عن فتح الشفتين عند النطق بالحرف، وحدوث الصوت الخفيّ الذي يسمى فتحة، وإن امتدت كانت ألفا، وكذلك القول في الكسرة واليا .. " .

وسميت الحركة بهذا الاصطلاح، لأنها تُقْلِق الحرف الذي تقترن به، وتجذبه نحو الحرف الذي هو منه، فالفتحة تجذب الحرف نحو الألف، والكسرة نحو الياء، والضمة نحو الواو . وهذا ما أسماه ابن سينا بالتموُّج وهي العلّة القريبة لحدوث الصوت، وذكر له علّتان : قرعٌ وقلعٌ، فالقرع سببٌ أكثريٌّ، وليس السببَ الملاصق لوجود الصوت، لأن الصوت قد يحدث أيضا عن القلع، فالقرع تقريب جرمٍ ما إلى جرم مقاوم له لمزاحمته تقريبا تتبعه مماسَّة عنيفة، وأما القلع تبعيد جرمٍ عن آخر مُماسٌّ له، منطبق أحدهما على الآخر، وهذا يتبعه صوت من غير أن يكون هناك قرعٌ، وفي الأمرين يلزم تموُّج سريع عنيف في الهواء، ويلزم المتباعد من الهواء أن ينقاد للشكل والموج الواقع هناك، وإن كان القرعيَ أشد انبساطا من القلعيِ . فنحن إذن إزاء قرعٍ صامتيٍّ وقلع صائتيٍّ لحدوث الصوت المكتمل المتحرك .

والملاحَظ أن تسمية هذه الحركات مبنيٌّ على حركة أعضاء النطق ، لأن من أراد أن يتلفظ بالفتحة، فلا بد من فتح الفم، وانتصاب الشفة العليا، ومن أراد التلفظ بالكسرة، فعليه فتح الفم فتحا قويا بحيث ينجَرُّ اللَّحْيُ الأسفل وينخفض، ومن أراد التلفظ بالضمة فلا بد من ضم شفتيه أولا ثم رفعهما ثانيا . وقد ظهر مفهوم الحركات القصيرة والطويلة بمصطلحات عدَّة عند المحدثين، كالمصوتات، الصوائت، والأصوات الطليقة .

ثانيا - مصطلح الحركات والاعتناء بكيفية نطقها :

وهذا أمرٌ لم يغفله اللغويون العرب، إذ أوضحُوا كيفية نطق الحركات والمحافظة على خواصِّها عندما تتوالى في التركيب، وحين تُجاوِر أصوات اللين خاصة، والتي تقارب الحركات في النطق، يقول أبو عمرو الداني " فأما المحرَّك من الحروف بالحركات الثلاث : الفتحة والكسرة والضمة، فحقُّه أن يُلفَظ به مُشبَعا، ويُؤتَى بالحركات كوامل، من غير اختلاس ولا توهين يؤُولان إلى تضعيف الصوت بهن، ولا إشباع زائد، ولا تمطيط بالغ يُوجِبَان الإتيان بعدهن بألف وياء وواو غير مُمكّنات ..) أما المُسكّن من الحروف فحقّه أن يُخلَى من الحركات الثلاث ومن بعضهن، من غير وقف شديد ولا قطع مسرف عليه سوى احتباس اللسان في موضعه قليلا في حال الوصل . " [6]

فالحركات إذا أتت قبل الواو والياء أو بعدهما وجب العناية بنطقها خشية ذهابها أو الزيادة في تمكينها حتى لا يتولد عنها حرف من جنسه . إذ يقول عبد الوهاب القرطبي : " الذي ينبغي أن يعتمده القارئ من ذلك أن يَحفظ مقادير الحركات والسكنات، فلا يُشبِع الفتحة بحيث تصير ألفا، ولا الضمة بحيث تخرج واوا، ولا الكسرة بحيث تتحول ياء، فيكون واضعًا للحرف موضع الحركة، ولا يوهنها ويختلِسَها ويُبالغ فيضعُفَ الصوتُ عن تأديتها ويتلاشى النطق بها وتتحول سكونا " [8]

وللحركات أهمية تتجلى في تسهيل عملية النطق وسرعة الانتقال من حرف إلى آخر، ليُوصَل بذلك الكلامُ بعضُه ببعضٍ، أما الخليلُ فهو يعُدّ : " الفتحة والكسرة والضمة **زوائد** وهنَّ يلحقن الحرف، ليُوصَل إلى التكلُّم به " [9]

وقد شرح السيرافي معنى زوائد " في عبارة الخليل، بقوله " أراد أن الحركات تجري مجرَى الحروف الزوائد التي تزاد على ما كان أصليًّا، فالحركات يُــزَدْن على الحروف، والأصل الحروف، والحركات مأخوذة منها، والدليل على أن الأصل الحروف، أنه يجوز أن يوجد حرف ولا حركة، وهو الحرف الساكن، ولا يجوز أن توجد حركة من غير حرف " [10]

غير أنه قد علّق بعضهم على مذهب الخليل في اعتبار الحركات زوائد كالحروف الزائدة، بأنه مذهبٌ غير سليم، فالحركات أصولٌ بدورها إلى جانب الحروف، إذ لا توجد سلسلة مكوَّنة فقط من حروف، إذ لا بد للحرف من حركة، لأن الحرف بمثابة انسداد مجرى الهواء، والحركة بمثابة انفتاح المجرى نفسه، أما الدليل الذي سِيق للبرهنة على أصالة الحرف دون الحركة، فالجواب عنه أن طبيعة المقطع " Syllable " في اللغة العربية هي التي تفرض ذلك، فالحرف يوجد بمفرده بخلاف الحركة، حيث نجد في لغات أخرى كالفرنسية وغيرها، أن الحركة توجد بمفردها ، وهذا معناه أن كلاًّ من الحروف والحركات أصلٌ في السلسلة الصوتية . [11]

وهذا ما يلمح إليه أحمد مختار عمر بقول : " والعلل [أي الصوائت] تُمكِّن أجهزة النطق من الانتقال من وضع ساكن لِلّذي يليه، وأكثر من هذا فنحن نعتمد على العلل - إلى حدٍّ ما - لنسمع السواكن [أي الصوامت] " [12]

ثالثا - الأصوات الجامدة والأصوات الذائبة :

أُطلق على ثنائية الصوامت والصوائت مصطلحات عدة في مقابل المصطلحين الأجنبيَّين " Consonant - Vowel "، منها : السواكن والعلل ، أو الصامتة والمصمُوتة، أو الجامدة والذائبة . [13]

أما مصطلحا الأصوات الذائبة والجامد " فهما قديمان في نظر د . غانم قدوري الحمد، إذ لا يُعلم - على حدّ قوله - " أن أحدا من دارسي الأصوات العربية استخدمها أو أشار إليها، بينما كان علماء التجويد قد استخدموها قبل ما يقرب من ألف سنة، وهي أكثر المصطلحات تعبيرا عن المعنى الذي يقوم عليه هذا التصنيف للأصوات اللغوية " [14] ثم يستدرك قائلا " وإن كان الغالب عليهم وعلى علماء العربية أيضا الاكتفاء بمصطلَحَيْ الحروف والحركات ، وهما لا ينطبقان على ذلك التصنيف ولا يعبران عنه بدقة " [15] وسميت الحروف الصامتة جامدة أو جوامدَ لأنها لا تمتــــد . [16]

والأصوات الذائبة أو الذوائب في العرب ، تتمثل في الحركات، وفي حروف المد خصوصا ،سُمِّيت بذلك الألف، والياء الساكنة المكسور ما قبلها، والواو المضموم ما قبلها، والتي تنتمي لما يسمى الصائت الطويل " ong Vowel " ، وسبب تسميتها ذوائِبَ هو أنها تذوب وتلين وتمد .[17]

وهي تتميز بمقدار محدَّد الطول " ength " لكلٍّ منها، وقد تقرَّر في علم الأصوات أن ذات الصوت إنما تتحقَّقُ، إذا استوفى حظَّه من الطول، وتتعرض الأصوات الذائبة أكثر من غيرها للزيادة والنقصان في زمن النطق "tense " ، وهو إما زمن بسيط " imple tense ، أو زمن مستمرٌّ "progressive tense .[8] لأن طبيعة نطقها تحتمل ذلك، حيث يمكن للناطق أن يمد صوته بالأصوات الذائبة ما أسعفه النَّفس، وهي عمليةٌ تُدعى بزيادة الصوائت "anaptyxis " .[19]

وعليه فإنَّ هذه الظواهر النطقية، ظواهرُ كمِّيةٌ ترجع إلى طبيعة كل صوت لغوي يمتاز بطول معيَّن، يحرص الناطقون باللغة على الالتزام به في نطقهم بشكل عُرفيٍّ لا إرادي في الغالب، وإذا أخلَّ بشيء من ذلك أدرك السامعون تقصيره في توْفِية النطق حقه، والأصوات الذائبة أكثر أصوات اللغة قابلية على الامتداد والطول ولكنها مع ذلك ذات مقادير محفوظ .[20]

رابعا – كميَّـــــة العلَّـة أو طولُ الصائت :

ومما تقرَّر عند علماء التجويد الذين نظَّروا كثيرا في علم الأداء القرآني، ووضعوا كثيرا من أصول علم الأصوات في العربية، أن " الحركة إذا أُطِيل زمن النطق بها صارت حرف مدٍّ، وكذلك حرف المد إذا قصُر زمن النطق به رجع إلى الحركة ، لأن الفرق بين الحركات وحروف المدِّ فرق في الكمية لا أكثر " [1] وهو ما يطلق عليه في علم الأصوات الحديث بـ كمية العلة " أو" طول الصائت ":" /owel quantity ، أي التمييز بين العلة الطويلة والقصيرة، وفي المقابل نُلفي مصطلح " كيفية العلة " " /owel quality " ، أي درجة الانفتاح أو الغلق للعلة .[22]

وهو ما يوضِّحه قول ابن جني : " فقد ثبت بما وصفناه من حال هذه الأحرف أنهن توابع للحركات ومتَنَشِّـــــــئةٌ عنها، وأن الحركات أوائل لها أجزاء منها، وأن الألف فتحة مشبعةٌ، والياء كسرة مشبعة، والواو ضمةٌ مشبعةٌ ." [3] وقادهم هذا إلى المطابقة بين مخارج الحركات ومخارج حروف المدِّ، إذ يقول ابن يعيش : " الكسرة من مخرج الياء وكذلك الفتح لأنه من الألف .[24]

ويُلحظ مِن وصْف القدماء أنه اقتُصر على دور الشفتين دون عمل اللسان، وهو العضو المعوَّل عليه في إبراز الخصائص والفروق الدقيقة بين الحركات، ولعل عُسر ملاحظة حركة اللسان داخل الفم لدى القدماء هو السبب في هذا الإغفال، وقد اعترف ابن سينا بهذه الصعوبة، إذ قال " أما المصوِّتات فأمرها عليَّ مشكل " [5] إلا أنه ثبت يقينه من أن " الألف الممدودة المصوِّتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة ، وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف، وكذلك نسبة الواو المصوِّتة إلى الضمة، والياء المصوِّتة ، إلى الكسر .[26]

لذلك قرَّر . عبد الرحمن أيوب أن الحركات كانت صعبة الوصف على اللغويين الأوائل، ورأى أن التصوير بأشعة إكس "ray photography.) " هو أفضل سبيل لبيان كيفية نطق العلل الحركات .[27]

وفي دراسة معملية حديثة ، مما خرج به . سلمان العاني أن الاختلافات بين الحركات وحروف المدِّ اختلافاتٌ طفيفة ولكنها ثابتة في الوصف العلمي، فاللسان عند النطق بحروف المدِّ أكثر هبوطا وأكثر انسحاما إلى الخلف مما هو عليه عند نطق الفتحة، كما أن هناك اختلافات حين النطق بالضم والكسر في مقابل واو المدِّ وياء .[28]

كما يلاحِظ . سلمان العاني أيضا أن " الأمداء النسبي "elative durations " للحركات تتضاعف وهي مفردةٌ عما هي عليه وهي في الكلام المتتابع، كما أن الحركات الطويلة تبدو ضعف طول الحركة القصيرة في أي الموضعين وهو يرجّح هذا لأن الحركات المنفردة عادة تكون منبورة "stressed " وتُـنطق بعناية "[29]

وهو من جهة معملية أكوستيكية أخرى يلاحظ " أن تسجيلات الحركة تشير إلى وجود قليل من النَّفَس في آخر نقطة منها، خاصة ..) أعلى مناطق الذبذبة " [30] ويقول : " إن الحركات القصيرة الثلاث فونيمات كسائر الفونيمات وقد تُمَدُّ لتؤلِّف نظائرَها الطويلة الثلاث، والفرق بين حركة قصيرة وأخرى طويلة هو تقريبا مضاعفة القصيرة أو أكثر ..) ولما كانت الحركات لا توجد بادئة فإن طول الحركة يمكن أن يردَ فقط في الوسط أو النهاية، وهو أكثر شيوعا في وسط الكلا [31]

خامسا - دقّةُ الفارق الصوتي بين الحركة وحرف المد الحركة وضِعفُه :

وهو فرق دقيق ثابتٌ علميا ، دون أن نغفِلَ وجود رابط قوي بينهما، فممَّا يجمعُ الحركة بحرف المدّ هو اتفاقهما في المخارج والصفات، إلى جانب أن كلاًّ من الحركة وحرف المد يعتمدان على حرف يقومان بهما، ومن ثَمَّ لا يُبدأ بحركة أو حرف م . ولا تتلوا الحركةُ حركةً أخرى، ولا يتلو المدُّ مدًّا، لأن الجمع بين مدَّيْن يستدعي الجمع بين ساكنين على غير حد . [32] إذ لا بدَّ أن يَفصِلَ بين الصائتِ والصائتِ صامتٌ على الأقل كما تقرر في علم الأصوات الحديث .

إلا أن الفارق بينهما هو **فارق في الكمية**: وعدَّ علماء الأصوات وقبلهم علماءُ الأداء القرآني، حرفَ المدِّ بمقدار حركتين قصيرتين أو أكثر، وهذا ما يؤكده ابن سينا قائلا : " اعلم يقينا أن الألف الممدودة المصوِّتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة، وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصحُّ فيها الانتقال من حرف إلى حرف، وكذلك نسبة الواو المصوِّتة إلى الضمة، والياء المصوِّتة ، إلى الكسر [33] ويقول القسطلاني : " وزن الحركة في التحقيق نصف الحرف المتولِّد عنه "[34]

وممَّا يسجِّله ابن جني أن " الحركات أبعاض حروف المد واللين ..) فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو، وقد كان متقدِّمو النحويين يسمُّون الفتحة الألفَ الصغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغير . وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة، ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتي هن حروف توامٌّ كوامل، قد تجدهنَّ في بعض الأحوال أطول وأتم منهن في بعض ..) فتجد فيهنَّ امتدادا واستطالةً ما ..) ويدلُّك على أن الحركات أبعاضٌ لهذه الحركات، أنَّك متى أشبعتَ واحدة منهنَّ حدث بعدها الحرف الذي هي بعض [35]

ولذلك لما تحدث ابن جني عن طريقة تذوُّق جرس الحرف " Tone Colore / Timbre ، قال " وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف أن تأتي به ساكنا لا متحركا، **لأن الحركة تُقلق الحرف عن موضعه ومستقرِّه وتجتذبه إلى جهة الحرف الذي هي بعضا** ، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة قبل " [36] أي لابد من الإتيان بالحركة مسبوقة بالهمزة ومتبوعة بالحرف الذي نريد معرفة جرسه نحو إِل) فتكون الحركة بذلك بعض الحرف، أي تشكل معه مقطعا، ويعقِّب هنا بعض المحدثين أن الحركة ليست بعض الحرف، لأن الحروف شيء والحركات شيء آخر، إذ لكلٍّ منهما خصائصه النطقية، والأكستيكية، والإدراكية التي تجعلنا نميز بعضها عن بعض .[37]

والقول بأن المدَّ مقداره في الأصل حركتان، مفاده أنه إما فتحتان أو ضمتان أو كسرتان، وهذا قول أدقُّ مما شاع في حقل تعليم الأداء القرآني أن القصد بالحركتين حركة الأصبع بسطا وقبض .[8] وهي طريقة تقليدية لدى متأخري علماء الأداء، إذ ورد في معجم المصطلحات في علمي التجويد والقراءات " أن الحركة نصف الألف، أي بمقدار نصف المد الطبيعي، وبها تقدّر مقادير المدود عند المتأخرين من المجوّدين في الحقل التعليمي ، ويقدّر زمنها عندهم ، بمعدّل قبض الإصبع وبسطه، من غير سرعة ولا بطء، ويعبَّر عنه بـ (فُوَيْق) أو فوق ، يقال قرأ بـ فويق القصر ، (فوق القصر) أي بمقدار ثلاث حركات، والقصر معناه هنا مدٌّ طبيعي بحركتين، ويقال قرأ بـ (فويق التوسط) أي بمقدار خمس حركات .[39]

و ينبغي التنبيه إلى أن الافتراض بأن مقدار الألف فتحتان والواو ضمتان والياء كسرتان هو مقدارٌ ثابت بقدر ضعف الحركة، وأنه قدرٌ لا يتغير مهما تغيرت طريقة التكلم، وأن الحركات الطوال ضعف الحركات القصار في كل السياقات والمواقع؛ هو افتراضٌ ينفي دقّته الدرس االصوتي الحديث، **فطريقة التكلّ** ، تُعَدُّ عاملا مؤثّرا في مُدَّة الحركة، فكلما كانت طريقة التكلم سريعة، قصرت المدَّة، وكلما بطؤت طالت المد .[40] وهو ما نلمسه من قول ابن سينا بعبارة ضعف أو أضعاف " وعبارة أصغر الأزمن " من قول : " الألف الممدودة المصوِّتة تقع في ضعف أو أضعاف زمان الفتحة ، وأن الفتحة تقع في أصغر الأزمنة التي يصح فيها الانتقال من حرف إلى حرف .[1] وهذا التفاوت في نسبة المد هو الـــمُدَّة الذاتية التي يتميز بها في الأص .

وقد تعرَّض القدماء إلى **مُدَّة الحركا** حالةَ كونها مجردة عن السياق الذي يقصد منه السياق الصوتي " phonetic context .[2] وهذه الـــمُدَّة " Duration هي ما يعرف في علم الأصوات الحديث بالمدّة الذاتية ، فلكل حركة مُدتها الخاصة بها التي تميِّزها عن حركة أخرى، وهي سرعان ما تتغيَّر بفعل عوامل خارجية ، لغوية أو غير لغوية، وفي هذه الحالة تسمى بالمدَّة الموضُوعية ، إذ من المدّ " زياد مطٍّ في حروف المدِّ على المد الطبيعي، وهو الذي لا يقوم ذات حرف المد دون ."[3] كما قال ابن الجزري، فالمد الطبيعي هو المدة الذاتية، وما يزاد عليه في سياق معيَّن لسبب ما، هو المدة الموضوعية، وهو ما أشار إليه ابن جني بقول : " إلا أن الأماكن التي يطول فيها صوتها، وتتمكّن مدتها ..) أن تقع بعدها الهمزة أو الحرف المشدَّد "[4] وهي أسباب لغوية، ومن الأسباب المعنوية المبالغة والندبة والإنكار وغيرها مما يدفع المتكلم إلى إضافة مدة زمنية إضافي .

سادسا – أجزاء الحركة ودرجاتها (تلاس – الرَّوْم – الإشمام) :

وهذا الكمُّ الصوتي بين الحركة والم بنسبة الضِّعف ، يُتحدَّث عنه أيضا في الحركة ذاتها بنسبة النقص منها، إذ أشار الدارسون إلى أن **الحركة قد تقْصُر إلى درجات أقلّ** ، أو ما يطلق عليه أيضا في علم اللغة الحديث **الدرجات المخفَّضة للصائت** " Reduced Grades [5] ، وهذا معناه أن للحركات الثلاثِ فروعا لاحظ علماء الأصوات وجودها ، ذلك أن الحركات يلحقها من التغيير ما يؤدي إلى حذفها أو تقصيرها، فتحدثوا عن هذه الظاهرة، محدِّدين لدرجاتها، كما يظهر ذلك في كتابات علماء التجويد واللغويين، و أشار إليه أبو عمرو الداني في نص سابق : بعبارة ومن بعضهِ) قال " أما الـــمُسكَّن من الحروف فحقُّه أن يُخلَى من الحركات الثلاث ومن بعضِهِنّ "[6] . والحركات الثلاث تتعرض للتقصير حتى يصل ذلك إلى حد السكون، وهو زوال الحركة البتة؛ وبعض ذلك يرتبط بالوقف وبعضه لا يختص بمكان من الكلا .[7]

ولـــمّا درس القدماء كميات الحركات ونظروا إلى مُدَّهما الذاتية، وقارنوا بينها وأبرزوا خصائص كل حركة ، ولاحظوا أن هذه الـــمُدَّة تعتريها تغيُّراتٌ تزيد الحركة طولا، بفعل عوامل لغوية، وغير لغوية، لاحظوا كذلك أن الحركات يعتريها نقصٌ أو قلٌ تتعرض للاختزال ، وعبر عنه علماء القراءات بمصطلحات دقيقة تصف كل درجة ومن ذلك الاختلاس والرَّوم ، وهما معا ظاهرة اختزالية للحركة أو ما يطلق عليه في علم الأصوات الحديث بالاختزال الحركي أو اختصار الصائت : Vowel eduction.[48].

ومن نصوص علماء التجويد التي عالجت ما يلحق الحركات في التركيب من التقصير، ما جاء في كتاب مرشد القارئ لابن الطحان، إذ يقول " الحركات ثلاث : رفع ونصب وخفض، فحقُّ كل حرف تحرك بأحدها أن يلفظ به مُمكّنا من مخرجه، معتمِدًا عليه في مدرجه حتى يُحكَى بجميع صفته وتمام حركته، معتدلة في الوزن الحسَن، يعتمد بعد أدائها حتى يوجب الاعتماد والخروج عن الحد حدوث حرف يقوم عن ذاتها، ..) وتنقسم الحركات الثلاث المذكورة على أربع درجات :

الدرجة الأولى : **الكمال** ، وهو الحركة التي ذكرناها، حتى يصرفها عن ذلك صارف .

الدرجة الثاني **الاختلاس** ، وحركته تامة في الوزن تمام حركة الكمال ببرهان النظر والاستدلال .

الدرجة الثالث : **الإخفا** ، وهو نقصان الصوت بحرفها .

الدرجة الرابعة : **الرَّو** ، وبمقدار ما يبقى من حركة - عند علمائنا - حكمُ حركة الكمال . " [9]

وبناء عليه نستحضر هاهنا مصطلحاتٍ صوتية ترتبط بالحركات ودرجاتها . مما بيَّن حدوده اللغويون كسيبويه، وكثير من علماء الأداء والتجويد - أعني مصطلحات : **الاختلاس والرَّوم والإشما** ، على الترتيب من حيث درجاتُها نحو الصوت الأدنى، وهي ترتبط باللفظ حال الوقف عليه غالبا، وبعضها يحدث في الوصل والوقف معا، وهي تختص بالحرف المتحرك دون الساكن في الأصل .

وهي مصطلحات تندرج ضمن مفهومٍ أعمَ هو مفهوم " **إخفاء الحركات** ، فظاهرتا الاختلاس والروم يشتركان في تبعيض الحركة، إذ تبلغ في الاختلاس ثلثي الحركة وهو إتيانٌ بأكثرها، أما الروم فهو الإتيان بثلثها فقط أي بأقلها . [0] أما الروم والإشمام فيجتمعان في اعتبارهما إشارةً للحركة، فالإشمام إشارة شفوية لآخِرِ الحركة المتوقَّف عليها في أحد معنييه، [1] والرَّوم إشارةٌ شفوية مع تصويتٍ ضعيف .

- **واختلاس الصَّوائت** هو في معجم علم اللغة الحديث " obscuration [2] أو يقال له الإضعاف في الصوت " weakening [3] ، وهو مصطلح يشمل الرَّوم أيض . ووَرَدَ حدُّ **الاختلاس** في معجم المصطلحات الأدائية باعتباره الإتيان ببعض الحركة في الوصل، وهو يُدرج جميع أنواع الحركات من فتح وضم وكسر، ويقدَّر المحذوف من الحركة بالثلث والمنطوق بالثلثين، وهو مرادف لـــ مصطلح (إخفاء الحركة . وربما عبَّر عنه القدماء بالرَّوم للتوسع . باعتبار أنهما مصطلحان يتحدان في معنى الإخفا .[54]

يقول أبو عمرو الداني في وصف دقيق للصوت الـمُختَلَس : " وأما المختَلَسُ حركتُهُ من الحروف فحقُّه أن يُسرَع اللفظُ به إسراعًا يظنُّ السَّامعُ أنَّ حركته قد ذهبت من اللفظ لشدة الإسراع، وهي كاملة في الوزن، تامَّةٌ في الحقيقة، إلا أنها لم تمطَّط ولا ترَسَّل بها، فخفيَ إشباعها و لم يتبيَّن تحقيقها ".[5] وهنا يوضّح ابن جني ذلك بقوله " فاما الحركة المختلسةُ كحركة همزةِ بيْنَ بيْنَ وغيرها من الحروف التي يرادُ اختلاسُ حركاتها تخفيفا، فليست حركةً مُشمَّةً شيئاً من غيرها من الحركتين، وإنما أُضعِف اعتمادُها، وأُخفيت لضربٍ من التخفيف، وهي بزِنَتِها إذا وُفِّيت و لم تُختَلسْ، وقد تقدَّمت الدلالة على أن همزة بيْنَ بيْنَ كغيرها من سائر المتحركات في ميزان العروض الذي هو حاكم وعيارٌ على الساكن والمتحرِّك، وكذلك غير هذه من الحروف الـمُخفَاةُ، الحركاتُ نحو {لاَ تَأْمَنَّا} (يوسف : 11) وغير ذلك كلُّه محرَّك وإن كان مختلساً، يدلُّ على حركته قوله تعالى {شَهْرُ رَمَضَانَ} (البقرة : 185) فيمن أخفى ، فلو كانت الراء الأولى ساكنة، والهاء قبلها ساكنة، لاجتمع ساكنان في الوصل ... "[6] فالنون في المثال الأول يُشار فيها بالضم للدلالة على صيغة الأصل (تأمَنُنَا)[7]، أما الراء من (شَهْر) فقد ورد اختلاس حركتها مشمَة بحركتها الأصلية .

ويندرج ضمن الاختلاس أيضا عدم المبالغة في كسر الحرف الذي قبل الياء المفتوحة، لئلا تصير في اللفظ ياءين، مثل كسرة الشين في قوله تعالى {الْغَاشِيَةِ} (سورة الغاشية -1) ، ومثله عدم المبالغة في ضم الحرف الذي قبل الواو المفتوحة، لئلا تصير في اللفظ واوين، نحو هاء (هو) في آية {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} (سورة الصمد -1) . وكذلك عدم المبالغة في الواو المشدَّدة وقبلها ضمة، مثل ضمة القاف في آية {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ} (سورة هود – 52) وإنما تحرك القاف ونحوها في ذلك وما أشبهه بمقدار ضمة القاف من كلمة {قُوَّةً} (سورة يوسف -27) مثلا .[58]

فليس الاختلاس ه هنا معناه إذهاب معظم الحركة، إنما المقصود به الإتيان بالحركة على حقها، لأنها في موقعٍ إذا لم يُتَحفَّظ فيه بنطقها طغى بها اللسان وأتى بها مشبعة حتى يتولد منها حرف، يكون زائدا عن بنية اللفظ .[9] ووجه تسمية الاختلاس هنا يظهر في عدم المبالغة في إبراز الحركة، وكأنك اختلسْتَ أو أخذت شيئا منها، حتى لا تؤثِّر على حرف العلة بعده .

وقد اقتُصر في الاختلاس على المكسور والمضموم، دون المنصوب، لخفة الفتحة على أختيها . وإن كان قد ورد عن بعض القراء اختلاس الفتحة، وهو تعليل صوتي، فالفتحة أخف الحركات، لأنها لا تتطلب أكثر من دفع الهواء من الرئتين مع انفتاح المسار وهبوط اللسان في قاع الفم، في حين يرتفع مقدَّم اللسان مع الكسرة ويرتفع مؤخره مع الضمة، لذلك كان بعض الناطقين يتخففون من الكسرة والضمة بحذفها .[60] وندُر اختلاس الفتح .

ومن أمثلة الاختلاس ، قراءة أبي عمرو بن العلاء باختلاس الراء في {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ} (سورة البقرة -67) ، وقرأ باختلاس النون في {مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا} (سورة يوسف -11) ، وفي {عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} (سورة الأحقاف -33) باختلاس كسرة اليا .[61]

- وقد عُبِّر عن كلٍّ من **الرَّوم والإشمام** بمصطلح "الإشار" عند علماء الأداء القرآني وكثير من المتقدمين وهما أيضا من الاختزال الحركي أو اختصار الصائت : Vowel reduction، " الإشار " عند البصريين بمعنى الإشمام بحيث لا يظهر للحركة أثرٌ في النطق، أما الكوفيون فهي عندهم بمعنى الرَّوم أي النطق ببعض الحرك .[62]

وهذا مؤداه أن الإشمام غير معتدٍّ به في الميزان العروضي أيضا، إذا كان وقفا على الكلمة، فهو إشارة إلى الحركة بالعضو المنتج لها دون الإصاتة أو التلفظ بها، فهو على ذلك خاصٌّ بالجانب الإيمائي وليس له تعلُّقٌ بالجانب الصوتي للحرك .[63] فهو أن يُشَمّ الحرف الساكن حرفا ، كقولك في الضَّم : هذا العَمَلُ، وتسكتُ، فتجدُ في فيك إشماما للَّام لم يبلغ أن يكون واوا، ولا تحريكا يُعتدُّ به، ولكن شمّةٌ من ضمّة خفيفةٍ، ويجوز ذلك في الكسر والفتح أيض .[64]

وقد جاء في لسان العرب إثبات ذلك في مادة (رَوَمَ) مُوردا رأي سيبويه والجوهري، قال " رام الشيءَ يرُومه رَوما ومراه : طلبه، ومنه روم الحركة في الوقف على المرفوع والمجرور، قال سيبويه : أما الذين راموا الحركة فإنّه دعاهم إلى ذلك الحرص على أن لا يُخرجوها من حال ما لزمه إسكانٌ على كل حال، وأن يُعلِموا أن حالها عندهم ليس كحال ما سكَن على كل حال، وذلك أرادَ الذين أشمُّوا، إلا أن هؤلاء أشد توكيدا، قال الجوهري : روم الحركة الذي ذكره سيبويه حركةٌ مختلسة مختَفاةٌ لضرب من التخفيف، وهي أكثر من الإشمام، لأنها تُسمَع، وهي بزنة الحركة ، وإن كانت مختلسة مثل همزةٍ بين بين، كما قال : أَأَنْ زُمَّ أَجمَالٌ وفَارقَ جيرةٌ وصاحَ غُرابُ البَيْنِ أنْت حزينُ

قوله : أَأَنْ زُمَّ : تقطيعه فَعُولُنْ، ولا يجوز تسكين العين . '[65]

وقوله " إن الذين أشموا أشدُّ توكيد " أي أشد تبعيضا للحركة وإخفاء لها في حالة الإشما . وقوله رومُ الحركة أكثر من الإشمام " أي طلب إظهارها في حالة الرَّوم أكثر من الإشمام الذي يخفيها بالكلية، ولا يبقي منها إلا تحريك الشفة ه .

ومما قاله أبو عمرو الداني مفصِّلا الفروق بين الروم والإشمام، إن : " الأصل أن يوقف على الكلم، المتحركة في الوصل – إذا كانت حركاتهن إعرابا أو بنا – بالسكون ..) ولأن معنى الوقف أن يوقف عن الحركة، أي تترك، وقد اختار عامة شيوخنا، الوقف على ذلك بالإشارة، **لما فيه من الدلالة على كيفية الحركة في الوصل، طلبا للبيان** . والإشارة على ضربين : تكون روْماً وتكون إشماماً، والروم أتمُّ من الإشمام، لأنه تضعيف الصوت بالحركة، حتى يذهب معظمها، فُيسمع لها صُوَيْتٌ خفيٌّ يُدرك معرفته الأعمى بحاسة سمعه، ويستعمل في الحركات الثلاث، إلا أن عادة القراء أن لا يروموا المنصوبَ ولا المفتوح لخفتهما وسرعة ظهورهما إذا حاول الإنسان الإتيان ببعضهما، فيبدو الإشباع لذلك . وأما الإشمام فهو لرؤية العين لا غير، إذ هو إيماء بالشفتين إلى الحركة بعد إخلاص السكون للحروف، فلا يقرَعُ السمع، ولذلك لا يعرفه إلا البصير ، ويستعمل فيما يعالَج بالشفتين من الحركات ، وهو الرفع والضم لا غير .'[66]

ثم قال " وكلُّ مشدَّد من جميع الكلم فالوقف عليه بالسكون والتشديد، إعرابا كانت حركته أو بناء، والروم والإشمام مستعملان في المرفوع من ذلك، والروم في المخفوض منه، نحو **{إلاَّ أَمَانِيٍ}** سورة البقرة -78 ؛ **{فَسَوَّاهُ}** سورة البقرة -29 ؛ **{مَّن رَّدٍ}** سورة الأعراف -51 ـــــ ـ ـ } سورة النور -40) **{أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِ}** سورة فصلت -44 . "[67]

يتَّضح أن الإشمام في الوقف هو : ضمُّ الشفتين بُعَـــيْد سكون الحرف آخر الكلام من غير صوت، وكيفيته أن تجعل الشفتين – بعيد النطق بالحرف ساكن - على صورتهما إذا لفظت الضم . هذا عند الوقف على الحرف أي قطع الصوت عنده .

غير أنه قد يُطلق لفظ الرَّوم على كلٍّ من الإشمام والاختلاس وذلك انطلاقا من معناه اللغوي وهو روْم النطق بالحركة أي طلبُها، ثم التوقف على جزء منها، وهذا ما شرح به ابن منظور مفهوم الإشمام عن سيبويه والجوهري قائلا : " والإشْمامُ روم الحرف الساكن بحَركةٍ خَفيَّة لا يعتدُّ بها ولا تكسِرُ وزنا، ألا ترى أن سيبويه حين أنشد :

متَى أَنامُ لا يؤرِّقْني الكَرِى ، مجزوم القاف، قال بعد ذلك : وسمعت بعض العرب يُشِمُّها الرفع، كأنَّه قال متى أنام غير مُؤرِّقٍ .[8] وهذا معناه أن بعض اللغويين يجيز إشمام المكسور أيضا، إذ ورد أوضحُ من ذلك في شرح المفصل لابن الحاجب الذي نقل قول الأندراني : " الإشمام هو أن تضمَّ شفتيك في المضموم وتكسرها في المكسور بعد ما نَطقْتَ بالحرف، فيرى ذلك الناظر إلى الشفتين، ولا يحس الأعمى، لأنه لا صوت له فيدركه، وهو دون الرَّوم، وهو تهيئة العضو لإرادة الحركة، وحقيقة الإشمام تحريك الشفة بلا تصويت .[69]

ويُلحَظ أن الأنسب من الآراء اعتبار الإشمام في الوقف مقصورا على الضم، لأن الضمة من الواو وهما من الشفتين، وتحريك الشفتين كتحريك أي عضو من أعضاء الجسم، ممكنٌ مع كل حرف، في حين كانت الكسرة من وسط اللسان، والفتحة من الحلق وعند النطق بالساكن تكون العودة إلى وسط اللسان والحلق لِتبيُّن الحركة أمر متعذر، ومن ثَمَّ فالنّصب والجر لا يوافقان الرفع في الإشما .[0]

وذهب الجمهور إلى أن الرَّوم يشمل الحركات الثلاث، خلافا للفراء الذي استثنى الفتحة، معللا ذلك بأن الفتح لا جزء له، لخفته، إلى جانب أنه لم يُسمَع رَومُ المفتوح، وذكر الأزهري أن القراء السبعة موافقون لمذهب الفرا .[71]

وهذا ما يؤكده بعض المحدثين ، من أن الرُّوم إنما يختص بالوقف، ويكون في الضمة والكسرة، ولا يكون في الفتحة، أما الاختلاس فلا يختص بالوقف، ويكون في جميع الحركات، ورغم كونهما معاً اختصارا في الـــمُدّة الزمنية للحركة، إلا أن مُدة الحركة في الروم أقصر من مدة الحركة المُختلسة، فيكون الروم والاختلاس اختزالا للحركة، إلا أنهما ليسا على درجة واحدة .[72]

سابعا – فروع الحركات الثلاث وما يتوسّطها الحركة المُـــمَالة والمفخّمة والمُـــشمّ) :

- **كما إنه في صورة أخرى مرتبطةٍ ببنيةِ اللفظ** ، تتولد عن الحركات الرئيسية الثلاث : الضمةِ والكسرةِ والفتحةِ، حركاتٌ أخرى فروعٌ لها، حيث نصَّ الصبان في حاشيته على شرح الأشموني، أن : "

الحركات ست : الثلاث المشهورة .

وحركة بين الفتحة والكسر ، وهي التي قبل الألف الـــمُمَالة .

وحركة بين الفتحة والضم ، وهي التي قبل الألف المفخّمة في قراءة ورش . نحو : الصلاة، والزكاة، والحياة .

وحركة بين الكسرة والضم ، وهي حركة الإشمام في نحو : قُـــيل، وغُـــــــيض، على قراءة الكسائي .[73]

ولم يذكر الصبان أن هناك **حركة بين الضمة والكسر** ، وهي ما مثّل لها ابن جني بمذعُور وابن بُور .[74]

والترتيب مقصود فيما بين هذه الصوائت الدقيقة، فالحركة الأولى بين الحركتين هي التي ينطلق بنطقها اللسان أولا والثانية هي التي يميل إليها اللسان لاحقا، وهو ما يولّد حركة بينهما .

أولا الحركة الممالة بين فتح وكسر، تنتُجُ بسبب الإمالة التي تطرأ على ألف بعد الفتحة، وظاهرة إمالة الفتح نحو الكسر تنسب إلى القبائل النجدية على وجه العموم كتميم وقيس وأسد .[5] تتضح في مثل الألفاظ المقصورة في سورة الضحى التي رواها ورش عن نافع، مثل الضحِى، سجِى، قلِى، الأولِى، ترضِى ، فآوِى، فهدِى، فأغنِى .[76]

فإن الفتحة قبل الألف المقصورة هاهنا تنطق عند ورشٍ مُمَالةً أي مائلةً نحو الكسرة، فلا هي فتحة كاملة ولا هي كسرة كاملة بل تنطق متوسطة بينهم .

وهذا ما يفسر إطلاق مصطلح الفتح في مقابل الإمالة، في حين أطلق على الإمالة مصطلح الكسر، لأن الإمالة - كما يقول أبو شام – : " أن تقرّب الفتحة من الكسرة والألف من الياء، من غير قلب خالص ولا إشباع مبالغ في .[7] واعتبر الرضي في شرحه على الشافية أنه يفي بالغرض اعتبار الإمالة أن ينحى بالفتحة نحو الكسر ، لأنه يلزم من إمالة فتحة الألف نحو الكسرة إمالة الألف نحو الياء أيضا، و الألف المحض لا يكون إلا بعد الفتح المحض، ويميل إلى جانب الياء بقدر إمالة الفتحة إلى الكسرة ضرورة، فلما لزمتها لم يحتج إلى ذكره .[78]

ثانيا توسُّط الحركة بين الفتحة والضمة وسببه التأثر بأصوات الإطباق المجاورة لها، فالفتحة والألف تتبع ما قبلها في التفخيم إذا كان من أصوات الاستعلا ، ومنها أصوات الإطبا ، [9] وتتبعها في الترقيق ، إذا وقعت بعد بقية الأصوات . والفرق يُدرَك بوضوحٍ في درجة الفتح بين طامَّ) و تامَّ ، وبين صا) سا ، وبين قال) كال .[80]

ثالثا والحركة التي بين كسر وضمٍّ هي المعبَّر عنه بالإشمام وهو باب قيل وغيض ، أو هو خلط حركة بحركة، نحو (قُيل) غُيض في قراءة من أشمَّ من آ { **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَ** } هو : 44 ، بحيث يحرَّك أول حرف في الكلمة بحركة مركَّبة من حركتين، ضمة وكسرة، وجزء الضم مقدم وهو الأقل، ويليه جزء الكسرة وهو الأكثر، أو " يؤتى بجزء من الضمِّ قليل سابق، وجزء من الكسرة كثير لاحق" على حدِّ تعبير ابن الصبا .[1] وكثير من المتقدِّمين يعبِّرون عن هذا الإشمام بمصطلح الضم لما حدث في الـــمُشمِّ من الضم، كما عبروا عن الممال بالكسر، [2] ومن أسباب النطق بهذا الشكل، الإشارةُ إلى أصل الكلمة قبل إعلالها ، إذ كانت قيا) على وزن فُعِلَ المبني للمجهول، قبل كسر الفاء فيها لتُجانِس اليا .

رابعا الحركة بين الكسر والضمِّ، إذ عدَّ ابن جني باب قيل وغيض) أكثر من باب مذْعُور وابن بو) أي الحركة بين الكسر والضـ .[3] وهما صوتان متمايزان عن بعضهما بنحو دقيق، إذ تختلف حركة أعضاء النطق حال إنتاج الصوتين، فالضمة المشوبة بالكسرة يكون اللسان معها في وضع النطق بالضمة، وتكون الشفتان قد اتخذتا وضع النطق بالكسرة، حيث يكون وضع الانفراج، ويرمز لها بالرمز W ، أما الكسرة المشوبة بالضمة فيكون اللسان قد أخذ وضع النطق بالكسرة وتستدير الشفتان وكأنهما تريدان النطق بالضمة، ويرمز لها بالرمز / .[+] ووجه التحول من الضمة الخالصة إلى الضمة المشوبة بالكسرة إنما كان بسبب صوت الراء المكسورة، لأننا كثيرا ما نجد صوت الراء المكسور يجنح بالكلمات التي يرد فيها إلى الكسر أو الإمالة، كما في مذعُورٍ وابن بُو .[85]

والملاحظ أن **مصطلح الإشما** يطلق على معنيين دقيقين أولهما سبق الإلماح إليه بوصفه صِنوًا للروم ،والثاني وهو ما سجلناه قبل قليل ، أو لِنَقُل إنَّ " الإشْمَامُ **عند جمهور النّحاة والقراء** : صَبْغُ الصوت اللغوي بمسحةٍ من صَوت آخر ، مثل نُطْقِ كثير من قَيس وبني أسد لأمثال : قيل وبيع بإمالة نحو واو المد ، ومثل إشمام الصاد صوتَ الزاي في قراءة الكسائي بصفةٍ خاصة.

وهو (**لدى القرّاء وحدهم** : الإشارة بالشفتين إلى الضمة المحذوفة من آخر الكلمة الموقوف عليها بالسكون من غير تصويت بهذه الضمَّة [86]

وطوائف من القرَّاء عبروا عن الإشمام في هذه الصورة بمصطلح الرَّوم الذي هو محاولة تمام الشيء وإتمام الصوت به ولَمَّا يُتم، إذ يعبِّرون به عن خلط حركة بحركة، نحو (قُيل) ، بحيث يُنحى بكسرة أول الكلمة نحو الضمة يسيرا إشارة إلى الأصل، وسمي بذلك لأنك تروم الضم في أوائل تلك الكلم ثم تنتقل إلى الكسر واليا .[87]

ومنهم من عبر عن هذا الإشمام بالإمالة لأن الحركة ليست بضمة محضة ولا كسرة محضة، كما أن الإمالة ليست بكسر محض، ولا فتح محض، فدخله من الشَّوب والخلط ما دخل الإمالة، وهذه التعبيرات على اختلاف ألفاظها ذات حقيقة دقيقة في النطق، ولا تضبط إلا بمشافهة الحُذَّاق .[88]

وذهب إبراهيم أنيس إلى أن ما يسمى بالوقف بالإشمام والروم لا يمت لوقف العرب بصلة ما، مدَّعيا أن هذا من اختراع القراء الخالفين، لهداية الناشئة إلى حركات الإعراب في أواخر الآيات .[9] ويكفي الرد على هذا الكلام بأوكد أصلٍ في علم القراءة والأداء القرآني وهو أن القراءةَ القرآنيةَ الثابتة سنةٌ متبعةٌ، و لم يكن ليَقرأ القراء الموثوقون إلا بأثر ثابت، ومثل قول أنيس يؤدي إلى زوال الثقة بهم وبالتالي الطعن في النص القرآني ورواياته .

ويشير بعض الباحثين إلى أن هذه الصور من الحركات تمثل ألوانا من الأداء، عَكَس اختلافَ القبائل العربية في نطق هذه الحركات، ولولا أن هذه الحركات كانت مألوفة على ألسنة العرب، واضحة الفروق بينها، ملموسة حدودها ما التفت إليها العلماء وما سجلوها بهذه الدقة البالغ .[90]

* حوصلة . قول :

ينكشف لنا من خلال ما سبق أن الحركات الأصلية في أصوات اللغة العربية ثلاثٌ قصيرة ، وثلاث مدود تتولد عن إشباع الحركات أي مدّها بحرف العلة الذي يلائمها، وقد اختص هذا البحث في النظر إلى الحركة في العربية ودرجاتها، أما الضمة والكسرة والفتحة فهي أساس إخراج الأصوات من حيز القرع الصامتي إلى حيِّز القلع الصائتي، وهذا التصويت هو في أصله ظاهرة كمٍّ تدركه الأذن السامعة، فالحركة تقع في نصف حجم المدود الصوتية وهي محدودةُ الحجم الامتدادي ، بينما المدود تصل إلى حد ضِعف الحركة التي هي من جنسها وهو المسمى بقصر المدِّ، بل إن المد يمتد إلى أكثر من ذلك كحد التوسط وهو بحجم ثلاث حركات ، وحد الإشباع الذي يبدأ من حجم أربع حركات إلى الست كحدٍّ أقصى .

هذا عن درجات الحركات من حيث الحجم الضِّعفي ، أما عن درجاتها في حدودها الدنيا ، فالأصل في الحركة إتمامها أي الإتيان بها تامة دون انتقاص، لكنها قد تقع متوسطة الأحجام وقد تتقلص كميتها الطبيعية ، وذلك في حالات مختلفة ، إذ هناك حركة بين الفتحة والكسرة، وهي التي قبل الألف المُمالة ، وحركة بين الفتحة والضمة، وهي التي قبل الألف المفخمة كما في قراءة ورش، وحركة بين الكسرة والضمة، وهي حركة الإشمام بمعناه الأول أي مزج حركتين معاً، وحركة بين الضمة والكسرة وهي أقل وقوعا، وسببها أن بعدها راء مرققه تسببت في كسره .

وقد ذكرنا كذلك اختزال حجم الحركات وتقليصها بالأخذ منها أو الإشارة إليها ، وهي تتوزع إلى مرتبة الروم والإشمام، والاختلاس الذي يتمثل في أخذ ثلث الحركة والنطق بثلثيها، أما الرو · وقريب منه الإشما – فهو الأخذ من الحركة واجتزاء ثلثيها أي أكثر من نصفها حتى لا يبقى إلا ثلثها، فالروم يخفي منها أكثرها والإشمام لا يدركه إلا البصير، إذ يُشَار إلى الحركة الأصلية بحركة شفوية تمثِّلها لا غير، وهذا هو الإشمام بالمعنى الثاذ .

الهوامــــش :

01. نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي، تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي عوض، دار الكتب العلمية، بيروت ، ط1992، م، ص 56 .
02. نفســـــه ص 57 بتصرف قليل .
03. سر صناعة الإعراب، لابن جني، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، بيروت، ط 2 ، 1993م، (1 / 56 -27 . وينظ : الكتاب لسيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 2 ، 1982م، (4 /242).
04. ينظ : أسباب حدوث الحروف، أبي علي الحسين ابن سينا ، تحقيق محمد حسن الطيان ،ويحيي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، 1983 ، ص 57 - 58 – 59 .
05. أثر الحركات في اللغة العربي – دراسة في الصوت والبنية، علي عبد الله القرني، قسم الدراسات العليا العربية، المملكة العربية السعودية، طبعة 2004م، ص 2 .
06. التحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي، دراسة وتحقيق : . غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط 1 ، 2000م، ص 95 .
07. والإشباع في الحركات : هو أن تزيد في الحركة حتى تبلغ بها الحرف الذي أُخِذَت منه . أو أن يُؤتى بالضمة والكسرة والفتحة كوامل على هيئتهن غير منقوصات ولا مختلسات، ويعبر عنه أيضا بـ الإتمام ينظ : معجم مصطلحات التجويد والقراءات، إبراهيم الدوسري، ص 27 .
08. الموضح في التجويد، عبد الوهاب القرطبي تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط 1 ، 2000، ص 191 .
09. الكتاب لسيبويه ، 1/315 .
10. السيرافي، ضمن السيرافي النحوي، ص 586 .
11. حركات العربية - دراسة صوتية في التراث الصوتي العربي، عبد الحميد زاهيد ، تقديم التهامي الهاشمي ، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط 1 2005م، ص 26 .
12. دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب القاهرة، 1997 م، ص 136 .
13. ينظ : الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس ، مكتبة نهضة مصر ، ص 26 ، ومحمود السعران، علم اللغة، دار النهضة العربية، بيروت، ص 160 . أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي، ص113 .
14. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط 2 ، 2007م ، ص 135 .
15. نفـــــسه ، ص 136 .
16. معجم المصطلحات في علمي التجويد والقراءات، . إبراهيم بن سعيد الدوسري، جامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، ط 1 ، 2004م ص 50 .
17. نفـــــسه ، ص 57 .
18. معجم علم اللغة، ص 43 .
19. ينظر : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص 426 ومعجم مصطلحات علم اللغة الحديث، ص 43 .
20. علم التجويد دراسة صوتية ميسرة، غانم قدوري الحمد، دار عمار ، الأردن، ط 1 2005 ، ص 143 .
21. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ، ص 426 .
22. ينظ : أسس علم اللغة، ماريو باي ، ترجمة وتعليق أ . أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط 3 1998 م، ص 142 . و . وينظ : علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت ص 371 .
23. سر صناعة الإعراب، لابن جني ص 23 .
24. شرح المفصل، لابن يعيش، الطباعة المنيرية ، بمصر ، ج 1 ص57 .
25. أسباب حدوث الحروف، أبي علي الحسين ابن سينا، ص 35 . وفي بعض النسخ قوله وأما المصوتات فأمرها وتأثيرها عليَّ كالمشكل "
26. أسباب حدوث الحروف ص 35 .
27. ينظر : أثر الحركات في اللغة العربي – دراسة في الصوت والبنية، علي عبد الله القرني، ص 9 .
28. ينظ : التشكيل الصوتي في اللغة العربية – فونولوجيا العربية – سلمان العاني، الفصل الثاني الخاص بالحركات،النادي الأدبي الثقافي، المملكة السعودية، ط 1 ، 1983 م، ص 38 ، وما بعده .
29. التشكيل الصوتي في اللغة العربية ، سلمان العاني، ص 38 -39 .
30. نفســــه ، ص 39 .
31. نفســــه ، ص 14 - 115 .
32. الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق احمد حسن فرحات، دار عمار،الأردن ، ط 3 ، 1996 م، ص126 .
33. أسباب حدوث الحروف، لابن سينا ص 35 .
34. لطائف الإشارات لفنون القراءات، شهاب الدين القسطلاني ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1972 م، ص1 / 187 .
35. سر صناعة الإعراب، لابن جني، 17 – 18 .

36. سر الصناعة، ص .
37. حركات العربية، عبد الحميد زاهيد ، ص 50 .
38. أثر الحركات في اللغة العربية، ص 14.
39. ينظ : معجم المصطلحات في علمي التجويد والقراءات، . إبراهيم بن سعيد الدوسري، ص 53. وكميّات المدود في الأصوات العربية تصل إلى حد الستّ حركات وهو حد الإشباع ، وأسباب تطويل المد متنوعة باعتبار ما بعدها، كالهمز والحرف المشدَّد، والسكون العارض، مما فصّل فيه علماء الأداء القرآني في مبحث المدو .
40. حركات العربية، عبد الحميد زاهيد ، ص 127.
41. أسباب حدوث الحروف ص 35 .
42. معجم مصطلحات علم اللغة ، ص 46 .
43. النشر ، ص 313.
44. الخصائص، أبو الفتح بن جني، تح محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، 956 م، ص 3/24 -125.
45. معجم علم اللغة، ص 38 .
46. التحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني ص 95 .
47. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم الحمد، ص 428.
48. ينظر : حركات العربية، ص 124. و معجم مصطلحات علم اللغة الحديث ، وضع نخبة من اللغويين العرب ، مكتبة لبنان ، ط 1 983 م، ص 2 .
49. ينظر النص المنقول : الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، غانم قدوري، ص 427 - 428.
50. ينظ : إبراز المعاني شرح حرز الأماني، أبو شامة المقدسي، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب العلمية، بيروت ص 326 . تحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد البنا، عالم الكتب بيروت، ط 1 ، 1987 (1 / 392 .
51. سنتحدث لاحقا عن الاستعمال الثاني لمصطلح الإشمام حين يكون في بنية الكلم .
52. معجم علم اللغة، ص 2 .
53. المصدر نفسه، ص .
54. معجم مصطلحات التجويد والقراءات، إبراهيم الدوسري، ص 22 .
55. التحديد في الإتقان والتجويد، أبو عمرو الداني، ص 5 -96.
56. سر صناعة الإعراب، 1 56 - 57).
57. ينظ : القراءة بالإشمام : معجم القراءات ، عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة، دمشق، الطبعة 1 ، 422 هـ 2002 (ج 1 ، ص 89 – 190).
58. ينظر معجم مصطلحات التجويد والقراءات، الدوسري، ص 0 -21. وينظر علم التجويد ، غانم قدوري، ص 40 -141.
59. علم التجويد ، غانم قدوري ، ص 140.
60. ينظ : أثر الحركات في اللغة العربية، ص 113.
61. ينظر إبراز المعاني لأبي شامة، ص 326.
62. معجم مصطلحات التجويد والقراءات ص 27.
63. ينظر : حركات العربية، ص 119.
64. لسان العرب ، مادة شمم ، مج ص 2333 ، 2334 ، طبعة دار المعارف .
65. لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مج ص 1782 . مادة روم .
66. التحديد في الإتقان والتجويد، لأبي عمرو الداني الأندلسي، ص 169 . 170 .
67. المصدر نفسه ، ص 171.
68. لسان العرب ، مادة شمم ، مج ص 2333 ، 2334.
69. الإيضاح في شرح المفصل، أبو عمر بن الحاجب، مطبعة العاني، بغداد، 982 م، ص 479.
70. ينظر : الكتاب لسيبويه ، 4 / 71 ، شرح المفصل لابن يعيش ، 9/67.
71. شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الاستراباذي دار الكتب العلمية، بيروت، 982 م، ص 2 /275 ، وينظ : أثر الحركات في العربية، ص 112.
72. ينظر : حركات العربية، عبد الحميد زاهيد، ص 145.
73. حاشية محمد بن علي الصبان على شرح الأشموني لألفية بن مالك، (2 / 63 – 64 . وكذلك قرأ بالإشمام جمعٌ من القراء في سورة الملك " **سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** " الآية 27 . ينظ : إتحاف فضلاء البشر، احمد البنا، ج ص 420.
74. سر صناعة الإعراب، أبو الفتح بن جني، ص 1/ 51.
75. شرح المفصل، 9 / 54 .
76. ينظ : معجم القراءات القرآنية، لعبد العال سالم مكرم، وأحمد مختار عمر، ط 2 ، 988 م، مطبوعات جامعة الكويت، ج ص179، وما بعده .

77. إبراز المعاني في حرز الأماني، أبو شامة المقدسي، ص 204.
78. ينظ : شرح الشافية ، الرضي الاسترابادي ، 3 / 4 .
79. أصوات الإطباق جزءٌ من أصوات الاستعلاء، ويكون قدر التفخيم فيها على قدر الاستعلاء، فالأصوات المطبقة الأربع : الطاء والضاد والصاد والظاء، يكون تفخيم الألف بعدها أكثر من تفخيمه بعد بقية أصوات الاستعلاء وهي العين والخاء والقاف . وينظ : علم التجويد، دراسة صوتية ميسرة، غانم قدوري، ص 142.
80. علم التجويد دراسة صوتية ميسرة، غانم قدوري، ص 142.
81. حاشية الصبان ، 2 / 52 .
82. ينظ : الكتاب لسيبويه، 4 / 171 . شرح المفصل،لابن يعيش، 9 / 57 .
83. سر صناعة الإعراب ، 1/150 -151.
84. ينظر : أثر الحركات في اللغة العربية ، علي القرني، ص 5 ، والدراسات الصوتية عند علماء العربية، ص148 .
85. الكتاب لسيبويه ، 4/143 و ينظ : أثر الحركات في اللغة العربية، ص 5.
86. ينظر : معنى الإشمام في معجم المعاني الجامع - معجم عربي عربي ، مادة شمّ .
87. معجم مصطلحات التجويد والقراءات ص 59.
88. نفســـــ ، ص 28.
89. من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط5 ، 1978م ص 223.
90. أثر الحركات في العربية، ص 5.

قائمة المصادر والمراجع :

- إبراز المعاني شرح حرز الأماني، أبو شامة المقدسي، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب العلمية، بيروت .
- تحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، أحمد بن محمد البنا، عالم الكتب بيروت، ط 1 ، 1987 .
- أثر الحركات في اللغة العربية – دراسة في الصوت والبنية، علي عبد الله القرني، قسم الدراسات العليا العربية، المملكة العربية السعودية، 2004 .
- أسباب حدوث الحروف، أبي علي الحسين ابن سينا، تح محمد حسن الطيان، ويحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بمصر .
- أسس علم اللغة، ماريو باي ، ترجمة وتعليق أ . أحمد مختار عمر، عالم الكتب،القاهرة، ط 3 ، 1998 .
- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس ، مكتبة نهضة مصر .
- الإيضاح في شرح المفصل، أبو عمر بن الحاجب، مطبعة العاني، بغداد، 1982م .
- التحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي، دراسة وتحقيق : . غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن ، ط 1 ، 2000 .
- التشكيل الصوتي في اللغة العربية ، سلمان العاني ، مراجعة . محمد محمد غالي، النادي الأدبي بجدة ، 1983م .
- حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك . بدون طبعة ، بدون تاريخ .
- حركات العربية : دراسة صوتية في التراث الصوتي العربي، عبد الحميد زاهيد ، تقديم التهامي الهاشمي ، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط 1 ، 2005 .
- الخصائص، أبو الفتح بن جني، تح محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، 1956 .
- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر ، عالم الكتب القاهرة، 1997 .
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار، الأردن، ط 2 ، 2007م .
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق احمد حسن فرحات، دار عمار، الأردن، ط 3 ، 1996 .
- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح ابن جني ، دراسة وتحقيق حسن هنداوي، دار القلم، بيروت، ط 2 ، 1993 .
- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الاستراباذي دار الكتب العلمية، بيروت، 1982 م
- شرح المفصل، لابن يعيش، الطباعة المنيرية ، بمصر .
- علم التجويد دراسة صوتية ميسرة، غانم قدوري الحمد، دار عمار ، الأردن، ط 1 ، 2005 .
- علم اللغة، محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت .
- الكتاب لسيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط 2 ، 1982 .
- لطائف الإشارات لفنون القراءات شهاب الدين القسطلاني ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1972 م.
- لسان العرب لابن منظور، دار المعارف، القاهرة .
- معجم القراءات القرآنية، لعبد العال سالم مكرم، وأحمد مختار عمر، ط 2 ، 1988 م، مطبوعات جامعة الكويت .
- معجم القراءات ، عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة، دمشق، الطبعة الأولى، 1422 هـــ 2002م .

- معجم المصطلحات في علمي التجويد والقراءات، د. إبراهيم بن سعيد الدوسري، جامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، ط 1، 2004 م.
- معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، وضع نخبة من اللغويين العرب، مكتبة لبنان، ط 1، 1983 م.
- من أسرار اللغة، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 6، 1978 م.
- الموضح في التجويد، عبد الوهاب القرطبي، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمار، الأردن، ط 1، 2000 م.
- نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي تحقيق عادل عبد الموجود، وعلي عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1992 م.

الدّلالة الصّوتية في ديوان مآسي وأين الآسي لأبي الحسن علي بن صالح الجزائري 906 – 988. مـ

Sound significance in the collection (Tragedies and where isAci?) of Abu Hassan Ali ben Salah Aljazairi 1906-1988

الدكتور يوسف بن نافلـــة
جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف

الملخص :
تتناول هذه الدراسة الحديث عن مفهوم الدلالة في اللّغة ، ثم في الاصطلاح بعدها التعريف بالدلالة الصوتية وميدانها، وحقيقتها عند أهل الاختصاص، ثم أقدم ترجمة موجزة للشاعر الجزائري أبي الحسن علي بن صالح الغرداوي ، ثم أشرع في تحديد الدلالة الصوتية في ديوان الشاعر الموسوم بـ مآسي وأين الآسي) وهنا تناولت جملة من الظواهر الصوتية في شعر أبي الحسن مع تحديد الدلالة التي كان يرمي إليها الشاعر من ذلك الانسجام الصوتي ، والإيقاع ، والتلاوة، والجرس الموسيقي ، والإيقاع بنوعيه الداخلي والخارجي ،ثم المقاطع الصوتية ، والمماثلة الصوتية،والنّبر ، والتنغيم، والترصيع .

الكلمات المفتاحي : الدلال - الصوت - الإيقا - المماثل - الانسجا - النب .

Summary :
This study deals with the modern concept of significance in the language, and then in the terminology beyond definition sound give indications and their respective fields, and what they are when the people of jurisdiction, then the oldest brief translation of the poet Algerian Abu Hassan Ali Bin Saleh Algrdaoa, and then proceed to determine Aldalalhalsotah in the office of the poet is marked by (tragedies and where Asi?) and here it dealt with a number of acoustic phenomena in the poetry of Abu al-Hasan with determining significance that was intended to poet of the acoustic harmony, rhythm, recitation, music, bell, and the rhythm of internal and external both types, and audio clips, and Almmathlhalsotah, and stress, and toning, and studding.

Words Key: Signification – Voice – Coherence – Tythm – Assimilation – Intonation.

المقدمة :

يزخر التراث الجزائري بعلماء أجلاء تركوا بصماتهم في الساحة العلمية ،والأدبية ،فهم بحقّ نجوم القمّة ، وأعلام الأمة الخالدة بخلود رجالها ،وعلمائها الأجلاء ، ومن الشعراء الجزائرين الذين خلدوا أسمائهم في التاريخ الناظم أبو الحسن علي بن صالح الغرداوي الجزائري فارتأيت أن أتناول الصوت ، ودلالته ،ووظيفته في ديوانه مآسي وأين الآسي . أما الإشكال الذي أرغب في طرحه فيتمثل في الآتي :

فيم تكمن الدلالة الصوتية في الشعر الجزائري؟ وما هي أهم الظواهر الصوتية التي كان الشاعر يرمي إليها من خلال ديوانه مآسي وأين الآسي؟) وماهي أهم المعاني التي كان الشاعر يقصدها من خلال شعره الرصين؟

مفهوم الدلالة :

- في اللغة :

جاء في معجم لسان العرب مادة دلل : الدالة ماتدل به على حميمك ،والدليل مايستدلّ به وقد دلّه على الطريق يدلّه دَلالة ودِلالة ودُلولة ،والدليل ،والدليلي الذي يدلّك ،والجمع أدلّة وأدلاّء ،والاسم الدِّلاة والدَّلالة بالكسر والفتح ،والدّلولة ،والدليلي ثم يستدل بقول سيبويه ت 80 هـ والدليلي علمه بالدلالة ،ورسوخه فيها ودللت بهذا الطريق عرفته ودللت به أدلّ دلالة ، وأدللت بالطريق إدلالا،والدليلة المحجة البيضاء ،وقوله تعالى ثمّ جعلنا الشمس عليه دليلا .

والدلال الذي يجمع البيعين ،والاسم الدّلالة ،والدّلالة ،والدِّلالة ماجعلته للدليل أو الدّلال . .

وأدللت بالألف لغة والمصدر دلولة والاسم الدلالة بكسر الدال وفتحها وهو ما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه ،واسم الفاعل دال ودليل وهو المرشد والكاشف ،ودلت المرأة دللا،ودلا من بابي تعب وضرب وتدللت تدللا والاسم الدلال .

ب - في الاصطلاح :

يرى العلامة التهانوي ت158 هـ) في الكشاف :(الدلالة بالفتح هي على ماصطلح عليه أهل الميزان ،والأصول ، والعربية ، والمناظرة ، أن يكون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر ،والشيء الأول يسمى دالا ،والشيء الآخر يسمى مدلولا

ويرى محمود عكاشة أنّ علم الدلالة سيمونتيك) هو العلم الذي يتناول المعنى بالشرح والتفسير ،ويهتم بمسائل الدلالة وقضاياها ، ويدخل فيه كل رمز يؤدي معنى سواء أكان الرمز لغويا أو غير لغوي .

ويعد علم الدلالة أهم فرع من فروع علم اللغة ،وأنّ اللغة موضوع علم اللغة وضعت للتعبير أو للدلالة) عما في نفس متكلمها ، وكل الجوانب اللغوية الأخرى هدفها تبيين المعنى على نسق واضح سهل الفهم ،وجميع فروع اللغة تشارك في الدلالة ولا يمكن الفصل بينها وبين علم اللغة ،وكل فرع منها يساهم بدوره في الدلالة في إطار مجاله .[iv]

وهو العلم الذي يتناول المعنى بالشرح والتفسير ،ويركز على مسائل الدلالة ،وقضاياها ،ويتعلق ذلك بكلّ رمز يؤدي معنى سواء أكان الرمز لغويا ،أو غير لغوي مثل الحركات ،والإشارات ،والهيئات ،والصور ،والألوان ،والأصوات غير اللغوية ،وغير ذلك من الرموز التي لها دلالة تؤديها عن طريق التواصل الاجتماعي .

الـــدّلالة الصّـــوتية :

يدرس علم الأصوات اللغة المنطوقة ،وهو فرع من علم اللغة ، وينفرد عن غيره من الفروع بأنه يهتم بشطرها المنطوق أو الملفوظ فقط،كما أنه يهتم بأدق وأصغر الوحدات الدلالية في اللغة ،والأصوات أصل طبيعة اللغة ،أما الكتابة فهي لاحقة عليها ،ورمز الصوت .

وتقسم أصوات اللغة إلى ضربين هما الصوامت ،والصوائت ،الصوامت الأصوات التي تتعلق بمخرج معين يعترض الهاء الصادر من الحنجرة حين إصدار الصوت المراد اختياره ،وهذا النوع يشكل معظم أصوات العربية .

والأصوات الصائتة هي التي لا يعترضها عضو من أعضاء النطق ،أو لا تنطق بمخرج صوتي يثني النفس الهواء الصادر من الحنجرة) عن امتداده فيكون الصوت أثناء نطقها ممتدا حرا لايعوقه حتى ينفذ،ويمثل هذا النوع أصوات المد أو اللين أو العلة الألف ،الواو ،الياء حال سكون الواو ،والياء ،والحركات القصيرة تعتبر أبعاض هذه الأصوات أو جزء منها ،لكنها لاتبلغ مقدارها من ناحية الطول ، وكمّ الهواء المندفع ،وهذان النوعان الصامت ،والصائت يشاركان في الدلالة أكثر من الحركات القصيرة ،

وتتحقق الدلالة الصوتية في مجال تأليف مجموع أصوات الكلمة المفردة ،وتسمى بالعناصر الصوتية الرئيسة ،والتي يرمز إليها بالحروف : د د ث ج .... ،ويشكل منها مجموع حروف الكلمة التي ترمز إلى معنى معجمي .[v]

وتتحقق هذه الدلالة أيضا من مجموع تأليف كلمات الجملة ،وطريقة أدائها الصوتي ،ومظاهر هذا الأداء ،وتعرف باسم العناصر الصوتية الثانوية ،وتعتبر هذه العناصر أكثر إسهاما في مجال الدلالة من العناصر الصوتية التي تتعلق بالكلمة المفردة ويطلق العلماء على الأصوات الصامتة ،والأصوات الصائتة المقطع الأولي ،أو الصوت التركيبي ،وهو أصغر وحدة صوتية ، ويشمل السواكن والعلل .

التعريف بالشاعر أبي الحسن علي بن صالح الجزائري :

هو أبو الحسن علي بن صالح بن عمر بن إبراهيم بن أحمد بن صالح بن مرزوق من مواليد 324. هـــالموافق ل1906مـــ بمدينة القرارة ،ولاية غرداية ،ترعرع في أحضان عائلة محافظة على العادات ،والتقاليد ،والدين الحنيف تتلمذ على يد علماء أجلاء أمثال الشيخ محمد بن الحاج الطرابلسي،ثم أتم حفظ القرآن الكريم وهو لا يتجاوز سنّ الثانية عشر من عمره . التحق بالبعثة الميزابية العلمية إلى تونس وهو ابن الحادية عشر ،ثم قاطع دراسته لظروف اجتماعية ،وعاد إلى بلاده سنة 923. مـــ فواضب على حلقات العلم .

ولما تأسست في بسكرة أول مدرسة عربية حرّة سنة 1928 مـــ كان بها مديرا ،ومعلما ،وقد لاحقته السلطات الاستعمارية الفرنسية بإلحاح لما رأت فيه من جرأة في خدمة الدين ،واللغة ،والوطن ،وكان ذلك سببا في عدم استقراره ،وفي سنة 931. مـــ انتقل الشاعر إلى مسقط رأسه بمدينة القرارة .

وقد برز الشاعر أبو الحسن علي بن صالح على الساحة الأدبية ضمن جماعة من من الشعراء في عصره ،وعلى رأسهم شاعر الثورة مفدي زكرياء ابن منطقة وادي ميزاب ،ومحمد العيد آل خليفة ،ورمضان حمود ،وغيرهم .

عُرف الشاعر بحبه للوطن حتى النخاع ،ودفاعه المستميت عنه رافضا لكل ظلم ،واستبداد متأثرا بأفكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،وقد لقي من الاحتلال الفرنسي الغاشم مرارة الحياة ،وضنك العيش مثل غيره من دعاة الحق ،وأعلام الإصلاح في الجزائر ،وقد لاحقه الاحتلال بإلحاح بسبب جرأته ،إيمانه بالحق ،وحبه الشديد لوطنه ،وعدم خوفه في الله لومة لائم ،وإخلاصه في خدمة الدين ،واللغة ،والوطن المفدّى .

انضمّ الشاعر إلى الثورة المباركة ،وعزم على محاربة العدو المحتل باللّسان ،إلى جانب القلم واللسان فاعتقل في الأربعينيات ،و لم يطلق سراحه إلاّ قبيل اندلاع الثورة التحريرية المجيدة سنة 1954 مـــ،ولما تكونت الولاية السادسة كان من الأوائل الذين التحقوا بجبل بوكحيل " الذي دوّخ فرنسا قرب ولاية بوسعادة ،وله في العمل الثوري مواقف مشرّفة ،وكان منزله من الأماكن التي يتردّد عليها المجاهدون ،وقد تعرض لعنت شديد ،حيث ألقي القبض على ولديه بكير ،ومحمد و لم يجتمع شمل العائلة إلاّ بعد الاستقلال .

انتقل بعد الاستقلال إلى الجزائر العاصمة ،وعُيّن أستاذا في التعليم الرسمي بإكمالية القبّة بالعاصمة .

توفي رحمه الله يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من محرم 409 هـ الموافق للسادس من سبتمبر 1988 مـــ بمنطقة غرداية .

خلف الشاعر آثارا مختلفة منها ماهو مطبوع ،ومنها ماهو مخطوط وهي على النحو الآتي :

- ديوان أبي الحسن علي بن صالح ،طبع بالمؤسسة الوطنية للكتاب سنة 984. مـــ،ضمن سلسلة شعراء الجزائر ،يحتوي على تسع ومائتي صفحة (09 ص .
- ديوان مآسي وأين الآسي طبع بالمؤسسة الوطنية للكتاب سنة 988. مـــ،في ست وثلاثين ومائة صفحة (36 ص من الحجم الصغير شكل كتيب)
- ديوان شاعر ثائر توفي قبل أن يتم طبعه .
- مجموعة كبيرة من القصائد المخطوطة .
- مذكراته ،ورسائل هامـــــة مخطوطة .[vi]

الدلالة الصّوتية في ديوان الشاعر أبي الحسن علي بن صالح :

المراد بالصّوت في عرف أهل الاختصاص آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف ،ولن تكون حركات اللسان لفظا ،ولا كلاما موزونا إلاّ بظهوره"[vii]

وحدّ الصّوت اللغوي هو الصّوت الصادر من جهاز النطق الإنساني،وينشأ من ذبذبات مصدرها في الغالب الحنجرة لدى الإنسان ،فعند اندفاع التنفس من الرئتين يمرّ بالحنجرة فيحدث تلك الاهتزازات التي بعد صدورها من الفم أو الأنف ،تنتقل خلال الهواء الخارجي على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن .[viii]

وتنقسم الأصوات في اتفاق اللغويين إلى أصوات صامتة CONSONANTS وتعرف عند العلماء بالحروف ، وأصوات صائتة VOWELS/ ويسميها القدماء الحركات .

أمّا مايتعلق بموضوع العلاقة بين الصوت و الدّلالة ،أو ما يعرف بالدلالة الصوتية ، فقد كان محل اهتمام كثير من العلماء و الباحثين ،وخاصة ما يتعلق بم يعرف بالتطريز الصوتي كالنبر ،والتنغيم ،،والوقفات ،أو السكنات ، أو الفواصل ،ودرجة الصوت وصفته، وقوته، وانطلاقا من كل ذلك حوالت تتبع الصوت و دلالته في الخطاب الشعري الجزائري عند الشاعر أبي الحسن علي بن صالح من خلال ديوانه مآسي وأين الآسي

فمن الظواهر الصوتية الدلالية التي وردت في الديوان نجد :

. - الانسجام الصوتي : كقوله :

إنّماالدّنيا وإن ما ست فأغرتنا مآسي

لم أجد في صيدليا ت الدوا مرهمَ آسي

أين آسٍ عبقريّ بارعٌ يمحو المآسي؟

صدمتنا رغم تنقي ب جرى صخرة ياسٍ[ix]

فنلاحظ أنّ الشاعر قد استطاع تحقيق الانسجام الصوتي الرائع بين الكلمات وخاصة في اختياره لحرف السين وهو حرف مهموس في الكلمات مآسي ،وآسي ،والمآسي ،ويأس ،وبأس . وذلك للدلالة على الحالة النفسية للشاعر انطلاقا من حديثه عن حقيقة الدنيا وتكالب الناس عل ملذّاتها ،ونجد الانسجام الصوتي أيضا في حديثه عن مأساة سقوط غرناطة " وذلك حين قال :

أرى الجزيرة عقدا غاليا قطعت أطرافه ،وعتت في الحكم أشراف .

فصال صولة آساد الشرى وبدت معارك الحرب والأهوال أصناف

قف واعتبر ،واتّعظ حيال أندلس تر الأعادي حول الدور قد طافوا

فقتّلوا صبية بل مزّقوا مهجا وأحرقوا ،مثّلوا،والله ماخافو

فنلاحظ أنّ الشاعر قد استطاع أن يحدث انسجاما صوتيا جميلا ،ونغما عذبا وخاصة في أشراف ،وأصناف ،وآساد ،ومعارك ... كلّ ذلك للدلالة على الحالة النفسية الممزّقة التي يعيشها الشاعر حين وصف نكبة ،ومأساة سقوط الأندلس .

ونجد هذا الانسجام متوفرا بكثرة في ديوان الشاعر

! - الإتباع : وهو أن تحرك ماقبل الحرف الأخير إذا كان ساكنا حركة الحرف الأخير في الرفع والجر نحو هذا بكر ومررت ببكر "[x]

وقد ورد ذلك في قوله :

ألم يك فيك يارمضان بدر بها عزّ الهدى والشرك ذلْ[xi]

وقوله هكذا الدّهر يُسقط التيجانا ويُذل الأمير والسلطانا

وقوله في ارتكاب الجرائم الموبقات السود قد أطلق اليهود العنانا

وغيرها من الأبيات التي ورد فيها الاتباع في الديوان .

- التلاوة : وهي مراعاة مخارج الحروف بالترتيل والتجويد"[xii]

من ذلك قول الشاعر :

من لي بأحرف مارج من نار فأخط من شواظها أشعاري

وأصوغ من لهب الحماس قذائفا ترمي العدى بسواعد الثوار .

لنحرر القدس الشريف وما حواه المسجد الأقصى من الأسرار[iii] .

فنجد أنّ الشاعر قد كان يراعي مخارج الحروف في الأداء الصوتي للكلمات :

مارج ،نار ،ولهب ،وقذائف ،والعدى ،والثوار ،و غيرها من الكلمات في الديوان

· الجرس الموسيقي وهو في الاصطلاح إجمال الخطاب الإلهي الوارد على القلب بضرب من القهر ،ولذلك شبّه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بصلصلة ا لجرس ،وبسلسلة على صفوان ،وقال أنه أشدّ الوحي فإن كشف تفصيل الأحكام من بطائن غموض الإجمال في غاية الصعوبة .[xiv]

والجرس هو الظاهرة الصوتية التي تميز بين الأصوات الموسيقية بعضها عن بعض ،وركّز النحويون على ثلاثة أجراس رئيسة من الحركات الطويلة أي (ا، ي ، و) والمراد بهذه الحركات الفتحة الطويلة ،والكسرة الطويلة ،والضمة الطويـ[v]

وقد ورد ذلك عند الشاعر في مواضع كثيرة من ذلك قوله :

قسما بعاصفة الجهاد الأقدس وبفتحه وذرى جبال الأطلس

لنحطمنّ عصابـــة النازيـــن والباغيين ،من عاثوا ببيت المقدس[xvi]

فنجد أنّ الشاعر قد استطاع تحقيق الجرس الموسيقي العذب وخاصة في اختياره لحرف السين مثل الأقدس ،والأطلس ، والمقدس وكذلك في بقية الأبيات من القصيدة في حديثه عن عاصفة الفتح المبين فنجد في الأبيات الموالية الجرس الموسيقي في الكلمات : الأنحس، والأكيس، وأيبس، ومبلس، ومؤنس، والأهوس، ووالمفلس، ومدلس، وأشوس وأدنس، والأشرس ... والقصيدة تقع في ثلاثين بيت .

أ – الإيقاع والمقصود به حركة النغم الصادر عن تأليف الكلام المنثور والمنظوم ،والناتج عن تجاوز أصوات الحروف في اللفظة الواحدة ،وعن نسق تزاوج الكلمات فيما بينها ،وعن انتظام ذلك كله شعرا في سياق الأوزان والقوافي .[vii]

وينقسم الإيقاع إلى قسمين هما :

· الإيقاع الخارجي والمراد به الوزن والقافية في القصيدة الشعرية ،وهذا مايعرف بعلم العروض .

ب · الإيقاع الداخلي والمقصود به إحساسات الشاعر بالحروف، والكلمات، والعبارة إحساسا خاصا بحيث تجيء في النص، أو أجزاء منه متسقة أو متجاوبة، وبمعنى آخر الإحساس بجماليات اللّغة ، وقيمتها الصوتية، والتركيب .[xviii]

ويتكون الإيقاع الداخلي من العناصر الآتية :

التكرار ،والجرس ،والسجع ،والموازنة ،والمقاطع الصوتية ،والكمية ،والنّبر ،والتنغيم ، والمماثلة ،والمخالفة ،والتّضا .

أمّا عن الموسيقى الخاجية فقد التزم الشاعر أبو الحسن علي بن صالح في ديوانه

مآسي وأين الآسي) بعدة بحور خليلية في قصائده من ذلك اختياره لبحر الطويل : وتفعيلاته فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعلن فعولن مفاعلن

كقوله : سأمضي وتبقى صورتي في الدفاتر خيالا توارى في ضمير الجزائر .[ix]

وبحر المجتث وتفعيلاته :

مستفعلن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

في قوله :

إنّما الدنيا وإن ما ست فأرتنا مآسي .[xx]

وبحر البسيط وتفعيلاته :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن   مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

في قوله :

أرى الجزيرة عقدا غاليا قطعت   أطرافه ،وعتت في الحكم أشرافه .[xxi]

وبحر الخفيف ،وتفعيلاته هي :

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن   فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

كقوله :

لايسير الزمان حسب هوانا   تارة عزّة وطورا هوانا[xii]

وبحر الرمل ،وتفعيلاته :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن   فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

كقوله :

يارجال الأحباش موتوا كراما   دون صون الحريم والأوطان .[xiii]

وبحر المقتضب وتفعيلاته :

مفعولات مستفعلن   مفعولات مستفعلن

كقول الشاعر :

ليبيا الشقيقة مرحبا   شعب المفاخر والإبـــــــــــــــــــ[xiv]

وبحر الرجز ،وأجزاؤه :

مستفعلن مستفعلن مستفعلن   مستفعلن مستفعلن مستفعلن

كقوله :

مالي وللنجم أرعاه ويرعاني   وقد جفا النوم عبر الليل أجفاني[xv]

وأمّا ما يتعلّق بالقافية فإنّها عبارة عن الساكنين اللّذين في آخر البيت مع مابينهما من الحروف المتحركة ،ومع التحرك الذي قبل الساكن الأوّل [xvi]

وللقافية حروف مخصوصة بها ،وحركات ،وأنواع فحروفها ستّة وهي :

الرّوي ،والوصل ،والخروج ،والرّدف ،والتّأسيس ،والدّخيل ،وقد جمعها صفي الدين الحلي ت50 هـ) في قول :

مجرى القوافي في حروف ستة   كالشّمس تجري في علوّ بروجهــــــــــا

تأسيسها ،ودخيلها مع ردفها   وروّيها ،مع وصلها ،وخروجهـ[xvii]

وقد تنوع حرف الروي عند الشاعر في ديوانه من ذلك اختياره لحرف السين رويا كقوله :

إنّما الدّنيا وإن مــــــــــا   ست فأغرتنــــــــــا مآسي

لم نجد في صيدليـــــــــا   ت الدّوا مرهم آســــــــــي

أين آس عبقـــــــــريّ   بارع يمحو المآســـــــــــي ؟

صدمتنا رغم تنقيـــــــــ   ب جرى صخــــــــــرة ياس

لاأرى دنيـــــــاك إلاّ لذوي بطش وبــــــــاس

تحذو القوة درعــــــــا وارتدوهـــــــاكلبــــاس[xxviii]

ويعد صوت السين من بين الأصوات الطويلة لطبيعته الصفيرية ،في رأي إبراهيم أنيس حين قال : السين العربية عالية الصفير إذا قيست بها السين في بعض اللغات الأوروبية كالإنجليزية مثلا " [xix] وصوت السين هوالذي يغلب على قصيدة الشاعر في مقدمة الديوان والتي تشمل عشرين بيتا ،وهذا الصوت هو صوت رخو وهموس مرقق يضفي على القصيدة كلها إيقاعا مهموسا يتلائم مع الحالة النفسية في نظمه للقصيدة ،ويبدو أنّ الشاعر قد تأثر بسينية البحتري التي مطلعها :

صنت نفسي عما يدنّس نفسي وترفّعت عن جدا كلّ جبسِ . واختارالشاعر حرف الفاء رويا كما في قوله :

أرى الجزيرة عقدا قطعت أطرافه ،وعتت في الحكم أشرافه .[xx]

وحرف الفاء من الحروف المهموسة أيضا للدلالة على حالته النفسية

واختار الشاعر حروف روي أخرى في القصيدة مثل الباء كقوله :

يا أبا عبد الله مالك نادب قد عهدناك لاتخاف النوائب .

وحرف الباء من الحروف العربية المجهورة وهي تؤدي غرضا واضحا يرمي إليه الشاعر وذلك بغرض تصويره الفاجع .

ثم التزم بحرف مجهور آخر وهو النون كقوله :

نبَــــــآني إن كنتما تعلمان ما دهى الحبش أيها النيران

والدال وهو حرف مجهور كقوله :

رمنا زيارة سيدي فرج لذكرى تستعـــــــــــا .

والقاف وهو حرف مهموس كقوله :

نزل اليوم في حمانا العراق بعد أن بنا الأشواق .

والميم وهو حرف مجهور كقوله :

هلال ذي الحجة الميمون مبتسم بالأفق مرتسم بالبشر متّسـ .

وقوله :

أجرى الإله بحكمه الأقلامـــــــا فرمى بسهم قضائه الأصنامـــــــــــا

والراء وهو حرف مجهور كقوله :

على المسجد الأقصى اعتدى اليوم فاجر وأضرم فيه النار باغ وماكر

كلّ ذلك لتصوير حالته النفسية ،والتعبير عن مشاعره ،فاختار الشاعر لكل موقف،وحال،ومناسبة ،حرف روي مناسب للمقام .

أما الإيقاع الداخلي فهومتوفر بكثرة عند الشاعر تبعا لمناسبة القصيدة ،ومقامها ،والحالة الشعورية في نظمه للقصيدة ، وذلك باعتبار أنّ هذا الضرب من الإيقاع يشمل وحدة النغم التي يكون مصدرها اهتمام الشاعر باختيار ،الألفاظ المناسبة ،والخاصة التي تعبر عن عواطفه ؛ وانفعالاته ،ومع تكرار كلمات ،وأصوات داخل التركيب،ويشكل هذا النوع من الإيقاع بنية النص الداخلية

من ذلك تصويره لدلالة الحزن والألم كقوله : مقتحما ، قطعت ، ومعارك ، والأهوال ، والدمع ، والقلب ، وقتلوا ، ونعاج ، وخرفان .... وكذلك في قصيدة ابك مثل النّســـا " التي نظمها سنة 932. مـــ وهو يصف سقوط قصر الحمراء ،وكذلك في قصيدة وعد بلفور المشؤوم التي نظمها سنة 938 مــ ، نلمس الحزن والأسى أيضا في قصيدة الاحتلال نزول الإفرنج بسيدي

فرج) التي نظمها سنة 959. مـــ مثل الكلمات الاضطهاد ، والحداد ، والرهيب ، والغزو، والهوان ، وكابوس ، ولوعة .... وكذلك في قصيدة نكسة يونيو التي نظمها سنة 967. مـــ ، وغيرها من القصائد ،وكذلك الإيقاع الجميل المناسب للحالة النفسية للشاعر في قصيدة مأساة وأين الأساة) وهي تتكون من خمس وعشرين بيتا ومنها قوله :

مالي وللنجم أرعاه ويرعـــــــاني وقد جفا النوم عبر الليل أجفاني؟

فأيّ داهية حلت بساحتنـــــــــا وأيّ سهم رمى قلبي فأضناني ؟

فنلاحظ جمال الإيقاع في يرعاني ،وأجفاني ،وأضناني كلّ ذلك للدلالة على حالته النفسية الحزينة البائسة على ما ألم بالأمـــــــة العربية من ويلات وهموم ،وحروب .

ومن دلالات الإيقاع نجد أيضا الحزن والأسى والدموع على نكبة الزلزال بالأصنام حيث عبّر بدموعه على كارثة الأصنـــــــام بالزلزال الذي أصيبت به يوم الجمعة غرّة ذي الحجة الحرام 400ا هـــ الموافق للعاشر من أكتوبر 980. مـــ فسجل قصيدة طويلة منها قوله :

أجرى الإله بكمه الأقلامــــــــا فرمى بسهم قضائه الأصنامــــــــا

بلد عزيز في الجزائـــــر ليتـــــه ما كان يدعى بيننا أصنـــــــــام .

فلربّ تسمية تواكب متعـــــة ولربّ أخرى واكبت آلامــــــــا

ماكان من طبعي التشاؤم ،إنّما أهوى من الأسماء ما يتسامـــــــى .

فنلاحظ الإيقاع لدى الشاعر يحمل دلالة الحزن الشديد ، والألم المرير ، على ما ألم بولاية الشلف حاليا ، الأصنام سابقا من ذلك : الأقلاما ،أصناما ،آلاما ،تشاؤم ... وغيرها من القصائد التي وظف فيها الشاعرالإيقاع وفق الدلالة المناسبة التي تصور أحاسيسه بكلّ صدق ، وأصالة .

ز – المقاطع الصوتية :

كلمة مقطع " في اللغة من القطع ،وهو إبانة بعض أجزاء الشيءمن بعض .

أمّا في الاصطلاح فهو أقرب إلى قول العرب مقطّعات الكلام، أي أجزاؤه التي يتحلّل إليها، ويتركّب عنها، ويقسم بعضهم المقاطع إلى خفيفة ،وثقيلة، فالخفيف مركّب من صامت ومصوّت، والثقيل من صامتين ومصوّت وتفطن العلماء إلى أنّ الأصوات في السلسلة الكلامية تتابع شكل مجموعات متتالية يمكن تمييز أصوات كل مجموعة عن الأخرى، وقد تتألّف الكلمة من مجموعة واحدة أو أكثر ،وقد تتداخل تلك المجموعات بين كلمتين في الكلام المتّصل، وأطلقوا على كلّ مجموعة منها اسم المقطـــــــع[xxxi]

وعرّف بعض العلماء المقطع بأنّه وحدة صوتية تبدأ بصامت يتبعه صائت ،،وتنتهي قبل أول صامت يرد متبوعا بصائت، أو تنتهي السلسلة المنطوقة قبل مجيء القيد [xxxii]

وفي العربية ستة أضرب من المقاطع وهي :

- ع ص وهو قصير مقفل ومثاله أداة التعريف .
- ص ع وهو قصير مفتوح ومثاله باء الجر المكسورة .
- ص ع ص وهو متوسط مقفل ومثاله : لم .
- ص ع ع وهو متوسط مفتوح ومثاله مـــــا
- ص ع ع ص وهو متوسط مقفل ومثاله باب بالسكون .

- ص ع ص ص وهو طويل مزدوج الإقفال ومثاله عند بالسكون .[xxiii]

وقد وفق الشاعر في استغلال المقاطع الصوتية الطويلة المناسبة في قصيدة اليهود يحرقون المسجد الأقصى ص33 من الديوان حيث قال :

على المسجد الأقصى اعتدى اليوم فاجر   وأضرم فيه النار باغ وماكر .
حريق ويا للهـــــول شبّ أوّاره   فخرت على جمر الغضاة المنابر
تداعت له الأركان والسقف قد هوى   فشقت لهول الاعتداء المـــرائر .
حريق أباد اليوم وجـــه حضارة   يـــــاهي بها تاريخنا ويفاخـــــر
فيا لك من حسناء راحت ضحية   على شِلوها قامت تنوح المنـــائر .
على مسمع الدنيا ومرأى شعوبها   استباح حمى الاسلام والسلم فاجر .

نلاحظ أنَ الشاعر في هذه المقطوعة من القصيدة التي تشمل على ثمانية وثلاثين بيتا قد غلبت عليها المقاطع الصوتية الطويلة المناسبة لمقام الحزن ، والألم مثل فاجر ،وباغ ، وماكر ، الغضاة ،والاعتداء ،تداعت ...

وقد وظّف الشاعر ألوانا أخرى من المقاطع الصوتية مثل المقاطع القصيرة المقفلة كأدوات التعريف وهي كثيرة للدلالة على التعريف، والمقاطع القصيرة المفتوحة كحروف الجر للدلالة على معاني متنوعة حسب السياق ،والمقاطع المتوسطة المقفلة والمتمثلة في حرف الجزم في الديوان، والمقاطع المتوسطة المفتوحة للدلالة على الاستفهام، والمقاطع المتوسطة المقفلة وهي المنتهية بالسكون، وفي الأخير المقاطع الطويلة المزدوجة الإقفال وهي كثيرة في الديوان والنتيجة أنّ الشاعر لم يوظف مقطعا صوتيا إلاّ للدلالة على أحاسيس صادقة ، ودلالة تخصّـــــه هو سواء تعلق الأمر بسقوط الأندلس ، أووعد بلفور الشؤوم ، أو احتلال فرنسا للجزائر ونزولها بسيدي فرج ، أو نكسة يونيو ، أو بداية رمضان والقدس يهان ، أو كيف يسعد عيد ؟ ، أو نريد سلاما لا استسلاما ، أو في مكة تلبية ، وفي القدس بليّــــــة، أو العام الجديد ،والقدس مكبّل بالحديد ، أو اليهود يحرقون المسجد الأقصى ، أو نكبة الزلزال بالأصنام ، أو صبرة وشتيلا وذكرى مذبحة دير ياسين ، أو الاعتداء الإرهابي النازي على ليبيا سنة986 مـ .

- المماثلـــــــــــة الصوتية المضارعة ، المماثلة الجزئية الإدغام المماثلة الكلية) إنّ الأصوات تتأثر بعضها ببعض عند تجاورها في السلسلة الكلامية ،ومعظمها ينضوي تحت موضوع المماثلة ،وهي أن ينحو صوتان متجاوران أو أكثر نحو التماثل في المخرج أو الصفات [xxxiv]

وقد عرفها أحدهم بأنّها التعديلات التكيفية للصوت حين يجاور أصواتـــا أخرى

وهي على ثلاثة أنواع :

- التامثل التقدمـــــــي .
- ب – التماثل الرجعي .
- التماثل المزدوج .[xxxv]

ومن أمثلة المماثلة ، والإدغام في ديوان الشاعر قوله :

يا أبا عبد الله مالك نادب   قد عهدناك لا تخاف النوائب
قد عهدناك بين أهلك لاعب   أم رأيت الزمان الملك ذاهب
فجرى الدمع نادب الآمـــــال .

فنجد المماثلة أو التماثل في الكلمات نادب الأولى، ولاعب، ثم ذاهب، ونادب الثانية، وغيرها من مواضع المماثلة مثل ، مزّقوا ، وأحرقو ، ، التيجانا، والسلطا ، ، هوانا وهوا ، ، علاكا ،حماكا ، ، هواكا جفاكا) ، العماد والقصا ، حداد ، وتعدا ، دهرا، فخر ، ، بدرا وشزرا ، ، صراع ، وامتناع ، ، تباهت، أضاءت ، سادت ، تداعت ، العالي ، والمعالي ، ، خبايا ، وزوايا ، السرايا ، والضحايا) الملاهي ، والمناهي) وغيرها كثير من المماثلةفي أبيات القصائد من الديوان .

النّبـــــــــــ :

النبر بالكلام الهمز ، ونبر الحرف همزه ، وهو عند العرب ارتفاع الصوت، أو هو علوّ في كلمة ، إلاّأنَ الباحثين يربطون بين النبر والمقطع الصوتي [xxxvi]

ومن المقاطع التي وقع فيها النبر نجد ها في قول الشاعر :

بخامس منك يونيو انقضّ في حنق على العروبة أرجاس ملاعين

ياليوم غطت سماء العرب أجنحة التدمير أطلقها موشي و غوريونو

نار النّبالم في أجساد أخوتنا تذيبها ،أين اسعاف وتأمين ؟

سيناء قد داسها أشكول في صلف واختال فيها قرير العين قارون [xxvii] .

فمن خلال هذه المقطوعة نجد مواضع النبر في الكلمات الآتي : انقضّ،وحنق ، وأرجاس ، وغطَت ، والنّبالم ، وسيناء ، وقري . وغيرها من مواضع النّبر في الديوان .

التنغيـــــــــ :

يطلق على نظام توالي درجات الصوت مصطلح التنغيم ، أو موسيقى الكلام ، وترتبط به مجموعة مفاهيم مثل النغمة ، واللّحـــن ، والإيقاع ، وهي مصطلحات ذات دلالات فنية في مجال الموسيقى ، والغناء ، إلاّ أنّ المستخدم في هذا المقام للدلالات المتفق عليها لدى علماء الأصوات اللغويـــة .

ويعرّف التنغيم بأنه ارتفاع الصوت ، وانخفاضه في أثناء الكلا . وهو عبارة عن تتابع النغمات الموسيقية، أو الإيقاعات في حدث كلامي معيّن [xxxviii]

وأشهر أنواع النغمات ثلاث هي :

- النغمة الصاعد : و تعني وجود درجة منخفضة في مقطع ، أو أكثر تليها درجة أكثر علوا منها .

- النغمة الهابطة : وتعني وجود درجة عالية في مقطع أو أكثر تليها درجة أكثر انخفاضا .

- النغمة المستوية : وتعني وجود عدد من المقاطع تكون درجاتها متحدة ، وقد تكون هذه الدرجات قليلة ، أو متوسطة ، أو كثير .[xxxix]

وقد عثرت في الديوان على تنغيمات عديدة لها وظائف دلالية معينة من ذلك قول الشاعر :

طهّروا العوالي صن حماك صن حماك فإنّما بهمّتك القعسا يصان المخيم .

تيقظ ،ولا تأمن خؤونا مراوغـــــــــا فمن أمن الخوّان لا شك يندم

تدرّب على صنع السلاح وحملـــــــه فما ذلّ شعب بالتّسلح مغرم

على صهوات الجو َحلّــق مقبــــــــــلا وباغت وبادر ،فالمبادر أحـــزم[lx]

فنجد في المقطوعة النغمة الصّاعدة التي تناسب مقام الحث على تطهير فلسطين من الاحتلال الإسرائيلي فخاطب الشاعر الشباب بهذه النغمة مستعملا الأساليب الإنشائية المتمثلة في الأوامر كقولـ : صُن،وتيقّظ،وتدرّب ، وحلّق ،وباغت ،وبادر، واستعمل النهي في قوله " لاتأمر ". وغيرها من مواضع التنغيم في ديوان الشاعر .

0 · التّرصـــيع : وهو أن تتوخى تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع وتشبيه به ، أو من جنس واحد في التصريف ، والترصيع في الشعر كالسجع في النثر ، وهو من حيث الوزن والروي ثلاثة أقسام : المتوازي ،والمطرف ، والمتوازن .[li]

فمن مواضع التصريع في الديوان أذكر قول الشاعر :

يأبا عبد الله مالك نادب قد عهدناك لا تخاف النوائب

قد عهدناك بين أهلك لاعب أم رأيت الزمان والملك ذاهب[lii]

فنجد الترصيع في البيت الأول بين نادب ،والنوائب ، وفي البيت الثاني بين لاعب ، وذاهب .

و في قوله :

هكذا الدهر يسقط التيجانا ويذل الأمير والسلطانا

لايسير الزمان حسب هوانا تارة عزّة وطورا هوانا

نلاحظ الترصيع بين التيجانا ،والسلطانا) وبين هوانا ،وهوا ( )

وعثرت على التصريع في أبيات أخرى من الديوان مثل مضاعا ،والقلاعا)

، علاكا ، وحماكا ،، هواكا ، وجفاك ، نائي ، والآباء) حداد ، والتعداد ، ، دهرا وفخرا ، بدرا ،شزرا ، الدفاع ، وداع تباهت، أضاءت) العالي، المعالي) الخوالي، المنال ، ، خبايا، الزوا، السرايا، الضحايا ، الملاهي، والمناهي) دواهي، وأوا . وغيرها كثير في الديوان .

الخاتمــــة

بعد هذا العرض لأهم الظواهر الصّوتية الواردة في مدوّنة الشاعر أبي الحسن علي بن صالح الجزائري وتتبع الدلالات المختلفة لهذه الظواهر يمكن أن اخلص إلى النتائج الآتية :

· أغلب الأصوات التي في الديوان مجهورة،انفجارية ، و تكمن دلالتها حسب الحالة النفسية للشاعر ،والمناسبة التي قيلت فيها القصيدة ،أو ما يعرف بالحال ،وأغلبها تدل على على المشاعر الحزينة ،والممزّقة ،والهجوم على الظلم ،والاحتلال ،ومواساة المنكوبين ،والتعاطف مع اليائسين ،المضطهدين .

· ألفاظه كان يحسن اختيارها ،ويضعها في المكان المناسب للدلالة على الموقف الملائم للمشاعر الصادقة الأصيلة ،وبالتالي جاءت الألفاظ خادمة للمعاني ، وعنوان لها .

· إذا كان الصوت عام ادى العلماء ، فإنَ الإيقاع خاص بالقضايا الصوتية ، وهذا ماعثرت عليه لدى الشاعر إذ أنَ الإيقاع عنده يحمل دلالات تناسب مشاعر أبي الحسن علي بن صالح .

- القارئ لديوان الشاعر قراءة صوتية دلالية يجد دلالات متنوعة ، من ذلك دلالة الحزن ، والشجن ، والألم وهي الدلالة الغالبة في المدوّنة ، وأيضا دلالة التحسر ، والشفقة ، والمواساة .
- الدلالة الصوتية عند الشاعر تبدأ من خلال أصغر وحدة صوتية ، بحيث إن تغيرت الحركة ، بالضرورة تغيّر المعنى ، وهذا مالمسته في ثنايا قصائد الشاع .
- الأشكال التنغيمية في خطاب أبي الحسن علي أدت وظائف دلالية مناسبة لحالته الشعورية ، والانفعالي . وأنَ هذه الأشكال ، وكذا المسائل الصوتية برزت عنده ، وأدت دورا هاما في توجيه الدلالـــة وبالتالي تحقيق قيم دلالية نفيسة .
- مظاهر التوافق أو التوازي الصوتي ، والانسجام الصوتي ، والتوزيع الصوتي في شعر أبي الحسن علي بن صالح كلّ ذلك في اعتقادي أدّى دلالات تناسب أحاسيس الشاعر .
- الحس المرهف الذي يتمتع به الشاعر ، أدّى إلى به إلى إبراز مكنونات الأصوات اللغويـــــة ، و أنّ الدلالة الصوتية عنده تتماشى وفق السياق .
- حالات الحزن عنده في الإيقاع الداخلي فاختار المقاطع المناسبة ، وفي التنغيم للدلالة على الحالة الشعورية وقوة الانفعال لديه ، وكذا التناسق بين الصوت والسياق .

الهوامش والإحالات :

1 - لسان العرب لابن منظور ،المجلد الثالث ص 399 ومابعدها ،دار الحديث القاهرة 1423 هـ 2003م
2 - المصباح المنير للعلامة أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري ، ص 21. ،دار الحديث القاهرة 1424 هـ 2003 م
3 - كشاف اصطلاحات الفنون ،للتهانوي 2 1119 ،دار الكتب العلمية بيروت ،لبنان الطبعة الثانية 1427 هـ 2006 م .
4 - االتحليل اللغوي فضوء علم الدلالة ، أ محمود عكاشة ص 9 ،دار النشر للجامعات مصر ،ط الأولى 1426 هـ 2005 م .
5 - المصدر السابق ص 17 .
6 - ينظر معجم أعلام الإباضية من القرن الأول إلى القرن الخامس عشر 2 613 ،وديوان مآسي وأين الآسي 7 .
7 - ينظر : البيان والتبيين للجاحظ ،تحقيق عبد السلام هارون ،ط الخامسة ص 79 .
8 - ينظر الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس ص 9 .
9 ديوان مآسي وأين الآسي ص 9 .
10 - ينظر : اسرار العربية لابن الأنباري ص 204 .
11 - ديوان مآسي واين الآسي؟قصيدة هلّ رمضان والقدس بها ص 50 .
12 - التعريفات للجرجاني ص 125 .
13 - ديوان مآسي وأين الآسي. ة لتحرر القدس ص 15 116
14 - التعريفات للجرجاني ص 78 .
15 - المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية ص 34
16 - ديوان مآسي وأين الآسي عاصفة فتح ص 77 78 .

17 - ينظ المعجم المفصل في اللغة والأدب ، ميشال عاصي

18 - يراجع : الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي ص 41 .

19 - ديوان مآسي وأين الآسي ؟ ق خيالي ص 5

20 - الديوان ص 9

21 - الديوان ص 13 قصيدة مأساة سقوط غرناطة .

22 - الديوان ص 18 ق ابك مثل النسا)

23 - الديوان ق يارجال الأحباش ص 28 .

24 - الديوان ق هل وحدة كبرى ص 37 .

25 - الديوان ق مأساة وأين الأساة ص 01 .

26 - ينظر المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي ،موسى بن محمد الأحمدي نويوات ،ص ،ص 353 .

27 - المصدر السابق ص 354،355 .

28 - الديوان ص 0 ،ومابعده .

29 - الأصوات اللغوية ، إراهيم أنيس ،القاهر 961 ،ص 64

30 - الديوان ص 13

31 - ينظر المدخل إلى علم أصوات العربية ص 197 ،وما بعدها .

32 - ينظر المصدر السابق ص 201 .

33 - ينظر مناهج البحث في اللغة ، تمام حسان ص 41 .

34 - المدخل إلى علم أصوات العربية ، غانم قدوري الحمد ،منشورات المجمع العلمي بغداد 423 هـ 002 مـ 215

35 - ينظر علم الصرف الصوتي ، عبد القادر عبد الجليل ،دار صفاء عمان ، 1 431 هـ 010 مـ 146،147 .

36 - اينظر المدخل إلى علم أصوات العربية صد 249 .

37 - الديوان ص 42 ق الاعتذار والغدر .

38 - ينظر المدخل إلى علم أصوات العربية ص 257

39 - المصدر السابق ص 258

40 - الديوان ،ق طهّروا فلسطين ص 74

41 - ينظر البنية الصوتية ودلالتها في إلياذة الجزائر لمفدي زكرياء رسالة ماجستير ،إعداد الطالب عبد القادر شارف ،جامعة وهـــران ، 001 ،ص 14 .

42 - الديوان ص 17

أثر المشافهة في التقعيد اللّغوي عند سيبويه

The Impact Of Linguistic Base For Sebawaih

الدكتور حسين مصطفى غوانمة　　　　الدكتور محمد صالح محمد الخوالدة
أستاذ مشارك في اللّغة والنّحو　　　　أستاذ مساعد في الأدب والنقد
الأردن - عمّان - جامعة الإسراء - كلية الآداب - قسم اللّغة العربية

الملخص :

يظهر سيبويه السماع اللغوي كواحد من الركائز الهامة في تقعيد لغة العرب، إلا أن المشافهة وهي واحد من أسس السماع اللغوي تغيب في شواهده، نبرز ذلك بعرض لما تضمنه بحثنا عن السماع اللغوي والمشافهة اللغوية، باستحضار جملة من الشواهد التي ساقها سيبويه في كتابه كدليل على ما نذهب إليه .

الكلمات الافتتاحي : سيبويه ، السماع اللغوي ، التقعيد اللغوي ، المشافهة .

Abstract

Sebawaih introoluces the linguistic comprehension as a one of the significant aspects in the bas of Arab language, but the oral impact which is one of the basis of linguistic comprehension, is absent in his work. The following reswarch is an abstract of linguistic and comprehension featuresin language in which sebawaih osed a number of textual evidence in his work.

Key words : The impact - linguistic - Sebawaih - inderict rwported linguistics.

التمهيا :

قام التقعيد النحوي وفق شروط أربعة، مثلما أوردها السيوطي، وهي : السماع والقياس والإجماع واستصحاب الحال، فقد قال : " أدلة النحو الغالبة أربعة، قال ابن جني في الخصائص : أدلة النحو ثلاثة : السماع والإجماع والقياس . وقال ابن الأنباري في أصول : أدلة النحو ثلاثة : نقل وقياس واستصحاب حال، فزاد الاستصحاب، ولم يذكر الإجماع، فكأنه لم ير الاحتجاج به في العربية، كما هو رأي قوم، وقد تحصل مما ذكرناه أربعة ( )

فالسماع أحد هذه الشروط التي بني التقعيد اللغوي عليها مذ زمن احتاجت فيه العربية إلى سلامة ألسنة أبنائها . ولعل أهمية السماع لا تكون في تثبيت القواعد وتقنينها، بل تكون في خلق القواعد، فلا تتحدد أهمية السماع في ضوء علاقتها بالتقعيد، بل تتحدد أهمية التقعيد في ضوء علاقته بالسماع، فالحقيقة إذن أن مصادر السماع لا تتساوى في قيمتها التقعيدية .

ولعل المشافهة إحدى حالات ذاك الشرط، وهي تقوم بدورها في عملية بناء كثير من الشواهد اللغوي . وعند وضع القواعد اللغوية التي تبين طريقة الاستعمال اللغوي الصحيحة، بدأ النحاة يعللون ما قالته العرب، فكانت عملية السماع إحدى هذه العلل، وقد عمل بها سيبويه، فمن ذلك قوله : " وليس يجوز هذا في كل شي . لو قلت هو مني مجلسك، أو متكأ زيد أو مربط الفرس، لم يجز . فاستعمل من هذا ما استعملته العرب، وأجز منه ما أجازوا " (2) وهذا يعني أن السماع أمر هام أساسه المشافهة عن العرب، فلا بد من وجود قوانين نطقية تحكم من خلالها على صحة التراكيب اللغوية .

السماع :

وهو الأصل الأول من أصول النحو العربي، عرفه الأنبا ري بقوله : " اعلم أن النقل هو الكلام العربي الفصيح المنقول النقل الصحيح، الخارج عن حد القلة إلى حد الكثر . وعلى هذا يخرج ما جاء من كلام غير العرب من المولدين وغيرهم وما جاء شاذا في كلامهم " (3)

وزاد السيوطي الأمر توضيحا فحدد معنى السماع بقوله : " وأعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل كلام الله تعالى وهو القرآن الكريم وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم ، وكلام العرب قبل بعثته، وفي زمنه وبعد إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا من مسلم أو كافر، فهذه ثلاثة أنواع لا بد فيها من الثبوت " (4).

واتفق النحاة على أن السماع يشمل ثلاثة مصادر أساسية هي أدلة قطعية من أدلة النحو، وهي : القرآن الكريم ، وما تواتر من السنة، وكلام العرب الفصيح شعرا كان أم نثرا . واعتمد عليه علماء اللغة الأوائل في بحثهم، واشترطوا أن يكون الناقل قد سمع من العرب الفصحاء حسّا، أو أن يسمع من الناقل حسّا . (5)

وجاء في كتاب سيبويه كثير من الأمثلة السماعية " فهو يعدّ مجمعا للتراث النحوي في مرحلة زمنية تقع بين سنة تسع وستين، وسنة ثمانين ومئة للهجرة، أي بين وفاة أبي الأسود الدؤلي، ووفاة سيبويه " (6)

ويتجلى السماع في كتابه بما يحويه من المادة اللغوية المجموعة، ففيه الكثير من الآيات، والأشعار، وكلام العرب وأحاديثهم . حيث يجري سيبويه في السماع على الأساس الذي وضعته مدرسته، وهو النقل عن القرّاء، وعلماء اللغة الموثّقين (7) والعرب الذين يوثق بفصاحتهم، ويتردد في كتابه سماعه عن علماء اللغة، أمثال : أستاذه الخليل، ويونس بن حبيب، وأبي عمرو بن العلا . فقد اهتم سيبويه بالمسموع جريا على طريقة أساتذته إيمانا منه بأن المسموع هو الطريقة الأساس للاتصال بناطقي اللغة، لربط البحث اللغوي بالواقع، ولتكون الأحكام اللغوية صادقة ومستقر .

قيد سيبويه عن العرب شعرا كان أم نثرا، وكان موقفه من العرب أن يسجل الصورة الشائعة على ألسنتهم في التعبير معتمدا عليها في تقرير قواعده (8) ولم يكن يسجلها وحدها، بل كان يسجل ما جاء شذوذا على ألسنتهم، ينعته تارة بالضعف، وتارة بالشذوذ أو القبح أو الغلط، ومن ذلك قوله : " واعلم أن ناسا من العرب يغلطون فيقولون : إنهم أجمعون ذاهبون، وإنك وزيد ذاهبان (9).

اعتمد سيبويه على المسموع، ووظفه لإثبات التقعيد وتأكيده، وبناءً على علاقة المسموع بالتقعيد المستدل له، فإن الاستدلال في كتابه نوعان : نوع يكون فيه المسموع نصًا فيما استدل له (الاستدلال المباشر ، ونوع لا يكون فيه المسموع نصًا (الاستدلال غير المباشر .

أما الاستدلال المباشر، فقد كان النحويون قد وقفوا على معظم الأصول الكلية التي تحكمها موارد السماع المختلفة حين ألّف سيبويه كتابه، وأصبحت هذه الأصول من بدهيات النحو، التي لم تعد بحاجة للتدليل عليها، لذلك عمد سيبويه إلى تقرير الأصول الكلية، دون الاستدلال عليها إلا قليلا، فهو يتحدث عن أقسام الكلام، والتصريف، والابتداء وغيرها، حديثا تقريريا بمعزل عن الاستدلال . مع أن المنهج الحديث في دراسة اللغ – كما يراه تمام حسان . (10) يربط الدراسة باللغة الحية المنطوقة ويعتبر اللغة صورة من صور الاستعمال وأسلوبا من الأساليب ينبغي أن يعنى به النقاد لا طلاب اللغة .

وبالرغم من أن الأصول لم تكن بحاجة إلى الاستدلال عند سيبويه إلا أنه وقع الاستدلال لبعض القواعد في كتابه، (11) منه :

استدل للمفعول لأجله بشواهد منه :

– واغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرّما

– فصفحت عنهم والأحبة فيهم طمعا لهم بعقاب يوم مفسد .

بينما الاستدلال غير المباشر، ، هو يختلف عن الاستدلال المباشر في أن المباشر يكون المسموع فيه نصا في التقعيد، بينما تكون علاقة المسموع بالتقعيد في الاستدلال غير المباشر، علاقة مقاربة، فالمسموع ليس نصا في التقعيد، ولا يفيد في إثباته إثباتا قاطعا ، وإنما هو تقريب له .

وقد وضح سيبويه الاستدلال غير المباشر في أثناء حديثه عن إعراب المصدر بعد إلا مثلا، في مثل : ما منعني إلا أن يغضب عليّ فلان، قال : " الحجة على أن هذا في موضع رفع، أنّ أبا الخطاب حدثنا أنه سمع من العرب الموثوق بهم، من ينشد هذا البيت للكناني :

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حمامة في غضون ذات أوقال (12)

فالمسموع المستشهد به هنا ليس نصا في القاعدة، وإنما هو استئناس ؛ لأنه ليس في صميم القاعدة، وأن العلاقة بينه وبين التقعيد، تقوم على تجاذب (غير) وما بعد إلا في الإعراب .

و لم يكن سيبويه يضع القواعد النحوية وفق أهوائه وإنما " كان سيبويه يعرض سماعه على المقاييس النحوية أو بعبارة أدق كان يتخذ هذه المقاييس مما دار على ألسنة العرب كثيرا، وما خالفه ينحى عليه بكلمات تدل على مخالفته للذائع المشهور الذي استنبطت منه القواعد " (13)

المشافهة عند سيبويه :

اعتمد سيبويه على السماع في تقرير قواعد العربية، وكانت المشافهة التي تلقاها عن العرب جزءا من السماع الذي قرر فيه أصولا ودعّم فيه فروع . غير أن مشافهته لم تكن من شخص معين أو قبيلة محدد . فقد تنوعت مصادر المشافهة عنده بين الأخذ المباشر من أفواه العرب، أو عن طريق شيوخه، أو الاستعانة ببعض من العرب مشترطا أمرين، هما : الفصاحة والثقة، بعبارات منها : " وسمعنا العرب الفصحا " (14) و " وسمعنا فصحاء العرب " (15)، " سمعنا العرب الموثوق بهـ "(16) و " وسمعنا بعض العرب " (17)، " وسمعنا من نثق به " (18) و " وسمعنا من يوثق بعربية " (19)، " وسمعنا ممن يوثق بعربيته " (20 وقوله أيضا : " وأنشدناه هكذا أعرابي من أفصح الناس " (21)، " سمعنا عربيا موثوقا بعربيته " (22) و " سمعنا عربيا مرة يقول " (23 و " سمعنا أعرابيا " (24) و " سمعنا رجلا من أهل البادي " (25).

ومن ذلك يظهر بأن سيبويه جاء السماع عنده على صور، منها : **السماع عن العرب بعامة** ، فقد سمع عن العرب دون أن يحدد الأشخاص الذين سمع عنهم، ولا القبيلة التي سمع منها، كقوله : وسمعنا من يقول أو وسمعت العرب أ و وسمعناهم ... إلخ .

يقول مثلا في إجراء اسم الفاعل إذا أرادوا أن يبالغوا في الأمر، مجراه إذا كان على بناء فاعل : " سمعنا من يقول أما العسل فأنا شرّاب " (26) ، وقال في موضع آخر : " إن قلت : ضُرِب زيد اليدُ والرجلُ جاز على أن يكون بدلا و أن يكون توكيد . وإن نصبته لم يُحسن، لأن الفعل إنما أُنفذ في هذه الأسماء خاصة إلى المنصوب إذا حذفت منه حرف الجر، إلا أن تسمع العرب تقول في غيره، وقد سمعناهم يقولون : مطرْتَهُمْ ظهرا وبطنا " (27)

وسمع عن العرب أيضا في باب منه يضمرون فيه الفعل لقبح الكلام إذا حمل آخره على أوله، فقد قال : " وسمعنا بعض العرب يقول : ما شأن عبد الله والعرب يشتمها . وسمعنا أيضا من العرب الموثوق بهم من يقول : ما شأن قيس والبرَّ تسرق . لمّا أظهروا الاسم حسُن عندهم أن يحملوا عليه الكلام الآخر " (28)

وقال في باب ما ينتصب من الأماكن والوقت : " واعلم أن هذه الأشياء كلها قد تكون أسماء غير ظروف، بمنزلة زيد وعمرو . سمعنا من العرب من يقول : دارُك ذاتُ اليمين . وقال الشاعر وهو لبيد : فغدت، كلا الفرجين تحسب أنه مولا المخافة خلفُها وأمامُها " (29)

وقال كذلك في باب ما ينتصب على التعظيم والمدح : " وسمعنا بعض العرب يقول : (الحمد لله ربَّ العالمين) فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية " (30).

ومنها **السماع عن رجل موثوق به** ، فقد روى سيبويه سماعه عن رجل موثوق به، وقد قيل في مثل هذا الموضع : " إن أبهم الراوي وعلم من الناقل اعتماده على ثقة، كقول سيبويه : حدثني الثقة ، يعني : أبا زيد الأنصاري (31) " (32) . وفي ذلك يقول سيبويه في باب ما يحقَّر على تكسيرك إياه لو كسرته للجمع على القياس، قوله : " وسمعنا من يقول، ممن يوثق به من العرب : خويتيمٌ ، فإذا جمع قال : خواتيم " (33)

وقال أيضا في سماعه عن رجل موثوق به : " وسمعنا من يوثق به يقول : هذا سيفُني ، يريد سيفٌ ، لكنه تذكر بعدُ كلاما، و لم يُرد أن يقطع اللفظ ، لأن التنوين حرف ساكن ، فيكسر كما تكسر دال قد " (34) وقال سيبويه : " حدثنا من يوثق به أن بعض العرب قيل له : أما بمكان كذا وكذا وجْذٌ ؟ وهو موضع يمسك الما . فقال : بلى ، وِجاذًا . (أي فأعرف بها وجاذا " (35) . وهذا من باب إضمار الفعل المستعمل إظهاره إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بالفعل .

ومنه **سماعه عن شيوخه** ،تردد في كتاب سيبويه سماعه عن شيوخه، أمثال : الخليل ويونس بن حبيب، وقد نقل عنهم ، فقال مثلا : " حدثنا الخليل أنه سمع من العرب من يوثق بعربيته ينشد هذا البيت، وهو قول الشماخ :

وكلّ خليل غير هاضم نفسه لوصل خليل صارم أو معارزُ " (36) وهذا الكلام جاء في باب ما لا يكون الاسم فيه إلا نكرة .

ومنه أيضا : " وسألت الخليل عن قول العرب : أرضٌ وأرضاتٌ ؟ فقال : لمّا كانت مؤنثة وجمعت بالتاء ثُقّلت كما ثُقّلت طلحات وصفحات " (37)

ويقول أيضا " حدثنا يونس أنه سمع (من العرب) من يقول : عليكني ، من غير تلقين، ومنهم من لا يستعمل في ولا نا في ذا الموضع استغناء بعليك بي وعليك بنا عن ني ونا " 38)

وجاء عن سيبويه في باب ما يحذف من أواخر الأسماء في الوقف وهي الياءات، قوله : " حدثنا يونس أن بعض من يوثق بعربيته من العرب يقول : هذا رامي، وغازي ، وعمي ، أظهروا في الوقف ، حيث صارت في موضع غير تنوين، لأنهم لم يضطروا ههنا إلى مثل ما اضطروا إليه في الوصل من الاستثقال " 39).

ويبدو أن هذه الأشكال المسموعه عند سيبويه مكنته من استحضار كثير من الأحكام النحوية وترسيخها نظرا لتعدد الشواهد وتنوعها، وما كان ذلك ليكون لو اقتصر أمر التقعيد على بعضها دون الآخر، أو ستكون القواعد جزئية لا شاملة نظرا لأن الشواهد جزئية لا شاملة . ونحن لا نعتمد على تعدد النصوص أو حصرها أو إحصائها؛ لأن ذلك لا يفيد شيئا في بيان أهمية هذه الشواهد المسموعة، ثم إن هذه الشواهد يزخر بها كتاب سيبويه، وما إن تفتح صفحة حتى تجد شاهدا مسموعا أو أكثر . لذا يبدو أن بناءه للحكم بناء على المسموع أعطاه قدرة على الإحكام والتقنين، والقياس على أساس من الأصول النحوية، الأمر الذي لا يدخله الشك في أحكامه .

إن السماع الذي عرفناه في كتاب سيبويه كان سماعه عن العرب في أكثره، وسماعه عن شيوخه، وسماعه عن ثقة . فالسماع الذي نقله سيبويه عن العرب كان سماعا غير مباشر، إذ لم يحدد سيبويه عمن نقل مسموعه . ويبدو لنا أن إغفاله لذكر العرب بصورة محددة يرجع إلى أسباب منها :

- أن تكون القبيلة التي نقل عنها من القبائل العربية التي لا يجوز الاحتجاج بلغتها .
- أن تكون القبيلة التي نقل عنها معادية للقبائل العربية الكبرى سياسيا وعسكريا .
- لعله لم يكن يسمع من الأشخاص أو القبائل بصورة مباشرة، وإنما كانت تنقل له الرواية نقلا .

ولأن السماع أساس في جمع اللغة عرّف العرب اللغة بأنها أصوات يعبر بها عن الأغراض 40 ، أي أنها أصوات مسموعة . فقد حدد ابن فارس ثلاثة أنواع من السماع، حيث قال : " تؤخذ اللغة اعتيادا كالصبي العربي يسمع أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللغة عنهم على مرّ الأوقات، وتؤخذ تلقنا من ملقن، وتؤخذ سماعا من الروات الثقات " 41).

والرأي أن الأولى ، أولى بالأخذ وهي أن يسمع اللغوي مباشرة من أفواه الأعراب في مناطق سكناهم، لأن الشواهد عندئذ يقوم عليها جمع اللغة وتصنيفها والتخطيط لها عبر قواعد نابعة من سماعها من أفواه صاحبيها، وغير ذلك يتراجع إلى درجات متدنية، إذ يدخله النسيان أو التحوير أو غير ذلك، فلا تكون القاعدة مطابقة للاستعمال اللغوي وأرى بأن ذلك هو الأجدر بالأخذ والوضع، وغير ذلك لا يكون موفقا إلى الدرجة التي تؤهله أن يكون أصلا للقاعد .

ولعل " الرواية في عصر السماع أصبحت وسيلة من وسائل الكسب، إذ عمد كثير من الرواة إلى الوضع والكذب، لذلك نجد البصريين لا يتعاملون إلا مع الثقات من الرواة، أمثال : أبي عمرو بن العلاء، والأصمعي، وأبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري " 42).

ويعدّ كلام العرب من أهم العناصر التي استقرئت منها قواعد العربية، بل هو الأساس ؛ لأن القرآن والحديث جاءا وفق كلام العرب، شعرا كان أم نثرا، حتى قيل في تعريف النحو : " علم استخرجه المتقدمون من استقراء كلام العرب " 43).

فلما أراد اللغويون جمع المادة اللغوية ليستنبطوا منها القواعد والأحكام أرادوا جمع اللغة من مصادرها الأصلية، فحددوا لذلك زمانا ومكانا .

فالمكان هو البادية، فقد كان الأخذ عن أعرابها، حيث أخذ من بعض القبائل كقيس وتميم وأسد وهذيل وغيرها ، أما تلك التي اختلطت بالأعاجم، فلم يؤخذ منها؛ لأنها فسدت لغتهم على رأي الفارابي 44 . أما الزمان، فقد حدد بمائة وخمسين قبل هجرة الرسول، ومائة وخمسين بعد هجرة .

لذا، فإن المنهج اللغوي السليم آنذاك هو أن تربط اللغة بالواقع المنطوق أي الصورة الاستعماليه لها ، إذ كان اعتماد سيبويه في ذلك يعود إلى الواقع المنقول وهو بعيد عن الواقع الحقيقي للغة الاستعمالية ، وهو الأمر الذي يدفعه للاستماع إلى أهل اللغة المباشر ، بينما شيخنا عاد في أكثر شواهده إلى الصورة غير المباشرة، فكان يجب أن يعتمد على المنطوق لا المنقول ، أي أن يأخذ من أفواه أبناء القبائل مباشرة، إما في مضارب خيامهم بالصحراء، وإما في حلقات الدرس في البصرة؛ لأن نطق أبناء القبائل يعكس صورة صادقة للغة ولاختلاف اللهجات التي من شأنها أن تعين النحوي على التفريق بين لهجة ولهجة .

والواقع أن شواهد سيبويه هي معظم شواهد النحو العربي، أضاف إليها المتأخرون شواهد جديدة ، لكنهم ظلوا يحتفلون بشواهد سيبويه ويستخدمونها ويقدمونها على شواهدهم على الرغم من ذلك كله .

ونخلص في النهاية إلى أن المشافهة جزء من السماع الذي اعتمده سيبويه في وضع قواعد النحو العربي، وقد انعكست هذه المشافهة في كتابه رغم أن كتب الطبقات والتراجم لم تفصح لنا عن رحلاته، أو سماعه عن العرب .

الخاتمة :

لقد اعتنى سيبويه بواحد من أهم أصول النحو العربي ، هو السماع ، تجلى بعودته إلى العرب بشتى الصور؛ ليؤكد ما تذهب إليه العرب من تقرير القواعد اللغوية التي عليها رسمت لغتهم وبها دقت سننهم اللغوية ، وعلى الرغم من ذلك فقد غاب عنه بصورة لافتة السماع المباشر من أفواه العرب وكيفية النطق ، إذ لا تذكر كتب التراجم أنه سافر إلى الصحراء لأجل ذلك، وما يدل على ذلك شواهده اللغوية ، إذ لم قل فيها مثلا : سمعت أعرابيا يقول، أو سمعت فلانا يقول، أو ما شابه ذلك ، وهذا يحق جرح بشواهده اللغوية ، وحسبه تلك التي استقاها من أساتذته أو رواها عن الأعراب .

الهوامش :

- الاقتراح في علم أصول النحو ، ص 4
- الكتاب 1 414
- الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة ، ص 81
- الاقتراح ، ص 14
- المزهر في علوم اللغة 1 59
- أصول النحو العربي : محمد خير الحلواني، ص 17
- المدارس النحوية : شوقي ضيف، ص 80
- السابق، ص 81 82
- الكتاب 1 290
0. - الأصول، دراسة إيبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب ، ص 103
1. - الكتاب 1 68، 369
2. - الكتاب 2 329
3. - المدارس النحوية : شوقي ضيف، ص 82
4. - الكتاب 1 219
5. - الكتاب 3 503
6. - الكتاب 1 423
7. - الكتاب 1 319
8. - الكتاب 4 139
9. - الكتاب 4 465
20 - الكتاب 1 71
21 - الكتاب 3 300
22 - الكتاب 3 98
23 - الكتاب 2 913
24 - الكتاب 1 328
25 - الكتاب 2 420
26 - الكتاب 1 111
27 - الكتاب 1 160
28 - الكتاب 1 309
29 - الكتاب 1 407
30 - الكتاب 2 63
31 - أبو زيد الأنصاري هو سعيد بن أوس بن ثابت بن بشر الخزرجي، المتوفى سنة 215هـ

32 – ارتقاء السيادة : يحيى الجزائري، ص 51

33 – الكتاب 3 425

34 – الكتاب 4 216

35 – الكتاب 1 255

36 – الكتاب 3 110

37 – الكتاب 3 598

38 – الكتاب 2 361

39 – الكتاب 4 183

40 – الخصائص : ابن جني 1 33

41 – الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص 60

42 – تاريخ أدب العرب 1 368 0

43 – الاقتراح : السيوطي، ص 24 ، والقول لابن السراج

44 – تذكرة النحا : أبو حيان الأندلسي، ص 577

المصادر والمراجع :

- ابن جني، الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت 1952 .
- ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق : عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت ومطبعة مصطفى الشوملي ، بيروت 1964 .
- أبو حيان الأندلسي ،محمد بن يوسف الغرناطي، تذكرة النحاة ، تحقيق : عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة ، 1 1986 .
- الأنباري،أبو البركات عبد الرحمن، الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة ، تحقيق : سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية 1957م .
- الجزائري، يحيى ، ارتقاء السيادة في علم أصول النحو ، تحقيق : عبد الرزاق السعدي، دار الأنبار للطباعة والنشر، مطبعة النواعير، الرمادي ، مصر ، 1 .
- الحلواني، محمد خير، أصول النحو العربي ، الناشر الأطلسي ، الرباط 1978 .
- حسان، تمام ، الأصول دراسة إيبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1988 .
- الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ أدب العرب، تحقيق : محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 3 1953 .
- ضيف، شوقي ، المدارس النحوية ، دار المعارف، مصر ، 5 .
- سيبويه، عمرو بن بحر، الكتاب، تحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ، 3 1988م .
- السيوطي،أبو الفضل جلال الدين ،

  الاقتراح في أصول النحو ، دار المعارف ، حلب .

  المزهر في علوم اللغة ، تحقيق : محمد جاد المولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 4 1958 .

موقع الكلمة من الفصاحة والبلاغة وجماليتها داخل التركيب

The Place Of The Word From The Eloquence And The Rhetoric And It S Beauty Inside The Cimposition

الدكتور : فاطمة الزهراء لهمار
قسم اللّغة العربية و آدابها
كلية الآداب واللّغات - جامعة البليدة 2

الملخص :

يتناول هذا المقال مفهوم الكلمة ثمّ موقعها من الفصاحة والبلاغة انطلاقا من نظرة بعض علماء اللغة والبلاغة ، بعدها يختتم بجماليتها داخل التركيب خاصة القرآني منه .

الكلمات المفاتيح : الكلمة – الفصاحة – البلاغة – الجمال التركيبي .

The summary :

This article reaches the meaning of the word its place from the eloquence and the rhetoric starting from the vision of some language all knowing the rhetoric then it is finsh by its beauty inside the composition Especially the quranic from its

The key words :

the word – the rhetoric – the eloquence – the beauty composition

—— تعريف الكلم :

الكلمة في اللغة تُجمع على كلم أو كلمات ، وكلها من مادة (ك ل) قال الخليل بن أحمد الفراهيدي 170 : « الكلم : الجرح، والجمع : الكلوم . كلمته أكْلِمُه كَلْمًا، وأنا كالِم، وهو مكْلوم . أي : جَرَحْتُه . وكَليمُك : الذي يُكَلِّمك و تُكلّمه . والكَلِم : لغة حجازية » .

يُوسِّع ابن فارس 395 في المعنى فيقول : « الكاف واللام والميم أصلان : أحدهما يدل على نطقٍ مُفهِم، والآخر على جراح . فالأول الكلام . تقول : كلّمته أكلّمه تكليما، وهو كَلِيمي إذا كلّمك أو كلّمته . ثم يتّسعون فيسمون اللفظة الواحدة المُفهمةَ كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة . ويجمعون الكلمة كلماتٍ وكَلِمًا ... والأصل الآخر الكَلْم، وهو الجُرْح، والكلام : الجراحات، وجمع الكَلْم كُلُومٌ أيضا »[2] .

ولا يخرج عن هذا الزمخشري ت 538 هـ إذ يقول : « سمعته يتكلّم بكذا، وكلّمته وكالمته ... وموسى كليمُ الله . ونطق بكلمةٍ فصيحة، وبكلماتٍ فصَاح وبكَلِم، وجاء بمراهم الكِلام من أطايب الكلام »[3].

أما ابن منظور 711 فيقول : « الكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلّفة من جماعة حروف ذات معنى، وتقع على قصيدة بكمالها وخطبة بأسرها . يُقال : قال الشاعر في كلمته، أي في قصيدته . قال الجوهري : الكلمة القصيدة بطولها ... وكليمُك : الذي تُكلّمه ويكلّمك . يُقال : كلّمَه تكليمًا وكِلاّمًا مثل كذّبته تكْذِيبًا وكِذّابًا ـــ وتكلّمتُ كَلِمةً وبكلمةٍ، والكلِم : الجرحُ، والجمع كُلوم وكِلام »[1] .

ومن ثمة، يُفهم أنّ الكلمة في اللغة تطلق على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وعلى اللفظة الواحدة ذات معنى، وعلى الجملة المفيدة والقصيدة والخطبة بأسرها مجازً .

أمّا اصطلاحًا فق تباينت راء العلماء والباحثين قديما وحديثا في تحديد مفهوم الكلمة تبعًا لاختلاف الزوايا التي يُنظر منها وتخصصاهم . فعبد القاهر الجرجاني يحدّد الكلمة من ناحية التقسيم فيقول : « اعلم أنّ الواحد من الاسم والفعل والحرف يسمى كلمة » ، والزمخشري يربطها باللفظ والمعنى المفرد وتو ضي الناس على لك فيقول : « الكلمة هي اللفظة الدالة على معنى م فرد بالوضع »[6] ، ويتكفل بشرح مقصود ابن يعيش الموصلي ت 543 ـــ قائلا : « اللفظة جنس للكلمة، وذلك أنها تشتمل المهمل والمستعمل، فالمهملُ ما يُمكن ائتلافه من الحروف و لم يضَعْه الواضع بإزاء معنى نحو صصر " و " كق " ونحوهما ... وقول : " الدالة على معن ": فصلٌ فصله من المهمل الذي يدل على معن . وقول : "مُف ": فصل ثان فصله من المركّب، نحو : " الرجل " و الغلا ، ونحوه ... وقول : بالوضع ص ل ثالث احترز به من أمور، منها ما قد يدل بالطبع ... لا بالوض »[7]

لتأتي بعد ذلك تحديدات مشابهة لتحديد الزمخشري للكلمة كقول ابن هشام في شذور الذهب : « الكلمة قول مفر »[8] ، وقول ابن عقيل : « الكلم : هي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد »[9] ، وقول الشريف الجرجاني ت 16 هـ : الكلمة هي اللفظ الموضوع لمعنى مفرد »[10] ، وقول الأشموني 900 ـ : « حد الكلمة قول مفرد »[11] . وقول السيوطي 911 : « الكلمة قول مفرد مستقل، وكذا منوي معه على الصحيح وشرط قو : كونه حرفي »[12] .

تشترك الأقوال السابقة الذكر في جعل الكلمة تشتمل على ثلاثة شروط : الصوت، والوضع، والاستقلال بدلالة محدد .

وقد اعترض تمام حسان على تلك الأقوال قائلاً بأنها غفلت حقيقة التفريق بين الكلمة واللفظ والقول [13] ، وأنّ تعريف ابن عقيل يصدق على باء الجر التي جاءت لمعنى المصاحبة رغم أنّها ليست بكلمة، أمّا السيوطي فقد أدخل في تعريفه أفكارًا منقوضة كالتقدير - على حد تعبيره ــ [14] بحجة أنّه تأثّر إلى حد كبير بوظيفتها النحوية إلى درجة أنّه تصوّر أنّ الضمير المستكن جوازًا أو وجوبًا يدخل ضمن نطاق الكلمة، رغم أنّه أشار إلى أنّ ابن الخباز ت 637 هـــ) رفض تسمية الضمير المستكن اسمًا لأنّه ليس بكلمة [15] .

أمّا بالنسبة لعلماء العربية المحدثين، فلعلّ تمام حسان هو من أعطى لكلمة العربية تعريفا خاصًا بطبيعتها وخصائصها . قال ي خليل : « أمّا علماء العربية المحدثون فلم يحاول أحد منهم وضع تعريف ا كلمة فيما كتبوه أو نشروه من أبحاث في فقه اللغة أو علم اللغة على السواء، والتعريف الوحيد فيما نعلم للكلمة هو ما قدمه الدكتور تمام حسان في كتابه " مناهج البحث في اللغ " وهو تعريف خاص بالكلمة العربية وليس تعريفا عامًا للكلم »[16] .

يقول هذا التعريف نّ الكلما « صيغة ذات وظيفة لغوية مُعينة في تركيب الجملة تقوم بدور وحدة من وحدات المعجم، وتصلح لأنْ تفرد، أو تحذف، أو تُحشى، أو يغير موضعها، أو يستبدل بها غيرها في السياق، وترجع في مادتها غالبا إلى أصول ثلاثة، وقد تلحق بها زوائد » [17] .

يُفهم من هذا أن تمام حسان يجعل من السياق معيارًا لتحديدها، فهي بذلك تتميز بالتفرد، والحذف، والحشو، والاستبدال، والاستقلال، أمّا المعيار اللغوي والدلالي فيكاد لا يُذكر، وهو بذلك يركّز على الكلمة المكتوبة أكثر من المسموع[8] .

فإذا انتقلنا إلى علماء الغرب المحدثين ــ على سبيل التمثيل لا الحصر ــ فإننا نجد " بلومفيلد ' « LEONARD Bloomfield » هو أشهر من عرّف الكلمة [9] وتعريفه أقرب إلى مفهوم علماء العرب[0] فيقول :

الكلمة هي :Such as the word, which is defined as the smallest free from »[21]

أصغر وحدة لغوية ذات معنىً يمكن النطق بها وحدها ، وتستعمل في تركيب ا- مل ، ويُشترط عنده أن تتكون من مورفيم حر « Free from » على الأقل، وهذا يُفهم من النص الآتي :

« In American. Structuralism , form is an unclassified linguistic utterance to which a meaning is attribute. A distinction is drawn between (a) free forms, which can occur alone »[22] .

يعلّق حلمي خليل على هذا التعريف قائلاً بأنّه في اللغات عناصر لغوية لا تستعمل بمفردها مثل : « a » ، « the » في الانجليزية، و « je » في الفرنسية، وحروف الجر وبعض الضمائر في اللغة العربية[3] .

فالكلمة إذن لها خصائص محددة، بعضها يتصل ببنيتها مثل : الصوت، والصيغة، و ش قاق، والوظيفة والكتابة والنطق، وبعضها يتصل بمعناه : دلالتها ورمزيتها[4] .

لعلّ أفضل ما قيل عن الكلم ما قاله حلمي خليل : « الكلمة إذن في نهاية الأمر مبنى ومعنى، لكل منهما سماته وخصائصه التي بها نستطيع أن نتعرف على الكلمات، ولعل محاولة وضع تعريف جامع للكلمة تتراجع أمام الدراسة الدقيقة لهذه الجوانب جميعً »[5] .

ــــــ فصا ة الكلم وبلاغته :

يُعد كتاب البيان والتبيين " من أضخم مؤلفات الجاحظ 255) وهو يلي كتاب الحيوا ، إذ ينصب على معالجة المواضيع الأدبية من بيان وبلاغة وفصاحة وخطب ورسائل وأحاديث وأشعار، محاولا وضع أسس علم البيان وفلسفة اللد[6] .

لم يُفرد الجاحظ عنوانا تكلّم فيه عن فصاحة الكلمة وبلاغتها، وإنّما نجد ذلك في تضاعيف كتابه بعد التصفح الكثير والتأمل الطويل، فمن صفات اللفظ الفصيح في رأيه توافق حروفه، فقد لاحظ أنّ في العربية لا تجتمع الجيم مع الهاء ولا القاف ولا العين، ولا تقارن الزاي الطاء أو السين أو الضاد أو الدال سواء في حالة التقديم أو التأخير[27] .

تقتضي صاحة أيضا عدم تنافر الكلمات ضمن الجملة الواحدة، وإذا حدث وأنْ تنافرت الألفاظ صعب النطق بها، وظهرت غير متلائمة ولا متناسقة مع ما قبلها وما بعدها كقول الشاء :

وقَبرُ حَربٍ بِمكانٍ قفر وليس قُربَ قَبْرِ حربٍ قَبر[8] .

فمن شروط بلاغته « متانة العبارة التي تعني ربط ألفاظ الجملة ببعضه ربطا محكمًا لا هلهلة فيه ولا خلل فأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم أنّه قد أفرغ إفراغاً وسبك سبكًا واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري ا ها »[9] .

اعتمد الجاحظ في ذلك على القرآن الكريم وكلام الأعراب، إذ جعلهما مقياسًا للفصاحة والبلا[0] .

ولعلّ ابن سنان الخفاجي ت 466 هــ يُعدُّ من أوائل علماء البلاغة العربية الذين أوْلَوْا اهتمامًا بالجانب الصوتي والدلالي للكلم[31] ، وعلاقة ذلك بمفهوم الفصاحة والبلاغة بطريقة منهجية واضحة، إذ أقام كتابه ' سر الفصاح " على التفريق بين الفصاحة والبلاغة، ونجد ذلك في مواضع عديدة[32] منها قول : « الفرق بين الفصاحة والبلاغة أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ

والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني . لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة وإن قيل فيها إنها فصيحه . وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغًا كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه »[33] .

وفي موضع آخر يقول : « فإذا كان قد مضى الكلام في الألفاظ على الانفراد والاشتراك فلنذكر الآن الكلام على المعاني مفردة من الألفاظ ليكون هذا الكتاب كافيا في العلم بحقيقة البلاغة والفصاحة فإنهما وإنْ تميّزا من الوجه الذي ذكرته فهما عند أكثر الناس شيء واحد لا يكاد يفرق بينهما إلا القليل » .[34] رغم أنّه صرَّح في مقدمة كتابه أنّ الغرض منه هو معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها[35] .

اشترط في فصاحة الكلمة ثمانية شروط هي :

1. أنْ تكون مؤلّفة من حروف متباعدة .
2. أنْ تجد لتأليف اللفظة حسنا ومزية على غيره .
3. أنْ تكون غير متوعرة وحشية .
4. أنْ تكون غير ساقطة عامية .
5. أنْ تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذ .
6. ألا تكون قد عُبر بها عن أمر آخر يُكره ذكره .
7. أنْ تكون معتدلة غير كثيرة الحروف .
8. أنْ تكون مصغرة في موضع عُبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك[36] .

أمّا في حالة اجتماعها مع أخواتها فيشترط فيها ما يلي :

1. حسن التأليف في الموضوع المختار .
2. الاختصار والإيجاز وحذف فضول الكلام .
3. أن يكون الكلام واضحًا ظاهرا .
4. أنْ يُراد معنى فيوُضّح بألفاظ تدلّ على معنى آخر .
5. وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازًا كأنْ لا يكون الكلام مقلوبا فيفسد المعنى، وحسن الاستعارة .[37]

يعلّق حلمي خليل على تصور ابن سنان للكلمة فيقول : « فإذا استبعدنا من هذه الشروط الثمانية كل ماله صلة بتقويم الكلمة من الناحية الجمالية، وجدنا أن تصور ابن سنان للكلمة يتصل بجوانب أساسية من بنيتها وماهيتها أيضا، وهذه الجوانب هي :

1. الصوت : فالكلمة تتألف من أصوات متباعدة المخارج
2. الصيغ : أن تكون جارية على العرف العربي في التعريف
3. الدلالة : ألا تكون وحشية أو ساقطة عامية
4. الاستقلال : ندرك من تعامله وإلحاحه على الوجود المتميز للكلمة »[38] .

ما يُلاحظ على تصور ابن سنان أنّه ينادي بفكرة فصاحة اللفظة المفردة، وقد تصدى لها عبد القاهر الجرجاني بالرفض في مواطن كثيرة من دلائل الإعجا ، إذ تجده يكرر القول ويُعيده في إبطال أن يكون مرد الفصاحة إلى الكلمة المفردة، فعلى سبيل المثال لا الحصر يعرض فكرة الجاحظ قائلا : « وهذه شبهة أخرى ضعيفة، عسى أن يتعلّق بها مُ ع ق ممّن يُقْدم على القول من غير روية وهي أنْ يدَّعي أنْ لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي، وتعديل مزاج الحروف حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان، كالذي أنشده الجاحظ من قول الشاعر :

وقَبْرُ حَرْبٍ بمكانٍ ـ قفْرٍ وليس قُرْبَ قبرِ حربٍ قَبْرُ » [39] .

بعدها يبطلها بقوله : « والذي يُبطِل هذه الشبهة، إنْ ذهب إليها ذاهب، أنّا إنْ قصرْنا صفة الفصاحة " على كون اللفظ كذلك، وجعلناه المراد بها، لزمنا أن نُخرج الفصاحة " من حيِّز البلاغة ، ومِنْ أنْ تكون نظيرةً لها، وإذا فعلنا ذلك، لم نخل من أحد أمرين : إمّا أن نجعله العمدة في المفاضلة بين العبارتين ولا ع ج على غيره، وإمّا أن نجعله أحد ما نُفاضل به، ووجْهًا من الوجوه التي تقتضي تقديم كلام على كلام » [40] .

الكلمة من حيث هي صوت لا قيمة لها في فصاحة أو في بيان أو بلاغة، فإذا قرأ القارئ قوله تعالى ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ [41] ، « فإنّه لا يجد الفصاحة التي يجدها إلا من بعد أن ينتهي الكلام إلى آخره، فلو كانت الفصاحة " صفة للفظ اشتعل " لكان ينبغي أن يحسبها القارئ فيه حالَ نطقه به، فمحالٌ أن تكون للشيء صفةٌ، ثم لا يصح العلم بتلك الصفة إلا من بعد عدمه » [42] .

بعده يعطي تشبيها لمن يزعم أنّ الفصاحة للفظ فيقول : « وما مثل من يزعم أنَّ الفصاحة " صفة للفظ من حيث هو لفظ ونطق لسان، ثم يزعم أنّه يزعم أنّه يدَّعيها لمجموع حروفه دون آحادها، إلاّ مثلُ من يزعمُ أنَّ ههنا غزْلاً إذا نسيج منه ثوبٌ كان أحْمَر، فإذا فُرِّقَ ونُظر إليه خيطاً خيطاً، لم تكنْ فيه حُمْرَةٌ أصلا » [43] .

لتكون الكلمة فصيحة لابُدَّ أنْ توصل بغيرها من الكلمات ويُضمَّ بعضها إلى بعض داخل التركيب، فيقول : « وجملة الأمر، أنّا لا نوجب الفصاحة " للفظة مقطوعةٍ مرفوعةٍ من الكلام الذي هي فيه، ولكنّا نوجبها لها موصولةً بغيرها، ومُعلَّقا معناها بمعنى ما يليها، فإذا قلنا في لفظة اشتعل " من قوله تعالى ﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ [44] .. إنها في أعلى رتبة من الفصاحة، لم توجب تلك الفصاحة " لها وحدها، ولكن موصولاً بها الرأس " معرَّفا بالألف واللام، ومقْرونا إليهما الشيب " نكرا منصوبا » [45] .

وفي موضع آخر يرى أنَّ الفصاحة " و البلاغة " وتخيُّر اللفظ لا تكون في الألفاظ ذاتها وإنّما هي « عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها، وعن زيادات تَحْدثُ في أصول المعاني » [46] .

ذلك هو تصور عبد القاهر الجرجاني في الكلمة، وهو نابع من فكرة نظرية النظم القائمة على توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم، إذ يقول : « لا تكون الكلم المفردة التي هي أسماء وأفعال وحروف، كلاما وشعرًا، من غير أن يحدث في دا النظم لذي حقيقته توخي معاني النحو وأحكامه » [47] .

« لا يمكن للفظة الواحدة أن تكون صفة من الحسن والرشاقة والفصاحة وهي منفردة، بل حسنها كامن داخل نظم متكامل معبر عن معانٍ وإيحاءات وجدت بوجود الكل من معنى ولفظ ، وليس بوجود الجزء » [48] .

ينظر عبد القاهر إلى استحسان اللفظ من زاوية أخرى، إذ يرى أنّ اللفظ حتى يستحق صفة المزية والشرف والحسن لابدّ أنْ تتوفر فيه شروط داخل التعبير أهمها : حسن تلاؤم حال اللفظة مع حالات الألفاظ المجاورة لها، وتلاقيها على الوجه الذي يرتضيه العقل، مع مراعاة حال المنظوم بعضه مع بعض، فيقول : « وهل يقع في وهم وإنْ جُهد، أن تتفاضل الكلمتان المفردتان، من غير أن يُنظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم ... وهل تجد أحدًا يقول : هذه لفظة فصيحة " إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها »[49].

نتيجة لذلك التصور، قام بعض الباحثين كسيد قطب، ومحمد رجب البيومي، ومحمد زكي العشماوي، ودرويش الجندي، لأنّه أهمل الجانب الصوتي من اللفظ، ولم يعطِ للألفاظ قيمة كبيرة[50] .

والحقيقة أنّ عبد القاهر الجرجاني لم ينكر فصاحة الألفاظ وأهميتها ولكنّه لم يشأْ أن يُفسِّر الإعجاز بها، لذلك لم يدرسها مثلما درسها الآخرون، وتجد ذلك واردًا في آخر كتابه فيقول : « واعلم أنّ لا نأبى أنْ تكون مذاقة الحروف وسلامتها ممّا يثقل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة، وأنْ تكون ممّا يُؤكِّد أمدَ الإعجاز، وإنما الذي نذكره ونُنكر قول رأي من يذهب إليه، أنْ يجعله معجزًا به وحْدَه، ويجعلَه الأصْلَ والعُمْدَةَ، فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات »[51] .

يتقارب مع هذا التصور الجرجاني ابن الأثير (637 هـ) إذ يرى أنّ « تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر ممّا يقع في مفرداتها، لأنّ التركيب أعسر وأشق »[52] .

ويمثل على ذلك بقوله : « ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم ــ من حيث انفرادها ــ قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضلة التركيب . وهل تشك أيُّها المتأمل لكتابنا هذا إذا فكّرت في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[53] ، أنك لم تجد ما وجدته لهذه الألفاظ من المزية الظاهرة إلاّ لأمر يرجع إلى تركيبها، وأنّه لم يعرض لها هذا الحسن إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وكذلك إلى آخرها . فإنْ ارتَبْتَ في ذلك فتأمَّلْ، هل ترى لفظة منها لو أخذت من مكانها، وأفردت من بين أخواتها، كانت لابسةً من الحسن ما لبسته في موضعها من الآية »[54] .

ويختلف ابن الأثير عن الجرجاني في أنّه فرّق بين الفصاحة والبلاغة، فالأولى تكمن في اللفظ دون المعنى، بينما الثانية لا تكون إلاّ في اللفظ والمعنى بشرط التركيب[55] ، كما أنّه اشترط في فصاحة اللفظ ما يلي : أن يكون « ظاهرًا بيّنا لأنّه مألوف الاستعمال، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه، وحسنه مدرك بالسمع، والذي يدرك بالسمع إنّما هو اللفظ، لأنه صوت يأتلف عن مخارج الحروف، فما استلذه السمع منه فهو الحسن، وما كرهه فهو القبيح، والحسن هو الموصوف بالفصاحة، والقبيح غير موصوف بفصاحة، لأنه ضدها لمكان قبحه »[56] .

ـــــــ جمالية الكلمة داخل التركيب :

أكّد عبد القاهر الجرجاني غير مـ ـ ـ ة أنّ الكلمة لا تتسم بالجمال والمزية والفصاحة والبلاغة إلاّ وهي داخل التركيب، وذلك بتفاعلها مع ما يسبقها وما يلحقها من كلمات، وما يحدث بينها من تآخ وترابط ضمن سياق معين[57] .

وتصوره هذا نابع من فكرة النظم التي تقوم على ضم الألفاظ بعضها إلى بعض، وفق مبدأ التلاؤم والتناسب والتعليق والتناسق و ـ ي معاني النحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم[58] .

يسرد لذلك شواهد شعرية توضح ما ذهب إليه فيقول : « فمن ذلك أن تُزاوج بين معنيين في الشرط والجزاء معًا، كقول البحتري :

إذا مَا نَهَى النَّاهِي فلجَّ بِي الهَوَى أَصَاخَتْ إلى الوَاشِي فَلجَّ بِها الهَجر[59]

وقوله :

إذا ا ـ ـ تْ يَومًا ففَاضَتْ دِمَاؤُها ذكَرتْ القُربَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهـ[60] ..

وممّا نَدَرَ منه ولَطُفَ مأخذه ، ودقَّ نظرُ واضعه، وجلّى لك عن شأو قد تَحَسّر دونه العناق، وغايةٍ يَعْيى من قِبَلها المذا كي القُد ـ حُ الأبيات المشهور في تشبيه شيئين بشيئين، ـ تِ امرئ القيس :

كأنَّ قُلوبَ الطَّيرِ رطبًا ويَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا العُنَّاب والحشَفُ البَالِي[61]

وبيت الفرزدق :

والشَّيبُ يَنهضُ في الشَّبابِ كَأَنَّهُ لَيلٌ يَصيحُ بِجَانبيه ـــ ـَار[62]

وبيت بشا ـ :

كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رُؤوسِنَا وأَسْيافَنَا لَيلٌ تَهاوى ـ واكِـــ ـبُ[63]

وممَّا أتى في هذا الباب مأتىً أعجب ممَّا مضى كلِّه، قول زياد الأعجم :

وإنَّا وما هدِي لنا إنْ هَجَوْتَنا لك لبحر مهما يُلقَ في البحر يَغْرِبِ[64]

وإنّما كان أعجبَ، لأنَ عملَه أدقُّ، وطريقَ ـ مضٍ، ووجه المشابكة فيه أغر ـ »[65] .

للسياق أهمية كبيرة عند الجرجاني، إذ ـ طي لكلمة قيمتها، ويحدِّد معناها الخاص، رابطا إيَّاه بتوخي معاني النحو وفروقه فيما بين الكلم، فلكل كلمة موضع خاص، وسياق معين تؤدي من خلالهما معنى محدد لا يؤديه غيرها إذا وضعتْ مكانه . يضرب أمثلة قرآنية لجمال الكلمة داخل لتركيب فيقول على سبيل المثال لا الحصر : « ونظير هذا في التنزيل قوله عزَّ وجلَّ ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾[66] ، التفجير " للعيون في المعنى وأُوقِع على الأرض في اللفظ، كما أُسْنِد هناك الاشتعال إلى الرأس . وقد حصل بذلك من معنى الشمول ههنا، مثلُ الذي حصل هناك، وذلك أنّه قد أفاد أنَّ الأرض قد كانت صارت عيونًا كُلُّها، وأنَّ الماء قد كان يفور من كل مكان منه . ولو أُجْرِيَ اللفظ على ظاهر ـ فقيل : وفجَّرنا عيون الأرض، أو العيون في الأرض ، لم يُفِدْ ذلك ولم يَدُلَّ عليه، ولكان المفهوم منه أنَّ الماء قد كان فار من عيون مُتفرِّقة في الأرض وتبجَّس من أماكن منـ »[67] .

جعل محمد الصغير بناني نظرية النظم الجرجانية في صورة هندسية، لأنَّ عبد القاهر شبَّه نظم الكلمات في النص تبعًا لنظمها في النفس بالهندسة في البناء على الرصف والرص وقياس الأبعاد والخطوط وتقويم السطوح وتصفيف المستويات، فكل منهما يهتم بجمال

المنظر وانسجام المظهر . وهذا شبيه بـ « ناطحات السحاب اليوم وإن كانت بليغة في بنائها التراكيب العجيبة تفوق هندسة الخيام تظل قائمة على نفس الأبعاد الهندسية : طولاً وعرضا وتماسكًا بين الأجزاء وطموحًا إلى – يق غاية معي ». [68]

ومما له أثر فعّال في تحديد معنى الكلمة هو صيغتها ، يعرّفها الرضي الاستراباذي في " شرح شافية ابن الحاجب " بأنّها هيئة الكلمة التي لا يمكن أنْ يشاركها غيرها من حيث عدد حروفها المرتبة وحركاتها المعينة وسكونها مع اعتبار الحروف الأصلية والزائدة ، كلٌّ في موضعه [69] أو هي بمثابة قوالب تصبّ فيها المادة اللغوية للدلالة على معانٍ معيّنة ومحددة [70] ، فمثلاً الفعل " كَتَبَ " جاء على صيغ " فَعَلَ " ، ودلّ على زمن فعل الكتابة ، و" كَاتِب " جاء على صيغة "فَاعِل ، ودلّ على من قام بالفعل ، و" مَكْتُوب " جاء على صيغة " مَفْعُول ، ودلّ على من وقع عليه الفعل ، و" كِتَابَة " جاءت على صيغة " فِعَالَة ، وهي حدث مجرّد دال على الحرفة أو الصناعة .

ومن ثَمّة فالصيغة عنصر أساسي في تحديد المعنى ، فبدونها يقع الالتباس في معاني الألفاظ المشتقة من مادة واحدة ، إذ بها تُقَام الفُروق مثلاً بين " كَتَبَ " و" كَاتِب " و" مَكْتُوب " و" كِتَابَة " كما رأينا سابقا ، ويُخصّص المعنى ويُحدّد كمعنى الفاعلية إنْ كان على وزن "فَاعِل " من الثلاثي ، أو " مُفْعِل " من " أَفْعَل " ، أو "مُفْتَعِل " من "افْتَعَل " ، ومعنى المفعولية في صيغ اسم المفعول ، ومعنى الطلب في "اسْتَفْعَل " مثل : "اسْتَعْطَف " و" اسْتَرْحَم [71] .

فللصيغ دلالات حاول فقهاء اللغة استخراجها واستنباطها عن طريق الاستقصاء و التحري فوقفوا على كثير منها، أذكرها على سبيل الأمثلة لا الحصر :

- **فَاعَل** : للدلالة على المنافسة وتعلّق الفعل بمتعدّد مثل : ضَارَبَ ، شَارَكَ ، جَالَسَ ، خَالَطَ .
- **تَفَاعَلَ** للدلالة على المشاركة مثل : تَصَالَحَ ، تَعَاوَنَ ، تَزَاحَمَ ، وعلى التظاهر بالشيء مثل : تَجَاهَلَ، تَغَابَى ، تَمَارَضَ .
- **تَفَعَّلَ** : للدلالة على مطاوع "فَعَّل " مثل : كَسَّرْتُه فَتَكَسَّرَ ، وعلى أخذ الشيء بتمهُّل مثل : تَفَهَّمَ ، تَبَصَّرَ، تَأَمَّلَ .
- **فُعَال** للدلالة على الأصوات مثل : عُوَاء، رُغَاء ، صُرَاخ .
- **فُعَالَة** للدلالة على بقايا الأشياء مثل : حُثَالة ، نُفَايَة ، عُصَارَة .
- **فعالة** : للدلالة على الحرفة مثل : زِراعة ، تِجارة ، حِياكة .
- **فعّال** : للدلالة على مبالغة اسم الفاعل مثل : كَذَّاب ، شَرَّاب ، قَتَّال ، وعلى الحرفة و الصناعة أيضا مثل : نَجَّار حَدَّاد .
- **مَفْعَلة** : للدلالة على المكان الذي يكثر فيه الشيء مثل : مَأْسَدَة ، مَكْلَأَة ، وعلى ما هو سبب ذلك مثل : مَجْهَلَة ، مَجْبَنَة ، مَهْلَكَة .
- **فِعَال** : للدلالة على المرافق و الأدوات مثل : فِرَاش ، حِزَام ، لِجَام ، بِسَاط [72] .

ومن ثَمّة ، فالكلمة العربية تحتوي على ثلاثة عناصر أساسية :

1 ـــ **المادة الأصلية** المتمثّلة في الحروف الأصلية المتكوّنة منها مثل : (ق ط ع) بالنسبة إلى الألفاظ : قَاطِع ، مَقْطُوع ، مُقَاطَعَة، تَقْطِيع .

2 ـــ **هيئتها** التي رُكّبت فيها حروفها الأصلية والزائدة .

3 ـــ **معناها** المتحصّل من مادتها وهيئة تركيبها ،واستعمالها العملي وفق بيئة خاصّة وعصر معيّن [73]

إذا تأمّلت القرآن الكريم وجدته مليئًا بالشواهد التي تُظهر جمال الكلمة وهي داخل التركيب ضمن تأليف خاص، فيكسبها ميزة ليس لها نظير ،وقد أشار إلى ذلك عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي حينما شرح سبب اختيار صيغة المبالغة "فعّال" في قصة موسى عليه السلام على لسان فرعون ،وذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[74] إذ دلّت الصيغة في " سحّار" على « مقابلة الملأ وصف فرعون لموسى بالسحر وتأكيده على أنّه يريد أنْ يخرجهم من أرضهم بسحر) فناسب ذلك أنْ يقابلوا ذلك بالوصية بالإتيان بكلّ سحّار عليم يفوق سحره سحر موسى »[75] .

تكلّم عن ذلك مصطفى صادق الرافعي، وأعطا مثالاً حيًّا من أغرب الأمثلة التي تظهر الدقة المتناهية في انتقا الكلمة القرآنية، وهي كلمة ضيزى " في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾[76] فيقول : « ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه، ولو أردْتَ اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإنّ السورة التي هي منها وهي سورة النجم مفصلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنّهم جعلوا الملائكة والأصنام بناتٍ لله مع أولادهم البنات .. فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لقرابة هذه القسمة التي أنكرها ... وكان هذا التصوير أبلغ م في البلاغ »[77] .

ونضرب مثالا آخر في كلمة واحدة وجميعها كيف أنهما يخ ــــــ لفان في موضع استعمالهما، الريح والرياح ، فكلاهما يَردان في القرآن بحسب ما يقتضيه الحال والسياق [78] ، فالأولى تأتي لتحمل معنى ــ شر وا ــ قوبة في ق ــ ه تعالى ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾[79] ، وقوله أيض ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾[80]

و أتت استعمالها في الخير إلا في موضع واحد يليه ذكر للشر [81] في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾[82] . أما كلمة رياح " فتأتي غالبا لتعبر عن البشرى والرحمة والخير، لقوله تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[83] .

فهذا يعني أنّ الكلمة حينما تستعمل مرة في حالة إفراد، ومرة أخرى في حالة جمع فإنّه يُ اد بها معنىً مقصودًا يختلف في كل موضع عن الآخر .

أورد محمد حسن علي الصغير أمثلة كثيرة عن ذلك حينما تحدَّث عن أنواع الدلالات الصوتية، والاجتماعية، والإيحائية، والهامشية ، أذكر شاهد ن ى سبيل المثال لا الحصر الأول يخصّ كلمة ربو " في قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾[84] ففي موضعها هذا تحمل « صورة فريدة في ت يل الجنان تتساقط عليها الأمطار فتمسح سطحها، وهي سامقة شامخة فتزيل القذى عن أشجارها، وتثبت جذورها، وتمنحها القوة والحياة والاستمرار، وهي على نشز من الأرض تباكرها هذه الهبات ، وما يوحي ذلك من مناخ نفسي يسكن إليه الضمير »[85].

والشاهد الثاني كلمة بصير" في قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[86] ، فهي توحي بالملاحظة الدقيقة والرقابة الشديدة، والإحاطة الشاملة بجزئيات الأمور وكلياتها « وحيثيات الإنسان وتصرفاته، فعمله منظور لا يغفل عنه، ووجوده في رصد لا يترك، وأعماله في د وإحصاء ... والله يرصد ما يشاهد، ما يخفى، وما تجن الصدور »[87] .

انطلاقًا مما سبق ذكره، يُفهم أن موقع الكلمة من الفصاحة والبلاغة مُختلفٌ فيه باختلاف الآراء والزوايا التي يُنظر منها، كما أنّ لقرآن الكريم خصوصيات في استعمال كلماته، إذ تأتي بوصفها بنية سياقية ذات قيمة دلالية، ضمن نسيج النص القرآني، ووجودها يكون ضروريًا في ذلك الموضع، ولا يتحقق التناسب اللفظي إلا بها .

الهوامش :

1 ابن أحمد الفراهيدي : العين، ج 5 ، ص 378.

2 ابن فارس أحمد : مقاييس اللغة، ج 5 ، ص 131.

3 الزمخشري : أساس البلاغة، تحق، محمد باسل عيون السُود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 ، ج 2 419 هـ 998 م، ص 145.

4 ابن منظور : لسان العرب ، ج 12 ، ص م 22 / 525.

5 الجرجاني عبد القاهر : الجمل، تحق : علي حيدر، دمشق 392 هـ 972 م، ص 40 .

6 الزمخشري : المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، ط 2 ، ص 5 .

7 ابن يعيش : شرح المفصل للزمخشري، تقديم إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1 ، ج 1 1422 هـ 2001 م، ص 70.

8 ابن هشام : شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحق : عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، ط 1 ، د ، ت ، ص 15.

9 ابن عقيل : شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحق، محمد محي الدين عبد الحميد، دار التراث، القاهرة، ط 20 ، المجلد 1 ، د ، ت ، ص 15.

10 الجرجاني الشريف : معجم التعريفات، تح : محمد صديق المنشادي، دار الفضيلة، القاهرة، د ، ت ، ص 155.

11 الأشموني : شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار الكتب العلمية، بيروت ط 1 ، المجلد 1) 419 هـ 1998 م، ص 25 .

12 السيوطي : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحق : عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1 ، 413 هـ 992 م، ص 3 .

13 ينظر : حسان تمام : اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، المغرب 1994 ص 317.

14 ينظر حسان تمام : مناهج البحث في اللغة، ص 226 .

[15] ينظ : السيوطي : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ص 5 .

[16] حلمي خليل : الكلمة دراسة لغوية معجمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية 998 م، ص 29 .

[17] حسان تما : مناهج البحث في اللغة، ص 232 .

[18] ينظ : خليل حلمي : الكلمة دراسة لغوية معجمية، ص 30 .

[19] ينظ المرجع نفسه ص 16 .

[20] ينظ : شامية أحما : في اللغة، دار البلاغ، الج ر، ط 1 423 هـ 2002 م، ص 57 .

21Gregory Trauth and kerstin kazzazi : Routledge dictionary of Language and linguistics, Newuork, 1996, p 421.

* يعني : الكلمة هي أصغر وحدة حرة .

[22] Gregory Trauth and Kerstin kazzazi : Routledge dictionary of Language and linguistics, P 421.

* يعني : في البنيوية الأمريكية هي شكل من أشكال الكلام اللغوي يمكن النطق بها وحدها ، تحمل معنًى ، يشترط فيها أن تتكون من مورفيم حر .

[23] ينظ : خليل حلمي : الكلمة ـــ دراسة لغوية معجمية، ص 16 .

[24] ينظ : المرجع نفس ص 31 .

[25] المرجع نفسه ص 31 .

[26] ينظ : الجاحظ : البيان والتبيين، دار الهلال، بيروت، ج 1 ، د ، د ت ، ص 5 .

[27] ينظ : الجاحظ : البيان والتبيين، ص 77 .

[28] ينظ المصدر نفسه ، ص 74 .

[29] المصدر نفسه ، ص 18 .

[30] ينظر المصدر نفسه ، ص 7 — 9 — 31 .

[31] ينظ : خليل حلمي : الكلمة، ص 26 .

[32] ينظ : الخفاجي بن سنان : سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، ط 1 402 هـ 982 م، ص 60 — 61 — 64 — 66 — 163 — 71 — 98 — 105 — 107 — 109 — 113 — 129 — 231 .

[33] الخفاجي بن سنان : سر الفصاحة، ص 59

[34] المصدر نفسه ، ص 234

[35] ينظ المصدر نفسه ، ص 13

[36] ينظ المصدر نفسه ، ص 63 إلى 89

[37] ينظ : الخفاجي بن سنان : سر الفصاحة ، ص 95 — 111 — 114 — 118 — 205 — 220 — 232

[38] خليل حلمي : الكلمة، ص 28

[39] الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز، ص 57

[40] المصدر نفسه ص 58

[41] مريم 04

42 الجرجاني عبد القاه : دلائل الإعجاز ص 407

43 المصدر السابق ص 409

44 مريم 04

45 الجرجاني عبد القاه : دلائل الإعجاز ص 402

46 المصدر نفسه ، ص 59! — 260

47 المصد نفس ، ص 488

48 مراد وليد محما : نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني دار الفكر، دمشق، ط 1 403 هـ 1983م، ص 128

49 الجرجاني عبد القاه : دلائل الإعجا ، ص 44

50 ينظ : — مطلوب أحمد : عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، وكالة المطبوعات، الكويت، ط 1 393! 973 م، ص 05 — 106

— ياسوف أحمد : جماليات المفردة القرنية، دار المكتبي، سورية، ط 1 415 هـ 994 م، ص 49

51 الجرجاني عبد القاه : دلائل الإعجاز، ص 522

52 ابن الأثير : المثل السائر في آداب الكاتب والشعائر، تحق : أحمد الحوفي، دار النهضة، مصدر المجلد 1 ،) د، ت ص 166

53 هو، 44

54 ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ص 166

55 ينظ المصد الساب ، ص 94

56 المصدر نفس ، ص 92

57 ينظ : — المطلب الثاني من الفصل الثاني

— النجار صب يوسف : الإعجاز اللغوي في القرآن بين الجرجاني والزمخشري رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير ، جامعة اليرموك، كلية الآداب 006! م، ص 3! — 44

58 ينظ : الجرجاني عبد القاه : دلائل الإعجاز، ص 93

59 الصيرفي حسن كامل : ديوان البحتري ، دار المعارف ،القاهرة، ط 3) ،المجلد 2 د ت ، ص 744

60 الصيرفي حسن كامل : ديوان البحتري ، ص 1299

61 المصطاوي عبد الرحمن : ديوان امرئ القيس ، دار المعرفة لبنان، ط 2 425 هـ — 004! م ،ص 139

* الحشف البالي : يابس التمر

62 فاعور علي : ديوان الفرزدق، دار الكتب العلمية ،بيروت،ط 1 407! 987 م،ص 323

63 ابن قتيب الشعر والشعر ، ص 759

64 بكّار يوسف حسين : شعر زياد الأعجم ،دار المسيرة، ط 1) 403! 983 م، ص 88

65 الجرجاني عبد القاه : دلائل الإعجاز ، ص 96

66 القمر 12

67 الجرجاني عبد القاه : دلائل الإعجاز ، ص 102

68 ينظ : بناني محمد الصغير : المدارس اللسانية في التراث العربي وفي الدراسات الحديثة ، دار الحكمة ، الجزائر 001! م ، ص 31 32

69 ينظ : الرضي الإستراباذي محمد بن الحسن : شرح شافية ابن الحاجب ، تح : محمد نور الحسن ،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ب ، (ا) 1395ه ____ 2001 م ، ص 2 .

70 ينظر : يوسف هنداوي عبد الحميد أحمد : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، (ا) 1422ه - 2001م ، ص 27 .

71 ينظ : المبارك محمد : فقه اللغ - دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية - مطبعة جامعة دمشق 1379ه - 1960 م، ص 95 - 96 .

72 ينظر : ـــ المبارك محمد : فقه اللغة - دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية ، ص 96 - 97 ـــ الصالح صبحي : دراسات في فقه اللغة ، ص 337 و 338

73 ينظر : المبارك محمد : فقه اللغ - دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية - ، ص 92

74 الشعرا 34 ، 35 ، 36 ، 37

75 يوسف هنداوي عبد الحميد أحمد : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم ، ص 103

76 النجم 22

77 الرافعي مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت 1423 هـ - 2003 م، ص 158

78 ظ : وافي نجم إقبال : التناسب ودوره في الإعجاز القرآني رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير ، جامعة الكوفة ، كلية الفقه 1430 هـ / 2009 م، ص 91

79 آل عمران 117

80 الحاقة 06

81 ينظ : وافي نجم إقبال : التناسب ودوره في الإعجاز القرآني، ص 92

82 يونس 22

83 الروم 46

84 البقرة 265

85 علي الصغير محمد حسن : نظرية النقد العربي ـــ رؤية قرآنية معاصرة ـــ ، دار المؤرخ، بيروت ط 1 1420 هـ 1999 م، ص 56

86 البقرة 265

87 علي الصغير محمد حسن : نظرية النقد العربي ـــ رؤية قرآنية معاصرة، ص 56

التـــفـــسيـــر والتأويـــل بـــيـــن محمد الـــطـــاهر بـــن عـــاشـــور وبـــول ريكـــور

Exegesis and Hermeneutics between Mohamed Tahar Ben Achour and paul Ricoeur

الأستاذ : بختي البشير

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة المدية

الملخص بالعربي :

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الجهد المنهجي في التفسير والتأويل " الذي خاضه العرب لفهم كتاب الله عز وجل وقد حاولنا عقد مقارنة بين محمد الطاهر بن عاشور , وبول ريكور في مجال التفسير والتأويل ومفهوم النص والقارئ , وقد تبين السبق التنظيري العربي في مجالي التفسير والتأويل قبل أن يتفطن له الغرب وعلى رأسهم بول ريكور في حين بدا لنا الضعف التنظيري العربي في مفهوم النص .

الكلمات المفتاحية : التفسير , التأويل , النص , القارئ , الفهم .

الملخص بالإنجليزية :

This research aims to reveal the systematic effort of interpretation and Exegesis of the Quran By Arab theorists in order to develop a full understanding of the Secret meanings of the holy Quran , We have tried to compare between Mohamed Tahar Ben Achour and Paul Ricoeur in the field of interpretation of the sacred book of Islam and The concept of the text and the reader, we have found that Arab theorizers have the precedence over areas of interpretation and Exegesis of the Quran many years before the western have discerned its existence ,on top of them Paul Ricoeur but on the other hand we can easily get to recognize the Theoretical weaknesses of the text comprehension.

Key words: Exegesis, Hermeneutics, Text, Reader, comprehension.

تمهيد :

يُعد التفسير أول العلوم الإسلامية ظهورا , إذ قد ظهر الاهتمام به في عصر النبي صلى الله عليه وسلم , إذ كان بعض أصحابه قد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض معاني القرآن كما سأله عمر بن الخطاب عن الكلالة , ثم اشتهر فيه بعض من الصحابة أمثال : علي

وابن عباس وهما أكثر الصحابة قولا في التفسير , وزيد بن ثابت , وأبي بن كعب , وعبد الله بن مسعود , وعبد الله بن عمرو العاص رضي الله عنهم .

و يقول « هذا الاتجاه التفسيري التقليدي على جمع الأحاديث والأخبار والسير وعادات العرب وأخبارهم , ودعمها ببعض الشواهد الشعرية . وهذا التفسير نقلي مأخوذ من الصحابة والتابعين , وبما رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم) نفسه , وأبرز مثل على هذا الاتجاه كتاب الطبري : جامع البيان » .

وقد تناول محمد الطاهر بن عاشور مسألة التفسير من خلال ثنائية القديم والجديد يقول « الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين : رجل معتكف فيما شاده الأقدمون , وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون , وفي كلتا الحالتين ضرر كثير , وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير , وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيد , وحاشا أن ننقضه أو نبيد » , ويبدو أن محمد الطاهر بن عاشور لا يكتفي بما قدمه الأقدمون في مجال التنظير لعلم تفسير القرآن الكريم بل يحاول أن يضيف عليه .

ا ـــــ التفسير والتأويل عند محمد الطاهر بن عاشور 889 ـــــ 1973):

ـــــ التفسير :

في اللغة هو الإيضاح والتبيين وفي لسان العرب الفسر البيان وفسر الشيء يفسِره ويفسُّره وفسّره أبانه والتفسير مثله .. والفسر كشف المغطى

أما في الاصطلاح فعرفه أبو حيان في البحر المحيط بأنه : « علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن , ومدلولاته , وأحكامها , الإفرادية والتركيبية , ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب »[4]

ويعني مدلولاتها أي مدلولات تلك الألفاظ , وأما " أحكامها , الإفرادية والتركيبية " فهذا يشمل علم الصرف , وعلم الإعراب , وعلم البيان , وعلم البديع .

وهو عند الزركشي : « علم يُفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم , وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم اللغة , والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ »[5]

ويعرف محمد الطاهر بن عاشور علم التفسير " بأنه : « اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن , وما يستفاد منها باختصار أو توسع , وموضوع التفسير ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه , وما يستنبط منه »

فالتفسير إنما هو شرح وبيان للقرآن الكريم , فما كان فيه بيان , فهو تفسير وما كان خارجا عن حد البيان , فإنه ليس من التفسير , وإن وُجد في كتب المفسرين .

والمقصود بالبيان تفسير اللفظ الغريب , وذكر سبب النزول , وكل ما له أثر في فهم المعنى .

ب ـــــ التأويل : هو صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر محتمل لدليل فيكون هنا بالمعنى الأصولي

فإذا فسر قوله تعالى (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) , بإخراج الطير من البيضة , فهو التفسير , أو بإخراج المسلم من الكافر فهو التأويل

وبالرغم من أن محمد الطاهر بن عاشور ركز على التفسير كعلم له مقوماته وأسسه وقواعده إلا أن آيات أخرى إلى جانب قبولها التفسير فهي في حاجة إلى تأويل , وهو لا يكتفي بتفسير الآية بل يجد أنها لا بد أن تمر بمرحلة أخرى هامة ألا وهو التأويل . وقد وردت أمثلة كثيرة في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور كآية الكرسي ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ﴾ , وصفة المحبة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[0] , والكلام ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾[1] وغيرها الكثير من الآيات الأخرى .

ومن أمثلة اقتران التفسير بالتأويل قوله تعالى ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾[2] , يقول ابن عاشور : والأعين استعارة للمراقبة والملاحظة , وصيغة الجمع في أعيننا بمعنى المثنى كما في قوله واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا " والمراد الكناية بالمعنى المجازي عن لازمه وهو الحفظ من الخلل والخطأ في الصنع .[13]

فعملية التفسير في بعض الآيات يجب أن يتبعها التأويل لإخراج اللفظ عن مراده الظاهري إلى معناه الباطني .

- **القارئ المفسر** :

يعول ابن عاشور على القارئ المفسر الذي هو بحاجة إلى « علم التفسير للمفسر العربي , والمولد من مجموع الملتئم من علم العربية وعلم الآثار ومن أخبار العرب , وأصول الفقه قيل علم الكلام وعلم القراءات »[4] فابن عاشور يركز على علم العربية , وعلم الآثار , وأخبار العرب , وأصول الفقه وعلم الكلام وعلم القراءات .

- **مفهوم النص** :

جاء تعريف النّص في كتاب المحيط في اللّغة بأنه : " رفْعُك الشيء، كنص الحديث ونصصت ناقتي : إذا رفعتها في السير .[5]

وقيل في تعريف النّص : « ما تأويله تنزيله أي يفهم معناه بمجرد نزوله ولا يحتاج إلى تأويله، نحو : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾[6] فإنه يفهم معناه بمجرد نزوله , ولا يتوقف فهمه على تأويله، والنص عند الفقهاء يطلق على معنى آخر وهو ما دلّ على حكم شرعي من كتاب أو سنة، سواء كانت دلالته نصاً أو ظاهراً »[7]

أي ما دل ظاهر لفظه عليه , وكذلك يطلق النص) ويراد به ما دلّ على أي معنى .

أما عن معنى النص في علم أصول الفقه , فإنه يمكن القول إنّه لا يوجد مفهوما اصطلاحيا جامعا له .

ولهذا فإن مفهوم النص في المدرسة البيانية السنية يتعدد وفقا لطبيعة النص القرآني , ومستويات فهمه , وتأويله والذي يتراوح ما بين الغموض والوضوح , والخفاء والتجلي .

ويمكن على هذا الأساس تصنيف النص الخاص باستنباط الأحكام الشرعية لمستويين : واضح الظاهر والمفسر والمحكم , وغير واضح (الخفي والمشترك والمشكل .. .

الواضح واضح الدلالة وهو ما لا يقبل التأويل .

النص هو ما دل بنفس لفظه وصيغته على المعنى دون توقف على أمر خارجي، وكان هذا المعنى هو المقصود الأصلي من سوق الكلام .[18]

بدأ بول ريكور الاهتمام بالفلسفة التأويلية عندما انتشرت أعمال دي سوسير , وبعد أن قامت البنيوية على يد رولان بارت , وكانت أولى كتاباته حول الأخلاق المسيحي , لكنه ما لبث أن اهتم بالبنيوي , واستغل الاتجاهات الحديثة كالبنيوية والوجودية والماركسية ونظرية الثقافة والتفكيكية والتحليل اللغوي وأنتربولوجيا الدين في بناء تأويلية فلسفي .

ولذلك لم تعد الفلسفة التأويلية محصورة في نظرية للتأويل بقواعد محدد , وهي قد عملت على الاستفادة من مجالات أخرى , بل إن الهرمينوطيقا تتولى مهمة إدراج نتائج ومسلمات كل العلوم التي تحاول تفكيك علامات الإنسان وتأويلها في صميم مشروعه[9] .

ويتواجد المشروع الفلسفي في خط الفلسفات التأملية وبالأخص أنطولوجيا الفهم الهايدغري , والمشروع يسعى إلى إقامة أنثربولوجيا فلسفية تمسك بالإنسان في كليت .

وفي الفلسفة التأويلية يكون ريكور قد زواج بين الأنطولوجيا والإبستمولوجيا وبهذا يكون قد وضع نظرية للفهم تجمع بين ما هو علمي وما هو إنساني .

وطرق ريكور الهرمينوطيقا من منطلق أبحاثه حول رمزية الشر , فالشر مشكلة تحتاج إلى تأويل " إن مشكلة الشر التي تعبر عن ذلك الضلال المبهم للإرادة لا يمكن إخضاعها لموضعة مباشرة إلا انطلاقا من تأويل أو هرمينوطيقا معينة لرمزية الشر من هنا كان المدخل الحقيقي لريكور للهرمينوطية [10]

أ ـــــ التأويل بين التفسير والفهم

جمع ريكور في فلسفته التأويلية بين عالمين مختلفين في الظاهر , ومرتبطين ببعضهما معا في آن واحد هم : علوم الطبيع , وعالم علوم الروح كما سماها دلتاي , وقد حاول أن يفك هذا التعارض الذي جرى سابقا بين دلتاي و غادامي , يقول عادل مصطفى : تمثل هرمينوطيقا عند ريكور محاولته لإبقاء على كل من الطابع العلمي والطابع الفني للتأويل دون منح أي منهما مترلة مطلق ." [1] ويتمثل الطابع العلمي في التفسير بينما يتمثل الطابع الفني للتأويل في الفهم .

ويؤكد ريكور رفضه التام الفصل بين التفسير والفهم , فهو يرى أن التقابل بين التفسير والفهم ووضع أحدهما في معارضة الآخر عمل غير مقبول , ولذلك سعى إلى تأسيس التكامل بينهما ذلك أن الهرمينوطيقا والأبستمولوجيا ليسا منهجين مختلفين بل متداخلان ونشأ هذا التمييز في غير موضع في الخلافات التي دارت رحاها في القرن التاسع عشر حول مفهوم المعرفة والوسائل الكفيلة باكتسابها . فكان الجناح الوضعي يرى أن التفسير الذي يصطنع المنهج العلمي الوضعي هو الكفيل بتأويل الظواهر , بينما ذهب أنصار الإنسانيات إلى أن التفسير العلمي الوضعي لا يملك تقديم وصف شامل للواقع الإنساني وتأويل سديد للخبرة البشرية ودعوا إلى تأسيس نظرية في الفهم تقيض للأهداف الغائية وللشعور والتخيل دورا مشروعا في المعرفة الإنساني [2]

ويقول ريكور :" يعتبر الصراع بين التفسير والفهم قديم , فهو يتعلق بالإستمولوجيا والأنطولوجيا في وقت واحد بشكل دقيق جد [3]

ولكن يرى ريكور أن ما يجمع المنهجين أكثر مما يفرقهما يقول : على الصعيد الإبستيمولوجي أقول بأنه لا وجود لمنهجين , منهج التفسير ومنهج الفهم وحده التفسير بحصر المعنى منهجي . أما الفهم فهو بالأحرى لحظة لا منهجية تتشكل في علوم التأويل , مع لحظة التفسير المنهجي . وهذه اللحظة تسبق تصاحب , تغلق , وبهذا تغلف الشرح ومقابل ذلك يطور هذا الأخير الفهم تحليليا . تنجم عن هذا الارتباط بين التفسير والفهم علاقة معقدة [4] , فالاختلاف يأتي من خلال أن التفسير هو بمعنى التعليل السببي المميز للعلوم الطبيعية

و الفهم هو بمعنى المتعلق بالنشاط الإنساني , والذي يحاول ريكور أن يدمج عمل المنهج العلمي بعملية الفهم " فغاية التفسير الفهم والإفها , وهو أن يصير الشيء معقولا فالغاية الباطنية للتفسير هي الفهم [5] , فالرابط بين الفهم والتفسير هو أن الفهم يؤول ما انتهى إليه التفسير .

ويأتي دفاع ريكور حول العلاقة التي ربط بها بين التفسير والفهم هو ما يسميه بالطريق الطويل المنعطف لفهم الذات من خلال الرموز والنصوص فهذه الوسائط هي التي تفرض وجود التفسير إلى جانب الفهم

فالذات لا يمكن فهمها فهما مباشرا بل من خلال وساطة النصوص والرموز وكلما كان التفسير أكثر كان الفهم أفضل .

ويرتبط تأويل النصوص بتفسيرها أولا , وذلك عبر تحليل بنيتها ونظامها (القواعد النحوية والفيللوجية , ويعد هذا التفسير بهذه الخطوات عملا إبستومولوجيا لأنه يتبع خطوات منهجية وعلمية وفنية وقواعد صارمة والمعنى الثاني للهرمينوطيقيا عند ريكور هو الفهم .

يقول ريكور : ينبثق التفسير كعملية مستقلة بذاتها من تخارج الواقعة والمعنى , الذي يكتمل بالكتابة وقوانين الأدب التوليدية وهكذا يميل الفهم الذي هو أكثر اتجاها نحو البنية التحليلية للنص إلى أن يصيرا قطبين متمايزين في ثنائية متطور [6] ويقول " التفسير هو إبراز البنى , أي العلاقات الداخلية التابعة التي تشكل ثابت النص , والتأويل هو سلوك طريق الفكر إلى فتحها النص [7]

وإذا كان التأويل عند ريكور بالغ التعقيد وكثير الوساطات فإن التأويل لا ينبغي أن تعرضه لفهم حالة جزئية منفردة . بل على جميع تعبيرات الحياة المكتوبة أي على كامل العملية التي تحيط بالتفسير والفهم .

لذلك يقترح ريكور حركية للقراءة التأويلية وهي كالتالي :

ـــــــ يحاول القارئ في المرة الأولى الإمساك بالفهم الذي سيكون ساذجا بمعنى النص .

ـــــ وفي المرة الثانية سيكون استيعاب الفهم مدعوم إجراءات تفسيرية .

إذن لا بد أن يكون أول فعل يجب القيام به هو فعل الفهم وهو يأتي على شكل تخمين والسبب في ذلك هو علينا أن نخمن معنى النص لأن قصد المؤلف بعيد عن متناول والفهم ليس إجراء أو آلية للبحث عن معنى إنه ليس منهجا يخضع لقاعدة علمية معين وهو ليس تقنية أو أداة للمعرفة فالفهم هو إدراك للكينونة كما عبر عنها هيدغر

ـــــ ثم يتم الانتقال من التخمين إلى التفسير ويبحث موضوع التخمين المتعدد

وتحاول القراءة التأويلية بعد ذلك فهم النص على أساس أنه مكون من لغة رمزية هذه اللغة هي التي تمنحه لغة منفتحة فينفتح النص على قراءات متعددة .

وهو بهذه المقاربة بين المنهجين أراد ريكور أن يؤسس منهجا يتسنى للمرء بواسطته أن يكشف الغطاء عن البنى الأنطولوجية للمعنى وربما ينجح في تقديم تأويل ما لذلك الوجود في العالم الذي يتفتح أمام النص [8] , كما استبعد ريكور الطابع النفسي لتأويل النصوص استبعاد فهم ذاتية الكاتب الذي ألف النص , وركز أيضا على فهم الذات من خلال النص , وكذا استخدامها لقواعد منهجية في تحليله .

وهكذا أصبحت مهمة الهرمينوطيقا هي البحث عن الطرق المنهجية للعلوم الإنسانية للبحث عن أسسها الأنطولوجي .

وما يقوم به ريكور في تأويليته هو تأويل اللغة الرمزية باسترجاع معانيها الخفية والتي يجب تخليصها من أسر الفهم الحرفي , ومن ضيق النظرة الوضعية التي تحاصرها بتحويلها إلى مجرد استعارة قائمة على المماثلة . فالرمزية لا تعمل إلا حين يتم تأويل بنيتها [9] أو اختزالها إلى أسباب دفينة إلى هرمينوطيقا صراع التأويلات تأويل يقوم على فهم النصوص والثقافات لأجل فهم الذات في العالم .

وفي جانب آخر ساهمت أعمال ماركس ونيتشه وفرويد " في تأويلية ريكور من خلال إزالة الأقنعة وكشف الباطن الحقيقي من الظاهر السطحي وقد صب هذا العمل لصالح تأويلية ريكور

ويتمثل تحليل ماركس للعقيدة في اعتبارها أفيونا للشعوب فقد كانت وظيفتها التعتيم على الأحوال الغير إنسانية للعمل الإنساني , وجعل البؤس الإنساني أكثر احتمالا

أما نيتشه فقد اعتبر أن العقيدة هي أن ترفع الضعفاء إلى موقع قوة وتجعل من الضعف فضيلة وتجعل الحياة أكثر احتمالا لقد أزاح نيتشه القناع على العقيدة وكشف أنها مهرب الضعفاء وملجأ العجزة

أما فرويد فقد عمل أيضا على إزالة الأقنعة وكشف الحقيقي من السطحي فقد خلص إلى أن العقيدة تعد كمصدر مشروع للسكينة والأمل عندما يواجه المرء مصاعب الحياة فإنها في حقيقة الأمر وهم لا يعدو أن يكون تعبيرا عن رغبة المرء أب , إلا " هكذا قدم رؤوس الارتياب قراءاتهم للعقيدة وما بقي على ريكور سوى تطبيق نفس المبدأ على تأويليته [0] . وهاهنا تتولى هرمينوطيقا الارتياب عند ريكور بدور كبير في كشف التأويلات الزائفة أو المحرفة للمجتمع أو النص .

ب ـــــ مفهوم النص :

ركز ريكور على تحديد مفهوم النص في تأويلية , بعد أن استرعى انتباهه إلى أن الخطاب هو الكلام الشفهي .

وعلى هذا الأساس يعرف ريكور النص بقول : لنسم نصا كل خطاب ثبته الكتاب " [1] , فقبل أن يكون النص كتابة كان في الأصل خطابا كلام شفهي " فالكتابة تالية للكلام والتثبيت بالكتابة يحل ما محل الكلام فريكور يؤكد على تثبيت النص بواسطة الكتا

ويفرق ريكور بين الخطاب والنص من حيث المرجعية فالخطاب له معنى ومرجعية " الرسالة , المرسل) وإذا تحول الخطاب إلى نص غابت الخاصية المرجعية له فلم يعد هناك وضع مشترك بين الكاتب والقارئ هذا الإلغاء للخاصية المرجعية هو ما يجعل الظاهرة التي نسميها أدبا ممكن [32]

والخطاب تنتجه اللغة الشفوية بينما النص تنتجه الكتاب . والخطاب لا يوجد إلا باعتباره زمانيا وحاضرا [3] , فالخطاب مرتبط بلحظة إنتاجه وفي الكتابة تنتفي هذه السمة فالنص له ديمومة فهو يَقرأ في كل زمان ومكان .

ويفترض في الخطاب وجود متلق حاضر بينما يتوجه النص إلى قارئ غائب .

وإن الانتقال من الخطاب الشفوي إلى النص المكتوب يغير كثيرا من المفاهيم فينتقل الفكر من حال الأمان التي كان فيها إلى اللاأمان .

وهذا يعني أيضا أن اللغة دون كتابة لا وجود ولا كينونة لها وهي قبل أن توجد كانت خطابا فالخطاب " الكتاب " هو الذي يمنح اللغة ويكسبها تحققا ووجود .

ويذهب ريكور إلى أن اللغة رمزية تحيل إلى معان خفية وراء المعاني الظاهرة وأن الرمز يدعو إلى الفكر وبما أن اللغة هي سر الوجود و هناك إيمان بأن الإنسان خلق داخل اللغة , أي أن أنوار اللوغوس الذي يضيء كل إنسان يولد ويعيش داخل العا [4]

لذلك يدعو ريكور إلى البحث داخل النص , وما يحيل إليه فالذات لا تستطيع فهم ذاتها إلا من خلال فهم النص , ولا وجود لفهم الذات من دون توسط العلامات والرموز والنصوص , و لا مصدر للمعرفة ومحورا للوجو .

ج ـــ القـــــــارئ :

يُلاحظ أن ريكور قد أعطى حرية أوسع للقارئ ـــــ على غرار ما قام به غادامير وهيدغرــــــ بعد أن خلص المعنى من سيطرة المؤلف ودعا إلى المعاني المتعددة للنص

" فالقارئ هو الذي يقرأ النص يعطيه دلالته والنص يتحاور معه نظرا لاشتباهاته وأوجهه وبالتالي فإن القراءة غير الموجهة تحصيل حاصل لا تؤدي إلى معنى لأن القارئ يقرأ من غير أن يوجه النص نحو معنى معين لتحقيق هدف , القراءة إذن موقف والقارئ صاحب موقف وفي هذه الحالة فقط يصبح النص دالا ذا معنى "[5]

وتساعد الكتابة على تحرير النص من مؤلفه وسياقات إنتاجه الأولى الأمر الذي يسمح للقارئ بتأويله أي أن الكتابة تقوم بفصل بين النص ومؤلفه وكذا متلقيه بمسافة زمانية تتيح للقارئ أن يفهم النص كما هو لا كما يريده مؤلفه

ويركز ريكور على فهم النص من قبل المتلقي الذي يكون خاضعا لسلطة النص , بحيث لا يتجرأ على تقويله ما لم يقل , ولا يحاول أن يثقل النص بدلالات لا يتحملها على الأقل مبدئيا فبإمكان القارئ أن يكشف قصد المؤلف وبعد ذلك فالقارئ له كل الحق أن يفجر النص وفق ما يراه مناسبا من الدلالات التي توافق ما جاء بالنص .

ويشترط ريكور على قارئه إذا تقدم إلى النص أن يكون محملا بالفهم المسبق القبلي وهو في ذلك يجاري من سبقه من فلاسفة التأويل , ويعدل أفق القارئ كلما انكسر أفق النص فالتأويل حوار بين أفق النص وأفق القارئ " القارئ لا يتلقى هذا المعنى خلوا من أية سابقة دلالية , بل يتلقاه مزودا بالأعراف والتقاليد القرائية والثقافية التي يوفرها له مجتمعه هكذا يتقابل أفقان لفهم النص : أفق النص , الذي أودع فيه ذاكرته الوجودية عن الماضي , وأفق القارئ الذي يريد فتحه على المستقبل وينصهر هذان الأفقان ليولدا عملية القراءة في تملك النص وفهمه "[6]

وإن إبعاد ريكور للمؤلف عن نصه وتلاشي سلطته عليه يفتح النص على عالم مستقل من مؤلفه يتيح للقارئ إمكانات عيش كثيرة لأنه يحرر ذات المؤول من تعاليمها ويضعها بين الأشياء وتتموقع الذات من جديد

الخاتمة :

والنتيجة التي نخلص إليها أن محمد الطاهر بن عاشور أولى الاهتمام الكبير للتفسير إلى جانب التأويل فبعض آيات القرآن الكريم ما لا يلحق بها التأويل فإن فهمها يعد أمرا غريبا ويدعو القارئ المفسر إلى الحير . وهو نفس العمل الذي قام به بول ريكور الذي يؤكد أن لغة النص الأدبي تحوي على قواعد النحو والبلاغة والصرف فهي يجب أن تخضع إلى عملية التفسير و التفسير الناتج لا بد هو أيضا بعد ذلك أن يخضع إلى التأويل وذلك بصرف المعنى الظاهري الناتج عن التفسير إلى فهم معقول .

كما أن كل من ابن عاشور وريكور اهتما بالقارئ وزوداه بمجموعة من العلوم والمعارف التي لابد للقارئ أن يتسلح به .

فيما يبدو أن فهمهما للنص هو المختلف لأن التنظير العربي للنص يعني البروز في حين أن مفهوم النص الغربي يعني النسيج ,[7] والذي يحوي مفهوم الانسجام والاتساق .

الهوامش :

1. ـــــ أدونيس : الثابت والمتحول , الجزء الثاني , دار العودة , بيروت , 1979 , ص 152
2. ـــــ محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير , ج 1 , الدار التونسية للنشر , 1984 , ص 7
3. ـــــ ابن منظور : لسان العرب , دار المعارف , القاهرة , ص 3412
4. ـــــ أبو حيان الأندلسي : تفسير بحر المحيط , ج 1 , دار الكتب العلمية , بيروت , ص 10.
5. ـــــ الزركشي : البرهان في علوم القرآن , مكتبة دار التراث , القاهرة , ص 13
6. ـــــ محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير , ج 1 , ص 11 , ص 12
7. ـــــ الأنعام الآية 95
8. ـــــ محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير , ج 1 , ص 16
9. ـــــ البقرة الآية 255
10. ـــــ آل عمران الآية 31
11. ـــــ النساء الآية 164
12. ـــــ هود الآية 37
13. ـــــ محمد الطاهر ابن عاشور : تفسير التحرير والتنوير , ج 12 , ص 66
14. ـــــ المرجع نفسه , ص 18
15. ـــــ ابن عباد ـــــ تحقيق : محمد حسن آل ياسين ـــــ المحيط في علم اللغة , ج 2 , عالم الكتب , بيروت , 1992 , ص 211
16. ـــــ البقرة الآية 196
17. ـــــ محمد بن محمد الرعيني الشهير بالخطاب , قرة العين لشرح ورقات إمام الحرمين , ط 1 , مطابع الرياض , 1953 , ص 27
18. ـــــ خالد رمضان حسن : معجم أصول الفقه , دار الطرابيشي الروضة , ط 1 , 1998 , ص 311
19. ـــــ نبيهة قار : الفلسفة والتأويل , دار الطليعة , بيروت , ط 1 , 1998 , ص 67
20. ـــــ جون غراندن , تر : عمر مهيبل , المنعرج الهرمينوطيقي للفنومينولوجيا , منشورات الاختلاف , الجزائر , ط 1 , 2007 , ص 142
21. ـــــ عادل مصطفى : فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقة , دار النهضة العربية , بيروت , ط 1 , 2003 , ص 335
22. ـــــ المرجع نفسه , ص 342
23. ـــــ بول ريكور , تر : محمد برادة وحسان بورقية : من النص إلى الفعل , عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية مصر , ط 1 , 2001 , ص 123
24. ـــــ المرجع نفسه , ص 139
25. ـــــ نبيهة قار : الفلسفة والتأويل , ص 4 , ص 65
26. ـــــ بول ريكور , تر : السعيد الغانمي : نظرية التأويل , المركز الثقافي العربي , المغرب , ط 2 , 2006 , ص 120
27. ـــــ بول ريكور : من النص إلى الفعل , ص 120
28. ـــــ عادل مصطفى : فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقة , ص 344
29. ـــــ بول ريكور : نظرية التأويل , ص 16
30. ـــــ عادل مصطفى : فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا , ص 336
31. ـــــ بول ريكور : من النص إلى الفعل , ص 105
32. ـــــ المرجع نفسه , ص 109
33. ـــــ بول ريكور : نظرية التأويل , ص 132

34. ـــــ محمد هاشم عبد الله : ظاهراتيات التأويل قراءة في دلالات المعنى عند بول ريكو) , مجلة فصول , الهيئة العامة للكتاب القاهر 59 ,
ربيع 002 صر 100
35. ـــــ حسن حنفي : قراءة النص الهرمينوطيقا والتأويل , مجلة ألف , دار قرطب مصر , الدار البيضاء المغرب 2 993 ص 22
36. ـــــ بول ريكو : نظرية التأويل ص 17
37. _Le petit robert dictionnaire de la langue française France 1998 p 2243

ـــــ ابن منظو : لسان العرب , دار المعارف , القاهر ص 3412[3]

ـــــ أبو حيان الأندلسي : تفسير بحر المحيط ا , دار الكتب العلمي بيروت ص 10.[4]

ـــــ الزركشي : البرهان في علوم القرآن , مكتبة دار التراث , القاهر 13[5]

ـــــ محمد الطاهر بن عاشو : تفسير التحرير والتنوي ا ص 11 ، 12[6]

ـــــ الأنعام الآ 95[7]

ـــــ محمد الطاهر بن عاشو : تفسير التحرير والتنوي ا ص 16[8]

ـــــ البقرة الآ 255[9]

ـــــ آل عمران الآ 31[10]

ـــــ النساء الآ 164[11]

ـــــ هود الآ 37[12]

ـــــ محمد الطاهر ابن عاشو : تفسير التحرير والتنوي 12 ، 66[13]

14 ـــــ المرجع نفسه ص 18

15 ـــــ ابن عباد ـــــ تحقيق : محمد حسن آل ياسين ـــــ المحيط في علم اللغة 2 , عالم الكتب بيروت 1992 ص 211

16 ـــــ البقرة الآ 196

17 ـــــ محمد بن محمد الرعيني الشهير بالحطاب , قرة العين لشرح ورقات إمام الحرمين ا , مطابع الرياض 1953 ص 27

18 ـــــ خالد رمضان حسن : معجم أصول الفقه , دار الطرابيشي الروضة ا 1998 ص 311

19 ـــــ نبيهة قار : الفلسفة والتأويل , دار الطليعة بيروت ا 998 ص 67

20 ـــــ جون غراندن , ت : عمر مهيبل , المنعرج الهرمينوطيقي للفنومينولوجيا , منشورات الاختلاف , الجزائر ا 2007 ، 142

21 ـــــ عادل مصطفى : فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطية , دار النهضة العربية بيروت ا 2003 ، 335

22 ـــــ المرجع نفسه ، 342

23 ـــــ بول ريكور , ت : محمد برادة وحسان بورقيبة : من النص إلى الفعل , عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية مصر ا 2001 , ، 123

24 ـــــ المرجع نفسه ، 139

25 ـــــ نبيهة قار : الفلسفة والتأويل ص 4 ، 65

26 ـــــ بول ريكور , ت : السعيد الغانمي : نظرية التأويل , المركز الثقافي العربي , المغرب 2 2006 ، 120

27 ـــــ بول ريكور : من النص إلى الفعل ، 120

28 ـــــ عادل مصطفى : فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطية ، 344

29 ـــــ بول ريكور : نظرية التأويل ص 16

30 ـــــ عادل مصطفى : فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا ، 336

31 ـــــ بول ريكور : من النص إلى الفعل ص 105

32 ـــــ المرجع نفسه ، 109

33 ـــــ بول ريكور : نظرية التأويل ، 132

[34] ــــ محمد هاشم عبد الله : ظاهراتيات التأويل قراءة في دلالات المعنى عند بول ريكو) , مجلة فصول , الهيئة العامة للكتاب القاهر 59 , ربيع 002 ص 100

[35] ــــ حسن حنفي : قراءة النص الهرمينوطيقا والتأويل , مجلة ألف , دار قرطبة مصر , الدار البيضاء المغرب 2 993 , 22

[36] ــــ ــــ بول ريكور : نظرية التأويل ص 17

[37] ___ **Le petit robert dictionnaire de la langue française France 1998 p 2243**

مفهوم الاتساق بين نظرية النظم ولسانيات النص

The definition of consistency between the theory of system and linguistic text

الأستاذة: فائزة سيدي موسى
قسم اللّغة العربية وآدابها
كلية الآداب واللّغات- جامعة البليدة 2

ملخص:

يعالج هذا المقال أبرز ما توصل إليه العلماء العرب في قواعد تشكيل النص ، وقد خصصنا هذا العمل للحديث عن الجهود النصية عند عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم ، وذلك من خلال أدوات الإتساق التي تطرق إليها كالفصل و الوصل و التعريف والتنكير و الربط بالموصول و الحذف و غيرها و هي الأدوات التي تم التوصل إليها في اللسانيات النص، لذا سنحاول من خلال هذا المقال بحث العلاقة التي تربط بين مفهوم الاتساق و أدواته في نظرية النظم و لسانيات النص.

Summary:

This article addresses the most prominent findings of the Arab scientists in the rules of the formation of the text, we have been dedicated this work to talk about the scripts efforts when Abdul omnipotent Jerjani through systems theory, and through consistency Tools touched upon such as separation and connectivity and definition, and saying that the indefinite and connectivity Balmousol and deletions, and others, and are the tools that have been reached in linguistics text, so we will try through this article discuss the relationship between the concept of consistency and tools in systems theory and text linguistics.

الكلمات المفتاحية:

نظرية النظم = Systemstheory ، أدوات الاتساق = Consistency Tools،
لسانيات النص = Textlinguistics

مقدمة :

يعتبر الاتساق من أهم المفاهيم التي تتضمنها لسانيات النص إذ يمكننا من خلاله التفريق بين النص و اللا نص من خلال الأدوات التي تحقق الترابط بين أجزاء النص حتى يشكل لنا كلا متحدا لتحقق القصدية التي يحملها منشئ النص و المقبولية لدى المتلقي ، و هي الشروط التي تتضافر مع أدوات الاتساق حتى تتحقق النصية ، وقد أولى علماء النص أهمية كبيرة لأدوات الاتساق خاصة هاليداي و رقية حسن في كتابهما : "cohesion in english" بحيث حددا فيه مفهوم كل من النص و الاتساق و أهم الأدوات التي تحقق الاتساق على مستوى النص ، بالإضافة إلى جهود أخرى في هذا المجال ك: فان دايك و غيره كل حسب إسهاماته في وضع قواعد و أسس علم النص .

والبحث الذي بين أيدينا يحاول توثيق العلاقة بين مفهوم الاتساق و أدواته عند الغرب و العرب من خلال رصد مظاهره في نظرية النظم عند الجرجاني ، و ذلك بالإجابة على الإشكالية الآتية : ما هي أوجه التداخل بين علماء النص و الجرجاني في مفهوم الاتساق وأدواته ؟

و للإجابة عن هذه الإشكالية سنقف عند جملة من المفاهيم كمفهوم النص عند علماء النص و كذا الاتساق و أدواته التي تسهم في تحقيق النصية ، ثم نقوم بإجراء مقارنة بينها و بين مظاهر الاتساق في التراث اللساني العربي ضمن نظرية النظم ومفهوم الاتساق في لسانيات النص .

تمهيد:

كانت الدراسات اللسانية مقتصرة على الجملة باعتبارها أكبر وحدة يصل إليها التحليل اللساني ، إذ كانت تدرس بنويا معزولة عن السياق ، فظهر بذلك اتجاه جديد لدراسة الظواهر التي تتعدى حدود الجملة فيما يعرف بلسانيات النص و هو فرع يهتم بتحديد القواعد التي تبنى عليها النصوص .

و تعود البدايات الأولى لهذا العلم إلى المقال الذي نشره "harris" سنة 1952 بحيث حاول أنيجد توصيفا بنويا للنصوص،فبين فيه أن: " التعبير اللغوي المستقل بالإفادة أو الجملة هو مابه اللساني ، أما النص فليس إلا مظهرا من مظاهر الاستعمال اللغوي غير قابل للتحديد " (1).

فهاريس تجاوز حدود الجملة إلى النص محاولا بذلك وضع توصيف شامل للنصوص ، فهو بهذا المنهج تجاوز التقليد الذي أرساه بلومفيد في دراسة الجمل بنويا (الوصف و التصنيف و التوزيع) لينتقل إلى دراستها في سياقها النصي .

وهذا التحول من الجملة إلى النص عرف تسميات عديدة منها :لسانيات النص textlinguistic و نحو النص textgramar، بينما استعمل هارفج مصطلح textlogie، في حين أن درسلر استخدم مصطلح علم دلالة النص أما سوينسكي فيشيد بمصطلح نحو النص و تداولية النص و علم اللغة النصي و نظرية النص .(2)

و قد حاول علماء النص من خلال هذا المنهج تقديم الآليات التي تبنى عليها النصوص لتحقق النصية و التمييز بين النص و اللا نص، وذلك من خلال توفر أدوات الاتساق التي تشكل أهم شرط في الحكم على نص ما بأنه متسق ، لأن تحقق الانسجام في نص ما مرتبط بمدى اتساقه ، فالاتساق يظهر على المستوى السطحي للنص في حين أن الانسجام خفي مضمن في البنية العميقة للنص .

1- مفهوم النص:

قبل التطرق إلى مفهوم الاتساق و أدواته عند علماء النص سنعرج على مفهوم النص ،لأنه لم يشهد تعريفا موحدا و إنما قدمت له عدة تعاريف بحسب تعدد الإتجاهات التي درسته.

أ- النص في اللغة :

و النص في اللغة يعني الرفعة و الظهور يقال :" النص رفعك الشيء نص الحديث ينصه نصا : رفعه و كل ما أظهر فقد نص ، يقال : نص الحديث إلى فلان أي رفعه و كذلك نصصته إليه، ونص المتاع نصا جعله بعضه على بعض ، و أصل النص أقصى الشيء و غايته، و نص الرجل نصا إذا سأله عن شيء حتى يستقصي ما عنده ، و نص كل شيء منتهاه .

الأزهري :" النص أصله منتهى الأشياء و مبلغ أقصاها ، و في حديث هرقل : ينصه أي يستخرج أسهم و يظهره و منه قول الفقهاء نص القرآن و نص السنة أي ما دل ظاهر لفظها عليه من الاحكام و انتص الشيء و انتصب إذا استوى و استقام."(3)

فهذه المعاني اللغوية تفيد أن النص معناه الرفع والإظهار إما في جانبه المنطوق كالحديث أو في جانبه المكتوب المتمثل في الكتاب و السنة .

ب-النص اصطلاحا:

تعددت التعاريف المتعلقة بالنص وذلك بحسب الاتجاهات المختلفة التي اهتمت بمفهوم النص، فمنها من نظر إلى النص في جانبه الخطي مثل هارفج الذي يرى بأن النص:" ترابط مستمر للاستبدالات السنتجمية التي تظهر الترابط النحوي في النص."4

أما كريستيفا فقد ربطت النص بالموقف الاتصالي حيث ترى بأنه:" جهاز غير لساني يعيد توزيع نظام اللسان بالربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر بين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة معه، فالنص إذن إنتاجية."5

فالنص باعتباره حدثا تواصليا يكون في حالة إنتاجية متجددة حسب المواقف الاتصالية التي تستدعيه وهناك من أعطى مفهوما للنص في جانبه الكلي مقارنة بالجملة، إذ إن مفهوم النص لايستوي مع مفهوم الجملة على مخطط واحد (أو مع مفهوم القول أوالتركيب...إلخ) فالبنى النصية إن كانت أنجزتها كينونات لسانية إلا أنها تكون كينونات تواصلية."6

فمفهوم النص لا يستوي مع الجملة، لأن البنية النصية تخضع للموقف الاتصالي، في حين أن الجملة تخضع للجانب اللساني لأنها تدرس معزولة عن سياقها التواصلي.

أما برينكر فقد جمع بين الجانبين اللغوي والاتصالي في تحديد النص فيقول:" يسم المصطلح " نص" تتابعا محدودا من علامات لغوية متماسكة في ذاتها وتشير بوصفها كلا إلى وظيفة تواصلية مدركة."7

وهكذا نجد التعريفات المتعلقة بالنص تتعدد بتعدد الاتجاهات التي تدرسها، لذا فإن صلاح فضل يرى بعدم الاقتصار على الجانب المنطوق أو المكتوب أو الاتصال في تحديد مفهوم النص، لأن النص يتحدد بتضافر الجوانب الثلاثة لبناء نص مكتمل تتحقق فيه النصية" فالنص في نظره ليس مجرد لغة وليس مجرد اتصال وليس مجرد كتابة وليس تتابعا لجمل مترابطة إنه يتكون من كل ذلك وأكثر."8

وعليه فإنه يمكننا القول أن تحقق النصية يرتبط بالشروط السبعة التي حددها دي بوجراند وهي: "الاتساق والانسجام والقصد والقبول والإعلام والمقامية والتناص."9 وهي المعايير التي يستطيع أن نميز بها بين النص واللانص، والاتساق يعد من أهم المعايير التي تتمظهر من خلالها النصية بواسطة الأدوات التي تحقق الترابط بين أجزاء النص.

2- مفهوم الاتساق وأدواته عند علماء النص:

أ- مفهوم الاتساق:

يدل مفهوم الاتساق على الروابط التي تجمع بين أجزاء النص للوصول إلى القصدية التي يبتغيها منتج النص، فهو على هذا الأساس يجمع بين الجانبين الدلالي والشكلي، إذ يرى فان دايك أن:" الاتساق عبارة عن خاصية سيمانطقية للخطاب قائمة على تأويل كل جملة مفردة متعلقة بتأويل جملة أخرى، أما مصطلح الترابط فهو يشمل في الظاهر جانبا واحدا من اتساق الخطاب."10

فالاتساق- حسب فان دايك- يرتبط بالجانب الدلالي بالدرجة الأولى من خلال العلاقة الدلالية التي تضفيها كل جملة إلى الجملة التي تليها، ثم يشير إلى الجانب الشكلي الذي يظهر على مستوى البنية السطحية للنص ومن ثم فالاتساق عند فان دايك كلي يجمع بين الترابط الشكلي والمفهومي حتى يتحقق اتساق فحوى الخطاب.

ويعرف الاتساق على أنه:" العلاقات أوالأدوات الشكلية والدلالية التي تسهم في الربط بين عناصر النص الداخلية وبين النص والبيئة المحيطة من ناحية أخرى ومن هذه الأدوات المرجعية."11

وهذا التعريف فيه إشارة إلى الأدوات التي تحقق الاتساق على المستوى الداخلي للنص من خلال عناصر الإحالة الداخلية، كما يشير إلى عناصر الإحالة الخارجية التي ترتبط بالمقام الذي أنتج فيه النص.

أما هاليداي ورقية حسن فيريان أن الاتساق :" مفهوم دلالي إنه يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النص والتي تحدده كنص."12

فالاتساق عند هاليداي ورقية حسن مرتبط بالمعنى من خلال العلاقات المعنوية التي تربط بين أجزاء النص وتميزه عن اللانص، وهذا التمييز يتحقق بواسطة جملة من الأدوات.

ب–أدوات الاتساق عند علماء النص:

لقد حدد علماء النص جملة من الأدوات للربط بين أجزاء النص وتعمل على اتساقه حتى تتحقق النصية وتتمظهر الأدوات فيما يلي:

1–الإحالة:" تطلق تسمية العناصر الإحاليةanaphra() على قسم من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلة بل تعود على عنصر أو عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى من الخطاب"13

فهذه العناصر الإحالية لاتتسم بالاستقلالية وإنما ترتبط بالعناصر التي تحيل إليها، وذلك يكون بالضمائر أو أسماء الإشارة أو الأسماء الموصولة، ويشترط التطابق الدلالي بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه حتى يتحقق الاتساق وهذا ما أشار إليه محمد خطابي في قوله:" الإحالة علاقة دلالية ومن ثم لاتخضع لقيود نحوية إلا أنها تخضع لقيد دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه."14

وتنقسم هذه الإحالة إلى قسمين:

إحالة مقامية situationalexphora ونصية textualenphora وتنقسم الإحالة النصية بدورها إلى قسمين : إحالة قبلية (إلى سابق) to preceding text anaphora وبعدية (إلى لاحق) to following text cataphora."15

فالإحالة الداخلية تحقق الاتساق على مستوى البنية اللغوية للنص فتكون ظاهرة على المستوى السطحي، أما الإحالة الخارجية فتتعلق بسياق المقام بحيث تعمل على الربط بين الجانب اللغوي للنص والسياق الذي أنتج فيه.

2–الاستبدال: فهو صورة من صور الاتساق يكون بتعويض عنصر بآخر سواء أكان على المستىوى النحوي أم المعجمي، يقول: محمد خطابي عنه بأنه:" عملية تتم داخل النص إنه تعويض عنصر في النص بعنصر آخر شأنه في ذلك شأن الإحالة يختلف عنها في كونه علاقة تتم في المستوى النحوي- المعجمي بين كلمات أو عبارات."16

فالاستبدال يحقق الاتساق على مستوى النص من خلال تعويض عنصر بآخر حتى يتجنب منتج النص التكرار في النص، والاستبدال يتخذ ثلاثة أشكال، فهو إما أن يكون اسميا أو فعليا أوقوليا.

3–الحذف: ويعد وسيلة مهمة من وسائل الاتساق وهو قريب من الاستبدال إلا أنه لا يترك أثرا على مستوى البنية السطحية وقد حدد بأنه:" كعلاقة اتساق لا يختلف عن الاستبدال إلا يكون الأول استبدالا بالصفر."17

4–الربط: وهوتحديد للعلاقة التي يترابط بها اللاحق مع السابق بشكل منتظم."18

فالربط يعمل على تثبيت العلاقات بين المساحات النصية ويتحقق بجملة من أدوات العطف كالواو وأو، ثم، بل، لأن... وغيرها، وذلك لتحقيق معاني العطف المختلفة فمثلا: مطلق الجمع ويتحقق بحرف العطف الواو، والتخيير بواسطة حرف العطف أو،

والاستدراك بلكن، والتفريع بواسطة لأن... وهذه الروابط تحقق الاتساق على مستوى البنية النصية من خلال سد الفراغات النصية إذا حققت المعاني المنوطة بها.

3- التعريف:" وهو وضع العناصر الداخلة في عالم النص حيث تكون وظيفة كل من هذه العناصر لا تحتمل الجدل في سياق الموقف ومعنى أن تحدد الوضع باسم علم أوصفة معرفة."19

فوظيفة التعريف تتمثل في التحديد أي أداة التعريف إلى مذكور سابقا، فيتحقق الاتساق من خلال ربط أداة التعريف بالاسم المذكور سابقا، فهي بهذ تعمل عمل الضمير في الإحالة إلى مذكور سابقا.

وهذه الأدوات المذكورة آنفا تشكل لنا الاتساق على المستوى النحوي، أما المستوى المعجمي فإنه يتمظهر من خلال التكرار والتضام عند علماء النص.

فالتكرار "يتطلب إعادة عنصر معجمي أو ورود مرادف له أو شبه مرادف أو عنصرا مطلقا أو اسما عاما."20، ويكون التكرار إما لفظيا أي بإعادة العنصر نفسه أو معنويا من خلال تكرار المعنى لا اللفظ.

أما التضام فيكون بارتباط زوج من الكلمات بعلاقة ما، وهو ما يعرف بالطباق.

فهذه الأدوات تمثل لنا ما تم التوصل إليه في الدراسات النصية الحديثة في وضع أهم القواعد لبناء نص متسق ومنسجم حتى يتم التمييز بين النص واللانص وهذه الأدوات وجدت لها إرهاصات في التراث اللساني العربي خاصة في نظرية النظم وهو ما سنوضحه من خلال دراسة مظاهر الاتساق عند الجرجاني ومقارنتها مع المفاهيم الموجودة في لسانيات النص.

2-مظاهر الاتساق في نظرية النظم:

تمحورت نظرية النظم عند الجرجاني حول النص القرآني فدرس جميع الجوانب النحوية والبلاغية لإثبات فكرة الإعجاز باعتبار أن النص القرآني معجز بنظمه، فقدم بذلك تحليلات لدراسة الترابط بين الآيات تجاوز بها حدود الجملة، وهذه المفاهيم تتقاطع في كثير من جوانبها مع أدوات الاتساق في لسانيات النص.

وقد تم تناول مفهوم الاتساق عند الجرجاني واللغويين قبله فيما يعرف بالتأليف والسبك والنظم، فالقرطاجني تطرق إلى مفهوم الاتساق عند حديثه عن تناسق العبارات بقوله:" ومن ذلك حسن التأليف وتلاؤمه والتلاؤم يقع في الكلام على أنحاء منها: أن تكون حروف الكلام بالنظر إلى ائتلاف بعض حروف الكلمة مع بعضها وائتلاف جملة كلمة مع جملة كلمة تلاصقها..."21

فالقرطاجني استعمل مصطلحات لتوضيح التناسق بين العبارات كالتأليف والائتلاف والتلاؤم وهي اصطلاحات تدل على تحقق الاتساق في بنية القصيدة الشعرية.

وقد طور الجاحظ هذا المفهوم وعبر عنه بمصطلح السبك للحكم على جودة الشعر من عدمها فيقول:" وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان."22

فمصطلح السبك عند الجاحظ يدل على الاتساق بمفهومه الدقيق عند علماء النص لأنه نظر إلى القصيدة على أنها كل موحد متلاحم الأجزاء يتحقق ذلك بتوفر القصيدة على أدوات السبك المختلفة التي تعمل على الربط بين أ جزاء القصيدة (النص)، وهذا السبك الجيد يجعل النص كاملا لتحقيق المعنى الذي أنتج له ويسهل تداوله على اللسان.

أما الجرجاني فقد قدم تحليلات للنص القرآني والنصوص الشعرية تتفق في كثير من جوانبها مع الدرس النصي الحديث، فربط النص بالسياق الذي يعد من المعايير التي تتحقق بها النصية فيقول:" واعلم أن ليست المزية واجبة لها في أنفسها ومن حيث هي

على الإطلاق ولكن تعرض سبب من المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ثم بحسب موقع بعضها من بعض استعمال بعضها من بعض، فالتنكير لايروق في كل مقام والتقديم لا يروق في كل مقام وليس من فضل أو مزية لشيء من ذلك إلا بحسب الموضع وبحسب المعنى."23

فالجرجاني يقصد التراكيب التي تترابط فيما بينها من خلال وسائل الاتساق التي تستعمل في النص بحسب المعنى والسياق الخارجي الذي يحكم كلا من المتكلم والمتلقي، فهو يربط التنكير والتقديم اللذين يتغيهما الناظم بالمعنى والسياق لأن توظيفهما في تحقيق معنى النظم لا يكون عبثا وإنما لتبليغ رسالة معينة للمتلقي ضمن سياق معين يقتضي هذا التوظيف.

وقد أشار الجرجاني إلى مفهوم الاتساق عند حديثه عن معنى النظم فيقول:" وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيفما جاء واتفق، وكذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى تكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح."24

وقد بين الجرجاني العناصر التي تتحد من خلالها أجزاء النص سواء أكان ذلك على المستوى السطحي المتمثل في الأدوات الظاهرة على مستوى البنية السطحية أم على المستوى العميق المتمثل في المعاني الخفية التي تعتمد أساسا على البناء الشكلي السليم حتى تتحقق سلامة المعنى فينتج لنا نص متسق ومنسجم.

وعليه فإن مفهوم الاتساق عن الجرجاني يتداخل مع الدراسات النصية الحديثة، ويظهر ذلك من خلال الأدوات التي يدق فيها النظم والتي تتفق مع أدوات الاتساق في لسانيات النص، فقد تطرق إلى هذه الأدوات "بالنظر إلى الجمل التي تسرد ليعرف موضع الفصل منها من موضع الوصل، ثم يعرف ما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء وموضع الفاء من موضع ثم وموضع أو من موضع أم، وموضع لكن من موضع بل ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له."25

وهذه الوجوه في الربط بين الجمل تدل على أن الجمل لاترسل عشوائيا وإنما تخضع لجملة من الروابط حتى يتكون لنا نص متناسق ومترابط وإذا تأملنا نص الجرجاني لاحظنا أن هذه الأدوات قد عني بها علماء النص، وهذا ما سنوضحه من خلال التحليلات التي قدمها الجرجاني.

1- العطف: لقد بين الجرجاني أهمية حروف العطف في الربط بين الجمل وذلك بتحديد الفروق الدلالية بين حروف العطف" فالواو تفيد الإشراك في الحكم، والفاء تفيد الترتيب من تراخ وثم تفيد الترتيب بتراخ وأو تفيد التخيير ولكن وبل وكل منهما تفيد الاستدراك والإضراب."26

ولتوضيح هذه الفكرة قدم الجرجاني مثالا بين من خلاله عدم استقامة الكلام، لأن العطف لايصلح في جميع الأحوال فيقول:

" لا والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

وذلك لأنه لامناسبة بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى ولا تعلق لأحدهما بالآخر وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك."27

فاعتراض الجرجاني على العطف في هذا المقام كان لعدم تطابق المعنيين المعطوفين، مما أدى إلى خلل في الترابط بين الجملتين، وقد بين دقة العطف من خلال عطف جملة على أخرى تفصل بينهما جملة أو اثنتان فقال معلقا على قول المتنبي:

" تولوا بغتة فكأن بينا تهيبي ففاجأني اغتيالا

فكان مسير عيسهم ذميلا وسير الدمع إثرهم انهمالا

قوله: فكان "مسير عيسهم"معطوف على تولوا بغتة دون ما يليه من قوله:" ففاجأني" لأنا إن عطفناه على هذا الذي يليه أفسدنا المعنى لذا كان العطف على قوله" تولوا بغتة" ولهذا السبب كانت مع الأولى كالشيء الواحد وكانت منزلتها منها منزلة المفعول والظرف وسائر ما يجيء بعد تمام الجملة من معمولات الفعل مما لايمكن إفراده عن الجملة وأن يعتد كلاما على حدته."28

وهذا الفصل بين المعطوفين يدل على الترابط بين الجملتين المفصولتين لمعنى بقي قائما بين المعطوف والمعطوف عليه لأن تمام معنى الجملة الأولى مرتبط بالجملة الثانية فهي بمثابة المعمول للفعل الوارد في الجملة الأولى.

والجرجاني يقر بأن العطف لا يصلح في كل سياق، لأن بعض المقامات تفرض على منتج النص ترك العطف،وهذا الفصل لا يؤثر على ترابط أجزاء، وإنما يزيد في ترابط أجزائه وقد مثل بقول الشاعر:

"زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

حكى عن العواذل أنهم قالوا"هو في غمرة" وكان ذلك مما يحرك السامع لأن يسأله فيقول:"فما قولك في ذلك، وما جوابك عنه"أخرج الكلام مخرجه إذا كان ذلك قد قيل وصار كأنه قال:"أقول صدقوا أنا كما قالوا ولكن لا مطمع لهم في فلاحي، ولو قال:"زعم العواذل أنني في غمرة وصدقوا لكان يكون لم يضع في نفسه أنه مسؤول، وأن كلامه مجيب."29

فالرابط لا يظهر على مستوى البنية السطحية ،لأنه يحيل إلى ربط معنوي استقاه الجرجاني من السياق الخارجي ، فالفصل الموظف في البيت الشعري زاد من تلاحم أجزاء النص لأن المعنى لا يقتضي توظيف العطف وإنما يستوجب تركه، وهذا يبين لنا ارتباط معنى النص بالسياق الخارجي الذي أنشىء فيه.

2–الإحالة: قدم الجرجاني تحليلات لأبيات شعرية وظف فيها عناصر الإحالة التي عني بها علماء النص كالضمائر والإشارة ،وذلك عند تمييزه بين النظم الجيد والنظم الفاسد، فالإحالة بالضمير عند الجرجاني تضفي على النظم استحسانا أو هجنة فمثل لحسن استعمال الضمير ببيت البحتري:

"بلونا ضرائب من قد ترى فما غن رأينا لفتح ضريبا

هو المرء أبدت الحادثا ت عزما وشيكا ورأيا صليبا

فإذا رأيتها قد راقتك وكثرت عندك وجدت لها اهتزازا في نفسك فعد وانظر في السبب واستقص في النظر فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر وحذف وأضمر...أفلا ترى أن أول شيىء يروقك منها قوله:"هو المرء أبدت اه الحادثات."30

كما أشار إلى وظيفة اسم الإشارة في تحسين النظم عند تعليقه على قول الشاعر:

"وإن قتل الهوى رجلا فإني ذلك الرجل

أنظر إلى الإشارة والتعريف.31

فقد رد الجرجاني دقة النظم وحسن التعبير إلى الإحالة بالضمير والإشارة، وهي من وسائل الإحالة التي ركز عليها علماء النص، فالجرجاني لم يخصص للإحالة بالضمير والإشارة بابا مفردا وإنما تطرق إليها عند تمييزه بين النظم الجيد والنظم الفاسد، وهو ما يتفق فيه مع علماء النص في استخدام بدائل الإحالة للتمييز بين النص واللانص.

3–الربط بالموصول: وهو أحد عناصر الإحالة عند علماء النص، إلا أن الجرجاني خصص له بابا مفردا في دلائل الإعجاز لأهميته في تحقيق الترابط بين الجمل، فقد عده كالإحالة بالضمير تارة لأن صلة الموصول يجب أن تتضمن عائدا على الجملة السابقة، وعده ضربا من التعريف تارة أخرى لأنه يحدد الاسم المذكور قبله ،فالاسم الموصول إما أن يربط بين جملتين معلومتين من قبل السامع فيتحقق

معنى الخبر(الإفادة)، وإما أن يكون الخبر المتضمن"الذي" مجهولا من قبل السامع كقولنا : هذا الذي كان عندك بالأمس32 لشخص يجهل أن شخصا عنده، فلا يمكننا القول بأنه خبر لفقده شرط الإفادة، فالجرجاني يبين لنا دقة استعمال الموصول في الربط بين الجمل، بحيث يستقيم المعنى في موضع دون آخر، وذلك بحسب السياق الذي يحيط بالمتكلم والمخاطب، وهو ما يفرض إمكانية الربط بالموصول من عدمه.

4-الربط بالتعريف: تتعدى وظيفة أداة التعريف نقل النكرة إلى معرفة، لأنها تعمل على الربط بين الجمل مثلها مثل الضمير، فتحيل المتلقي إلى شيىء سبق ذكره وقد أرجع الجرجاني الفضل والمزية إلى الجمع بين التعريف والإشارة في قول ابن البواب:

وإن قتل الهوى رجلا فإني ذلك الرجل33

لكن رغم تأكيد الجرجاني على أهمية الربط بالتعريف، إلا أنه يرى بأنه لا يصلح في كل مقام، لأن هناك بعض المواقف تقتضي التنكير لا التعريف، وقد بين ذلك من خلال المثال الذي أورده من قول الشاعر "فلو إذ نبا دهر"،"وأنكر صاحب"34 فهو يرى أن اعتماد الشاعر على التنكير حقق الترابط بين الجمل وأدى إلى جودة النظم، وهنا تتضح لنا وظيفة أداة التعريف في تحديد اسم مذكور سابقا، في حين يدل التنكير على العموم أي لا يقوم بتحديد عنصر معين في النص.

5-التقديم والتأخير: ويعد من عوامل الربط عند الجرجاني،لأنه يقوم على دقة المعنى فتقديم أي عنصر من عناصر الجملة يخضع إلى ضوابط كالمعنى والسياق، مما يجعل النص أكثر ارتباطا واتساقا ليؤدي المعنى الذي وضع له بدقة، لأن هذا المعنى قد لايتحقق إذا اعتمد الترتيب المتعارف عليه لعناصر الجملة، وقد بين أن تقديم الظرف على عامله يضفي قوة واتساقا على النص من خلال العلاقة التي يقيمها المتلقي بين الظرف المقدم والعامل المؤخر، وهذا ما يجعل المتلقي يتشوق لمعرفة بقية الكلام ويتبين لنا ذلك من تعليقه على بيت إبراهيم بن العباس:

"فلو إذ نبا دهر وأكر صاحب وسلط أعداء وغاب نصير

تكون عن الأهواز داري بنجوة ولكن مقادير جرت وأمور

فإنك ترى ما ترى من الرونق والطلاوة ومن الحسن والحلاوة، ثم تتفقد السبب في ذلك فتجده إنما كان من أجل تقديمه الظرف الذي هو"إذ نبا" على عامله الذي هو "تكون" وأن لم يقل :فلو تكون عن الأهواز داري بنجوة إذ نبا دهر"35

وعليه فإن مرجع الحسن والجودة في النص الشعري للتقديم والتأخير الذي يعد استبدالا في الموضع، وهو ما يغيب في الدراسات النصية الحديثة باعتبار أن الجملة في اللغات الأجنبية تتميز بالثبات عكس الجملة العربية التي تمنح الحرية للمتكلم في ترتيب عناصر الجملة التي يمتد أثرها إلى النص من خلال العلاقات النصية بين جملة وأخرى لكن يشترط في التقديم والتأخير أن يخضع لضوابط السياق التي توجب التقديم حتى يستقيم النص ويؤدي المعنى المنوط به.

6-الحذف: يرى الجرجاني أن الحذف يعمل على الربط بين أجزاء النص، لأن بعض المواقف تقتضي الحذف بدل الإفصاح، فهو يرى بأن الحذف:"باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر فإنك به ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت أزيد للإفادة."36

وقد بين الجرجاني دقة الحذف في تحقيق التماسك بين أجزاء النص من خلال حذف المبتدأ عند القطع والاستئناف ، ومواضع حذف المفعول به من خلال نماذج النص القرآني، والحذف لا يظهر على مستوى البنية السطحية (مدرج الكلام) إلا أن موضعه موجود يمكن معرفته بعملية عقلية تتمثل في تقدير العنصر المحذوف، وهذا فيه اتفاق مع علماء النص الذين يعتبرونه استبدالا بالصفر.

7-الشرط والجزاء:يتحقق اتساق النصوص في الشرط والجزاء من خلال الروابط التي تربط جملة الشرط بالجواب، وهوما يدخل ضمن الأدوات التي يتحقق بها الاتساق عند علماء النص، ويظهر هذا الترابط من خلال الفروق الدلالية التي وضحها الجرجاني عند حديثه عن معنى الشرط بقوله:"وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك:"إن تخرج أخرج "و"إن خرجتَ خرجتُ"و"إن تخرج فأنا خارج"و"أنا خارج إن خرجتَ"و"أنا إن خرجت خارج"37

فوجوه الشرط والجزاء التي أوردها الجرجاني تخضع إلى سياق الموقف والغرض الذي يبتغيه المتكلم من إيراد هذه الوجوه، وارتباط الشرط بالجزاء يتداخل مع الرابط السببي في لسانيات النص من خلال توظيف الضمير لتأكيد الفعل من قبل المتكلم، وهذا ما يفرض تغير دلالة صيغة الماضي إلى المستقبل لا رتباطها بجواب الشرط الذي يحدث في المستقبل، كما تشكل الفاء الواقعة في جواب الشرط نوعا من أنواع الربط مما يزيد في تحقيق التماسك في النصوص.

8-الحال:خصص الجرجاني بابا مفردا للحال بين من خلاله الفروق والوجوه التي تكون عليها الحال في الكلام، فيقول موضحا هذه الفروق:"وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك:"جاءني زيد مسرعا"و"جاءني زيد يسرع" و"جاءني وهو مسرع" أو يسرع و"جاءني قد أسرع وجاءني وقد أسرع".38

فتحقق الاتساقفي النص من خلال توظيف الحال يتمثل في المعاني المتعلقة بالوجوه المختلفة التي بينها الجرجاني، فمثلا مجيء الحال مفردة على الثبوت، في حين أن ورودها جملة فعلية يدل على تجدد الحدث، وهذه الجملة تتضمن رابطا يعود على صاحب الحال، وهذا الرابط إما أن يكون ضميرا أو واو الحال وهو ما يشكل أداة من أدوات الاتساق عند علماء النص، مما يؤكد لنا وظيفة الحال في تحقيق التماسك بين أجزاء النص من خلال الفروق الدلالية التي تميزها بحسب السياقات التي تحكمها.

9-فكرة التعليق(النعت البدل التوكيد):أشار الجرجاني إلى التوابع عند شرحه لمصطلح النظم من خلال فكرة التعليق التي يتحقق بها الترابط بين أجزاء الجملة ويمتد أثرها إلى النص من خلال العلاقات القائمة بين الجمل، وهذه التوابع تتفق مع أدوات الاتساق عند علماء النص، فالنعت يشكل علاقة دلالية مع المنعوت إذ يشترط فيهما التطابق الدلالي خاصة إذا كان النعت جملة، لأن الجملة الواقعة نعتا تتضمن ضميرا عائدا على المنعوت وهو ما يشكل نوعا من أنواع الإحالة عند علماء النص.

أما البدل فيشتمل على علاقة قائمة بين البدل والمبدل منه وهو ما يحقق اتساقا على مستوى الجملة ويمتد أثره إلى النص من خلال الروابط المختلفة، ويتداخل البدل مع مصطلح الاستبدال عند علماء النص،"بحيث قسم الأول إلى بدل الكل من كل وبدل الاشتمال والبدل المباين، أما عند علماء النص فيقسم إلى استبدال اسمي وفعلي وقولي."39

ويعتبر التوكيد أيضا من أدوات الاتساق لأن التوكيد المعنوي يتضمن ضميرا يعود على المؤكد، أما التوكيد اللفظي فيعد نوعا من أنواع التكرار، وبهذا يتداخل التوكيد مع أدوات الاتساق عند علماء النص في التكرار من جهة والضمير العائد من جهة أخرى، وقد بين الجرجاني دور هذه التوابع في تحقيق معنى النظم فيقول:"ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض ...فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبرا عنه... أو تابعا له:صفة أو تأكيدا ...أو بدلا..."40

وعليه فإن فكرة التعليق التي تنبني على هذه التوابع تتضمن رابطا معنويا يحدد العلاقة بين التابع والمتبوع أو شكليا من خلال ضمير يعود على شيىء سبق ذكره، وهذا ما يمثل أداة من أدوات الاتساق تتداخل في مضمونها مع ما تم التوصل إليه في لسانيات النص.

10-التكرار: يشكل التكرار أداة من أدوات الاتساق على المستوى المعجمي، وقد أولى له الجرجاني عناية كبيرة ، لأنه يعمل على تحقيق الاتساق من خلال معاني النحو فتتحقق بذلك جودة النظم، والتكرار إما أن يكون جزئيا أو بتكرير لفظ بأكمله أو جملة بأكملها وقد مثل للأول بقول البحتري:

"فكالسيف إن جئته صارخا وكالبحر إن جئته مستثيبا"41

وقدأرجع الجرجاني جودة النظم إلى العطف بالفاء وتكرير الكاف وحذف المبتدأ لأن التقدير هو كالسيف، وقد كرر الكاف في قوله كالسيف-كالبحر كما كرر الشرط وجوابه "إن جئته صارخا" و"إن جئته مستثيبا"، وهنا يتبين لنا نوعان من التكرار تكرار جزء من الكلمة"كا" وتكرار جملة بأكملها (جملة الشرط وجوابه) وهو ما يشكل تكرارا بالمعنى، لأنهما اتفقتا في المعنى واختلفتا في اللفظ.

أما التكرار اللفظي فقد بينه الجرجاني بتعليقه على بيتي جندب بن عمار:

زعم العواذل أن ناقة جندب بجنوب خبت وعريت وأجمت

كذب العواذل لو رأين مناخا بالقادسية قلن: لج ودلت

وقد زاد هذا أمر القطع والاستئناف وتقدير الجواب تأكيد بأن وضع الظاهر موضع المضمر فقال: كذب العواذل و لم يقل كذبن وذلك أنه لما أعاد ذكر العواذل ظاهرا كان ذلك أبين وأقوى لكونه كلاما مستأنفا حيث وضعه وضعا لا يحتاج فيه إلى ماقبله وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام."42

فالجرجاني بين أهمية التكرار في تحقيق جودة النظم لأن تكرار كلمة العواذل كان أبين مما لو أضمر ، وهو ما حقق الاتساق على مستوى النص، وعليه فإن التكرار بنوعيه اللفظي والمعنوي يسهم في اتساق النصوص من خلال العلاقات النصية المختلفة فيزيد في تماسك النصوص إذا وظف بشكل يتوافق والدلالة التي يتضمنها النص.

خاتمة:

لقد حاولنا من خلال هذا العمل أن نوضح أوجه التداخل بين لسانيات النص ونظرية النظم حول مفهوم الاتساق وأدواته، وقد اتضح لنا عند عرضنا لأدوات الاتساق عند الجرجاني أنه تجاوز بها حدود الجملة وصولا إلى النص وذلك من خلال تناوله لأدوات الربط بين الجمل والمعاني الخفية التيتحقق الاتساق والانسجام على مستوى النص، كما تناول ظواهر نصية تعمل على تحقيق الاتساق في النص تتفق مع ما تم التوصل إليه في لسانيات النص كالفصل والوصل والتعريف والتنكير والموصول والتكرار وغيرها من الأدوات التي تحقق التماسك على البنية السطحية والعميقة.

كما تناول ظاهرة التقديم والتأخير التي تسهم في الربط بين أ جزاء النص من خلال العلاقة الرابطة بين العنصر المقدم والمؤخر لأن التقديم والتأخير يخضع إلى المعنى والسياق بالدرجة الأولى حتى تتحقق القصدية، بحيث يتوافق التقديم والتأخير مع الخصائص التركيبية للغة العربية، وهذا ما يمنح الحرية للمتكلم في ترتيب عناصر الجملة التي ترتبط مع أجزاء النص ضمن علاقات نصية أخرى حتى يتشكل لنا نصا متسقا ومنسجما، كما يسهم كل من الشرط والجزاء والحال والتوابع في تحقيق الاتساق لأنه يتضمن بدائل تعمل على ربط أجزاء النص، بحيث تتوافق في كثير من جوانبها مع ما تم التوصل إليه في الدراسات النصية الحديثة.

وهذا التداخل بين نظرية النظم ولسانيات النص في تحقيق الاتساق على مستوى النص يشير إلى أن عبد القاهر الجرجاني تجاوز حدود الجملة في تحديده لمفهوم النظم والقواعد التي تحكمه، وذلك عند تمييزه بين النظم الجيد والنظم الفاسد، فتطرق إلى الأدوات التي تحقق الاتساق بالأمثلة التطبيقية من الشعر والقرآن الكريم بغية إثبات فكرة الإعجاز، وهذا يبين لنا أن ما تعرض إليه الجرجاني في دلائل الإعجاز حول قواعد النظم يشكل ظاهرة نصية لأنه يتقاطع في كثير من جوانبه مع قواعد الاتساق في لسانيات النص.

الهوامش:

1. بحيري سعيد حسن، علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت،ط1، 1997، ص:18.
2. بوقرة نعمان، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب دراسة معجمية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع إربد، ط1، 2009،ص: 23.
3. ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم، لسان العرب تح: نخبة من الأساتذة، دار المعارف القاهرة، دط، دت، مادة نصص.
4. بحيري سعيد حسن، علم اللغة النصي المفاهيم والاتجاهات، ص188.
5. كريستيفا جوليا، علم النص ت: فريد الزاهي، مرا: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1997، ص: 21.
6. أزوالد ديكرو،جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلون اللسان، تر:منذر عياشي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2007، ص: 533.
7. كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، تر: سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، ط1، 2005، ص:27.
8. عفيفي أحمد، نحو النص اتجاه جديد في الدرس النحوي، مطبعة زهراء الشرق القاهرة، ط1، 2001، ص: 27.
9. دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تح: تمام حسان،عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص: 03 ومابعدها.
10. فان دايك، النص والسياق، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق المغرب، دط، 200، ص: 137.
11. الفقي صبحي إبراهيم، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000، ص: 96.
12. Halliday and hassan, cohesion in english, longman group limited ; London 1976m p4.
13. الزناد الأزهر، نسيج النص بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط1، 1993، ص: 118.
14. خطابي محمد، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي الدار البيضاء، ط1، 1991، ص: 17.
15. Halliday and hassan, cohesion in english, p : 33.
16. خطابي محمد، لسانيات النص، ص: 19.
17. المرجع نفسه، ص: 21.
18. المرجع نفسه، ص: 23.
19. دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص: 310.
20. خطابي محمد، لسانيات النص، ص: 24.
21. القرطاجني حازم، منهاج البلغاء وسراج االأدباء تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، دط، 1986،ص: 222.
22. الجاحظعمرو بن بحر، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي القاهرة، ط7، 1998، ج1، ص: 67.
23. الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز اعتنى به علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة ناشرون بيروت لبنان، ط1، 2005، ص: 08.
24. المصدر نفسه، ص: 54.
25. المصدر نفسه:ص:77.
26. ينظر المصدر نفسه، ص:172.
27. المصدر نفسه، ص:173.
28. المصدر نفسه، ص:186.
29. المصدر نفسه، ص:180.
30. المصدر نفسه،ص: 79.
31. المصدر نفسه، ص:84.

32. ينظر:المصدر نفسه، ص:157.
33. المصدر نفسه، ص:84.
34. ينظر: المصدر نفسه، ص:80.
35. المصدر نفسه،ص:80.
36. المصدر نفسه، ص:120.
37. المصدر نفسه، ص: 77.
38. المصدر نفسه، ص: 77.
39. الفقي صبحي إبراهيم ، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 26/1.
40. الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجازن ص: 14.
41. المصدر نفسه، ص: 79-80.
42. المصدر نفسه، ص: 180.

الصوتيات حولية أكاديمية دولية محكّمة متخصصة — العدد الثامن عشر
تصدر عن مخبر اللّغة العربية و آدابها — جامعة البليدة 2 - لونيسي علي — الجزائر

مفهوم الجملة في النّحو واللّسانيات وأهميتها في الدّراسات الأسلوبية دراسة وصفية

Sentence definition in grammar and linguistics and its importance in stylistic studies - A descriptive study-

الدكتور إبراهيم فضالة
أستاذ محاضر - - قسم اللّغة العربية
جامعة البليدة - علي لونيسي

ملخص الدراسة

الْجُمْلَةُ مُنطَلَق كُلِّ دِرَاسَةٍ لِسانِيَّةٍ، وَهِيَ بِدَايَةُ كُلِّ وَصْفٍ لِسانِيٍ . فَالْجُمْلَةُ هِيَ وحْدَةُ التَّفَاهُمِ والتَّخاطُبِ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ والْمُتَلَقِّي كَمَا أَنَّهَا الْوحْدَةُ الدَّلَالِيَّةُ الرَّئِيسَةُ فِي عَمَلِيَّةِ التَّوَاصُلِ اللُّغَوِي، وَبِنَاءً عَلَى هَذِهِ الْأَهَمِيَّةِ تَسْعَى هَذِهِ الدِّرَاسَةُ إِلَى إِبْرَازِ الْجُهُودِ الَّتِي بَذَلَهَا النُّحَاةُ فِي تَحْدِيدِ مَفْهُومِ الْجُمْلَةِ، مَعَ إِشَارَةٍ سَرِيعَةٍ إِلَى التَّكَامُلِ بَيْنَ النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ فِي إِيضَاحِ وَظِيفَةِ الْجُمْلَةِ الدَّلَالِيِّ . وَقَدِ اقْتَضَتِ الدِّرَاسَةُ أَنْ تُقَدِّمَ نَظْرَةً مُوجَزَةً حَوْلَ تَعْرِيفِ الْجُمْلَةِ فِي النَّحْوِ فِي اللغة الْفِرَنْسِي . وَارْتَأَتِ الدِّرَاسَةُ أَنْ تَتَطَرَّقَ إِلَى الدَّوْرِ الْفَعَّالِ لِلِّسَانِيَاتِ الْحَدِيثَةِ فِي الارْتِقَاءِ بِمَوْضُوعِ التَّرْكِيبِ، فِي فَاعِلِيَّةِ اللُّغَ . وَخُتِمَ الْمَوْضُوعُ بِذِكْرِ فَضْلِ نَحْوِ الْجُمْلَةِ وَاللِّسَانِيَّاتِ فِي الدِّرَاسَاتِ الْأُسْلُوبِيِّ .

الكلمات المفاتيح

الدِرَاسَةِ الِلسانِيَّةِ، وحْدَةُ التَّفَاهُمِ والتَّخاطُبِ، الْمُتَكَلِّمِ والْمُتَلَقِّي، تَحْدِيدِ مَفْهُومِ الْجُمْلَةِ، النَّحْوِ وَالْبَلَاغَةِ، اللِّسَانِيَاتِ الْحَدِيثَةِ، الدِّرَاسَاتِ الْأُسْلُوبِيَّةِ .

Abstract :

Sentence is beginning for each linguistic study, which is the beginning of each description of the tongue. It is the unity of understanding and communication between the speaker and the receiver as the Unity significance key in the process of linguistic communication, and based on this importance of this study sought to highlight the efforts made by grammarians in defining the concept of the sentence, with a quick reference to the integration of grammar, rhetoric in Note Significance and function sentence. The study was required to provide a brief overview of the syntax definition as in the French language. The study found that the address to the active role of modern linguistics in raising the issue of installation, the effectiveness of the language. He concluded by mentioning the topic preferred towards sentence and linguistics in stylistic studies.

Key Words:

Linguistic Study, Unit of Understanding ,Speaker and receiver Define the concept of sentence ,Grammar,Rhetoric, Modern Linguistics , Stylistic studies

إنّ مزية المفردات تكمن في قدرتها على حمل المضمون المعجمي الذي يختاره المخاطِب وهو ينشئ الخطاب غير أنها تبقى عاجزة في إيصال هذه الدلالات إلى المتلقي ما لم تنتظم بتجاورها أفقيا حسب ما يقتضيه النحو أي أن أية كلمة تكون لها علاقة بما قبلها وبما بعدها وبهذا التجاور بين الكلمات ينشأ ما يسمى بالتركيب .

وهكذا عملية التركيب في المنظور الأسلوبي تقـــوم على ظاهرة إبداعية سابقة عليها وهي ظاهرة " الاختيار " التي لا تكون ذات جدوى إلا إذا أحكم تركيب الكلمات المختارة في الخطاب الأدبي ".[1] والتركيب بهذا المفهوم يحقق الغاية الأساسية من اللغة وهي التبليغ، لكن الأديب لا يكتفي بهذه الوظيفة، وإنما يتطلع إلى تحقيق مجموعة من الوظائف – إضافة إلى الإخبار – والتي تتمثل في الأساس في الوظيفتين التعبيرية والجمالية اللتين تمتزجان مع الإبلاغ، فالإنسان يستخدم اللغة للتعبير عن مشاعره دون أن يكون اهتمامه بردود الأفعال التي من المحتمل أن يبديها الغير، وقد يقـــصد المتكلم إلى التأثير في المخاطب وهي الوظيفة البلاغية أو الجمالية كما تسمى في اللسانيات الحديثة والأسلوبية خصوص .

ويقول " ساندريس " في هذا المعنى :" فكما تجيز المفردات ضمن حدود معينة الخيار للإشارة إلى مضمون حقيقي ، ثمة إمكانات تركيبية كثيرة لصياغة بنية عميقة تعبر عن موضوع " [2] تشير هذه الفقرة إلى إمكانية التعبير بتراكيب مختلفة عن فكرة واحدة، وتدل في الوقت نفسه أن التعدد في التراكيب يعني التنوع في الأسلوب، وبذلك يتمكن الأديب أن يضمّن كلامه القيمة التي يريد إعطاءها لخطابه، وقد أورد عقب الفقرة السالفة الذكر أمثلة مختلفة للتعبير عن الرغبة في الهدوء بدءا بالجمل القصيرة الندائية وامتدادا إلى الجمل الطويلة :

- أغلق الف .
- ولا كلمة، ولا حرف .
- من فضلك أغلق فمك .
- أيمكن أن تهدأ أخيرا !
- هل يضرك أن تنهوا كلامكم؟
- يرجى الهدو .
- ما هذا الصخب !
- قليل من الهدوء لن يض .
- سأكون لك شاكرا إن فعلت معروفا وتحدثت على نحو أهد .

وهكذا أن الذي يميز الأسلوب الأدبي عن الكلام العادي هو كيفية تنظيم وحداته اللغوية وهو موكول إلى علم التركيب الذي يختلف كليا عن النحو بالمفهوم العربي الكلاسيكي، إذ هو لا يعتني إلا بالوظيفة الإعرابية للمفردات والجمل، ولا يهتم بالدور الترتيبي الذي يلعبه مكانه في سلسلة الكلام ومدى تأثيره في تحديد الدلالة [3] . وبناء على ذلك نستشف الاختلاف بين النظرية النحوية العربية القديمة والنظرية الحديثة حول مفهوم التركيب، وهذا ما سنحاول أن نبينه من خلال آراء النحاة القدامى في موضوع التركيب الجمل) ومجمل الأقوال في النظرية الحديثة لنحو الجملة في الخطاب .

التركيب في النحو والبلاغة العربي

ثنائية الكلام والجملة

استعمل النحاة العرب مصطلح الكلام قبل أن يستعملوا مصطلح الجملة واعتمدوا ما كان من قبيل الكلام مقابل ما كان من قبيل القـــول[1] . لقد أثارت هذه الثنائ – الكلام والجمل – نقاشا واسعا بين النحاة العرب خاضوا فيها خوضا حتى غدت عندهم بابا تقليديا في كتب النحو، وكونوا حوله مجموعات من التفسيرات، وتركوا لنا في هذا الموضوع تراثا ضخما، قلّ ما نعثر على كتاب نحوي يخلو من الحديث عنه، فعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر ما جاء في كتاب رسالة المباحث المرضيـ : « ولكن كثيرين من النحاة لا يرون هذا الرأي بل يفـــرقون بين الكلام والجملة وهو ما تتم به الفائد .. وأما الجملة عند جمهور النحاة فتعبير صناعي أو مصطلح نحوي لعلاقة إسنادية بين اسمين أو اسم وفعل تمت الفائدة بها أم لم تتم ولذلك فهي أعم من الكلام »[2] يبدو صاحب هذا الرأي أنه حسم الموقف بأن هناك اتفاق بين النحاة على التمييز بين الكلام والجملة، بحيث الكلام هو المفيد بالقـــصا والمراد بالمفيد هو ما دل على معنى يحسن السكوت عليه، والجملة عبارة عن الفعل وفاعله والمبتدأ وخبره أي العلاقة الإسنادية وقد استدل على ذلك بقول الزبيدي في " تاج العروس : الجملة مركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى .. ومثّل لذلك بالجملة الواقعة خبرا أو وصفا أو حالا أو شرطا أو صلة أو نحو ذلك هي جملة وليست بكلام لأن إسنادها ليس مقصودا لذا »[3] . وذهب في هذا الاتجاه ابن هشام في " مغني اللبيب " حينما حاول تحديد عدد الجمل الاعتراضية في الآية الكريمة : .. **وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُون أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُـــرَى أَنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُون** سورة الأعراف 96، 97 ثم يقول : وردَ عليه من ظن أن الجملة والكلام مترادفا[4] . ويفهم من هذا القول أن الاختلاف بين المصطلحين الكلام والجمل حقيقة بين النحويين، ولعل ما جاء في كتاب " مسائل خلافية في النحو " يصب في هذا المنحى ويبرز درجة النقاش الذي دار بين النحاة حول المصطلحين، وقد حاول صاحب الكتاب بإسهاب شرح الفرق بين الكلام والجملة واستهل كلامه بعنوان مسألة الكلام والجمل وأهـــم ما جاء فيه : « الكلام عبارة عن الجملة المفيدة فائدة تام .. هذا قول الجمهور، وذهب شرذمة من النحويين إلى أن الكلام يطلق على المفيد وغير المفيد .. »[5] وخاض ابن جني في هذه القضية المتعلقة بمفهو الكلام، غير أن – على ما يبدو في تعبيره – يجعل الكلام مساويا للجملة، وإنما يقـــرر الاختلاف بين الكلام والقـــول، وجاء ذلك في قول : أما الفرق بين الكلام والقول ليرى منه غور هذه اللغة الشريفة الكريمة .. أما الكلام فكل لفـــظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه وهو الذي يسميه النحويون الجمل ... وأما القول فأصله أنه كل لفظ مذل به اللسان تاما كان أو ناقص فالتام هو المفيد أعني الجمل .. فكل كلام قول وليس كل قول كلاه .. إلى أن يقول ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقـــول إجماع الناس على أن يقولوا القرآن كلام الله ولا يقال قول الل ..."[6] . وبهذا يكون ابن جني فصل بين " الكلام والقول " بحيث يشترط الإفادة في الأول ولا يشترط في الثاني إلا أن كما أسلفنا جعل الكلام مرادفا للجمل .

ويعود ابن هشام الأنصاري إلى " الكلا " بقول : " الكلام في اصطلاح النحويين عبارة عما اجتمع فيه أمران اللفـــظ والإفادة، والمراد باللفـــظ الصوت المشتمل على بعض الحروف تحقيقا أو تقديرا والمراد بالمفيد ما دل على معنى يحسن السكوت علي "[10] وما يمكن الإشارة إليه في هذا التعريف غياب مصطلح الجمل " وإنمـــا نجد ابن هشام يقـــارن بين " الكلا " والكلم والقول، والكلم عنده أقرب إلى مفهوم الجملة عند غيره، غير أن الكلم يشترط فيه التركيب من ثلاث كلمات فأكثر حيث عدّ " قام زيد " كلاما لا كلم، ولكن الجملة تصح من كلمتين، ورغم ذلك يبدو التعريف أقرب إلى التعريف الذي أورده ابن جني

في الخصائص، ولعل هذا التعريف هو الذي سمح لميشال زكريا أن يحدد تعريفا للجملة عند النحاة القدامى بقـــول : " الجملة هي اللفـــظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليه "[1] .

إن ما يلاحظ في التعريف استعمال مصطلح الجملة " بدل " الكلام " وهذا هو الشائع في الاستعمال المعاصر رغم أن مصطلح " الكلام " أدنى إلى الدلالة على الشكل اللغوي المستغني المفيد وهو مرشح أكثر من الجملة للدلالة على معنى التركيب لأنه يصف الظاهرة وصفا أقرب إلى الحدس بينما مصطلح " الجملة " يفهم منه – حسب تعريفات القدامى – الدلالة على الشكل اللغوي القائم على الإسناد سواء استغنى واستقل بنفسه أو تعلق بغيره أو لم يستغن ، بالإضافة إلى ذلك أن الشرح اللغوي للمصطلح يعني الجانب التركيبي الكمي العام ويقتـــضي كل ما تركب من عنصرين أو أكثر جملـــــــة، إن الذي صرف النحـــــــاة على استعمال " الكلام " كونه مصدرا لا يمضي فيه الجمع [2] وهكذا ومع مرور الزمان شاع استعمال مصطلح " الجمل " للدلالة على المصطلحين .

تحديد الجملة في النحو العربي

وإن كانت ثنائية الكلام والجملة عرفت اختلافا بين النحاة القدامى، فتحديد الجملة يبدو أنه وقع حوله شبه إجماع حسب قول " محمد الشاوش " ويلخص هذه الحدود على النحو التالي :

1 . – عدم اجتماع العاملين على المعمول الواحد لأنه لا يعمل في اسم واحد رفع ونصب .

2 . – عدم عمل العامل عملين مختلفـــين في معمول واحد .

ويضاف إلى هذين الحدين استقلال كل جزء من أجزاء التركيب بموضع له، رتبة أصلية أو فرعية لكون رتب أجزاء المركب بعضه متعقـــب الآخر .. وعلى هذا النحو يكون الجزء من المركب ممثلا لبداية الجملة إذا لم يكن معمولا لما قبله ولا عاملا فيه ويكون ممثلا لنهايتها، إذا كان غير عامل فيما بعده وما بعده ليس عاملا فيه . وعلى هذا النحو أيضا يكون كل جزء من أجزاء الخطاب قائما إما على الإتباع والعمل عاملا أو معمولا أو على القـــطع والتعليق ".[3] ويتبين مما سبق أن عناية النحاة العرب القدامى بالكلام كبيرة في توضيح معالم التركيب الجمل ، وعموما الجملة في العربية نوعان اسمية وفعلية، الجملة الاسمية موضوعة للإخبار بثبوت المسند إلى المسند إليه بلا دلالة على تجرد أو استمرار، وإذا كان خبرها اسما فقد يقصد به الاستمرار الثبوتي بمعونة القـــرائن وإذا كان خبرها مضارعا فقد يفيد استمرار تجددها إذا لم يوجد داع إلى الدوام فليس كل جملة اسمية مفيدة للدوام، فإن " زيد قائم " يفيد تجدد القيام، والجملة الفعلية وضعت لبيان علاقة الإسناد مع دلالة زمنية على حدث في الماضي أو الحاضر أو المستقبل يشير إلى تجدد سابق أو حاضر، فنظام الجملة في العربية الفصحى يسلك أحد خطين :

* أحدهما مسند إليه + مسند + متعلق ظرفي الجملة الاسمية = جملة اسمية .

* ثانيهما فعل مسند - فاعل أو ما ينوب عنه مسند إليه + مفعول مباشر متعلقات الجملة الفعلية = جملة فعلية .

فرغم هذه الجهود المضنية التي بذلها النحاة القدامى، فلم تسلم النظرية النحوية العربية من انتقادات المعاصرين، وأهم الملاحظات التي وجهت لها هي قيام البحث في بناء الجملة عند القدامى على نظرية العامل، وقد أشار " محمود فهمي حجازي " إلى بعض هذه الملاحظات في كتابه مدخل إلى علم اللغة منها : " أهم فرق يميز البحث الحديث في بناء الجملة عن البحث العربي، يكمن في أن الجهد العربي دار حول نظرية العامل بينما البحث الحديث هدفه في دراسة التركيب الشكلي لعناصر الجملة وسيلة للتعبير عن معنى، ومن ثـــم يُعَدُّ المعنى عنصرا مهما في دراســــــة الجملـــــة "[4] ولتوضيح طبيعة جدل النحاة في موضوع العامل أورد مثال المضارع المنصوب بعد كي، لكي، كي لا، لكي لا، كي ما، كان من الممكن الاكتفاء ب كي + فعل مضارع منصوب ، بينما النحاة

القدامى قاموا بعملية تحليلية معقدة لشرح ذلك، وذكر مثالا آخر يتمثل في جملة النداء حيث جعلوها جملة فعلية بتقدير الفعل " أنادي " في جملة يا كبير القضاة والفرق واضح بين الجملة الخبرية أنادي كبير القضا والجملة الإنشائية يا كبير القضا) غير أنه خفف من حدة الملاحظة بالإشارة إلى التكامل بين النحويين والبلاغيين كون البلاغيين ركزوا على المعنى في التركيب وهذا بتخصيص علم المعاني الذي له مكانة في دراسة الجملة العربية، وجهود البلاغيين مكمل طبيعي لجهود النحاة في هذا الميدان [15] .

وهكذا نجد أن مفهوم " الجمل " عالجه النحويو واللغويون والبلاغيون والنقاد كل حسب الزاوية التي أراد توضيحها منه — الجملة— فقد تناول البلاغيون بالتفصيل الذكر والحذف التقديم والتأخير في بناء الجملة، ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى الجهود التي بذلها عبد القاهر الجرجاني في هذا الموضوع، وتكاد تجمع الآراء أنه يُعدّ أول من أعطاه حقه في توضيح دور الجملة في فاعلية اللغة والنشاط الأدبي، وأوضح ما عبّر عنه في وموضوع الجمل " النظ ما جاء في قول : واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نُهِجَتْ، فلا تزيغ عنه ... وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظ نظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، وينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك : زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد، وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطل ..." [16] وعلق على هذا النص " تامر سلوم " إن هذه العبارات تـــــوهم إذا — سيقت وحدها — أن المعاني التي يرومها عبد القاهر نحوية بحتة، وليس الأمر كذلك .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن عبد القاهر الجرجاني أدرك هذه الحقيقة وأنه تجاوزه ... وإذا ما قرأت في الدلائل غير مرة فإنك لن تجد عناء في التخلص من هذا الفهم المحدد الذي ينافي روح التعمق ... ولذلك لا بد من مراجعة شاملة لمدلول النظم واتجاهاته، ورحنا نبحث كل ما يعطي صورة كاملة لمدلول النظم، وجدنا عبد القاه يحاول أن يثبت أن العمل الأدبي لا يكون إلا في « المعا »[17] وبهذ يُفهم من خلال هذا التعليق أن عبد القاهر يركز في شرحه للنظم على المعنى، إن القصد من النظم عند أن تتلاقى الكلمات في النطق مترسمة خطى المعاني القائمة في النفس والتي يريد المرء أداءها إلى غيره لقصد يهدف إليه، ويقول : عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلام أن توالت ألفاظه في النطق بل تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل " [18] ويمكن أن نجمل القول حول مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني ويكاد ينحصر في النقاط التالي :

- فكرة يراد أداؤه .
- ألفاظ تختار على قدود المعاني .
- ترتيب الألفاظ على ما تقتضيه صناعة النحو .
- جعل الترتيب ملائما لترتيب المعاني في النفس .
- اختيار الألفاظ على أساس ملاءمة الجرس للفكر .
- استنباط المعاني الثانية من واقع النظم .

ولعل أوضح ما عبر به عن أهمية إيصال الفكرة إلى المتلقي أنه لا يقـوم أساسا على الترتيب النحوي إذ ليس هو الذي يجعل الكلام بليغا، حينما قال : « ... أن للعرب الفضل والمزية في حسن النظم والتأليف ... هذا مما يوهم أن المزية أتتها من جانب العلم باللغة، وهو خطأ عظيم منكر يُفضي بقائله إلى رفع الإعجاز من حيث لا يعلم وذلك أن لا يثبت إعجاز حتى تثبت مزايا تفوق علوم البش »[19] بالإضافة إلى ذلك يؤكد أن النظم في الكلام لن يكون متميزا إلا إذا كان مبنيا على الاختيار، فمن البداهة أن نقول : إن وجدنا كلاما أفضل من الآخر ذلك أن الاختيار مظهر طبيعي، لأنه يعتمد على قاعدة التفاوت . ومن المفيد أن نذكر في

هذا المقام قوله حول تغير الترتيب يقـــتضي تغيرا في المعنى وهذا ما جاء في قول : « واعلم أن هذا كذلك ما دام النظم واحدا، أما إذا تغـــير النظم فلا بد حينئذ من أن يتغيـــــــــر المعنى »[20] وهذا القـــــول يعد كقاعدة عامة حسب ما ذهب إليه عمر أوكان " بقـــــــولـــــ :" إنه كلما تغير النظم إلا وتغيرت الدلالة، أي أن الفروق الدلالية هي فروق نظمية وحتى وإن كانت الألفاظ نفسها "[21] وهكذا نجد الجرجاني يجعل مدار الحديث في « دلائل الإعجاز » في موضوع " النظم " وأحاطه من جميع الجوانب، وقد تكون هذه الشواهد كافية لتوضيح أن المعنى المقـــصود من العبارة السابقة واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه النحو ليس المعنى الصريح، وإن كان الجزء منها ــ العبارة ــ يعني المعنى كذلك، وهي إشارة إلى اللغة المثالية النفعية التي تُعنى بالوظيفة الإخبارية فحسب، بينما النظم في اللغة الأدبية تسعى إلى جعل " النظم " هو الأسلوب الذي يكون التفاضل على أساسه، وتقترب هذه الرؤية من النظرية الأسلوبية اللسانية الحديثة ولعل ما جاء في بداية ا قال على لسان " فيلي ساندريس " ينطبق على مفهوم النظم لدى عبدا لقاهر الجرجاني وتتضح ألرؤية أن الدرس النحوي والدرس البلاغي يتكاملان في تحديد هوية الجملة هيئة ودلالة .

*** الجملة في الدراسات النحوية الغربية**

إن الاهتمام بالتركيب لم يكن شأن أمة دون الأخرى مادام بناء الجملة يعد الوسيلة الأساسية لتحقيق التواصل بين الناس، فلا بد إذن أن يلقى هذا الموضوع العناية الكافية في الدراسات الغربية، يقول العالم الأمريكي إدوارد سابير : إن لكل لغة عبقرية خاصة لا يستطيع أي كاتب أن يعبر عنها كاملة وأبرز ما تظهر فيه هذه العبقرية تركيب الجمل . "[22] وسنحاول رصد بعض الدراسات الغربية حول بناء الجملة فيما يلي :

جاء تعريف الجملة في قاموس اللسانيات : " في النحو التقليدي تعد الجملة وحدة معنوية، وفي اللغة الشفوية سلسلة من الأصوات المنطوقة بين وقفـــتين، ومحددة كتابيا بنقط الوقف، وفي اللغة الفرنسية تحدد بالحرف الكبير (a majuscule) والنقطة، والجملة يمكن أن تتضمن عدة إمكانات : جملة مؤلفة ومركبة (phrase composé et complexe)، وهذا التعريف يشكل عائقا لتعريف دقيق للجملة لأن الوحدة المعنوية يمكن التعبير عنها بجملة أو عدة جمل[23] .

ويستخلص من خلال هذا النص أن تعريف الجملة لم يتم الاتفاق عليه، تكتنفه ضبابية، كون الجملة يمكن أن تحوي جملا عدة وحتى الجملة المركبة فرّعت إلى نوعين، ولعل التعليق الذي قدمه محمد الشاوش " على التعريف الغربي للجملة يبين معضلة وجود تعريف دقيق للجملة بقول : " فقد عرّفت الجملة بكونها صيغة لغوية تقع بين نقطتين، صحيح أن هذا التحديد في الجملة المكتوبة إنما هو انعكاس لما يرافق الجملة المنطوقة من تنغيم وصحيح أن التنقيط ليس أمرا مجانيا اعتباطيا ولكن لا يمثل حلا للمسألة ." [24] وقد يعتقد البعض أن إشكال تحديد الجملة يجد حله في النحو الفرنسي، وذلك بالاعتماد على نظام الفـــصل بين الجمل باستعمال النقطة والفاصل والنقطة والفاصلة غير أن ذلك لم يكن حلا شافيا حسب ما ذهب إليه " محمد الشاوش " في تعليقه على علامات الوقف في اللغة الفرنسية، وجاء في قول :" ومن خلال الجمع بين هذه الحالات تتبين أن علامات التنقـــيط لم توضع لتناسب المقاييس الشكلية التي يعتمد عيها تحليل النص إلى وحدات متافـــصلة، بل لاعتبارات عديدة لا يمثل ما اتصل منها بالبنية التركيبية إلا أقلها وليس بالأمر الغريب فالتنقـــيط ظاهرة بدأت وتطورت مع ظهور الطباعة في القرن السادس عشر ... واستقرت قواعدها على يد الكتاب والمؤلفـــين ولم تصبح من مشاغل اللغويين إلا في وقت لاحق " [25] . ولعل ما يمكن أن نختم به الحديث عن الجملة عند الغربيين، هو حيرة " كلاوس برينك " بالخروج بتعريف شامل دقيق للجملة، حيث يقـــول : " تعد الجملة من الناحية النحوية الوحدة المحورية لبنية النص، وبذلك يطرح السؤال كيف تحدد الجملة " ثم يردف ويقـــول : ويضع هذا السؤال اللغويين في وضع قلّ أن يحسدوا عليه، إذ

لم يوفق علم اللغة إلى الآن في أن يطور تعريفا للجملة مقبولة بوجه عام [6] ولعل هذه الحيرة تعد تأكيدا على عدم الاتفاق في النحو الغربي للخروج بتعريف يرضى به النحاة، وبالتالي يلقى الإجماع حوله.

*** الجملة في اللسانيات الحديثة**

جاءت اللسانيات الحديثة بالمنهج الوصفي الذي يضاف إلى النحو التقليدي الذي يهتم بصحة التعبير وعثرات الكلام وطريقة قــل ولا تقــل وعلى الكاتب مجاراة الأساليب القديمة الفصيحة البليغ . أما النحو الوصفي فقد اقتصر على الوصف العلمي المحايد دون أن يتطرق إلى الصحة والخطأ، وبهذا كانت اللسانيات نهجا وصفيا يتجنب الموقف المعياري فقد تجاوزه إلى الاهتمام بالتركيب (Syntaxe) وصولا إلى الكليات التي تشترك فيها اللغات الإنسانية، ومن هنا ظهر مصطلح « التركيب » الذي يفــــضلــــه كثــير من الدارسين على مصطلــــح « النحو » [7] .

والمنهج اللساني الحديث لا يتوقف في درسه لتراكيب الجمل، وإنما يتعدى ذلك إلى البحث عن المعاني التي تعبر عنها تلك التراكيب، وبهذا اتسعت المدارس اللسانية الحديثة إلى التعمق في تحليل بنية الجملة، ويمكن للدارس أن يتبين ثلاثة اتجاهات رئيسة يمثلها عدد من اللسانيين الذين اهتموا بدراسة التركيب، وهذه الاتجاهات هي :

الاتجاه الوظيفي

الاتجاه التوزيعي

الاتجاه التوليدي التحويلي [8] .

*** الاتجاه الوظيفي** يدرس كيفية استخدام اللغة بوصفها وسيلة اتصال، فمنظور الجملة الوظيفي عرّفه بولينغر (Bolinger) بقوله : " إنه دراسة لكيفية تقديم المعلومات في الجملة ودراسة المحتوى الدلالي النسبي للموضوع والخبر وأقسامهم " [9] . وطبقا لذلك ترتب مكوّنات الجمل : " **الموضوع** " يرد أولا ثم يليه " الخبر " ثانيا، أما إذا أردنا التوكيد على " الخبر " فنقــوم بعملية التقديم والتأخير، والترتيب المفرداتي الذي يتطلبه منظور الجملة الوصفي يكون باستعمال أساليب تعبيرية نحوية مختلفة لصيغة المعلوم وصيغة المجهول في بعض اللغات، فإن ترتيب المفردات يكون له وظيفة نحوية للتمييز بين عناصر الجملة، ولعل المثال التالي يبين ذلك :

« الأستاذ ماثيزيوس كتب هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي » يختلف عن صيغة المجهول في الجملة نفسها « هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي كتب من قبل الأستاذ ماثيزيوس » وحسب المنظور الوظيفي فإن صيغة المعلوم " الأستاذ ماثيــزيوس هــــو " **الموضوع** " . هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي » هو " الخبر " بينما في صيغة المجهول فإن « هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي » هو " **الموضوع** " ، " والأستاذ ماثيزيوس " هو **الخبر** " [9] ويتضح من هذا المثال أن المنهج الوظيفي يهتم بوظيفة العنصر اللغوي في التركيب، وتتحدد هذه الوظيفة بالترتيب الذي يتبوؤه في القول .

*** الاتجاه التوزيعي :** أوضح هاريس (Harris) : أن في كل لغة مجموعة محدودة من الصيغ الصرفية وأن مفردات اللغة إما تنسب إلى هذه الصيغة، أو تلك فثمة فعل واسم وحرف ووصف وظرف الخ، ولا يمكن لأي من هذه الصيغ أن تحل مكان الأخرى، ويعني ذلك أن أي تغيير في عناصر في الخط الأفقي محور المجاور يستتبع تغيير في العناصر المؤلفة للخط العمودي محور الاستبدال [10] .

ويمكن التمثيل على ذلك :

- الطفل يشرب اللبن .
- هي تشرب =
- هما يشربان =

– هم يشربون =

– هن يشربن =

ففي الأمثلة يلاحظ أن اللجوء إلى ضمير المؤنثة في الجملة الثانية تطلب تأنيث الفعل، وفي الجملة الثالثة أبدل فيها ضمير المؤنثة فحق أن تلحق بالفعل ألف التثنية وهكذا ..

ويتلخص منهج هاريس في أن المعالجة العلمية للغة عن طريق النصوص تبنى أولا وأخيرا على السياقات الخطية، والتوزيع في نظره هو مجموع السياقات التي تظهر فيها الوحدة، وهذا التوزيع هو الذي يميز الوحدات المختلفة عن بعضها، فما يميز الوحدة / ينهق / مثلا عن الوحدة / يزأر / هو أن توزيع الأولى سيكون على الشكل التالي : – ينهق الحمار أو الحمار ينهق . وتوزيع الثانية يكون على الشكل التالي :

– يزأر الأسد أو – الأسد يزأر .

وليس العكس أبدا إذ يتعذر التوزيع التالي :

* ينهق الأسد أو * الأسد ينهق

* يزأر الحمار أو * الحمار يزأر [31] .

وبناء على ما سبق ندرك أن هاريس يؤكد على تلازم المحورين المجاورة والاستبدال في بناء الجمل .

* **الاتجاه التوليدي التحويلي** : بناء الجملة في نظر " نوام تشومسكي " يقوم على مبدأ يعرف بنموذج القاعدة المحدودة، ولا سيما بعد التعديل الذي نشره في العام 1965 يفترض وفقا لهذا النموذج وجود ثمان قواعد أربع منها نحوية وأخرى معجمية، وهذه القواعد تعمل سوية على انتاج الجملة، فالمتكلم باختياره المكون الحرفي أو الاسمي أو الفعلي يبدأ الكلام، يستخرج في الوقت نفسه تصنيف هذه العناصر مع المعجم[32] .

وهذه القواعد تمثل النموذج لبناء الجملة عند تشومسكي، ويؤخذ عليه أنه لا يصلح للتطبيق على جمل زيد فيها مكون نحوي أو أكثر أو حذف مكون أو أكثر أو اعتراها شيء من تقديم أو تأخير ... وهذا المأخذ دفع بتشومسكي إلى إعادة النظر في قواعد بناء الجملة بتقديم نسخة أخرى أكثر قبولا، وهي التي أضاف إليها ما يعرف بقواعد التحويل التي يتم اللجوء إليها انطلاقا من القواعد الأساسية بالزيادة، أو الحذف أو التقديم والتأخير .

وهكذا عن طريق تطبيق قواعد التحويل، يمكن توليد عدد كبير من البنيات السطحية، تسمح للكاتب أن ينوّع في العبارة، وهذا ما لم تنتبه إليه المدرسة التوزيعية[33] ، وقد سمى بنية الجملة نتيجة القواعد الأساسية بنية عميقة وبنية الجملة عن طريق قواعد التحويل بنية سطحية .

أهمية علوم اللغة في الدرس الأسلوبي

ولا شك أن التطور الذي عرفته اللسانيات الحديثة والتنوع في اتجاهاتها، أفاد البحث الأسلوبي في تعامله مع النص الأدبي نظرا للعلاقة الوطيدة التي تربط الأسلوبية باللسانيات خصوصا وعلوم اللغة عموما . وهذه العلاقة أكدها أغلب الدارسين، وسنحاول ذكر بعض هذه الأقوال التي تجمع على أن الدراسة الأسلوبية لا ينهض بها إلا من تزود بمعارف لسانية ولغوية، يقول عبد السلام المسدي في هذا المجال : "... تحتم ارتكاز العمل الأسلوبي على أرضية لساني ... على الأسلوبي – ولا سيما الممارس المقاربة التطبيقية – أن يتخذ زادا من اللسانيات العام ... حتى يتسنى له الإجراء النقدي المتمحض للمنظور الأسلوبي " [34] . ويؤكد هذا الرأي صلاح فضل بقـــول : ويفيد علم الأسلوب من جميع التحولات المعرفية التي شهدتها الألسنية الحديثة "[35] .

ولعل ما ذهب إليه فيلي سانديرس " يدعم هذه الأقوال، وأهم جاء في قوله : العلاقات الوثيقة التي بين الأسلوب والنحو موضوع بارز في الدرس اللساني .. ، وبخاصة حين يصل فيها الأمر إلى درجة يعتقد فيها أن الأسلوب لا يمكن أن يعرّف بوضوح ما لم يرجع الباحث إلى النحو "[36] .

، بول فابر كريستان بايلو " يستبعد إمكانية الدراسة الأسلوبية بعيدا عن المعرفة التي تقدمها اللسانيات في جميع مراحل الدراسة سواء تعلق الأمر بوصف المادة الصوتية أو التصريف ومعرفة المفردات أو التركيب، فعلم الأسلوب يستضيء بمنهجيات النحو والألسنية والإحصاء والتاريخ الأدبي وعلم الشخصيات وعلم اللهجات والنقـــد والبلاغة غير أنه يدعو إلى تحرير البلاغة من جوانبها المعياري . وينبه إلى أن أي دراسة التي تهمل الملاحظات الإيجابية التي تبديها بالخصوص اللسانيات ستتوجه إلى الانطباعية، ويشير إلى الجوانب التي تهتم بها الأسلوبية من المعارف التي تقترحها هذه المعارف اللساني .[37] .

، رابح بحوش " يشيد : قدمه الاتجاه التوليدي للأسلوبية من أدوات التحليل، إذ يقول : " النحو التوليدي – إذن – يفتح إمكانيات كثيرة في مجال الأسلوبيات، من حيث الهدف هو تأسيس الأنماط تحد الجملة غير النحوية، الجملة التي ليست مجرد من الدلالات . ويقول أيض : استطاعت الأسلوبيات أن تقيم علاقات حيوية بين معارف شتى منه : اللسانيات والشعريات والبلاغة والنحو "[38] .

، يوسف أبو العدوس " بعد ذكر فـــضل النحو التوليدي على الأسلوبية، كون فكرة الاختيار النحوي في الأسلوبية إنما هي منطلقة من فكرة النحو التوليدي، وأنها الأسلوبي وجدت ضالتها في النظرية النحو التوليدي وما أفرزته من مقوّمات ومصطلحات لغوية مثل البنية العميقة والبنية السطحية، فوظفت هذه المفاهي في الدراسة الأسلوبية، يذهب إلى أبعد من وجود العلاقة بين الأسلوبية والعلوم واللغوية بحيث تصل هذه العلاقة إلى درجة التداخل بين هذه العلوم ولا سيما في مستويات التحليل فهو يرى أن من يمعن النظر في هذه المستويات سيفاجأ أن المستويات نفسها هي عند التحليل اللغوي وتتمثل في العموم في تحليل الأصوات وتحليل التراكيب وتحليل الألفاظ وهذه المستويات ذاتها، هي التي يتحدث فيها الأسلوبي،غير أنه في نهاية الأمر، يشير إلى إمكانية الفـــصل بين الأسلوبية واللسانيات، وذلك بجعل لكل من اللساني والأسلوبي حد وهدف لا يجاوزه، فاللساني يسعى إلى وصف اللغة وصفا دقيقا ثم الخروج بقـــواعد تفسر النشاط الإنساني، ولا يتعدى اهتمامه باللغة بشكل عام، بينما الدارس الأسلوبي فغايته مختلفة إنها تبدأ من حيث ينتهي اللساني والنص في الدراسة الأسلوبية مرآة تعمل على تحديد مدى نصاعتها وتصويرها للنفس البشرية ، ولذا يشترط في المحلل الأسلوبي ثقافة مزدوجة، لغوية أولا، لأن مادة الكلام هي اللغة، وأدبية ذوقية ثانيا، لأن جوهر الكلام هو الجمال .

والتفـــريق يظهر – إذن – في الغاية والهدف، فالذي ينظر إلى النص على أنه نص لغوي المراد منه معرفة أساليب الكاتب للخروج بقـــواعد علمية قابلة للتعميم فهو باحث لغوي والذي ينظر إلى النص على أنه نص لغوي والمراد منه معرفة أساليب الكاتب وتمايزه عن غيره من الكتاب وتحديد طريقته الخاصة فهو محلل أسلوبي [39] . وهكذا تجمع الآراء على توطيد العلاقة بين الدراسات اللسانية الحديثة والدراسات الأسلوبية خصوصا كون علاقتها بها علاقة منشأ ومنبت وكونها أيضا أحد فروع اللسانيات، وشتى أنواع المعارف عموما مثل البلاغة والنقد والنحو إ- . ولذا بات لزاما على الدارس الأسلوبي أن يتزود بثقافة لسانية متجددة، وبناء على ذلك فإن كل من الدارس الأسلوبي واللساني مطالبان اليوم بتوثيق الصلة بينهما من أجل للوصول إلى تحليل الخطاب الأدبي .

مراجع الدراس :

1. ينظر نور الدين السد،الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث الأسلوبية والأسلوب } الجزء الأول، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائ 1997 ص 168
2. = فيلي ساندريس، نحو نظرية أسلوبية لسانية، ترجمة خالد محمود جمعة، دار الفكر، ط1 2003 دمشق سوري ص 137.
3. = توفيق الزيدي، النقد العربي الحديث من خـــــــلال نماذج، الدار العربية للكتاب 1984 ص 73
4. = **محمد الشاوش** ، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية تأسيس نحو النص) الجزء الأول، المؤسسة العربية للتوزيع، ط 1 2001 تونس، ص 267
5. = عبد الله بن يوسف (هشام المصري، تحقيق : مازن المبارك، دار ابن كثير، ط 987 دمش ص 50.
6. = المرجع السابق، ص 51. وقد وقع النزاع في عدد الجمل المعترضة، وحاصل ما ذكر أربعة أقوال : الأول عدد الجمل المعترضة سبعة، الثاني الجمل المعترضة أربع، الثالث : الجمل المعترضة ثمان، الرابع : الجمل المعترضة ثلاث
7. = ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب،تحقيق : مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، ط 985 بيروت ص 491.
8. = أبو البقاء العكبري، مسائل خلافية في النحو، تحقيق : محمد خير الحلواني، دار النشر الشرق العربي، ط بيروت 1992 ص 35،36.
9. = أبو الفـــــتــح عثمان بن جني، تحقــيــق : محمد علي النجار، عالم الفكر، د ت بيـــروت ص 17 18
10. = ابن هشام الأنصاري، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، دار إحياء العلوم، ط 1985 بيروت ص 9
11. = ميشال زكرياء، الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية الجملة البسيط ، المؤسسة الجامعــية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1983 بيروت ص 23
12. = محمد الشاوش أصول تحليل الخطاب، في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص " الجزء الأول، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2001. تونس ص 242 243 267
13. = محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربي . تأسيس « نحو النص » المرجع السابق . ص 255 ويذكر في الصفحة 297 قول ينسب إلى الزمخشري ونصه " الأصل أن تكون الجمل على ضربين اسمية وفعلية)
14. = محمود فهمي حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط2 1978 القاهر ص 68
15. = المرجع نفسه ص 69
16. = عبد القدر الجرجاني، دلائل الإعجازدلائل الإعجاز، شرحه وعلق عليه ووضع فهارسه : محمد التنجي، دار الكتاب العربي،ط . لبنان 425 هـ /2005 ص 69،70
17. = تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط 1983. سوري ص 113 114
18. = عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المرجع السابق، ص 51
19. = المرجع نفسه، ص 168 169.
20. = المرجع نفسه، ص 180
21. = عمر ان، اللغة والخطاب، إفريقيا الشرق، المغرب 2001 ص 88
22. = شكري محمد عياد، مدخل إلى علم الأسلوب، أصدقاء الكتاب للنسر والتوزيع، ط3 1996 القاهر ص 46 47
23. = Dictionnaire De Linguistique, Jean Dubois-Mathée Giacomo.Louis guespin. Christiane Marcellesi.Jean-Baptiste.Jean Pierre Mével, Larousse. 2002.page 365
24. = محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربي . تأسيس « نحو النص » ، المرجع السابق ص 227

25 = محمد الشاوش، المرجع السابق، ص 228 (تحديد الجملة في اللغة الفرنسي : تستعمل النقطة لبيان الحد الفاصل بين جزأين ... أو الفصل بين جمل صغرى، والفاصل المتوسط له عدة استعمالات منها : للفصل بين جمل صغرى من نفس النوع ليس بينها أدوات عطف، قبل جمل صغرى مبدوءة بأدوات عطف غير ou ,ni ، قبل جمل صغرى ظرفية قيمتها مجرد التفسير، قبل الجمل الصغرى الظرفية الواقعة في صدر الجمل . لفصل الجملة الصغرى الاعتراضية ..)

26 = كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج، ترجمه ومهد له وعلق عليه سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار مصر 2005 ص 32

27 = أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، ط 1999 دمشق ص 216

28 = المرجع نفسه ص 240

29 = أحمد مومن، اللسانيات، النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر . 2002 ص 140 وفيما ترتيب مكونات الجملة فإن " **الموضوع** " يرد أولا ثم يليه **الخبر** " ثانيا، أما إذا أردنا التوكيد على ' الخبر ' فنقوم بعملية التقديم والتأخير، وبالنسبة للغات التي يكون لترتيب المفردات فيها وظيفة نحوية للتمييز بين الفاعل والمفعول به، فإن الترتيب المفرداتي الذي يتطلبه منظور الجملة الوصفي يكون باستعمال أساليب تعبيرية نحوية مختلفة لصيغة المعلوم وصيغة المجهول في الفرنسية والإنجليزية، وعليه فإن صيغة المعلوم في الجملة الآتية مثلا مع المحافظة على نمط التركيب الإنجليزي : " الأستاذ ماثيزيوس كتب هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي " يختلف عن صيغة المجهول في الجملة نفسها " هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي كُتِب من قبل الأستاذ ماثيزيوس " وحسب المنظور الوظيفي فإن صيغة المعلوم ' الأستاذ ماثيزيوس هو ' **الموضوع** ' ، " هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي " هو ' الخبر " بينما في صيغة المجهول فإن " هذا الكتاب حول منظور الجملة الوظيفي ' هو " **الموضوع** ' ، " والأستاذ ماثيزيوس ' هو **الخبر**

30 = إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص،دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط 2007 عمان الأردن ص 38 39 .

31 = سليم باب عمر وباني عميري، اللسانيات العامة الميسرة، علم التركيب ، دار أنوار 1990 الجزائر ص 37

32 = إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، المرجع السابق،ص 93 وقد وضح إبراهيم خليل هذه القواعد الثمانية في المرجع السابق في ص 94 وهي كما يلي :

* مركب اسمي NP + مركب فعلي NV

* مركب اسمي np + مركب فعلي nv + مركب اسمي np

* حرف art + اسم N + فعل V + مركب اسمي np

* حرف art + اسم N + فعل V + حرف art + اسم N

* ال the + اسم N + ف V + ال the + اسم N

* ال the + رجل Man + ف V + ال the + كرة Ball

* ال the + رجل man + سوف will + ف V + ال the + كرة Ball

* ال the + رجل Man + سوف will + يضرب Hit + ال the + كرة Ball + مركب اسمي NP + مركب فعلي NV

33 = سليم باب عمر وباني عميري،المرجع السابق، ص 63

34 = عبد السلام المسدي، في آليات النقد الأدبي، دار الجنوب للنشر سلسلة مفاتيح 1994 تونس ص 61

35 = صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، إفريقيا الشرق 2002 الدار البيضاء المغرب ص 93

36 = فيلي ساندريس، نحو نظرية أسلوبية لسانية . المرجع السابق ص 109

37 = بول فابر كريستان بايلون، مدخل إلى الألسنية، ترجمة طلال وهبة، المركز الثقافي، ط 1992 المغرب ص 232 233 234 .

38 = رابح بحوش، الأسلوبيات وتحليل الخطاب، منشورات جامعة باجي مختار عنا 2005 الجزا ص (46

39 = يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ط 2007 الأردن ص 46 47 48 49 50 .

الخطاب القرآني بين العقل الصريح، والعاطفة الصادقة

-قراءة في إعجاز القرآن العلمي النفسي-

Coranic Speech Between Clear Mind And Sincere Emotion

الدكتور عماد بن عامر

أستاذ محاضر أ،كلية الآداب واللّغات

جامعة البليدة 2-علي لونيسي-

إمام الجامع الكبير بالعاصمة

الملخص بالعربية:

إن مما وقع عليه الإجماع قديما وحديثا، أن القرآن الكريم كلام الله المعجز الذي انبهرت العقول لجمال تأليفه وروعة كلماته، وقوة المعاني المبثوثة في ثناياه، وقد تكلم العلماء في صنوف إعجازه، فمن مكثر، ومن مقلٍّ، ومن متوسط في تعداد أوجه إعجازه.

والذي يعنينا في هذه الدراسة نوع من أنواع إعجازه، والمتمثل في مزاوجة الخطاب القرآني بين الخطاب العلمي العقلي الدقيق، المؤيد بالحجج والبراهين على صدق دعاواه، وبين الخطاب العاطفي الوجداني الذي يملك بها النفس ويأسرها، ويؤثر فيها تأثير السحر في المسحور.

فجاء هذا البحث ليقيم الدليل والبرهان على صحة هذا النوع من الإعجاز.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، الإعجاز، الخطاب القرآني، الخطاب العلمي العقلي، الخطاب العاطفي الوجداني.

الملخص بالإنجليزية:

El Coran El Karim is the miraculous word of Allah which had amazed minds for its beautiful composition, magnificent words and the strength of meanings diffused through it.

This subject is one of the subjects getting common assent in the past and at present. Scientists had spoken in its different miracles; there were who mentioned a lot, who mentioned less and others who were middle.

One kind of Coranic speech miracles that concerns us in this study: it is combining the rational strict scientific speech supported by evidences and proofs of truthfulness of its words, with the emotional spiritual speech which takes and encloses souls.

So, this research is made to stand evidence and proof of the veracity of this sort of miracles.

Key words: El Coran El Karim; Coranic speech;scientific speech; spiritual speech; miracles.

مقدمة في إعجاز الخطاب القرآني:

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد أكرمنا الله بإنزال القرآن على سيد ولد عدنان، معجزة مستمرة على مر الدهور والأزمان، رفعا لشأن هذه الأمة، وتبيانا لقدرها، وتنويها بمكانتها، مقارنة لها مع باقي الأمم، قال السيوطي رحمه الله-مبينا خاصية أمتنا-: «وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، لأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر»[1].

لقد بات من المقرر في الأذهان، والموكد في النفوس والعقول، أن القرآن كلام الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، معجزفي جمال تأليفه، وروعة كلماته، وقوة المعاني المبثوثة في ثناياه، فمن صنوف إعجازه: تنوع مقاصده، وإخباره بالغيبيات، وفصاحته الرائقة، وبلاغةُ أسلوبه بين إجمال وتفصيل، وتشبيه وتمثيل، وروعةُ تراكيبه، ودقةُ ألفاظه، وقوةُ حجاجه، يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات: «...نزل بأسلوب بديع لا عهد للآذان ولا للأذهان بمثله، فلا هو موزون مقفًّى، ولا هو سجع يتجزأ فيه المعنى في عدد من الفقر، ولا هو مرسل يطرد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع، إنما هو آيات مفصلة متزاوجة، يسكت عندها الصوت ويسكن الذهن، لاستقلالها بالمعنى، وانسجامها مع روح القارئ ووجدانه، فلما سمعه العرب -وهم زعماء القريض وأمراء البيان- أكبروه وأنكروه، وعجزوا أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة، فقالوا مضطربين: إنه شعر، أو فعل ساحر، أو سجع كاهن، ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التي تشترك في فتنة العقل، دليل على فعله القوي في نفوسهم»[2].

ومما لا شك فيه ولا مرية أن القرآن كلام الله المعجز بمبناه ومعناه، قد تحدى الله به الفصحاء والبلغاء-ممن ملكوا ناصية البيان- أن يأتوا بمثله، ثم تنزل معهم إلى الإتيان بعشر سور مثله مفتريات، ثم تحداهم أن يؤلفوا على منواله أقصر سورة منه، ثم فصَلَ في الأمر غالقا باب التحدي أمامهم بقوله:ﭽ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ظَهِيرٗا ﭱ ﭼ.[3]

ومن أوجه إعجازه أيضا أنه زاوج بين الخطاب العلمي العقلي المؤيد بالحجج والبراهين على صدق دعاواه، وبين الخطاب العاطفي الوجداني الصادق الذي يملك بها النفس ويأسرها، ويؤثر فيها تأثير السحر في المسحور.

لذا سأعرض في ثنايا هذا البحث: الخطاب العلمي العقلي، المبثوث في القرآن الكريم، ممثلا له ببعضآي الذكر الحكيم، ثم أثني بالخطاب الوجداني، مستعرضا بعض النماذج منه، لأحوصل أهم النتائج في الخاتمة.

أولا:الخطاب العلمي العقلي

إن القرآن كلام الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فكل ما جاء فيه فهو حق وصدق، ويستحيل أن يخالف ما تقرره العقول السليمة والقواعد العلمية الصحيحة، فلا تناقض ولا معارضة بين النقل الصحيح(القرآن) والعقل الصريح.

وتتجلى هذه الحقيقة في النقاط الآتية:

- إن أول آية نزلت على قلب المصطفى× تأمر بالقراءة، وتمجِّد القلم، وهما من أهم وسائل العلم والمعرفة، قال تعالى:چچچ چ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ژ ڑ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ ک ک ک گ گ گ چ[4]، فعلِمَ يقينا أن الإسلام –ممثلا في دستوره الأول(القرآن)– هو دين العلم والمعرفة.
- إن المتمعن في آي الذكر الحكيم يجده يأمر بالتفكر والنظر والاعتبار، ويمجد وسيلة الفكر والبحث–أي العقل–، من ذلك قوله تعالى:چأَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ چ[5]،وقوله تعالى:چ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ چ[6]، وكم من آية قرآنية ختمت بهذه الصيغة: (أفلا تعقلون)، (أفلا تذكرون)[7].
- إقامة الحجج العقلية الباهرة، والبراهين القطعية الساطعة على صحة دعاواه، خصوصا ما تعلق منها بالجانب العقدي، من ذلك:

– إثبات وحدانية الله تعالى:چ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ چ[8].

– إثبات قدرة الله المطلقة:چأَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾چ[9]، الآيات.

– إثبات البعث والنشور بدليل القدرة على الخلق الأول: چأَوَلَمْ يَرَ ژ ڑ خَلَقْنَٰهُ مِن ک ک ک گ گ گ گ مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ ى ى چ[10].

- الإلماح في كثير من الآيات إلى بعض العلوم الكونية، والإشارة إلى بعض الحقائق العلمية الدقيقة، التي أثبت العلم التجريبي الحديث صدقها وصحتها، وهذا ما يعرف في زماننا بالإعجاز العلمي في القرآن، من ذلك[11]:

– الإشارة إلى علم الطب والأجنة: حيث تشير الآيات الكريمة في سورة المؤمنون إلى مراحل تكون الجنين بدقة متناهية، وأن مرحلة تكون العظام تسبق مرحلة الإكساء باللحم، قال تعالى:چگ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ چ[12].

والمتأملفي هذه الآيات الكريمة الواردة في تبيان مراحل تكون الجنين في رحم أمه، وغيرها من آي الذكر الحكيم، يجد إعجازا علميا مبهرا، وقف عنده العلماء القدامى والمحدثون،واللافت للانتباه، هو تعدد أوجه الإعجاز في خلق الجنين، من ذلك مثلا:

- ذكر مراحل تطور الجنين بدقة عجيبة، أثبتها علم الطب الحديث، جاء في كتاب مراحل الحمل والتصرفات الطبية في الجنين: « وأورد القرآن جملة من التحولات التي تطرأ على الجنين أثناء تطوره، فذكر الخلق والتسوية والتعديل والتصوير، ونفخ الروح، كما ذكر تخليق الأعضاء كالعظام واللحم والذكورة والأنوثة والسمع والأبصار...»[13].
- استعمال القرآن الكريم لألفاظ علمية دقيقة: كالعلقة والمضغة، وغيرهما، قال صاحب كتاب التحرير والتنوير مبينا إعجاز كلمة العلقة: « ومن إعجاز القرآن العلمي تسمية الكائن باسم العلقة، فإنه في وضع بديع لهذا الاسم، إذ قد ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن له قوة امتصاص القوة من دم الأم بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه قوة الدم »[14].
- إن الآيات في سورة المؤمنون جمعت بألفاظها القليلة كل المراحل التي يمر بها الجنين، وهذا من إعجاز الإيجاز، قال الباحث باحمد: « والمتتبع لأطوار الجنين يرى أنه بعد مرور المراحل الثلاث المذكورة في الآية، وبعد ظهور العظام، وكسائها باللحم يكتسب الجنين في نهاية الشهر الثاني الشكل الإنساني المميز، إذ تظهر صورة الوجه بملامح بشرية، فتقترب العينان، ويلتحم جدار الأنف والشفتان، ويأخذ صيوانا الأذن مكانهما، ويستقيم الجسم بعد أن كان مقوسا، وتتناسب الأطراف، فلا يبعد أن تجمع الآية كل هذه المعاني:

- نهاية الأطوار، بما في ذلك العظام والعضلات.
- ظهور الشكل الإنساني المميز.
- نفخ الروح في الجنين، والله تعالى أعلم»[15].

- الإشارة إلى علم الجيولوجيا: حيث يتحدث القرآن عن أنواع الجبال في قوله تعالى:ﭽأَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ﭼ[16]، وما أجمل أن تختتم الآيات بتمجيد العلماء(إنما يخشى الله من عباده العلماء).

والمتمعن في هذه الآيات الكريمة، يقف على إعجاز علمي باهر، وجمال تصويري لبعض مظاهر الطبيعة، مما يجعل النفس البشرية تصعق أمام هذا الوصف الرباني، ومن أجمل ما قيل في تفسير هذه الآيات، ما أورده صاحب الظلال، حيث قال:«إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب، لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها، في الثمرات، وفي الجبال، وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتة تجمع في كلمات قلائل، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً؛ وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً.

وتبدأ بإنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان،... فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد،...وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها؛ ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها، بل إن فيها أحياناً ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك، حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها!...وهنا لفتة في النص صادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد غرابيب سود، حالكة شديدة السواد.

واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار، تهز القلب هزاً، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان... ثم ألوان الناس، وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه، بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة!

وكذلك ألوان الدواب والأنعام، والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء.

هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول: إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله:" إنما يخشى الله من عباده العلماء »[17].

– الإشارة إلى علم البحار: كالحديث عن منطقة البرزخ الموجودة بين البحرين المالحين، والتي تحمل خصائص البحرين من ملوحة وكثافة، قال تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾[18].

ثانيا:الخطاب الوجداني

من المعلوم –لمن أمعن النظر في أسلوب القرآن الكريم– أنه يخاطب النفس البشرية، ويدغدغ مشاعرها وأحاسيسها ووجدانها بصدق لا نظير له، ليحصل التأثر بالخطاب الرباني المبثوث في ثناياه، ويتجلى هذا الخطاب الوجداني في أمور كثيرة، من أبرزها ما يلي:

- ✓ إنكار القرآن على النفوس المستكبرة والقلوب المتحجرة التي عطلت حواسها عن سماع الحق والإذعان له، وأعرضت عن التذلل بين يدي الله سبحانه، قال تعالى:﴿ک گ گ گ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[19]، وقال تعالى:﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ پ پ پ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَٰٓئِكَ ڤ ڤ ڤ ڤ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[20].
- ✓ تخصيص القرآن جزءا هاما للحديث عن النفوس البشرية وأنواعها وأمراضها، ويضرب لنا الأمثال لأجل العظة والاعتبار، لأن المثل من أفضل أساليب التربية وأعظمها تأثيرا في النفس،وأقواها في توضيح المعنى وتقريبه، من ذلك وصفه لنفوس غير مطمئنة في سورة فصلت:﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ژ ژ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً ک ک ک ک گ گ گ گ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.[21]

إن الآيات السابقة تقدم لنا صورة لنفس شرهة طامعة لا تعرف القناعة، ولا تقف في مطامحها عند حد، هي نفس الشخص الذي لا يملُّ من طلب الخير، كالجاه والمال والصحة والرفاهية لنفسه...، ولكنه لا يعرف فضل المنعم عليه، ولايشكر لله، ولا ينفع الآخرين، ولا ينظر لعمل...، فإذا مسه الفقر أو المرض، قنط وأيس من رحمة الله[22].

- ✓ ربط الإنسان بالغيب، وخصوصا الآخرة، فكثير من الآيات تصف المؤمن الحق بأنه موقن باليوم الآخر، وهذا الأسلوب من أعظم الأساليب التي تهذب النفس البشرية، وترتقي بها إلى مصاف الكمال، قال تعالى:﴿ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا پ پ پ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ ڤ ڤ ڤ ڤ قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ

يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ڇ ڇ ڇ ڇ[23]، وقوله تعالى:ﭽوَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ ى ى ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﯿ ﭼ[24]،وقوله تعالى:ﭽأَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ڤ ڤ ڦ ڦ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ ڇ ڇ ڇ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﭼ[25].

- ✓ استعمال الأسلوب القصصي وتنويعه، وختمه في الغالب بالأمر بالاعتبار والاتعاظ والتدبر، من ذلك:

- قصة سيدنا يوسف عليه السلام، وقد خصص لها سورة بأكملها، وفي آخرها، جاءقوله تعالى: ﭽ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ى ى شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﭼ[26]،ومن أغراض القصة: بيان عاقبة المكر والكيد، والتأكيد على نصر الله للمؤمنين، وأن العاقبة للمتقين.

- وقصة صاحب الجنتين:ﭽ۞وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ ى ى ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ ﭑ ﭒ ﭓ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ڤ ڤ ڦ ڦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ ڇ ڇ ڇ ڇ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ ژ ژ ٱللَّهُ لَا ک ک کک گ گ گ گ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا ى ى﴿٤٤﴾ﭼ[27]، وفي القصة تربية للنفس البشرية على أن تتعلق بالله وتوحده، فهو المعطي وهو المانع.

- ✓ مخاطبة النفس البشرية بالترغيب والترهيب، من ذلك قوله تعالى في جانب الترهيب:ﭽ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا ﭖ ﭗ ﭘ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﭼ[28]،وقوله تعالى في جانب الترغيب:ﭽ مَنۡ ژ ژ مِّن ذَكَرٍ ک ک ک ک گ گ گ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﭼ[29].

ولو أردنا أن نمثل لجمال الأسلوب القرآني، الذي يهز النفس البشرية هزا قويا، ويؤثر فيها تأثيرا بليغا، فلا بأس أن نذكر كلام سيد قطب رحمه الله، وهو يفسر آية سورة ق-الآية 16-، فيقول: «إنها رحلة واحدة تبدأ من الميلاد، وتمر بالموت، وتنتهي بالبعث

والحساب،....وكيف بإنسان في قبضة الجبار، المطلع على ذات الصدور؟،وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان، الذي لا ينسى ولا يغفل ولا ينام!

إنه ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه، حين يشعر أن السلطان في الأرض يتتبعه بجواسيسه وعيونه، ويراقبه في حركته وسكونه، وسلطان الأرض مهما تكن عيونه لا يراقب إلا الحركة الظاهرة، وهو يحتمي منه إذا آوى إلى داره، وإذا أغلق عليه بابه، أو إذا أغلق فمه!،أما قبضة الجبار فهي مسلطة عليه أينما حل وأينما سار، وأما رقابة الله فهي مسلطة على الضمائر والأسرار، فكيف بهذا الإنسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة؟!...'ونحن أقرب إليه من حبل الوريد': الوريد الذي يجري فيه دمه، وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المالكة، والرقابة المباشرة، وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لا بد يرتعش ويحاسب، ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها، بل ما جرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال القبول، وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم ويقظة لا تغفل عن المحاسبة»[30].

- ✓ التناغم الصوتي في الحروف والكلمات والآيات، ومعلوم ما للصوت واللفظوالجرس الموسيقي من أثر بالغ في النفس البشرية، يقولالرافعي موكدا هذا المعنى: « وليس يخفى أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها، ثم هو يجعل للصوت إلى الإيجاز والاجتماع أو الإطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى...

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي أو أعجمي، حتى إن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان...

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على كلٍّ إلا الإقرار والاستجابة...»[31].

خاتمة:

وفي ختام البحث الذي طوفنا فيه بين خطاب القرآن العلمي العقلي، الذي بهر عقول أولي الألباب، بإقامة الحجج والبراهين على صدق دعاواه في مجال العقيدة والتشريع والأخلاق، وبين خطاب العاطفة الذي هز أعماق النفس البشرية بأسلوب جمالي منقطع النظير، نستطيع أن ندون أهم النتائج فيما يأتي:

- ✓ إن الواجب على المسلم الذي يريد أن يستفيد من هدي القرآن في التنوير والهداية أن يعكف على دراسة القرآن ترتيلا، وتفسيرا وفهما وتطبيقا، وإنزالا على أحواله، لكي يصلح من أخلاقه وسلوكياته، ويتمثل تعاليم القرآن وأخلاقه، فيصير المسلم قرآنا يمشي على الأرض، كما كان سيدنا رسول الله ×.
- ✓ إن الأمة مطالبة شرعا بتبيان كنوز القرآن في شتى المجالات التربوية والفكرية والعلمية، من أجل دعوة غيرنا للاهتداء بهديه، ويتوكد هذا الواجب الشرعي في حق من أقامه الله في مجال علوم القرآن وعلم اللسان العربي.

- إننا مطالبون بالمزاوجة بين العلم والعاطفة في خطاباتنا، خصوصا في الحقل الدعوي : لأن من النفوس من لا تؤمن إلا بالخطاب العقلي، كما هو حال مفكري الغرب وعلمائهم، ومن النفوس من تذعن للخطاب الوجداني الذي يأسر القلوب، ويفتح مغاليقها.

هذا جهد المقل، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن قصرت فمن نفسي، والله أسأل أن ينفع بهذه الكلمات،وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

الهوامش:

1. الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، دار الفكر، ط/ 2008 : 464/2.
2. تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار المعرفة بيروت، ط/ 13، سنة 2009: ص67.
3. الإسراء: 88، وقد مر تحدي العرب بأربع مراحل، وهي:
4. تحديهم أن يؤلفوا مثل هذا القرآن: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾الطور: 33-34.
5. تحديهم أن يؤلفوا عشر سور مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾هود: 13.
6. تحديهم أن يؤلفوا أقصر سورة مثله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ يونس: 38، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾البقرة: 23.
7. غلق باب التحدي أمام الإنس والجن إلى يوم القيامة: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾.
8. العلق: 1-5.
9. الغاشية: 17-20.
10. الأنفال: 22.
11. انظر مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، دار المعرفة، بيروت، ط3/ 2005 : 242/2.
12. الأنبياء: **22.**
13. الغاشية: 17-20.
14. يس: 77-83.
15. انظر مناهل العرفان: 234/2.
16. المؤمنون: 12-14.
17. مراحل الحمل، والتصرفات الطبية في الجنين بين الشريعة الإسلامية والطب المعاصر، باحمدارفيس، ط2، دار النشر ألفا ديزاين، 2005: ص91، وقد أبدع المؤلف في كتابه هذا في مسألة الجنين، حيث طوف في بحثه بين الآراء القديمة للمفسرين، وما توصلت إليه النظريات الحديثة في مجال الطب، وناقش كل الآراء المتعلقة بالمسألة على ضوء النصوص الشرعية والعلم الحديث.
18. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1404هـ/ 1984: 18/ 24.

19. مراحل الحمل، والتصرفات الطبية في الجنين بين الشريعة الإسلامية والطب المعاصر: ص 111.
20. فاطر: 27-28.
21. في ظلال القرآن لسيد قطب، نشر وتوزيع، مركز شهيد عزام الإعلامي، بيشاور- باكستان، الطبعة: الأولى: 6 / ص 149- 150، بتصرف.
22. الرحمن: 19-20.
23. محمد: 24.
24. الأعراف: 179.
25. فصلت: 49-51.
26. انظر أمثال ونماذج بشرية في القرآن العظيم، لأحمد بن محمد طاحون، ط1، 1994: ص105.
27. البقرة: 1-5.
28. البقرة: 281.
29. الماعون: 1-7.
30. يوسف: 111.
31. الكهف: 32-44.
32. ق: 16.
33. النحل: 97.
34. في ظلال القرآن لسيد قطب: 7 / ص 16 – 17، بتصرف.
35. انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي لبنان، ط9، 1973: 215-217.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم: رواية حفص عن عاصم، برنامج المصحف الالكتروني للمدينة المنورة.
- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، دار الفكر، ط/ 2008.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي لبنان، ط9، 1973:
- أمثال ونماذج بشرية في القرآن العظيم، لأحمد بن محمد طاحون، ط1، 1994.
- تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، دار المعرفة بيروت، ط/ 13، سنة 2009.
- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1404هـ/ 1984.
- في ظلال القرآن لسيد قطب، نشر وتوزيع، مركز شهيد عزام الإعلامي، بيشاور- باكستان، الطبعة: الأولى.
- مراحل الحمل، والتصرفات الطبية في الجنين بين الشريعة الإسلامية والطب المعاصر، باحمدارفيس، ط2، دار النشر ألفا ديزاين، 2005.
- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد عبد العظيم الزرقاني، دار المعرفة، بيروت، ط3/ 2005.

تداولية أفعال الكلام في الحديث النبوي الشريف

Pragmatism Of Langage Acts In The Hadith Of The Prophet (P.U.H)

الأستاذة نعيمة طهراوي

جامعة الجزائر – 2 –

الملخص:

تعتبر التداولية ميدانا لغويا مكملا للسانيات البنيوية فهي تحاول فهم الاستعمال اللغوي من خلال سياقات متعددة ومقاصد المتكلمين وعلاقة العلامات بمستعمليها ومن ثمّ تعتبر أفعال الكلام ركيزة اللسانيات التداولية. لذلك تسعى هذه الدراسة إلى تقفي ملامح هذا المنهج ومدى تطبيقه على الحديث النبوي الشريف.

الكلمات المفتاحية: التداولية ، أفعال الكلام، سيرل، الحديث النبوي الشريف .

Abstract

Pragmatic linguistics is considered as a complementary field of the structural linguistics, it tries to understand langage using among the different contexts and users intentions and the relationship between signs and their users. Then langage acts are considered as the basis of pragmatic linguistics, so pragmatism seek to find the characteristics of this method and its application extention on the Hadith of the prophet.

Key word: Pragmatic, langage acts, Searle, Hadith

La linguistique pragmatique est considérée comme un domaine complémentaire de la linguistique structurelle, elle essaye de comprendre l'utilisation du langage à travers les différents contextes et les intentions des usagers et la relation des signes et leurs utilisateurs. Ainsi, les faits de la parole sont considérés comme la base de la linguistique pragmatique. De ce fait, la pragmatique cherche à connaitre les caractéristiques de cette méthode et l'étendu de son application sur le hadith de notre prophète Mohammed (ssp).

Les mots clés : La pragmatique, les faits de la parole, searle, le Hadith.

تعد التداولية من أحدث الاتجاهات اللغوية، ولان التداولية إطار نظري ومرجعية إبستمولوجية فقد انبثقت عنها مجموعة من المفاهيم والآليات الإجرائية أبرزها: أفعال الكلام، وهي أهم نظرية في الدرس التداولي، حيث نظرت للغة باعتبارها فاعلة في الواقع ومؤثرة فيه .

وهذا ما يجعلنا نطرح الإشكاليات التالية: إلى أي مدى يمكن الكشف عن البعد التداولي في الحديث النبوي الشريف من خلال نظرية أفعال الكلام؟وكيف ننجز أثناء التواصل أفعالا؟ وكيف يتحقق الفعل بالقول؟ وما هي الآليات التداولية التي استعملها الرسول ﷺ في التبليغ؟

نظرية أفعال الكلام :

نظرية أفعال الكلام ترجمة للعبارة الانجليزية speck act thearg أو العبارة الفرنسية la lhéorie des actes des parole ويطلق عليها أيضا في اللغة العربية نظرية الحدث الكلامي، والحدث اللغوي، والنظرية الإنجازية، ونظرية الفعل الكلامي، والأعمال الكلامية وغيرها

وتعد أحد درجات التداولية الثلاث والتي ميز بينها **"هانسون"** (Hanson) وقد حدد من خلالها فكرة المرور التدريجي من مستوى إلى آخر ويتم وضع بعض مظاهر السياق في الاعتبار بالنسبة إلى كل درجة الذي يعتقد من درجة إلى أخرى[1].

ولدت هذه النظرية من رحم الفلسفة التحليلية وكان أول ظهور لها في أعمال **"أوستين"**austin ثم بعد ذلك في أعمال تلميذه " **سيرل**"searle.

أولا/مفهوم أفعال الكلام :

إن نظرية أفعال الكلام ترسّخ تحليل اللغة والدلالة في التناول الذي يُعنى بقول المتكلم الذي يعتبر بمثابة عمل حقيقي يضاهي الحدث المادي المنجز بواسطة اليد[2].

يقول **أوستين** « إن اللغة نشاط وعمل ينجز، أي أن المتكلم لا يخبر ويبلغ فحسب بل إنه يفعل أي يعمل، يقوم بنشاط مدعم بنية وقصد يريد المتكلم تحقيقه من جراء تلفظه بقول من الأقوال.»[3]

فالأفعال الكلامية هي أقوال تؤدى بها أفعال يمكن للفرد أن ينجز أفعالا بواسطة اللغة نحو "أزوجك ابنتي"، فبمجرد التلفظ بالقول تصير الابنة زوجة ومن ثمّ يحدث فعل كلامي[4].

لقد جاءت نظرية أفعال الكلام لتغير تلك النظرة التقليدية للكلام التي كانت تعتمد أساسا على الاستعمال المعرفي والوصفي للكلام، ونظرت إلى اللغة باعتبارها قوة فاعلة في الواقع و مؤثرة فيها فألغت الحدود القائمة بين الكلام والفعل، فأي معلومة حسب "**باختين**" تقدم لشخص ما مثارة بواسطة شيء ما ، وتسعى إلى تحقيق هدف ما، فهي حلقة ضمن سلسلة التبادل الكلامي الدائر في تلك الحياة العادية[5].

تقدم "**أوستين**" بنظرية بسط القول فيها عبر جملة محاضرات ومقالات ضمنها نظريته بخصوص "**الأفعال اللغوية**" Speek Acte التي خرجت تحت عنوان واحد بعد وفاة صاحبها وهو " **كيف ننجز الأشياء بالكلمات**" " Hou To do things with words". والذي ترجم إلى الفرنسية عام 1970.

انطلق أوستين من الملاحظة التي مفادها أن الكثير من الجمل التي ليست استفهامية أو تعجبية أو أمرية لا تصف مع ذلك أي شيء ولا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق والكذب، وبالفعل لا تستعمل هذه الجمل لوصف الواقع بل لتغييره فهي لا تقول شيئًا عن حالة الكون الراهنة أو السابقة، إنما تغيرها أو تسعى لتغييرها[6].

وقد ميز أوستين بين نوعين من الأفعال:

1) **أفعال إخبارية أو تقريرية constative**: وهي أفعال تصف وقائع العالم الخارجي وتكون صادقة أو كاذبة(7). نحو قولهم (السماء تمطر) فهي تنقل معلومة إلى المتلقي أو تقرر واقعا، وتوصف بالصدق إذا كان المطر حادثًا، كما توصف بالكذب إذا كان المطر غير حادث(8).

2) **أفعال أدائية أو إنشائية performative** : تؤدى بها أفعال في ظروف ملائمة تؤدى، ولا توصف بصدق ولا كذب،بل تكون موفقة happy كما أطلق عليها،أو غير موفقة un happ (9).

وكون المتكلم مؤهلاً للقيام بالفعل نحو قولهم: (أوصي بساعتي لأخي) فهذا المنطوق لا يؤدي قول فحسب، بل يؤدي إلى وقوع فعل هو الوصية، ويدخل فيها(التسمية، والاعتذار والرهان والنصح، والوعد)(10). ولا تكون الأفعال الأدائية موفقة إلا إذا تحققت لها شروط أدائها.

وقد رأى أوستين أن التمييز بين الأفعال الإخبارية والأدائية غير حاسم وأن كثيرا ما تنطبق عليه شروط الأفعال الأدائية وهو ليس منها، وأن كثيرا من الأفعال الإخبارية تقوم بوظيفة الأدائية(11).

ومن هنا طرح السؤال:«كيف ننجز فعلا حين ننطق قولا؟»

و في سعيه للإجابة عن هذا السؤال رأى أن الفعل الكلامي يتكون من ثلاثة أفعال تشكل كيانا واحدًا ويقع حدوثها في وقت واحد :

- **فعل القول acte locutionnair**: الذي بواسطته يتلفظ المرء بشيء ما ويتشكل من ثلاث أفعال فرعية:

أ/ الصوتي: ويتمثل في التلفظ أو في إنتاج أصوات أو قرع bruit .

ب/ التبليغي: phatique ويتمثل في كون هذه الأصوات تتوفر على صورة (كلمة) معينة فضلاً عن انتمائها إلى لغة محدودة و خضوعها لقواعد هذه اللغة النحوية.

جـ/ الخطابي: rehitique الذي يجعل هذه الكلمات أو العبارات ذوات دلالة معينة(12).

- **الفعل الإنجازي Acte illo cutionnaire** :

وهو الذي يقوم به المتكلم أثناء تلفظه ويرتبط بالقيمة (valeur) التي تعطي للكلام،(13) ويتعلق الأمر هنا بتحقيق قصد المتكلم intention(14) .

- **الفعل التأثيري Acte perlo cutionnaire** :

وهو يعني الأثر (effect) الذي يحدثه الكلام لدى المخاطب أو السَّامع (15).

فالملاحظ أن "فعل القول" يرتبط باللغة ولا يتم الكلام إلا به "والفعل التأثيري" لا يلازم الأفعال جميعا فمنها ما لا تأثير له في السامع، ومن هذا المنطلق وجه أوستين اهتمامه إلى "الفعل الإنجازي" حتى أصبح لب هذه النظرية فسميت بـــ "**النظرية الإنجازية**"(16).

وبناء على ذلك صنف أوستين الأفعال الكلامية على أساس قوتها الإنجازية إلى خمسة أصناف معترفا في الوقت ذاته أنه غير راضٍ عن هذا التصنيف:

1/ أفعال الأحكام verdictifs :

وتكمن في تلفظ نتائج رسمية أو غير رسمية بناء على دليل أو سبب فيما يتعلق بقيمة أو واقعة، والفعل المتعلق بحكم هو فعل قضائي كشيء متميز عن الأفعال التشريعية أو التنفيذية، ومن أمثلة تلك الأفعال: أبرئ، ألزم، أميز، أرتب، أقيم، أحسب، أحلل....

2/ أفعال القرارات exercitife :

وتتمثل في اتخاذ قرار بعينه ومن أمثلته: أطرد، أحذر، ألغي، أختار، أوجه، أسمي، أمنح، ألتمس، أوصي، أرفض(17).

3/ أفعال السلوك conductifs :

وهي التي تكون رد فعل لحدث ما كالاعتذار والشكر و المواساة والتهنئة (18).

4/ أفعال التعهد commissifs :

تتمثل في " تعهد المتكلم بفعل شيء"(19)وهذه الأفعال تلزم المتكلم بالقيام بتصرف بطريقة ما، مثل الوعد والموافقة والتعاقد والقسم ....(20)

5/ أفعال الإيضاح expositifs:

تستخدم لإيضاح وجهة النظر أو بيان الرأي مثل الاعتراض، والتشكيك والإنكار والتصويب، والتخطئة(21).

واستأنف وريثه المباشر وتلميذه جون سيرل برنامجه خصوصا ما يتعلق منه بأهمية تصنيفه الأعمال اللغوية(22).

قام سيرل بتطوير نظرية أفعال الكلام من خلال بعض الانتقادات التي وجهها إلى دراسة أوستين للأفعال الكلامية، وبالفعل فقد تناول النظرية وطور فيها بُعدين من أبعادها الرئيسية هما : المقاصد والموضوعات. وبالفعل يمكننا اعتبار الأعمال اللغوية والجمل التي أنجزت بواسطتها وسيلة تواضعية للتعبير عن مقاصد وتحقيقها ....(23)

وبناء على ذلك سنعرض أهم التجديدات التي جاء بها سيرل لنظرية الأفعال الكلامية:

أ/ «قام بتعديل التقسيم الذي قدمه أوستين للأفعال الكلامية حيث يرى في كتابه (أفعال الكلام speech acts) أننا نقوم بأربعة أفعال حين ننطق بجملة أو للتلفظ بقول ما:

- التلفظ بالكلمات (جملا وموفيمات) أي إنجاز فعل التلفظ.
- الإحالة والإسناد .
- التقرير، السؤال، الأمر، الوعد، أي إنجاز فعل قوة التلفظ ثم يقول: لكنني أريد أن أضيف إلى هذه المفاهيم الثلاثة، المفهوم الذي قدمه أوستين أي فعل التلفظ وهو المفهوم الذي يتلازم مع مفهوم فعل قوة التلفظ والذي يجسد النتائج والتأثيرات التي تحدثها الأفعال الإنجازية السابقة على أفكار وأفعال ومعتقدات المستمع »(24).

ومثال ذلك:

- يقرأ زيد الكتاب.
- يا زيد إقرأ الكتاب.
- أيقرأ زيد الكتاب؟.

- لو يقرأ زيد الكتاب![25]

عند النطق بأيّ من هذه الجمل ينجز المتكلم ثلاثة أفعال في وقت واحد:

- **الفعل النطقي utterenceact**: ويتمثل في نطق الأصوات على نسق نحوي ومعجمي صحيح.
- **الفعل القضوي propositional Act** : ويتمثل في مرجع هو محور الحديث فيها جميعا هو "زيد" في الجمل الأربع وخبر هو فيها جميعا قراءة الكتاب، والمرجع والخبر يمثلان معًا قضية proposition هي:"قراءة زيد الكتاب" والقضية هي المحتوى المشترك بينهما جميعا.
- **الفعل الإنجازي**: وهو الإخبار في الأولى، والاستفهام في الثانية، والأمر في الثالثة، والتمني في الرابعة.

وينبغي أن نشير إلى أن "الفعل التأثيري" ليس له أهمية كبيرة عند سيرل، لأنه ليس من الضروري عنده أن يكون لكل فعل تأثير في السامع يدفعه إلى إنجاز فعل ما.

ويدل على القوة الإنجازية ما يسمى دليل القوة الإنجازية يبين لنا نوع العمل الذي يؤديه المتكلم بنطقه للجملة.

ب/ «الفعل الكلامي عنده أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم بل هو مرتبط بالعرف اللغوي و الاجتماعي »[26]، ولكي يوضح ذلك ضرب المثال التالي: «هب أنني جندي أمريكي في الحرب العالمية الثانية، وأن الجنود الايطاليين قد أسَرُوني ،ولنفترض أيضا أنني أود أن أجعل هؤلاء الجنود يعتقدون بأنني ضابط ألماني، ولكن لنفترض أنني لا أعرف قدرًا كافيًا من الألمانية أو الإيطالية لفعل ذلك، ومن ثَمَّ فأنا أحاول اصطناع علامة لإخبارهم بأنني ضابط عن طريق إلقاء أجزاء قليلة من الألمانية التي أعرفها ويراودني الأمل في أنهم لا يعرفون الألمانية، ودعنا نفترض أنني لا أعرف من الألمانية إلا بيتا واحدًا كنت أتذكره من قصيدة كنت أحفظها في المدرسة الثانوية من مقرر اللغة الألمانية فألتفت إليهم قائلا:«kennst du das land wo diezitron en bluhen?»

ثم حلل ذلك قائلا إن قصد المتكلم بهذه الجملة إنني ضابط ألماني ليؤثر في المخاطبين فيطلقوا سراحه، لكن هذه الجملة في اللغة الألمانية لا تعني ذلك بل تعني: « هل تعرف الأرض التي يزهر فيها الليمون؟»ولا يسمح العرف اللغوي في اللغة الألمانية باستخدام هذه الجملة في السياق»[27]. وهذا يدل على أن قصد المتكلم وحده لا يكفي، بل لا بد من العرف اللغوي أيضًا .

ج/ استطاع سيرل أن يطور تصور أوستين لشروط الملاءمة أو الاستخدام التي إذا تحققت في الفعل الكلامي كان موفقًا فجعلها أربعة شروط:

-شرط المحتوى القضوي prepsitional content :

يتحقق بأن يكون للكلام معنى قضوي ،والقضوي نسبة إلى القضية التي تقوم على متحدث به أو خبر، والمحتوى القضوي في فعل الوعد مثلا إذا كان دالاً على حدث في المستقبل يلزم به المتكلم نفسه فهو فعل في المستقبل مطلوب من المخاطب[28].

- الشرط التمهيدي preparatory :

« ويتحقق إذا كان المتكلم نفسه قادرًا على إنجاز الفعل، لكن لا يكون من الواضح عند كل من المتكلم و المخاطب أن الفعل المطلوب سينجز في المجرى للأحداث أو لا ينجز.

- شرط الإخلاص sincerity:

ويتحقق حين يكون المتكلم مخلصا في أداء الفعل فلا يقول غير ما يعتقد ولا يزعم أنه غير قادر على فعل ما لا يستطيع.

- الشرط الأساسي Essential :

د/ قدم سيرل تصنيفا بديلا لما قدمه أوستين من تصنيف للأفعال الكلامية « ويقوم على ثلاثة أسس منهجية هي:

- الغرض الإنجازي illocution ary point .

- اتجاه المطابقة direction of fit .

- شرط الإخلاص sincerity condition » (29)

ه/ صنف الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف وهي:

الإخباريات assertifs:

« الهدف منها هو تعهد المرسل بدرجة متنوعة بأن شيئًا هو واقعة حقيقية و تعهده كذلك بصدق قضية ما»(30) ويكون «اتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم words–to–world» (31).وتشمل التأكيد، التحديد، الوصف... (32)

التوجيهيات directifs : « وهدفها جعل المرسل إليه يفعل شيئا ما، حيث يحاول المرسل تحقيق هذا الهدف بدرجات مختلفة تتراوح بين اللين وذلك بالإغراء أو الاقتراح أو النصح، وبين العنف والشّدة، وذلك بالإصرار على فعل الشيء » (33) ويدخل في هذا الصنف الأمر، النهي، الطلب.(34)

الالتزاميات promessifs:

«وهدفها التزام المرسل، بدرجات متنوعة، بأفعال في المستقبل، وهي مبنية على شرط الإخلاص» (35)
وهو القصد ويدخل فيها الوعد، والوصية.(36)

التعبيريات Expressife :

«وهدفها التعبير عن حالة نفسية محددة بشرط عقد النية والصدق في محتوى الخطاب عن تلك الأمور المحددة».(37) ومثال الأفعال التعبيرية نجد: شكر، وهنأ، واعتذر، وعزى، وتأسف ورحب.

الإعلانيات déclartifs:

وهي الأفعال التي تحدث تغييرات فورية في نمط الأحداث العرفية التي غالبًا ما تعتمد على طقوس اجتماعية(38) واتجاه المطابقة في هاته الأفعال من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات، ولا تحتاج إلى شرط الإخلاص(39)، ومن أمثلتها: أفعال الطرد والإقالة من العمل و إعلان الحرب وطقوس الزواج.(40)

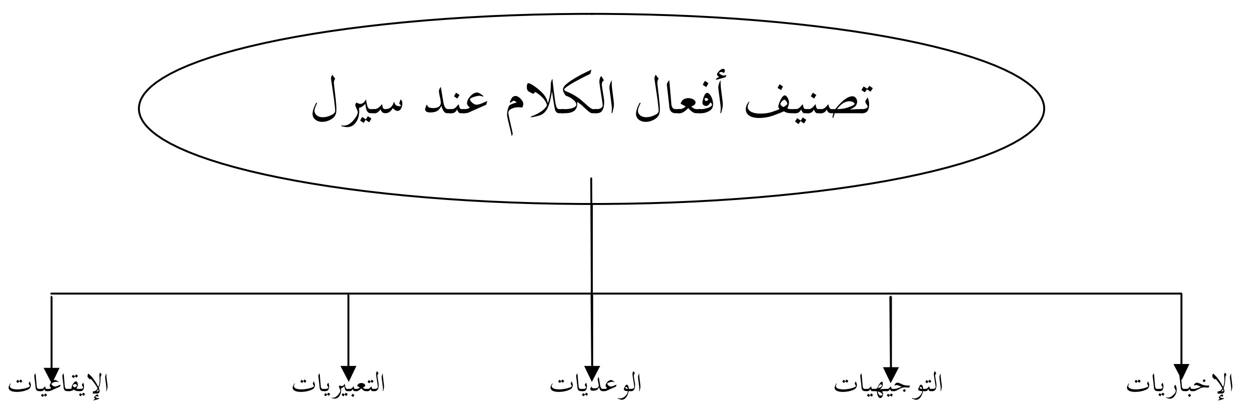

و/ بيّن الأفعال الإنجازية المباشرة والأفعال الإنجازية غير المباشرة «فالأفعال الإنجازية عنده هي التي تطابق قوتها الإنجازية مراد المتكلم فيكون ما ينطقه مطابقا مطابقة تامة وحرفية لما يريد أن يقول، أما الأفعال غير المباشرة فهي التي تخالف فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم». (41)

ويوضح ذلك عن طريق المثال الآتي:

« إذا قال رجل لرفيق له على المائدة:[هل تناولني الملح] فهذا فعل إنجازي غير مباشر إذ قوته الإنجازية الأصلية تدل على الاستفهام الذي يحتاج إلى جواب، وهو مصدر بدليل الاستفهام "هل" لكن الاستفهام غير مراد المتكلم، بل هو طلب مهذب يؤدي معنى فعل إنجازي مباشر هو:[ناولني الملح] . ووفقا لوجهة النظر هذه فإن: [هل تناولني الملح؟] هي جملة استفهامية في معناها الدلالي، ولكنها توجيهية في قوتها(42)» .

وكان سيرل قد قرر أن المتكلم لا يقصد ما يقول فحسب، بل يتعدى قصده إلى ما هو أكثر منه، فالأفعال الإنجازية غير مباشرة لا تدل هيئتها التركيبية على زيادة المعنى الإنجازي الحرفي، وإنما الزيادة فيما أطلق عليه سيرل معنى المتكلم والمشكلة في هذا النوع من الأفعال هو كيف يقول المتكلم شيئا ويعني شيئا آخر؟ ثم كيف يكون ممكنا أن يسمع المخاطب شيئا ويفهم منه معنى آخر. (43)

ثم تحول محور الاهتمام من محاولات شرح "كيف" يفسر مستخدمو اللغة "اللامباشرة في المعنى البراغماتي" إلى شرح "لماذا" يستخدم المتكلمون "اللامباشرة" نفسها في المقام الأول وكان تفسير أحد المحاولات لهذه المسألة بألا توجد بالطبع القدرة الكافية لدى المتكلمين في التعبير عن أنفسهم بشكل مباشر(44)، وعلى هذا يجب أن «نفترض أن المتكلم يحصل على الميزة التخاطبية الاجتماعية من خلال توظيفه للغة غير المباشرة». (45)

تداولية أفعال الكلام في الحديث النبوي الشريف :

أولا/ الإخباريات (التقريريات) Les Assertives

نتناول الصنف الأول من الأفعال الكلامية وهو الإخباريات، فالحديث النبوي اتخذ من الخبر وسيلة لنقل الأخبار وتبليغ الدعوة ووصف الحوادث وعرض المواقف. والغرض من الإخباريات هو نقل المتكلم قضية يعبر فيها عن هذه الواقعة، وأفعال هذا الصنف كلها تحتمل الصدق والكذب،واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم (worlds_To_worlds) (46) وشرط الإخلاص فيها

يتمثل في النقل الأمين للواقعة والتعبير الصادق عنها. وإذا تحققت الأمانة في النقل فقد تحقق شرط الإخلاص وأنجزت الأفعال إنجازا ناجحا أو تاما وإلا أصبحت أخبارا لا معنى لها(47). وأبسط اختبار للفعل التقريري هو أن تميزه حرفيا على أنه صادق أو كاذب.(48)

ويتضمن هذا النوع من التصنيفات مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة منها:

الحديث الأول:

عَنْ عُمرَ بنِ الخطابِ ، رضيَ اللَّهُ عنه ، قال: «بَيْنما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْد رسولِ اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم ، ذَات يَوْمٍ إِذْ طَلع عَلَيْنَا رجُلٌ شَديدُ بياضِ الثِّياب ، شديدُ سوادِ الشَّعْر ، لا يُرَى عليْهِ أَثَر السَّفَرِ ، ولا يَعْرِفُهُ منَّا أَحدٌ ، حتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم ، فَأَسْنَدَ رَكْبَتَيْهِ إِلَى رُكبَتَيْهِ ، وَوَضع كفَّيْه عَلَى فخِذيهِ وقال : يا مُحمَّدُ أَخبِرْني عن الإسلام فقالَ رسولُ اللَّه صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم : الإِسلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وأَنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكاةَ ، وتصُومَ رَمضَانَ ، وَتحُجَّ الْبيْتَ إِنِ اسْتَطَعتَ إِلَيْهِ سَبيلاً.قال : صدَقتَ . فَعجِبْنا لَهُ يسْأَلُهُ ويصدِّقُهُ ، قَالَ : فَأَخْبِرْني عن الإِيمانِ . قَالَ: أَنْ تُؤْمِن باللَّهِ وملائِكَتِهِ ، وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ ، والْيومِ الآخِرِ ، وتُؤمِنَ بالْقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ . قال: صدقْتَ قال : فأَخْبِرْني عن الإِحْسانِ . قال : أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَراهُ . فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإِنَّهُ يَراكَ قَالَ : فَأَخْبِرْني عن السَّاعةِ .قَالَ : مَا المسْؤُولُ عَنْهَا بأَعْلَمَ مِن السَّائِلِ . قَالَ : فَأَخْبِرْني عَنْ أَمَاراتِهَا . قَالَ أَنْ تلدَ الأَمَةُ ربَّتَها*، وَأَنْ تَرى الْحُفَاةَ الْعُراةَ الْعالَةَ* رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاولُون في الْبُنيانِ ثُمَّ انْطَلَقَ ،فلبثْتُ مليًّا، ثُمَّ قَالَ : يا عُمرُ، أَتَدْرِي منِ السَّائِلُ قلتُ : اللَّهُ ورسُولُهُ أَعْلمُ ، قَالَ : فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعلِّمُكم دِينَكُمْ » رواه مسلمٌ.(49)

الواضح أن هذا الحديث ينضوي تحت صنف الإخباريات، ويتضمن شرحا لمراتب الدين الثلاثة الإسلام والإيمان والإحسان وذكرًا لعلامات الساعة، وعن السياق الذي ورد فيه الحديث يقول ابن حجر "فيحتمل أن يكون هذا الحديث بعد حجة الوداع... وكأنه إنما جاء بعد إنزال جميع الأحكام لتقرير أمور الدين التي بلغها متفرقة في مجلس واحد لتنضبط".(50)

وقد تضمن هذا الحديث مجموعة من الأفعال الكلامية وهي:

✓ **الإخبار**: فعل كلامي مباشرة يتمثل في إخبار وسرد سيدنا عمر بن الخطاب_ رضي الله عنه_ لهذا الحديث في قوله " **بَيْنما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْد رسولِ** ﷺ ..." فالمتكلم هو سيدنا عمر _رضي الله عنه_ وقد وضع المخاطب في السياق المكاني والزماني للخطاب.

- ظرف الزمان (**بينما**)
- ظرف المكان (**عند**).

✓وقد أخبر سيدنا عمر بن الخطاب _ رضي الله عنه _عن حال وصِفَةِ سيدنا جبريل _عليه السلام_ وهو فعل كلامي مباشر دلت عليه قوة إنجازيه حرفية تمثلت في الجمل التقريرية التي جاءت بغرض إفادة المخاطب بغرض المتكلم.

- **إِذْ طَلع عَلَيْنَا رجُلٌ .**
- **شَديدُ بياضِ الثِّياب.**
- **شديدُ سوادِ الشَّعْر.**
- **لا يُرَى عليْهِ أَثَر السَّفَرِ.**
- **لا يَعْرِفُهُ منَّا أَحدٌ**
- **حتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ،**
- **فَأَسْنَدَ رَكْبَتَيْهِ إِلَى رُكبَتيْهِ ،**

- **وَضع كفَّيْه عَلَى فخِذيهِ**
- **قال صدقْتَ** (تكررت مرتين).

اعتمد المتكلم على الفعل الماضي الذي يفيد تقرير الحقائق"**طلع، جلس، أسند، وضع، قال** الذي ورد خمسة عشر مرة".

✔ هذا و قد أخبر الرسول ﷺ من خلال الإجابة عن أسئلة سيدنا جبرائيل_ عليه السلام_ :

- عن أركان الإسلام " **أَنْ تَشْهَد** ....."
- ثم وصف بعد ذلك حقيقة الإيمان " **أَنْ تُؤْمِن**..."
- ثم بيّن معنى الإحسان " **أَنْ تَعْبُدَ**..."
- بين أنه لا يعلم وقت قيام الساعة إلا الله
- أخبر _عليه الصلاة والسلام _ بعلامات الساعة من خلال فعل كلامي مباشر:

" **أَنْ تلدَ الأَمَةُ ربَّتَها** " و" **وأَنْ ترى الحُفَاةَ الْعُراةَ الْعالَةَ رِعاءَ الشّاءِ** "

✔ **التقرير**:أخبر واقر ﷺ عن حقيقة الرجل الذي كان يسأل وهو سيدنا جبرائيل _ عليه السلام _ دلت عليه الصيغة الخبرية " **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعلِّمُكم دِينكُمْ** ".

✔ **التأكيد**: وهو الفعل الكلامي الذي دلت عليه عدة جمل :

" **أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ...".

" **وأَنَّ مُحَمَّداً** رسولُ اللَّهِ ...".

" **تحُجَّ الْبيْتَ إنِ استَطَعتَ إِلَيْهِ سَبيلاً** ....".

" **أَنْ تُؤْمِن**...".

" **أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّكَ تَراهُ . فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فإِنَّهُ يَراكَ** ...".

" **أَنْ تلدَ الأَمَةُ ربَّتَها** " " **أَنْ تَرى الحُفَاةَ الْعُراةَ**... ".

" **فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ** ...".

جاء التأكيد بالأداة إن لتأكيد الحقائق وإثباتها في نفس السامع.

✔ **الأمــر**: قد اقتضى المقام استعمال فعل كلامي أمري من طرف سيدنا جبريل عليه السلام لطلب التعلم من رسول الله ﷺ في قوله :" **أَخبرْني** " في الجمل الطلبية التالية:

- **أَخبِرْني عن الإسلام** ...
- **أَخبِرْني عن الإيمان** ...
- **أَخبِرْني الإحسان** ...
- **أَخبِرْني عن الساعة** ...
- **أَخبِرْني عن أمارتها** ...

وقد تكرر الفعل الكلامي" **أَخبِرْني** " خمس مرات وجاء لتدعيم القوة الإنجازية . ويدل ذلك على أهمية الأمر الذي يسأل عنه ولفت انتباه السامع إليه.

✓**النداء:**

- " **يا محمَّدُ** " فعل كلامي مباشر ورد عن جبريل _عليه السلام _

- " **يا عُمرُ** " فعل كلامي مباشر ورد عن رسول الله ﷺ دلت عليه القوة الإنجازية الحرفية والفعل الكلامي المتضمن في القول هو **التنبيه**، وهو فعل غير مباشر مستلزم مقاميا.

✓**الاستفهام:** فعل كلامي مباشر دلت عليه القوة الإنجازية الحرفية:" **أَتَدرِي منِ السَّائِلُ ؟**" و يتضمن فعلا كلاميًا غير مباشر دلت عليه قوة إنجازيه مستلزمة مقاميا وهي "**التنبيه**" لإثارة انتباه المتلقي قصد تبليغه رسالة تحمل فائدة ،وهي الغرض الذي جاء لأجله جبريل _عليه السلام_.

- **الغرض الإنجازي** : غرض هذا الحديث شرح وتوضيح جميع وظائف العبادات الظاهرة و الباطنة في شكل ممنهج ودقيق حتى يتعلم الناس أصول الدين . وقد اعتمد هذا الحديث أسلوب الحوار بين السائل وهو جبريل _عليه السلام _ والمجيب الرسول ﷺ وذلك لما له من أهمية في عملية التبليغ ونشر الدعوة ،فالحوار أداة تعزز آليات التواصل بين الناس، "فهدف أي سلوك حواري هو توجيه معتقدات الآخر سواء بإشراكه في الرأي أو إجباره على تعديل معتقداته وفق ما يقتضيه المقام"(52).والحديث يحمل معتقدات جديدة والتي جاء بها هذا الدين الجديد وإعطاء معنى لمفاهيم لم يتعود الناس عنها وهي الإسلام، الإيمان، الإحسان والحديث عن أمور غيبية واستشراف للمستقبل، فقد قدّم شيئا غير مسبوق، وهذا ما يفترض أن يقدم في المضمون الحواري.

ثانيا/ التوجيهيات (الأمريات)Diretives

هذا الصنف هو نوع من أفعال الكلام التي يستعملها المتكلمون ليجعلوا شخصا آخر يقوم بشيء ما، وهي تعبر عما يريده المتكلم".وغرضها الإنجازي هو توجيه المخاطب إلى الفعل ومحاولة التأثير فيه، واتجاه المطابقة فيها هو جعل العالم يلائم الكلمات".(53)

فالأفعال التوجيهية تعبر عن توجيه المرسل لينفذ المرسل إليه بعض الأفعال في المستقبل، كما أنها تعبر عن رغبة المرسل بأن يكون خطابه أو بأن تؤخذ إرادته التي انطوى عليها خطابه، على أنها هي الدافع الحقيقي في الفعل الذي سوف يأتي المرسل إليه مستقبلا(54)، والتوجيهيات لا يمكن أن تكون صادقة أو كاذبة، لكن يمكن أن تهمل أو يخضع لها أو تستنكر.....الخ وتضم الأوامر والنواهي والطلبات.(55)

وقد وظف الرسول ﷺ الإستراتيجية التوجيهية في الوعظ والإرشاد والتعليم والدعاء وتبليغ الدعوة. ويضم هذا النوع من الأفعال الكلامية مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة وهي:

الحديث الأول:

عنْ أبي أُمَامَةَ صُدَيِّ بْنِ عَجْلانَ الْبَاهِلِيِّ –رضي اللَّهُ عنه– قال: سَمِعْتُ رسول اللَّه –صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم –يَخْطُبُ في حَجَّةِ الْودَاعِ فَقَالَ : « اتَّقُوا اللَّه ،وصَلُّوا خَمْسكُمْ ، وصُومُوا شَهْرَكُمْ ، وأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ ، وَأَطِيعُوا أُمَرَاءَكُمْ ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ » رواه التِّرْمذيُّ ، في آخر كتابِ الصلاةِ وقال : حديثٌ حسنٌ صحيح.(56)

السياق الذي ورد فيه الحديث هو خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع وتضمن الفعل الكلامي التالي:

✔ **الأمر**: فعل كلامي مباشر دلت عليه قوة إنجازية حرفية ذات قرائن بنيوية وهي(**اتَّقُوا - صَلُّوا - صُومُوا- أَدُّوا- أَطِيعُوا**) فالأمر هو طلب إيجاد الفعل بالقول على وجه الاستعلاء.(57)

وهاته الأفعال الأمرية موجهة من الرسول _عليه الصلاة والسلام _ إلى كل مسلم "تتطلب موقع السلطة المطلقة"(58) فالرسول ﷺ أنتج خطابه بناء على موقعه السلطوي، فهو نبي هذه الأمة وسيدها، وبعث للناس كافة.

✔ **النصح والإرشاد**: فعل كلامي غير مباشر دلت عليه قوة إنجازية مستلزمة مقاميا فالرسول ﷺ ينصح ويرشد المسلمين إلى الأعمال التي تدخل إلى الجنة.

✔ **الإخبار**: فعل كلامي مباشر دلت عليه قوة إنجازية حرفية تمثلت في الجملة التقريرية " **تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ** ".

✔ **الوعد**: فعل كلامي غير مباشر ضمني دلت عليه قوة إنجازية مستلزمه تمثل في وعد الرسول ﷺ بدخول الجنة إذا التزم المسلمون بالتقوى وإقامة الصلاة والصيام والزكاة وطاعة ولي الأمر. فالقوة الإنجازية خالفت المعنى الحرفي وهو الخبر.

- **الغرض الإنجازي** : هو رغبة الرسول ﷺ في توجيه المسلمين إلى انجاز فعل وهو تقوى الله – صلاة الفرائض- صيام رمضان- أداء الزكاة- طاعة ولي الأمر. ونجد الحالة النفسية للمتكلم انعكست على الأمريات وهي الحث والرغبة في إنجاز هذه الأفعال حتى يضمن لهم دخول الجنة وذلك للتأثير في المستمع وترغيبه ودفعه للقيام بها وهذا يدل على حرص الرسول ﷺ الشديد للعناية بأمته حتى تفوز في الآخرة وبهذا تتحقق الفائدة ومنها يتحقق شرط الإخلاص.

أما اتجاه المطابقة من الكلمات إلى العالم فالرسول ﷺ يعد بدخول الجنة إذا التزم المسلمون بتنفيذ أوامره وبهذا الوعد طابق العالم الكلمات.

الحديث الثاني:

وعن عمرو بن شُعْيب ، عن أَبيه ، عن جَدِّهِ _ رضي اللَّه عنه _قال : قال رسول اللَّه _صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم _: « مُرُوا أَوْلادكُمْ بِالصَّلاةِ وهُمْ أَبْنَاءُ سبع سِنِينَ ، واضْرِبُوهمْ علَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ ، وفرَّقُوا بيْنَهُمْ في المضَاجعِ » حديثٌ حسن رواه أبو داود بإِسنادٍ حسنٍ.(59)

يندرج هذا الحديث في صنف التوجيهات بتصنيف سيرل، ويتضمن كيفية تعليم وتربية الأبناء.

وفي هذا الحديث فعل كلامي هو:

✔ **الأمر**:فعل كلامي مباشر دلت عليه قوة إنجازية حرفية تمثل في الأمر " **مُرُوا - اضْرِبُوهمْ -فرَّقُوا**".

✔ **التوجيه والإرشاد**: فعل كلامي غير مباشر دلت عليه قوة انجازيه مستلزمه تفهم من خلال سياق الحديث فالرسول ﷺ يرشد ويوجه الآباء لمنهجية تربية الأبناء وتعليمهم من خلال أسلوب الأمر، ولكنه يقصد الإرشاد والتوجيه ، ويمكن رسم بنية الفعل الكلامي كالتالي:

الحديث
- فعل كلامي مباشر صريح .**الأمر** .
- فعل كلامي ضمني .**الإرشاد والتوجيه**

- **الغرض الإنجازي:** هو توجيه المخاطب وهم الآباء إلى منهجية تعليم وتربية الأبناء تربية إسلامية صالحة والتنبيه إلى أن هناك سنوات حساسة في عمر الطفل يجب التركيز عليها.

وقد جاءت هذه التوجيهات في هذا الحديث بأسلوب موجز ودقيق وواضح وهذا من بلاغته ﷺ لقوله "**أتيت جوامع الكلم**"(60) ما يضمن وصول الخطاب للمتلقي بوضوح فلا يحتاج إلى تأويل فيتمكن من التأثير فيه وإقناعه بهذا الأسلوب في التربية.

ويتمثل شرط الإخلاص في عرض هذه الأفعال بأسلوب تربوي هادف ما يمكن من إفادة المخاطب بالمنهج الأمثل لتربية الأبناء تربية صالحة وهو ما ينشده كل الآباء.

ثالثا الوعديات (الالتزاميات) cemmissives

هو نوع من أفعال الكلام يستعملها المتكلمون ليلزموا أنفسهم بفعل مستقبلي، فهي تعبر عن ما ينويه المتكلم من وعود وتهديدات وتعهدات، وباستعمال أفعال الوعد يأخذ المتكلم على عاتقه جعل العالم ملائما للكلمات(61)، وشرط الإخلاص فيها هو القصد.(62)

وتتمثل في الأحاديث التالية:

الحديث الأول:

عَنْ أبي هُريرةَ ، ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ رآني في المَنامِ فَسَيَرَانِي في اليَقَظَةِ أوْ كأنَّمَا رآني في اليَقَظَةِ لايَتَمثَّلُ الشَّيْطانُ بي » متفق عليه. (63)

الفعل الكلامي المتضمن في القول التعبيري بمفهوم سيرل هو:

- ✓ **الوعد:** هو فعل كلامي غير مباشر " **فَسَيَرَانِي في اليَقَظَةِ** " يتمثل في وعد الرسول ﷺ أن الذي يراه في المنام فانه سيراه في اليقظة أو كما قال كأنما رآه في اليقظة. وقد اختلف العلماء في معنى الحديث وقد قال ابن حجر: " أن مقصود رؤيته في كل حالة ليست باطلة ولا أضغاثا بل هي حقيقة في نفسها ولو رؤى على غير صورته فتصور تلك الصورة ليس من الشيطان بل هو من قبل الله"(64) .فرؤيا للنبي ﷺ هي وعد للرائي.

الحديث:
- "**الخبر**" معنى صريح.
- "**الوعد**" معنى ضمني.

- **الغرض الإنجازي:** يتمثل في التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل و الرسول ﷺ ألزم نفسه بوعد رؤيته إذا رآه الرائي في المنام فالسين في كلمة " **فَسَيَرَانِي** " مختصة بالمضارع و تخلص للاستقبال"(65) ، والقصد من ذلك من قال ابن بطال " **فَسَيَرَانِي** " يعني يريد تصديق تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها(66). وهنا يتحقق شرط الإخلاص.

الحديث الثاني :

عَنْ أبي هُريرةَ ، ﷺأنَّ رسُولَ اللَّه ﷺقالَ: « منْ قال لا إله إلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لا شرِيكَ لَهُ، لهُ المُلكُ ، ولَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ، في يوم مِائة مَرَّةٍ كانَتْ لَهُ عَدْل عَشر رِقَابٍ وكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنةٍ ، وَمُحِيت عنهُ مِائة سيِّئَةٍ ، وكانت له حِرزاً مِنَ

الشَّيطَانِ يومَهُ ذلكَ حتى يُمسي ، ولم يأْتِ أَحدٌ بأَفضَل مِمَّا جاءَ بِهِ إلاَّ رجُلٌ عَمِلَ أَكثَر مِنه » ، وقالَ: «من قالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبحَمْدِهِ ، فِي يوْم مِائَةَ مَرَّةٍ ، حُطَّتْ خَطَاياهُ ، وإنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ » متفقٌ عليهِ.(67)

في هذا الحديث فعل كلامي جاء في صيغة الخبر هو:

✓ **الوعد:** الرسول ﷺ وعد قائل هذا الذكر " **لا إله إلاَّ اللَّه وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، لهُ المُلكُ، وَلهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ في يومٍ مِائَةَ مَرَّةٍ**".عن طريق هاته الجمل الخبرية:

- **كانَتْ لَهُ عَدْل عَشر رقَابٍ.**
- **كُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنةٍ.**
- **مُحيت عنهُ مِائة سيِّئَةٍ.**
- **وكانت له حِرزاً مِنَ الشَّيطَانِ.**
- **لم يأْتِ أَحدٌ بأَفضَل مِمَّا جاءَ بِهِ.**

- **الغرض الإنجازي:** هذه الوعديات تعبر عما ينويه المتكلم ﷺ بحيث يأخذ على عاتقه جعل العالم ملائما للكلمات فهو وعدهم بثبوت الأجر كعتق عشر رقاب ويكتب لهم مئة حسنة وتمحى عنهم مئة سيئة وتكون لهم حفظا من الشيطان ولا يأتي أحد بأفضل منهم ولتقوية الفعل الكلامي استعان المتكلم بأسلوب الإغراء والترغيب.

رابعا/ التعبيريات (البوحيات) Expressives

هي أحد أصناف أفعال الكلام، الغرض منها هو تعبير عن الحالة النفسية تجاه الواقعة التي تعبر عنها القضية، ويطلب فيها الإخلاص، ويمكن لها أن تتخذ لكل جمل تعبر عن سرور أو ألم أو فرح أو حزن أو عما هو محبوب أو ممقوت.(68) ويدخل في هذا الصنف أيضا: الاعتذار والشكر، والترحيب والتعزية(69)، لا يوجد في هذا الصنف تجاه مطابقة.(70)

وتندرج التعبيريات في مجموعة من الأحاديث وهي:

الحديث الأول :

وعنْ معاذٍ _رضي اللَّه عَنْهُ_ أَنَّ رسُول اللَّهِ _صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم_ أَخَذَ بيَدِهِ وقال : « يَا مُعَاذُ ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ » فقال : « أُوصِيكَ يَا معاذُ لا تَدعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ ، وشُكْرِكَ ، وَحُسنِ عِبادتِكَ » .رواهُ أبو داود بإسناد صحيحٍ.(71)

الفعل الكلامي في هذا الحديث يندرج ضمن التعبيريات:

✓ **الإخبار:** فعل كلامي مباشر يتمثل في إخبار النبي ﷺ لمعاذ بأنه يحبه ويؤكد له ذلك الحب. ولتقوية الفعل الكلامي أكّد بالقسم "**والله**" والأداة (**إنّ**) و "**لام التوكيد**" حتى يثبت ما قال في ذهن السامع،وأن هذه الوصية خاصة ثمينة ومصممة وجواب القسم هو فعل القول (**أحبك**).

✓ **الاعتراف:** فعل كلامي غير مباشر دلت عليه قوة إنجازية مستلزمة مقاميا فالرسول ﷺ يفصح عما يشعر به من الحب تجاه معاذ و يعترف له بذلك من خلال الجملة الخبرية "**إني أحبك**" وهذا البوح هو "الاعتراف" وهو فعل كلامي فيه صدق وإخلاص في التعبير.

- **الغرض الإنجازي:** الغرض من هذا الاعتراف بالحب هو تعبير الرسول عن مشاعره لمعاذ، ولذلك فهو يوصيه بهذا الدعاء فكانت هذه الوصية النبوية بطريقة تلامس المشاعر وتثير العواطف. ويمكن رسم بنية الفعل الكلامي كالتالي:

الفعل الكلامي
(إنِّي لأُحِبُّكَ)

- **الإخبار**: فعل كلامي مباشر(صريح) دلت عليه قوة إنجازية حرفية الفعل
- **الاعتراف**: فعل كلامي غير مباشر (ضمني) دلت عليه قوة إنجازية مستلزمة

الحديث الثاني :

وعن أَنسٍ ـرضيَ اللَّهُ عنه_ أَنَّ رسُولَ اللَّهِ ـصَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم_ دَخَلَ عَلى ابْنه إبَراهِيمَ رضيَ اللَّهُ عنه وَهُوَ يَجودُ بَنفسِه فَجعلتْ عَيْنا رسولِ اللَّهِ ـصَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم_ تَذْرِفَانِ . فقال له عبدُ الرَّحمن بنُ عوفٍ: وأَنت يا رسولَ اللَّه ؟، فقال : « يا ابْنَ عوْفٍ إِنَّها رَحْمةٌ » ثُمَّ أَتْبَعَها بأُخْرَى ، فقال: « إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ والقَلْب يَحْزَنُ ، وَلا نَقُولُ إِلا ما يُرضي رَبَّنا وَإِنَّا لفِراقِكَ يا إِبْرَاهيمُ لَمحْزُونُونَ » .رواه البخاري ، رواه بعضه مسلم.(72)

تتمثل أفعال الكلام في هذا الحديث في:

✓ **الإخبار**: فعل كلامي مباشر تمثل في إخبار انس رضي الله عنه وهو يصف حال الرسول ﷺ عندما دخل على ابنه إبراهيم وهو في النزع في قوله: "فجعلتا عينا الرسول ﷺ **"تَذْرِفَانِ** "، هذا القول يعبر عن انفعالات تظهر على ملامح الرسول ﷺ فهو لم يعبر لغة وإنما كان الانفعال ظاهر في وجهه وهو (الحزن) لما ألم به من فقد ابنه الوحيد فالدموع هي علامة من علامات الحزن وهي تزيد من قوة الفعل.

✓ **التأكيد:** فعل كلامي مباشر يظهر في الصيغة الخبرية في قوله ﷺ لابن عوف ـرضي الله عنه_: " **إِنَّها رَحْمةٌ** " فقد أكد المتكلم بالأداة على أن الدموع رحمة من الله تعالى.

✓ **الامتنان:** فعل كلامي متضمن في القول يفهم من سياق الجملة الخبرية **(إِنَّها رَحْمةٌ)** الذي يفضي إلى أن الدموع رحمة من الله تعالى لعبده كي ينفس بها على مشاعر الحزن التي بداخله وهذا من رحمته تعالى بخلقة، فالرسول من خلال هذه العبارة يشعر بالامتنان لله تعالى على هاته النعمة.

✓ **التقرير**: فعل صريح جاء بصيغة جمل تقريرية.

- **إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ .**
- **وَلا نَقُولُ إِلا ما يُرضي رَبَّنا.**
- **وَإِنَّا لفِراقِكَ يا إِبْرَاهيمُ لَمحْزُونُونَ.**

✓ **الاعتراف**: فعل كلامي ضمني ويعد من الأفعال الكلامية التعبيرية والرسول ﷺ بث من خلال الجملة التقريرية ويفصح عن مشاعره تجاه الواقع.

فقد اعترف _عليه الصلاة والسلام_ وأكد اعترافه أن عينيه دمعت وأن قلبه حزن لِفَقْدِ ابنه، ونفهم من خلال الخبر المنفي ضمنيا " **وَلا نَقُولُ إِلا ما يُرضي رَبَّنا** " أي رضي بقدر الله تعالى ثم يؤكد بعد ذلك مشاعر الحزن لفراق ابنه.

- **الغرض الإنجازي**: المتكلم عبر عن حالة نفسية تجاه قضية والفعل التعبيري قد حقق النجاح لتوفر شرط الإخلاص فالرسول ﷺ هو الصادق الأمين والقضية المعبر عنها هي فقد ابنه الوحيد إبراهيم فالحزن يظهر على وجهه وهو يعيش لحظات وداعه ينظر إليه وهو يصارع الموت نظرات الحزين المنفطر الذي ينتظر فراق الحبيب فيحزن فلا يوجد أقسى من فراق الولد، فالأفعال التعبيرية "هدفها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي حيال الواقعة التي تعبر عنها القضية، إذ ليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة، فالمتكلم لا يحاول أن يجعل تطابق العالم الخارجي، ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات وهذا ما يسميه (سيرل) الاتجاه الفارغ".(73)

والحديث يحمل رسالة تعليمية وهي أن البكاء المباح والحزن الجائز وهو ما كان بدمع العين ورقة القلب من غير سخط على قضاء الله.(74)

خامسا الإيقاعيات (الإعلانيات) Declaratives

الإيقاعيات أو الإعلانيات هي الأفعال التي ينشأ بمجرد التصريح بها أحداث تغيير في الوضع القائم أي أن القول بأمر ما هو أحداث لذلك الأمر فإذا أعلن القاضي: "الموظف بريء" يترتب عليه براءة الموظف فعلا(75).والسمة المميزة لها أن أداءها الناجح يتمثل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، فضلا عن أنها تقتضي عرفا غير لغوي واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم ومن العالم الكلمات ولا تحتاج إلى إخلاص.(76)

الحديث الأول:

عنْ أبي بكْرَةَ _رضي اللَّه عنْهُ_ أنَّ رسُول اللَّه _صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم_ قال في خُطْبتِهِ يوْم النَّحر بمنىً في حجَّةِ الودَاعِ : « إنَّ دِماءَكُم ، وأمْوالَكم وأعْراضَكُم حرامٌ عَلَيْكُم كَحُرْمة يومِكُم هذا ، في شهرِكُمْ هذا ، في بلَدِكُم هذا ، ألا هَلْ بلَّغْت » متفقٌ عليه.(77)

السياق الذي ورد فيه الحديث هو حجة الوداع في خطبة يوم النحر بمنى وإذا تأملنا جيدا نصه نجده قد جاء بأسلوب خبري من نوع الخبر الطلبي لأنه مؤكد بأداة واحدة وهي "**إنَّ**" وذلك حتى يزيل التردد لدى المتلقي.(78)

فالحديث يتضمن فعلا كلاميا إيقاعيا هو التحريم في قوله "**إنَّ دِماءَكُم ، وأمْوالَكم وأعْراضَكُم حرامٌ عَلَيْكُم**" فالمتكلم هو الرسول ﷺوقد أعلن حكم فهو يستمد قوته من سلطة الخطاب الإلهي فالرسول ﷺ مقام دعوة وتبليغ يضبط الحدود بين الناس ويبطل عمل أهل الجاهلية من قتل للنفس بغير حق وانتهاك للأموال والأعراض، فَنقلَ هذا الفعل الإيقاعي المسلمين إلى واقع جديد يسوده العدل والأمن والاستقرار. فالرسول _عليه الصلاة والسلام _من خلال حديثه يعلن حرمة الدماء والأموال والأعراض .

الفعل الكلامي

"حرامٌ عَلَيْكُم"

دِماءَكُم أعْراضَكُم أمْوالَكم

تعتبر التداولية ميدانا لغويا مكملا للسانيات البنيوية فهي تحاول فهم الاستعمال اللغوي من خلال سياقات متعددة ومقاصد المتكلمين وعلاقة العلامات بمستعمليها ومن ثمّ تعتبر أفعال الكلام ركيزة اللسانيات التداولية.الغرض من الفعل الإنجازي في أفعال الكلام هو التزام المتكلم تجاه المستمع بأداء عمل ما. يرتبط الفعل الكلامي بمقصد المتكلم ويؤول هذا إلى قول الرسول ﷺ « **إنما الأعمال بالنيات** » .

وردت أفعال الكلام في الحديث النبوي الشريف على شكل أفعال أنجزت بأقوال تضمنت قوة إنجازية حرفية وقوة إنجازية مستلزمة . بحيث غلبت التوجيهيات نوعا ما لعل هذا راجع إلى القصد من الرسالة النبوية وهي إرشاد الناس وتوجيههم لأمور دينهم ودنياهم لتحقيق الهدف الأسمى وهو رضا الله . ولهذااعتمد الرسول ﷺ التقريريات لأنه ﷺ في مقام تقرير بغية إبلاغ مجموعة من التشريعات الإلهية . وتعددت الآليات التوجيهية في الحديث النبوي الشريف ولكن الأكثر استخداما هو الأمر والنهي، جاء من الوعديات الأفعال الكلامية الوعد, الوعيد, التهديد، استعمل الرسول ﷺ في التعبيريات الشكر, الاعتذار, الاعتراف، الإيقاعيات :تتمثل في إصدار أحكام الدين الإسلامي ، ولدعم القوة الإنجازية استعمل الرسول ﷺ عبارات التنبيه وتكرار الكلام وأسلوب التوكيد وهذا لإيضاح المعنى وتنبيه المتلقي لأهمية الرسالة .

لقد حاولنا من خلال هذا الدراسة الوصول إلى إبراز الأثر الذي يحدثه النص في متلقيه فالرسول ﷺ جاء لتغيير وضع قائم واستبداله بوضع آخر جديد ، وبالتالي فالتداولية هي آليات وإجراءات تساعد على فهم نص الحديث النبوي والكشف عن خباياه وقصديته ومدى تأثيره في الآخر، كما قد سمح لنا بقراءة جديدة للحديث النبوي تزيد من فهمنا له .

الهوامش:

1- صابر الحباشة، مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية- قراءة في الشروح - التلخيص للخطيب القزويني، دار صفحات، سورية، ط1، ص36 .

2- ينظر:فليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة ، دار الحوار، سوريا ، ط1، 2007م ، ص55

3- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة، الجزائر، ط2، 2006، ص160 .

4- نادية رمضان النجار، الاتجاه التداولي و الوظيفي في الدرس اللغوي، القاهرة، ط1، 2013م ، ص 41.

5- ينظر: بوقرومة حكيمة، دراسة الأفعال الكلامية القرآن الكريم –مقاربة تداولية–، مجلة الخطاب، دار الأمل، بتيزي وزو، العدد.، ماي 2008، ص11.

6- ينظر: آن ربول وجاك موشلار ،التداولية اليوم علم جديد في التواصل ،تر:سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني ،المنظمة العربية للترجمة بيروت لبنان ، ص30

7- ينظر: المرجع نفسه، ص43.

8- ينظر: نادية رمضان النجار، الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، ص41.

9- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، د.ط ، 2002م ، ص44.

10- ينظر: نادية رمضان النجار، الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، ص44.

11- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص45.

12- ينظر الجيلال دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر، محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر دت، ص24.

13- ينظر العياش أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول الحواري، دار الآمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011م، ص86.

14- ينظر الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص24.

15- ينظر العياش أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول الحواري، ص86.

16- ينظر محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص49.

17- ينظر: صالح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، لبنان، ط1، 1993، ص222 .

18- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص46.

19- المرجع نفسه، ص46.

20- ينظر: فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ص62.

21- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص46.

22- جاك موشلار ، آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر: مجموعة من الأساتذة والباحثين من جامعات التونسية، بإشراف عز الدين المجدوب، منشورات دار سيناترا، دط، 2010، ص67.

23- آن روبول وجاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص33.

24- أحلام صولح، أفعال الكلام في نهج البلاغة للإمام علي رضي الله عنه – دراسة تداولية – رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2012، 2013 ، ص58.

25- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص72 .

26- المرجع نفسه ، ص72، 73.

27- أحلام صولح، أفعال الكلام في نهج البلاغة، الإمام علي رضي الله عنه – دراسة تداولية – ص 60.

28- ينظر: العيد جلولي، نظرية الحدث الكلامي من أوستين إلى سيرل، مجلة الأثر، العدد الخاص الملتقى الدولي الرابع لتحليل الخطاب، ص61.

29- المرجع السابق ، ص49.

30- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب – مقاربة تداولية- دار الكتاب الجديد، ليبيا، ط1، 2004، ص158.

31- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص49 .

32- ينظر: عمر بلخير، تصنيف أفعال الكلام في الخطاب الصحفي الجزائري المكتوب باللغة العربية، مجلة الأثر، العدد 13 مارس، 2012م، ص49.

33- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب، ص158.

34- ينظر: عمر بلخير، تصنيف أفعال الكلام في الخطاب الصحفي الجزائري المكتوب باللغة العربية، ص49.

35- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب، ص158.

36- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص50 .

37- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب، ص158.

38- ينظر: أحلام صولح، أفعال الكلام في نهج البلاغة، الإمام علي رضي الله عنه، ص 67 .

39- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص50 .

40- ينظر: أحلام صولح، أفعال الكلام في نهج البلاغة، الإمام علي رضي الله عنه، ص 67 .

41- ابتسام بن خراف، أفعال الكلام في قصة كليم الرحمان موسى عليه السلام، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة، ع: الثاني عشر، جانفي، 2013، ص346.

42- جيفري ليتش وجينين توماس، البراغماتية (المعنى والسياق) ، ص275،276، www pdf factory.com.

43- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص81 .

44- ينظر: جيفري ليتش وجينين توماس، البراغماتية (المعنى والسياق)، ص 276، www pdf factory.com.

45- أحلام صولح، أفعال الكلام في نهج البلاغة، الإمام علي رضي الله عنه، دراسة تداولية، ص 70

46- ينظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص78، 79 .

47 - ينظر: حورية رزقي عبد الحق، الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية، جامعة محمد خيضر، (2005م/ 2006 م)، ص .59

48- صلاح الدين إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، لبنان، ط1، 1993م ، ص 233 .

*ربّتها: أي سيدها (النووي زكريا أبو يحي بن شرف الدمشقي، رياض الصالحين، تح: عبد العزيز رباح، أحمد يوسف الدقاق، مراجعة: شعيب الأرنؤوط، دار المأمون للتراث دمشق، ط2، دت،ص34).

* العالة: الفقراء (النووي، رياض الصالحين ص 34).

49- النووي، رياض الصالحين، ص34.

50- ابن حجر، فتح الباري، شرح وتحقيق:محب الدين، مراجعة:قصي محب الدين الخطيب،دار الريان للتراث،القاهرة،ط1، 198م،ج1،ص144.

51- محمد مضيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص60.

52- جورج يول:التداولية، قصي العتابي،الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت،ط2010،1،ص90.

53- محمد مدور، الأفعال الكلامية في القرآن الكريم(سورة البقرة)دراسة تداولية،أطروحة دكتوراه،جامعة الحاج لخضر،باتنة،(2013-2014)،ص177

54- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الحطاب، ص337 .

55- جون سيرل: العقل واللغة والمجتمع، تر:سعيد الغانمي،منشورات الاختلاف، الجزائر،ط2006،1،ص218.

56- النووي ، رياض الصالحين،ص39.

57- سعود بن غازي أبو تاكي:صور الأمر في العربية بين التنظير والاستعمال،دار غريب،القاهرة،ط2005،1،ص30.

58- محمد مدور، الأفعال الكلامية في القرآن، ص 182.

59- النووي ، رياض الصالحين،ص111.

60- عبد الفتاح لاشين: من بلاغة الحديث النبوي،شركة مكتبات عكاظ، السعودية،ط1982،1،ص13.

61- جورج بول، التداولية، ص90، .91

62- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص50.

63- النووي، رياض الصالحين، ص261.

64- ابن حجر، فتح الباري، ج12، ص400.

65- المرادي حسين بن قاسم، الجني الداني في حروف المعاني ، تح: فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1413ه، 1992م، ص59.

66- حجر، فتح الباري، ج12، ص401.

67- النووي، رياض الصالحين، ص 381،382.

68- جورج يول، التداولية، ص.90

69- جون سيرل، العقل واللغة والمجتمع، ص.215

70- فيليب بلا نشية، التداولية من أوستن إلى غوفمان، ص 66.

71- النووي، رياض الصالحين، ص384.

72- النووي، رياض الصالحين، ص279.

73- voir.J.searle.speetch Acts. P20 نقلا عن: محمد مدور، الأفعال الكلامية في القرآن الكريم، ص280.

74- ابن حجر، فتح الباري ، ج 3 ، ص208.

75- Voir: j brch. Principles of pragmatices. P105 نقلا عن محمد مدور، الأفعال الكلامية في القرآن الكريم،ص309.

76- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص50.

77- النووي، رياض الصالحين، ص 413.

78- توفيق الطيل، بلاغة التراكيب، دراسة في علم المعاني، مكتبة الآداب، القاهرة، د ط، د ت، ص20، 21.

نماذج من القواعد التحويلية في شعر "بشار بن برد"

Examples of grammar transformational in the poetry of Bashar Ibn Bord

الأستاذة : فاطمة الزهراء نايلي

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات –جامعة البليدة 2–

الملخص:

هذا البحث عبارة عن مقاربة لغوية بين شعر بشار بن برد وبين النظرية التوليدية التحويلية (لتشومسكي) وتهدف إلى تطبيق بعض القواعد التحويلية من زيادة وحذف وتقديم وتأخير على التراكيب الشعرية المحولة ،ومقابلتها بالقواعد النحوية التي أقرها النحاة العرب وقواعد النحو التحويلي، لمعرفة جملها النواة وبنيتها العميقة للإجابة على الإشكالية المطروحة، وهي: كيف يتم تحويل المعاني الكامنة في الذهن إلى مجموعة من الوحدات اللسانية الدالة على تلك المعاني ضمن تراكيب مختلفة؟ وما مدى إمكانية تطبيق قواعد هذه النظرية على اللغة العربية؟ ثم نعرض لنتائج البحث في الخاتمة مع إبداء الرأي.

الكلمات المفتاحية: التوليد – التحويل – البنية العميقة –الجملة النواة .

Abstract :

This research is a linguistic approach between poetry of Bashar Ibn Bord and between transformational generation theory (Chomsky) and aims to apply some transformational grammar of ، addition and deletion and permutation… on the compositions of poetry transferred، and interviewed grammatical rules approved by grammarians Arabs and grammar transformational،to know kernel sentences and deep structure such as: how are converted meanings inherent in the mind set of linguistic units function on those meanings within different structures? and the possibility of applying the rules of this theory on the Arabic language? Then I show the results of research in the finale with the opinion.

Key words :Generation Transformation Deep structure Kernel sentence

تمهيد:

التعريف بالشاعر (بشار بن برد): هو بشار بن برد بن يرجوخ، ولد بالبصرة سنة(96ه) وتقدمه طبقات المحدثين بإجماع الرواة ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك يغني عن وصفه وإطالة ذكر محله، وهو من مخضرمي شعراء الدولتين العباسية والأموية، ولد مكفوفا يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره ،فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله، فقيل له يوما وقد أنشد "(1)قوله:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه(2)

" ما قال أحد أحسن من هذا التشبيه فمن أين لك هذا و لم تر الدنيا قط ولا شيئا فيها ؟، فقال: إن عدم النظر يقوي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء،فيتوفر حسه وتذكو قريحته"

ورواة شعر بشار ونقدته متفقون على أنه زعيم طبقة المولدين وأسبقهم إلى الغزل الرقيق وأول من جمع شعره بين القديم والحديث، فقد قال فيه (الجاحظ): " كان بشار شاعرا خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع،المتفننين في الشعر،القائلين في أكثر ضروبه وأجناسه..." أما وفاته فقد أجمع الرواة أنه مات مقتولا بأمر من الخليفة المهدي سنة (168ه) بسبب هجائه له، تاركا اثنا عشرة ألف قصيدة لم يبق منها إلا قطعا منتثرة في الكتب (3) وهو المشهور بقوله(4):

عميت جنينا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا

وغاض ضياء العين للعلم رافدا لقلب إذا ما ضيَع الناس حصّلا

وشعر كنور الروض لاءمت بينه بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا

ولهذا اخترناه كنموذج لهذه الدراسة.

مدخل عام:

1-مفهوم اللغة عند "نوام تشومسكي" :

"اللغة عند تشومسكي أداة اجتماعية ،تتكون من نظام معقد جداً من الرموز أو قواعد استخدام تلك الرموز، والمتحدثون من أبناء اللّغة يجب أن يكونوا ملمين بالرموز المستخدمة وقواعد الاستخدام المقبولة بما في ذلك مجموعات المفاهيم والكلمات والمورفيمات والفونيمات." (5)

انطلاقا من هذا التعريف، يتضح لنا أن اللغة عند "تشومسكي" خاصية إنسانية استثنائية فا "اللغة عنده نظام توليدي وكلمة توليدي من الجذر يولد الذي يعني الإنتاج والخلق،فاللغة بذلك وفقا له منتجة ومبدعة"(6) فالإنسان -حسب تشومسكي- قادر على توليد عدد لا متناه من الجمل عن طريق مجموعة من القواعد النحوية المحددة.

2-الكفاءة اللغوية والأداء الكلامي:

كانت أهم المبادئ التي اعتمد عليها "تشومسكي" في تأسيسه لنظريته التوليدية التحويلية ثنائية: (الكفاية اللغوية والأداء الكلامي) و "الكفاية اللغوية هي معرفة المتكلم- السامع بلغته أو استعمال اللغة ،والأداء هو الاستخدام الفعلي للغة في موقف معين (7)، فالكفاءة اللغوية هي معرفة المتكلم بقواعد لغته، أما الأداء الكلامي فهو كيفية استخدامه لتلك القواعد في المواقف المختلفة ومن هذا المنطلق أشار(تشومسكي) إلى "إبداعية اللغة وإمكانية التعليم".(8)

3-البنية العميقة والبنية السطحية:

يرى "تشومسكي" أن للتركيب بنيتين جمعهما في هذه الثنائية ف "البنية العميقة هي مستوى تجريدي لهيئة التركيب تتمثل فيه كل العناصر المحددة لتأويل التركيب." (9)

نستطيع القول أن البنية العميقة هي: التركيب الباطني أو المعنى الأول الموجود في ذهن المتكلم قبل أن يصيغه إلى تركيب ظاهري، حيث تتولد عن البنية العميقة : الجملة النواة، وهي: " الحد الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكون عليه" (10)، فالمقصود بالجملة النواة هو : الجملة البسيطة التي تفيد معنى معين عند سماع المتلقي لها،أما البنية السطحية : "فهي التأويل الدلالي الذي يتحدد بشكل بنائي أو تركيب في التحقق السطحي". (11)،فالبنية السطحية هي: التركيب الظاهري النهائي الذي يجسده المتكلم في شكل سلسلة من الأصوات اللغوية الحاملة لمعان مختلفة، ويواجهنا في البنية السطحية مصطلحين هما: المقبولية والصحة القواعدية أو النحوية للتراكيب المحولة، والتراكيب المقبولة: " يكون إنتاجها أكثر احتمالا من إنتاج غيرها وفهمها أكثر سهولة ، ووصفها أكثر اتفاقا وأكثر طبيعة بشكل من الأشكال، أما الجمل الأقل قبولا فإنها تلك التي يغلب أن يتجنبها المتكلمون ويستبدلونها بأخرى أكثر قبولا."(12)

أما "الصحة القواعدية، فتعود إلى قواعد اللغة القائمة ضمن الكفاية اللغوية لمتكلم اللغة" (13)، يلاحظ أن مصطلح المقبولية يرتبط بالمعنى؛ أي: أن تكون الجمل التي ينتجها المتكلم مقبولة من حيث المعنى ومفهومة عند المتلقي، أما مصطلح الصحة القواعدية فيتعلق بالقواعد النحوية الخاصة بلغة معينة والموجودة في ذهن متكلم تلك اللغة.

4-القواعد التوليدية والتحويلية:

"إن العجز الذي عرفه التحليل التوزيعي الوصفي كونه لا يستطيع تحليل الجمل المركبة إلى مكوناتها المباشرة، هو الذي فجر الثورة اللسانية الجديدة التي جسدها (تشومسكي) من خلال نظريته التوليدية التحويلية وفي الحقيقة إن إشاعات هذا النحو ظهرت بوادره، منذ أن أصدر (هاريس) سنة (1952) مقالا بعنوان: (transfarmar grammar) القواعد التحويلية، وفيه طالب بضرورة تحديد رموز للفئات النحوية داخل المكونات المباشرة لتغدو أكثر وضوحا ويسرا على النحو الآتي:

سافر	ماض	أل	ولد
فعل فعل	زمن زمن	أداة أد	اسم اسم
مركب فعلي (م ف)		مركب اسمي (م ا س)	
ج			

ولقد انطلق (تشومسكي) من هذا التحليل إلى المكونات المباشرة، وأعاد صياغته صياغة رياضية تعكس تلك المكونات في شكل هرمي تشجيري رأسه الجملة (ج) ونهايته أصغر المورفيمات الدالة بوظائفها النحوية"(14) كالآتي:

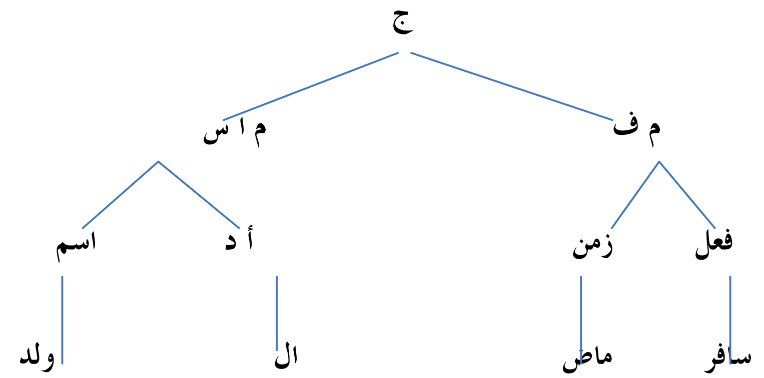

ويرى الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" أن تشومسكي قد وفق في هذه الصياغة الجديدة التشجيرية لنظرية المكونات المباشرة؛ "لأنه قد صاغها صياغة مكنته من بيان نقائصها وعدم قدرتها على تفسير الكثير من الظواهر اللغوية وذلك بلغة المنطق الرياضي وليس هذا النمط الذي وضعه إلا صياغة محضة لنظرية المكونات القريبة ولا يزيد عليها شيئا اللهم إلا الدقة الرياضية والتمثيل الشجري". (15)

"فقد أسس (تشومسكي) النحو التوليدي ووضع هذا المصطلح ليؤكد أن مثل هذا النحو يقصد به الكشف عن القواعد الحاكمة على بنية الجمل وتراكيبها، واعتاد الباحثون أن يطلقوا مصطلح النحو التحويلي على نمط من أنماط النحو التوليدي، ويستعمل مصطلح التحويل ليحدد به أصناف القواعد التي تقوم بالعمل بعد التوصل إلى المكون الخاص ببنية العبارة ، وهو المكون الذي ينتج البنية الأساسية للجملة."(16) فالنحو التوليدي يتعلق بالقواعد بنية العبارات ،أو القواعد إعادة الكتابة للتراكيب المختلفة، أما النحو التحويلي "فقد قام على أساس الاعتقاد بأن على النحو أن يزودنا بقاعدة تفسر لنا كيف تستعمل الجمل وكيف تفهم لأن النحو بالنسبة لكل لغة هو نظام من القواعد." (17)

والقواعد التوليدية "تدل على مجموعة القواعد والأحكام التي تعرف أنواعا مختلفة من النظم اللغوية وهي قواعد رياضية محددة متقنة ، مهمتها تعيين وصف نحوي لبنية الجمل التي تولدها."(18)

يتبين لنا ،أن القواعد التوليدية والتحويلية تهدف إلى الوقوف على جملة من التحويلات الكامنة وراء نطق كل تركيب لغوي بالإضافة إلى كيفية توليد التراكيب المختلفة واشتقاق تراكيب جديدة منها عن طريق التحويلات المختلفة، حيث تنقسم التحويلات إلى:

1–اختيارية وإجبارية:

"التحويلات الإجبارية تجري في البنية العميقة وتنتج عنها الجملة النواة ،أما الاختيارية فتكون في غير جملة النواة". (19)

2–دورية وجذرية:

التحويلات الدورية، يكون تطبيقها على التراكيب الأكثر عمقا وصولا إلى البنية الكاملة ، وتعمل التحويلات الجذرية للحصول على تركيب كامل". (20)

3–وظيفية وغير وظيفية:

"التحويل الوظيفي هو انتقال الكلمة إلى وظيفة أخرى أما التحويل الغير الوظيفي فهو ثبات العنصر النحوي على وظيفته الأصلية قبل التحويل وبعده" (21) فمثال هذا النوع من التحويلات دخول أحد النواسخ على الجملة ،حيث تغير زمن الجملة من

الفعلية إلى الاسمية فيصبح الاسم اسمها والخبر خبرها بتغير الحركة الاعرابية، "وتحلل الجمل إلى مركبين أساسيين هما: المركب الاسمي: الذي يقع فاعلا لها والمركب الفعلي، هكذا إلى أن نصل بهذا التحليل المكوني إلى أقل صور البناء اللغوي على مستوى التحليل التركيبي وهو الكلمة."[22]

انطلاقا مما سبق، فقد أفادت المدرسة التوليدية التحويلية من هذه الرؤية البنيوية في تحديد الهيكل البنيوي للتركيب وفي تحديد عناصر التركيب والعلاقات الوظيفية المتعددة بينهما.

النماذج التطبيقية من شعر (بشار بن برد):

1-التحويل بالتقديم والتأخير:

تعد ظاهرة التحويل بالتقديم والتأخير من أهم الظواهر التي حظيت باهتمام علماء العربية ،حيث نقل (سيبويه) (ت 180 ه) عن (الخليل بن أحمد الفراهيدي) (ت 175 ه) قوله في باب الابتداء: " وزعم الخليل أنه يستقبح أن يقول : قائم زيد، وذلك إذا لم تجعل قائما مقدما مبنيا على المبتدأ وهذا التقديم عربي جيد وذلك قولك: تميمي أنا ". [23]

يتضح من خلال قوله، أنه يستقبح جعل (قائم) في قولك: " قائم زيد " ونحوه مبتدأ ، أما إذا جعل مقدما فهو جائز عند (الخليل) ؛لأن التقديم لديه يكون على نية التأخير،إذ أن العنصر المقدم في التركيب يبقى محتفظا بوظيفته النحوية وحكمه الإعرابي الذي أقر له قبل تقديمه.

ويرى (المبرد) (ت 285 ه) أن التقديم والتأخير جائز في حالة أمن اللبس قائلا : " إذا كان الكلام موضحا عن المعنى، نحو قولك : ضرب زيد عمرو لأنك تعلم بالإعراب الفاعل والمفعول". [24]

أما عند خلو التركيب من قرينة معنوية أو لفظية تعين على تحديد الفاعل من المفعول به، فلا يجوز في هذه الحالة التقديم والتأخير ويؤكد ذلك قول (ابن جني) (ت 392 ه):"فلا تجد هنا إعرابا فاصلا وكذلك نحوه قيل : إذا اتفق ما هذه سببا مما يخفي في اللفظ حاله ألزم الكلام من تقديم الفاعل وتأخير المفعول." [25] فتقديم لفظة ما على غيرها في التركيب ينتج عنه تغيير في البنية الأصلية له وقد عقد (ابن السراج) (316ه) بابا في كتابه: (الأصول في النحو) تحدث فيه عن التقديم والتأخير ووجوهه وفصل فيها القول، حيث اختصرها (السيوطي) (911 ه) مقتصرا على التعداد". [26]

ومن التحويل بالتقديم والتأخير:

أ- تقديم الفاعل على فعله:

الأصل في الفاعل أن يتأخر عن الفعل، حيث يقول (أبو علي الفارسي) (ت 377 ه) في هذا الصدد: " واعلم أن الفاعل رفع وصفته أن يسند الفعل إليه مقدما عليه"[27]، فحكم الفاعل المسند إليه هو أن يتأخر عن الفعل المسند وهما ركنان أساسيان في التركيب وقد تطرق (سيبويه) إليهما بقوله:" هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يغني أحدهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بد. "[28]، "وتقديم الفاعل على فعله ممتنع عند البصريين لأنه ينقله إلى حكم الابتداء" .[29]

أما الكوفيون : "فقد أجازوا تقديم الفاعل على فعله مع بقائه على حكمه الذي كان عليه قبل التقديم وخلو الفعل من الضمير المستتر". [30]

ونظير ذلك من شعر (بشار بن برد) قليل ،من ذلك قوله في النسيب (بسلمى) من بحر السريع:

الله أصفى لها ودي وصورها * فضلا على الشمس إذ لاحت من الحجب** [31]

يمثل قول الشاعر: (الله أصفى) تركيب تحويلي اسمي، حدث فيه التحويل بتقديم -لفظ الجلالة- الفاعل (الله) على فعله (أصفى) الذي وجب أن يتقدم؛ لأن الترتيب الأصلي لعناصر التركيب هو:" أصفى الله ودي لها وصورها"، حيث نلاحظ أنه جرى في هذا التركيب تحويل آخر وهو تقديم الجار والمجرور —لها- على المفعول به —ودي- بتحويل اختياري والبنية العميقة للتركيب السابق هي:(أصفى الله ودي لسلمى وصور سلمى) ،بإضافة المفردات المحذوفة التي استبدلت في البنية السطحية بضمير (الهاء) الدال عليها ، (لها ، صورها) أما الجملة النواة للتركيب التحويلي الاسمي فهي: (أصفى الله ودي)، نلاحظ أنها جملة بسيطة تحمل معنى يحسن السكوت عليه مركبة من (فعل+ فاعل+ مفعول به)،كما أن الجملة النواة تمثل تركيب فعلي توليدي على عكس البنية السطحية التي تمثل تركيب اسمى تحويلي ،وهذا ما يطرح لدينا تساؤلا وهو: لماذا انتقل التركيب من النمط الفعلي في البنية العميقة إلى النمط الاسمى في البنية السطحية؟

يمكن القول أن انتقال الفاعل في التركيب الظاهري إلى موقع الابتداء هو نتيجة لحدوث تحويل وظيفي حيث انتقل الركن الاسمى من الوظيفة النحوية كفاعل في الجملة النواة إلى وظيفة أخرى، وهي المبتدأ في البنية السطحية لذلك أصبح التركيب اسميا ونلخص التحويلات التي مرت بها الجملة النواة فيما يأتي:

1-زيادة الجار والمجرور بتحويل اختياري :

ج ⟵ **أصفى الله ودي لسلمى.**

2-استبدال الاسم المجرور (سلمى) بضمير الهاء الدال عليه بتحويل اختياري:

ج ⟵ **أصفى الله ودي لها**

3-تقديم الجار والمجرور على المفعول به بتحويل اختياري:

ج ⟵ **أصفى الله لها ودي**

4-تقديم الفاعل على فعله بتحويل اختياري وظيفي:

ج ⟵ **الله أصفى لها ودي**

ونوضح المكونات المباشرة التي يتألف منها التركيب بالمخطط الشجري الآتي:

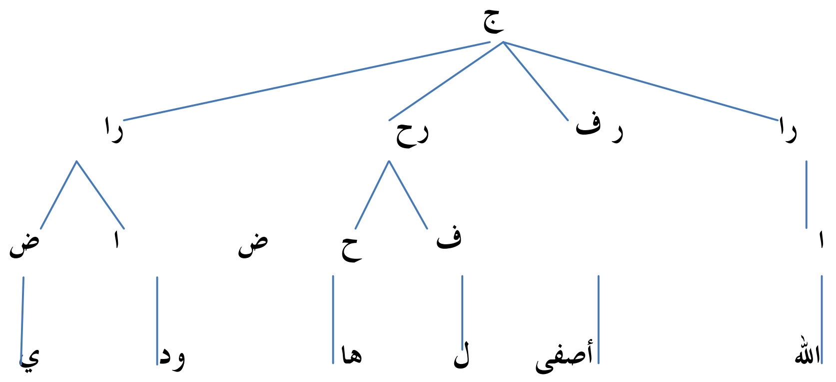

ب-تقديم الخبر على المبتدأ:

أجاز النحويون هذا الضرب من التقديم من ذلك قولهم : "واعلم أن الظرف إذا كان خبرا فالأحسن تقديمه وإذا كان لغوا فالأحسن تأخيره مع أن كلا جائز وهما عربيان". (32)

وقد ذهب (ابن جني) في هذا الصدد إلى القول:"ومما يصح ويجوز تقديمه خبر المبتدأ على المبتدأوكذلك خبر (كان) وأخواتها على أسمائها وعليها نفسها." (33) من ذلك قول الشاعر في الغزل (بسعدى) من بحر الخفيف:

عليك سماء دوننا تمطر الردى ** وسوره طب لم تقلم مخالبه (34)**

حدث تحويل بتقديم الخبر شبه الجملة (عليك) على المبتدأ (سماء) ،بتحويل اختياري والترتيب الأصلي قبل التحويل هو : (سماء عليك دوننا) والتركيب الباطني لهذا التركيب التحويلي يتمثل في : (سماء على الحاسد تمطر السماء الردى) ،حيث نلاحظ أن الاسم المجرور (الحاسد) والفاعل (السماء) موجودان في البنية العميقة للشاعر واستبدلهما بضميرين متصلين في البنية السطحية للإيجاز ،فالجملة النواة هي : (سماء على الحاسد أو العدو) تتألف من المبتدأ والخبر وقد مرت الجملة النواة بعدة تحويلات حتى صارت بنية سطحية وهي:

1-حذف الاسم المجرور واستبداله بضمير المخاطب الدال عليه بتحويل اختياري:

ج ←——— **سماء عليك**

2-تقديم الخبر على المبتدأ بتحويل اختياري:

ج ←——— **عليك سماء**

3- زيادة المركب الفعلي إلى التركيب الاسمي بتحويل اختياري والركن الحرفي:

ج ←——— **عليك سماء دوننا تمطر الرُّدى**

فالمعنى الذي جسده الشاعر في هذا التركيب الناتج المأخوذ من قصيدة طويلة يتغزل في مطلعها (بسعدى) ثم يفخر على أعدائه بأحد الملوك بهذا البيت والذي يقول له: "أنك كالسماء تمطر الغيث النافع،وتمطر مطر السوء فأمطر على غيرنا الردى وهذا إغراء بحاسده، و(السورة) هي الشدة، وقوله: (طب) لم يظهر له معنى، فهو تحريف لعله (ليث) بقرينة قوله : لم تقلم مخالبه؛ أي: أنت كالليث في السورة." فنلاحظ أن اللتركيب الاسمي الناتج صحيح من الناحية النحوية في اللغة العربية ،لكن هل هو مقبول من حيث الصحة الدلالية؟ وهل السماء تمطر الموت (الرُّدى) ؟ معروف أن للشعر في اللغة العربية ميزة خاصة وهي قيامه على الصور البيانية والمحسنات البديعية وهذا ما يفسر صحة التركيب من حيث المعنى على سبيل المجاز.

كما نجد في شعر (بشار) التحويل بتقديم خبر (كان) على اسمها ،من ذلك قوله في النسيب (بعبده) من بحر الخفيف:

لم يكن لي رب سوى الله يا عبد * فما لي اتخذت وجهك ربا (35)**

الشاهد هو التركيب الفعلي التحويلي في صدر البيت والجملة النواة لهذا التركيب السطحي هي : (لبشار رب) وقد مرت بالتحويلات الاختيارية الوظيفية الآتية:

1-زيادة الفعل الناقص (كان) بتحويل اختياري وظيفي:

ج ←——— **يكن لي رب**

2-زيادة حرف الجزم (لم) بتحويل اختياري :

ج ←——— لم يكن رب لي

3-تقديم خبر (كان) على اسمها بتحويل اختياري:

ج ←——— لم يكن لي رب سوى الله يا عبد

ج-تقديم المفعول به على الفاعل:

الأصل في التراكيب النحوية هو أن يتقدم الفاعل على المفعول به، لكن يجوز تقديم المفعول به على الفاعل عند أمن اللبس ،حيث يقول (سيبويه) في هذا الصدد: "فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول وذلك قولك : ضرب زيد عبد الله لأنك إنما أردت به مقدما و لم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخرا في اللفظ وهو عربي جيد كثيرا." (36)

يتضح من قوله ،أن تقديم المفعول وتأخير الفاعل لا يؤثر في موقعهما ودورهما الوظيفي ؛لأنه تقديم على نية التأخير حيث يقول (ابن جني) في هذا المعنى: "اعلم أن الفاعل رتبته التقدم والمفعول رتبته التأخر فقد وقع كل منهما الموقع الذي هو أولى به فليس لك أن تعتقد في الفاعل وقد وقع مقدما أن موضعه التأخير". (37)

يرى (ابن جني) أن الأصل في رتبة الفاعل هو أن يتقدم على المفعول به ؛لأن كل من الفاعل والمفعول به وقع في الموقع الذي يناسب وظيفته النحوية "فإذا كان الفعل لازم اكتفى بالفاعل أما إذا كان متعديا فإن الفاعل يتوسط بين الفعل والمفعول والإخلال بهذا التركيب يكون لغرض يقصده المتكلم. "(38).

وقد ورد هذا النوع من التحويل في قول (بشار) في الغزل بحبيبته (حبابه) من بحر الخفيف:

منع النوم طارق من حبابه ** وهموم تجول تحت الرهابة.** (39)

قدم الشاعر في التركيب الفعلي التحويلي المفعول به (النوم) على الفاعل (طارق) جوازا والترتيب الأصلي للوحدات اللغوية هو: (منع طارق النوم من حبابه)، والجمة النواة: (منع طارق النوم) فهي من نمط : (فعل + فاعل+ مفعول به)، وقد مرت بمراحل تحويلية إلى أن وصلت إلى بنيتها السطحية التي تمثل الدليل النظمي المرئي كنتاج للعمليات الممثلة في الدليل التحويلي." (40) وتتمثل التحويلات في:

1-تقديم المفعول به على الفاعل بتحويل اختياري:

ج ←——— منع النوم طارق

2- زيادة شبه الجملة بتحويل اختياري:

ج ←——— منع النوم طارق من حبابه

ويتميز الفعل (منع) بسمات نحوية ودلالية تتمثل في :

فعل ——— [فعل + فاعل = [مجرد] + مفعول = [حي]]

منع ——— [فعل + مركب فعلي + مركب حرفي]

= [فعل + فاعل (-مجرد + حي) + [مفعول به]]

= [+ فاعل انسان – مفعول متحرك]

وتتبين مكونات التركيب الفعلي التحويلي السابق من خلال المخطط الآتي:

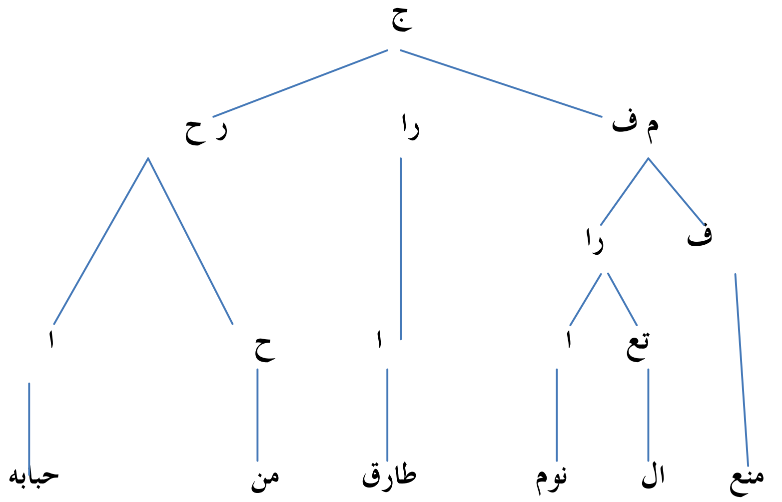

نلاحظ أن التركيب الناتج صحيح نحويا ومقبول دلاليا.

2-التحويل بالحذف:

أدرك النحاة العرب ظاهرة الحذف في اللغة العربية وحاولوا الوقوف على أسبابها وقدح نبه (سيبويه) إلى وقوع الحذف قائلا: "واعلم أنهم مما يحذفون الكلم إن كان أصله في الكلام غير ذلك ويحذفون ويعوضون فمما حذف وأصله في الكلام غير ذلك: لم يك ، ولا أدر وأشباه ذلك ." [41]

فهو يشير إلى كيفية الوصول أو التعرف على العنصر اللغوي المحذوف من الكلام وقد وقف النحو التحويلي على هذه الظاهرة النحوية الدلالية، ويقوم الحذف عنده على "إسقاط عنصر من جملة النواة. [42]

"وذكر التحويليون أن بالإمكان حذف أحد عناصر الجملة لوجود دليل يدل عليه أي ما يحذف لقرينة[43] ومثال ذلك: 'بيل لم يستطع أن يسمعك ولكنني استطعت أن أسمعك.) [44]

(bill couldn't learn you, but i could learn you)

"فيمكن أن نحذف عبارة (يسمعك - learn you) من الجملة الثانية لتصبح : (بل لم يستطع أن يسمعك، ولكنني استطعت) bill couldn't learn you, but i could ________

فحذف الفعل (يسمع – learn) للقرينة وهي دلالة ما قبله عليه. " [45]

كما يرى (ابن جني) أن الحذف يعتري الجملة والمفرد والحرف والحركة وليس شيء من ذلك إلا عن دليل يدل عليه."[46]

و "أن المحذوف إذ دلت الدلالة عليه وكان في حكم الملفوظ به إلا أن يعترض هناك من صناعة اللفظ ما يمنع منه." [47]

يفهم من قوله، أن كل تقدير لمحذوف يقتضيه المعنى ولا يتناقض مع قواعد النحو العربي، فهو الموجود في أصل التركيب قبل أن يحذف ويقع الحذف لوجود قرينة دالة على تعيين المحذوف،" وهذه القرينة قد تكون لفظية كما إذ قال شخص :من ضرب ؟ فتقول : زيدا، وقد تكون حالية كما قد رأيت شخصا في يده خشبة قاصدا لضرب شخص فتقول : زيدا." [48] فالحذف في اللغة العربية لا يحدث إلا إذا وجد في سياق الكلام أو التركيب ما يدل على الكلمة المحذوفة وقد فرق بعض النحاة العرب بين الحذف

والإضمار ومنهم من جعلهما متساويين في الدلالة مثل (سيبويه) و(ابن جني) ،حيث يقول (سيبويه):" واعلم أنه ليس كل حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل، ولكنك تضمر بعض ماأضمرت العرب من الحروف والمواضيع وتظهر ما أظهروا" (49)

انطلاقا من قول (سيبويه) نجده يردف بين مصطلحي الحذف والإضمار، في حين نجد أن النحويين قد فرقوا بينهما في مسألة إضمار الفاعل "فالفاعل وما قام مقامه يضمر كما يظهر" (50)

لذلك نقول الفاعل مضمر ولا نقول محذوف"، وقد ورد التحويل بالحذف في شعر (بشار) كثيرا ،نذكر من ذلك: أ-

حذف الفعل:

معروف أن الفعل هو الركن الأساسي في التركيب الفعلي ويقوم عليه معناه ،لذلك إذا تأملنا هذا العنوان قد نتساءل بقولنا: هل الفعل يحذف؟ وكيف يستغنى عنه وهو العمدة في التركيب الفعلي ؟ وهل الفعل يحذف أم يضمر؟

أجاز النحويون حذف الفعل كما أوجبوا حذفه حيث يقول (ابن جني) في هذا الصدد: "حذف الفعل على ضربين: أحدهما أن يحذف والفاعل فيه فإذا وقع فهو حذف جملة والآخر أن تحذف الفعل وحده وذلك أن يكون الفاعل مفصولا مرفوعا به. " (51) فالفعل قد يحذف وحده في التركيب وقد يحذف مع فاعله إذا كان متصلا به غير مفصول عنه، كما ذهب (الصاحب حماة) (ت 732ه) إلى أن : " حذف الفعل جائز وواجب فالواجب قولك زيدا في جواب : من قام؟ وكذلك يحذف الفعل جوازا فأنت مخير في ذلك إن شئت حذفت الفعل لدلالة القرينة عليه وإن شئت أظهرته لزيادة البيان. " (52)

فالفعل يحذف وجوبا في الجواب عن الاستفهام ويحذف جوازا إذا دلت عليه قرينة معنوية أو حالية. ونظير هذا الضرب من التحويل قول الشاعر في مدح (يزيد بن عمر) من البحر السريع:

إن تذهب الدار وسكانها ** فإن ما في القلب لم يذهب** (53)

الشاهد في التركيب الفعلي التحويلي، هو حذف الفعل جوازا في قوله: (وسكانها) لوجود قرينة لفظية دالة على المحذوف، وهي الفعل يذهب في التركيب الأول؛ لأن التركيبين معطوفان على بعضهما لذلك استغنى الشاعر عن تكرار الفعل وتقدير الكلام هو:(إن تذهب الدار ويذهب سكانها) حيث نلاحظ أن الفعل حذف لوحده لأن الفاعل موجود وهو اسم ظاهر مرفوع —الدار- مفصول عن فعله والبنية العميقة للتركيب السطحي (إن تذهب الدار ويذهب سكان الدار) ، فهي لا تختلف عن البنية السطحية من حيث المعنى ، لكن تختلف عن الجملة النواة وهي: (يذهب سكان الدار) ؛لأنها خالية من معنى الشرط وهي جملة بسيطة مثبتة أما مجموعة التحويلات الاختيارية التي تمت في الجملة النواة حتى صارت تركيبا ظاهريا فهي:

1-حذف الفعل جوازا من التركيب بتحويل اختياري:

ج ⟵ **سكان الدار**

2-استبدال المضاف إليه بضمير دال عليه بتحويل اختياري:

ج ⟵ **سكانها**

3- زيادة المركب الفعلي من حرف الشرط وفعل الشرط بتحويل اختياري:

ج ⟵ **إن تذهب سكانها**

4-زيادة الفاعل إلى المركب الفعلي بتحويل اختياري وحرف (الواو) للربط بين التركيبين:

ج ⟵ **إن تذهب الدار وسكانها**

ب-حذف الفاعل:

ذكر التحويليون إمكانية حذف الفاعل مع الفعل المساعد في اللغة الإنجليزية وذلك في الجمل الأمرية ومثال ذلك "ضرب الكرة" ———— kick the ball

وأصل هذه الجملة : (أنت ستضرب الكرة) you will kick the ball " .(54)

نلاحظ أن صيغة الأمر أدت إلى حذف الفاعل وجوبا حيث يقول (سيبويه) في هذا الصدد: "فأما بناء ما مضى فذهب وسمع ومكث وحمد وأما بناء ما لم يقع فإنه قولك : اذهب ، واقتل ، واضرب" (55) فهذه إشارة من (سيبويه) إلى فعل الأمر الذي يكون الفعل فيه ضميرا مستترا وجوبا ويرى (ابن يعيش) أن الفاعل يضمر ولا يحذف حيث يقول في فصل الفاعل المضمر:"ومضمره في الإسناد كمظهره ، تقول : ضربت وضربنا وتقول : زيد ضرب فتنوي الضرب فاعلا وهو ضمير يرجع إلى زيد...." (56)

فبما أن معنى الفاعل موجود في أصل التركيب ودائما نقدره بضمير مستتر إما جوازا وإما وجوبا ،فهذا يعني أن الفاعل مضمر وليس محذوفا، وجاء هذا اللون من التحويل في مدح الشاعر (لمروان بن محمد) من بحر الطويل:

ونالت فلسطينا فعرد جمعها ** عن العارض المستن بالموت حاصبه.** (57)

حذف الفاعل في التركيب الفعلي التحويلي جوازا والتقدير :(ونالت الخيل فلسطينا) وقد دل عليه السياق لأن معنى البيت هو أن "الخيل وصلت إلى فلسطين وعرد جمعها ؛ أي : هرب من كثرة الرمايات التي نزلت على رؤوسهم كالبرد والعارض هو : السحاب ، والمستن : المنصب، والحاصب: الرامي يمثل الحصى، أي : برد" (58) هذا ما دل على أن العنصر اللغوي المحذوف هو الفاعل : (الخيل) والموجود في البنية العميقة (ونالت الخيل فلسطينا فعرد جمع الخيل) والجملة النواة هي: (نالت فلسطينا) ، ونجمل التحويلات التي مرت بها في الآتي:

1-حذف الفاعل من التركيب بتحويل اختياري لدلالة السياقة عليه:

ج ←——— **نالت فلسطينا**

2-زيادة المركب الفعلي إلى التركيب بتحويل اختياري:

ج — ←——— **نالت فلسطينا فعرد**

3-زيادة المركب الاسمي، بتحويل اختياري.

ج — ←——— **نالت فلسطينا فعرد جمع الخيل**

4- استبدال المضاف إليه بضمير متصل دال عليه بتحويل اختياري:

ج ←——— **نالت فلسطينا فعرد جمعها**

يتضح لنا أن التركيب الناتج صحيح نحويا، كما أنه مقبول من الناحية الدلالية رغم أن الفاعل يعد ركنا أساسيا في الجملة إلا أن حذفه لم يفسد المعنى المراد و لم يخل بالصحة النحوية.

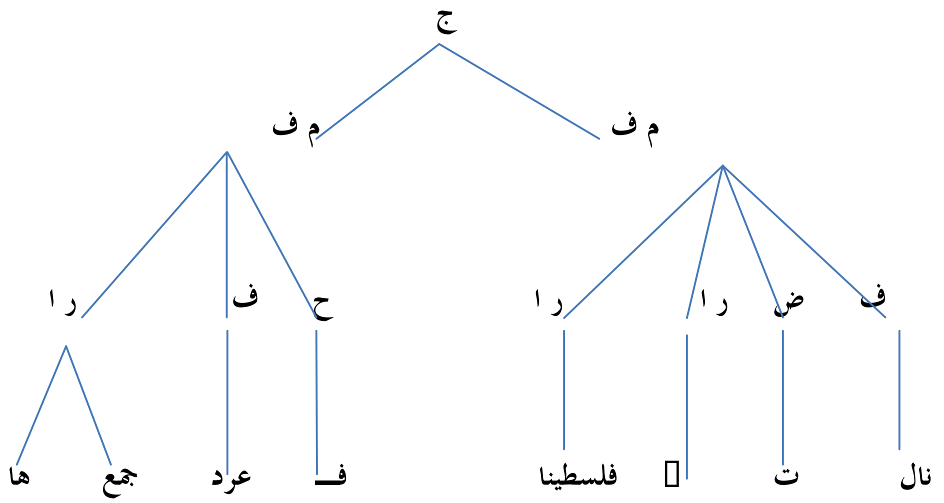

3-التحويل بالزيادة :

الزيادة "هي عملية تركيبية أساسية ضمن النحو التحويلي ، إذ يقدم فيها عنصر تركيبي ضمن السلسلة الجميلة" [59] ‘فالنظرية التوليدية التحويلية، تعد الزيادة عنصر من عناصر التحويل و تعني إضافة كلمات مختلفة إلى الجملة النواة ، لتعديل التركيب السطحي "فالزيادة تدخل ضمن المنهج التحويلي الذي يغير الجمل المولدة من المكون الأساسي من حالة إلى أخرى بزيادة أدوات وصيغ." [60] وقد تطرق علماء النحو إلى هذه الظاهرة التحويلية،حيث يقول (ابن فارس) (ت 395ه) "زيادة الحروف من سنن العرب" [61]·ومن أمثلة الزيادة :

أ/**زيادة الفعل الماضي (كان)** الذي ينقل زمن الجملة إلى الماضي وقد أشار (سيبويه) إلى هذا النوع من الزيادة ، بقوله : "تقول : كان عبد الله أخاك ، فإنما أردت أن تخبر عن الأخوة و أدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى" [62]· وقد أشار التحويليون إلى وجود بعض الزيادات في اللغة الإنجليزية تقوم بنقل دلالة الجملة من زمن معين إلى زمن آخر" [63] و من هذه الزيادات إقحام الفعل المساعد (Did) بين الفاعل و الفعل الأصلي في الجملة ، أو بإقحام ما يسمى بالزيادة المعجمية وهي (ed) إلى نهاية الفعل الأصلي"[64] ، و مثال ذلك : (الرجل عزف على البيانو).

(The man did play on piano)

فنلاحظ أن الزيادة المعجمية في نهاية الفعل قد نقلت المعنى من زمن إلى زمن آخر و هو الماضي أما إذا تم إدخال الفعال المساعد (Did) قبل الفعل الأصلي نحصل على وظيفتين في آن واحد الأولى وظيفة معنوية و الثانية وظيفة زمنية" [65]، ومن التحويل بزيادة (كان) في شعر (بشار) ، قوله في (عبده) من بحر (الطويل) :

فلو كان لي ذنب إليها عذرتها　　　بهجري و لكن قل في حبها ذنبي [66]

نلاحظ في صدر البيت حدوث تحويل بزيادة الفعل الناقص (كان) للدلالة على زمن الماضي والأصل في التركيب : (لولي ذنب إليها عذرتها) ، والجملة النواة : (ذنب لبشار) ، تتألف من مبتدأ و خبر – شبه جملة – و قد مرت بالتحويلات الآتية:

1-زيادة الفعل الناقص (كان) و حرف الشرط (لو) بتحويل اختياري وظيفي :

ج ←—— **لو كان ذنب لي** .

2- تقديم الخبر على المبتدأ ، لوقوعه شبه جملة بتحويل اختياري :

ج ← **لو كان لي ذنب**

3-زيادة الركن الحرفي ، بتحويل اختياري :

ج ← **لو كان لي ذنب إلى عبده**

4-استبدال الاسم المجرور (عبده) بضمير الغائب الدال عليه ، بتحويل اختياري :

ج ← **لو كان لي ذنب إليها**

5-زيادة الركن الفعلي ، بتحويل اختياري :

ج ← **لو كان لي ذنب إليها عذرت عبده**

6-استبدال المفعول به ، بضمير متصل ، لعدم تكراره ، بتحويل اختياري :

ج ← **لو كان لي ذنب إليها عذرتها**

وقد أفادت (كان) في التركيب الناتج معنى، وهو أن للشاعر ذنب له حصول في زمن الماضي حيث نلاحظ أن التركيب التحويلي الظاهر ، صحيح نحويا ؛ لأن الشاعر وافق القاعدة النحوية ، فقدم خبر (كان) على اسمها، لمجيء المبتدأ نكرة ووقوع الخبر شبه جملة ، كما أن التركيب الناتج مقبول دلاليا لتضمنه معنى تام يحسن السكوت عليه ، لكن يتبين لنا أن زيادة الفعل (كان) في اللغة العربية يختلف عنه في اللغة الإنجليزية ؛لأن حذف (كان) يؤثر في معنى الجملة العربية.

ب/-زيادة الهمزة (أ) :

زيادة حروف الاستفهام يعد من عناصر التحويل، و معنى الاستفهام يتضح من السياق و ليس شرطا أن تضاف حروفه ، و التي حددها (ابن يعيش) في قوله: "حرفا الاستفهام هما : الهمزة و هل ، في نحو قولك : "أزيد قائم" ؟ ، هل عمرو خارج ؟ ، والهمزة أعم تصرفا في بابها من أختها" [67] وقد ذكر (تشو مسكي) أسلوب الاستفهام ، حيث يقول بعد أن يحلل بعض الأمثلة في اللغة الانجليزية : "..... و بعد هذه الزيادات نحصل على جملة ذات دلالة جديدة." [68]

فالاستفهام "مصطلح يستخدم في تصنيف وظائف الجملة ، و يستخدم للحصول على معلومات أو إجابة و يعرف مرة على أساس تركيبي نحوي، و مرة على أساس دلالي أو على أساس علم اللغة الاجتماعية" [69] ،والاستفهام عند التحويليين يتم بإدخال إحدى أدوات الاستفهام على الجملة التوليدية لتتحول إلى جملة استفهامية" [70]، وعلى سبيل المثال في اللغة الإنجليزية نقول : (من أين نشتري اللحم؟)

where do we by meat ?

فزيدت الأداة where على الجملة المولدة التي هي:

we buy meat at a butchers shop

(نحن نشتري اللحم من محل القصابة) [71]

يتضح من هذه الأمثلة، أن غرض (تشو مسكي) من إضافة حروف الاستفهام، هو الحصول على جملة جديدة تحمل معنى الاستفهام، و في النحو التحويلي يوجد نوعان من الأسئلة: "يسمى النوع الأول بأسئلة الإيجاب و النفي، وهي التي يجاب عنها بنعم أو لا، و أسئلة العموم، و هي من نوع: كيف، لماذا، متى ...."[72]

ومن أمثلة التحويل بزيادة حرف الاستفهام (الهمزة)، قول (بشار) في الغزل بحبابه من بحر (الخفيف):

أتظهر رهبة و تسر رغبا ** لقد عذبتني رغبا و رهبا (73)

صدر البيت يمثل تركيب فعلي تحويلي ، بزيادة الاستفهام الهمزة لإفادة معنى الاستفهام، والجملة النواة هي: (تظهر حبابه رهبة ، تسر حبابه رغبا) ؛لأن قول الشاعر يعود في الأصل إلى جملة مركبة تتألف من هاتين الجملتين البسيطتين من نمط : (فعل + فاعل + مفعول به)، وقد دخلت على الجملة النواة التحويلات الآتية:

1-زيادة حرف الاستفهام (الهمزة) ، ليتحول التركيب إلى معنى الاستفهام ، بتحويل اختياري:

ج ← **أتظهر حبابه رهبة تسر حبابه رغبا ؟**

2-زيادة حرف (الواو) للربط بين التركيبين ، بتحويل اختياري :

ج ← **أتظهر حبابه رعبة و تسر حبي رغبا ؟**

3-حذف الفاعل لدلالة السياق عليه ، بتحويل إجباري :

ج ← **أتظهر رهبة و تسر رغبا؟.**

دلالة رموز النظرية التوليدية التحويلية المستخدمة في البحث (74):

الرمز	دلالته
ر ا	ركن اسمي
م ف	مركب فعلي
ر ف	ركن فعلي
ر ح	ركن حرفي
ج	جملة
ح	حرف
ف	فعل
ض	ضمير
ا	اسم
ز	زمن
←	يتحول إلى
□	عنصر لغوي محذوف من الجملة
تع	تعريف

خاتمة:

من خلال هذه اللمحة الموجزة لتطبيق بعض القواعد التحويلية على أبيات مختارة من ديوان (بشار بن برد) ،خلص البحث إلى النتائج الآتية :

1-وجود ضرب من العلاقة بين البنية العميقة والبنية السطحية، لكن في المقابل يصعب الوصول إلى البنية العميقة الدلالية الموجودة في ذهن المتكلم.

2-يوضح تطبيق قواعد التحويل على التراكيب قدرة المتكلم على إنتاج عدد لا نهائي من الجمل الجديدة وفهمها .

3-تعد القواعد التحويلية الجملة أنها مشتقة من تحويل التركيب في البنية السطحية.

4-من خلال عرض القواعد النحوية عند النحاة العرب القدامى اتضح أن جميع عناصر النظرية التوليدية التحويلية من زيادة وحذف وتقديم وتأخير، قد تطرقوا إليها بشكل علمي ودقيق.

5-يقع الحذف في النحو التحويلي إذا كان العنصر اللغوي المحذوف مكرر في الجملة، أما في النحو العربي، فإنه يشترط وجود قرينة دالة على المحذوف في التركيب؛ لأن العنصر المحذوف تدل عليه قرائن نحوية أو معنوية أو حالية .

6-نخلص إلى أن النظرية التوليدية التحويلية وضعت من أجل لغة انجليزية مطابقة لقواعدها النحوية، ويجوز تطبيق بعض قواعدها التحويلية على اللغة العربية لكن في حدود القواعد النحوية التي وضعا النحويون العرب، وهذا ما يؤكد استقلالية كل لغة عن غيرها من اللغات خاصة أن اللغة العربية هي لغة معربة تتميز بحركاتها الإعرابية التي تحكم قاعدة التحويل بالتقديم والتأخير.

7 -تقع التحويلات في اللغة العربية بشكل عفوي ،بخلاف النحو التحويلي الذي يقوم فيه التحويل على مجموعة من القوانين والقواعد التي تقترب من القوانين والرموز الرياضية .

هوامش البحث:

(1) الأصفهاني،أبو الفرج(356ه): الأغاني، تحقيق وإشراف لجنة من الادباء،دار الثقافة، بيروت- لبنان،،ط1، 1975م،ج3،ص129

(2) ديوان بشار بن برد،، جمعه وشرحه وكمله وعلق عليه: الطاهر بن عاشور،سحب الطباعة الشعبية للجيش،الجزائر،2007م ،ج1،ص 335،البيت(60)

(3) الأصفهاني: الأغاني،ج3 ص 136 139،138

(4) ديوان بشار بن برد ،ج4،ص158

(5) روبرت وانز:مقدمة في التطور اللغوي،ترجمة: مصطفى محمد قاسم، دار الفكر،عمان،الأردن،ط 2010،1م،ص71،110

(6) المصدر،نفسه،ص55

(7) بريجيته بارتشت: مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، ترجمة:سعد حسن بحيري،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،مصر الجديدة،ط2004،1م،ص376

(8) روبرت وانز: مقدمة في التطور اللغوي،ص55

(9) جورج يول: معرفة اللغة، ترجمة:محمود فراح عبد الحافظ،دار الوفاء للنشر،الإسكندرية،ط20001م،ص114

(10) تشومسكي: جوانب من نظرية النحو،ترجمة: مرتضى جواد باقر، مطبعة جامعة الموصل،1985م،ص41

(11) جورج يول: معرفة اللغة،ترجمة: محمود فراح عبد الحافظ،ص114

(12) تشومسكي: جوانب من نظرية النحو،ترجمة:مرتضى جواد باقر،ص34

(13) ميلكاإفيتش: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، المجلس الأعلى للثقافة،ط20002م،ص201

(14) شفيقة العلوي: نظرية تشومسكي في العامل والأثر-محاولة سبرها منهجا وتطبيقا،أطروحة دكتوراه،جامعة الجزائر،2002م، نقلا عن: عبد الرحمان الحاج صالح،المدرسة الخليلية الحديثة ومشاكل علاج العربية بالحاسوب،ص212

(15) ميلكاإفيتش:اتجاهات البحث اللساني،ص379

(16) المصدر،نفسه،ص382،381

(17) جون ليونز : اللغة واللغويات، ترجمة: محمد العناني، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان،الأردن،ط2009،1،ص201

(18) تشومسكي: البنى النحوية، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مجيد الماشطة، دار الشؤون الثقافية للنشر، بغداد، العراق،ط1، ص83

(19) تشومسكي: جوانب من نظرية النحو، ص172

(20) تشومسكي: البنى النحوية،ص 96

(21) تشومسكي: المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة: محمد فتيح،دار الفكر العرب،القاهرة،ط1993،1، ص12

(22) سيبويه،أبو بشر عمر بن عثمان قنبر(180ه): الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،1988م،ج2 ،ص127

(23) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (285ه): المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب بيروت، لبنان،ج3،ص95

(24) ابن جني،أبو الفتح عثمان(392ه): الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية،1952م،ج1،ص35

(25) السيوطي،جلال الدين(911ه): الأشباه والنظائر في النحو، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق،1987،ج1،ص 35

(26) ابن السراج،أبو بكر محمد بن سهل السراج (316ه): الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مطبعة النعمان، 1973م،ج309،310،1

(27) سيبويه: الكتاب،ج1،ص23

(28) ابن السراج، الأصول في النحو،ج1،ص81

(29) أبو حيان الأندلسي: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق وشرح: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1988،1،ج2،ص979

(30) ديوان بشار بن برد،ج1،ص287، البيت (4)

(31) ابن يعيش،موفق الدين يعيش بن يعيش النحوي(643ه): شرح المفصل، قدم له إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان،ط20011،ج4،ص343

(32) ابن جني: الخصائص،ج2،ص382

(33) ديوان بشار بن برد،ج1،ص267،البيت(33)

(34) المرجع، نفسه،ينظر الهامش،ص267

(35) المرجع نفسه،ج1،ص392،البيت(13)

(36) سيبويه: الكتاب،ج1،ص34

(37) ابن جني: الخصائص،ج1،ص294،295

(38) الفراهيدي،الخليل بن أحمد: الجمل في النحو، تحقيق: فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت،شارع سوريا،ط1985،1،ص27

(39) ديوان بشار بن برد، ص219،البيت(1)

(40) تشومسكي: جوانب من نظرية النحو،ص169

(41) سيبويه: الكتاب،ج1،ص24،25

(42) تشومسكي: البنى النحوية،ص117

(43) جابر عبد الأمير جبار التميمي: جذور النظرية التوليدية التحويلية في كتاب سيبويه، رسالة ماجستير، جامعة بغداد(1424ه-2003م)،نقلا عن:A INTRODUCTORY TRANSFORMATIONAL GRAMMAR،P60

(44) المرجع، نفسه،نقلا على المصدر نفسه،P60

(45) المرجع نفسه،ص135

(46) ابن جني: الخصائص،ج1،ص360

(47) المصدر نفسه،ج1،ص284

(48) الاسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن(686ه): شرح الرضي على الكافية، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان، ج1،ص129

(49) سيبويه: الكتاب،ج1،ص265،266

(50) ابن السراج: الأصول في النحو،ج1،ص91

(51) ابن جني: الخصائص،ج2،ص369،370

(52) الصاحب حماة،حماد الدين أبي الفدا اسماعيل بن الأفضل الأيوبي (732ه): الكناش في فني النحو والصرف دراسة وتحقيق: رياض بن حسن الخوام، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،2000م،ج1،ص136

(53) ديوان بشار بن برد،ص170،البيت(11)

(54) جابر عبد الأمير بن جبار التميمي: جذور النظرية التوليدية التحويلية في كتاب سيبويه، نقلا عن: Adictionary of linguistics and phonetics 4th، p108

(55) سيبويه: الكتاب، ج1،ص12

(56) ابن يعيش: شرح المفصل، ج1،ص204

(57) ديوان بشار بن برد، ج1،ص337،البيت(70)

(58) ينظر: المرجع نفسه، الهامش،ص337

(59) جابر عبد الأمير جبار التميمي:جذور النظرية التوليدية التحويلية في كتاب سيبويه، ص87،نقلا عن: Adictionary of linguistics and phonetics4th،p108

(60) المرجع نفسه، نقلا عن: نوازد حسن أحمد حسن،المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، رسالة دكتوراه،جامعة بغداد،ص227

(61) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس(395ه): الصاحبي في فقه اللغة وسننالعرب في كلامها، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت،لبنان،1964 م،ص99

(62) سيبويه: الكتاب، ج1،ص45

(63) جابر عبد الجبار التميمي: جذور النظرية التوليدة التحويلية في كتاب سيبويه،ص101، نقلا عن: Psycholinguistis Introductory Prespetives،P28

(64) المرجع نفسه،ص 102 نقلا عن:Adictionary of linguistics and phonetics 4th edition،p188

(65) المرجع،نفسه ،ص101 ،نقلا عن: Psycholinguistics Introductory Prespetives ،P28

(66) ديوان بشار بن برد، ج1،ص216،البيت(16)

(67) ابن يعيش: شرح المفصل، ج5،ص99

(68) تشومسكي: البنى النحوية،ص85،96

(69) جابر عبد الأمير جبار التميمي: جذور النظرية التوليدية التحويلية في كتاب سيبويه،ص96، نقلا عن: Adictionary of linguistics and phonetics 4th edition،p319

(70) المرجع، نفسه،ص96،97، نقلا عن المصدر نفسه،P319

(71) المرجع نفسه، نقلا عن: English in Asimplified ،P29

(72) تشومسكي: البنى النحوية،ص119

(73) ديوان بشار بن برد،ص191، البيت(13)

(74) جدول يوضح دلالة رموز النظرية التوليدية التحويلية المستخدمة في البحث.

قائمة المصادر والمراجع:

(1) أبو بشر عمر بن عثمان قنبر، سيبويه(180ه): الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة،1988م.

(2) أبو بكر محمد بن سهل السراج ، ابن السراج(316ه): الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، مطبعة النعمان، 1973م.

(3) بريجيته بارتشت: مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي، ترجمة:سعد حسن بحيري،مؤسسة المختار للنشر والتوزيع،مصر الجديدة،ط1،2004 م.

(4) تشومسكي: البنى النحوية، ترجمة: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة مجيد الماشطة، دار الشؤون الثقافية للنشر، بغداد، العراق،ط1.

(5) تشومسكي: جوانب من نظرية النحو،ترجمة: مرتضى جواد باقر، مطبعة جامعة الموصل،1985م.

(6) تشومسكي: المعرفة اللغوية، طبيعتها وأصولها واستخدامها، ترجمة: محمد فتيح،دار الفكر العرب،القاهرة،ط19991 م

(7) جابر عبد الأمير جبار التميمي: جذور النظرية التوليدية التحويلية في كتاب سيبويه، رسالة ماجستير، جامعة بغداد(1424ه- 2003م)، منشورة(word)

(8) جورج يول: معرفة اللغة، ترجمة:محمود فراح عبد الحافظ،دار الوفاء للنشر،الإسكندرية،ط20001م.

(9) جلال الدين السيوطي (911ه): الأشباه والنظائر في النحو، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق،1987م.

(10) جون ليونز : اللغة واللغويات، ترجمة: محمد العناني، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان،الأردن،ط،2009م.

(11) موفق الدين يعيش ابن يعيش النحوي(643ه): شرح المفصل، قدم له إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان ط1، 2001م

(12) ميلكاإفيتش: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، المجلس الأعلى للثقافة،ط 2، 2000 م.

(13) أبو الحسن أحمد ابن فارس (395ه): الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، تحقيق: مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران، بيروت،لبنان،1964 م.

(14) حماد الدين أبي الفدا اسماعيل بن الأفضل الأيوبي الصاحب حماة (732ه): الكناش في فني النحو والصرف دراسة وتحقيق: رياض بن حسن الخوام، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،2000م.

(15) أبو حيان الأندلسي: ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق وشرح: رجب عثمان محمد، مراجعة: رمضان عبد التواب، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط19881م،

(16) الخليل بن أحمد الفراهيدي: الجمل في النحو، تحقيق: فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت،شارع سوريا،ط1985،1م.

(17) رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي (686ه): شرح الرضي على الكافية، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان الاستراباذي، ج1.

(18) روبرت وانز:مقدمة في التطور اللغوي،ترجمة: مصطفى محمد قاسم، دار الفكر،عمان،الأردن،ط1 2010م.

(19) شفيقة العلوي: نظرية تشومسكي في العامل والأثر-محاولة سبرها منهجا وتطبيقا-،أطروحة دكتوراه،جامعة الجزائر،2002م،منشورة.

(20) الطاهر بن عاشور: ديوان بشار بن برد، جمعه وشرحه وكمله وعلق عليه: ،سحب الطباعة الشعبية للجيش،الجزائر،2007م.

(21) أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (285ه): المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب بيروت

(22) أبو الفتح عثمان ابن جني (392ه): الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية،1952م.

(23) أبو الفرج الأصفهاني (356ه): الأغاني، تحقيق وإشراف لجنة من الادباء،دار الثقافة، بيروت- لبنان،،ط1 1975م.

(24) ابن يعيش،موفق الدين يعيش بن يعيش النحوي(643ه): شرح المفصل، قدم له إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان ط1 ،2001م.

(25) ميلكاإفيتش: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، طبع الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، المجلس الأعلى للثقافة ط2 ،2000 م.

خصائص أسلوب الطلب في الشعر التحرري الجزائري

Style Properties In Demand Poet Of Algerian Liberation

الدكتور: خميس رضا
جامعة أحمد بن بلة–وهران–

الملخص بالعربية:

الأسلوب نوعان: خبر و إنشاء.و الإنشاء بدوره نوعان: طلبي و غير طلبي، أما الطلبي – و هو موضوع دراستنا– فهو :" ما يستدعي مطلوبا غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب"، و له صور و وظائف عديدة تختلف باختلاف نوع الجملة ودلالتها.

و قد شكل الطلب في الخطاب الشعري التحرري الجزائري أسلوبا مهيمنا و ظاهرة ملفتة للانتباه و النظر , و من هنا بدت على قصائد شعرائهم خصائص الخطابة، إذ وردت الجملة الطلبية مرات عديدة و توزعت بنيويا بحسب الخصائص الوظيفية لكل نوع و علاقته بنماذج الرؤية الشعرية و أبعادها الدلالية ممثلة في: الأمر، النهي، الاستفهام، التمني و النداء. وقد حملت هذه الأساليب دلالات و معاني أدت دورها في شد انتباه المتلقي و جعله أكثر تفاعلا و التصاقا بأهداف الطرح الشعري من منظور الرؤية الشعبية و واقعها المعيش.

كما شكل التنوع في أساليب الطلب معينا يتدفق منه النفس الشعري المستوحى من المعادلة الوطنية التحررية التي يفيض بها الوجدان الشاعري الملتهب.

الكلمات المفتاحية: الأمر، النهي، الاستفهام، التمني و النداء،الأسلوب،السياق الشعري, الانتباه،التركيب،الدلالة،الخصائص الوظيفية, الوجدان الشاعري.

****

Summary :

Two method: the news and turn Anchae.o construction of two types: my request and my request is, but Tlba - and is the subject of Drastna- is: '' What calls required is happening in demand as a speaker belief '', and his pictures and numerous functions vary depending on the type of Wholesale and significance.

And demand in the discourse of poetic liberation of Algeria may form a way dominant and attention-grabbing phenomenon of view, and from here seemed poems poets rhetoric characteristics, as set out wholesale order many times and distributed structurally according to the functional characteristics of each type and its relationship models poetic vision and dimensions Remember represented in: the command, forbidding, question, wishful thinking, and appeal. These methods have been carried connotations and meanings of the leading role in pulling the attention of the recipient and make it more interactive and closest to the objectives of the subtraction of popular poetic vision and perspective of reality Living. The diversity in the form of a certain demand flowing from the poetic soul, inspired by the liberal National equation that overflows with poetic conscience inflamed methods.

Keywords: Order, prohibiting, question, wishful thinking and appeal, style, poetic context; Please note that the structure, semantics و The functional characteristics, poetic consciousness.

****

الأسلوب خبر و إنشاء.و الإنشاء نوعان: طلبي و غير طلبي، فالطلبي و هو موضوع دراستنا:" ما يستدعي مطلوبا غير حاصل في اعتقاد المتكلم وقت الطلب[1]"، و له صور عديدة تختلف باختلاف نوع الجملة ودلالتها, وهي: الأمر، النهي، الاستفهام، التمني و النداء.

و قد مثل أسلوب الطلب في الخطاب الشعري التحرري الجزائري ظاهرة ملفتة للانتباه و النظر , و من هنا بدت على قصائد شعرائهم خصائص الخطابة[2]، حيث وردت الجملة الطلبية مرات عديدة و توزعت بنيويا بحسب خصائص كل نوع.

أ–الأمر: هو طلب القيام بفعل غير حاصل وقت الطلب[3], و يكون أصليا إذا كان من الأعلى إلى الأدنى، و قد يخرج عن حقيقته إلى معاني أخرى تستفاد من السياق.و يلاحظ أن بنية الأسلوب الطلبي من حيث الأمر لطالما تعددت و امتدت لتشمل العديد من الأبيات المتتالية، كما في قول الربيع بوشامة[4] :

فاسع للغابات سعيا دائمـــــا و أتم القصد من غير ونـــاء
واحذر الأعداء أو فتنة مـــــن يقصد التفريق أوبث العـــداء
و انزع الحرية العلـــيا و نل حق الاستقلال حينا و الجلاء
وأفد شعبا طال في التعذيب لم يبق من أرواحه غير الدماء
و أرح أكباده الرطبة مـــــن ذلة سببت كل شقــــــاء
و أعد في أرضه عهدا سمـــا من عهود النور عصر الخلفاء
وابتن الأمجاد فيها و العــــلا و قوي العز و أسرار البقـــاء
واحتمل من إخوة الصـــدق إذا ما نسوا أو أخطأوا دون رياء
و احتسب لله ما تنفقــــــــه من جهود سمحة أومن دمـــاء

اقترن أسلوب الأمر في السياق الشعري هنا بصيغة الفعل ممثلا في بنى عديدة هي: (أسع، أتم، احذر، انزع، أفد، أرح، أعد، ابتن، قوي، احتمل، احتسب), و أما زمنه فيدل على المستقبل القائم على التأمل في الخبر الملقى إلى المخاطب، ثم انه قد خرج عن معناه الأصلي و هو الإيجاب والإلزام ليقترن في السياق بمعنى النصح و الإرشاد, لأن الشاعر يدعو أبطال أمته من المجاهدين إلى الاستمرار في مسيرة النضال بقوة و عزيمة و ينصحهم بالحذر و الصبر حتى تحقيق الغاية المرجوة و هي الاستقلال.

و قد يقترن الأمر في السياق أيضا بمعنى التهديد الذي يستفاد من سياق الكلام والتعرف على الجو الشعوري المسيطر على القائل، كما في قول مفدي زكريا[5]:

هذه الجبال الشاهقات، شواهـــد سخرت بمن مسخ الحقائق وادعى
سل "جرجرا " تنبئك عن غضباتها واستفت " شليا" "لحظة" و "شلعلعا"
و اخشع بـــ "وارشنيس" أن ترابها ما انفك للجند المعطر مصرعا

فالشاعر يوجه تهديده و وعيده للطغاة المستعمرين بما سيحيق بهم من دمار جراء غضبات الجبال الممثلة لذروة الصراع بين أصحاب الحق وأهل الباطل.

و منه أيضا اقتران الأمر بمعنى الإعجاب كما في قول الشاعر أبي القاسم خمار[6]:

قف معي لحظة هنا يا أخيا انني قد رأيت أمرا خفيا.
في أعالي الجبال في أعمق الأعماق أبصرت شعبا يتهيا.
قف بنا يا أخي لقد أرسل الأوراس نورا مذهبا ودويا
فالزغاريد و النشيد و تغريد الأماني تصوغ لحنا شجيا
قف فإنني سمعت صوتا ينادي: ولد المجد داميا ثوريا.

فالشاعر يستوقف صديقا يتخيله و يدعوه إلى التأمل في بؤرة التعجب ممثلة في الجبال رمز الجهاد و المجد,إذ ينتشي الشعب في ثناياها بالتغريد والزغاريد المعبرة عن الاعتزاز بالكفاح و النضال الثوري الصامد.

ب-الـــنـــهـــي:

هو طلب الكف عن الشيء[7] بصيغة (لا تفعل), و منشئ النهي الحرف (لا) المقترن بفعل المضارع على وجه الاستعلاء مع الإلزام، و قد تخرج هذه الصيغة عن أصل معناها إلى معان أخر تستفاد من سياق الكلام و قرائن الأحوال،يقول الربيع بوشامة[8] :

لا تفزعنك موتة مكتوبة كلا, ولا سجن و بعد الدار
كل الرزايا هين إلا التي تأتي عقابا من يد الأقـــدار

1

يتبين لنا أنّ الشاعر ينصح صاحبه المجاهد و يرشده إلى رباطة الجأش في مواجهة مصيره سواء كان موتا أو سجنا, والاستهانة بالنفس و النفيس في سبيل قضيته المقدسة، و كل المصائب في سبيل الحق تهون إلا ما كان عقابا لنا من عند الإله.

و من النهي ما يحمل معنى الشكوى الالتماس , كما في قول مصطفى بن رحمون[9]:

لا تعذلوه فإن الفقر أضـــواه و الحظ عاكسه و الدهر عاداه
لا تنهروه ان استجدى أكفكم فالجوع آلمه و الصبر أعيـــاه

فالنهي هنا دال على معنى الشكوى و الالتماس (لا تعذلوه، لا تنهروه) المشحون بقوة الدلالة التي تزيد في ثبوت المعنى و تأثيره عبر الجمل التعليلية المعطوفة (فإن الفقر ... و الحظ... و الدهر...).

و من دلالات النهي السياقية ما ورد بمعنى التيئيس كما في قول محمد الأخضر السائحي مخاطبا فرنسا[10]:

و ثبنا فلا تطمعي في النجاة و ثرنا فلا تحلمي بالبقاء

يلاحظ أن الأسلوب ارتكزعلى التعليل بالروابط ,فنهى المستعمر عن الطمع في النجاة و الحلم بالبقاء على أرض الجزائر بسبب علة الوثوب والثورة التي قام بها الشعب الجزائري، و هذا يدل على أن الناظم قد تجاوز حدود الطلب و الامتناع إلى التعليل و التدليل.

ج-الإســـتـــفـــهـــام:

هو نظام لغوي يقوم على طلب الفهم [11] , و قد يخرج الاستفهام عن معناه الأصلي إلى معان بلاغية على سبيل المجاز تفهم من سياق الكلام. كما في قول مفدي زكريا[12]:

لاذ بالانتخاب (مولي) سفاها في بلاد تسيل فيها الدماء!
أي معنى لمجلس، دون حكم وطني، على يديه القضاء؟

الإستفهام هنا مجازي, المقصود به معنى الاستنكار. و هو كما يرى الجرجاني يكون "لتنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل و يرتدع، اما لأنه قد أدعى القدرة عل فعل لا يقدر عليه ... واما لأنه هم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله. فإذا روجع فيه وتنبه وعرف الخطأ، و إما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله[13]".

و الإنكار الوارد في البيت: "أي معنى لمجلس..." إنكار توبيخي, و يسمى أيضا " إنكار الواقع"[14]، ذلك أن الأمر المنكر واقع و المراد تقبيحه و التعجب منه و توبيخ فاعله لأنه لم يكن ينبغي أن يقع.و تقديم الإسم "معنى" بعد "أي" يدل على أن الإنكار متجه إليه، فما قيمة مجلس يفتقد التمثيل الوطني الحقيقي و يستعمل الانتخابات المزورة للتغطية على العنف الذي يجتاح البلاد؟! فهذا الاستفهام يدعو إلى التعجب و الإنكار و التوبيخ[15] ,و مثله قول مصطفى بن رحمون[16]:

هل من حياة في معيشة معشر   أحنوا قلوبا للعدى وجباها؟

فقد أنكر أن تكون حياة لمن أحنى قلبه للعدى و جبهته ,و أكد هذا الإنكار عند تفرقته بين الحياة و المعيشة، و الحياة أسمى و أرفع مترلة.

و من مظاهر الاستفهام قول "أبو القاسم خمار"[17]:

أيثور في أرض الجزائر ثائر   و أنا هنا كالصخر كالأموات
أيقوم في أرض الجزائر ناقم   كالليث مرعـــب الـــنبـــرات
أيموت أهلي تحت سطوة ظالم   وأعيش في سلم على علاتي

يقوم الاستفهام هنا على معنى التعجب، قد ورد مع الإنكار لأن الأمر إذا كان محل إنكار فقد صار مدعاة للتعجب، و من هنا كانت صلة التعجب بالإنكار قوية[18].

والشاعر ينكر وضع نفسه في الغربة متعجبا من حال السلم التي يعيشها بعيدا عن ثوار بلاده و قضية وطنه. كما أن ترديد أداة الاستفهام: "الهمزة" قد أسهم في تكثيف المعاني قطعا للتطويل المتعسر و التفصيل المتعذر[19].

و قد أتى الاستفهام في عديد الشواهد دالا على التحسر، كما في قول أحمد سحنون[20]:

أين يا صداح ما كان لنا   من رخاء وصفاء و هـــناء
أين ولي ذلك العهد الذي   قد جمعنا فيه أشتات المنى
أين دنيانا التي عشنا بها   كطيور الروض حبا و غنا
أين ما كان لنا من سؤدد   عز فيه كل مظلوم بـــــــنا
أين ذاك العهد أيان اختفى   أين غابت كلها تلك الـــــدنا؟

أتى الإستفهام هنا كثيفا حزينا باكيا كما يبدو في تلك المفارقة المؤلمة بين الماضي المجيد و الحاضر الكئيب. كما أدى تعدد التراكيب الاستفهامية في الأبيات الى تنوع التساؤلات التي تجعل الكلام أكثر تأملا و المعنى أكثر توهجا، كما نلحظه أيضا عند محمد الأخضر عبد القادر السائحي في قوله[21]:

أين العهود الضاحكات مع المنى؟
أين الليالي؟ أين لحن الربيع؟
أين المرابع يوم كنا صبية؟

فالاستفهام هنا بتحسراته أشبه بالنواح و الأنين و الندب لشاعر يبكي غربته و حنينه لوطنه ,وكانها قصيدة رثاء تستحضر ماض ولى و اندثر، مما يزيد التحسر تأزما و أشد وقعا على النفس.

كما نجد " التمني" غرضا بلاغيا للاستفهام في مثل قول أحمد سحنون و هو يستقبل عام 1957[22]:

عام جديد يقـــــبل هل فيه خير يؤمــل؟
هل فيه من فرج يتا ح و من هناء يشمل؟

حيث دل ترديد الاستفهام على تمني الخير و الفرج و الهناء الذي يرجوه الشاعر من العام الجديد و يتطلع إلى إمكان وقوعه ترويحا عن النفس و بعثا للتفاؤل كما تدل على ذلك قرينة التمني "فيه".

د-الـتــمــنــي:

هو طلب حصول شيء على سبيل المحبة. و للتمني أربع أدوات واحدة أصلية و هي (ليت) و ثلاثة غــير أصلية نائبة عنها يتمنى بها لغــرض بــلاغــي و هي:"هل"، "لعل" و "لو". و من أمثلة ذلك في الخطاب الشعري الثوري الجزائري، قول مصطفى بن رحمون[23]:

لعلنا نبني الذي هدمت لــــنا أيدي العدى من عزة فعساء
فبصادق الأعمال نحضى بالمنى و به نفوز بعزة الإبـــاء

حيث تستشف دلالة التمني من تطلع الشاعر إلى بناء مجد لأمته قد تهدم على أيدي العداء، و هو تمني يحقق إنجذانا و اشتياقا يدفع إليه التخصيص الوارد في البيت الذي يليه.

يقول ابن رحمون[24]:

آه لو يسعف الزمان فيشدو برهة فوق غصنها المياد

فالتمني هنا مرتبط بحب الحرية و الكرامة و ما يصحبها من شدو و نشوة.

و من مظاهر التمني أيضا قول الربيع بوشامة[25]:

لو كان لي حول جزيت جهادكم خير الجزاء بالفعل و التكلام

لكنني في حال ذي الأدب الأبي حي على الآلام و الأحــلام
لا أستطيع جزاءكم الا بـــهذي الرائعات الغر من الأنــغام
و لعل فيها ما ينبغي بثـــنائكم و يكون أبقى طيلة الأعــوام

حيث استهل الشاعر خطابه بأداة التمني"لو" التي تدل بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط, كما أنها أداة تدل على الإشعار بعزة المتمني[26] الذي يود مكافأة مجاهدي أمته بالإشادة بهم فعلا و قولا ,غير أن الظروف القاهرة التي يحياها حالت دون

تحقيق المراد، فهو يعدل إلى الأداة "لعل" لإبراز المتمني المستحيل و إظهاره من خلال نظمه الذي يشيد فيه بجهاد أبناء بلده في صورة المراد الممكن، القريب الحصول لكمال العناية به و الشوق إليه[27]، ذلك أن شعره ثناء لهم باق مدى الأيام.

و الحقيقة أن أسلوب التمني قليل في الخطاب الشعري الثوري الجزائري 1954-1962، ذلك أن الشعراء أدركوا دورهم ووظيفتهم التي تتمثل في يقظة الشعب و توعيه الجماهير و تعبئتها لتحقيق الهدف المنشود.

هـ-النـــداء:

هو طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف ينوب مناب (أنادي) المنقول من الخبر إلى الإنشاء و يسمى أداة النداء[28]، و من أمثلته، قول محمد الصالح بآوية[29]:

يا فتاتي ها أنا أزحف للموت بقلبي و أري الفجر طواني
مدفعي يا خلجة الشعب دعاني جبل الأوراس للثأر دعاني
جبلي يا جبلي ها هي أشلائي ألغام حواليك حوان.

المنادى في البيت الأول (فتاتي) اسم دال على الإنسان المخاطب,و في البيت الثاني (خلجة) ذو دلالة معنوية و في البيت الثالث (جبلي) ذو دلالة مادية, و جواب النداء تعدد بتعدد المنادي و بحسب ترتيب الأبيات:

ها أنا أزحف.... و أرى...
دعاني جبل الأوراس...
ها هي أشلائي...

و هي أجوبة تعبر عن عزيمة زادها ترديد بعض الألفاظ: (دعاني، جبلي) حماسة و ثباتا، كما أسهم حسن التصوير مثلا في القلب الزاحف و الفجر الطاوي و الجبل الداعي في جلب الانتباه و النظرو زيادة المعنى قوة و تأثيرا.

و أنظر قول أحمد سحنون[30]:

يا بلادي يا أرض أهلي و أحبائي — و مأوى الأسود من أجداد
و حمى مولودي و نشأتي الأولى — و مثوى آبائي الأمجـــــا
لك حبي على المدى و ولائـــــــي — لك سعيي و خدمتي و جـــهادي

المنادى (بلادي) و (أرض) قد نزلتا منزلة النكرة غير المقصودة، و الغاية من ذلك تعظيم مكانتها و بيان مقامها في نفس الشاعر, و جواب النداء (لك حبي ...) خبري لفظا يعضد المعنى و يزيده تفخيما.

و هذا مفدي زكرياء في نشيد بربروس يؤكد أن ميثاق الأحرار يتم عبر السجون، يقول مخاطب السجن[31]:

يا مصنع المجد و رمز الفدا — يا مهبط الوحي لشعر الـــبقا
يا معقل الأبطال و الشـــهدا — يا من بمنتدى الأحرار و الملتقى
أصبحت يا سجن لنا مـــعبدا — عليك نتلو العهد و الـــموثقا

المنادى (مصنع المجد، رمز الفداء، مهبط الوحي، معقل الأبطال و الشهدا) مخصص بالإضافة, دال على التفضيل: كما ورد المنادى جملة موصولية في قوله (من بمنتدى الأحرار و الملتقى)، و التعبير بـــ (من) جاء لإفادة العموم. و أخيرا وقع جواب الشرط متوسطا بين أداة النداء و المنادى (يا سجن) ليعبر عن معنى الشرف و الوفاء في إبرام المواثيق و العهود التي تزيد عزيمة المناضلين قوة و ثباتا ، و كلها شمائل ألصقت بالسجن معضدة التركيب الإضافي السابق الذي امتازت عناصره بحسن التوازي و التناسق:

يا مصنع المجد.

يا مهبط الوحي .

ورمزالفـــدا لشعرالبقـــا.

و قد وظف هذا التصوير لتشرئب إليه الأعناق و يبعث في النفس و القلب انشراحا و ارتياحا.

و من أساليب النداء أيضا قول مصطفى بن رحمون معبرا عن فرحته باستقلال الجزائر سنة 1962[32]:

أشعب الجزائر نلت المراد فزينك الله بالاتحاد

الهمزة هنا لنداء القريب الذي هو تركيب إضافي (شعب الجزائر), و قد قوي بالجملة التعليلية (فزينك الله بالاتحاد) التي تستوقف القارئ ليتأمل و يتدبر عظيم الخبر (نلت المراد) و ليكون أكثر ثبوتا في نفسيته.

_ و قد تعددت أساليب الطلب و تنوعت في القصيدة الواحدة لتعبر عن معان زاخرة الدلالات، كالجمع بين الأمر و النهي في قول الربيع بوشامة[33]:

حقق لشعبك غاية الآمـــــــــــال بقوى السلاح و همة الأبطال

و ارفع لواء الحرب في كل الذرى حتى تحرره من الأغلال

لا تأخذنك باللـــــعائن رأفـــــة فهو العدو المستبد الغالي

و هذا ينبئ بتمثل الشاعر فنون القول و هو محل نصح و إرشاد لإخوانه المجاهدين، و تكرار الأمر في مستهل البيتين الأولين: (حقق، ارفع) وترادفهما بالنهي (لا تأخذنك) أضفى على الكلام حسنا و تناسقا و انتباها, و جعله أدعى للنظر و التأمل.

و منه الجمع بين النداء و التمني، كما في قول أحمد سحنون مخاطبا الجبل[34]:

أيها الطود ليت لي منك ما أوتيته من مناعة و اعـــــــــتلاء

ليتني كنت – أيها الطود- حرا من قيود قد حطمت كبريائي.

إن التعبير بـــ "أي" يشد الانتباه و يجعل المقام أكثر تفخيما ,و هي في سياق البيت وظفت لطلب القوة و الثبات و المنعة، كما أن خروج الكلام إلى معنى التمني- ليتني- جعله أسرع إلى التأثير و أبلغ في الدلالة عن همة نفس الشاعر و طموحها و تفانيها في سبيل تحقيق الغرض الأسمى و هو التحرر و تحطيم القيود الظالمة.

و من أمثلة الطلب المتعدد أيضا الجمع بين الأمر و الاستفهام، كما في قول "أبو القاسم سعد الله"[35]:

أجب بربروس

أشعبا تعذبه أم ذباب؟

أقلبا تحطمه أم حجر؟

يستفاد من فعل الأمر (أجب) دلالة البحث عن جواب شاف يبرز تفاقم الأسى من جراء المعاناة و الآلام التي أحدقت بالشاعر، وقد نزل المنادى (شعبا، قلبا) منزلة النكرة غير المقصودة لإظهار شدة التأثر التي زادتها التسوية إيلاما:

-أشعبا...أم ذباب.

_أقلبا ...أم حجر.

و قد ذكر الزمخشري أن الاستفهام في جملة التسوية منسلخ عن الهمزة و أم، فهما مجردتان لمعنى الاستواء منقولتان إليه[36]. و من شأن هذا التعاقب بين الأمر و الاستفهام الدال على معنى التسوية أن يثيرفينا هاجس التساؤل و التقزز من وحشية المستعمر.

_ و قد يتضمن الخطاب الشعري أنواعا متعددة للأساليب الطلبية مثل جمع بين النداء و الأمر و الاستفهام, كما في قول أحمد سحنون[37]:

- أيها الطود أيها الجبل الموحي جلال الخلود للشعراء
- أيها المارد الذي يتحدى كل هول بالتيه و الخيلاء
- أيها القوة الكبيرة يا نبع قصيدي و يا معنى غنائي
- أنا في هذه الحياة شقي ضاق ذرعا بما بها من شقاء
- فامنحيني منك الثبات فآلآم جروحي قد مزقت أحشائي
- وهبيني من قوة الروح ما أسمو به فوق هذه الأدواء
- لم تزل مبعث الرسالات و الثورات مثوى الثائرين و الأنبياء
- أيها الطود قد بثثتك آلامي فهل أنت سامع لندائي؟
-

إن التعبير بـــ "أي" و تكرارها يشد الانتباه و يجعل المقام أكثر تفخيما ,و هي في سياق الخطاب مرتبطة بالأمر (فامنحيني، هبيني) الذي عضد شعور العزيمة و التحدي ليتلو ذلك بتركيب استفهامي (فهل أنت سامع لندائي) سماه البلاغيون تلطفا في الطلب. و بناء الخطاب بهذا الشكل فيه تنويع غريب للدلالة لغرض منه تمني الأمر و تعظيمه، هو بذلك أبلغ منه بالإخبار المباشر لأنه يضعنا أمام أمر لا بد فيه من الإجابة بالإيجاب.

و من أساليب الطلب الذي تعضده حسن الدلالة و قوتها الجمع بين النداء و الأمر و النهي, كما في قول الربيع بوشامة[38]:

يا فتى الأوطان قم	فارفع اليوم العلـــم
و تقدم للفـــــــداء	باسلا راسي القـــدم
و الق أبطال العدا	ضاحكا عالي الشمم
لا و لا تشفق على	مهجة أو مبتســـــم
إنما أنت فـــــتى	للمعالي و الهمـــم
لا يضرنك جـــهاد	به خير للقيــــــــــم

فالنداء الذي يستهل به الخطاب موجه لـــ (فتى الأوطان), فيه نصح و إرشاد دلت عليه بنى الأمر: (ارفع، تقدم،الق) وصيغها المكررة مع بنى النهي :(لا و لا تشفق), و مثل هذا التكرار القصد منه تثبيت الكلام في ذهن السامع و تأكيده. و قد شكل التنوع في أساليب الطلب معينا يتدفق منه النفس الشعري المستوحى من المعادلة الوطنية التحررية التي يفيض بها الوجدان الشعري الملتهب.

الهوامش:

1. عبد اللطيف شريفي، زبير دراقي، الإحاطة في علوم البلاغة، ص 29.
2. أنظر: عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، 1971، ص. 34، 35.
3. أنظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، عالم الكتب، بيروت، لبنان (د- ت)، ج2، ص81.
4. د,جمال قنان, ديوان الشهيد الربيع بوشامة، ص 188.
5. مفدي زكريا,اللهب المقدس، ص 65.
6. أبو القاسم خمار, ظلال و أصداء، ص 39.
7. السيوطي، الإتقان في علوم القران،ج2، ص 82.
8. د,جمال قنان, ديوان الشهيد الربيع بوشامة، ص 213.
9. أحمد سحنون,الديوان، ص 105.
10. محمد الأخضر السائحي, همسات و صرخات،ص 153.
11. عبد الله شريفي,زبير دراقي, الإحاطة في علوم البلاغة، ص 33.
12. مفدي زكريا, اللهب المقدس، ص 54.
13. عبد القاهر الجرجاني, دلائل الإعجاز، ص 88.
14. قطبي الطاهر، بحوث في اللغة -الاستفهام البلاغي-، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، القسم الثاني، ص 34.
15. نفسه، ص 39.
16. مصطفى بن رحمون,الديوان,ص103.
17. أبوقاسم خمار, [1]ظلال و أصداء,ص24.
18. قطبي الطاهر، بحوث في اللغة الاستفهام البلاغي، ص 51.
19. نفسه، ص 67.
20. أحمد سحنون,الديوان، ص 158.
21. محمد الأخضر عبد القادر السائحي، ألحان من قلبي، ش. و. ن. ت الجزائر،الطبعة الثانية، 1982، ص 79.
22. أحمد سحنون, الديوان,ص29.
23. مصطفى بن رحمون,الديوان، ص 138.
24. نفسه، ص 88.
25. د.جمال قنان, ديوان الشهيد الربيع بوشامة، ص 226.
26. أنظر:عبد الله شريفي,زبير دراقي, الإحاطة في علوم البلاغة، ص 42.
27. نفسه، 41.
28. و أدواته ثمانية هي: الهمزة،أي، يا،،آ،أي، أيا، هيا و وا . وتنقسم هذه الأدوات في الاستعمال إلى نوعين:- الهمزة و أي لنداء القريب.
29. و بقية الأدوات لنداء البعيد.
30. لمزيد من التفضيل أنظر:- الإحاطة في علوم البلاغةً 42- 45.
31. محمد الصالح باوية، اغنيات نضالية، ص 32.
32. أحمد سحنون,الديوان، ص 101.
33. مفدي زكريا,اللهب المقدس، ص 91.
34. مصطفى بن رحمون,الديوان، ص 187.
35. د.جمال قنان,ديوان الشهيد الربيع بوشامة، ص 235.
36. أحمد سحنون,الديوان، ص 59.
37. أبو القاسم سعد الله, الزمن الأخضر، ص 123.
38. انظر:قطبي الطاهر, بحوث في اللغة- الاستفهام البلاغي-، ص 55.
39. أحمد سحنون,الديوان، ص 59.
40. د.جمال قنان, ديوان الشهيد الربيع بوشامة، ص 183.

أهمية النّص الشعري في تعليم اللغة العربية في المرحلة الثانوية

مستوى السنة الثالثة ثانوي أنموذجا

The Importance Of The Poetic Text In Teaching Arabic Langage

In The Secondary School Level Third Secondary Year

الأستاذة: حـــنان مزهودي
طالبة دكتوراه ل م د
جامعة البليدة 02

الملخّص

إنّ لتعليم النص الشعري له دور كبير في تكوين المتعلّم ومساعدته في تخطي مشكلة تدني مستواه في اللغة العربيـــة فارتأينــا أنّ نقوم بهذه الدراسة لمعرفة مدى **أهمية النص الشعري في تعليم اللغة العربية في المرحلة الثانوية**، واقترحنا الســنة الثالثــة لشــعبتي الآداب وشعبة العلوم كأنموذجا للدراسة. بحيث تريد دراستنا الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما سبب نفور تلاميذ المرحلة الثانوية من النص الشعري؟
- هل فقدت النصوص الشعرية جماليتها بالنسبة لتلاميذ الطور النهائي و لم يصبحوا بحاجة إليها اليوم؟ أم يرجع لطريقة تحليــل هذه النصوص التي لا يستجيب للأهداف المسطرة؟ أم أنّ هناك أسباب أخرى؟

واستعملنا منهجي الاستقراء والإحصاء لكونهما أدوات مساعدة في التحليل، فاعتمدنا على جداول توضيحية لتصنيف النصــوص الشعرية وأخرى إحصائية لنتائج تلاميذ بكالوريا 2015 بثانوية كريتلي مختار الصومعة ولاية البليدة.

الكلمات المفتاحية: النص الشعري، تعلّم اللغة العربية، السنة الثالثة ثانوي.

The Summary:

The teaching of the poetictext has an essential role to gorm the learner's langague.it helps the learner to skip the problem of low of arabic laguage. So we make this study to knew how extent the importance of the poetic text in teaching arabic language in secondary school. We suggest third secondary year level for two specialties the letter and the science levels. Our study will answer these questions :

1. Why do the learners of secodary school hate and dislike the poetic text the real reasons ?
2. Does the poetic text lost its beauty according to learners who do no need to the poetic text today ?
3. Or is it the way of analizes these poetic texts which does not reach the target obejectives ?
4. Are there other reasons ?

We use empiricism and statistical methods because they are useful tools that helps to analyze the study . we use exepticated tables to classify the poetic texts also xe use statisical tables of results of learners in the baccalireate 2015 in the kriyli mokhtar secondary school in Soumaa Blida

Key words : Poetic text /Teaching Arabic langage / Thirdsecondary school

تمهيد

إنّ اللغة العربية عنصر من الثلاثية التي تتكون منها الهوية الوطنية ، ولكونها اللغة الوطنية الرسمية فإنّها حتما لغة تعليم جميع المواد الدراسية وفي جميع مستويات وأطوار المنظومة التربوية سواء في ذلك مدارس القطاع العام أو المدارس الخاصة، وبهذه الصفة فإنّ اللغة العربية بالجزائر تحظى بمكانة متميزة وبعناية مستمرة وبتجنيد جميع الوسائل الكفيلة بترقيتها وهي محل متابعة دقيقة.

ومما لاشك منه أنّ البحث في ترقية استعمال اللغة العربية في المدرسة الجزائرية لا يمكن أن يرقى إلى المستوى المطلوب إلا إذا تحوّلت الجهود الفردية إلى مستوى الجهود الجماعية، فبذلت المنظومة التربوية جهود عظيمة لتحسين اللغة العربية وقام مدرسو اللغة العربية و معدّو المادة التعليمية ببذل كل ما لديهم من مهارات وطاقات لتمكين المتعلم من إتقان لغته.

عرفت منظومة التربية والتعليم في الجزائر منذ استقلالها نماذج تربوية متعدّدة تدرجت في اعتمادها المدرسة الجزائرية بحثا عن أحسن النماذج فعّالية لتحقيق أهدافها، ومن بين هذه النماذج التي طُبّقت في مدرستنا: النموذج التقليدي الذي طُبّق في الفترة الممتدة بين الاستقلال وبداية الثمانينات إذ المناهج التعليمية فيه كانت مبنية على المحتويات؛ أي أنّها تنشد المعرفة وتصنفها في المرتبة الأولى لذا كانت البرامج مكتظة بتراكم المعارف دون التفكير في سبب تقديم هذه المعارف، وماذا سيفعل بها المتعلّم؟ مما جعل هذه المقاربة غير ناجحة لاهتمامهم فقط بالمعرفة كما نجد المعلّم هو العنصر الفعّال في العملية التربوية فدوره يتمثل في إحضار المعلومات وإلقائها على تلاميذه وشرحها ثم يجب عليها ترسيخها في أذهانهم عن طريق الحفظ والتكرار.

وبعدها تبنّت المنظومة التربوية مقاربة جديدة سايرت التطور العلمي في الحقل التربوي آنذاك، حيث بدأ العمل بالأهداف البيداغوجية فقد تمّ من خلالها جمع رصد كافٍ من السلبيات في النموذج التقليدي، فارتكز التدريس بالأهداف البيداغوجبة على سلوك المتعلّم، كما أصبح هذا الأخير شريكا ومساهما فعّالا في العملية التعليمية التعلّمية... لكن هذه المقاربة تضع نجاح التلميذ فقط في المدرسة وداخل القسم، كونها تقوم عل مبادئ جعلت المتعلّم سلبيا فهو يقبل كل تعليم مبرمج عليه بناءً على خطة واختيار لم يكن فيهما شريكا، مما جعل في الأخير أن تقوم منظومتنا بإصلاحات جديدة لا نقول أنّها غيرت المقاربة التي سبقتها بل طوّرت فيها، إذ عمل المختصون على تجاوز مفهوم السلوك الضيّق إلى مفهوم أوسع وهو القدرة و الكفاءة. وعلى هذا الأساس جاءت فكرة المقاربة بالكفاءات التي تعتبر نموذج آخر لتطور التربية والتعليم في الجزائر، وخاصة تعليم اللغة العربية فجُعِل المعلّم فاعلا يعمل عل المساهمة في تكوين القدرات لد المتعلمين ولا يبقى فقط منحصرا في نقله فقط للمعارف، كما أنّها جعلت المتعلّم العنصر الفعّال والأساسي في بناء معارفه.

دواعي تبني المقاربة النصية في تعليم اللغة العربية في الجزائر:

.بما أنّ اللغة العربية في المنظومة التربوية هي وسيلة التعلّم والتواصل والتبليغ، والمقاربة بالكفاءات لا تنظر إلى هذه اللغة نظرة تجزيئية، بل تنظر إليها على أنّها وحدة متكاملة مما يستلزم تدريسها وفق تصور منهجي يحافظ على انسجامها وتفاعلها ويسمح بالانتقال من مكوّن إلى آخر دون إحداث قطيعة بين مختلف هذه التعلمات.(**كمال بن جعفر، ص 147**) ولهذا تبنّت منظومتنا هذه المقاربة في تدريس اللغة العربية منذ سنوات عديدة (2003م) فهي منحى في تناول النصوص وتدريس أنشطتها باعتبار النص بنية كبرى تظهر فيه كل المستويات اللغوية (صرفية، نحوية دلالية، أسلوبية) كما تعكس فيه مختلف المؤشرات السياقية (المقامية الثقافية الاجتماعية،...). إذن فمبدأ المقاربة بالكفاءات القائم على المقاربة النصية التي هي اتخاذ النص محورا أو هو نقطة انطلاق لكل التعلّمات تدور حوله جميع الأنشطة: قراءة، تعبير، مطالعة... وتتم من خلاله دراسة الظواهر النحوية والصرفية والإملائية والمبادئ الأدبية، والعروضية والبلاغية، وتنمية الذوق الأدبي حسب ما يمليه المنهاج والتوزيع الشهري والسنوي.

إنّ الأصل في المقاربة النصية أن يتقيّد المعلّم بالظواهر التي يوفرها له النص ويساعده تلاميذه في اكتشافها والتعرّف على أحكامها، ثم يعبّرون بها عن وضعيات أخرى في شتى الأغراض، فالنص يمثّل الدعامة الأساسية في التدريس بشتى تخصصاته عامة وفي تدريس اللغة العربية خاصة، ولهذا توجهت غاية المربين واللغويين إلى الاهتمام بالبناء الجيّد والتماسك للنصوص، لأنّ النصوص عندما تكون على هذه الحال تسهم في بناء عقلية منظمة قادرة على التعامل المنهجي والمنطقي مع المعارف والمعلومات.(**اللجنة الوطنية للمناهج، مديرية التعليم الثانوي، ص06**) فبهذا يعدّ موضوع القراءة نصا محوريا تنطلق منه مختلف الأنشطة الأخرى وتستخلص منه قواعد اللغة. لكن أحيانا نجد أنّ النص المحوري المقرّر فقير أي أنّه لا يستطيع توفير كل دروس القواعد والبلاغة والعروض المقررة في المنهاج مما يلجأ الأستاذ إلى البحث عن أمثلة خارجية لاستكمال الأوجه الناقصة. ولهذا فإنّ تعليم النص الأدبي في المراحل التعليمية دور كبير في تكوين المتعلّم مع ما يتخبط فيه من مشكلات أهمها تدني مستواه في اللغة العربية.

فمن خلال هذا نرى بأنّ النص هو الوحدة الأساسية عند التحليل ولاسيما النص الشعري؛ إذ يقف المتعلّم عند تحليله للنص الشعري على المراحل التالية:

1- **التعريف بصاحب النص:** وفيها يتعرف المتعلم على صاحب النص بكلمة موجزة عن الشاعر وحياته وعصره، وعلى أهم آثاره الشعرية.

2- **قراءة النص:** يقوم المعلّم بقراءة نموذجية معبرّة للأبيات الشعرية ويجب أن تكون قراءته موحية معبرة للمعاني. وبعده تليه قراءة فردية من قبل بعض التلاميذ ويصوّب لهم المعلم الأخطاء تصويبا مباشرا.

3- **إثراء الرصيد اللغوي:** من خلال القراءات الأولى للنص الشعري يقوم المعلّم باستخراج الألفاظ الصعبة ويشرحها، ويتم هذا الشرح بالتعرف المعجمي على معنى اللفظة ثم التعرف على السياق الدلالي لها.

4- **اكتشاف معطيات النص:** وفيه يكتشف المتعلم على كل ما يتوافر عليه النص من معاني وأفكار ومشاعر وانفعالات وعواطف سواء أكانت حقيقية أم مجازية أي اكتشاف العناصر الفنية بالتعرّف تدريجيا على الأدوات الجمالية فيه.

5- **مناقشة معطيات النص:** تعتبر هذه المرحلة من أهم المراحل حيث يوضع المتعلّم في وضعية تمكنه من تسليط ملكته النقدية على تلك المعطيات الواردة في النص بالرجوع إلى ما لديه من مكتسبات قبلية، فحين يتوغل المتعلّم في ثنايا النص يطرح أكبر قدر ممكن من البدائل والمعاني المختزنة داخل النص ومنها يتحول النص الشعري إلى عمل وإبداع من ذرف المتعلمين.

6- **تحديد بناء النص:** وفيه يتحدد النمط الغالب والسائد في النص، إذ يحاول المعلم مساعدة تلاميذه لإدراكهم على تحديد النمطية الغالبية على النص واكتشاف خصائصها ثم تدريبه مشافهة وكتابة على إنتاج نصوص من نفس النمط المدروس.

7- **تفحص مظاهر الاتساق والانسجام في تركيب فقرات النص:** وهذا انطلاقا من كون أن النص كتلة واحدة لا يمكن تجزئتها، وهو مترابط ترابطا متسقا ومنسجما وليس تجمعا اعتباطيا للكلمات، ففي هذه المرحلة يتعرف المتعلّم على عناصر الاتساق والانسجام من باب الدراسة الجمالية للوحدات والتراكيب اللغوية و من باب اطلاعهم على الأدوات المشكلة لاتساق وانسجام النصوص بصفة عامة.

8- **إجمال القول في تقدير النص:** وهي آخر مرحلة يصل إليها المتعلم في تحليله للنص الشعري المدروس، إذ يقوم بتلخيص كل ما قد تعرّف عليه في المراحل السابقة، وإبراز الخصائص النفسية والفكرية في النص.

إنّ الغرض الأساسي لدراسة هذه النصوص الشعرية هو الوقوف على جماليات وفنيات كل نص للتذوق وحفظ الآثار الأدبية ، وأيضا ليترسخ لدى المتعلّمين وحدات إفرادية ورصيد لغوي هائل به يمكنهم إنتاج نصوص أخرى غير متناهية.

النص الشعري وأهميته في تعليم اللغة العربية :

وقبل عرضنا لصلب الموضوع يتعيّن علينا أن ندرك أولا مفهوم النص، فالنص لغة: من رفعك الشيء ونص الحديث نصّه رفعه كل ما أظهر، ونص المتاع جعل بعضه على بعض أي جعل الكلام المتراكب على بعضه نصا. ولهذا قد أجمع على أنّ النص هو بلوغ النهاية والغاية في الأمر. فالنص هو النموذج للسلوك اللساني الذي يمكن أن يكون مكتوبا أو منطوقا وهو بذلك مجموعة من الملفوظات اللسانية القابلة للتحليل.(**أحمد مداس، ص10**) ولهذا يجب أن يختار النص وأن يكون تفاعليا أي يقوم بعملية التواصل ونقل الخبرات والمعلومات والتجارب وغير ذلك.

أما النص التعليمي فهو مختارات من الشعر والنثر التي يتلقاها المتعلمون ليفهموا ويتذوقوا تراثهم الخالد وتكون هذه المختارات في نفس الوقت هي الوسيلة الأساسية في تعليم اللغة العربية. ومن خلالها يستطيع هؤلاء المتعلمون الوقوف على مواطن الجمال الفني ويتعرفون على مميزات اللغة وخصائصها بل وتطورها في مختلف العصور، كما أنّهم سيتعرفون على الشعراء و على أساليبهم الأدبية، وبها ستنمى ثقافتهم الأدبية ويثرى زادهم اللغوي؛ إذ تقدّم إليهم هذه النصوص في ظل معطيات معينة منها ما يتعلّق بالمتعلّم، ومنها ما يرتبط بالتدريس وطرقه ومناهجه، ومنها ما يرتبط بالنص ذاته. فتعتبر عملية اختبار النصوص التعليمية وخاصة الشعرية منها مهمة جدا، ولا تعتمد على العشوائية أو الذاتية أبدا وإنما وفق معايير تجعلها مضبوطة ضبطا تاما تخدم المتعلم في كل الأحوال.(**ينظر إلى حميدة بوعروة، ص 11**)

النصوص الشعرية المختارة في البرامج المقررة بالمرحلة الثانوية:

تؤدي المنظومة التربوية أدوارا فعّالة في بناء المجتمع وتعزيز الهوية بل وفي إعداد الفرد لنفسه ولمجتمعه، فمن الوسائل التي تعين على ترسيخ هذه القيم النصوص التعليمية المقررة في المناهج الدراسية التي يتلقاها المتعلّم في كل مراحله الدراسية، والتي تسهم في تكوينه السلوكي والفكري والذوقي خاصة النص الشعري لأنّه به يتدرب التلاميذ على تذوّق ما يقرؤون لما يتضمّنه من عمق في الأفكار وجماليات في الأسلوب التعبيري، فهو بكل تأكيد مصدر للإثراء الفكري واللغوي.

فالنصوص الشعرية في المرحلة الثانوية في منظومة التعليم الجزائرية قسّمت على حسب عدد العصور الأدبية يتلقاها المتعلّم في ثلاث مستويات. والجدول التالي يوضح ذلك:

المستويات / تقسيم النصوص	الأولى ثانوي	الثانية ثانوي	الثالثة ثانوي
العصور الشعرية المدروسة	الشعر الجاهلي الشعر في صدر الإسلام الشعر الأموي	الشعر العباسي الشعر المغربي (الدولة الرستمية والأندلسية)	الشعر الحديث الشعر المعاصر

الجدول رقم (01) يمثل العصور الأدبية التي تلقّاها المتعلّم في المستوى الثانوي

نلاحظ أنه قد قسّم الشعر المختار وفق طريقة التدريس عن طريق العصور الأدبية مراعين في ذاك التطور الزمني، ابتداءً من العصر الجاهلي الذي يتعرّف عليه التلميذ في السنة الأولى إذ يتعرّف فيه على أهم شعراء هذا العصر موضّحا له حياة العرب قبل الإسلام ويتعرّف على البيئة الصحراوية المعاشة آنذاك. وهذا ما خلّف نبذ ونفور المتعلّمين في دراستهم للشعر لأنّهم يجدون أنفسهم أمام عصر بعيد عنهم كل البعد إذ يلاقون صعوبة بالغة جدا في فهم هذه النصوص، فمن المفروض أن يُختار للمتعلم في بداية مرحلته الثانوية نصوص مأخوذة من العصر الذي يعيش فيه لكي يفهم لغته ويتذوّقها فيحسن استعمالها فيما بعد.إلا أنّ هناك من يرى أنّه ليس بالإمكان البدء بالعصر الحديث لأنّ أدبه وشعره خاصة يتطلب الاستعانة بالخيال والدقة... ، وبعدها في نفس المستوى يتناول الشعر في صدر الإسلام وكيف استقى الشاعر في هذا العصر ألفاظه ومعانيه من القرآن الكريم والحديث النبوي متأثرا بهما، وبعدها يتعرّف على الأدب في العصر الأموي، وكيف ظهر الشعر السياسي وكيف نشط المدح في هذه المرحلة.

ثم في السنة الثانية يتعرّف فيها المتعلّم على الشعر في عصر العباسي، وكيف نشأت الحياة الفكرية والأدبية في هذا العصر، ويتعرف فيها على أهم الأغراض الشعرية التي نظّم بها العباسيون أشعارهم بما يتلاءم مع حياتهم الجديدة وأذواقهم وبيئتهم كما أنّه في نفس المستوى يتعرّف على الشعر الرستمي والأندلسي. بينما في آخر مرحلة من التعلم الثانوي يتناول الشعر الحديث وكيف تطور بسبب الاحتكاك بحركات التجديد العالمية. كما قد قُسِّمت دراسة الشعر في هذا العصر إلى ثلاث مراحل إذ كانت انطلاقاته الأولى من التراث القديم يستمدّ منه وتقديم نماذج من شعراء القرن العشرين، وأما المرحلة الثانية فيتعرف فيها المتعلّم على الاتجاهات الحديثة للشعر المتأثرة بالنهضة الغربية، وأخيرا يتعرّف المتعلّم على محاولات التحرر من قيود التقليد التي قادها بعض الشعراء.

دراسة للنصوص الشعرية المختارة في منهاج السنة الثالثة ثانوي لشعبتي الآداب وشعبة العلوم التجريبية:

لقد اخترنا في دراستنا – السنة الثالثة ثانوي– كأنموذجا للدراسة، ولذلك سنتكلم عن اختيار المحتوى التعليمي " النصوص الشعرية" وعلاقتها بالأهداف المسطرة، فالنصوص المختارة في هذه لمرحلة تتناول أشعارا مأخوذة من عصر الضعف (656ه – 1213م) ثم أدب النهضة والعصر الحديث، فالأدب المعاصر. إذ سيكمل المتعلّم دراسته للشعر في عصر الضعف التي قد بدأها في السنة الثانية ثانوي في العصرين العباسي والأندلسي.

المحور	المؤلف	عنوان النص الشعري	عربي / جزائري
1 / عصر الضعف	البوصيري ابن نباتة المصري	في مدح الرسول (ص) في الزهد	عربي عربي
2/ عصر الضعف	القزويني	خواص القمر وتأثيراته	عربي
3/ العصر الحديث	محمود سامي البارودي أحمد شوقي	آلام الاغتراب من وحي المنفى	عربي عربي
4/ العصر الحديث	إيليا أبو ماضي رشيد سليم الخوري	أنا هنا وهناك	عربي عربي
5/ العصر المعاصر	نزار قباني محمود درويش	منشورات فيدائية حالة حصار	عربي عربي
6/ العصر المعاصر	محمد صالح باوية شفيق الكمالي	الإنسان الكبير جميلة	جزائري عربي

7/ العصر المعاصر	نازك الملائكة عبد الرحمن جيلي	أغنيات للألم أحزان الغربة	عربي عربي
8/ العصر المعاصر	صلاح عبد الصبور عز الدين إسماعيل	خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين	عربي عربي
9/ العصر المعاصر	/	/	/
10/ العصر المعاصر	/	/	/
11/ العصر المعاصر	/	/	/
12/العصر المعاصر	/	/	/

15 نصا شعريا 14 عربي/ 1 ـــجزائري

الجدول رقم (02) يوضح إحصاء النصوص الشعرية في مقرر الشعب الأدبية

المحور	المؤلف	عنوان النص الشعري	عربي / جزائري
1 / عصر الضعف	ابن الوردي	وصايا وتوجيهات	عربي
2/ عصر الضعف	/	/	/
3/ العصر الحديث	إيليا أبو ماضي	أنا	عربي
4/ العصر الحديث	ميخائيل نعيمة	أخي	عربي
5/ العصر المعاصر	مفدي زكرياء	ثورة الشرفاء	جزائري
6/ العصر المعاصر	محمود درويش	حالة حصار	عربي
7/ العصر المعاصر	محمد صالح باوية	الإنسان الكبير	جزائري
8/ العصر المعاصر	أودونيس علي أحمد سعيد	الفراغ	عربي
9/ العصر المعاصر	محمد البشير الإبراهيمي	متزلة المثقفين في الأمة	جزائري
10/ العصر المعاصر	/	/	/
11/ العصر المعاصر	/	/	/
12/العصر المعاصر	/	/	/

07 نصوص شعرية 04 عربي/ 03ـــ جزائري

الجدول رقم (03) يوضح إحصاء النصوص الشعرية في مقرر الشعب العملية:

الملاحظ في كلا الجدولين أنّ عدد النصوص الشعرية عند شعبة الآداب هو ضعف عدد النصوص عند العلميين، وهـــذا أمـــر طبيعي إذ ما رجعنا للحجم الساعي المخصص للأدب والنصوص عند كل من الشعبتين؛ فشعبة الآداب بلغ عدد حجم الســـاعي للنصوص الأدبية 03 ساعات في الأسبوع، بينما شعبة العلوم فساعة واحد مخصّصة للنصوص الأدبية خلال أسبوع واحد، وهـــذا منطقي جدا فكلما ازدادت عدد ساعات النصوص الشعرية ازداد عددها. أيضا قد لاحظنا أن كل النصوص المختارة مأخوذة مـــن

روح العصر المدروس فمثلا كل من محمود سامي البارودي وأحمد شوقي يمثلان العصر الحديث وهما أهم الشعراء في هذا العصر لذا اختيرا كنموذجين للشعر الحديث...

كما نلاحظ في مقرر السنة الثالثة أنّ عدد النصوص الشعرية في كلا الشعبتين أقل بكثير من عدد النصوص النثرية المختارة، وهذا بالنسبة لنا أمر جيّد لأنّه في السنوات الأولى والثانية ثانوي طغت في منهاجهما النصوص الشعرية على حساب النصوص النثرية، إذ أدى هذا الإكثار من القطع الشعرية في نفوس التلاميذ إلى حصر الأدب ككل في الشعر وما النثر إلا أمر ثانوي فيه، لكن الملاحظ في منهاج السنة الثالثة أنّ استغلال النصوص النثرية كان أكثر وهذا حسب رأينا أفضل لأنّ الأخيرة تحفّز على إعمال التفكير العقلي وبها يتعوّد التلميذ على جودة النطق وسلامة الأداء وحسن التعبير.

أما بالنسبة للنصوص الشعرية المختارة عربية كانت أم جزائرية فنلاحظ أنّ عدد النصوص الجزائرية في مقرر شعب الآداب هو نص شعري يتيم لمحمد صالح باوية وبقية النصوص كلها عربية بينما في مقرر شعبة العلوم فنجد ثلاث نصوص جزائرية لكل من محمد صالح باوية ومفدي زكريا والبشير إبراهيمي، فحال النصوص الشعرية الجزائرية تقريبا مغيبا في البرامج المقررة في هذه المرحلة التي تعتبر بوابة التعليم الجامعي وهذا راجع إلى أنّ اختيار النصوص المقررة كان عشوائيا وهذا ما أقرّته اللجنة المعدة للمقررين بأنّ المدة التي منحت لهم للتأليف هي فقط بضع أشهر مما جعل اختيار النصوص يكون عشوائي هذا من جهة ، ومن جهة أخرى جهل هؤلاء التام بوجود إبداعات شعرية محلية وعدم احتكاكهم بهؤلاء المبدعين لا من قريب ولا من بعيد.

رصد نقاط اللغة العربية المأخوذة في مادة اللغة العربية لتلاميذ البكالوريا في 2015 بثانوية كريتلي مختار الصومعة ولاية البليدة:

	علامات اللغة العربية المأخوذة عند المجموع الكلي لتلاميذ البكالوريا 2015			علامات اللغة العربية المأخوذة للتلاميذ الناجحين في بكالوريا 2015		
الشعب / العلامات	الآداب والفلسفة	الآداب واللغات	العلوم التجريبية	الآداب والفلسفة	الآداب واللغات	العلوم التجريبية
النتائج أقل من 1/4 العلامة	%5،7	%6،9	%13،6	%0،0	%0،3	%0،3
النتائج أكثر من 1/4 العلامة	%56،5	%62،7	%30،2	%27،9	%40،5	%13،2
النتائج أكثر من 1/2 العلامة	%38،9	%32،1	%57	%71،8	%59،3	%86،6

الجدول رقم (04) يمثّل رصد نقاط اللغة العربية المأخوذة في مادة اللغة العربية

نلاحظ أن نقاط تلاميذ الآداب والفلسفة في بكالوريا 2015 الأقل من الربع منخفضة جدا و للتلاميذ الناجحين منعدمة بينما نتائجهم الأكثر من ربع العلامة. ونلاحظ أيضا نقاطهم الأكثر من النصف العلامة تعدّت 38% وبالنسبة الناجحين في

البكالوريا فاقت 59% وهي نسب عالية نوعا ما بحكم أنها مادو مهمة جدا بالنسبة لهم، بينما تلاميذ التخصص الثاني وهم الآداب واللغات فأيضا اللغة العربية مقياس مهم بالنسبة لهم إذ فاقت علامات التلاميذ الكل نصف العلامة 32%، بينما التلاميذ الـذي نجحوا فقدت فقدت تعدّت نسبت علاماتهم الأكثر من نصف العلامة 59 % . بينما تلاميذ العلوم الناجحين في البكالوريا الذي كانـت علاماتهم أكثر من نصف العلامة فاقت نسبتهم 86% على الرغم من كونها مادة ليست في مرتبة بعض المواد الأخرى الأكثر أهمية بالنسبة لهم لمادة العلوم والرياضيات...

نتائج اختبار الفصل الّأول للسنة الثالثة ثانوي شعبة العلوم التجريبية و شعبة آداب وفلسفة وشعبة آداب ولغات :

قبل أن نستنطق نتائج الاختبار أردنا أن نوضح كيفية بناء نموذج الاختبار والذي هو عبارة عن قصيدة شعرية غـير مطولـة، إذ قُسّمت فيها الأسئلة إلى أقسام موزعة كالتالي:

1– **البناء الفكري:**عبارة عن أسئلة حول النص مما يتطلب قراءة جيّدة للنص والتعرف على أنماط النص وجنسه.

2– **البناء اللغوي:** أسئلة تتناول ما درسه الطالب من نحو وصرف وبلاغة وعروض (**البلاغة والإعراب خاصة**). وأسـئلة حول روابط الاتساق والانسجام.

3– **التقويم النقدي:**

أسئلة حول خصائص المحاور وخصائص أساليب الأدباء (خصائص كل شاعر المقررة في المنهاج). وتعاريف لأغلـب الشعراء والأدباء مختصرة. وهذا القسم مخصص فقط لتلاميذ شعبة الآداب.

دراسة نتائج الفصل الأول في البناء الفكري لدى طلاب البكالوريا بثانوية كريتلي مختار الصومعة:

الشعبة	النتائج أقل من 1/4 العلامة	النتائج أكثر من 1/4 العلامة	النتائج أكثر من 1/2 العلامة	المتوسط
آداب وفلسفة	% 46،2	% 38،5	%15،4	2،7
آداب ولغات	%10،3	%37،9	%51،7	4،7
علوم تجريبية	%12	%57،6	%34،5	4،3

الجدول رقم (05) يمثّل نتائج الفصل الأول في البناء الفكري

نلاحظ أنّ نسبة تلاميذ آداب ولغات الأقل من ربع النقطة 46،2%، ونسبة التلاميذ أكثر من ربع النقطة ̃38،5% ، بينما نسبة التلاميذ الذين تعدّت علاماتهم في البناء الفكري أكثر من النصف حوالي 15،4% وهي علامات منخفضـة جـدا إذا مـا قارناها بعدد الساعات المدروسة خلال الأسبوع الدراسي بحكم أنّها مادة مهمة بالنسبة لهم، فيرجع سبب نقصهم في البناء الفكري إلى أسباب كثيرة منها: البناء الفكري هو عبارة عن تحليل لنص أدبي ويستوجب في هذا التحليل قراءة النص قراءة جيّدة يحترم فيها المتعلّم القواعد النحوية فلا يقدّم مفعولا على فاعلا وإلا اختلّ المعنى. لكن مع الأسف ضعف تلاميذنا نحويا يعيقهم على فهم النص فهما صحيحا، أيضا التلاميذ يجيدون أنفسهم أمام مفردات وألفاظ يجهلون معناها، فهم كثيرا ما يشتكون لصعوبة هـذه الألفـاظ فبمجرّد تلقيه للفظ غريب لا يحاول أبدا أن يستغل النص ويقوم بشرحه بطريقة فهم السياق، لكن إذ لاحظنا أنّ نسـبة تلاميـذ العلوم الذين قد تعدّت علاماتهم الربع أكثر من 57،6% وهي نسبة عالية مقارنة بتلاميذ الآداب وهذا راجع لكونهم يسـتعملون العقل والمنطق في تحليل النصوص لفهم الأسئلة أكثر من الأدبيين الذي قد تعودّوا طريقة الحفظ الآني فقط.

دراسة نتائج الفصل الأول في البناء اللغوي والبلاغة لدى طلاب البكالوريا بثانوية كريتلي مختار الصومعة:

	النتائج أقل من 1/4العلامة		النتائج أكثر من 1/4		لنتائج أكثر من 1/2		المتوسط	
	البناء اللغوي	البلاغة	البنـــــاء اللغوي	البلاغة	البناء اللغوي	البلاغة	البناء اللغوي	البلاغة
آداب وفلسفة	24،1 %	%10،3	44،8	%34،5	31 %	55،2 %	4،7	2،2
آداب ولغـــــات	%52	%20	36 %	48 %	12 %	32 %	1،3	1،98
علوم تجريبية	%60،6	%63،6	%3	%36،4	30،3	%00	0،8	1،5

الجدول رقم (06) يمثّل نتائج الفصل الأول في البناء اللغوي والبلاغة

قبل استقرائنا للجدول نلاحظ أولا أنّ هناك فرقا كبيرا بين المنهجية المتخذة في المقرر لتحليل النصوص الشعرية وبين المنهجية المتخذة في الاختبارات (البناء الفكري والبناء اللغوي)، إذ نلاحظ في الجدول الذي بين أيدينا أن نسبة تلاميذ الآداب والفلسفة الذين قد تحصلوا على العلامات الأقل من ربع العلامة الكلية 24،1% بينما تلاميذ الآداب واللغات فقد تعدت نسبتهم أكثر من 52% وأما تلاميذ العلوم فتعدّت 60 %، وهذا إذ ما دلّ يدلّ فقط على ضعف طلابنا لغويا ويزداد الضعف اللغوي من طلبة الآداب إلى طلبة العلوم، إذ يتركز ضعفهم أكثر في الإعراب الذي يعتبر مشكل كبير بالنسبة لهم بالرغم من التنبيهات الكثيرة للاهتمام بهذا النشاط . بينما في البلاغة فقد تعدّى طلبة الآداب والفلسفة الذين قد تحصلوا على أكثر من نصف العلامة 55% بينما تلاميذ الآداب واللغات 35% وهي نسبة قليلة إذ ما قورنت بطلبة الآداب والفلسفة بينما تلاميذ العلوم فولا تلميذ تعدّت علاماته النصف وهذا يدل على قدرة معظم التلاميذ للوصول للصورة البيانية والمحسنات البديعية وهذا راجع لتكوينهم الضعيف فبرغم من تناولهم لها منذ مرحلة المتوسط لكن أغلبهم لا يزالون يخفقون في شرحها واستخراج أثرها.

دراسة نتائج تقويم النقد لدى تلاميذ البكالوريا بثانوية كريتلي مختار الصومعة:

الشعبة	النتائج أقل من 1/4 العلامة	النتائج أكثر من 1/4 العلامة	النتائج أكثر من 1/2 العلامة	المتوسط
آداب وفلسفة	%20،7	44،8 %	00 %	2
آداب ولغات	%80،8	15،4 %	3،8 %	0،8

الجدول رقم (07) يمثّل نتائج الفصل الأول في تقوم النقد

نلاحظ من خلال الجدول أن نسبة تلاميذ الآداب والفلسفة الذين كانت نتائجهم في تقويم النقد أقل من ربع العلامة 20 % بينما تعدت نسبة تلاميذ الآداب واللغات 80% وهي نسبة عالية جدا، بينما انعدمت نسبة التلاميذ الذين تحصلوا على العلامة الأكثر من النصف وهذا راجع إلى قصور التلاميذ في نقدهم للنصوص ويرجع هذا ربما إلى نقص تطبيق النشاط داخل القسم فنلاحظ انعدامه تقريبا في المنهجية المقررة لتحليل النصوص الشعرية في منهاج الأدبيين.

خاتمة:

الجدير بالذكر أنّ مهارات اللغة العربية هي مهارات الإملاء العربي ومهارات الصرف والنحو والبلاغة ومهارات الكتابة ومهارات تحليل الشعري وتذوقه ونقده، ولعل بتكامل هذه المهارات في حياة المتعلّم في بيئة تعليمية متفاعلة تتكون لديه مهارات حيوية جديدة أخرى كالمهارة الحوارية والنقدية والإبداعية وغيرها. وهذه كلها تكتسب إذا وفقت المنظومة التربية والتعليم في أهدافها المسطرة وعليه خلال هذا البحث الميداني توصلنا إلى بعض النتائج التالية:

- لا يستطيع المتعلّم أن يدرك القواعد اللغوية المتخذة في المقاربة النصية إلا إذا فهم النص واستوعب مضامينه.
- الفهم هو وسيلة ومهارة في نفس الوقت على المتعلم أن يكتسبها مثل باقي المهارات الأخرى ليتمكن فيما بعد أن يطبّق ما تعلّمه داخل القسم في محيطه الاجتماعي.
- يجب الاختصار في منهجية تحليل النصوص المطولة ليتمكن المتعلّم من فهم النص فهما صحيحا.
- ضرورة اختيار النصوص الشعرية وانتقائها وما يتناسب مع اهتمامات التلميذ لتصبح محفّزا له في نفس الوقت.
- رغم أنّ اللجان المعدّة للبرامج في مرحلة الثانوية ليست واحدة إلا أن أكثر النصوص الشعرية المختارة في مرحلة الثانوية يغيب فيها النص الشعري الجزائري.

قائمة المراجع:

1- كمال بن جعفر، تطبيق المقاربة بالكفاءات في تعليميّة اللّغة العربية بالمتوسطة الجزائريّة،منهاج الرّابعة متوسط أنموذجا، رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللّسان والتّبليغ اللغويّ، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، 2009/2008.
2- منهاج السنة الثالثة ثانوي، مديرية التعليم الثانوي، الوثيقة المرافقة لمنهاج السنة الثالثة من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي جميع الشعب العلمية والأدبية، د ط، ماي 2006.
3- أحمد مدارس، لسانيات النص، نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2007.
4- حميدة بوعروة، أهمية النص الأدبي في تعليمية اللغة العربية في المرحلة الثانوية، جامعة قاصدي مرباح، الجزائر 2011،2010.

قراءة في مضمار الدرس الأدبي " مُؤَلّف (العمل الفني اللغوي) أنموذجا " لفولفغانغ كايزر

The Reading In Understood Literature Course "The Composed Linguistic Work Art As An Example "Wolfgang Kayser

الأستاذ :أ.د. حفيظ ملواني

أستاذ التعليم العالي– قسم اللّغة العربية

جامعة البليدة 2 – علي لونيسي

الملخص باللغة العربية

يتمثل مشروع فولغانغ كايزر في تحديد أولويات الدراسة الأدبية ؛بحسب تصورات التي ينصّ عليها علم الأدب ،و تبعا لكفاءة الدارس، و صولا إلى الخيارات المعتمدة في مسالك الرؤية النصية ،وفق اعتبارات أسلوبية محضة ؛من أجل الإلمام بحقيقة البنية الفنية المؤسسة للنص الأدبي في حدود خصوصية الجنس الأدبي المستهدف في وضع النص الشعري أو القصصي أو جنس آخر.

الكلمات المفتاحية :

الدرس الأدبي –الدراسة الأدبية – فولفغانغ كايزر –الأسلوبية – علم الأدب

Abstract

This project of Wolfgang kayser consist to define the appropriate literature study with the notions that reveal to it the science of literature and following to the competence of the student ,arrival to the dependent chosen in textual vision a way ,according to stylistic proper considerations ,in order to define the truth artistic structure to the literature text in appropriate limit literature gender as a goal in poetical text situation or fiction or another gender

The Key words :

Literary course – Literary study- Wolfgang kayser-stylistic –the science of literature

مقدمة

يعتبر فولفغانغ كايزر (**Wolfgang kayser**) من كبار منظري الأدب الألمان في القرن العشرين فهو من مواليد **24-12-1906** ببرلين ؛ درّس بعدة جامعات منها أمستردام (**Amsterdam**) و برلين (**Berlin**) و لايبتسيغ(**Leipzig**) و لشبونة(**Lisbonne**) و آخرها بجامعة غوتنغن (**Göttingen**) الألمانية ؛ كما اشتغل في رحاب البحث الأدبي المقارن بفضل إطلاعه الواسع على الآداب الأوروبية منها البرتغالية و الإسبانية و البرازيلية؛ كما اشتغل في طرق دراسات الشعر و تأويله ،توفي بتاريخ **23-01-1960** بغوتنغن ؛ ينحو الاهتمام في هذا السياق المعرفي الهادف في اتجاه تقديم قراءة لمشروعه التنظيري المتعلق بخصوصية الدرس الأدبي عبر عمله المركزي الموسوم بـ " **العمل الفني اللغوي:مدخل إلى علم الأدب** "[39] (**Das sprachliche Kunstwerk. Eine Einführung in die Literaturwissenschaft)** الصادر سنة **1948**

قراءة في مضمار الدرس الأدبي " مُؤَلَّف (العمل الفني اللغوي) أنموذجا " لفولفغانغ كايزر

The Reading In Understood Literature Course "The Composed Linguistic Work Art As An Example "Wolfgang Kayser

الأستاذ :أ.د. حفيظ ملواني

أستاذ التعليم العالي– قسم اللّغة العربية

جامعة البليدة 2 – علي لونيسي

الملخص باللغة العربية

يتمثل مشروع فولغانغ كايزر في تحديد أولويات الدراسة الأدبية ؛بحسب تصورات التي ينصّ عليها علم الأدب ،و تبعا لكفاءة الدارس، و صولا إلى الخيارات المعتمدة في مسالك الرؤية النصية ،وفق اعتبارات أسلوبية محضة ؛من أجل الإلمام بحقيقة البنية الفنية المؤسسة للنص الأدبي في حدود خصوصية الجنس الأدبي المستهدف في وضع النص الشعري أو القصصي أو جنس آخر.

الكلمات المفتاحية :

الدرس الأدبي –الدراسة الأدبية – فولفغانغ كايزر –الأسلوبية – علم الأدب

Abstract

This project of Wolfgang kayser consist to define the appropriate literature study with the notions that reveal to it the science of literature and following to the competence of the student ,arrival to the dependent chosen in textual vision a way ,according to stylistic proper considerations ,in order to define the truth artistic structure to the literature text in appropriate limit literature gender as a goal in poetical text situation or fiction or another gender

The Key words :

Literary course – Literary study- Wolfgang kayser-stylistic –the science of literature

مقدمة

يعتبر فولفغانغ كايزر (**Wolfgang kayser**) من كبار منظري الأدب الألمان في القرن العشرين فهو من مواليد **24-12-1906** ببرلين ؛ درّس بعدة جامعات منها أمستردام (**Amsterdam**) و برلين (**Berlin**) و لايبتسيغ(**Leipzig**) و لشبونة(**Lisbonne**) و آخرها بجامعة غوتنغن (**Göttingen**) الألمانية ؛ كما اشتغل في رحاب البحث الأدبي المقارن بفضل إطلاعه الواسع على الآداب الأوروبية منها البرتغالية و الإسبانية و البرازيلية؛ كما اشتغل في طرق دراسات الشعر و تأويله ،توفي بتاريخ **23-01-1960** بغوتنغن ؛ ينحو الاهتمام في هذا السياق المعرفي الهادف في اتجاه تقديم قراءة لمشروعه التنظيري المتعلق بخصوصية الدرس الأدبي عبر عمله المركزي الموسوم بـــ " **العمل الفني اللغوي:مدخل إلى علم الأدب** "[39] (**Das sprachliche Kunstwerk. Eine Einführung in die Literaturwissenschaft)** الصادر سنة **1948**

1- نظام الدرس الأدبي

الفرضية التي يمكن أن ينطلق منها الباحث و هو يحاول فهم حقيقة الدراسة الأدبية من حيث مقاصدها النظرية و العملية؛ كون الأدب ظاهرة فنية و لغوية في آن واحد يخضع إلى معطيات جمالية نسبية تجمع بين الذوق و المعرفة بشؤون الأدب و عليه يصير التفكير فيه على وجه اللزوم بوصفه موضوعا فنيا حساسا؛ من أجله و لأجله تشتغل الدراسة الأدبية وفق الإطار المنهجي الذي يرتضيه الدارس لنفسه ؛فإن سعى إلى ممارسة النقد فتتحوّل الدراسة الأدبية إلى دراسة نقدية أما خيار التأريخ للأدب فيعطي للدرس الأدبي حلّة تاريخية تحت مسمى **"تاريخ الأدب"** أما في حالة مطلب صناعة المفاهيم أو ضبطها فيصير الاشتغال الأدبي نظريا محضا ؛و الدراسة حينئذ تكون في أحضان **"نظرية الأدب"**.

إن مهام أيّ دراسة هي أن تطرح أسئلة جوهرية مصيرية؛ ضمن مجال بحثها ؛قبل أن تجيب عنها؛ إن كان ذلك ممكنا بالطبع ؛ ففي مجال الأدب ، يمكن تبيّن مجموعة من الأمثلة على سبيل الذكر لا التحديد على نحو : ما الأدب ؟ أين تكمن قيمته؟ هل تكمن أهميته في الشكل أم في المحتوى ؟ ما موقع الانفعال العاطفي منه ؟ [40] بالمقابل ما تمنحه الدراسة الأدبية من إمكانات إلى المشتغّل بحقلها، هو تجاوز عتبة التعرّف على الأدباء و أشكال النصوص الأدبية المؤتلفة و المختلفة إلى حدود النظر في أنواع الثقافات العالمية الإنسانية مع إمكانية فهمها ضمن وعي نقدي قابل لأن يثري الفضاء الإبداعي بكافة مظاهره المعتمدة في الوسط الأدبي و النقدي على حدّ سواء؛إنها تساهم بشكل فعّال في تطوير وتدقيق قدرات الدارس ذاته في التحليل و الفهم و التأويل من خلال قراءة عميقة مستفيضة لمختلف الأعمال الأدبية بالنظر إلى المناهج التي يسلكها اجتماعيا ،نفسيا، سيميائيا، ،بنيويا و في هذا الإطار تتمحور أكثر جهود فولفغانغ كايزر عبر كتابه هذا (**العمل الفني اللغوي**) و في ذلك يقول الناقد مترجم الكتاب المرحوم أبو العيد دودو «**ولعله يبدو من هذا العرض السريع لمحتويات الكتاب و فقراته مدى غزارة المعلومات و الأفكار المتنوعة ،التي يقدمها المؤلف في هذا الكتاب القيّم ،و سيلاحظ القارئ أن اهتمام كايزر كان منصبا على جانبين ،الجانب التحليلي فيما يتصل بالمحتوى والشعر والأشكال اللغوية ، و الجانب التركيبي فيما يتصل بالقيمة الفنية و الأسلوب و النوع الأدبي** » [41] فكل ذلك يشير إلى أهمية النظر في مسألة تأويل الشعر في ظل خصوصية بنيته على ضوء ما يمكن للتحليل الأسلوبي أن يخدم غرض علمية الأدب وفي ذلك مطلب الاعتبار لعدة عوامل قبلية و أدوات إجرائية بعدية

2-مؤهلات الدارس

يريد فولفغانغ كايزر ضبط مجموعة من المؤهلات التي يستوجب توفرها لدى الدارس ؛إذ يراها في موضع الضرورة التي تتفق مع منظومة تحليل النص الأدبي

1.1- ثنائية المؤهل الحسي و المعرفي

تجمع هذه الثنائية بين الحس النفسي و المعرفي ليصطلح عليها فولفغانغ كايزر بفكرة الحماسة إذ يصفها باعتبارها "***موهبة نظرية*** " تمكّن من "**فهم طبيعة المشكلات النظرية و استيعاب الطرق العلمية الضرورية للبحث و استعمالها في حلّ مسائل جديدة** "[42] فالدارس في حاجة لأن يمتلك حاسة الذوق الأدبي على منوال ما يمكن أن يحصل مع الشعر ؛فهو يقترن بإحساس خاص يرواده يشبه الجاذبية التي لا يستطيع المرء أن يقاومها؛بعبارة أخرى هي معايشة الأدب جسدا و روحا ، و سرعان ما هذا الإحساس يتطور إلى إدراك فيترجم وعي هذا الدارس بموضوعه ،فيرتقي إلى المؤهل المعرفي ما يجعله قادرا لأن يفقه حقيقة و خصوصية اللغة الأدبية على شاكلة استيعابه لــ " **طبيعة تركيب اللغة التي تجعل من كل ما يحتوي عليه العمل وحدة** "[43] و من ثمة فهو يهتدي إلى ***المقوّم***

الجمالي ؛ فمن أراد أن يجد تعليلا لهذا المنحى فليتمعّن ما تبوح به هذه المقطوعة الشعرية العربية لأحمد مطر التي قد تجعل الدارس المتحمّس ؛المتذوّق للشعر يسمو نحو هذه الجمالية **"حين وقفت بباب الشعر**

فتّش أحلامي الحراس

أمروني أن أخلع رأسي

و أريق بقايا الإحساس

ثم دعوني أن أكتب شعرا للناس !

فخلعت نعالي في الباب

و قلت :

خلعت الأخطر يا حراس

هذا النعل يدوس

و لكن ...

هذا الرأس يداس !" [44]

قد يشعر المتلقي من أول وهلة بهاجس المناجاة الشعرية الرومانسية من صميم أعماق الذات الإنسانية **"الأنا"** فيقيس أثرها بمنظار العاطفة تجاوبا مع فكرة الحماسة و يعلّلها بالموقف النقدي الذي يبرّر هذا الإعجاب؛ إنها ترجمة مباشرة لهذا الصدى الشاعري الصادر من فولفغانغ كايزر و هو يقول فيما معناه **"الأدب الجميل هو الموضوع الحقيقي للدراسة الأدبية و أن هذا الموضوع له طبيعة محددة تكفي التمييز بينه و بين النصوص الأخرى "**[45] فكايزر يؤمن بأن الناقد في حاجة إلى موهبة النقد بالفطرة قبل أن يتحول إلى منفذ معرفي خالص ،وهذا التمكين من شأنه أن يختبر درجة الفصل بين الأدب و ما يخرج عن إطاره .

2.1- التوفيق في الخيار المنهجي

لا يريد فولفغانغ كايزر الربط الآلي بين معرفة الشاعر الأديب و الحقيقة الأدبية المنضوية تحت راية النص الأدبي فـ" **الشاعر ليس ملازما للنص الأدبي ، و لذلك لا يمكننا القول بأننا لا ندرك معنى العمل الفني إلا إذا نحن عرفنا الشاعر معرفة جيدة . فالشاعر لا يدخل في الموضوع الحقيقي للدراسة الأدبية "**[46] ما يعني أن أساليب الدراسة الأدبية الكلاسيكية تسعى بشكل دائم إلى التوحيد بين الأديب و الأدب ، فهما في نظرها لا يقبلان مبدأ الانفصال بينهما و لعل ما أراده الناقد أحمد أمين أن يفصح عنه يأتي في صالح هذه المقولة الكلاسيكية بذريعة أن " **نفس الأديب هي المنبع الذي صدرت عنه القطعة الأدبية، فيجب أن تدرس هذه النفس ليفهم ما يصدر عنها، فالكتاب الذي ألف والقصيدة التي نظمت، لا يمكن فهمهما حق الفهم إلا إذا فهمت نفسية القائل— وهذا من غير شك صحيح إلى درجة كبيرة، فأنت لا تفهم ديوان الأخطل إلا إذا علمت أنه كان نصرانيًّا وعلمت مقدار تدينه، ولا تفهم قصائد البارودي فهمًا صحيحًا إلا إذا علمت نشأته، والمناصب التي تقلب فيها، والمحن التي انتابته .بل هناك أبيات وقطع نرى عند قراءتها أنها تحتمل نوعين من التأويل والشرح، ومعرفة الشاعر هي التي تعين على ترجيح أحد التأويلين "** [47] و عليه إذا ما تأملنا في موقف كايزر من هذه الإشكالية ؛فيسير في الاتجاه المعاكس لها ،فهو يميل إلى فكرة أولوية الخيار النصي عند الدارس ما يقتضي معاينة الأدب بمنظار الباحث اللساني ؛ ليحتل المكوّن اللغوي للخطاب مركز الصدارة و الاهتمام حتى تتضح خاصية التعبير الأدبي على الوجه الأكمل ؛ أي فقه سمات اللغة الأدبية الخارقة و الفعّالة ، و هذا أقرب إلى ما يصل إليه لطفي عبد البديع في كتابه **"التركيب اللغوي للأدب"** و هو يقول: « **فالذي في القصيدة شبه عبارات**

ليس لها سياق ولا موقف متعين؛ لكنها تمثل عبارات أصلية تخييلية...و على ذلك فموقف القصيدة إنما ينحصر فيما لها من مجال روحي ،و سياقها فيما تقرر لها ضمنا من كونها قصيدة ،لا تتأتى قراءتها إلا بالجهد المبذول لفهم العبارات التخييلية، التي إذا نظرنا إليها من جهة الموقف الذي يحدد معالمها ألفيناها و قد توارى منها القائل و المخاطب و المكان» [48] فصلب الدراسة الأدبية في نظر كايزر تحتّم على الدارس وضع النص نصب عينيه فيقرأه بنيّة الوصف قبل أيّ اعتبارات أخرى تخرجه عن سياقه الداخلي، من خلال التركيز على طريقة بنائه ما يستدعي عزله عن المؤثرات الخارجية النفسية و الاجتماعية بل قد يطلب من المؤرّخ في المجال الأدبي بأن يتمتع بـ " **تكوين لغوي متين ،و إن هو اقتصر على دراسة أعمال لغته القومية** "[49]حتى لا تنفلت منه أدبية النص التي يستشعرها في حدود البنية التعبيرية التي صنعتها ، فبعد أن كانت الظاهرة الشعرية تحت طائلة الرؤية المعيارية في ظل إصدار حكم القيمة و تقنين مقوّم الذوق ،انطلاقا من كتاب أرسطو الموسوم بفن الشعر في العصر اليوناني، و رسالة بيسونس(**Epistula ad Pisones**) لهوراس في العصر اليوناني المسماة بـ"**عن فن الشعر** (**De arte poetica**)"[50] و ما أفصح عنه عصر النهضة مع الناقد الإيطالي مينتورنو في فن الشعر (**Mintourno. Arte peotica 1563**)[51] وغيرها ؛ بذريعة أنها " **تنتمي إلى كل العصور وتخص كل الشعوب ، لأنه لم يكن هناك من وجهة نظر عصر التنوير سوى علم جمال شعري واحد أو لم يوجد سوى ذوق واحد** " [52] فصار التوجه الحداثي لما يحقّق و جود النص الأدبي في ذاته من طبيعة البنية التي تشكّله، و ليس احتكاما إلى زمن منشئه فحسب ،فتتم مراعاة سيرورة التلقي التي يشهدها عبر الزمن، و نتيجة ذلك لا تقتصر الأولوية على الموضوع المعبّر عنه بل في طريقة عرضه ؛ و هذا ليس ببعيد عما أراد ه أحمد أمين من قوله :« **فإن كل من ينتقل من أدب أمة أو عصر إلى أدب أمة أو عصر آخر سيدهشه التغيّر التام في الجو الفكري والخلقي.ولما كانت دراسة الأدب هي محاولة ربط الظواهر بعضها ببعض، كان على الدارس أن يلحظ في دقة الفروق بين الأدباء والعصور، وأوجه الاختلاف الأساسية التي تظل مبهمة عادة، فيجب أن يدرس الطرق المختلفة عن وسائل التعبير، وعن المسائل العظمى للأدب من حب وبغض، وغيرة وأمل .و أفراح وأحزان، ومشاكل القدر الخالدة، وكيف يكون التعبير عن هذه المسائل ونحوها باختلاف العصور.»**[53] فالدارس الذي يحلّل النص بهذه الوتيرة الوصفية الخالصة ؛له أن يتزوّد بالمعارف التي تمنحه فرصة تخطي التجربة الفنية الاستهلاكية حتى يتطلع إلى تجربة فنية جديدة ؛و هذا تحديدا ما أفصح عنه كايزر في تقديمه لنموذج معمارية الكنيسة بوصفها تحفة فنية تبدو و كأنها من تصميم الحاضر، إذ يكتشف السائح المعاصر على حد تعبيره (فولفغانغ كايزر) روعتها الجمالية في أدقّ تفصيلاتها التي تستجيب من منظوره لرهان زمنه الحالي بقوله :« **هذا إنسان يصل إلى مدينة مجهولة و يسير في شوارعها متئد الخطى ، وفجأة يجد نفسه أمام أثر فني ، أمام كنيسة مثلا ، تجلب انتباهه بنبل نسبها وتناسق أجزائها و جمالها . ولنقل أنه عرف فيها أثرا غوطيا ، ولكنه يريد أن يعرف عنها شيئا أكثر ، وعندئذ يعلم بأن الأمر يتعلق ببناية تعود إلى القرن التاسع عشر ، فيشعر بالخجل و يحس بطريقة غريبة أن الأرض قد انخسفت من تحت قدميه ، و تنتهي العلاقة الداخلية بالبناية فجأة ، ومع ذلك يبقى الانطباع الجمالي ماثلا ، إذ لم يتزحزح عن مكانه حجر واحد ، ولكن يبدو أن التجربة الجمالية لم تكن بالنسبة إلى المتأمل الحديث إلا جزءا من التجربة الكاملة»**[54] ما يعني أن الحس الجمالي يتحقق أكثر فأكثر على وقع إحساس المتلقي لحظة المعاينة بشيء من المتعة و قد تصل إلى النشوة في حدّتها ؛و من ثمة فهي موصولة بعنصر الآنية بالقدر الذي تجد الذات المتلقية غايتها في العمل الفني من خلال عنصر التوافق و الانسجام بناء على ما ألفته في خبراتها الشخصية الماضية على سبيل الأشكال المرئية أو الصوتية التي تعودت عليها و حتى على مستوى الأفكار التي يستعرضها هذا العمل الفني أو ذاك استجابة لتطلّع معرفي مسبق ،و قد يتفق هذا المنحى مع ما يجري الإفصاح عنه فيما يلي .

3.1- الإقرار بسلطة النص

يمكن لحركية التلقي حسب تقدير كايزر أن تكشف عن الهوّة الثقافية الفاصلة بين سلطة المؤلّف في مقابل سلطة النص من خلال مضمار الدراسة ؛ فالمتلقي عندما يسمع " **قصيدة ، فلا تترك في نفسه انطباعا كبيرا ، وهي لا تعني كثيرا بالنسبة إليه ،ثم يعرف أنها لشاعر يحظى باحترام خاص ،فإذا هو عاد إليها و قرأها مرة أخرى، فإنها تصبح عندئذ قصيدة من نوع آخر تقريبا ، مع أنها لم تتغير فيها كلمة واحدة ،وتبدو له الآن موحية ،و يحس بها ثانية ضمن التوسع في معناها ،و ذلك بصفتها وثيقة تعبر عن شخصية المبدع** "[55] ما يعني أن انطلاق الدارس من فكرة سلطة المؤلف بدلا من سلطة النص هو الذي يجعل هذا النص ذاته يفقد أدبيته بصورة سلبية باعتباره وثيقة على شاكلة تبعية مطلقة تأخذ استحقاقها من صانعها أي صورة الشاعر الذي يستحوذ على صورة القصيدة؛ فتجد القارئ لا يبادر بأن ينتج تصورا عنها وفق خصوصيتها الفنية و إنما الخضوع الفوري لهيبة هذا الشاعر فتصير قيمة النص موقوفة عليه بطريقة ساذجة و هو ما يتسبب في إلغاء صوت النص ، فتكون المساحة أوفر للوجهة التاريخية على حساب الحالة الإبداعية الماثلة في النص بالرغم من كونها المسؤولة في تشكيل الخبرة الجمالية لدى الدارس؛ و أفضل مثال على ذلك ما أوجدته حسب تصور كايزر أطروحة القرن 18 من مفاهيم و تصورات لم تحقق ما هو في صميم الدراسة الأدبية بتفويت سلطة النص و الارتكان إلى مواقف خارجة عن نطاقه من قبيل:

"**1-العمل الفني يحتوي على معنى خاص على مضمون**

2-العمل هو تعبير فنان خالق

3-الشاعر هو الصورة القديمة للفكر الخلاق

4- إلى جانب معرفته بالشاعر عرف القرن الثامن عشر كذلك الوحدات الخلاقة التي تكمن في روح العصر و روح الشعب"[56] و عليه ما يبتغيه كايزر هو مبدأ الإحقاق بشكلنة النص في نظامه التكويني الظاهر عبر مسار لغته و محاور الملفوظات فيه اعتمادا على إستراتيجية تضبط هذه التداخلات في الأحكام و المواقف الفكرية المعبر عنها[57] .

2- مؤهلات النص

لا نتوقع من الدراسة أن تحقق مبتغاها ما لم يوفّر النص ذاته إمكانات وجوده على صعيد المنبع و نظام البنية بالنظر إلى الاعتبارات التالية :

1.2-النص بين عتبة التحقيق و الشكلنة

لا يمكن أن تنطلق الدراسة الموصوفة بالعلمية ما لم تحقّق أصالة النص و تحدّد انتسابه و تضبط كيانه؛ و لعل هذا الأمر لا يجد إشكالا مع النص المعاصر المطبوع وفق الطرق التكنولوجية الحديثة عكس النصوص الموسومة بمجهولة المؤلف أو بقيت في صورة المخطوط أو حتى التي تعرّضت إلى طبعات عديدة ،ما يستدعي مباشرة " **الفحص من طبقة إلى أخرى ؛بمعنى أن يتم أولا فحص كل التغييرات التي طرأت على النصوص في الطبعة الأولى و الطبعة الثانية و الثالثة و هكذا** "[58] و مراعاة قدر الإمكان المعطى الأسلوبي في ظل خصوصية الجنس الأدبي المنوط به؛ على نحو ما يتصف به الشعر من إيقاع و تعبير و رؤية ؛ باعتبارها مؤشرات قد تنعكس بشكل أوفى على عالم الشاعر المسقط على النص الذي هو قيد التحقيق؛ إذا تبقى المسألة رهينة التأكد من صحة النص و صحة ارتباطه بمؤلف بعينه دون آخر مع الاستعانة بـــ" **قواميس اللغات القومية و اللغات الأجنبية و قواميس الكلمات الأجنبية و دوائر المعارف ستكون معينة له في كثير من الأحوال** "[59] ما يعني أنك لا تدرس النص ضمن صيغته النهائية المطبوعة و إنما معاينة المسوّدات التي اشتغل عليها المؤلف ما يفسر أنه "**لا بد أن يكون قد ترك في هذا العمل آثارا ،فهذه الآثار المادية**

هي التي يكرس النقد التكويني نفسه لإعادة كشفها و إيضاحها ،فإلى جانب النص و قبله ،قد تكون هناك مجموعة من وثائق الكتابة التي أنتجها الكاتب و جمعها وربما احتفظ بها "[60] و في ذلك ما يشير إليه كايزر في شأن الصعوبات التي ترواد عملية تحقيق النص و حفظه من الضياع فما يتعلق بمسرحيات شكسبير فقد وضّح بأن " **أعمال الباحثين لم تسلم مجدّدا من الاعتراضات؛ فإن ذلك لا يعني أن الأدب لا يزال يتحرك فوق أرضية مهتزة ،فقد قامت طبعة كامبريدج لمؤلفات شكسبير بشكل جوهري بمهمة إخراج النص الصحيح "** [61] كما تذهب فرضية التحليل بضرورة إعطاء الشكل حقّه من الدراسة ؛فعندما يرتبط الموضوع بالشكل الشعري فيؤكد كايزر في هذا الشأن بأن " **ليس الهدف من الدراسة الأدبية تقديم الأشكال اللغوية المستعملة في الأدب ...إن الدراسة الأدبية تستهدف بداية فهم العمل الأدبي وتفسير هو على هذا فهي لا تدرس كل شكل لغوي بصفته هذه و إنما تدرس مساهمته في بناء العمل الشعري ، و تتساءل بصورة دائمة عما تحققه الأشكال اللغوية في هذا الجانب و تتم قصد الوصول إلى جعل العمل الفني مفهوما كلية "**[62] فمن الضرورة تجاوز فكرة المنافسة بين الشكل و المحتوى القائمة في ثنايا النص الشعري إلى مصفّ التركيز بشكل إيجابي على وظيفة الشكلنة التي تتميز بها القصيدة ؛ باعتبارها وظيفة دلالية بالدرجة الأولى شيّدها فعل الكتابة دون أن يحسم في مضاعفاتها و عواقبها ؛ بالقدر الذي يجعل القصيدة ذاتها عبارة عن تشكيل شعري ذهني في جوهره و أي وجه من أوجه استثمار النص في بنيته عبر نموذج بنية القصيدة ؛فيفترض أنه يمرّ عبر "**وصف تركيبة تتابع المنبهات، واستنتاج القوانين التي تتحرك بموجبها "**[63] و هذا لا يعني التفريط في الخلفية الثقافية التي أوجدته بشكل خاص.

2.2– دور المرجعية التاريخية للنص

لا يمكن إغفال المرجعية التاريخية التي تنهض بها مختلف الأعمال الأدبية ؛ فكايزر ينظر إلى التاريخ بوصفه " **مصدرا ثريا في القرن التاسع عشر بشكل خاص ،إلا أن الشعراء قد اهتموا أيضا في الأزمنة القديمة بالموضوعات التاريخية سواء فيما يتصل من ذلك بأعمالهم كلها أو بجزء منها فقط حقا لقد جلبت انتباه الباحثين العلاقات القائمة بين أحفاد اللوزياديين و بين ما أورده من أرخوا للرحلات الاستكشافية من البرتغاليين "**[64] كما يعين التاريخ في فهم الحقيقة الفنية للنص الأدبي لدى الدارس ؛ ما يبرّر ذلك هو استدعاء المبدع لمؤلفات تاريخية و يوميات و سير ذاتية و تراجم و جرائد بطريقته (**الوظيفة التناصية**) في كثير من الأحيان ؛فتتوطد نتيجة ذلك العملية الإبداعية مع حبكتها التاريخية؛ فلا نكاد نميز بين الحقيقة التاريخية الصرفة و آليات التوظيف الفني للتاريخ؛ و هو ما نلحظ تحققه بإحكام في نص رواية "**كتاب الأمير**" وهي تروي حادثة انهزام جيش الأمير عبد القادر أمام الجيش الفرنسي " **كانت أوراق الخريف تنزل ثقيلة على الأجساد و تكسوها مضمخة بمياه المطر حتى لتكاد تغطيها إلى نهايتها . كانت الجثث منتشرة على مرأى العين ،الدائرة في معظمها أبيدت كان العد مقلقا و جارحا للأمير و لقادته أربعمائة قتيل ، ثلاثة مائة سجين و ستمائة بندقية و سيف حرب سلبها الفرنسيون و مائة و خمسون حصانا قطعت أوصالها ماتت أو كانت تموت في العراء و البرد و الجراحات الغائرة و عدد لا يحصى من البغال التي بدأت الذئاب و الكواسر في فتح بطونها "** [65] ما يجعل منطق قراءة الأدبية على نسق التوظيف الفني للتاريخ؛ و هي مجدية على كل حال في أية دراسة تراعي هذا المطلب ما تمثله الرواية من أبعاد و إحالات إذ أنها قادرة على إثارة الواقع و التاريخ في آن واحد من صميم الأمكنة و الأزمنة التي تستحضرها وأسماء الشخصيات التي لا تغيب عن المضمار الحياتي الذي نعهده "**فالقاص يبتعد عن الحدث بالعودة إلى رواية صيغة الحاضر عن طريق الماضي التام بصفته وجهة نظر خاصة** "، و نستشف ذلك ما ورد في إحدى مقاطع رواية" **العشق و الموت في الزمن الحراشي**" حيث يأتي ذكر شخصية الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين رحمه الله بصيغة أسلوبية تستدعي التأمل في وجه

العلاقة بين الماضي و الحاضر" **إنهم مجاهدون حقا ثوار ،يستحقون الدعم و الإعانة و حتى لو أنهم ليسو كذلك .فمجرد قدومهم إلينا هاتفين بحياة الهواري ،يضعهم في مصاف المجاهدين"** [66] فاستخدام صيغة المضارع يكون من قبيل أن ما كان في الماضي عبر النضال السياسي و العسكري صار نضالا من نوع آخر في عهد بناء الدولة الجزائرية في عهد الاستقلال، فالمجاهد كان بالأمس و هو اليوم أيضا حاضرا وفق أدوار جديدة و تطلّعات تراعي الراهن بالرغم من أنها لا تريد أن تتنكر للماضي المتعلق بالمنجز الثوري و هذا ما برّر الخوض في مسألة المرجعية التي أسّست وجود النص باعتباره بنية لم تأت من العدم.

3.2– لحمة النص و إحداث الدافع

قد يتعدى هذا الأمر في نظر فولفغانغ كايزر فكرة تلاحم النص بين أجزائه على صعيد منظومته التركيبية اللغوية ليمسّ الموضوع الفني في عمقه و في تطوّره ؛ما يجعله يسير بمنطق اللغز و يحرك فعالية التشويق و يكشف الحقيقة المبتورة "**إنه موقف نموذجي يتكرر باستمرار و مادة الموضوع يمكن أن تختفي و لا مناص من أن تختفي ،في أعماقها حوافز عديدة ،فهناك حافز في الحب الذي يربط في روميو و جوليا بين ابنين ينتميان إلى سلالتين متعاديتين و نحن نجد هذا الحافز ضمن حدود الارتباطات الفردية في أعمال أدبية لا حصر لها** "[67]مآل ذلك هو إمكانية تعدّد الحافز بالقدر الذي يجعل المتلقي(الدارس) يبحث عن حلّ غير متوفر؛ لا ينسجم مع توقّعه بشكل آلي ؛ كما يمكن أن يكون الحافز ذاته مركزيا لصلته بالحدث الرئيسي الذي يقوم عليه النص القصصي (كما يمكن أن يكون في شكل مثل أو رمز) أو ثانويا عرضيا فلا يؤثر في مسار الحبكة و في عواقب الأحداث و إلا ماذا يعني قول الكاتب واسيني الأعرج على لسان إحدى الشخصيات في الرواية؟ "**الكتابة ...لاشيء سوى رعشة الألم الخفية التي نخبئها عن الآخرين حتى لا يلمسوا حجم المأساة و جحيم صرخات الكلمات المذبوحة بنصل صدى**"[68] .و في السياق نفسه يركّز كايزر على **مقولة** الحكاية (**la fable**) و أهميتها ؛من منطلق أن كل عمل فني يراهن على السرد سيعتمدها كجوهر ؛ فهي التي تحدّد واقع الأحداث فتكشف مصدر وجودها زمانيا و مكانيا ؛و هو أمر لا ينبغي أن يفوت الدارس حتى و إن كانت تحتضن مفهوم الخرافة أو تعادلها دلاليا فـــ"**فهم الخرافة يساهم في جعل العمل الفني ذا شفافية ووضوح يضاف إلى ذلك أنها ستكون ذات أهمية بالنسبة إلى مشكلات الإبداع الشعري و الفنيات الأدبية و كذلك بالنسبة إلى الأنواع الأدبية** "[69] فعندما يقدم لنا عبد الفتاح كيليطو قراءته لنص من نصوص ألف ليلة و ليلة تحديدا "**حكاية الصياد**" فيكاد يجزم أن قارئ الحكاية سيشرع بدوره إلى استدعاء نصوص أخرى تبعا للمقولة النصية ،بل يعمد إلى التأويل "**ذلك أن في الحكاية عناصر تلزمه أن يطرح على نفسه بعض التساؤلات عناصر مبهمة غامضة شبيهة بألغاز و ليس فيها النص ما يساعد على فكها ،مثلا لا يتساءل القارئ لماذا للصياد ثلاثة أولاد ؟ لأنه يعتبر هذه المسألة عرضية ،و لكنه عندما يقرأ أن الصياد كان من عادته أن يرمي شبكته كل يوم أربع مرات ،فإنه يقول لنفسه لماذا أربع مرات ؟هذا أمر يبدو بحاجة إلى تفسير ،عدد آخر يشعر القارئ أنه غير عرضي و أعني الألف وثمانمائة سنة التي قضاها الجني داخل القمقم ،لماذا ألف وثمانمائة سنة ،عنصر ثالث يشكل لغزا الصياد يخلص العفريت فيجازيه العفريت بأن يريد قتله .هذا شيء يخالف التصورات العادية و بالتالي يدفع القارئ إلى إيجاد تبرير.إجمالا فإن الحكاية ذاتها تستفز القارئ و ترغمه على البحث عن تفسير لألغازها**" [70] فندرك في اللحظة تلك أن صياغة بناء الحكاية من صميم العمل السردي الذي يساهم في إثرائها على شاكلة الشعر أو النثر؛ فتكون قصدية هذا البناء تربوية وعظية ؛تعليمية على نحو هذا المقطع من حكايات كليلة و دمنة " **فدخل الآذن على الملك في وقته ؛ و قال :بالباب رجل من البراهمة يقال له بيدبا ؛ذكر أن معه للملك نصيحة. فأذن له ؛ فدخل ووقف و كفّر و سجد له واستوى قائما و سكت .و فكر دبشليم في سكوته: وقال هذا لم يقصدنا إلاّ لأمرين: إما لالتماس شيء منا يصلح به حاله ، و إما لأمر لحقه فلم تكن له به طاقة .ثم قال إن كان للملوك فضل**

في مملكتها فإن للحكماء فضلا في حكمتها أعظم :لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم و ليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال"[71] وقد نجدها في هذا التعبير أيضا لغة حجاجية قوية و منها ستظهر الشخصية بكل تفصيلاتها الاجتماعية والنفسية؛(**شخصية بيدبا**) باعتبارها تمثل جزءا من الواقع اليومي والاجتماعي على حد سواء بل ستكون القيمة الأخلاقية حينئذ ظاهرة على سطح النص متصفة بعمق إنساني كبير و فلسفة خاصة تؤمن بها الشخصيات الخيرة على حساب الشريرة الأخرى .

3-عتبة التصنيف

إن سلمنا بمنطق كايزر نجاح الدراسة الأدبية على أساس تحقّق إمكانات لدى الدارس ثم توفر آليات الاستجابة في مواجهة النص معرفيا ؛يبقى على هذا الدارس تخطي عتبة التصنيف أي حل إشكالية الجنس الأدبي؛ ما يسمح أيضا بالخوض في خصوصية النوع الأدبي و إلا فمضمار الكفاءة التي يعنيها كايزر تصير صعبة المنال ؛ ما يعني ضرورة تجاوز القالب الشكلاني المحض الذي يتمظهر عبره النص و هذا ما يفترض بدوره التقسيمات التالية :

1.3-النص المسرحي

قد يستقر الظاهر على فكرة وجود الفن المسرحي "**حينما يروي لنا شيئا و بالفن المسرحي حين يتحرك أمامنا فوق المسرح رجال في ثياب تنكرية ،و يتعلق فن الشعر حين نشعر بحالة تعبر عنها الأنا"**[72] ما يستدعي ضمن الوجهة المقابلة استهداف نظام بنائه من الداخل ، و الحجة في ذلك أننا عندما ''**نقرأ قصة و ننسى تماما أن شيئا ما يقص علينا فهناك ما يأسرنا و يجعلنا نعيش مع الأبطال على نحو ما مثلما نعرف ذلك عن المسرحية حين نشعر بها و نصفها بأنها درامية أو مثلما نشعر من جانب آخر أن مسرحية ما ليست رغم شكل العرض الخارجي درامية ،بل قد نشعر أنها ملحمية و كثيرا ما يحدث هذا حين تحول رواية إلى مسرحية** ''[73]فإن أردت أن تتعرف على نوع أدبي ما في جوهره فعليك أن تراهن على فعالية تلقيك له؛ لأن إحساسك هو الذي يقودك إلى حقيقة هذا الإبداع ؛فقراءتك لرواية ما في شكلها الباطن عبر الصورة الإيقاعية التي تراود لغتها السردية ستغيّر موقفك في شأن حقيقة انتمائها؛ لأنها ستشعرك بقوة إحساسك أنك بصدد قراءة قصيدة و ليست رواية ؛و لعل أصدق مثال على ذلك ؛ما يمكن أن ينطبق على رواية "**ذاكرة الجسد**" لأحلام مستغانمي من خلال هذه العّينة القصصية "**فكيف لا أرتبك و أنا أقرأك وكيف لا تعود تلك الرعشة المكهربة لتسري في جسدي و تزيد من خفقان قلبي و كأنني كنت أمامك و لست أمام صورة لك** "[74] و هكذا تتحرك الذات المعبّرة و هي تروي ما في عمق جروحها و مآسيها فينجذب القارئ و منه الدارس نحوها فينغمس في عالم الحكي بالطريقة التي يقتنع بجدارة فنية الرواية و قوة نفوذها الجمالي حينما تتغلغل إلى ذاته دون استئذان

2.3-النص الشعري

عندما يتعلق الأمر بالظاهرة الشعرية فكايزر يدرك أن معرفة طبيعته مستمد من شكله و أو بالأحرى في نظام تعبيره؛ و هو ما ينبغي أن يكون في سياق مجرى الدراسة الأدبية؛ لكنه يضيف إليه خاصية جديدة متجاوزا الشكل العروضي مستبعدا فكرة تغني الشعر بالأنا في كل الأحوال؛و هو مقام الموضوع في القصيدة تماشيا مع لحظة تلقيه؛ إذ ستنكشف لدى المتلقي تجربة ما؛ على أن "**يمتزج العالم بالذات و يتزاحمان و ذلك عبر الحالة النفسية هي في الواقع الإفضاء المتبادل بينهما فالحالة النفسية تستغرق الموضوع و الموضوع يستغرقها بوجد ،و هذه الوجدانية الموضوعية خلال الانفعال الراهن هي جوهر الشعر** "[75] فلو نظر هذا المتلقي و هو في موقع الدارس إلى نصه من هذه الزاوية؛ لوجد نفسه دون أن يشعر أنه يمتثل إلى التصوّر النظري الذي أفضى به فولفغانغ إيزر(**Wolfgang Isère**) من خلال فكرته التفاعلية بين القارئ و النص التي تفيد بأن القراءة هي عبارة عن نشاط يخضع لتوجيه من النص ؛مما يستدعي من القارئ ذاته أن يعود إليه بشكل مستمر عبر آلية نزعه (النص)من سياقه الخارجي

واستبداله بفكرة ملء الفراغات فيكون القارئ في موضع فعل صنع المعنى؛بحيث يزداد نشاطه التفاعلي على قدر حدوث عنصر اللاتماثل بينهما(القارئ و النص)[76] و لعل التركيز على ظاهرة الشعر هو كل ما من شأنه أن يولّد شحنة عاطفية شديدة الأثر على المتلقي؛ فيشعر أنه يتلقى تجربة خاصة يعلّل وجودها نشوته بالمعجم اللفظي في نطاق نظام تركيبي يشيّد متانة النص فيجيز لنفسه حقيقة المقولة الشعرية، على نحو ما ورد في هذه الأبيات لإبراهيم طوقان و هو يقاسمه تجربة العشق و التوق إلى الموعد العاطفي لرؤية الحبيبة :

"أين الرسالات و الشّو **ق ؟ فالجواب تأخـــــر
كم قلت :«شوقي كثير» ** أظن شوقي أكثـــــــر
أسائل البدر حيـــــــرا ** ن عنك إن هو أسفـــــر
ذكرت وجهك فـــــــيه ** و الشيء بالشيء يذكـــر
كوني بودّك كالــــــبد **ر فهو يخفى و يظهـــــر "[77]

نكتشف هذه الرنة الإيقاعية على وتيرة القراءة بين ألفاظ عدة :قلت –ذكرت /أكثر –البدر –أسفر –يذكر /علاقة أنا الشاعر بالموضوع تعكس امتزاجا روحيا كليا ؛حينئذ تتأكد فرضية أن جدارة الشعر بلغته و ببنية نصه و عليه فهو نوع أدبي مميز؛ بالمقابل يحرص كايزر على ضرورة اختبارية النص على أساس الموقف و ليس ما يصنعه الشكل فحسب ما يفهم أن المقام التواصلي في استخدام لغة التعبير يكون المفصل عندما يتم التمييز بين الأشكال الشعرية المختلفة ؛انطلاقا من شكل القصيدة الغنائية إلى الملحمة و منه إلى الدراما الشعرية (الشعر المسرحي) ؛ففي الموقف الملحمي تكون الذات "**في مقابل "هو" في مقابل "موجود" تدركه وتعبر عنه .إذا كان هذا التفسير صحيحا ،فقد نتج عنه ضرورة موقفان شعريان آخران،موقفان شعريان لا غير أحدهما الأكثر درامية و في مجاله لا يظل الجو النفسي و الموضوعي متقابلين و إنما يؤثر أحدهما في الآخر و يتبلوران عند عملية الاتصال فيصبح الموضوع مخاطبا و يتم التعبير في غمرة انفعال هذا التأثير المتبادل و نحن نسمي مثل هذا الكلام المخاطبة الشعرية والموقف الأساسي الثالث بعد هذا هو الموقف الشعري الحقيقي و في هذه الحالة ليس هناك موضوع مقابل ،يؤثر في الذات ،إذ يذوب هنا أحدهما في الآخر و يصبح كل شيء في الكيان الباطني .إن التعبير الشعري هو البوح البسيط للحالة النفسية الداخلية أو للانفعالات الداخلية و نطلق مثل هذا الكلام اسم الكلام الغنائي**"[78]. و لا يعني في ذلك أن ما من نص يستقر على موقف واحد بل يمكن لهذه المواقف أن تتداخل في نوع نصي واحد فتبقى الأبعاد متفاوتة بين حالة انفصال الذات عن الموضوع في الموقف الملحمي أو حالة التأثير بينهما في الدرامي أو حصول اندماج بينهما في الغنائي .

أما ما يريد كايزر الإفصاح عنه وهو يرصد النظام العروضي للشعر ؛ كونه لا يخضع إلى نظام واحد ثابت ؛ بقدر ما تحركه عدة أنظمة؛ بناء على لغة الإبداع التي أنتجته و ما يؤكد ذلك ؛هو الاعتماد على علم العروض الذي يشكل بدوره جزءا من الدراسة الأدبية فحينما "**نضع أبياتا شعرية ألمانية إلى جانب أبيات شعرية فرنسية من جهة و إلى جانب أبيات شعرية يونانية من جهة أخرى فالقواعد التي تنطبق على بعضها لا تنطبق على بعضها الآخر بأية صورة من الصور**"[79] و عليه عندما يتم تفكيك البيت الشعري بشكل عام إلى أصغر وحداته المنطوقة ؛فتجدها عبر المقاطع التي تشوبها ؛بعض النبرات إما بطريقة متساوية أو متفاوتة ،فالمقاطع المنبورة تعكس وجود الإيقاع في شكله الصريح ؛ أما في حالة غيابها أو انقطاعها فيسمى المقطع غير المنبور اسم انخفاض و يمكن تعليله انطلاقا من النموذج الشعري الألماني (الجرماني) الذي قدمه فولفغانغ كايزر في كتابه العمل الفني اللغوي :

" **I. Habe nun ,ach !philosophie ,**
Jurristerei und Medzin...

قد درست واويلتاه ،الفلسفة ،

و الحقوق و الطب ...

فالمخطط البياني لهذين البيتين إذا جعلنا علامةX للمقطع المنبور و علامة للمقطع X'غير المنبور هو

'X X X'X 'X X X 'X

'X X X'X X 'X X 'X "[80]

ما يستنتج من ذلك كون عدد الارتفاعات في البيت الواحد أربعة تماشيا مع الحدة الإيقاعية الحاصلة على وجه الضرورة ؛ وفق علم العروض المتعلق بالقصيدة الألمانية

3.3- النص الروائي و المصدر الملحمي

ولو تحولنا من نظام الشعر إلى جنس الرواية ،فكايزر يدرج عالم الرواية باعتباره عالما خاصا؛ إذ أنه أكثر ارتباطا بالروح الفردية للمرء متزّها عنها الخوارق التي تعرفها الملحمة ؛و من ثمة فهي تنقل تجارب شخصية صرفة لأناس عاديين ؛ فهي بقدر ما تنقل من الواقع فلها دفعة قوية في اتجاه الخيال، كما يصنفها وفق ثلاثة أبعاد ؛فهناك رواية الأحداث و رواية الشخصيات و رواية المكان " **وأقرب هذه لروايات إلى الفهم هي رواية الأحداث و بما أن الحادثة تهتم بالبداية الثابتة و الوسط و النهاية فإن كل تشكيل لهذا النوع يتصف بالكمال الذي لا يسهل الوصول إليه في الأنواع الأخرى** "[81]بينما رواية الشخصيات فهي أوطد بالبطل الذي تشكلت من أجله الرواية فتلتفت إليه الأنظار ؛فيتحدد المصير النهائي لمنوال الأحداث على أفعاله؛ فتجد بأن كاتب الرواية يكون "**قد زود بطل روايته بذلك الزخم النفسي و العمق و الكمال الذي جعل من عمله الفني الممثل الخالد لرواية الشخصيات** "[82]و هو ما نلمحه في هذا النموذج "**من يستطيع اليوم أن ينكر أن على عبد القادر أنه قاوم من أجل وطنه و دينه و يستحق كل تقدير من جيشنا**" [83]مقارنة بالمكان الذي يجعل من الرواية تنشد طريقا آخر؛ و هذا أمر جلي في رواية "**سوناتا الأشباح**" لواسيني الأعرج على لسان الشخصية الساردة " **رأيت لحظتها أمي وراء ضباب الموت .رأيتها بعيني هاتين اللتين لن تمسهما النار كما تقول مي،و هي تعبر شوارع المدينة ،المنداسة خلف نثار الأجساد و رائحة البارود .تدور في الحارات زاوية زاوية ، و بابا بابا :الحرم القدسي الشريف ،قبة الصخرة،المسجد الأقصى ،باب الرحمة ،حارة الشرفة و حارة اليهود في الجزء الجنوبي الشرقي من المدينة و حارة المغاربة من باب المغاربة ثم حارة الأرمن و باب النبي داوود و جبل الزيتون و حارة النصارى في الجزء الشمالي الغربي من المدينة و كنيسة القيامة و الباب الجديد و حارة السعدية و حارة بابا حطة** " [84] فيتضح بذلك أن ما يشكّل مقام الحدث و مقوّم الشخصية يمرّان عبر الوظيفة المكانية ؛إذ على أساسها يتم التحكم في بنية الشكل الروائي من هذا الصنف؛ فالمكان هو الملهم للصورة الإبداعية للرواية "**فالبطل تتجلى قيمته في المكان** "[85] ؛ و لعل في كثير من الأحيان حسب كايزر يكون للرواية التي تعتد بالمكان؛ ما له صلة بالكيان الزمني و الوقع الاجتماعي بحيث "**ما دأب الناس على وصفه بالرواية الزمنية و الرواية الاجتماعية ، فإنها لا تعدو أن تكون نماذج خاصة من رواية المكان** "[86] لأن من شأن وصف المكان قد يجد علته في الزمن الذي يبرّره ؛و أي حضور للمجتمع يكون في رحاب هذا المكان الذي يحتضنه .

4- الترتيبات الأسلوبية

1.4-نظام البلاغة

ينطلق كايزر في بناء معمارية الأسلوبية من أصل كيانها و هي في أحضان البلاغة ؛فهو عندما يستحضر الصورة البلاغية كي ندرك بأنها عبارة عن نظام تعبيري و تصويري في آن واحد إما على أساس الحقيقة و هو ما يصطلح عليه بالصور الفعلية (**figurae verborum**) وإما في نطاق وجود صور مجازية (**figurae sententiarum**) التي هي في أغلبها تبطّنها حكمة ما ؛و في هذا السياق ؛ فهو يعّدد لنا جملة من المظاهر البلاغية التي لها صلة بعلم البديع كما هو حال الجناس و ما يقصد من ذلك "**الحالات التي تجتمع فيها الكلمات المتشابهة لفظا المختلفة معنى**"[87] إلى جانب علم المعاني و ما له صلة بأساليب الإثبات بالنفي(**Litotes**) أو السخرية(**Ironie**) أو التهوين(**euphémismes**)و المبالغة(**Hyperbole**) دون أن يتجاوز أثر علم البيان في نطاق حديثه عن الكناية و التشبيه و الاستعارة و المجاز المرسل و حتى ننعم أكثر بالطاقة التصويرية للغة الشعرية فيهتدي كايزر إلى هذا النموذج الشعري عبر قصيدة لشاعر ألماني :«

Zierlich ist des vogels Tritt im Schnee ,
Wenn er wandelt auf des berges Hoh':
Zierlicher schreibt Liebchens liebe Hand,
Schreibt ein Brieflein mir in fremde Land.

لطيف هو خطو الطائر فوق الثلج
عندما يجول في أعلى الجبال
و يشكل ألطف تخط يد الحبيبة الحبيبة
تخط رسالة إلى في البلاد الغريبة » [88]و في شأن ذلك يفيدنا كايزر بتعليقه عن المقطوعة الشعرية فيقول :«**يتضمن البيتان الأولان صورة تتبعها إفادة و إذا نحن أردنا أن نقدم المضمون الفكري للمقطوعة نثرا ،ففي وسعنا أن نقول :إن خط الحبيبة ألطف من أثر الطائر .و هذا المضمون يصبح شعرا ،عندما ينضوي تحته وضع علاقة أثر الطائر بالكتابة تجد حلها في البداية ووجود أثر الطائر يصبح وضعا مستقلا و يتحول إلى صورة تتمثل في جملة مركبة تركيبا خاصا و يبقى للأبيات الموالية أن تعبر عن العلاقات الفكرية لغويا و أن تستعيد الصورة التي أصبحت مستقلة و من مميزات الصورة أن يكون لها هذا الترابط و هذه الاستقلالية »**[89] نستشف من هذا المنحى في الغالب قدرا من الارتباط بين السلوك الوصفي التصويري و خيط الفكرة التي تصنع المضمون بشكل متزامن؛ ومنه لا يمكن أن نختزل الصورة في العتبة الفنية و نحرمها من الوقع الدلالي الذي يحقق موضوعها؛ ما يجعل ***لحمة الشكل بالمحتوى*** أمرا لا مفر منه .

2.4--نظام التركيب

يصرّ كايزر كون نظام اللغة يساهم في تجلي بنية التعبير على أساس ما تقوم به الجملة من ترصيف عناصرها بالنظر إلى انتظام الكلمات المتجاورة فيها ،لكن المهم في ذلك أننا لسنا بصدد رصد ظاهرة نحوية صرفة بقدر ما نلمس في التركيب اللغوي قدرا من الانزياح ؛فيصير حينئذ التعبير تعبيرا جديدا يخرج عن المألوف ؛ و هو ما يشكّل في حد ذاته علامة أسلوبية بامتياز في حاجة إلى تفسير و الدليل على ذلك أخذه بنموذج اللغة الإسبانية و في هذا السياق يقول :«**عندما نعثر مثلا على هذين البيتين عند غوغورا**

Paga en admiracion las que teofrece

el hurto frustas y el jardin olores...

بالأعجاب ادفع ثمن ما قدمه لك

الجنينة من ثمار و البستان من عطر...

نجد أن فصل أداة التعريف بهذه الصورة عن الاسم الثمار ليس أمرا عاديا،و يتطلب التفسير، خاصة و أنه خاصية أسلوبية حقيقية ،بمعنى أنه يتكرر باستمرار »[90]ما يفيد في الغالب أن العمل بهذا المسلك في الإطار الإبداعي يشكل غاية إبداعية جمالية بالدرجة الأولى ؛كما تنعكس في كثير من الأحيان فضيلة التقديم و التأخير على الناحية الأسلوبية بشكل إيجابي و غير متوقع في آن واحد فنكتشف الوقع الدلالي و الإيقاعي بصورة مباشرة.

3.4–التعبير الفني

قد نكتشف من مزايا الدراسة الأسلوبية للعملية الإبداعية أن نحاول أن نقيس درجتها الفنية بحسب المنحى التعبيري السائد فيها بغض النظر عما تمليه القواعد النحوية الصرفة و لذلك فمن شأن معاينة النص الشعري أن يجعل "**التفسير التام للقصيدة يتطلب الفهم الدقيق لطبيعة البناء الفني** " [91]ما يعني أن الخصائص التعبيرية ترمي بظلالها على الأبعاد الموضوعاتية المطروقة فيها ؛ كما تعكس في كثير من الأحيان الحالة النفسية التي أنتجتها في نطاق من الشدة مقابل ضبابية المعنى السائدة في ثناياها، إذا الدارس مُطَالَب بوصف البنية من خارجها قبل التوغّل في جوهرها، فكل ملمح إيقاعي أو سردي تبوح به فيتوجب عليه رصده؛ ليتصدر الشكل الإبداعي في المقام الأول مع كل قراءة تلزم نفسها بمبدأ توخي العلمية و في ذلك مبدأ عدم استغناء عن قاعدة وصف النص فإن كان شعرا فلك أن تنظر في عتبته العروضية؛ أما إن كان نصا مسرحيا فلتراهن على تقنيات الفصل و المشهد من حيث البناء الفني الخارجي كي تستقر على مستلزمات البناء الداخلي وفق عتبة الحدث المسرحي فــ"**عندما نحاول تحليل بناء أية مسرحية يجب علينا أن نتساءل عن الطريقة التي اتبعها المؤلف في العرض و كيف تم ترتيبه له،بمعنى أن نعرف أوضاع الشخصيات و ملابساتها إضافة إلى مقدمة القصة التي ينطلق منها الحدث و علينا بعد ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار الأحداث الأولية المثيرة التي تقابلها الحوادث المتأخرة ...و علينا أن نميز عندما ندرس البناء الفني بين المشاهد الرئيسية و المشاهد الثانوية و أن نفهم الأوضاع الذرى و كيف تمّ إعدادها و كيف رتبت الفصول فيما بينها** "[92] و مع كل هذه الخطوات فكايزر يلّح على الدارس بضرورة تجاوز سلطة المعيار في دراسته للمسرحية و هو يتحرى جوهرها و ما يشكل فيها عنصر الإيجابية دون أن يلزم نفسه بنمطية الحدث و شرط وحدة الموضوع المطروق في بناء سلم الأحداث"**و لنذكر بهذه المناسبة أ ذلك ينطبق على شكسبير أيضا فنحن نجده عنده على الدوام مشاهد أو أجزاء من مشاهد لا علاقة لها بسير الحدث المسرحي و يتصل الأمر على الأكثر بالفقرات البلاغية الفخمة التي قد تكون بداية للتفسير و الفهم و نجد فقرة بلاغية رائعة من هذا النوع الذي أظهر فيه شكسبير تفرده في هذه المهمة التقليدية متمثلة على وجه التقريب في حديث بولونيوس الذي يودع به ابنه ليرتس قبل سفره في مسرحية هاملت فهذا الحديث ليس مرتبطا بالحدث و لا هو مرتبط بالشخصيات المسرحية** "[93]بالمقابل عندما يتعلق الأمر بالنص القصصي و في الغالب يستهدف كايزر في هذا الموقع ؛الرواية فيستدعي مراعاة حجمها النصي المحض على أساس تعداد الفقرات و الفصول و الأجزاء بحسب المنظومة التي طبعت عليها الرواية قبل أي اعتبار آخر؛ و لعل حبكة الأحداث هي التي تجعل من كل "**فصل يتخذ وضعا جديدا** "[94]ما يتيح للشخصيات أن تسبح في عالم واسع رحب مع رؤية الكاتب للوظيفة الزمانية و المكانية التي تتناسب مع فنية بناء الرواية ،فالرواية تقدم لنا عالما "**بكل ما له امتلاء و عمق و تتسم كذلك بهذا المضمون الشامل و أحداث المقدمة و المضمون الكلي ليسا دائما منفصلين بوضوح و منعزلين أحدهما عن الآخر في البناء** "[95]المهم في

ذلك على ضوء تعدد أحداث الرواية و تشابكها؛ البحث عن الأحداث المحورية التي تصنع لنا هذا الملمح الروائي؛ بل يستدعي عدم الاستهانة بأي حدث ؛قد يشكل في ظاهره أمرا ثانويا غير أنه في كثير من الأحيان قد يدخل في صميم الرواية ففي **رواية فيرتر** لغوته (**Goetheziet**)**"يروي فيرتر لصديقه ألبيرت قصة فتاة ،تيمها الحب إلى درجة أن حياتها تحطمت عندما تخلى عنها عشيقها ،و انتحرت وينهي فيرتر حديثه قائلا :«هذه قصة أناس من هذا النوع » و لكن من يعرف الرواية يعلم أن فيرتر يروي هنا قصته في الحقيقة ،و بهذا نصل إلى محور من محاور الكتاب ،و هو أن هناك اندماجا روائيا .غير أن قصة الفتاة الغريقة لا تكمن أهميتها في كونها قد اندمجت في قصة فيرتر فقط ،و إنما في كونها أيضا وسيلة تركيبية متميزة تضع فيرتر في عالم أكبر وتجعله يحس بها بصفتها قصة بعض الأناس من هذا النوع "**[96] و ما يراه كآلية محورية تحليلية في الرواية هو التعاطي الإيجابي مع الوصف و الحوار و السرد على قدر تعدّد أشكاله و تصنيفاته ؛مع التركيز على أهمية المشهد و دور توظيف الصورة.

خاتمة لا تريد أن تكون كذلك

نقرأ مما سبق في أولويات الدرس الأدبي لدى فولفغانغ كايزر بضرورة فهم الدارس لحقيقة العملية الإبداعية وفق تاريخانية النص من مصدر وجودها ، على أن يعزّز فهمه بالتصوّرات النظرية التي تتصدى إلى المفاهيم المنشغلة بقضايا تحليل الخطاب ؛ما يجعل المسلك مؤهلا ضمن الخطوة الثانية في ربط الصلة بين النص و مؤلفه فتتحقق حينئذ أهلية النص لدراسته ثم تأتي مرحلة الاستعانة بعدّة المؤلَّفات التي تعالج إشكاليات درسه بصفة فورية و مباشرة ثم تحديد طبيعة النص على ضوء جنسه والبحث في إمكانات تلقيه على أن يستقر في حدود بنيته الأسلوبية موظّفا الأطروحة البلاغية بعلومها و المعرفة العروضية في وجود النص الشعري مع تبيّن نظام التعبير بالقدر الذي يستجيب إلى هذه الخطاطة المنهجية المقترحة :

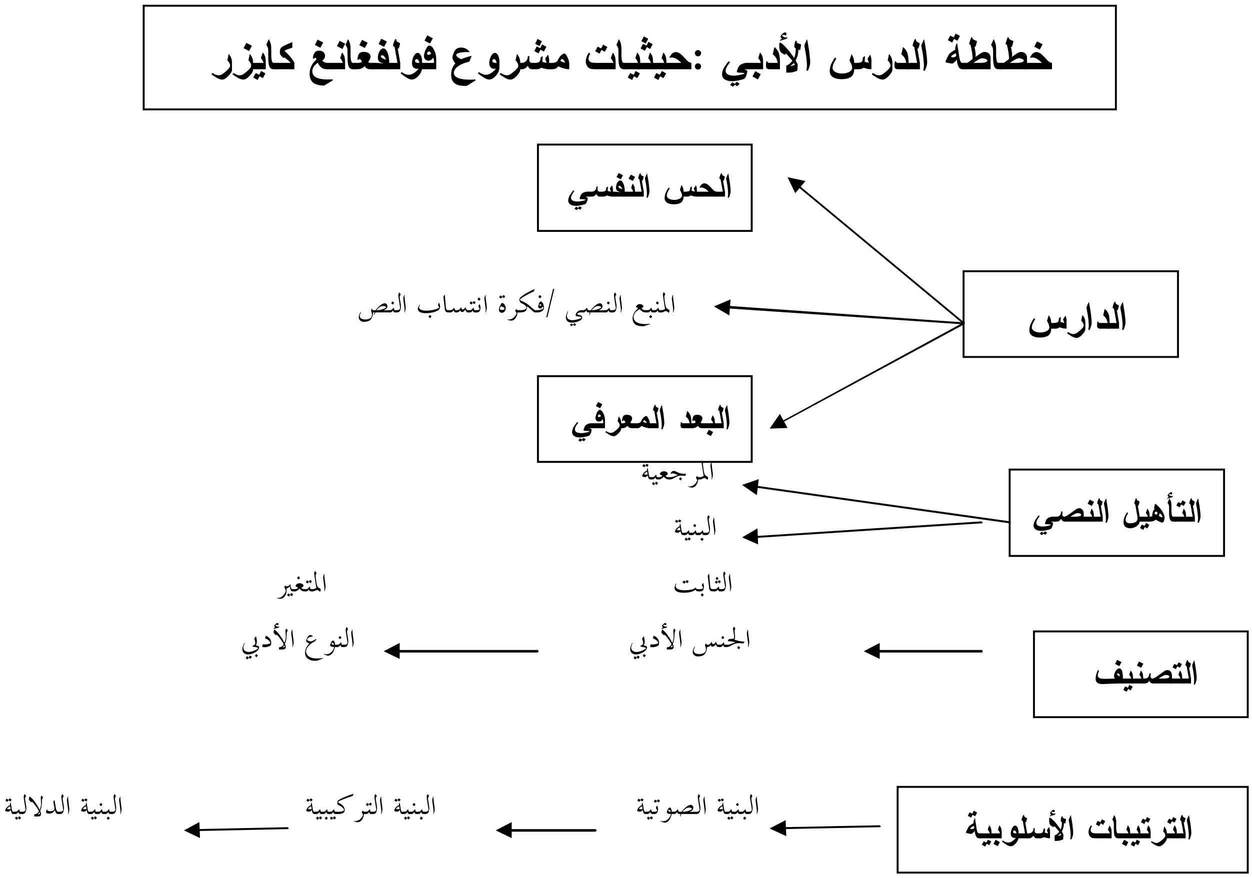

خاتمة لا تريد أن تكون كذلك

نقرأ مما سبق في أولويات الدرس الأدبي لدى فولفغانغ كايزر بضرورة فهم الدارس لحقيقة العملية الإبداعية وفق تاريخانية النص من مصدر وجودها ، على أن يعزّز فهمه بالتصوّرات النظرية التي تتصدى إلى المفاهيم المنشغلة بقضايا تحليل الخطاب ؛ما يجعل المسلك مؤهلا ضمن الخطوة الثانية في ربط الصلة بين النص و مؤلفه فتتحقق حينئذ أهلية النص لدراسته ثم تأتي مرحلة الاستعانة بعدّة المؤلّفات التي تعالج إشكاليات درسه بصفة فورية و مباشرة ثم تحديد طبيعة النص على ضوء جنسه والبحث في إمكانات تلقيه على أن يستقر في حدود بنيته الأسلوبية موظّفا الأطروحة البلاغية بعلومها و المعرفة العروضية في وجود النص الشعر[97]ي مع تبيّن نظام التعبير

الهوامش:

1. - فولفغانغ كايزر .تر :أبو العيد دودو .العمل الفني اللغوي :مدخل إلى علم الأدب .الجزء 1+2 دار الحكمة الجزائر ط فيفري 2000 .
2. -Vincent Jouve .Pourquoi étudier la littérature ? Ed Arman Colin Paris 2010. p10.
3. - أبو العيد دودو .مقدمة المترجم . العمل الفني اللغوي.ص 9 .
4. -المصدر نفسه.الجزء 1 . ص 19 .
5. -المصدر نفسه.الجزء 1 . ص23-24 .
6. -أحمد مطر .المجموعة الشعرية.لافتات 1 .على باب الشعر .دار الحرية بيروت ط 1 2011 .ص 13 .
7. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي.الجزء 1 . ص 24 .
8. -المصدر نفسه. ص27 .
9. -أحمد أمين .النقد الأدبي .مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة .القاهرة ط 2012 .ص 19 .
10. -لطفي عبد بديع .التركيب اللغوي للأدب:بحث في فلسفة اللغة و الاستيطيقا .دار المريخ للنشر الرياض .ط 1989 .ص 80 .
11. فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي.الجزء 1.ص 29 .
12. المصدر نفسه ص 29 .
13. -المصدر نفسه.الجزء 1.ص 32 .
14. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص 35-36 .
15. - أحمد أمين .النقد الأدبي .ص 18 .
16. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي .الجزء 1 . ص 36 .
17. -المصدر نفسه.الجزء 1 . ص 37 .
18. -المصدر نفسه.الجزء 1 . ص 37 .
19. - Vincent Jouve. L'autorité textuelle .In Les valeurs dans/de la littérature :Textes réunis par Karl canvat et George Legros . Presse universitaire de Namur .Belgique . p 89 .
20. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي .الجزء 1 . ص 46 .
21. - المصدر نفسه.الجزء 1 .ص 75 .
22. -بيير مارك دوبيازي (Pierre-Marc De biasi).النقد التكويني .مجموعة من المؤلفين .تر: رضوان ظاظا .مدخل إلى مناهج النقد الأدبي. .ع 221 سلسلة عالم المعرفة .المجلس الوطني للثقافة الكويت .ط ماي 1997 .ص 13 .
23. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي .الجزء 1.ص 52 .
24. - المصدر نفسه.الجزء 1 ص 157 .

25. - ثائر العذاري .التشكلات الإيقاعية في قصيدة التفعيلة من الريادة إلى النضج .رتد للطباعة و النشر و التوزيع .دمشق ط 2010 .ص 37 .
26. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي.الجزء 1 .ص 85 .
27. -واسيني الأعرج .كتاب الأمير: مسالك أبواب الحديد .منشورات الفضاء الحر .الجزائر ط 2004 ..ص 322.
28. -الطاهر وطار .العشق و الموت في الزمن الحراشي :اللاز الكتاب الثاني.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر . ط 1982 .ص 92 .
29. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي .الجزء 1 . ص 90 .
30. -واسيني الأعرج .حارسة الظلال:دون كيشوت في الجزائر.ورد للطباعة و النشر و التوزيع دمشق .ط 2 2006 ص 15 .
31. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي .الجزء 1 . ص124 .
32. -عبد الفتاح كيليطو .الحكاية و التأويل:دراسات في السرد العربي القديم .دار توبقال للنشر و التوزيع .الدار البيضاء ط 1 1988 .ص 24 .
33. -الفيلسوف الهندي بيدبا .تر :عبد الله بن المقفع .كتاب كليلة و دمنة.الدار الأميرية بولاق القاهرة .ط1937 .ص 21-22 .
34. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي .الجزء 2 . ص505.
35. - المصدر نفسه.الجزء 2 . ص505-506 .
36. -أحلام مستغانمي .ذاكرة الجسد .دار الآداب بيروت ط 15 .2000.ص 16 .
37. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي .الجزء 2 . ص 510 .
38. -Wolfgang Isère .l'acte de lecture : théorie de l'effet esthétique .Pierre Mardaga editeur .Bruxelles1985 . p289-292
39. - إبراهيم طوقان .الأعمال الشعرية الكاملة .أين الرسالات.مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة القاهرة ط 2012 .ص 108.
40. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي.الجزء 2 . ص513-514 .
41. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص125-126 .
42. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص126-127 .
43. - المصدر نفسه.الجزء 2 . ص540-541 .
44. -المصدر نفسه.الجزء 2 . ص543.
45. -واسيني الأعرج .كتاب الأمير.ص 30 .
46. -واسيني الأعرج.سوناتا الأشباح .دار الآداب بيروت ط 1 2009 .ص 9
47. - فولفغانغ كايزر. العمل الفني اللغوي.الجزء 2 . ص546.
48. -المصدر نفسه.الجزء 2 . ص545.
49. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص175 .
50. -مقطع من أغنية الصيادين للشاعر الألماني موريكه (M�rike 1875-1804) نقلا عن المصدر السابق لفولفغانغ كايزر "العمل الفني اللغوي" الجزء 1 ص 193 .
51. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص193 .
52. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص207 .
53. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص264 .
54. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص282 .
55. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص283 .
56. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص287 .
57. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص287 .
58. - المصدر نفسه.الجزء 1 . ص288 .

معلقة عنترة (قصيدة الاستفزاز النفسي)

Antara's epic 'Mu'allaqa' (poetry of psycho provocation)

الدكتور محمد محمود العمرو

جامعة العلوم الإسلاميَّة العالميَّة

كلية الآداب والعلوم الإنسانيَّة والتربويَّة

قسم اللغة العربية–للدراسات الأدبية والنقدية –

عمّان – الأردن

الملخص

تحاول هذه القراءة إثبات أثر الحالة النفسية والمحفزات الخارجية في إثارة مكامن النفس وحثها على الإبداع الأدبي مع ضرورة امتلاك الإنسان مقومات الإبداع الأدبي، ممثلة أولاً بالموهبة و الملكة والاستعداد الفطري، ثم الحساسية العالية في النظر إلى الأشياء والتعامل معها.

تمثل معلقة عنترة نموذجاً للاستفزاز النفسي الخارجي الذي حرص عنترة من خلاله على إثارة مكامنه من أجل رد التهمة عنه، فكان المثير الداخلي لعنترة الطلل(المكان) وعلاقته بالإنسان،ثم المرأة وأثرها على النفس وأخيراً المحفز الخاص بالنسبة لشاعرنا وهو الفروسية, التي سعت نفس الشاعر إلى جعل هذه الصفة ملاً للفراغ النفسي الذي يعانيه .

ABSTRACT

This study attempts to investigate the effect of the state of psyche and external motifs in arousing the most inner feelings of the psyche that drive the literary creativity stressing on the availability of the literary creativity enablers as represented by the talent and high sensitivity of seeing things and manipulation.

Antara's collection "*Mu'allaqa*" exemplified the outer arousal of the psycho used by *Antara* to instigate his most inner energies to defend against suspicions. For *Antara*, the internal motif was the *Talal*, place and relationship with the human being, and woman with her effect on the self. Finally was a special motif for our poet that is the knighthood through which this psyche sought to gratify the psychological vacation experienced by the poet.

المقدمة:

للفنان أحاسيس مرهفة تميزه عمن سواه، وتجعله يتفاعل مع الموقف وينظر إليه، ومن ثم يصوره بطرق تختلف عن الأخرين، وشاعرنا من هذا النوع من الفنانين مرهفي الإحساس يصقل إحساسه ويقوم ظروفه التي عاشها، فقد عاش حياته يعاني من عبودية لأبيه وقومه بسبب سواده الذي يعود لخؤلته الأحباش، وقد زاد هذا الإحساس حبه لابنة عمه عبلة.

لقد لعبت نفسية عنترة دوراً بارزاً في إبداعه الأدبي، ممثلاً بمسابة رجل عبسي له, مما أدى إلى إثارة النفس التي سئمت حياة العبودية، وسعت جاهدة للتخلص منها، فكانت قصيدته المعلقة مثالاً لهذه الاستثارة النفسية من خلال الطلل وصلته بعبلة, صاحبة المحفز الإنساني والمثير النفسي، ثم الفروسية التي يسعى من خلالها إلى وضع نفسه موضوعاً يرضاه لها بقوة سيفه لعجز نسبه، فكانت هذه المعلقة بمضمونها مثالاً للاستفزاز النفسي.

ورد في سيرة عنترة أنه لم يكن يقول من الشعر إلاّ البيت أو البيتين، حتى سابه رجل من بني عبس، فذكر سواده، وسواد أمه وأخواته، وعيّره بذلك، فقال له عنترة: والله إن الناس ليترفدون بالطعمة،... ، أما الشعر فستعلم، فكان أول ما قال قصيدته المعلقة .[98]

لقد أثار هذا الاقتباس في نفسي أسئلة تدور حول النظم، ولاسيما أن عنترة فارس عاشق، وهذان المضمونان-الفروسية والعشق- تدور حولهما قصيدة عنترة التي نظمها بدافع التفوق الشعري، فما المثير الذي يبعثه العشق والفروسية؟ وهل كان هذان المضمونان بدافع الإثارة أم بدافع التقليد الشعري؟ وهل الفروسية والعشق هما اللذان دفعا عنترة إلى نظم هذه القصيدة التي أقامها على هذين المضمونين؟

يقول ابن قتيبة في الشعر والشعراء: وإنما طريقة العرب في الشعر فمخاطبة الربع والديار، وذلك ليجذب إليه الأسماع فإذا ما شعر أنه تمكن منها انصرف إلى الغرض الرئيس[99]،يشير هذا الاقتباس إلى أثر المضمون في السامع وإثارة النفس وتفاعلها مع الشاعر، فهل يكون لهذين المضمونين-الفروسية والعشق- أثر في استفزاز الشاعر عامة، وعنترة خاصة، ولا سيما أنه نظمها في ظروف خاصة كما أسلفنا؟ وهل كان وقوف عنترة على الأطلال على سبيل التقليد الفني أم من باب الاستفزاز للإبداع؟ وهل كان ذِكْرُ المحبوبة من باب التغزل وعرض مظاهر الفتوة، أم أنه عنصر مساند للأطلال الذي لا يكاد ينفصل عنها، وهل ذكر بطولاته كان من باب إظهار رجولته كما قيل: أم هي أداة استفزاز ثانية تشحن النفس للإبداع؟

يقول عنترة:[100]

هل غادرَ الْشُّعراءُ من مُتَردَّمِ ... أَمْ هَلْ عرفْتَ الدارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
أَعياكَ رسمُ الدَّارِ لم يتكلَّمِ ... حتى تكلَّمَ كالأَصمِّ الأَعْجَمِ

إن أول ما يلفت الانتباه في مقدمة معلقة عنترة الاستفزازية طريقة الربط بين الأغراض الشعرية التي درست وبين الديار التي أصبحت أثاراً منطمسة يعرفها الإنسان بالتوهم، ليكون بذلك ردّاً على من سبه، واستفزازاً لنفسه على الإبداع عن طريق توضيح أن الشعراء القدماء لم يتركوا لعنترة أو لغيره من الشعراء شيئاً يظهرون من خلاله إبداعهم، فيكون بذلك قد اندثر أحد أهم أسباب المثيرات الإبداعية بسبب هذا التداخل، ثم سعى لتسويغ هذا الإحباط، فكان عن طريق الطلل الذي تتشابه فيه جميع العرب، فلا يكاد يعرف الإنسان دياره أو ما له – إلاّ بالتوهم، ليكون بذلك قد ربط بين طرفي الصورة برابط عقلي، حاول عنترة من خلاله إظهار إبداعه وخصوصيته، ولكي يتوج هذه الخصوصية راح يضفي عليها من روحه حبها ومن قلبه سويداءه، إنها عبلة المرأة التي تستحق أن تكون محفزاً نفسياً ومثيراً للإبداع، وأما إظهار الخصوصية فقد راح الشاعر من أجله يصور نفسه عندما

رأى الأطلال وما حل بها من اندثار وانطماس انعكست أثارهما على حال الشاعر الذي أعياه هذا المنظر، وأتعبه، ولاسيما حينما رأى هذه الديار عاجزة عن الإفصاح عن ذاتها والتعريف بنفسها، و لم يعد الشعر قادراً على الدلالة عن ذاتية صاحبه، فيكون بذلك قد قدم لنفسه المحفز، وللرجل سبب بعده عن الشعر، إضافة إلى بصمته الخاصة في الإبداع.

وليتوج هذه الخصوصية- خصوصية الشعر وموت المكان- راح الشاعر يستفز نفسه من خلال ناقته التي حبسها طويلاً عله يجد فيها ما يدله ويستنطقه، وحينما عجز عاد إلى أثار متأصلة بالأرض لا تخلع، إنها حجارة الموقد التي ربما أشار الشاعر من خلالها إلى الأشياء التي يتفق عليها كلُّ العرب، فكما تعبر هي عن الحاجة الفردية فإنها تعبر كذلك عن الحاجة الجماعية, لتكون هذه الآثار في مقابل القصيدة الشعرية التي يتفق عليها جميع الشعراء، عندها تصبح الخاصية في مثل هذه الحالة خاصية نفسية نابعة من الاستفزاز،و بعدها راح الشاعر يربط هذه الخصوصية بمحفز نفسي آخر إنه عبلة المرأة التي تستحق أن تكون محفزاً نفسياً ومثيراً للإبداع، وتضفي على هذا الأدب خصوصية مميزة له عن غيره، كيف لا وهي ربة الشعر بالنسبة لعنترة الفارس. وهنا لابد لنا من الإشارة إلى ارتباط الإنسان بالمكان وما يشكله المكان بالنسبة للإنسان عامه وللجاهلي خاصة، ولاسيما أنه يمثل تقلبات الزمن وعدم ثباته على حال، وهو الهاجس الذي يقلق الإنسان، ويذكره بالمصير، ومن هنا كان ارتباطه بالمحبوبة التي تشكل هاجساً داخلياً للشاعر من حيث البقاء أو الاندثار, سواء بالهجرة بعد الخروج من المكان الذي مات وبموته ذهب ما كان بين الشاعر وصاحبته, أو بزواجها من شخص آخر، وفي كلا الأمرين يبقى المكان مرتبطاً بالإنسانة المحبوبة وبالحياة، ويبقى مرتبطاً بالفردوس المفقود[101]، لذلك تداخلت في نص عنترة صورة الطلل بصورة عبلة وكأنها المولّد الذي يشحن فيه الشاعر عواطفه ويهيجها لأجل النظم والاستعانة على الخلق، والإبداع بطريقة بسيطة[102].

وكي يثير الشاعر في نفسه حب الإبداع كان لابد له من اللجوء إلى المعاناة خاصة مع المكان، ولاسيما المكان الذي هاجرت إليه المحبوبة, إنه مكان يصعب الوصول إليه, لا يستطيعه أحد، وفي هذا إشارة عميقة إلى الرجل الذي عاب عليه عدم نظم الشعر، لتكون العلاقة بين مكان المحبوبة وصعوبة الوصول إليها شبيهة بنظم الشعر وصعوبة اصطباغه بالصبغة الخاصة للشاعر، لأن الخصوصية خرجت من الدائرة الفردية، ممثلة بالحالة الاستفزازية للشاعر إلى الدائرة الجماعية ممثلة بالتقاليد الفنية للشعر، وهذا الذي جعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة لعنترة، وجعلها بالنسبة له كالديار التي رحلت إليها عبلة.

ولكي يشير عنترة إلى ارتباط المكان بمن فيه راح يصور المكان الذي تسكن فيه عبلة وأطلالها ليبين أن حياة المكان مرتبطة بحياة من فيه، كما أن حياة الشعر مرتبطة بوجود حياة إنسانية في قلب الشاعر.

ونلاحظ أن عنترة في مقدمته يجعل الموت المكاني بين حياتين.

يقول الشاعر:[103]

هل غادرَ الشُّعراءُ من مُتَردَّمِ	أَمْ هَلْ عرفْتَ الدارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
أَعياكَ رسمُ الدَّارِ لم يتكلّمِ	حتى تكلَّمَ كالأَصمِّ الأَعْجَمِ
وَلَقَدْ حبستُ بها طويلاً ناقتي	أَشكو إلى سُفْعٍ رواكدَ جُثَّمِ
يا دارَ عَبْلَةَ بالجِواءِ تكلّمي	وَعِمِي صَباحاً دارَ عبلةَ واسلمي
دارٌ لآنسةٍ غضيضٍ طرفُها	طوعِ الْعناقِ لذيذةِ الْمُتَبَسِّمِ
فوقفتُ فيها ناقتي وكأنَّها	فَدَنٌ لأَقضيَ حاجةَ المُتَلَوِّمِ
وتَحُلُّ عبلَةُ بالجِواءِ وأَهلُنا	بالحَزْنِ فالصمَّانِ فالمُتَثِلَّمِ

حُيِّيتَ مِن طَلَلٍ تقادمَ عهدُهُ ... أَقوى وأقفَرَ بَعْدَ أُمِّ الهَيثَمِ
شطت مزار العاشقين فأصبحت ... عسراً عليَّ طلابك ابنةمخرم
عُلِّقْتُها عَرضَاً وأَقْتُلُ قومَها ... زَعْماً وربِّ الْبيتِ لَيْسَ بمَزْعَمِ
ولقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمترلة المحب المكرم
كيفَ المزارُ وَقَدْ تربَّعَ أَهلُها ... بعُنَيْزَتَيْنِ وأَهلُنا بالغَيْلمِ
إنْ كُنْتِ أزمَعْتِ الفراق فإنما ... زمت ركابكم بليل مظلم
ما راعني إلا حَمولةُ أَهْلِها ... وَسْطَ الدِّيارِ تَسَفُّ حبَّ الخِمْخِمِ
فيها اثنتانِ وأربعونَ حَلوبةً ... سوداً كخافيةِ الغُرابِ الأَسْحَمِ

لعل الشاعر أراد بالحياة الأولى الواقع الذي حفزه لقول الشعر، فكانت الحياة الأولى ممثلة باستفزاز الرجل له، والأخرى ممثلة بعبلة التي ولّدت لديه هذه الإحساس الذي ساعده على نظم الشعر، ومن ثم إحياء المكان على الرغم من الطبيعة القاسية التي حاولت طمس معالمه وإخفاءها، وما المكان إلاّ استفزاز لنفسه. فهو بندائه المكان وطلبه منه الإجابة، ينادي الشعر ويطلب من نفسه التجديد والنظم، ويقود هذا الطلب والاستفزاز اسم عبلة في الشطرين.

وينعطف الشاعر ليصور حالته النفسية عندما رأى الأطلال وما حلَّ بها من اندثار وانطماس بات معه التعرف على خصوصية المكان كالوهم في التعرف على خصوصية الشعر، فكلاهما حسب قول عنترة قد فقد خصوصيته وهو بهذا يستفز نفسه للنظم.

ونجد الشاعر مقابل هذا الموت المكاني والتعب النفسي يقف ويحبس ناقته طويلاً عله يجد فيها ما يرشده ويستنطقه، وحينما عجز، عاد إلى آثار متأصلة في الأرض، إنها حجارة الموقد التي ربما أشار من خلالها عنترة إلى الأشياء التي يتفق عليها كل العرب، ويعبر من خلالها كذلك عن الحاجة الفردية والجماعية، وما كان ذكره إياها إلاّ لتكون موازية للقصيدة الشعرية التي يتفق عليها جميع الشعراء، وتصبح الخاصية في مثل هذه الحالة خاصية نفسية،ثم إن هذه الرموز التي تمثل البيئة الأدبية ما هي إلاّ مادة استفزاز نفسي تدفع بالشاعر نحو الإبداع والنظم، لذلك راح الشاعر يتغنى بما يجعل لهذين الأمرين خصوصية، فخصوصية الشعر ممثلة بنفسية عنترة وبتجربته الشعرية النابعة من إنسانيته وحبه لعبلة، والأخرى المكان (الطلل) الذي ربطه بعبلة، ليكوِّن بهذا الربط خصوصية الشعر والمكان، ومن ثم ربطهما بعنترة، وهذا الربط يثير في عنترة كوامن نفسية، يستفزه فيكون عندها المكان المادة الأولية للاستفزاز الشعري, فإذا ما فتر هذا المكان راح يشعل نبراسه ,ويعيد فيه حياة ثانية ممثلة بعبلة، لتكون عبلة والمكان المرتبط بذكرها مادة حبه تساعد الشاعر على النظم أولاً، ثم تجعل هذا الشعر مرتبطاً بخصوصية صاحبه، وهو عنترة، وبذلك يدفع الشاعر نفسه نحو الإبداع الخاص، لا الإبداع المكرر الذي تتداخل فيه المعالم، فلا يعود الشاعر يميز شعره من شعر سواه.

وكي يقوي الشاعر من تحفيز نفسه, ويدفعها نحو النظم والإبداع، يتجه للمحفز الإنسان الذي يثير الشاعرية في نفسه ممثلاً بعبلة المحفز الإنساني الذي يرتبط بالمكان ليكوّنا معاً محفزاً مزدوجاً للنظم والخصوصية، يتساندان فيحرضان قريحة الشاعر, ويحثانه على النظم والإبداع, ويدفعان النفس نحو التجديد، وتستمر هذه الازدواجية بين المكان والإنسان في البيت التالي ,وكأني بالشاعر يعرّض نفسه من خلال هذه الازدواجية إلى صدمة نفسية تكون له بمثابة المحفز على النظم، حتى إذا تم له ذلك راح يتحول من هذا المكان إلى مثير جديد يرتبط بالإنسان، وهو تصوير حبه لعبلة, وكيف كان مدخلاً للحرب، لتكون دافعاً نفسياً لعنترة الفارس.

وحينما تهدأ نفسه, ويستوي له أمر الشعر طوعاً، نجده يتحدث عن عبلة مخبراً إياها أنها قد نزلت منه منزلاً كريماً لا يتغير بتغير الأيام، وهنا يربط بين مكانين وشخص، فالمكان الأول هو قلب عنترة الذي أصبح منزلاً لعبلة لا تفارقه، والمنزل الثاني هو المكان المادي عنيزتين, وأثر بُعد هذا المكان على نفسية الشاعر ، وعلى ما يبدو أن الشاعر يلهث خلف التعب لأجل الاستفزاز النفسي الذي يبدو في البيت التالي من خلال الفراق, واختار وقتاً قاسياً لا تتضح فيه رؤية، وهذا مما يزيد الأمر تفاقماً في نفس الشاعر وتأزماً، وهذا التعب والتأزم يرافقه الموت المكاني ممثلاً بانتهاء الكلأ في الديار, وما يترتب عليه من وجوب الارتحال، وعلى ما يبدو فإن الشاعر يلقي باللوم في هذا الموت على الإبل التي شبهها بالغراب وما ينذر به من شؤم، فكانت الإبل إشارة إلى موت المكان، كما يشير الغراب إلى الموت العاطفي، ممثلاً بالفراق والاغتراب.

ومقابل هذه النظرة السوداوية يتجه الشاعر إلى عبلة المحفز الرئيس في النص، فيقول متغزلاً بفمها:(104)

إذْ تَسْتَبيكَ بأَصْلَتِيٍّ ناعِمٍ عَذْبٍ مُقَبَّلُه لَذيذِ المَطْعَمِ

لقد راح يصور الشاعر صفة جمالية لعبلة تختلط فيها صفتان خَلْقية وخُلقية، ولاسيما أن هذا الفم مصدر الحديث، وأثر ذلك على الاستفزاز، والذي يشير إلى هذا الغرض كلمة (تستبيك) (105)، فهي إلى جانب الناحية الموسيقية التي توحي بالراحة التي ينشدها الشاعر، فإن فيها كماً كبيراً من التعبير عن الاستثارة، فالفم ليس جميلاً عادياً ,وإنما يسلب الإنسان عقله ويغلق عليه أبواب الراحة، فيجعله في حالة تفكر دائم، ثم راح يدفع بنفسه نحو النظم في صور متعددة يصف لك من خلالها صفة هذا الفم اللذيذ، يقول مستفزاً نفسه: (106)

وكأنَّ فأرة تاجرٍ بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم
أَوْ روضَةً أُنفاً تَضَمَّنَ نَبْتَها غَيْثُ قليلُ الدِّمْنِ ليْسَ بمَعْلَمِ
أَوْ عاتقاً من أذرِعاتَ مُعَتَّقاً مما تعتِّقُهُ ملوكُ الأَعْجَمِ
جادتْ عليها كلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ فتركْنَ كُلَ حديقةٍ كالدِّرْهَمِ
سَحّاً وتَسْكاباً فكلَّ عشيَّةٍ يجري عليها الماءُ لم يتصرَّمِ
فترى الذبابَ يُغَنّي وحدَهُ هَزِجاً كفعلِ الشّارِبِ المُتَرَنِّمِ
غَرِداً يَسُنُّ ذِراعَهُ بذراعِهِ فِعْلَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ

لقد راح يصور جمال فم المحبوبة بدافع الإثارة النفسية(107)، وربما يذهب القارئ إلى القول بأن هذه الصفات حسنة، وتنم عن هدوء وراحة، فكيف تكون محفزاً ومثيراً؟ أعلى اعتبار أن الألم مثير للعاشق؟ فيكون الجواب أن هذا الجمال المُبدع يسكن في قلب العاشق الحسرة والألم، فهو دائم الذكر لصفات المحبوبة الجميلة، لأنه من جهة لا يرى فيها إلاّ كلّ جميل، ومن جهة أخرى يسعى من خلال هذا الحسن إلى إثارة كوامن النفس، والظاهر أن عنترة يكثر من وصف فم عبلة. وهذا التركيز الملحوظ من عنترة على وصف جمال فم المحبوبة، ربما يكون لوناً من ألوان التعويض النفسي، والتعويض يكون دفاعاً ضد الفشل في التحصيل، يصرف المرء عن التفكير في قصوره(108)، ولا يغيب عنا أن الفم كان نقطة ضعف خلقي في عنترة، فقد وصف بأنه كان مهدل الشفاه أفلح(109). وهذا يعد من أبرز المحفزات النفسية والمثيرات، لكوامن النفس، "فالنفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس"(110)فعنترة بإصراره على هذا الجمال يرمي إلى صنع الأدب من خلال إثارة نفسه وتحفيز كوامنها، وكذلك كان يسعى إلى نيل حريته وإثبات نفسه وقدراتها من خلال مقدرته على الشعر.

ويتحول عنترة من تصوير جمال الفم وأثره في نفسه إلى صور أخرى، إنها صورة التضاد التي تبعث في نفس الشاعر الألم وتحثه على النظم، إنها صورة الرفاه التي تعيشه عبلة، وبالطرف المقابل لهذه الحياة حياة التعب والقسوة التي يعيشها عنترة، وربما أتى عنترة بهذا التضاد كنوع من أنواع التعويض النفسي من جهة على اعتبار أن راحة المحبوب راحة لنفس العاشق المُعنّى، فهو يواسي نفسه بهذه الراحة، ومن جهة أخرى ربما تكون إشارة حنق وألم من الشاعر، يقول عنترة:(111)

تُمْسِي وتصبحُ فوقَ ظهرِ حَشِيَّةٍ وأَبيتُ فوقَ سراةِ أدهمَ مُلْجَمِ
وحشيَّتي سَرْجٌ على عَبْلِ الشَّوى نهدٍ مراكِلُهُ نبيلِ المَحْزَمِ

إن هذه المعاناة التي يصورها الشاعر ما هي إلاّ القسوة التي يواجهها من هذه الحياة التي ما عادت قادرة على إثارة أي شيء في النفس، وما عاد فيها جديد يبعث النفس على التجديد إلاّ طبيعة هذه الحياة القاسية، وهذا الرجل الذي اتهمه بالضعف لعدم مقدرته على نظم الشعر، فكان هذا الألم النابع من مسبة الرجل له، وهذا الحرمان من عبلة بمثابة المحرض والمنشط، "فالحرمان والألم ينشطان الموهبة الفنية فبواسطة الإبداع الفني يعوض الفنان نفسه عما حرمتها منه الحياة" (112) ويصور الشاعر هذا الألم من خلال رحلة قاسية سعى من خلالها إلى الوصول إلى حياة أخرى حياة الوصل بعبلة التي هجرته، وكذلك الوصول إلى النظم الذي ما عاد فيه خصوصية لشاعر، يقول الشاعر:(113)

هل تُبلِغَنِّي دارَها شَدَنِيَّةٌ لُعِنَتْ بِمَحْرومِ الشَّرابِ مُصَرَّمِ
خَطَارَةٌ غِبَّ السُّرى زَيَّافَةٌ تَقِصُ الإِكامَ بِكُلِّ خُفٍّ مِيْثَمِ
وكأنَّما أَقِصُ الإِكامَ عَشِيَّةً بِقَريبِ بَينَ المَنْسِمَيْنِ مُصَلَّمِ
يَأْوي إلى حِزَقِ النَّعامِ كما أوَتْ حِزَقٌ يمانِيَةٌ لأَعْجَمَ طِمْطِمْ
يتبَعْنَ قُلَّةَ رأسِهِ وكأنَّهُ زَوْجٌ على حَرَجٍ لَهُنَّ مُخَيَّمِ
صَعْلٍ يعودُ بذي العُشَيْرَةِ بَيْضَهُ كالعَبْدِ ذي الفروِ الطَّويلِ الأَصْلَمِ
شربَت بماءِ الدُّحرُضَينِ فأصْبَحَتْ زَوْراءَ تنفِرُ عَنْ حِياضِ الدَّيْلَمِ
وكأنَّما ينْأَى بجانِبِ دَفِّها الوَحْشِيِّ بعْدَ مَخيلَةٍ وتَزَغُّمِ
هِرٌّ جَنيبٌ كلما عَطَفَتْ لهُ غَضْبي اتَّقاها باليَدَيْنِ وبِالْفَمِ
أبقى لها طولُ السِّفارِ مُقَرْمَدا سَنَداً ومِثْلَ دعائِمِ المُتَخَيِّمِ
بركَتْ على ماءِ الرِّداعِ كأنَّما بَرَكت على قَصَبٍ أَجَشَّ مُهَضَّمِ
وَكَأَنَّ رُبّاً أو كُحَيْلاً مُعْقَداً حَشَّ القِيانُ بهِ جَوانبَ قُمْقُمِ
ينباعُ من ذِفْرى غَضوبٍ حُرَّةٍ زَيَّافَةٍ مِثْلِ الفَنيقِ المُقْرَمِ

لقد نعت الشاعر الناقة بصفات حسنة، ممثلة بالقوة والشجاعة والمقدرة على السفر وقسوته، وعلى الرغم من ذلك فالناقة لا تعيش حياة طبيعية كأنثى منجبة، فهي محرومة، وقد استخدم الشاعر كلمة (لُعنت) ليشير إلى قسوة أصحابها الذين حرموها من ممارسة حياتها الطبيعية كما حُرم عنترة من ممارسة حياته بشكل طبيعي، فهذا الحرمان وهذه القسوة عليه من كونه عبداً ابن أمة سوداء، لذلك عُيِّر من الرجل العبسي انه أسود اللون ولا ينظم الشعر.

و راح يشبه هذه الناقة التي ربما تكون معادلاً موضوعياً لعنترة بقلص النعام الذي يمثل بالنسبة لصغاره الدليل، وما هذا القلوص سوى عنترة الفارس الذي تتخذه عشيرته قائداً في المعارك، وبالرغم من ذلك, فهو محروم من ممارسة حياته الطبيعية، وهو حريص

عليهم إلاّ أنهم غير حريصين عليه، تأتيه الضربات من كل جانب كما تأتي هذه الناقة الطعنات من كل جهة، فعنترة تأتيه الطعنات من كل جهة, كما تواجه هذه الناقة, ويتقي كما تتقي غضبان، وهذا الغضب أيضاً بمثابة المستفز الذي يدفع بعنترة نحو الإبداع والنظم, "إن المعاناة كانت السبيل إلى الوحي، أي الإبداع، وكان الإبداع وسيلة لإخضاع تلك الآلام والتلذذ بها, فلولا الآلام ما كان الوحي, ولولا الوحي ما كانت اللذة" (114) لهذا كانت هذه المعاناة التي تواجهها هذه الناقة بمثابة الوحي الذي استفز عنترة نفسه من خلاله للإبداع.

وللمبالغة في تصوير الآلام بغية استفزاز نفسه راح يصور الطريقة التي راحت من خلالها الناقة تشرب الماء, وتعبه عبأً، إشارة منه إلى عناء السفر وقسوته وكثرة معاناتها, حتى إنه ليسمع لها صوت صفير، وللإمعان في تصوير التعب وقسوة السفر جعل انصباب العرق عن الناقة كالقطران الذي وضع على نار، فأخذ يغلي وينسكب من أطراف الوعاء، و يبدو أن الناقة ليست متعبه من السفر وطوله فحسب، بل لأنها غضوب قد عركتها الأيام كما عركت الفحول فحلاً فتركته مدمياً، و على ما يبدو فإن هذا العراك هو ذات عنترة وما تعرضت له من استفزازات استثمرها عنترة بغية الإثارة والتحفيز.

ويعود عنترة إلى أحد أهم عوامل الاستفزاز النفسي عند الإنسان إنها المحبوبة أحد أهم أركان الإبداع الفني، "فالإبداع الفني لا يمكن أن يكون بالموهبة الفنية وحدها، فهذه الموهبة تظل معطلة ما لم يكن هناك حرمان هو بمثابة وقود يعملها" (115) لهذا نجد كثيراً ما يهرع إلى عبلة ويربطها ليس بالمكان الطلل فحسب، بل بالحرب أيضاً يقول:(116)

إنْ تُغْدِفِي دوني القِنَاعَ فَإنني طَبٌّ بأَخذِ الفارسِ المُسْتَلْئِمِ

لقد نجح الشاعر هنا في تحفيز نفسه من خلال الحرمان حتى راح يصور لنا حاله بطريقة يبدو فيها الغضب مسيطراً على الشاعر مستفزاً، وكأنه يعاني من حالة قلق، وهذا القلق بسبب خوفه من المجهول بالنسبة له ممثلاً بعبلة والحصول عليها، والثاني بسبب الشعر وبسبب الخوف من عدم القدرة عليه، ويرتبط هذا القلق بالصراع "حيث تتعارض قوتان متضادتان، فقد تكون هناك رغبة قوية في عمل شيء، مع تحريم قوي في الوقت نفسه"(117) وهذه الرغبة المحرمة على عنترة رغبتان ؛الأولى الشعر، وقد علل ذلك بسبب نفاد المواضيع والمعاني الشعرية به، والثانية رفض أهل عبلة زواجها من عنترة، فهذه إضافة إلى استغلالها من قبل عنترة مثيرات ومحفزات شعرية هي بالوقت نفسه قلق ينتاب الشاعر، ويثيره نفسياً ويدفعه إلى القول لها مفتخراً: إن تسدلي دوني القناع بالهجر فإنني قادر على الفرسان الشجعان فهل تعجزينني أنت؟

وتتحول هذه النغمة الحادة القلقة إلى الاستعطاف، وعلى ما يبدو أن بحر الشعر قد هدأت أمواجه لعنترة فاغترف منه غرفة بقوله(118):

أثْني عليَّ بما عَلِمْتِ فإنَّني سَمْحٌ مُخَالقَتي إذا لَمْ أُظْلَمِ
فإذا ظُلِمْتُ فَإنَّ ظُلْميَ باسِلٌ مُرٌّ مَذاقَتُهُ كطعْمِ العَلْقَمِ

يحفز عنترة في البيت الأول عبلة على حبه من خلال أخلاقه الجيدة وصفاته الطيبة التي تعرفها هي، فهو حين يذكر هذه الملامح الخلقية الرفيعة مفتخراً بها، فإنما هو يفتخر لحبيبته عبلة كي يستميلها(119)، ويدعم هذا المستفز المعكوس بمستفز ذاتي فيقول: **فإذا ظُلِمْتُ فَإنَّ ظُلْميَ باسِلٌ**، فهذه النفس المرهفة لا تقبل الظلم، وإذا ما تعرضت له قامت قيامتها وثارت ثائرتها(120).

و يسعى عنترة لإيجاد مستفز جديد يساعده على الإبداع، فيهرع إلى رمز الفتوة والشباب والكرم عند الجاهلي, إنها الخمرة, إلاّ أن عنترة يشربها في أوقات معينة أوقات عاد فيها من الحرب، ويسعى إلى ما كانت تتنافس فيه العرب على اعتباره عادة حسنة، ويحسنها عنترة بقوله وإذا شربت لا أشرب حتى أفقد عقلي وتذهب كرامتي، يقول(121):

ولقدْ شربْتُ من المُدامةِ بعدما ... ركَدَ الهواجرُ بالمَشوفِ المُعْلَمِ
بزجاجَةٍ صفراءَ ذاتِ أسِرَّةٍ ... قُرِنَتْ بأزْهَرَ في الشِّمالِ (مُفَدَّمِ)
فإذا شربتُ فإنني مُسْتهلِكُ ... مالي، وعِرْضي وافرٌ لَمْ يُكْلَمِ
وإذا صَحَوْتُ فما أُقصِّرُ عن نَدًى ... وكمَا عَلِمْتِ شمائِلي وتكرُّمي

لقد راح عنترة يستفز نفسه في هذه اللوحة من خلال عناصر، هي الخمرة وما ترتبط به من كرم لدى العرب، وصيانة النفس عما يدنسها، فيقول: ولقد شربت الخمرة وقت كان فيه الناس نائمين مطمئنين، وكما أنفقت طيب وقتي بالخمرة, فقد أنفقت كذلك أجود نقودي وأفضلها[122]، وللاستدراك راح يصور نفسه في شربه للخمرة، بقوله: وشربتها دون أن أفقد عقلي، وهنا إشارة إلى نفسية عنترة الثائرة العزيزة، التي تحرص كل الحرص على كرامتها وعزتها.

وينتقل عنترة إلى الحرب والفروسية ليصور من خلالهما بطولاته, ويستفز بهما شاعريته، يقول[123]:

وحليلِ غانيةٍ تركْتُ مُجدَّلا ... تمكو فريصتُه كشِدْقِ الأعْلَمِ

يعمد عنترة إلى ذكر فارس شجاع قد قام بقتله، وعنترة بذكره للفارس إنما يلجأ مرة أخرى إلى الحرمان ممثلاً بإضافة غانية إلى حليل، فهذا الحرمان قد ولد لديه حب الإنتقام لنفسه من كل رجل حر استطاع نيل ما حرم منه هو نفسه، ولأن حرمانه كان من طرف الرجال بات هاجسه الوحيد الإنتقام منهم، وحرمانهم من الغانيات كما حرم هو، مع اختلاف طرق الحرمان.

إن هذا الحرمان الذي استفز عنترة جعله يصور لنا الطعنة التي ضرب بها الفارس ففتك به، فهي طعنة سريعة نافذة تشبه لون العندم، وهذه كناية عن شدتها ونتيجتها.

ويعود عنترة ليشرك عبلة في عناصر الإبداع، فيقول لها متسائلا[124]:

هلاَّ سألتِ الخيلَ يابْنَةَ مالِكٍ ... إنْ كنْتِ جاهِلةً بما لمْ تَعْلَمي

إن هذا الذكر أو الإشراك المستمر لعبلة في لوحاته الشعرية المختلفة ما هو إلا وسيلة يسعى من خلالها إلى أن يحقق لنفسه "مستوى معيناً من التوتر النفسي اللازم للإبداع، كما أنه قادر على تحمل الأقدار المتفاوتة من الغموض، وينتزع من بين تراكماتها الخيط المضيء الذي يتمكن بمتابعته من الوصول للهدف"[125]، لهذا نجده يستفز نفسه بذكر عبلة ويُتبع هذا الذكر ببطولاته أو ديارها فيسهب فينجح في الإبداع، ويصل إلى الهدف المرجو. فيقول مصوراً معاناته وفروسيته بعد ذكر عبلة ومحاولته إظهار فروسيته أمامها قائلاً[126]:

إذْ لا أَزالُ على رِحالةِ سابحٍ ... نَهْدٍ تعاوَرُهُ الكُماةُ مُكَلَّمِ
طوراً يُعرَّضُ للطِّعانِ وتارةً ... يأْوي إلى حَصِدِ القِسيِّ عَرَمْرَمِ
يُخبِركِ من شَهِدَ الوَقائعَ أنَّني ... أَغْشَى الوَغَى وأعِفُّ عندَ المغْنَمِ

فيذكر لعبلة شجاعته وقوة بأسه في الحرب ومقدرته على الظفر وقنص الغنائم, إلا أنه مخافة الظن فيه بالسوء راح يذكر أنه يعف عند تقسيم هذه الأموال، وهذه صفة جديدة من صفات عنترة التي يسعى من خلالها إلى الوصول إلى قلب عبلة أساس الاستفزاز الإبداعي في نفسه.

و ينتقل ليصور مشهداً خاصاً من مشاهدة المعركة التي خاضها، وأظنّه قد نجح في إثارة نفسه , فقد لان له الشعر واستطاعه، يقول عنترة[127]:

ومُدَجَّجٍ كَرِهَ ألكُماةُ نِزالَهُ ... لا مُمعِنٍ هَرَباً ولا مُسْتَسْلِمِ

جـــادَتْ يـــداي لَـــهُ بعاجِــلِ طَعْنَــةٍ بِمُثَقَّـــفٍ صَـــدْقِ القَنــــاةِ مُقَــــوَّمِ
برَحيبــةِ الفَـــرْغَيْنِ يهــدِي جَرْسُـــها بالَّليْـــلِ مُعْـــتسَّ السِّـــباعِ الضُـــرَّمِ

يصور عنترة في هذا المشهد كيفية قتله لهذا الفارس الذي نعته بنعوتات خاصة، ليظهر من خلالها شجاعة خاصة من قبله, وليخبر عبلة أنه ليس بالفارس الشجاع فحسب, بل إنه أسطورة زمانه, وقد لجأ عنترة إلى هذه المشاهد كي يثير من خلالها كوامن الإبداع في نفسه(128).

فهذه المشاهد الدامية تثير في النفس من مشاعر الحنق والغضب ما يثيره الدم بقسوته، ويدفع إلى الإبداع كما تدفع الغانية الجميلة, ولا سيما إذا كان هذا الشاعر هو عنترة الذي يجمع إلى قسوته وشجاعته وفروسيته، رقة العاشق، وانهزام الضعيف في دنيا العبودية بسبب سواده.

ويأخذه الاستفزاز وحدة الوقع الموسيقي الذي يشير إلى نفس منفعلة مبدعة إلى القول(129):

ومشـــكِّ ســـابِغَةٍ هَتَكْـــتُ فُروجَهـــا بالسَّيفِ عَـــنْ حـــامِي الحقيقــةِ مُعْلِـــمِ
رَبِـــدٍ يـــداهُ بالقِـــداحِ إذا شَـــتا هَتَّـــاكِ غايـــاتِ التِّجـــارِ مُلَـــوَّمِ
بَطَـــلٍ كـــأَنَّ ثِيابَـــهُ في سَـــرْحةٍ يُحـــذى نعـــالَ السِّـــبتِ لَـــيْسَ بتَـــوْءَمِ
لَمَّـــا رآني قـــدْ قصَـــدْتُ أُريـــدُهُ أَبْـــدَى نَواجِـــذَهُ لِغَيْـــرِ تَبَسُّـــمِ
فَطَعَنْتُـــهُ بِـــالرُّمحِ ثُـــمَّ عَلَوْتُـــهُ بُمهَنَّـــدٍ صـــافي الَحدِيـــدَةِ مِخْـــذَمِ
عَهْـــدي بِـــهِ شـــدَّ النَّهـــارِ كأَنَّمـــا خُضِـــبَ الَّلبـــانُ وَرَأسُـــهُ بـــالعِظْلِمِ
يا شـــاةَ مـــا قَـــنَص لِمَـــنْ حلَّـــت لَـــه حَرُمَـــتْ علـــيَّ وَلَيْتَهـــا لَـــمْ تَحْـــرُمِ
فَبَعَثْـــتُ جـــارِيتي فَقُلْـــتُ لَهـــا اذْهَـــبي فَتحسَّـــــي أخبارَهـــا لي واعلمـــي
قالـــتْ رأَيْـــتُ مِـــنَ الأعـــادي غِـــرَّةً والشَّـــاةُ مُمْكِنَـــةٌ لِمَـــنْ هُـــوَ مُـــرْتَمِ
فكأَنَّمـــا التَفَتَـــتْ بجيـــدِ جَدايَـــةٍ رَشَـــأ مِـــنَ الغِـــزْلانِ حُـــرٍّ أَرْثَـــمِ

لقد أخذت الثورة عنترة إلى تصوير الفارس المدرع القوي الذي أخذ بأسباب السلامة لينجو من فتك عنترة ,فلم يـــنجح في ذلك، فقد استطاع صاحب هذه القوة الأسطورية أن يهتك فرج هذا الدرع, ويصل إلى صاحبه, فيتركه صريعاً قتيلاً، ويبدو أن كوامن نفس عنترة واللاوعي لديه قد بدءا بالظهور، ولا سيما في تشبيهه نزع الدرع عن صاحبه بهتك الفرج, وكأن عنترة قد بلغ في صبره على عبلة مبلغاً ما عاد فيه للصبر مكان، فبات يفكر فيها كما يفكر في قتل الفارس الذي اتخذ جميع وسائل النجاة، إلا أن عنترة استطاع أن يتغلب عليه, ومع عبلة قد أخذ جميع الأسباب لكنه لم ينجح في مساعيه، فماذا يفعل؟

وللإثارة والاستفزاز جعل عنترة هذا الفارس يحمل صفاته نفسها، ولاسيما تكراره للفعل هتك إلا أن هتك عنترة يختلف عن هتكه، فهذا الفارس هتّاك غايات التجار الذي لا يبقى لديهم من الخمور ويسرف في شربها حتى يتلف أمواله، فيلومه الناس.

ويسهب عنترة في وصف الفارس، فيجعله طويل الجسم, وافي الخلق, وحيد الولادة، وهذه إشارة منه إلى تمـــام خلقـــه، وأضفى صفة أخرى عليه من صفات عنترة, إنها صفة الغضب، وأظهره بطريقة طريفة, فقد جعله يـــبدي أســـنانه، ولأن ظهـــور الأسنان مرتبط بالضحك راح يبين أن ظهور الأسنان لا من باب الضحك بل من باب المبالغة في الغضب(130).

وقد كان ذكر عنترة لهذه الصفات من أجل إثارة نفسه، لأن ظهور الأسنان في مثل هذا الموقف ســـبيل لإثـــارة نفـــس الإنسان الفارس، وبالنسبة لعنترة فهي تساعده على توليد الشعر باستفزازه.

ويلاحظ على عنترة في لوحته هذه ذكره لأدوات حربه، ولا سيما الرمح والسيف، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على اعتزازه بأداة حربه وعلاقته الوثيقة بها، ويدل في الوقت ذاته على إيمانه بالقوة وسيلة لتحقيق ذاته، وفرض انتمائه، ومن كان فرحته بالحرب لأنها مجال إظهار قدراته وطاقاته، فلا ريب في أن يصر على ذكر هذه الأدوات(131).

وبعد هذا الاستفزاز النفسي عن طريق الحرب والفروسية يعود عنترة إلى المستفز الرئيس عبلة فيقول لها(132):

يا شاةَ ما قَنَص لِمَنْ حلَّت لَه ... حَرُمَتْ عليَّ وَلَيْتَها لَمْ تَحْرُمِ

إن أبرز ما يثير النفس الإنسانية هو رؤية من تحب 'ملكاً للغير، وقد أتى بها الشاعر هنا ليثير في النفس كوامنها فيدفعها على النظم، ولا سيما عند رؤية هذه المحبوبة مع شخص محرمة عليه, لمكانتها وجمالها بينما ساعدته الظروف المحيطة على نوالها، وهو ليس كفوءاً لها، بينما الكفوء محروم من هذه الحبيبة، وعنترة هنا يصرح بهذا الحرمان، مستخدما أداة التمني (ليت) علها تحمل شيئاً من اضطرابه، وتواسي هذه النفس المحرومة المهجورة التي أصبحت لا تطيق هذا البعد والحرمان، فأرسلت هذه النفس نفساً (الجارية) تتحسس أخبار المحبوبة، وكي يزيد من جذوة هذه النار المشتعلة التي يسعى من خلالها إلى توليد الإبداع الأدبي، جعل الخبر إمكانية الرؤية لكن الرؤية لشخص يدفع نفسه ويرميها للهلاك، وكي يهون على نفسه قسوة المغامرة والخطر المحدق فيه إن هو ذهب، راح يحرض نفسه عن طريق جمال المحبوبة التي راحت تتلفت تلفت الغزال الكريم، وذلك ليشير إلى أنه أثير عندها، وأنها مراقبة كما هو مراقب.

و يعود مرة أخرى لذم العدو, وتصوير كرمه وشجاعته، وأنه الحامي لقومه، يقول مثيرا في نفسه شجاعتها وإبداعها الأدبي(133):

نُبِّئْتُ عَمْراً غيرَ شاكِرِ نعْمَتي ... والكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ المُنْعِمِ
ولقدْ حفِظْتُ وصاةَ عمّي بالضُّحى ... إذْ تقْلِصُ الشَّفتانِ عنْ وضحِ الفَمِ
في حَوْمةِ الموْتِ التي لا تشْتَكي ... غمراتِها الأبْطالُ غَيْرَ تغمْغُمِ
إذ يتَّقونَ بيَ الأسنَّةَ لمْ أخِمْ ... عنْها وَلَو أنيِّ تضايَقَ مُقْدَمِي
لما رأَيْتُ القوْمَ أقبلَ جمْعُهُم ... يَتذامَرون كرَرْتُ غيْرَ مُذَمَّمِ
يدْعُون عنْتَر والرِّماحُ كأنَّها ... أشْطانُ بئرٍ في لبانِ الأدْهَمِ
ما زِلْتُ أرْمِيهمْ بِثُغْرةْ نَحْرِهِ ... وَلَبانِهِ حتَّى تسرْبَلَ بالدَّمِ
فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنا بِلَبانِهِ ... وَشَكا إليَّ بِعَبْرةٍ وتَحَمحُمِ
لوْ كانَ يدْرِي ما المُحاوَرَة اشْتَكَى ... أوْ كانَ يدْري ما جَواب تكلُّمِي
والخيْلُ تقْتَحِمُ الخَبارَ عوابِسا ... ما بينَ شَيْظَمَةٍ وأجْردَ شَيْظَمِ

يبدو أن النظم قد بدأ ينساب على لسان الشاعر بعد المثيرات السالفة، من طلل وحب وفروسية وخصال كريمة أسلمته إلى وصف عدوه وصفاته بيسر وسهولة، ذاكراً سوء خلق عمرو، مقارنا هذا الخلق بخلقه الحسن وشجاعته، وكي لا ينعت بالغرور فقد قال: ولقد حفظت وصاة عمي، ليشير بذلك إلى استماعه للمشورة وتطبيقها لكن ليس عن ضعف، فهو الفارس الذي يلقي بنفسه في ساحة الوغى دون جزع، فيلوذ به الفرسان متقين به السيوف والرماح، بينما هو يقدم على المعركة من غير تقصير.

وهنا نلحظ حدة في الإيقاع الموسيقي تشير إلى تفاعل عنترة مع الحدث، وثورة نفسه ونجاحه في الهدف الذي نظم من أجله القصيدة، إضافة إلى وضع بصمته الخاصة التي عرف بها، فصور هجومه في المعركة، ونتائج بطولته على فرسه الذي تسربل بالدم وراح يشكو لعنترة من وقع القنا، كما يشكو عنترة في قصيدته هجران عبلة وبعدها عنه.

وقد ختم عنترة قصيدته بالإفتخار بالنفس والشجاعة والعقل، وبالاعتذار لعبلة عن طريق توضيح سبب بعده عنها، وينهي قصيدته بذم بني ضمضم من ذبيان مبيناً كيف ترك أباهم طعاماً للطيور، يقول:

ولقـدْ شَفَى نفْسي وأبْرأَ سُقْمها ... قِيلُ الفَوَراسِ وَيْكَ عَنْتَر قدِّمِ
ذُلُلٌ جِمالي حَيْث شِئْتُ مُشايعي ... لُبِّي وأحفِزُهُ بِرأْيٍ مُبْرَمِ
إنِّي عَدّاني أنْ أزورَكَ فاعْلَمِي ... ما قَدْ عَلِمْتِ وبعضَ ما لَمْ تعْلَمِي
حالَت رِماحُ بغيضٍ دونَكُمْ ... وزوَتْ جواني الحَرْبِ مَنْ لَمْ يُجْرِمِ
ولقد كررْت المُهْرَ يدمَى نحرُهُ ... حتَّى أتقتْني الخَيْلُ بابنَيْ حِذْيَمِ
ولقد خشيتُ بأنْ أَموتَ ولم تَدُرْ ... للحربِ دائرةٌ على ابنَيْ ضَمضَمِ
الشاَّتِمِيْ عِرْضي ولم أشتُمْهُما ... والنَّاذرَيْنِ إذا لم أَلَقَهُما دَمِي
إنْ يَفعلا فلقَدْ تركْت أباهُما ... جَزَرا لخامِعَةٍ ونسْرٍ قشْعَمِ

لقد ختم عنترة نصه بعدة محفزات نفسية، هي الفخر والعشق الذي يلين القلب ويجعله أكثر تفاعلاً مع الحدث ويساعد المبدع على الإبداع، وذم العدو وتصوير شجاعته من خلال تصوير مشهد القتل الناتج عن هذه القوة، وتجعل لهذه الخاتمة، بصمة خاصة تبعد النص عن قول عنترة في بداية النص "هل غادر الشعراء من متردم." فعنترة حول هذا العام الذي تقاسمه الشعراء إلى استمرار خاص من خلال الديار، والفروسية، وعبلة.

المصادر والمراجع

1- إيليا الحاوي، السريالية والرمزية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة، بيروت 1980
2- خريستو نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، دار الجيل، بيروت، 1991م.
3- ديوان عنترة العبسي، تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، دمشق، د.ت.
4- سامي الدروبي، علم النفس والأدب، دار المعارف، القاهرة، ط 2، د.ت.
5- شكري عياد، ويوسف نوفل، عنترة الإنسان والأسطورة، عمادة شؤون المكتبات، 1982م
6- صبري ابراهيم السيد، ديوان عنترة دراسة دلالية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د.ت
7- طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، ط11، د.ت
8- عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
9- علي أسعد، علم الشذوذ النفسي، منشورات جامعة دمشق، 1993م.
10-لورنس شافر، علم النفس المرضي، سوء التوافق في الحياة اليومية، ترجمة: صبري جرجس، ضمن كتاب علم النفس النظرية والتطبيق، دار المعارف، مصر، ط6، 1984
11- محمد أبو الفتوح عفيفي، بطولة عنترة بين سيرته وشعره، مكتبة الدراسات الشعبية، القاهرة، 2001
12-مصري عبد الحميد حنورة، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر المسرحي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1986م.
13-مصطفى الجوزو شعر عنترة دراسة تطبيقية على نظريات الشك في الشعر الجاهلي، دار الطليعة، بيروت، 2002م.
14-ناهد احمد السيد الشعراوي، عناصر الإبداع الفني في شعر عنترة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د.ت
15-فوزي محمد أمين، عنترة بن شداد العبسي، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، د. ت.
16-ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث القاهرة، 2003م

الهوامش:

1. ديوان عنترة، تحقيق دراسة: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، مصر، د.ت, ص181-182..
2. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديثة، القاهرة، 2003، ج1، ص75-76.
3. الديوان، ص182.
4. انظر: إيليا الحاوي، الرمزية والسريالية في الشعر الغربي و العربي، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص9-10.
5. انظر: شكري عياد، ويوسف نوفل، عنترة الإنسان والأسطورة، عمادة شؤون المكتاب، 1982م، ص31.
6. الديوان، ص 182-184.
7. الديوان، ص194-195.
8. للمزيد عن فعل تستبيك وعن صفة قم عبلة، أنظر: مصطفى الجوزو، شعر عنترة دراسة تطبيقية عن نظريات الشك في الشعر الجاهلي، دار الطليعة، بيروت 2004م، ص15
9. الديوان,ص195 -198
10. للمزيد عن الفم ومعانيه، أنظر: صبري ابراهيم السيد، ديوان عنترة، دراسة دلالية، دار المعرفة الجامعية, الاسكندرية، ص295-260.
11. لورنس شافر، علم النفس المرضي، سوء التوافق في الحياة اليومية، ترجمة: صبري جرجس ضمن كتاب: علم النفي النظرية والتطبيق، دار المعارف، مصر,ط1984،6,ص318 ، وأنظر أيضاً: محمد أبو الفتوح عفيفي، بطولة عنترة بين سيرته وشعره، مكتبة الدراسات الشعبية، القاهرة، 2001م، ص161.
12. فوزي محمد أمين، عنترة بن شداد العبسي، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية، د.ت، ص63..
13. عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، ودار الثقافة، بيروت، د.ت، ص31.

14. الديوان، ص198-199.
15. سامي الدروبي، علم نفس والأدب، دار المعارف القاهرة، ط2، د.ت، ص249.
16. الديوان، ص198-204.
17. عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص30.
18. سامي الدروبي، علم النفس والأدب، ص244-245.
19. الديوان، ص205.
20. علي أسعد، علم الشذوذ النفسي، منشورات جامعة دمشق، 1993-1994، ص 335.
21. الديوان: ص 205.
22. انظر: طه حسين، حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، ط11، ص150
23. محمد أبو الفتوح العفيفي، بطولة عنترة بين سيرته وشعره، ص147
24. الديوان: ص 205-207.
25. وللمزيد عن شكر النعمة وشرب الخمرة، أنظر: ناهد احمد السيد الشعراوي، عناصر الإبداع الفني في شعر عنترة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ص103.
26. الديوان: ص 207.
27. الديوان، ص 207
28. مصري عبد الحميد حنورة، الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر المسرحي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1986، ص 13.
29. الديوان، ص 208-209.
30. الديوان: ص 209-210.
31. انظر: خريستو نجم، النقد الأدبي والتحليل النفسي، دار الجيل، بيروت، 1991، ص 29، وانظر كذلك، ص 33.
32. الديوان، ص 211-213.
33. وللمزيد حول مطاعنة الأعداء، أنظر: مصطفى الجوزو شعر عنترة دراسة تطبيقية على نظريات الشك في الشعر الجاهلي، ص20-21
34. انظر: فوزي محمد امين، عنترة بن شداد العبسي، ص 174.
35. الديوان، ص 213.
36. الديوان، ص 213.

غربة العالم في رواية "الشحاذ" لنجيب محفوظ

Weird world in the novel "the beggar" Naguib Mahfouz

Monde étrange dans le roman « le mendiant » Naguib Mahfouz

الدكتورة خالص زهرة

جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف

الملخص باللّغة العربية:

لئن لم ينقطع الميثاق الواقعي في الرواية العربية الحديثة في العقود الأخيرة من القرن العشرين فإن مفهوما مغايرا للتشخيص وصورة متباينة للسارد بدأت تظهر ملامحها منذ بداية الستينيات. ولئن كان نجيب محفوظ قد أنجز فعلا جانبا هاما من أعماله الروائية قبل ثورة 1952م مجسما فيها هذا الميثاق الواقعي أفضل تجسيم ومخضعا شخصيته الروائية لشروط ثابتة خارجة عن نطاقها كالبيئة العامة والوراثة بمختلف أشكالها ومعتقدا بذلك أنه يكتب الرواية الصحيحة التي تلتزم بالقواعد المعروفة في الفن الروائي البلزاكي(1).

الكلمات الدالة باللّغة العربية:

الرواية العربية، غربة العالم، السارد، رواية الشحاذ، التشخيص.

الكلمات الدالة باللّغة الإنجليزية:

Arabic novel, Weird World, The narration, Novel beggar, Diagnosis.

الملخص باللّغة الإنجليزية:

While always realistic novel Compact modern Arabic in the last decades of the twentieth century, a different concept of diagnosis and a mixed picture for the narration began to show their features since the early 1960s. Although Mahfouz already been done is an important aspect of his works feature before the revolution of 1952 which this Charter realistic replica best embodiments and subduing the personality feature for stable conditions beyond the scope as the General environment and genetics in different forms and believing that he writes the novel which adheres to the rules known in art albelzaki feature.

وانقطع نجيب محفوظ عن الكتابة فترة زمنية دامت تسعة أعوام فإنه أتاح الفرصة لمجموعة من الروائيين الذين يختلفون عنه في منطلقاتهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية لكي يبدعوا في إطار الواقعية وبذلك أضحت الواقعية واقعيات لتنوع التجارب واختلافها كما أن هذه المرحلة مكنت نجيب محفوظ من الإنتقال إلى مرحلة جديدة من الواقعية. ولئن اعتبرت رواية "أولاد حارتنا" التي أصدرها المؤلف نفسه سنة 1959م "ضرورة فكرية تحتمها الثلاثية التي هي حصيلة لفلسفة نجيب محفوظ عامة في رواياته السابقة(2) فإن النقاد يجمعون على أنّ روايات "اللص والكلاب" و"السمان والخريف" و"الطريق" و"الشحاذ" هي حجر الزاوية

لمرحلة ما يسمى بالرواية الذهنية في مسيرة نجيب محفوظ والتي تنتهي مع نهاية الستينات ذلك أن تخصص "اللص والكلاب" و"السمان والخريف" في أزمة الانتماء المصري يجعل منها مرحلة متكاملة، كذلك فالأعمال الأربعة الواقعة بعدها تشكل بينها مرحلة جديدة تماما(3).

وعلى هذا الأساس نعتبر هذه المرحلة مرحلة تجاوز، فقد ظهرت مجموعة من الروايات إلى جانب روايات نجيب محفوظ جاءت تحمل معها مؤشرات التجاوز وتعميق الرؤية الواقعية من خلال أشكال جديدة مركبة تضرب في أعماق الذات الفردية والجماعية وتحقق الشعرية اللازمة عبر الفضح والإحتجاج(4).

إن أهمية رواية "الشحاذ" في أنها يمكن أن تعد أنموذجا بليغا للمرحلة الجديدة التي مر بها نجيب محفوظ في تجربته الفنية وتطور جديد يتجاوز التشخيص الروائي التقليدي ويقدم صياغة مغايرة لعناصر السرد فمع هذه الرواية اكتملت ملامح البطل الروائي الإشكالي في علاقته بالعالم والزمن والمكان مستدعيا تبعا لذلك نمطا مختلفا لسارد استبدل عينا بأخرى وموقعا بآخر وخطابا بآخر مخالف.

1. طبيعة الشخوص:

إذا كان الفعل السردي فعلا نموذجيا غرائبيا يشخص النموذج المتفرد فإن الشخصية الروائية في حد ذاتها شخصية منفردة في علاقتها ببقية الشخصيات، ففي فضائها تتحرك الشخصيات الأخرى إذ لا تملك عالما مستقلا تتحرك فيه بأفكارها وآرائها وأهوائها.

إن مفهوم البطل الروائي، مفهوم أساسي في رواية "الشحاذ" بمعنيين أساسيين:

إن عمر الحمزاوي في الرواية يجسد شخصية مفارقة في علاقتها بالشخصيات الأخرى وكذلك شخصية متميزة في تصرفاتها وسلوكها إذ ينجز أعمالا لا تستطيع الشخصيات الأخرى أن تنجزها.

إن عمر الحمزاوي شخصية تستقطب الشخصيات الأخرى وهو كذلك محور العلاقة بينها إذ تبدو لنا منذ البداية منشغلة بالحالة المفاجئة التي ألمت بالبطل، تسعى إلى أن تساعده بشكل أو بآخر "الوجوه تتطلع إليك مستخبرة حتى قبل أن ترد تحيتك حنان رفيق مخلص، ولكن ما أفظع الضجر/ قلبي يحدثني بأن كل شيء طيب/ إلى جانبها وقف مصطفى المنياوي في بدلته الشركسية رافعا نحوك وجهه البيضاوي الشاحب وعينيه الذابلتين/ واعتمدت بثينة بكوعها على كتف تمثال برونزي لامرأة باسطة الذراعين في هيئة مرحبة" (5).

ولذلك يمكن أن نقول إن رواية "الشحاذ" لم تفرط في بطلها، ولعمر الحمزاوي ككل بطل روائي هدف يسعى إلى تحقيقه وهو البحث عن معنى الحياة ولتحقيق هذا الهدف السامي لابد له من شخصيات مساعدة وعلى هذا النحو يمكن أن نصنف كل شخصيات الرواية وفق كوكبتين:

كوكبة أولى تربطها بالبطل علاقات وجدانية سواء كانت علاقة صداقة أو علاقة عائلية وكوكبة ثانية هي شخصيات طارئة تنشئ إزاء البطل علاقة حب أو متعة ولكن الكوكبتين تؤديان الوظيفة ذاتها وهي مساعدة البطل على تجاوز أزمته أو على تحقيق هدفه المصيري بواسطة أداة واحدة هي الحب "لاح له مصطفى كنصب تذكاري للحب والزواج. كان المشير والمعين والشاهد وكل يوم يؤكد صداقته له وللأسرة"وتقول وردة "ليس عندي لك إلا الحب فإن زهدت فيه انتهى كل شيء" وليس للشخصيات الأخرى (الزوجة، البنتان...) إلا هذه العاطفة الجياشة لمساعدة البطل على تجاوز أزمته ولذلك نحن لا نجد في الرواية شخصيات تعوق البطل وتقف في طريقه فلا عدو لعمر الحمزاوي إلا شيء في ذاته" في كل لحظة تشعر بأن صلة تتمزق محدثة صوتا مزعجا

وأن قائما يتزعزع وأن أسنانك توشك أن تتساقط وسوف تفقد الوزن في النهاية وتسبح في الفضاء، أشدد قبضتك على الأشياء وانظر إليها طويلا فعما قليل ستختفي ألوانها ولن يكترث بها أحد"(6).

لكن علاقة البطل عمر الحمزاوي ببعض شخصياته تتجاوز هذه الصورة الظاهرة لتتخذ بعدا رمزيا فقد سعى الشارد إلى أن يجعل من هذه الشخصيات المحيطة بالبطل وجوها مختلفة من شخصيته، فالزوجة زينب رمز للحب الكلي الذي غمر حياته في شبابه ورمز للنجاح والتفوق "تزوجت قلبا نابضا لا حدود لحيويته وشخصية فاتنة حقا...مدبرة، حكيمة خلقت للتدبير والحكمة وقوة دافعة للعمل لا تعترف التواني ونظرة ثاقبة في استثمار المال، ارتفعت في عهدها من غمار العدم إلى التفوق الفريد والثروة الطارئة ووجدت في حرارة جسمها عزاء عن الفشل والشعر والجهاد الضائع" (7) والبنت بثينة هي وجه عمر الحمزاوي الشاعر "لكنه شعر رائع وكما أنه ملهم !... أما أنا فوجدت فيه ما أهيم به..." ولذلك فالبنت تعيد سيرة الأب وبالتالي تعد وجها من وجوه حياته "لماذا نضطرب إذا كرر الأبناء سيرتنا"(8) وعثمان خليل صورة للمناضل السياسي التي كان عليها البطل في شبابه الأول "لا فائدة من الهرب إلى الأحاديث الجانبية وإحساسك بالذنب يزداد حدة" (9) ولعل علاقة الزواج التي تحدث بين عثمان خليل الرجل السياسي وبثينة البنت الشاعرة هي إعادة تركيب لصورة عمر الحمزاوي المناضل السياسي والشاعر في الوقت ذاته فكأن جل شخصيات الرواية تؤسس شخصية واحدة مركبة لتؤكد على القطيعة الداخلية التي يعيشها البطل عمر الحمزاوي. فهذا الرجل الذي يريد أن يتملص من حقيقته نحو البحث عن قيمة جديدة تجدد المعنى، يجد نفسه في واقع الأمر يعيش ازدواجية ما استطاع أن يتخلص منها، فما اعتقد أنه ماض زال وانتهى أمره بل لا يزال يعايشه بشكل أو بآخر. فهذا الوجه من الحياة لم يختف بل يتجلى في صور تلاحقه إلى نهاية الحكاية إذ يلتحق به عثمان خليل ليؤكد له اقتران السياسة بالشعر وولادة الحياة عبر النضال (بثينة حبلى) وهذا يعني أن الشخصية تحمل بعدا رمزيا وهي لا تملك عالما مستقلا بذاته إلا في حدود علاقتها الوظيفية بالشخصية المحورية أو البطل، ولذلك يمكن أن نقول في النهاية إننا إزاء شخصية محورية فهي تملأ المساحة النصية وتهيمن على الرؤية العامة للكون والوجود إذ لا نكاد نعلم عن الشخصيات الأخرى إلا النذر القليل من حياتها ونظرتها للعالم.

2. علاقة المكان بالشخصية:

إن المكان في رواية "الشحاذ" لا يحمل وجودا حياديا أو موضوعيا إذ هو مفعم بالدلالة. وإذا كان عادة يتخذ دلالته التاريخية والسياسية والإجتماعية من خلال الأفعال وتشابك العلاقات، فإنه في هذه الرواية يتخذ دلالته الحقيقية من خلال علاقته بالشخصية المركزية أي البطل عمر الحمزاوي.

إن الصورة الأولى المتعلقة بالمكان تبدو لنا من خلال اللوحة التي يعد وصفها مدخل النص وبدايته: "سحائب ناصعة البياض تسبح في محيط أزرق، تظل خضرة تغطي سطح الأرض في استواء وامتداد وأبقار ترعى تعكس أعينها طمأنينة راسخة ولا علاقة تدل على وطن من الأوطان وفي أسفل طفل يمتطي جوادا خشبيا ويتطلع إلى الأفق عارضا جنب وجهه الأيسر وفي عينيه شبه بسمة غامضة"(10). ولكن هذه اللوحة التي تصف المكان وما يؤثثه لا تأتي صامتة إذ يعلق السارد عليها على هذا النحو "وها هو الطفل ينظر إلى الأفق ينطبق على الأرض، دائما ينطبق على الأرض من أي موقف ترصده، فيا له من سجن لا نهائي" (11) فقد حدد السارد على هذا النحو أبعاد المكان وهي الإستواء والإمتداد وضيق الأفق الذي ينطبق على الأرض واللاهوية إذ لا يحيل على وطن من الأوطان ولذلك شبهه بالسجن اللانهائي، أما مؤثثاته فهي أبقار مطمئنة ترعى وجواد خشبي وطفل ينظر إلى الأفق فالمكان مطبق على مؤثثاته يشدها إليه شدّا.

إن هذه الصورة للمكان ستظل مهيمنة في كامل الرواية، فالأحداث تؤكد أن المكان سجن بالنسبة إلى بطل الرواية. وقد لاحظنا أن السارد في هذه الرواية قليلا ما ينتبه إلى المكان فيصفه باستثناء بعض الإشارات القليلة كقوله عند وصف البطل على شاطئ الإسكندرية "ها هي الشماسي تترامى ملتصقة الشراريب فتكون قبة هائلة دانية مختلطة الألوان، تستلقي تحتها الأبدان شبه العارية وتنتشر في الجو رائحة آدمية عميقة الأثر في الحواس مذابة في رائحة البحر المتحدية تحت شمس تخلت عن بطشها"(12). وهو وإن ركز في هذا المقطع على البعد الإنساني المتصل بالمكان فإنه في مواضع أخرى يصفه بشيء من الحيادية المتسمة بضرب من اللامبالاة والتأفف: "امتعض عمر لمرأى ميدان الأزهار وهو في سبيله إلى عمله وقال إنه لم يتغير عما تركه وأنه مازال معبرا كالحا للذاهبين إلى أعمالهم" (13) ثم يصفه في موضع آخر بالغرابة: "ما أغرب الذهاب كل يوم إلى المكتب، مكان غريب لا معنى له" (14) ثم نراه يصف الشقة الجديدة التي جهزها البطل لعشيقته "وردة" في اختزال شديد" كلف أكثر من رجل بالقيام بعمل في تجهيز الشقة الجديدة. الأثاث والديكورات والبار والتحف وفي أقصر مدة ممكنة تكونت على أجمل صورة، حجرات للنوم والسفرة والمدخل وحجرة شرقية تحيي في الخيال أحلام ألف ليلة" (15). إن المكان في هذه الرواية لا يفسح إجمالا مجالا للتأمل والوصف الدقيق إذ تتلاشى معالمه ولا تبدو منها إلا صورة باهتة خاصة عندما نقارن هذه الرواية بالروايات السابقة التي ألفها الكاتب قبل سنة 1960م.

ثم إن المكان يبدو متشابها في وظيفته إذ لا يحمل معنى الجدة والتغير، فكل الأمكنة واحدة تبعث على القلق والقرف. وإن أحس البطل فيها أحيانا بضرب من الراحة، فهي راحة مؤقتة يعقبها ملل عظيم ولذلك يضيق المكان بالبطل فيدرك أنه في حاجة إلى الإنعتاق والتحرر من جاذبيته: "وفي لحظة ألم لعن العلم المستعصي على أمثاله من البشر وكان يتخفف من ألمه بالإستسلام لجنون السرعة وهو يندفع بسيارته في أطراف القاهرة... ويندفع بجنون حتى يثير الفزع والسخط" (16).

إن المكان ليس للإستقرار ولا يحمل معنى الإنتماء ولذلك فهو في علاقته بالشخصية يتصل بمعنى الرحلة فالبطل الروائي يعيش أزمة مع المكان ولا حلّ له إلا الرحيل الدائم "ماذا يفعل المقبل على رحلة غامضة" (17) فمنذ الفصل الأول يدرك أنه في حاجة إلى تغيير المكان بحثا عن الشفاء الموهوم ولكن شاطئ الإسكندرية، رغم الراحة المؤقتة التي عليها لن يرسخ قدمي البطل في المكان فحالما يعود يشعر أنه في حاجة إلى تغييره: "لا أدري كيف أتكلم ولكن للأسف لم أعد أطيقها، البيت نفسه لم يعد بالمأوى المحبوب" (18).

وعندما بنى عشا جديدا أدرك كذلك أنه غير قادر على شده وامتلاكه: "فعملت من ناحيتها على أن يكثر من الخروج وأن يمضيا السهرات ما بين السينما والمسرح بل والملاهي الليلية" (19)... "وكثيرا ما يغادر القاهرة صباحا ليرجع إليها صباح اليوم التالي دون نوم" (20). وهكذا يتضح لنا أن المكان لا يوجد لذاته ولا يحمل بعدا موضوعيا وإنما يحمل دلالة نفسية تتصل بعلاقته بالشخصية المركزية. فالمكان في هذه الرواية عنصر ضياع ورحيل إذ أن الرحيل المؤدي ذو دلالة رمزية تتصل بمعنى التيه.

3. الزمن:

إن الزمن الروائي أيضا في هذا النص ليس زمنا موضوعيا بل هو زمن نفسي وسياسي بالدرجة الأولى فالأحداث تنتشر وفق زمنين مختلفين: الماضي والحاضر، ولئن هيمن الحاضر من خلال الوظائف السردية المركزية المتمثلة أساسا في تجربة عمر الحمزاوي —الوجودية– إن صح التعبير، فإن الماضي ينبثق في شكل ومضات ورائية قليلة لا شك ولكنها مفعمة بالدلالة ترد في سياق الحوار الباطني الذي يلتجئ إليه البطل أحيانا كثيرة: "وذكر الآخر في السجن حتى حساسية الضمير يدركها الضجر يوم احترقت بلهيب

الخطر، لكنه لم يعترف رغم الأهوال لم يعترف" (21) ولكن العلاقة بين الزمنين هي علاقة إشكالية لأنها تقوم على ازدواجية واضحة فهما –من خلال دلالتهما السياسية والنفسية– من ناحية لا يتواصلان بل يتعايشان، فالماضي ليس زمنا موضوعيا آفلا، بل زمن متحرك يجسد حضوره من خلال وظائف سردية تحمل دلالة رمزية وهي الآتية: خروج عثمان خليل من السجن الذي يصبح بمثابة تجربة سياسية قديمة كان عمر الحمزاوي يعتقد أنه طواها وتجاوزها وإذا بها تطفو على سطح الحياة من جديد بكل أبعادها وآثارها على شخصيته المعذبة: "وتحركت في الأعماق مشاعر منذرة بكل ظن وارتفع مدّ حاملاً دفعات من القلق والتوجّس وطالما طافت به لحظة اللقاء المرتقبة وطالما عمل لها ألف حساب ولكنها حلت رغم ذلك بغتة كمفاجأة غير ممكنة التوقع" (22). ثم اكتشاف ملكة الشعر لدى البنت بثينة. فهذه الوظيفة ترمز إلى انبثاق صفحة من صفحات الماضي في شخصية "البطل" "أتته بكراسة مغلفة بورق مفضض، وباحترام وحب وإشفاق ولهفة راح يقرأ وتخلل قراءته عام 1935م مدعيا ومعترضا عهد الحرمان والأمل والأسرار والإضطراب المطوق، وأحلام المدينة الفاضلة" (23) لكن البطل من ناحية أخرى يريد أن يعترف بهذه الحقيقة فهو يرفض أن يتعايش الزمنان: الماضي والحاضر بل يصر على أن ينفي أحدهما الآخر. فلا لقاء عنده بين زمن الشعر والحب والثورة زمن العلم والعقل والمال "مات القانون قبل الفن، الحق أن مفهوم الفن قد تغير ونحن لا ندري عهد الفن قد مضى وانقضى وفن عصرنا هو التسلية والتهريج، هذا هو الفن الممكن في زمن العلم ويجب أن نتخلى للعلم عن جميع الميادين عدا السيرك" (24) بل قضى العلم على الفلسفة والفن، "فإلى مسرات التسلية بلا تحفظ ببراءة الأطفال وذكاء الرجال، إلى القصص الخفيفة والضحكات المجلجلة والصور الغريبة ولنتنازل نهائيا عن غرور الكبرياء وعرش العلماء ولنقنع بالإسم المحبوب والمال الوفير" (25). وهكذا يقوم الزمن بالنسبة إلى البطل على القطيعة، وقريبا سيخرج الماضي من السجن فيتضاعف عذاب الوجود وحالما ظهر الماضي مع عثمان خليل بدلالته السياسية والنفسية العميقة هاجر عمر الحمزاوي إلى عالم الحلم والجنون.

4. صورة السارد:

من السارد في هذه الرواية؟ الواقع أننا إزاء ثلاثة ضمائر تستعمل لسرد الوقائع: ضمير الغائب يحيل على السارد، هذا الكائن الخيالي الذي يقف وسيطا بين القارئ والشخصية والعالم الروائي عموما وإذا كنا لا نشك كذلك في أن ضمير المتكلم عامة يحيل على الشخصية الرئيسية وهي شخصية عمر الحمزاوي عندما يتحول إلى سارد يروي بعض المقاطع السردية، فإن توظيف ضمير المخاطب يثير إشكالا في هذه الرواية وهذا مثال:

"من الآن فصاعدا أنت الطبيب، فأنت حر والفعل الصادر عن الحرية نوع من الخلق، حتى وإن يكن مقاومة مستمرة لشهوات البطن. ولنقل إن الإنسان لم يخلق ليكتظ بالأطعمة... ولكن ما أشدّ الزحام والرطوبة ورائحة العرق، وأجهدك المشي وناءت به قدماك كأنما تتعلمه لأول مرة والأعين ترمق الناس بعد عمى ربع قرن" (26).

فالوظائف السردية الأولى هي من باب الإستبطان وهي أقرب إلى الحوار الباطني والوظائف السردية الأخرى هي من باب سرد الوقائع وتتقدم بسير الأحداث.

وهذا المثال كذلك "وذكر الآخر في السجن، حتى حساسية الضمير يدركها الضجر، يوم احترقت بلهيب الخطر، لكنه لم يعترف، رغم الأهوال لم يعترف وذاب في الظلمات كأن لم يكن، وأنت تمرض في الترف وتنهض الزوجة رمزا للمطبخ والبنك... ها هي أمك تحاكي البراميل والأفق يحاكي السجن" (27).

إنّ الوظائف السردية الأولى هي للسارد والوظيفة الأخيرة هي من كلام الشخصية أي من باب الحوار الباطني، والمثالان يختلفان عن هذا المثال: "الوجوه تتطلع مستفسرة حتى قبل أن ترد تحيتك، حنان رفيق مخلص ولكن ما أفضع الضجر، الحموضة التي تفسد العواطف الباقية، وتبدي عنق زوجتك من طاقة فستانها الأبيض غليظان متين الأساس، "هذا الصوت هو صوت السارد وليس صوت الشخصية على عكس هذا المثال: "ويوما ستجد بثينة ما يشغلها عنك ومثلها جميلة التي تشيد الأهرام من الرمال، خبرني بالله ماذا تريد؟ ولماذا يخيم الصمت رغم الضجيج؟ و لم يتنبأ شيء في صدرك بمخاوف هوائية؟" (28) فهو حوار باطني. لكن الحوار الباطني يرد بصيغة ضمير المتكلم" لا تنس أن تكتب له عن الدواء.

– فعلت يا عزيزتي.
– ما ألطفك يا بثينة، براعم صدرك تشهد للدنيا بحسن الذوق، ولعلي من جيل محافظ نوعا فماذا أعدت أمك؟...من المخزن أنك لم تعرفي من الدنيا شيئا وأنني صنتك كالنار فلم تتجاوزي سيارة المدرسة" (29).

إن بعض الضمائر في هذه الرواية تندرج في إطار لعبة معقدة إلى درجة الغموض أحيانا. فمن الصعب أن ندرك وظيفة متميزة يؤديها السرد بهذا الضمير أو ذاك، إذ تتجاوز الضمائر أحيانا في مقطع سردي قصير وتكون بالنسبة إلينا مجرد تنويع في الإستعمال لا يحمل دلالة محددة كهذا المثال: " وأين المهرب من نظراتك الثاقبة؟ وما الجدوى من مجادلتك؟ أنت تعلم أن الشعر هو حياتي وأن تزاوج شطرين ينجب نغمة ترقص لها أجنحة السماوات.

– أليس كذلك يا مصطفى؟
وهتف المراهق الأصلع:
– هذا الوجود من حولنا ليس إلا تكوين فنيا...
– عثرت على الحل السحري لجميع المشاكل...

واندفعنا برعشة حماسية إلى أعماق المدينة الفاضلة، واختلفت أوزان الشعر بتفجرات مزلزلة. اتفقنا على ألا قيمة البتة لأرواحنا، واقترحنا جاذبية نيوتن يدور حولها الأحياء والأموات في توازن خيالي لا أن يتطاير البعض ويتهاون الآخرون، وعندما اعترضنا دون فلكية معاكسة انتقلنا من خلال الحزن والفشل إلى المقاعد الوثيرة، وارتقى العملاق بسرعة فائقة من الفورد إلى الباكار حتى استقر أخيرا في الكاديلاك ثم أوشك أن يغرق في مستنقع من المواد الدهنية" (30).

والضمائر كثيرا ما تمتزج فتصبح صوتا واحدا موحدا "أتته بكراسة مغلقة بورق مفضض وباحترام وحب وإشفاق ولهفة راح يقرأ وتخلل قراءته عام 1935م مداعبا ومعترضا (الغائب) ثم صوت عثمان وهو يرتعش هاتفا "عثرت على الحل السحري لجميع المشاكل (المتكلم) ولكن البنت عاشقة وربي إنها لعاشقة وما رأي أبي إذا سمعني أحدث حفيدته في الحب (المتكلم)".

لكن السارد بضمير الغائب أحيانا يتفرد باختزال الأحداث وتفريعها "وكثيرا ما يغادر القاهرة صباحا ثم يرجع إليها صباح اليوم التالي دون نوم، وقد يدخل دكان بقال ليسكر أو يجلس في التريانون لينام أو يشيع جنازة لا يعرفها ولا تعرفه أو يغلبه النوم عقب الفجر فينام في السيارة على شاطئ النيل حتى الصباح" (31) وهو يعرف كل شيء عن بطله إلى درجة الإندماج به من خلال رؤيته الورائية، فهو ليس ساردا محايدا ومستقلا. وهكذا نجد أنفسنا في حقيقة الأمر مع سارد واحد سواء عبر ضمير الغائب أو المخاطب أو المتكلم أحيانا فالضمائر لا تعكس استقلالية الساردين بل اندماجهم في صوت واحد.

وقد لاحظنا أن السارد كثيرا ما يلتجئ إلى الأسلوب المباشر، فيهيمن الحوار ويؤدي وظائف متنوعة إذ يسبر أغوار الشخصيات ويتقدم بالسرد إذ يعلن عن أحداث جديدة وقد لاحظنا أنه أحيانا يجسد القطيعة بين الشكلين، ففي أغلب الأحيان يتقاطع الحوار مع الحوار الباطني في إطار لعبة الظاهر والباطن أو المصرح به وغير المصرح به ويصبح خطاب الحوار الباطني مناقضا للحوار العادي بل مبطلا له "سنمرح كثيرا وسوف أعلم أختك السباحة كما علمتك فيما مضى —حتى البراميل- ها هي أمك تحاكي البراميل والأفق يحاكي السجن والحرية استكنت وراء الأفق و لم يبق من أمل إلا الضمير المعذب".(32)

5. طبيعة التشخيص:

لنفهم طبيعة التشخيص في رواية "الشحاذ" نحتفظ بمفاهيم: إجرائية ثلاثة نظر لها جورج لوكاش في كتابه "نظرية الرواية" وهي:

1). مفهوم هجر الله للعالم.

2). مفهوم غربة الإنسان في بيته.

3). مفهوم المقابلة الجذرية بين الإنسان والعالم بين الفرد والمجتمع.

وهي المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها الرواية عامة في إطار تشخيصها للعالم. (33)

نقرأ في الرواية هذا المقطع "في كل لحظة تشعر بأن صلة تتمزق محدثة صوتا مزعجا وأن قائما يتزعزع وأن أسنانك توشك أن تتساقط وسوف تفقد الوزن في النهاية وتسبح في الفضاء أشدد قبضتك على الأشياء وانظر إليها طويلا فعما قليل ستختفي ألوانها ولن يكترث لك أحد وها هي الأمواج تطيح بأهرام جميلة المشيدة من الرمال والهواء يطير الصحف التي لا حقيقة ثابتة فيها إلا صفحة الوفيات" (34).

من خلال هذا المقطع ندرك أن السارد يعترف بصعوبة تشخيص هذا العالم. لقد فقد العالم ثوابته وقد أحس الروائي أنه لم يعد قادرًا على أن يرسل خبرًا مقروءًا ومتماسكا بشأن هذا العالم الذي يشخصه وهو ما يخل بقائمة شروط المشروع الواقعي ولذلك مالت الرواية في نهايتها إلى ضرب من التشخيص الرمزي عندما عانقت أحداثها الختامية الغرائبية أو العجائبية من خلال الحلم والكابوس. ومع ذلك يظل التشخيص في هذه الرواية يوفق بين نوعين من التشخيص: التشخيص الوصفي من ناحية والتشخيص الرمزي من ناحية أخرى وفي كلتا الحالتين يطرح السؤال: ما سمات هذا العالم المشخص؟

1.5. العالم المشخص:

أ. عالم هجره الله:

يذكر عمر الحمزاوي الله في الرواية مرتين: في المرة الأولى يسأل عمر الحمزاوي مسيو يازبك: "هل تؤمن بالله؟ فأجاب الرجل بدهشة: طبعا يا له من تحقيق طريف" (35) وفي المرة الثانية يطرح السؤال ذاته تقريبا على وردة "فتنهد آسفا، ثم سألها محموما: - والله، ما موقفك منه؟ حدّجته بنظرة ارتياب حادة فقال يتوسل: -أجيبي من فضلك يا وردة. -أؤمن به- بيقين. طبعا —من أين جاء اليقين. —إنه موجود وكفى. —أتفكرين فيه كثيرا؟ ضحكت كالمرغمة وقالت: -عند كل حاجة أو شدة. —وفيما عدا ذلك؟" (36) إن الله بالنسبة إلى عمر الحمزاوي لم يعد يقينا بل غدا سؤالا والسؤال تولد عن سؤال تعلق بالحياة والموت فالحياة قد فقدت معناها: "خير من اللوم أن تحدثني عن معنى الحياة. —الحياة- أدق الجدار الأصم في كل موضع حتى يرن صوت أجوف ينبئ بالكنز المدفون" (37). كما تؤكد اللازمة في هذه الرواية المعنى ذاته "إن كنت تريدني حقا فلم هجرتني"(38). وسؤال الحياة مرتبط بسؤال الموت "الحياة قصيرة وأنا لا أنسى الدوار الذي أصابني عندما قال لي الرجل: ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذنا"

(39). وسؤال الموت يعود إلى سؤال الله أفليس الله عند عمر الحمزاوي منشئ "نشوة الخلق المفقودة" (40)، وما معنى أن ينشئ الله نشوة الخلق المفقودة؟ إنه سؤال وجودي قديم تبحث له الرواية عن مبررات جديدة عصرية. وخلاصة الجواب هي بالنسبة إلى عمر الحمزاوي إذا كانت الحياة تنتهي بالموت فلا معنى لوجود الله. وما عليه إلا الرحيل "إننا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها".(41)

ب. عالم يعيش فيه الإنسان غريبا في بيته:

أن يهجر الله العالم يعني أن يزول التطابق بين الروح والعمل الأدبي وبين الطوية والمغامرة لقد أجابت وردة عن سؤال عمر الحمزاوي المتعلق بالإيمان قائلة "ألا ترى أنك تحب تعذيب الآخرين"،(42) إنه لا شك عذاب الروح وغربتها في عالم زال فيه اليقين وغابت عنه الطمأنينة. لم يعد عمر الحمزاوي يشعر بلذة الحب وما يبعثه في الروح من طمأنينة "لكنهما ذكراني بصديق قديم اسمه الحب، يا إلهي ما أطول العمر الذي مضى دون حب وماذا بقي منه عدا ذكريات محنطة" (43) وزالت كل القيم، "فالشعر قد مات والعمل السياسي لم يعد له معنى، والعمل فقد قيمته..." لم تعد لي رغبة فيه على الإطلاق" (44). هو عالم تتجسد فيه المقابلة الجذرية بين الإنسان والعالم وبين الفرد والمجتمع. فهاهو عمر الحمزاوي يشخص مرضه على هذا النحو "لا أريد أن أفكر أو أن أشعر أو أن أتحرك، كل شيء يتمزق ويموت... وكثيرا ما أضيق بالدنيا، بالناس، بالأسرة نفسها" (45) فهو يجسد القطيعة الإجتماعية من خلال هذا الحوار مع صديقه مصطفى: "لست في حاجة إلى إنسان/ لا يستطيع أن يفكر وهو بين الناس/ لا سبيل للتفاهم بيننا ويطرح السؤال الخطير: ما موقع الإنسان في هذا العالم ويكون الجواب: لا بد من شيء. الشيء أو الجنون أو الموت" (46).

إن طبيعة هذه التساؤلات هي فلسفية بالوجود الإنساني، وبالتالي قلنا إن التشخيص أميل إلى التشخيص الرمزي فعمر الحمزاوي رغم نمطيته الإجتماعية يتحرر من تجسيده الفئوي ليجسد أزمة الإنسان المعاصر.

ففي بداية الرواية أعلن السارد في اللوحة أنّ لا علامة تدل على وطن من الأوطان وفي نهاية الرواية أعلن أن الإنسان إما أن يكون الإنسانية جمعاء وإما أن يكون لا شيء.

6. علاقة الشكل بالمضمون:

تعبر الرواية إذن عن أزمة الإنسان في العصر الحديث ولكنها تعلن أيضا أنها "أزمة فنان يبحث عن شكل جديد أعياه المضمون" (47). إن كل مضمون جديد يستوجب شكلا جديدا. إنها مقولة لسنا ندري مدى صحتها ولكنها تجد مبرراتها في هذه الرواية لنجيب محفوظ.

ما يجمع بين الشكل والمضمون في هذه الرواية هو عالم قوامه التلاشي، (زوال القيم والثوابت) والشكل الأدبي الذي وظفه الكاتب أيضا في هذه الرواية قوامه التلاشي أو بعبارة أدق التوق إلى التلاشي.

- الحبكة تكاد تتلاشى.
- المكان يفقد أبعاده.
- الزمان أزمنة متضاربة ومتصادفة.
- شخصيات تذوب في شخصية البطل: لا أصوات لها.

- بطل يبحث عن التلاشي: حياته رحيل وتيه ويبحث عن الذوبان في المطلق. إن هذه الرواية تسعى إلى الخروج عن أن تكون تعبيرا عن نثر الحياة اليومية وترغب في التعبير عن شعرية الوجود والحياة، فيها إجلال للشعر، والفن فيها يختزل في صورته الشعرية وأحيانا كثيرة يتحول أسلوب الكتابة إلى أسلوب شعري ولعل أبلغ مثال على ذلك تلك اللازمة التي تتكرر في الرواية "وكيف أفكر فيك طيلة يقظتي ثم تعبث بمنامي الأهواء"(48). نضيف إلى ذلك سعي الرواية إلى التحرر من الشوائب، من تلك الحكايات والأساليب المتنوعة التي تدعم في حقيقة الأمر جنس الرواية إذا ما اعتبرنا الرواية جنسا تأليفيا جامعا لمستويات عديدة أو أجناس أدبية مختلفة ولغات اجتماعية متنوعة.

لعل هذه الرواية "الشحاذ" تدشن مرحلة جديدة هي مرحلة انحلال الشكل الروائي بالمعنى الذي إليه أشرنا.

الهوامش:

1. قول نجيب محفوظ "عندما بدأت الكتابة كانت فكرتي أن في فن الرواية وما هو صواب وخطأ مثل النحو تماما وأن هذا الفن أوروبي وأني إذا كتبت الرواية الصحيحة فقد بلغت الغاية المنشودة و... لأني كنت مبتدئا فقد كنت ألتزم القواعد... فصول، مجلد 2 عدد2، 1982م، ص 224.
2. محمود أمين العالم، تأملات في عالم نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970م، ص 86.
3. غالي شكري، المنتمي، دراسة في أدب نجيب محفوظ، دار المعارف، مصر، 1969م، ص 354.
4. محمد برادة، رواية عربية جديدة، الآداب، عدد 2-3، 1980م، ص 3.
5. نجيب محفوظ، رواية الشحاذ، مكتبة مصر، 1985م، ص 22.
6. المصدر ذاته، ص 38.
7. المصدر ذاته، ص 60.
8. المصدر ذاته، ص 44.
9. المصدر ذاته، ص 164.
10. المصدر ذاته، ص 150.
11. المصدر ذاته، ص 5-6.
12. المصدر ذاته، ص 310.
13. المصدر ذاته، ص 164.
14. المصدر ذاته، ص 95.
15. المصدر ذاته، ص 97.
16. المصدر ذاته، ص 189.
17. المصدر ذاته، ص 20.
18. المصدر نفسه، ص 106.
19. المصدر ذاته، ص 129.
20. المصدر ذاته، ص 188.
21. المصدر ذاته، ص 20.
22. المصدر ذاته، ص 122.
23. المصدر ذاته، ص 43-44.
24. المصدر ذاته، ص 50.
25. المصدر ذاته، ص 50-51.
26. المصدر ذاته، ص 28.

27. المصدر ذاته، ص 20.
28. المصدر ذاته، ص 38.
29. المصدر ذاته، ص 36.
30. المصدر ذاته، ص 35.
31. المصدر ذاته، ص 29.
32. المصدر ذاته، ص 189.
33. المصدر ذاته، ص 200.
34. راجع في هذا المعنى كتاب جورج لوكاتش، نظرية الرواية، منشورات التل الرباط، 1988.
35. نجيب محفوظ، الشحاذ، ص 58.
36. المصدر ذاته، ص 113.
37. المصدر ذاته، ص 146.
38. المصدر ذاته، ص 71.
39. المصدر ذاته، ص 63.
40. المصدر ذاته، ص 146.
41. المصدر ذاته، ص 35.
42. المصدر ذاته، ص 9.
43. المصدر ذاته، ص 141.
44. المصدر ذاته، ص 185.
45. المصدر ذاته، ص 188.
46. المصدر ذاته، ص 162.
47. المصدر ذاته، ص 72.
48. المصدر ذاته، ص 184.

أغراض الشّعر الشّعبي في متيجة

The Aim Of The Popular Poetry In Mitidja

الأستاذ : عطّية رغيسة
أستاذ مساعد "أ"
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب و اللغات
جامعة لونيسي علي البليدة -2-

ملخص المقال:

يهدف هذا المقال إلى التعريف بأغراض الشعر الشعبي في منطقة متيجة ومن خلال ذلك رصد أهم الشعر بصماتهم في مجال فن القول كما يرصد أهم القضايا التي عالجها هؤلاء الشعراء، مكتفين بإيراد نصوصهم الشعرية الشعبية وتحليلها مستخلصين أهم سيماتهم الشخصية، كما يبين المقال أن شعراء المنطقة واكبوا أهم التطورات الحاصلة في المجتمع الجزائري سواء على مستوى الأغراض التقليدية أو على مستوى القضايا المستجدة، وهم في ذلك كباقي شعراء الوطن.

الكلمات المفتاحية: الأغراض، الشعر الشعبي، متيجة

Abstract

This article aims to introduce the aim of the popular poetry in mitidja region and through that to look out the most important popular poets which they made their marks in the field of the art of saying also it looks out about the most important issues which is addressed by these poets sufficiently they took their popular poetry texts and they analysed that by summarising their personal attitudes also this article shows that the poets of the region took in their writting the most imporyant development in the algerian society on one hand in our traditional aims or on the other hand in new issues and they are like other native country poets

key words: The aims, Popular poetry, Mitidja

التراث الشّعبي(1) ركن أساسي من أركان ثقافتنا، وصفحة مضيئة تعكس جانبا مهما من عاداتنا و تقاليدنا،كما يعدّ أحد العناصر المكونة لهويتنا الوطنيّة، فهو يساعدنا في البحث عن مختلف أوجه حضارتنا ومميزات شخصيتنا بكل أبعادها النفسية والاجتماعية.

من هذا المنطلق، أولته الجمعيات الثقافية عناية هامة من جمع وتدوين و تصنيف، كما اهتمت به الجامعات توثيقا ودرسا، وخلافا للتراث المادي التقليدي ، لم يحظ الشّعر الشّعبي المتيجي المعاصر باهتمام الباحثين ولعلّ ذلك راجع إلى اعتبارات مختلفة، من ذلك مثلا أن كثيرا من النّاس وتبعهم في ذلك بعض المثقفين لا يرون فائدة من وراء الاعتناء بالفنون الشّعبيّة عامة والشّعر الشّعبي بصفة خاصة، وأن هذه النظرة – اللّاعلميّة – تجد مبررها فيما عانته القصيدة الشّعبيّة من إسفاف في المعاني و انحطاط في اللّغة، ففي نظرهم مادامت هذه القصائد شفوية في الغالب، ظلّت لمدة طويلة مستودعا للكلام المستهجن، وفرصة لإطلاق العنان و التخلص من الكبت بمختلف مظاهره.

وهذه النظرة إلى حد ما صحيحة، ولكنها لا تنطبق على كل القصائد الشّعبية الجزائرية عموما و المتيجية خصوصا، بل تنطبق على قسم منها و هي القصائد المنظومة في اللّغة الدارجة ذات المعاني و الألفاظ غير المستساغة اجتماعيا و أخلاقيا، لأن مبدعيها

و من لفّ لفّهم، هم من المتذوقين لهذا النوع من الإبداع تجمعهم بنية ثقافية واحدة.
لكن ليست كل القصائد الشّعرية تسير في نفس هذا الاتجاه، بل هناك قصائد ذات مستوى رفيع، من حيث اللّغة و من حيث المضمون و حتى الموضوع أو الغرض المطروق، من أجل ذلك عدّلت النظرة اليوم إلى هذا النوع من الإبداع الشّعبي، بفضل ماقامت به الجامعات وأجهزة الإعلام فضلا عن الهواة، من توعية قصد تغيير موقف المجتمع الشّعبي تجاه هذه الفنون القولية الشّعبية ومنها بصفة خاصة الشّعر، بعدما أصبح تعقد له مهرجانات سنوية وملتقيات علمّية، فقد أدرك القائمون على هذه الفنون الأدبيّة الشّعبيّة مالها من حصانة تمنع أو تحدّ من الذوبان الثقافي، بل هي التي تساهم في تأصيل الأمن الثقافي للمجتمع، ونركز هنا على فنّ الشّعر الشّعبي، لأنه مرتبط بمظاهر حياة الإنسان الجزائري، فقد رافقه في حلّه و ترحاله، وعبر عن همومه و آلامه و آماله في أحلك الظروف التي مر بها، وخاصة أيام الاستعمار الفرنسي وكان شاهدا على عصر كامل ،ذلك هو ليل الاستعمار وما وقع فيه من ظلم و دمار و تشريد، فضلا على أنه عكس حياة هذا الشّعب بكل تجلياتها من عادات و تقاليد ومعتقدات وطقوس ورؤى، ومازال يرافقه إلى اليوم و إلى الأبد لأنه مادام هناك مجتمع فهناك ثقافة.[2]
وشعرنا الشّعبي الجزائري بشقيه الشفوي و المدوّن يمتاز بالكثرة و التنوع في الأغراض و الموضوعات و الأوزان.
والملاحظ أن شعر الحواضر قليل إذا ماقسناه بشعر البوادي و الأرياف والمناطق الداخلية ،كالتّل و الصحراء لأن الحواضر ينحصر الشّعر فيها – على قلّته – في الأغاني التي هي أقرب إلى حياة التسلية، يتمتع بها غالبا الحضريون، أو هو شعر "أوقات الفراغ"، ولهذا ،فشعرهم لا نجده عند الرواة أو ليس لديه رواة، بل ينحصر فيما يتداوله النّاس كأغان في أعراسهم و حفلاتهم، والذي أعطى لهذا الشّعر البعد التداولي بين عامة النّاس، هو كونه يغلب عليه اللّحن وعدم الالتزام بالوزن الخليلي، وهذا يخرجه من دائرة الشّعر الفصيح أو الرسمي و يدخله في دائرة الشّعر الشّعبي أو الملحون أو العامي، وهذا يقودنا إلى تقسيم الشّعر الجزائري إلى قسمين: قسم فصيح و قسم شعبي، وإن اتحد النوعان في معالجة الموضوعات نفسها لأنهما ينتميان الى محيط ثقافي وحضاري واحد، إلا أنهما يختلفان في الصياغة أعني الإعراب والوزن و في طريقة الكتابة، الأول يكتب في إطار ما تفرضه قواعد الكتابة من مراعاة القواعد النحوية والصرفية والإملائية والوزن الخليلي، والثاني متحلّل و متحرّر من كلّ هذه القواعد ،فهو يكتب كتابة صوتية أي مطابقة المكتوب للملفوظ، وتلك أهم ميزة من مميزاته لأن الأصل فيه الشّفوية التي هي خاصية الفنون القولية العريقة[3]، ونحن وإن افتقرنا إلى النماذج الشّعرية الشّعبية القديمة التّامة، إلا أنّ ما وصلنا منه يدل على أنّ بداياته الفعلية كانت مع الشّاعر "سيدي الأخضر بن خلوف وتبعه شعراء كُثُر فحول في هذا المجال من أمثال مصطفى بن إبراهيم ومحمد بلخير و عبد القادر الخالدي
و الشيخ السماتي و ابن مسايب و عبد الله بن كريو وغيرهم من المعاصرين كعبد الحميد عبابسة و عبد الرحمن قاسم و أحمد بوزيان، كما نجده منتشرا في البوادي والأرياف، و خاصة في الصحراء الجزائرية، و سبب ذلك يعود إلى الطبيعة الملائمة للتأمل والعزلة التي يمكن عدّها من بواعث نظم هذا الشّعر، ولا غرو في ذلك، فالشّعر العربي أصله صحراوي منذ بداية نشأته في العصر الجاهلي، ولهذا اشتهر أهل الجزائر في الجنوب بكثرة الشّعر الملحون و قلّ في الشّمال.

نشأة الشّعر الشّعبي الجزائري:

يرى رابح بونار[3] أن أصول الشّعر الشّعبي الجزائري تعود إلى عاملين أساسيّين هما: الهجرة الهلاليّة من بلاد المشرق العربي إلى بلاد المغرب و ذلك سنة 460 ه، وإلى الهجرة الأندلسية من بلاد الأندلس بعد سقوطها سنة 897 ه/1492م على أيدي الاسبان المسيحيين إلى شمال إفريقيا، أي بلاد المغرب العربي.
الأوائل – بنو هلال – تفرقوا و اندمجوا في أهلها و خاصة في الجنوب ،لأن البيئة هناك كما ذكرنا آنفا تناسبهم، فنشروا لغتهم

و عاداتهم و تقاليدهم و بصفة عامة ثقافتهم الشّعبيّة، ومن بينها الشّعر الذي صحبهم في حلّهم و ترحالهم، فهو يمثّل لهم كلّ شيء في حياتهم ، فقد عدوّه منذ القديم سجلّ مآثرهم "فالشعّر ديوان العرب"، وأكثر هذا الشّعر قيل في الأزمات والحروب، أما عندما احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830، فقد نشطت قرائح الشّعراء، حيث رصدوا لنا كلّ ما وقع من كوارث حلّت بالبلاد سببّها الاستعمار.[4]

أما الآخرون الذين هُجِّروا من قبل الأسبان تاركين فردوسهم المفقود، فإنّهم اختاروا النزول والاستقرار في الشّمال الإفريقي بصفة عامة، ومنه منطقة متيجة أي البليدة وضواحيها، يتقدمهم سيدي أحمد الكبير[5] الذي كان عالما ومهندس ريّ، قدم من الأندلس وعمره يتجاوز ال45 سنة، زار البيت المقدس وحلب ودمشق واسطنبول، رحّب بالمسلمين الذين فرّوا من الأندلس وأسسّ معهم مدينة البليدة عام 1535م[6]، فإليه يرجع الفضل في تخطيط و إعمار المدينة و من ثمّة المنطقة كلها.

أغراض الشّعر الشّعبي المتيّجي:

1-الشّعر الوطني:

وهو الشّعر الذي يتغنى بالوطن ويدافع عنه بالكلمة الصادقة والموقف، ويتجلى ذلك في ما يُعبر عنه الشّعراء في قصائد تفيض بالمشّاعر الصادقة التي تدلّ على المعاناة التي يعيشها أبناء الوطن الواحد، سواء كانت نفسية كالإهانة أو كانت جسدية كالتعذيب و ماهو في حكمه:

وهذا الشّاعر علي معريش[7]ينقل لنا صورة معاناة الشّعب الجزائري أثناء الثورة التحريرية المباركة في قصيدته الطافحة .بمشاعر الحب والتضحية لوطنه أيام الاستعمار الفرنسي، فقد نظم قصيدته هذه والجزائر تعيش أحلك سنوات الدمار والخراب، يقول في قصيدته (في سبيل الوطن رانا ضحينا)[8] مصورا مصير مجموعة في أبطال الجزائر الأحرار الذين خرجوا يدافعون عن وطنهم المفدى لكنهم لم يعودوا إلى أهلهم حيث قضى الجيش الفرنسي عليهم جميعا.

يا رجال ابلادنا يا عمدتنا ... هذي غـــيـــبة يـــالخـــاوة طال الحال
اخرجتو بعد الفجر ماودعتونا ... واحسبناكـــم ترجعـــوا بعد الـــزوال
جازت ثلث ايـــام عنكم وعنـــا ... انهـــار الرابـــع جـــاتنـــا عنكم أقـــوال
جا مرسول الجيش فيكم عزانـــا ... أوقال ايعظم أجركم في ذا الأبطال
اقتلهم الإستعمار قتلة مشؤومة ... المـــوت الأحمـــر شـــاهـــدوه بالعـــيـــان[9]

ثم يصور الشّاعر أن مابذله هؤلاء الأبطال من أرواح ، إنما هو في سبيل الله من أجل تحرير الوطن،كما يشير إلى أن كثيرا من الرجال قدّموا أرواحهم وضحوا بأموالهم وبكل مايملكون فداءا للوطن "على حرية بلادنا رانا متنا" لأنه وكما يقول أحمد شوقي

وما نيل المطالب بالتمني ... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وكذلك الحرية فإنها تؤخذ و لاتعطى ثم يواصل قائلا:

في سبيل الوطن رانا ضحينا ... أو ع الوطن والدين ترخاص الأعمار
ماذا من أبطـــال ماتو مثلنا ... أو في كـــل مكـــان خلدنـــا آثار
وعلى حرمة بلادنا رانا متنا ... أو شـــجرتـــــها بالـــدم نسقوها تـــخضار
انموتو ويعيش وطننـــا ديمة ... أو يحـــميكم ويعزكم جـــيش الثـــوار[10]

وهكذا نرى الشّاعر يعبّر عن لسان المجتمع الجزائري أثناء الثّورة التحريرية المباركة، الثّورة التي قدمت الكثير من الأبطال لاسترداد الحرية والكرامة، والمعاني التي عبّر عنها الشّاعر هي المعاني التي كان يؤمن بها كل جزائري عاش ويلات الاستعمار، لأن الشاّعر يختزن ثقافة المجتمع، وهو الناطق الرسمي بأفكارها ومواقفها والمؤرخ لوجدانها الشّعوري تجاه الأحداث، ولذلك يطلب الشّاعر من التاريخ أن يسجّل تلك المآثر و البطولات لتنير طريق من يأتي بعدهم من الأجيال يقول:

سجّل يا تاريخ عنّا و اذكرنا ... أو عن أرض الأجداد هونـــا الأعـــمار
ماخنا ذا الوطن و لاقـــصرنا ... امع جيش التحرير وابطالو الأحـــرار
أعطيـــنا العـــهد ثم وفيـــنا ... أو حافظنا ع النيـــف ما فـــيـــنا غـــدار
واللي حب العز يصبر للهانة ... واللي حـــب الشان لا يـــهـــاب الـــنار
بالنفس مع المال رانا ضحينا ... باش نحرر ذا الوطن مـــن الاســـتـــدمار
الواجب أدينـــاه ثم صديـــنا ... جـــوزنا غـــصات واشـــربـــنـــا لـــمرار
اعذاب السجون ماذا عدينا ... اوكم من حر اكـــواو له لحمه بالنار
مدة سبع سنين ماذا قاسينا ... أوبان الفجر اليوم و طلع النهار[11]

أما الشّاعر أحمد باجي[12]،فهو يلتقي مع علي معريش في إدانتهما للجرائم و المجازر التي اقترفتها فرنسا في حقّ الشّعب الجزائري الأبيّ لا لشيء إلا أنه طالب بحريته و كرامته كشعوب العالم، ولما أصّر على افتكاك استقلاله جُوبه بالنبالم والرصاص ،و ذاق أبشع أساليب التنكيل و التعذيب، من دولة تدّعى الأخوة و الحرية والمساواة، أعلى القيم الإنسانية التي تتغنى بها الشعوب المتحضرة، وهذا أحمد باجي يصور لنا العلاقة التاريخية بين الجزائر وفرنسا وكلها ظلم و استبداد وقتل ودمار فيقول:

لازمـــنـــا نـــعـــمـــل دورة ... نرجـــع شـــوي لـــلـــورا
نشوف فرنســـا المغـــــرورة ... ماذا دارت من الأشرار
عـــــدوة الإنـــانـــيـــــة ... هذا اليـــوم يـــــفـــكـــرنـــي
في خدمتك يا مـــوذيـــة ... كيفـــاش قـــتـــلت الأخيـــــار
ذي فرنـــســـا يـــهودية ... قتلت الناس الكـــلـــيـــة
جـــرايمها تبقـــى حـــية ... هذا اليوم ابقى تذكـــــار
يا فرنـــسا البـــولـــيـــســـيـــــة ... يـــا قـــتـــالـــة الذريـــــة
اتقولي ابلادي للحـــريـــة ... وهـــي بلاد الـــعـــار
بـــخدمـــتـــك الـــدونـــيـــة ... سمعت الناس الكـــليـــة
باللي فرنسا الحضاريـــة ... راهـــا تـــقـــتـــل الصغـــار

وهكذا بكى الشّعر الشّعبي الوطن المسلوب، وكان خير لسان عبّر عن آلام و آمال الشّعب الجزائري أيام محنته الكبرى، نقل لنا الواقع بكل عفوية و تلقائية و صدق، وصراحة هي معهودة عند الشّاعر الشّعبي منذ عبد القادر الوهراني[13]إلى يومنا هذا.

2- الشّعر العاطفي:

يكثر الشّعر العاطفي في مدونة الشّعر الشّعبي المتيجي، لأن الشّاعر يعبّر عن مشاعره و عواطفه و أحاسيسه و مناجاة ذاته و حديث نفسه تجاه المرأة التي يحبّ و التي يتغزل بها فالغزل هو "اللّهو مع النساء و محادثتهن ومراودتهن"[14]

ومن نماذج ذلك قول أحمد عايدة الفطان[15] في قصيدته التي يصف فيها نفسه تجاه من يحب، يقول في قصيدته " شعلت في قلبي نار"[16] :

شعلت فـــي قـــلبي نـــار	مشاهبـــهـــا حرقلـــي أكبادي
سبابي وحدة فـــي الجار	هجـــرت وراحـــت من بـــلادي
من فراقها راني مضرار	مجروح مضروب بـــمـــوس عـــادي
نبكي ودمعي يسيل شرشار	الدموع الفـــــراق شواتلي خدودي
وصلي معاك هـــــذا الأخـــيار	حـــشـــمتـــك بالله يالغادي
احلـــيلها آش اللي صار	الليل و النهار عليك انصادي
بعد الهنى ركـــبـــني دمار	آش اللي صبرني عليها يا اسيادي
اتعارفنا من لي كنا صغار	كل صبحـــة عند بـــابها انادي[17]

بعد هذا البوح و مايقاسيه الشّاعر المحب من نيران الفراق بعدما قدّم لنا صورة عن نفسيته المنهارة يبين سبب هذا الفراق الذي يرجع إلى زواج محبوبته هذه، وهي صورة مكررة في شعرنا العربي منذ القديم و حتى في تراثنا الشّعري الشّعبي كذلك يقول:

سبب محنتي وحدة في الجار	تزوجت وداوها حسادي
هـــذا مكتوبي و هاذو الأقـــدار	ما عند الزهر انشف وادي
ما ننساها مادامت الأعمار	راهي مغروسة فـــي فؤادي
أنظم ونكتب عليها لشعار	عليها نغني ونقوي تنشادي
آش اللي اطفي مني هذي النار	جمرنارها فالقلب قادي[18]

وهو حب عفيف ،ربما الشّاعر كان ينوي من وراء هذا الحب الزواج ،إلاّ أن هذا لم يتم،فحساده خطفوها منه، وهذا كما يرى مكتوب و قضاء وقدر، فهي ليست من المكتوب، مما أثر فيه هذا الفراق تأثيرا بليغا نجد ما يعادله عند سْعيد عشيق حيزية في تراثنا الشّعري الشّعبي في القرن التاسع عشر.

أما الشّاعر بوعلام بن سليمان[19] فإنه ينقلنا من عالم الأسى والحسرة التي رأينا مع العايدة الفطان إلى عالم التذكر و الذكريات التي كانت تجمعه مع حبيبته في قصيدة "بعد الولف"يقول:

يا عزي يا نـــور قلبي وعياني	ياك انتيا عز من مـــمو لبصار
حبك جا فالقلب و سكن دخلاني	وحرقلي لكباد مثلو مثل الناس
بعد الولف بقيت ساهر وحداني	وخيالك فالعين زاد لي دمار

والله ماني ظان قلبك يناني لا تيليفـــــون ولا برية لاخبار[20]

ثم يصف تأثير هذا الحب على نفسه، فقد أنهك قواه وجعله شبيها بسْعيد عشيق حيزية أو كمجنون ليلى قديما، فكما هام هذا الأخير في البراري، نرى شاعرنا يهيم بمحبوبته، فخيالها لا يغادر عينيه واسمها لا يفارق لسانه وكلامها مُسطّر في قلبه وصوتها يؤنس أذنه، فهي تملكته حتّى ليتخيلها تسير في وسط الدار، وتملُّك العشق في الإنسان بهذه الصورة لا يعدم من المرض و الهزال وقديما قالوا "ومن الحب ما قتل" ، يقول الشاعر:

أنايـــا حساس والحب فناني عندي قلب حنين ماعندو تعبار
بالله ماتشفـــيـــش بـــيا عدياني وتخلي دمعي تهود كي لمطار
ياك انتوما ثنين وانا وحداي تعاونتوا فيا ماقلـــتوشي عار
انتـــيا وحدة وحبك الـــثاني سبابـــك انتـــــي بدا هو حقار
في كل لحظة فيلمك بيـــن عيانـــي مثل التلفـــزة يـــعود لي ماصار
أنايا نهـــواك حـــبك فـــنـــانـــي ما ننسى نتفكر في كل نهار
خيالك في العين واسمك في لسانـــي وكلامك في القلب مسطر تسطار
والصوت الجـــميل ديما في وذنـــي مرة مرة نقول هاهي وسط الـــدار[21]

هذا الصدّ من عشيقة الشّاعر ،كان كما يقول مقصودا منها، فقد تعاملت معه بهذه الصورة لكي يزورها هو، ولكنه كما يخبر هو عن نفسه (انايا حساس)، وهذا ماجعله يكون أكثر رومانسية منها، أو قد استويا في نفس درجة الإحساس وهنا بدل أن يكون الشّاعر عاشقا أصبح معشوقا، وهي صورة قلّ أن نصادفها في شعرنا الشّعبي المتيجي المعاصر، يقول الشّاعر:

وانتيا كيفاه قلبك ماجاني في كل يوم ، نسأل في الناس الزيار
ماكانش انسان يخبر هناني من وحشك يا خليلتي مكوي بالنار
واللا ديري فيا هاك بلعاني واتقولي خلـــي يجينـــي عند الـــدار
أنايا حساس و الحب فناني عندي قلب حنيـــن ما عندو تعبار
انتيا وحدة و حـــبك الثاني سبابك انـــتي بـــدا هو حقار
في كل لحظة فيلمك بين عياني مثل التلفزة يعوّد لي ما صار[22]

3- الشّعر الوصفي:

الوصف فنّ أوغرض مستقل كغيره من فنون الشّعر، مثله مثل المدح والهجاء و الفخر والغزل، فقد كانت الأغراض الشعريةمدمجة كلها في باب الوصف،ثم استقلت باتساع أفق الشعراء،فاختص كل غرض بباب و كان للوصف باب مستقل مثلها.[23]

و من شعراء متيجة الذين نظموا قصائد في هذا الباب أحمد بن عربية في قصيدة يصف فيها الطبيعة،فالطبيعة منذ العصور القديمة محطّ أنظار الشّعراء و خاصة فصل الربيع الذي خصّه الشّعراء بقصائد دون سائد الفصول، لما في هذا الفصل من حيوية و نشاط و جمال خلاب يأسر الناظرين، و ما قصيدة الشّاعر البحتري عنا ببعيد. و هذا الشّاعر أحمد ابن عربية لا يشذّ عن هؤلاء الشّعراء الكبار، إنه يقول في قصيدته(فصل الربيع) ما نصه:

فصل الربيع جاء بـــنواره ... قلبـــه زهر معاه
ألقى نصيب قياس عبار ... هاذا الي كان يرجاه
زهره الأزهار في زهاره ... لـــهيب الشوق طـــفاه
في قربه هجرة مراره ... اليـــوم أوصل لمناه
مسك الليل تلق عطاره ... عبق المكان زهاره
الفنان حضر بـــوتاره ... جاب أشعارو و غناه(24)

و للشّاعر نفسه قصيدة أخرى يصف فيها البليدة في فصل الربيع و هي" البليدة الغالية "يقول فيها:

البليدة في الـــربيع كل عام ... من الورد تلبس حلــــــه جميلة
سمعت المقنين على الأشجار ... يغرد يقول في تولويله
جاوبوا عصفور من الـــقفص ... بصياح وزادلو وصيله
النحلة فالزهر على الأغصان ... جايه من اليمين للفليلة
في الصباح بكري تقوم لمويمة ... تسقي و تقطف هذيك النقيلة(25)

أما رابح خدوسي (26) فيصف بلدته "بني ميسرة "التي تحتويها الجبال العالية في شرق أعالي مدينة البليدةوجنوب سهل متيجةبأوصاف تدّل على العلاقة الحميمية بين الشّاعر و هذا المكان الذي كان موطنه الأول.فهو مُخلص له و مدين لهواه و تربته لا ينفك من التغني به و تقديم له آيات الولاء و العرفان يقول:

بني ميسرة البلاد الزيـــنة ... جمالها الساحر، جنة و جنيـــنة
عطرها مشمـــوم في كل مديـــنة ... ربي يحفظها، قولوا آمين
بلاد الخير و الحيا و الأمان ... كرموس خوخ أو رمان
عس حلـــيب و دهان ... الطيبة و الجود فيها ساكـــنين
بني ميسرة الخضرا أمنا الحنينة ... هواها نشموه ربـــي يشفـــينا
من كل هموم المديـــنة ... و امحان الفراق المر والسنين
بني ميسرة الغالية أمنا الحنينة ... ترابحا من عظام والدينا
أرواحهم ترفرف علنا ... و قبورهم للأبد شاهدين
سلام عليك يا أرض الأجداد ... بني ميسرا الغاليـــــة فوق أوتاد
تاج المدن ....هـــبة الجواد ... آية الحسن....مُعطرة بالرياحين(27)

و هذا أحمد محمودي [28] يصف لنا الجزائر في قصيدة (الجزائر الغالية) و هي قصيدة تجمع بين الوصف و الوطنية، تدل على مدى تشبث الشّاعر بأرضه و شعبها الطيّب يقول:

الجزائر يا الغالية ربي يغيــك ياللي راك شايــع في كل مكان
يحياو الشّباب و الشّعب اللّي فيك معاهم لبنــات شيوخ و نسوان
زينك فات الزين خلي ننظر فيك تغير منك فرانسا و الماريكان
يا بلادي يا الباهية غنيت عليك شمعة شمعة شاعلة و ضيالك يبــان
ربي خلقك ضاوية و نزوخ بيك و اللّي حب يشوف نعطيه البيان
نطّلع فيك الصور و نزرّب عليك زين بلادي خير من زين البلدان
بقلبي و الرّوح و بدّمي نسقــيك نغرس فيك الخوخ و نزيــد الرمان
النجمة و علام و هلال مواتيك نطلب لك الخير يا ممو لعيان
سكنت في القلب لامن يدري بيك نرفع راسي فيك وانيا فرحان[29]

وهي قصيدة كما نرى طافحة بمشاعر الحب و الهيام في بلده، ورغم بساطتها إلاّ أنها صادقة تعكس تشبث الإنسان الجزائري بوطنه و الغيرة عليه.

4- الشّعر الاجتماعي:

الشعر الاجتماعي هو الشّعر "الذي يعني بنقد الظواهر السلبية في المجتمع" [30]حيث يقوم الشّعراء بنقد المجتمع مظهرين عيوبه كما يعبرون عن القضايا التي يرصدونها مبينين مواقفهم منها، فهم ينقلون لنا صورا واقعيّة لما تعانيه الفئة الشّعبيّة من حرمان و مظاهر سلبية.

ومن أبرز القصائد الشّعبية المتيجية التي نقلت لنا صورا واقعية قصيدة أحمد عايدة الفطان في وصف "مأساة يتيم" وما تعانيه هذه الفئة – فئة اليتامى – من حرمان و شظف العيش في مجتمع يُفترض فيه التكافل الاجتماعي و الاهتمام بفئة الأيتام، يقول الشّاعر مصورا حياة فتى فقد أمه وتزوّج والده بعدها، كيف عاش هذا اليتيم في هذا الوسط الجديد ما نصه:

يا الغادي زاير الجبانــة سلم لي على الــميمة لتوفات
قول لها ولدك راه في غبنة تغير حال واصبح في صيفات
كل يوم في اخبارك يستنى غابت عليه صيفتك أما ولات
اتلف راي وعقلي اجنى اشرب لمرار اترادف الــكــيات
الله الله يــا لـمــيــمة كي غبتي راكي عليه في غيــاب [31]

ثم يستطرد فيصوّر علاقته بزوجة أبيه، فالمفترض أخلاقيا واجتماعيا و إنسانيا أن تكون بمثابة أمه، ولكننا نرى العكس من ذلك، فهي علاقة سيئة فاقدة لكل عناية واهتمام واحترام، وهذه مشكلة اجتماعيّة عويصة متفشية في وسط المجتمع الجزائري و هو تصوير حيّ وواقعي ينقله الشّاعر منتقدا إياه ضمنيا ، لعل الصورة تتغير نحو الأفضل:

بعد ما غبتي يا لميــمة راه زاد أزوج الأب
جاب امرأة ارخس السومة كان تكلمت تقولي أنت كاذب

ماعندك مصلحة ولا قيمـة   تدفرني وتغلق في وجهي الـباب
الله الله يـا لمـيـمـة   كي غبتي راكي عليه في غيـاب (32)

ثم يصف حالته النفسية المنهارة فيقول:

راني متمحن في هذي الحالـة   ديـمة نبـكي مـقـوانـي
نار الوحش في القلب شعالة   ما جبرت حبـيـب ليـصبرنـي
العقل ركبات عجـة واغلالـه   من غيرك يا أمي مكان لي أم ثاني
يا الغـادي زايـر للـجـبانـة   سلم عـلـى الأم لـتـوفـات (33)

أما الشّاعر أحمد باجي فيقدم لنا صورة واقعيّة من صميم المجتمع الجزائري، يرصد خلالها ظاهرة خطيرة تفشت في السنوات الأخيرة، وهي ظاهرة العنف في الملاعب، حيث أصبح الإنسان الذي يقصدها قصد التسلية أو المناصرة لفريق على فريق، يلقى الويلات من عنف وشتم وتكسير إن لم يكن أكثر من ذلك، وهي ظاهرة سلبية لم تعرفها كرة القدم الجزائرية من قبل، وإنما تفشّت في السنوات الأخيرة. يقول الشّاعر مصورا ذلك في قصيدة (الملاعب) ما نصه:

في الملعب أكثر الختوف   ثم تلقى الموت يطوف
إذا اتحب اتروح اتـشوف   ودع الإخـوان
ثمّ راك اتصـيـب الهـول   هذا الملعب ولّ غول
اللّي يدخلـو مـهـبول   مافيهـش الأمـان
داخل الملعب حـروب   ما عند ثم هـروب
من الملعب يخرج معطوب   هذا الـملعب جـان
هذا الـملعب الـمقـوت   اللي رايح ليه يـموت
الـمـلعـب هذا منحـوت   من صخـر الأحـزان
في الصبحة رايح تتفرج   العشوة تخرج مْعـوج
مثل البطيخ امـبْـرج   في ملعـب الأفـتـان (34)

ثم يبين الشّاعر الهدف من إقامة هذه المباريات والأصول التي يجب أن تتبعها، وإذا لم يتحقق الهدف من إقامتها فلا حاجة للمجتمع إليها يقول:

يا خوتـي هذا بـزاف   ذا اللعب ماهيش زعاف
تتناطح مثل الـخراف   صرنـا حـيـوان
لعبة الكرة مـحبوبـة   فيها الأخـوة مطلـوبـة
ماهيش لعباد مكلوبة   تـاكل الإنـسـان
ذي ريـاضـة الأبدان   ماهي لقتل الإنـسان
هيا فيقوا يا إخـوان   واطردوا الشيـطـان (35)

و من مستلزمات هذه المباريات ،التحلذي بالروح الرياضيّة و على المناصرين ضبط أنفسهم لأنه شيء طبيعي أن يكون هناك فائز و خاسر ولكن الهزيمة تُتقبل مثلما يُتقبل النصر يقول:

لازم يكون الــمغلوب هذا من ربي مكتوب
الأمل هو المطلـــــوب واللـــــعب بـــإتقان
لازم في الملعب سلام كرتــــنـــا تـــزيـــان [36]

أخلص إلى القول: إن الشّعر الشّعبي المتيجي لم يخل من الشّعر الإجماعي الذي ينقد الظواهر السلبيّة في المجتمع، ويحاول لأن يوجه النّاس نحو الفضيلة و الأخلاق التي هي غاية كل شعر إنساني ملتزم.

5- الشّعر الديني:

تمثل الشّعر الديني في القصائد التي نظمها الشّعراء الشّعبيّون في المناسبات الدينية وكذلك في المدائح النبوية، الصادرة عن شعراء متدينين أمثال أحمد باجي و علي معريش و الشيخ المرحوم قويدر بن رحمون دفين مدينة موزاية.

وهذا الشّاعر المتصوف سي قويدر بن رحمون[37]، يتوّسل إلى الله سبحانه بجاه النبي (ص) لكي يقضي حوائجه في الدنيا و الآخرة و كذلك لجميع المؤمنين يقول في قصيدته "قال ربكم أدعوني أستجب لكم":

لا إله إلا الله ذو لطف بالعالــمين محمد رسول الله شافع في الــمؤمـــنيـــن
بسم الله نبدا بالإله الــواحـــد يقضيلي مقاصدي بجاه الــنبــي الأمـيــــن
فالذي يتوسل به إلى الله يرضى به يقضي الحاجة بجاهه في الدنيا و يوم الدين
يا ربي صل عليه مع الآل وصحبه ومـــن آمن بديـــنـــه إلى يـــوم الآخـــريـــن
يالله المتعال بجاه النبي الــمفضـــال فارزقني يا ذا الجلال من أحوال الصالــحين [38]

ويصف نفسه بأنه حقير و عاجز مثل الصوفيين، وهي مرتبة الفقير إلى الله المحتاج إليه و هو بهذا يريد الدخول في زمرة الفائزين يوم الدين يقول ما نصه:

إنني عبد حقير عاجز عن كل خـــير فاجعلني يا ذا الكبير مع النّاس الفـــائـــزيــــن
بجاه النبي العدنان نـــجني مـــن الـــهـــوان أنت الراحم الرحمن في الدنيا ويوم الديـــن
أنت الدائم الفراج عن جميع الي محتاج قد ينفي عنه الأحراج ما يبقى في اليائسين [39]

وتمضي القصيدة على هذا الانكسار وإبداع التوبة و تعداد صفات الله و مناداته بأسمائه الحسنى، وكلّ هذا التذلّل و الخشوع في حضرة الله والقصد بالقلب و الدعاء ،لعلّه يغفر له، وهي منتهى الأوبه إلى الله، والشّاعر كما يشهد له شعره والجميع الذين التقى بهم الباحث، أنه كان من رجال التصوف في منطقته، والدليل من شعره قوله "فارزقني ياذا الجلال من أحوال الصالحين"[40] كما مرّ بنا آنفا، وهي دلالة على أن الشّاعر كان يسير في طريق الصوفية .وأحوالُه الأسريّة والاجتماعيّة تبيّن أنه سلك مدارج السالكين، يواصل الشّاعر قائلا:

إنني قاصد إليك لا تبخلني يـــا ملـــيـــك فالسما و الأرض ليك أكرمني في كلّ حين
إنني عاجز ضعيف خانقا من كل حيـــــف وأنت الحافظ اللّطيف فاجعلني من الآمنين
واجعلني ممن يتوب واغفر لي كل الذنوب أنت الواحد المطلوب وغياث السائـلـيـــن
بجاه كــل نـــبـــي مـــع الآل و الصحبـــى واعف عنا ياربي في الدنيا و يوم الـــديـــن
مع جميع المؤمنين من اوائل يوم الديـــن إلى يوم الآخرين و اجعلنا فـــي الآمـــنـــين [41]

و ديوان سي قويدر بن رحمون كله نظم في هذا الغرض الديني، و هو الشّاعر المتصوف الوحيد من شعراء متيجة الشّعبيّين الذي أوقف شعره في هذا الاتجاه، أما باقي الأغراض الشّعرية فإننا لم نجد ولا قصيدة واحة نظمها فيها، وهذا راجع إلى كونه عالما و إماما و متصوفا منقطعا عن الدنيا و شواغلها و متوجها بكل وجدانه وفكره إلى الدار الآخرة.
أما الشّاعر أحمد باجي فإنه نظم قصائد كثيرة في هذا الاتجاه الديني، وذلك في المناسبات الدينية مثل قصيدته (زائر مكة) التي يتحدث فيها عن التوبة و اتباع الطريق المستقيم ،ويحذر فيها فئة من النّاس في المجتمع تتعامل بالحرام في كثير من أمورها الدنيوية، فهو يركز على ظاهرة التعامل بالحرام، وإن كان لا يشخّص أحدا بعينه يقول:

يا زايــر لــبــيــت مــكــة	روح تصلي فــي الــمـــقـــام
لعلك تــصــيــب فــكــة	من ذا الذنوب و الــحــرام
من هذا الفعل غير بركة	واسكت ماكانش الكلام
ابليس ابنى ليك شركــه	ايــزيــن لك فــي الــحرام
عند الله ماكان سلــكه	تتحاسب ثم بــالــتــمــام
ابن آدم ذي الــهلــكــه	مــا يــنــفع حــتى اكــلام
التوبــة هي الفــكّــه	افطــن مــن هذا الــمــنام [42]

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان " يوم القيامة" في المعنى نفسه و هو تجنّب أكل الحرام ،لأن عقابه وخيم يوم القيامة، ما نصه:

لا جاه لا مــال يــنــفــع	في داخل ذاك الزحام
ما كــان ثم واش تــدفــع	ما يبقى حــتى مــقــام
لا حد فيك ثــم يــشــفع	ثم الخوف يــكــون عــام
تبقى غي في الرب طامع	اتشوف الدنيــا أحــلام
كل ما فعلت ثم تسمع	ايجي مكتوب في ازمــام
ثم بك الــخلق تــعلــم	أنك الــمــيــت الــحــرام[43]

و هكذا يصوّر لنا الشّاعر مشهدا من مشاهد القيامة، يحاكم فيه آكل الحرام هذا، بعدما يئس الشّاعر من عدالة الدنيا لجأ إلى عدالة الآخرة.
أما أحمد عايدة الفطان، فيصف لنا حاله في قصيدة (لوجا الصغر يتعاود) وهي قصيدة موضوعها التوبة والإقلاع عن ما اقترف من ذنوب و آثام يقول:

لو جا الصــغر يــتعــاود	انتوب ألف مليــون تــوبــة
انقوم الليل انسبح الواحد	لله سبحانُ غــافر الذنوب
أكثر الشكر و الذكر و احمد	نحفظ الستين حزب المحبوبـــة

انزور مكة و انزور قبر مـــحـمد وجميع قبور العشرة الصحابــة
نعمل الخير أومحال لا نــفسد مخلاف الله لي يعلم بالقلوبة (44)

هذه التوبة و هذا الإنكسار لله تعالى، جاء بعدما صرّح الشّاعر بأنه سار في طريق الضلال، فهو غير راض عن هذا المسلك، يقول :

امشيت في العوجة ماني نجحد مع الله ما ينفعو الكــذوبة
يا سعد لي صفـــى أزمـــامـــو باش غدوة يلـــقـــى مولاه
أيام الدنيا موحـــال إدومـــو وين الأنبياء وين رسول الله
صفيلي يالله حالي من غيـــومو هذا طلبي منك لي نتــمـــناه
يا سعد لي صفّــى ازمامـــو باش غدوى يفرح بيه مولاه (45)

6- الشّعر الرثائي:

الرثاء هو بكاء الميت أو مدحه بعد وفاته، وتعداد مناقبه و كذلك نظم الشّعر فيه(46)، وهو كذلك التفجع عليه وإبداء الحزن على فراقه، وتصوير الخسارة التي نجمت عن فقده(47)، وتحتل القصائد التي تُقال في هذا الغرض فيضا من العاطفة ودعوة إلى التأمل في حقيقة الحياة، فضلا عن النواح و الصراخ.

لقد بكى الشّعراء الشّعبيون المتيجيون موتاهم فذكروا خصالهم الحميدة وتحدثوا عن أخلاقهم التي ميزتهم، وعبّروا عن المأساة ومرارة الحزن ولوعة الفراق، فمنهم من بكى أمه ومنهم من بكى أباه و منهم من بكى أخته و منهم من بكى رئيسه ومنهم من بكى من يفضل من اللّاعبين الرياضيّين، وكله تصوير للوعة الفراق يستوي فيه رثاء الأقارب أو رثاء الأباعد ماداموا كلهم من أبناء الوطن الواحد.

قال الشّاعر علي معريش راثيا الرئيس الراحل هواري بومدين في قصيدته (يا بومدين واش يطفي ذا الجمرة) ما نصه:

أبك يا عـــيـنـــي اعلى ابن الثـورة بومدين رئـيســنا كـــي صدّ و راح
افتحت المذياع نسمع فــالنشــرة قالوا مات احبيبنا هذا الصــبـــاح(48)
ابقى قلبي امـــحرق بالـــجـمرة اعلى حبيب بلادنا رمــز الكــفــاح
ابقى قلبي مـــجـــرح بالشفــرة شوفوا يا اسلام م اعمــق ذا الــجراح
جيوش الهموم نــزلــــت جرارة أو حطت باعساكيرها واملات الساح
جات لهذا الشعب تطلب فالثـــارة أو غارت منه كم جــوز مـــن افــراح
طعناتو فــــــــــالقلب طــعنة غوارة أو خلاتو في مـــــــحنة يــبــكي نـــواح
اسقاتو من كاس زقــوم أو مـــره أو سقات العديان عطبتـــلــو لجــراح
هذي حالك يالدنــيــا الغــدارة أو من بعد الرفعة اتحطي ناس املاح
ناداك الرحـــمن للجنة الــخـــضــراء امع الشهداء الطيبين اخيار الــناس
انعم بالــخلود فــالــدّار الأخــرى وارقد هاني ثمّ جهادك واخلاص

إلهي بـــجاه صاحب الــعــــــشـــــرة — اتصّبر هذا الشّعب يبرى من لاهـــواس
تجلي حزنه اينوض من هذا العثرة — يبقى شامخ فا لسماكي جبـــل أوراس [49]

وهي قصيدة طويلة تبلغ أربعين بيتا كلها تفجع و حسرة على فراق الرئيس المرحوم هواري بومدين، ومن خلالها يصور المأساة التي حلّت بالشّعب الجزائري في فقدان رئيسه، كما يصوّر موقف الجماهير الشّعبيّة نحو هذا الحدث المأساوي الذي هزّ وجدان الشّعب الجزائري عبر التراب الوطني، مع تعداد خصال و مناقب الرئيس و دوره الريادي العالمي في مناصرة المظلومين عبر العالم، كفلسطين مثلا، ومواقفه الشّجاعة التي يشهد لها الكلّ.

ومن الشّعراء من صوّر مأساة رحيل الأم تاركة أبناءها في حضن والدهم، ومنها قصيدة (الحياة بلا أم مافيها بنّه) للشّاعر علي معريش، البالغة عشرين بيتا يقول فيها:

الحياة بلا أم مـــافيها بـنــــه — والأب إلى صد كالصـــور إلـــى راب
صدّيت يا أم عنا وابــقيـــنا — كالبيت ابلى سقف ليها و لا باب
أناي و الأخ و الأخت معانا — و لا صدر ايحن عنـــــا غــيــــر الأب
امشيت وصيتي الجارات علينا — أو قلت تتهلاو فيهم يا الاحــباب
عز الوالدين يـــــاسامع لـيـــنا — و اللي غابوا اعليه عايش في عذاب
يا أمي من يوم صديت عـــنا — واطعامي والنوم ما عادش يطيــاب
قدّر سيدي خالقي وامتحنّا — وسجل فالمقدور عنا فالكتـــــاب
واحكم بالفراق واقضى مولانا — أو عادش أمه انحل علــيـــنـــــا بـــــاب
الرحلة والموت مكتوبة علينا — والبقاء من صيفــة الـــــرب الوهـــاب [50]

ويختم الشّاعر قصيدته موصيا الأبناء إكرام الوالدين قبل فوات الأوان ويفقدوهم، فيصبحون من النادمين:

اكرم والديك يا سامع لــــيـــنـــا — أو بادرهم بالخير لا تغفل يا شاب
واحذر م التقصير واظب لا تهنى — راك تندم يوم تـــفقدهم يـــا شـــاب
جوزنا سنين طيبات او زيــــنـــة — أو سكنت أمي الفانية تحت التراب [51]

فهي -كما نرى - قصيدة تدعو إلى الاهتمام والاعتناء بالوالدين ما داموا على قيد الحياة لعل بذلك ينال الأبناء رضاهم، وهي قصيدة ذات بعد أخلاقي وديني، وعلي معريش - كما جالستُه - رجل دين متأثر يقول تعالى " وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا" [52]

ولا يقتصر الرثاء على رثاء الأشخاص، سواء كانوا من الأقارب أو من الشخصيات الرسمية، كما رأينا آنفا، وإنما هناك رثاء يتعلق بالجماعة، أو رثاء المدن، ومن بين النماذج الشّعرية التي رصدت لنا الوجدان الجمعي، قصيدة بو علام بن سليمان التي يصور لنا فيها فاجعة باب الواد و الفيضان الذي ضربها سنة 2001، هي قصيدة (تفجع لحباب) يقول:

نتفكر يوم السبت قلبي يـــتألم — يوم أسود مشؤوم مانيش ناسيه
وقت الصبح مشات الأمة تخدم — لقاها طوفان اللي جا يــديـــه
حافيلات بركابها فـــيها يـــردم — ودفنهم حيين الـــولـــد بـــأبيه

رجال و نسوان الحمل رفـــدهـــم والأجل إلا جاك ماتهربش عليه
شحال اميمات تبكي وترحم وقلب الأم إلا نجرح واش يداويه
تبكي على الولاد بالدمعة والـــدم اللي كبدو غاب واش اللي نسيه [53]

بعدما يحدد الشّاعر زمن الحادث وهو يوم "السبت" يعرّج على ذكر المكان و هو (باب الواد) يقول:

حوجي باب الواد راهو متحـــطم واكتب ربي باش ينكب امـــواليـــه
وين البنيان وين رجال الكـــرم فوقهم الطوفان كل واحد في جيـــــه
وين التلميذ وين المـــعـــلـــم طلبة وطالبات كذا من فـــقيـــه
طاحت الأمطار واضرب العظلم واتفجعت لحباب كل آخر في جيه
واحد فـــقـــد خـــوه ولد العم يحوس على ميمتو وعلى أبـــيــــــه
كاين عيطة ناس تتمرمد في الدم واحد مشيتو غاب وتقطعوا رجليـــــه
واحد ما يهدرش باقي متـــبكم احليلو مسكين ماذا صـــــــــاري بـــيـــه
أواحد الهيه تحت حجار الصم ما تعرف لامات لا حي تناديه
اللي هو مات المولى يرحم يجعلو في جار محمد نـــبـــيـــه
واللي هو حي و مريض معدم نطلب من الله العلـــي يشـــفـــيـــــه [54]

ويختم الشّاعر القصيدة بالدعاء، الرحمة للموتى والشفاء للمجروحين، ويبين مدى تآزر الشّعب الجزائري مع بعضهم البعض من أجل الخروج من هذه النكبة التي كُتبت عليه.

7- الشّعر القومي:

أ- قضيّة فلسطين

إن قضية فلسطين من أعقد القضايا العربيّة المطروحة اليوم على الساحة السيّاسية العربيّة و الدوليّة، وبما أن علاقة الجزائر بالمشرق العربي و منه فلسطين علاقة وثيقة و عريقة لها مقوماتها الموضوعية، أصبح الجزائريون يهتمون بها فيحييها الأدباء و ينفعل بها الشّعراء و هذا في مناسبات كثيرة حتى أصبحت محطّ أنظار الشّعب الجزائري[55] متمثلين قول الرئيس الراحل هواري بومدين حسب الرواية الشّعبيّة " نحن مع فلسطين ظالمة أو مظلومة" وهي كلمة تلخّص لنا موقف الجزائر الثابت تجاه هذه القضيّة حتى اليوم " كما أن استعصاء حلّ هذه المشكلة أمام تعنّت إسرائيل جعل من هذه القضية قضية مركزية للعرب تشغلهم و تؤرقهم وتنغص عليهم حياتهم" [56]ومن ثمّ أولاها المثقفون و الشّعراء بقصائد كثيرة ولا غرو أن يتبعهم في ذلك الشّعراء الشّعبيّون المتيجيون، وهذا الشّاعر بو علام بن سليمان يفرد لها قصيدة هي (تحيا فلسطين) يحييّ فيها بطولات هذا الشّعب الباسل المناضل من أجل قضيته العادلة و يندد باليهود الصهاينة وما اقترفوه في حقّ الأبرياء من تدمير و تشريد، يقول :

تحيا فلسطين تحيا فـــلـــســـطـــين ويسقط من ضدّها في كلّ مـــكان
بلاد الأبطال أرض الثـــوريـــيـــن من بكري ياك العرب ضدّ العديان
احنا اعرب احرار مانا حقاريـــن بقى ثار يختار من شاء الزمـــان [57]

ثم يدعو الشّاعر العرب أن يهبّوا أجمعين من أجل نصرة أخوانهم حتى ترجع فلسطين ذات سيادة و استقلال يقول:

هيا يا عربان نمشوا أجـــمـعيـــن نحارب من راه يقتـــل فـــي لـــخــوان
انضحوا بنفوسنا من أجل الدين في سبيل الله و بـــحـــق الإيمـــان
الصهنيوني محال يربح فلسطـــيـــن ما دام أولاد العرب في كل مكان
أنحرر القدس ارض المسلـــمـــيـــن و بلاد العلوم بـــيروت و لـــبـــنان
بالدماء نفدوك مانا ندمانيـــن و نضحو برواح رجال و نسوان
كل آخر يقول أضي فلســـطـــيـــن عجايز وشيوخ حتى بالصـــبـــيـــان (58)

و في الأخير يتمنى الشّاعر من الله_ العلي القدير _ أن ينصر فلسطين حتى يعيش أهلها في وطنهم كباقي أحرار العالم في أمن و سلام:

نتمنى من الله رب العالـــمين ينصر فلسطين عن القوم العديان
نتمنى الاستقلال للّي محتلين كلّ واحد يعيش في وطنو فرحـــان (59)

و القضية نفسها يعبّر عنها علي معريش مبينا أن أمريكا هي التي تقف وراء اليهود في أرض فلسطين و مازالت ترعاها و تمدها بكلّ ما يضمن استمرار وجودها في أرض الميعاد ،يقول في قصيدته (هذا المرة راه حتفك في بغداد):

الماريكان اطغى اتسلط و اتجبر و اتكبر في الأرض يظلم في العباد
كم غطى حقوق،كم قتل بشر و اتفرعن في الأرض، واداه العنـــاد
ذلّ المسلمين سنـــيـــن أو شـــهـــر و اغرس اليهود في أرض الـــميعـــــــاد
كم قتل أحرار و اسقاهم م المـــر و انحاز مع الصهاينة عرة الـــعـــبـــاد
قال اٍمالي يعطينـــي كلّ الـــبـــشـــر و اللّي يعصي ننسفه و يصير ارماد (60)

والشّاعر نفسه يعبّر عن المأساة الفلسطينية في قصيدة أخرى مصورا صمود الفلسطينيين ضدّ ما يتعرضون له من إبادة ممنهجة أمام أعين المجتمع الدولي، ولا يحرك لهم هذا الأخير ساكنا إلّا ما يصدره من تنديدات و شجب ما يقترفه الصهاينة من مجازر في حقّ أبرياء شيوخ و أطفال و نساء يقول:

الصهيوني كان مذلول و جـــبـــان وانقلبت الآية واتحوّل ثـــعـــبـــان
فلسطين الصامدة ضد الـــكـــفـــار واتعاهد ربي بأغلظ الإيـــمـــان
واتقابل باصدورها رصاص أو نار والسجون معمرة بالـــفـــتـــيـــان
لا يمني كيفاش نمحو هذا العـــار وانحرر الأقصى أو أرض العربان (61)

وهكذا عبر الشّاعر الشّعبي المتيجي عن انتمائه لقوميته و هويته العربية، فالشّاعر وخلفه المحبون للقضية الفلسطينية والمساندون لها على استعداد للتضحية بكلّ ما يملكون من أجل استرداد الشّعب الفلسطيني استقلاله واستعادة حقوقه المسلوبة واسترجاع مكانته التي يجب أن يكون عليها بين أمم العالم.

ب- قضايا عربيّة:

الشّعراء الشّعبيون المتيجيون لم يكونوا في معزل عما كان يجري على امتداد الساحة العربية، من قضايا قومية، فهم يعتبرون الوطن العربي كله رقعة جغرافية واحدة، تحكمها عوامل أو مقومات أساسية تتمثل في اللغة و الدين و التاريخ و المصير المشترك، بل حتى الرقعة الجغرافية واحدة، من المحيط إلى الخليج، ولذلك فهم يتأثرون بما يقع هنا أو هناك من قضايا، و ظهر ذلك في شعرهم لأنهم يعتبرون أنفسهم حماة الوطن والعروبة بل كل القضايا الإنسانية العادلة.

ومثلما رأينا الشعراء آنفا يناصرون القضية الفلسطينية ووقفوا معها، كذلك وقفوا مع لبنان وما جرى فيها عام 1982، من اعتداء صهيوني بغيض، والشاعر علي معريش ينقل لنا صورة عن ذلك الهول، وبالتّالي هو ينقل لنا كيف تفاعل هو كإنسان و كشاعر مع هذا الحدث و خلفه الجماهير الشّعبيّة يقول:

طال عذابي، او مل قلبي ما التفكار   واقوى ضري ، زادلـــي رشـــانـــي
ماهو مرض الجسم يبرى بالعـــقـــار   ويداويه اطبيب يذهب ينسانـــي
انا ضري جايني مـــن ذا الأخـــبار   ما اقساها كالنار تقدي دخـــلاني
في بلـــدة بيـــروت خوتي ماذا صار   دم المسلم سال يـــجري وديـــان
سمطت عني امعيشتي ولات امـــــرار   طار النوم على جفوني ما اقوانـــي
كل ساعة فالراديو نسمع اخـــبـــار   واش عمل صهيوني ضد العربـــان
قتل الأولاد واخرب الـــديـــار   ماذا ذبح م الشـــيـــوخ أو نســـوان
الصهيوني قال نـــجـــعلها قـــفـــار   والنح أثر الـــعرب هـــذا شـــأني
دول الصـــليـــب راهـــا لـــي جار   واناي مطبيعـــتـــي ماريـــكـــانـــي
ايساعدني بـــالسلاح وبـــالـــدولار   وآلات الـــحرب مانبغ جـــانـــي [62]

ومازال الوطن العربي يعاني من جراحاته إلى اليوم، وما تخلف عنه الشّعراء، فمازال كل شاعر يطالعنا بقصائد جديدة.

وهكذا نرى أن الشعر المتيجي لم ينفصل عن الشعر الشعبي الجزائري عامة فهو جزء منه، اهتم أصحابه وتأثروا بكل ماجرى حولهم من قضايا وتفاعلوا معها سواء وطنية او عربية، كما تطرقوا إلى جميع الأغراض المعروفة في الشعر العربي، ناقلين صورا حية من الواقع المعيش، في شكل فني يعتبر استمرارا لنهج القصيدة الشعبية الجزائرية والعربية عموما.

الهوامش:

1) انظر في تعريف مصطلح التراث الشعبي
- الفولكلور ماهو؟ فوزي العنتيل، دار المعارف، مصر، ط1 ،1965، ص89.
- د/محمد الجوهري: علم الفولكلور .ج1 دار المعارف، مصر، ط4 ،1981 ، ص 814 ومابعدها.
- د/أحمد بن نعمان: هذي هي الثقافة، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، ط1، 1996 ص 82 ومابعدها.
- محمد ابراهيم الشيباني: مبادئ لفهم التراث، مكتبة دار الهداية الكويتية، ط1، 1983م.

2) انظر: وليام هاولز: ماوراء التاريخ، ترجمة وتقديم د/ أحمد أبو زيد، الناشر دار نهضة مصر، للطبع والنشر، القاهرة، ط/ مارس سنة 1965 (الفصل الأول والثاني).

3) رابح بونار: من مقالة "الشعر الشعبي وتطوره الفني" ص 15 ، مجلة آمال، ع68 سنة 2000 ،ط2، للعدد 4، سنة 1969 (عدد خاص بالشعر الشعبي الملحون).
4) انظر : التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، من 1830 إلى 1945 م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 1983، الفصل الأول من الباب الثاني ص 249 و مابعدها.
5) سيدي أحمد الكبير:
- أنظر ترجمة حياته مفصلة في:

مسعود كواتي، محمد الشريف سيدي موسى: أعلام مدينة الجزائر ومتيجة، دار الحضارة، ط1 ،2007 ص 206/205.

موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، تأليف جماعة من الأساتذة، إشراف رابح خدوسي، دار الحضارة،بئر توتة، الجزائر، ط 2003 .

6) موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين: تأليف جماعة من الأساتذة إشراف رابح خدوسي (مرجع سابق ص 196).
7) علي معريش : شاعر شعبي من مدينة الأربعاء ولاية البليدة.
8) علي معريش: قصيدة "في سبيل الوطن رانا ضحينا" ، مخطوط ضمن ديوانه المخطوط وهو بحوزة الباحث.
9) علي معريش: المصدر نفسه.
10) علي معريش: المصدر نفسه.
11) علي معريش : المصدر السابق.
12) أحمد باجي: شاعر شعبي من مدينة مفتاح، ولاية البليدة، قصيدة "الجزائر وفرنسا" مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، وهو بحوزة الباحث.
13) من أعيان مدينة الجزائر، لاتوجد ترجمة مفصلة لحياته (انظر دور الشعر الشعبي في الثورة – للتلي بن الشيخ، مرجع سابق ص 446.
14) ابراهيم الحيسن: الشعر الشعبي الحساني، الصور البلاغية والأنساق الموسيقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2013، ص 150.
15) شاعر شعبي من مدينة أحمر العين ولاية تيبازة.
16) أحمد عايدة الفطان: قصيدة " شعلت في قلبي نار" مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، وهو بحوزة الباحث.
17) أحمد عايدة الفطان: قصيدة " شعلت في قلبي نار" مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، وهو بحوزة الباحث.
18) أحمد عايدة الفطان: المصدر نفسه، مخطوط.
19) شاعر شعبي من مدينة بوفاريك، ولاية البليدة.
20) بوعلام بن سليمان: قصيدة "بعد الولف"، مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، وهو بحوزة الباحث.
21) بوعلام بن سليمان: المصدر نفسه (مخطوط).
22) بوعلام بن سليمان: المصدر نفسه (مخطوط).
23) أحمد بن عربية: شاعر من مدينة البليدة، ولاية البليدة.
24) أحمد بن عربية: قصيدة "فصل الربيع" مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، وهو بحوزة الباحث.
25) أحمد بن عربية: قصيدة " البليدة الغالية " مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، وهي بحوزة الباحث.
26) رابح خدوسي: كاتب و شاعر من مدينة بئر التوتة، ولاية الجزائر.
27) رابح خدوسي: قصيدة " بني ميسرة" قصيدة شعبية، انظرها في كتابه " بني ميسرة، الأطلس البليدة و متيجة)، تاريخ وثقافة، منشورات دار الحضارة، بئر التوتة، الجزائر، ط1-2013 ،ص 309/308
28) أحمد محمودي: شاعر شعبي من مدينة حجوط، ولاية تيبازة.
29) أحمد محمودي: قصيدة " الجزائر الغالية" تم تسجيلها في مدينة حجوط بتاريخ: الخميس 2011/01/29 في شريط كاسيت.
30) عبد القادر هني: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة، دار الأصل للطباعة والنشر و التوزيع، تيزي وزو، الجزائر ، ط1 1998، ص 243.
31) أحمد عايدة الفطان: قصيدة " مأساة يتيم" مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.

32) أحمد عايدة الفطان: المصدر نفسه (مخطوط)
33) أحمد عايدة الفطان: المصدر نفسه (مخطوط)
34) أحمد باجي: قصيدة " الملاعب" مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
35) أحمد باجي: المصدر نفسه (مخطوط).
36) أحمد باجي: المصدر نفسه (مخطوط).
37) سي قويدر بن رحمون: شاعر شعبي و متصوف من مدينة موزاية ولاية البليدة، (وهو دفين موزاية).
38) سي قويدر بن رحمون: قصيدة " قال ربكم أدعوني أستجب لكم" مخطوطة ضمن ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
39) سي قويدر بن رحمون: المصدر السابق (مخطوط).
40) سي قويدر بن رحمون: المصدر نفسه (مخطوط).
41) سي قويدر بن رحمون: المصدر نفسه (مخطوط).
42) أحمد باجي: قصيدة "زائر مكة"، مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
43) أحمد باجي: قصيدة "يوم القيامة"، مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
44) أحمد عايدة الفطان: قصيدة " لوجا الصغر يتعاود" مخطوطة ضمن ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
45) أحمد عايدة الفطان: المصدر نفسه (مخطوط).
46) أنظر شوقي ضيف: الرثاء، دار المعارف، د.ت، بمصر ط 3 ، ص 05.
47) ابراهيم الحيسن: الشعر الشعبي الحساني، المرجع السابق ص 147.
48) هذا الصباح: هو يوم 1978/12/28م.
49) علي معريش: قصيدة " يا بومدين واش يطفي ذا الجمرة" مخطوطة ضمن ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
50) علي معريش: قصيدة " الحياة بلا أم مافيها بنة" نظمها بتاريخ 1992/10/16 ، قالها في وفاة والدته،وهي مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط.
51) علي معريش: المصدر نفسه.
52) القرآن الكريم: سورة الاسراء، الآية 24.
53) بوعلام بن سليمان: قصيدة " تفجعت لحباب" مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
54) بوعلام بن سليمان: المصدر السابق (مخطوط).
55) حواس بري: شعر مفدي زكرياء، دراسة و تقويم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 138.
56) د/ عبد الله فرج المرزوقي: الشعر الحديث في قطر، تطوره واتجاهاته الفنية، إصدارات إدارة الثقافة و الفنون، الدوحة ، قطر ط 2005 ص 130.
57) بوعلام بن سليمان: قصيدة " تحيا فلسطين" مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
58) بوعلام بن سليمان: المصدر السابق (مخطوط).
59) بوعلام بن سليمان: المصدر نفسه (مخطوط).
60) علي معريش " قصيدة " هذا المرة راه حتفك في بغداد " مخطوطة ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
61) علي معريش " قصيدة " في بلدة بيروت خوي ماذا صار" مخطوطة، نظمها الشاعر في صيف 1982 بمدينة الأربعاء (البليدة) وهي ضمن ديوانه المخطوط، و هو بحوزة الباحث.
62) علي معريش: المصدر السابق، مخطوط.

المصادر و المراجع:

القرآن الكريم، برواية الامام ورش.

أولا: المصادر

أ- دواوين: (مخطوطة)

1- ديوان الشاعر أحمد باجي.

2- ديوان علي معريش.

3- ديوان بوعلام بن سليمان.

4- ديوان احمد عايدة الفطان.

5- ديوان احمد بن عربية.

6- ديوان الشيخ سي قويدر بن رحمون.

ب- قصائد:

7- أحمد محمودي: مجموعة قصائد مسجلة.

8- رابح خدوسي: قصيدة شعبية (بني ميسرة، الأطلسي البليدة ومتيجة)، (بئر توتة، الجزائر) ط1، 2013.

ثانيا: المراجع

1- ابراهيم الحيسن: الشعر الشعبي الحساني، الصور البلاغية، والأنساق الموسيقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، ط1 2013.

2- د/ التلي بن الشيخ: دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة من 1830م إلى 1945 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ط1 1983.

3- حواس بري: شعر مفدي زكرياء، دراسة و تقويم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1994.

4- د/ شوقي ضيف: الرثاء، دار المعارف بمصر، ط3، د.ت.

5- د/ عبد الله فرج المرزوقي: الشعر الحديث في قطر، تطوره واتجاهاته الفنية، اصدارات ادارة الثقافة و الفنون، الدوحة قطر ط 2005.

6- د/ عمر الطباع : فنون الشعر العربي، دار الأرقم، د.ت.

7- د/ عبد القادر هني: مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة، دار الأصل للطباعة و النشر و التوزيع، تيزي وزو الجزائر.

الموسوعات:

المجلات: مجلة آمال، ع 68 سنة 2000 ط 2 للعدد 4 سنة 1969 (عدد خاص بالشعرالشعبي الملحون) مقال لرابح بونار، "االشعر الشعبي وتطوره الفني".

معالم فن السيرة الأدبية الذاتية عند الأمير عبد القادر" دراسة في مذكراته (السيرة الذاتية) بالموازنة مع تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر "لابنه الأمير محمد "

Landmarks of Autobiography in Emir Abdelkader's Writings. A Study in His Memoirs compared to *«Tuḥfat A-zzāir fi Ma'āthir al-Amir Abdelqadar »* and *«Akhbār Al-Jazāir»*

الدكتور عبدالعزيز شويط

جامعة جيجل

الملخص : يتناول هذا المقال دراسة مساهمة الأمير عبد القادر و ابنه محمد في فن السيرة الذاتية و الغيرية ، الأول من خلال مذكراته و الثاني من خلال سيرته عن التي كتبها عن أبيه . ثم الموازنة بينهما في الحقائق و المعلومات التاريخية و حتى في التقنيات الفنية لهذا الفن الأدبي في عصر الأمير عبد القادر و ابنه.

الكلمات المفتاحية : فن السيرة الذاتية / الأمير عبد القادر / فن السيرة الغيرية / المذكرات / الموازنة

Abstract: This paper highlights the contribution of Emir Abdelkader and his son Mohammed to the art of autobiography and biography. The first's contribution lies in his memoirs and the second's in the biogrpahy he wrote about his father. A comparaison between the two contributions is drawn in terms of the facts, historical data, and artistic techniques that were used in this literary genre at the times of Emir Abdelkader and his son.

Keywords : autobiography- Emir Abdelkader- biography- comparaison

مقدمة

" مذكرات " الأمير عبد القادر (السيرة الذاتية) ، و كتاب" تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر " للأمير محمد بن الأمير عبد القادر(السيرة الغيرية) بجزئيه (السيرة السيفية و السيرة القلمية) وثيقتان أدبيتان أولا و تاريخيتان ثانيا عن حياة هذا الرجل الظاهرة ، بكل ما يمثله من رمزية في حياة الأمة الجزائرية .إذ يمكن لهاتين الوثيقتين أن تحققا التطابق ، كما يمكنهما أن تحققا التقارب فضلا عن الاختلاف مع كل ما كتب عن الأمير عبد القادر و خاصة من قبل الأوروبيين ، النصان بقدر ما يكشفان عن شخصية هذا الرجل الكبير القدر و الأهمية و التأثير ، يكشفان أيضا عن مدى التطور الذي لحق فن و أدب التراجم و السير في الجزائر الحديثة . و عليه ، ما مدى توفر ميثاق الحقيقة – على رأي " فيليب لوجون "- في مذكرات الأمير عبد القادر و هي سيرة ذاتية ؟ ، و ما مدى توفر هذا الميثاق فيما يتعلق بكتاب تحفة الزائر لابن الأمير ، الأمير محمد ، بكل ما تمثله البنوة من علاقة ، و بكل ما تمثله الحقيقة في السيرة من ميثاق ؟ و ما مدى غلبة الجانب النصي على الجانب " الميتانصي" (الخارجي) إن غلب حقا ، في السيرتين معا ؟ مع العلم أن البيئة و التاريخ يمكن أن يدخلا في السيرة و أحداثها ، و لكن ليس إلى درجة الغلبة حتى يغدو النص السيري كلّ شيء سوى السيرة ، على عادة جانب كبير و قسم معتبر من تاريخ سيرنا العربية القديمة

؟ ثم أخيرا هل من تخييل ، و هل من فنية أو أدبية في النص السيري الأميري وفي ما كتب عن الأمير من قبل ابنه محمد مادمنا أمام جنس أدبي قائم بذاته مستقل عن باقي الفنون السردية الأخرى (السيرة) ؟ على الأقل أين نشتم شعرية الكتابة الأدبية في السيرة الأدبية عند الأمير عبد القادر ، على اعتبار أن الرجل أديب و فنان بالدرجة الأولى إلى جانب كونه رجل سيف ؟ .و قبل هذا وذاك ما علاقة السيرة بالتاريخ ؟ و ما علاقة السيرة بفن الرواية ؟ و ما علاقة الرواية بالتاريخ و لو من باب الإشارة الواعية ؟ .كل ذلك من شأنه أن يتكشّف من خلال تناول الجانب اللغوي و الجانب الاصطلاحي لمفهوم أدب و فن السيرة ، و من خلال البحث في مضمون و عتبات و فنيات السيرة في الكتابين اللذين بين أيدينا و لو بشكل مقتضب مختصر يتلاءم و شروط المقالة ، حتى تكون الدراسة نصية تتناول العديد من الدلالات في بعض المضمون و في بعض الشكل .

توطئة لا بد منها / العرب و الغرب و فن السيرة (المعجم اللغوي – الاصطلاح – الدراسة – التأثر)

حين يجري الحديث عن تاريخ حياة شخص من الأشخاص، نجد واقع المعاجم العربية اللغوية و حتى معاجم الموضوعات لا تفرق بين فني السيرة و الترجمة الأدبيتين ، على ما بين المصطلحين من فوارق في المضمون و في الطريقة و في الحجم .، و لذلك تتحدث المعاجم عن الترجمة و هي تقصد السيرة و العكس صحيح ،و أحيانا تستخدم ضمن السطر نفسه المصطلحين للدلالة على شيء واحد و هو أحدهما ، فقد يكون " الترجمة " و قد يكون " السيرة " ، هل يعود ذلك إلى أن كل ترجمة سيرة و ليس كل سيرة ترجمة ؟ ، ربما.

هذا يدل على أن التأليف المعجمي العربي و حتى النقدي لم يكن أحدهما متجاهلا للسيرة كفن أدبي بأي حال من الأحوال ، لأن الثقافة الأدبية العربية القديمة قد عرفت فن السيرة ، عرفته كتاريخ و عرفته كأدب و بشكل عميق ، و زامنته طويلا من خلال أمثلة كثيرة لسير و حتى لدراسات سيرية تناولت هذه السير مؤخرا ابتداء من معاجم العرب المشهورة و حتى القواميس والموسوعات الحديثة ، فمن حيث اللغة ، ورد في لسان العرب لابن منظور أن ((السّير :الذهاب .، سار يسير سيرا و مسيرا وتسيارا و مسيرة و سيرورة (الأخيرة عن اللحياني) ، و تسيارا ، يذهب بهذه الأخيرة إلى الكثرة ... و السّيرة :السنة ، و قد سارت و سرتها ...و السيرة : الطريقة . يقال : سار بهم سيرة حسنة . و السيرة الهيئة . و في التنزيل العزيز : " سنعيدها سيرتها الأولى ")) 1

وجاء في القاموس المحيط للفيروزبادي في مادة:سير:السَّيْرُ :الذهاب كالمسير والتسيار والمسيرة والسيرورة .و سار يسير و ساره غيره وأساره وسار به و سيّره و الاسم السّيرة وطريق مسور و رجل مسور به والسَّيْرة :الضرب من السير...والسيرة بالكسر السنة والطريقة و الهيئة و الميرة))2

أما في الاصطلاح فقد ورد عند جبور عبد النور في " المعجم الأدبي " أن السيرة ((بحث يعرض فيه الكاتب حياة أحد المشاهير ، فيسرد في صفحاته مراحل حياة صاحب السيرة أو الترجمة ، و يفصّل المنجزات التي حققها و أدت إلى ذيوع شهرته وأهلته لأن يكون موضوع دراسة ." فن_السيرة هو نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي و الإمتاع القصصي ، و يراد به درس حياة فرد من الأفراد و رسم صورة دقيقة لشخصيته ". (المقدسي ، الفنون ...، ص 547) " و ما يصدق على أقاصيص المازني يصدق على قصصه الطويلة أو رواياته ، فهي أيضا ، رغم امتزاج الخيال فيها بالواقع تعكس لنا سيرته و أحوال مجتمعه" .(المقدسي ، الفنون ... ، ص 368) .السيرة الذاتية : كتاب يروي حياة المؤلف بقلمه ، و هو يختلف مادة و منهجا عن المذكرات و اليوميات ." كاتب السيرة الذاتية قريب إلى قلوبنا ، لأنه إنما كتب تلك السيرة من أجل أن يوجد رابطة ما بيننا و بينه ، و أن يحدثنا عن دخائل نفسه و تجارب حياته , (عباس ، السيرة ...، ص 101) " يفضل المؤلف أن يكتب سيرته الذاتية في

زي روائي مستفيدا من هذه الحرية ، فيجرؤ على أن يدلي بما لم يكن في استطاعته أن يدلي به و لو أنه كتب اعترافا مباشرا " . الآداب، 1975 ، 5 ، 47)))3 . و قد آثرنا أن نحافظ على إثبات صاحب المعجم للنصوص التي أوردها للتفريق بين أنواع السير وللتدليل على العلاقة بين السيرة بنوعيها و بين التاريخ من جهة و الرواية من جهة أخرى لما لها من أهمية و الدقة من حيث التناسب في الاستشهاد ، كما آثرنا البدء به في باب الاصطلاح لأنه معجم مدرسي يجمع بين التعريف اللغوي و التعريف الاصطلاحي لأي مادة معرفية يتعرض إليها .

الميزة التي يتميز بها المعجم السابق يشترك معه فيها ما يصدر من معاجم للمجامع اللغوية العربية ، فمن أجل تقريب المعنى تسعى المجامع اللغوية من خلال ما تُصدره من معاجم إلى الجمع بين اللغة و الاصطلاح في تحديد المفهوم ، و لذلك يجمع معجم مجمع اللغة العربية بالقاهرة بين التعريف اللغوي و التعريفات الاصطلاحية المبثوثة هنا و هناك و يدلي بدلوه في توضيح ماهية هذا الجنس الأدبي مستخدما فلسفة المجمع في الربط بين الدلالة اللغوية للجذر و الدلالة الاصطلاحية فيقول : ((السيرة ـــ السنّة و الطريقة والحالة التي يكون عليها الإنسان و غيره . و السيرة النبوية ، و كتب السير : مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة ، و أدخل فيها الغزوات و غير ذلك . و يقال : قرأت سيرة فلان : تاريخ حياته (ج) سير))[4] و الملاحظ أن معجم المجمع يأخذ بعين الاعتبار التاريخ الأدبي في تحديد التعريف و هو ملازمة المغازي للسير على مر العصور الأدبية التي أنتجت سيرا ، و لكأن السيرة حكرا على رجال السيف في بداية أمرها إلى ما قبل العصر الحديث بقليل ، ثم امتدت إلى أعيان الجهات و أصحاب المذاهب و غيرهم،و لذلك مالت نحو كثرة السير الذاتية للأدباء و العلماء و أرباب الفكر ، و لذلك فقد ضمت هذه الحقب التاريخية سيرا غيرية كما ضمت سيرا ذاتية . ((لا نكاد نمضي بعد القرن السابع الهجري حتى تكثر التراجم الأدبية و العلمية ، و خاصة عند العلماء الذين يؤلفون كتب الطبقات ، فقد أصبح سنة فيما بينهم أن يترجموا لأنفسهم بجانب ترجماتهم لغيرهم))5 ، و لكن ، أي السيرتين أسبق ظهورا ؟ و ما هي الأسباب التي جعلت هذا النوع أسبق من الآخر ؟ . الحق أن ((السيرة الغيرية أسبق زمنًا من السيرة الذاتية؛ لأنها ظهرت مع ظهور التأريخ والأدب .فمنذ ظهور الحضارات، ظهر الكثير من الرجال الذين يعيشون في بلاط الحكام والسلاطين، فراحوا يدونون ما كان يحدث في زمانهم من تطور ونماء، فأرخوا للسلاطين والملوك، وللحروب والمحاربين ورجالات الدول، وإن معظم هذه الأعمال تنطوي تحت مفهوم السيرة الغيري))6 ولعل مرد ذلك إلى احتكار رجال السياسة و الغزو لهذه السير موضوعا ، و بالنظر إلى انشغالاتهم يكتب الناس عنهم قبل أن يكتبوا عن أنفسهم ، ثم أنهم في الأصل غير كاتبين ، فكيف يكتبوا عن ذواتهم ؟ ، على الأقل تم ذلك في المراحل الأولى لظهور فن السير بغض النظر عما رأينا من تقدم لاعترافات القديس أغسطين وغيرها ، إذ الحقيقة أن السير الغيرية كانت قبل هذه بوقت طويل .

لقد كان العالم في حاجة ماسة إلى سير أرباب الفكر و العلم و الأدب كحاجته لسير أرباب السيف و المغازي ، فالإبداع انتصار على الجهل و التخلف و بطولة في ميادين التقدم ، و من أجل ذلك ((أتاح الاهتمام السيري بالأدباء لأن يكون هؤلاء ، وبشيء من التوسع ، شهودا على التراث الاجتماعي الذي طبعهم بطابعه ، و عمل على إدخال السيرة ذات الصدقية – رغم كونها موجهة بالطبع – إلى الأدب)) 7 و هو ما سنقاضي به ــ الصدق ــ السرة الذاتية للأمير عبد القادر و حتى السيرة الغيرية المتعلقة به ، و خاصة حين يكتبها ولده ، من خلال اختلاط الحقيقة التاريخية بالمخيال الأدبي و المبالغة التي تفرضها العاطفة الأسرية، و كيف خرجت هاتان السيرتان صافيتان من هذا الفرث و الدم لتكون نصا أدبي سيري خاضع لمعايير الفنية من جهة ولمعايير الصدق من جهة ثانية ، فكتابة الأنا[8] ليست ككتابة الآخر ، و لكنّ هاهنا نوعية أخرى من ثنائية الأنا و الآخر في كتابة

الذات ، حتى لتصبح السيرة غيرية كتابة للذات بدورها ، أعمق بكثير من العلاقات المعروفة فالمواطنة و الروابط الدينية و الجهوية والعقائدية و الإيديولوجية و الجنسية و غيرها ، إنها علاقة الوالد بولده .

سنأخذ مثالا آخر في التعريف الاصطلاحي و لكن هذه المرة سيكون المثال ممثلا للمعاجم النقدية الأدبية و هو معجم المصطلحات الأدبية الذي يقول فيه صاحبه ابراهيم فتحي :((السيرة الذاتية سرد قصصي يتناول فيه الكاتب نفسه ترجمة حياته الخاصة . و يحاول كاتب السيرة الذاتية أن يعرض حكاية مستمرة لما يعتبره أكثر أحداث حياته أهمية و دلالة . و لا يكشف كاتب السيرة الذاتية عادة إلا تلك الأوجه التي يريد أن يتذكرها الناس و يعرفوها . و تشبه السيرة الذاتية أشكالا أدبية متعددة مثل " الترجمة الشخصية و اليوميات و أدب المراسلات و الذكريات .))9

و في الأخير نهتدي بإحدى المحاولات الدراسية الجادة و المبنية على تحليل النص السردي السيري في العالم العربي من خلال نماذج عربية حديثة و معاصرة ، محددة (هذه الدراسة) السردية و النثرية و هما المجالان الجنسيان اللذات تتجول بينهما السيرة بكل أنواعها ، و هذه الدراسة للدكتور محمد الباردي يقول فيها : ((أن تكون السّيرة الذّاتيّة حكيا استعاديّا، فتلك حقيقة ثابتة. لا شكّ أنّ الحكي كما بدا لنا في مدوّنتنا العربيّة درجات، يبلغ أقصاه في السّيرة الذّاتيّة ذات الشّكل الرّوائي ويصل درجته الدّنيا في السّيرة الذاتيّة ذات شكل أدب الوقائع (عبد الرّحمان بدوي) وبدرجة أقلّ في السّيرة الذّاتيّة ذات شكل الرّسم الذّاتي. ولكن مهما كانت درجة الحكي فإنّنا في السّيرة الذاتيّة إزاء جنس سرديّ بامتياز ولكنّه سرد استعادي يكون فيه الحاضر زمن السّرد والماضي زمن التّجربة.

3 ــ و هو كذلك جنس سرديّ نثريّ، فلم يبلغ إلى علمنا إلى حدّ الآن من كتب سيرته الذّاتيّة شعرا والشّعراء أنفسهم يكتبون سيرهم الذاتيّة نثرا (مثال: فدوى طوقان) ثمّ إنّ الشّعر بحكم طبيعته في العصر الحديث قد لا يحبّذ سرد تفاصيل الحياة الخاصّة باعتباره جنسا أدبيّا استقطابيّا. ثمّ إنّ السّير الذّاتيّة الشعريّة في الأدب العالمي هي محدودة جدّا بالمقارنة مع السير الذّاتيّة النثريّة ونعتقد أنّ مدوّنة السيرة الذاتيّة العربيّة لا تخرج عن هذه القاعدة العامّة.))10

لا يُغرّ المطلع على هذا التعريف المتسم بالشمول أنه يعبر عن نضوج في فن السيرة بجميع أنواعها و تجلياتها و أشكالها عند العرب طبقا لهذا التعريف ، فالتعريف لا يخلو من تأثر بالدرس النقدي الغربي لفن السيرة ، و لربما كان هذا التعريف من حيث الشمول و الاستيفاء يعبر عن فن السيرة عند الغرب أكثر من تعبيره عن هذا الفن عندنا نحن العرب .

عند الغرب و من خلال معاجمهم للمصطلحات و كذا موسوعاتهم الأدبية و النقدية يتضح أكثر فن السيرة بجميع أشكاله ، والأمر لا يعزو إلى سجال في عراقة هذا الفن عندنا و عندهم ، و إنما مرد الأمر إلى النتائج و كما قيل العبرة بالنتائج ، و النتائج مفضية إلى عمق الكتابة السيرية الغربية إبداعا و نقدا ، فعندهم (الغرب) ((السيرة هي النوع الموقوف على رواية سيرة حياة لا تمتزج فيها الحكاية مع شخص الكاتب . السيرية هي مجموع الأنواع التي تقدم لنا حكايا حياة (سيرة، ذكريات ، يوميات ، سيرة ذاتية ...))11

هتشسون في معجم الأفكار يركز على الترتيب الزمني من جهة و على الحقيقة التاريخية من جهة ثانية في كتابة السيرة بنوعيها الذاتي و الغيري فالسيرة عنده على النحو التالي : ((سيرة biography هي ترجمة لحياة شخص ما يكتبها غيره ، و عندما يكتبها بقلمه عن حياته تسمى سيرة ذاتية autobiography .و تتكون السيرة من تفاصيل و حقائق عن حياة شخص ما مرتبة تاريخيا ،و تتضمن تأويلات علاوة على الدقة التاريخية . و كثيرا ما أدت السير (غير الموافق على موضوعها) و غير الرسمية إلى نزاعات قانونية متكررة بسبب التفسيرات،والحقائق والتأويلات))12

لم يكن الصدق في الحوادث التاريخية هو الشغل الشاغل للدراسات الغربية المتعلقة بالسيرة : الذاتية و الغيرية منها ، وإنما علاقة السيرة بالتاريخ من جهة و بالرواية من جهة ثانية ، و حتى علاقة الرواية بالتاريخ ، هي الموضوع الأكثر تناولا في علاقة العلمي بالفني ، التاريخي بالأدبي ، الحقيقي بالخيالي ، و منه فإن ((العلاقات بين السيرة و السيرة الذاتية ، و العلاقات بين الرواية و السيرة الذاتية ، و هي قضايا مقلقة بسبب تكرار البراهين و بسبب الغموض الذي يكتنف المصطلح المستعمل ، ثم بسبب اللبس في إشكاليات مستعارة من مجالات لا رابط بينها ... و بعد تعديل طفيف ، سيصبح حد السيرة الذاتية كالآتي :الحد :حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص ، و ذلك عندما يركز على حياته الفردية و على تاريخ شخصيته ، بصفة خاصة))13 و مع ذلك فاصدق المفضي إلى الحقيقة التاريخية شرط قابلية السيرة الذاتية ، فهي وسط بين العنصر التخييلي وطغيان الحقيقة الخطابية، حتى ليحال الأمر إلى محاكمة أخلاقية قبل الإحالة إلى المحاكمة الحقيقية كما يحدث في الكثير من حالات كتابة السيرة الغيرية و ما ينتج عنها من حالات عدم الرضا عن هذه السيرة ، و لذلك يمكن القول أن ((هناك معيار آخر يجب أخذه في الحسبان هو التمييز بين المقصد الانعكاسي (الراوي يتوجه إلى نفسه)، وبين المقصد المتعدي (الراوي يتوجه إلى شخص ثالث). وضع المقصد المتعدي هو بوضوح المجموعة التواصلية الطبيعية، ولكن بعض الأجناس مرتبطة بوضع المقصد الانعكاسي: المذكرات الخاصة، وبعض الكتابات الشبيهة بالسيرة الذاتية، مثل السيرة الذاتية التقوية القائمة على مبدأ تجربة تحليل أخلاقي ذاتي غير موجه إلى شخص ثالث، واختبارات الشعور... إلخ.))14

و بشكل مدرسي أكثر وضوحا نخلص إلى الاستعمال الواقعي للسيرة اليوم بغض النظر عن صحة المفهوم و شموليته من عدمهما ، يمكن القول ((و تعني لفظة " سيرة " اليوم حسب الاستعمال :

أ- تاريخ إنسان (مشهور عموما) مروي من طرف شخص آخر (و هو المعنى القديم و الأكثر شيوعا)

ب – تاريخ إنسان (غامض عموما) مروية شفويا من طرفه لشخص آخر أثار أثار هذا التاريخ من أجل دراسته (منهج السيرة في العلوم الاجتماعية)

ج – تاريخ إنسان (مروي من طرفه لشخص أو أشخاص يساعدونه ، عن طريق سماعهم ، على التوجه في حياته (السيرة التي تشكلها) . و يقر فيليب لوجون بأنه كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار مثل هذه التعددية في المعنى أثناء استخدامه للفظة " السيرة الذاتية "))15

لقد تعمق الغربيون في فلسفة السيرة فضلا عما رأيناه من تفرعاتها و أشكالها و تمظهراتها ، و تعمقوا أيضا في كل حيثياتها ودوافعها النفسية ، فـــ ((السيرة هي أولا نوع " دوكسي " بامتياز :أدباء يكتبون حياة (قديسين ، أعيان ، فنانين ، أدباء) لإبراز قيمة هذه الفئة أو تلك من الناس ، مهنيين أو اجتماعيين أو للتعرف إلى من يعتبرون محركين حقيقيين للتاريخ (أو لتاريخ ، تاريخ الأدب مثلا) .السيرة هي أيضا نوع مثير للجدل ، إما تقريظي ...و إما للوم والتقريع عندما تهدف إلى تحديد مسؤولية شخص ما عن حدث ما ... و تعتبر أحيانا نوعا أدبيا و يعتبر كاتبوها أدباء))16

لعل الأمر الذي سنلاحظه فيما بعد من تسمية السيرة الذاتية بالمذكرات حسب الطبعة التي تم الاشتغال عليها و هي معروفة الظروف وسياق العثور عليها و إهدائها كمخطوط ، و كل ذلك في كنف أفراد غربيين لأنها وجدت في قبو منزل أحد الفرنسيين، ومنه نرجح أن ورود اسم " مذكرات " ليس هو من وضع الأمير ، و إنما أقحمت على عنوان النص المخطوط ، فالثقافة العربية لا تسمي السيرة بالمذكرات [17]، و حتى الذين درسوا السيرة الأدبية الذاتية و تطرقوا فيها للمذكرات أخذوها من الغربيين ، ولذلك فالفروق بين السيرة الذاتية و السيرة الغيرية والمذكرات أو اليوميات واضحة المعالم عندهم [18].، و حتى و إن كانت هذه التسمية

من وضع الأمير فلا يخلو الأمر من تأثر للرجل بالآداب الغربية ومصطلحاتها . و قد تم التأكيد على العلاقة الوثيقة و شبه التطابق بين السيرة الذاتية و المذكرات أو اليوميات ، ((و نستطيع أن نلاحظ أن تعريفات هذه الأشكال أيضا لا تحتوي على تعريف جامع مانع للسيرة الذاتية ، لأننا لا نستطيع أن نعد كل عمل يجمع بين التحري التاريخي ، والإمتاع القصصي سيرة ذاتية ، فالتاريخ نفسه في بعض الحالات ، حين يصوغه مؤرخ أديب نجد فيه عنصر الإمتاع القصصي ، كما أن مادة السيرة الذاتية لا تختلف عن مادة المذكرات أو اليوميات ، بل على العكس ، فمن المستحب أن يكون لصاحب السيرة الذاتية مذكرات أو يوميات تعينه عند كتابة سيرته على تذكر الأحداث التي مرت به قديما))[19].

أيضا يمكن الاستئناس بعدة تعريفات للمذكرات ، فنجد مثلا ((إن مفهوم " المذكرات "ليس" مفهوما "لكل العصور،فمن يقول "مذكرات"إنما يعني نظرة إلى الوراء أو على الأقل نظرة خارج النفس للبحث عن شهادة حول حقيقة زمنية: التاريخ، فرديا أو جماعيا أوتسلسل الأحداث... إن مفهوم" المذكرات"— و هي قصص حياة أو شهادة عن حدث — يتطلب بالضرورة فكرة عن تطور الماضي و منظورا عن تجربة متنامية و ليس دوريا أو مكررا حتى يسمح بمسافة تقطع ، سواء أكانت داخلية أم خارجية لدى الشخص الذي يفكر به ... إن المذكرات يصنعها التاريخ في مرحلة أولى تحت شكل " وقائع " أو " رسم المجتمع " أو " شهادات". إن الفكرة التي تقول إن لكل إنسان تاريخا ليست معاصرة لتلك التي ترى أن التاريخ يذكر فيه كل الناس و أننا لا يمكن وصفه))20 و هذا التعريف يركز على معاني الشهادة و الحقيقة و الترتيب الزمني والاستذكار،أي الرجوع إلى الماضي .

بل يمكن التفصيل أكثر في نفسية راوي المذكرات ، كما يمكن التمييز بين أنواعها ، فهي على كل حال كما يذهب إلى ذلك الدكتور محمد صابر عبيد : ((المذكرات حكي استرجاعي يقوم فيه الراوي المذكراتي بوصفه مشاهداً بمراجعة مدوّنات سبق وأن سطّرها في ظروف معيّنة، فيعيد كتابتها برؤية متكاملة تتجه إلى التاريخ والأحداث والموضوعات والقضايا، أكثر من اتجاهها إلى البناء الشخصاني للراوي كما هو الحال في السيرة الذاتية أو الغيرية، إذ يقتضي البناء السيري التزاماً بحدود الشخصية في خصوصياتها الذاتية وفي خروجها إلى الأحداث والموضوعات والقضايا.

وفي المذكرات يكون الراوي أكثر حرية في سرد مرويات معيّنة وإغفال أخرى على النحو الذي يطابق سياستها وغايتها المرجوّة، قياساً بتلك الحرية التي يتمتّع بها الراوي السيري "الذاتي والغيري"، وتخضع لاشتراطات فنية وموضوعية معيّنة. لكن ذلك لا يمنع حصول الكثير من التداخلات أو التقاطعات أو الالتحامات أو التوافقات بين السيرة بنمطيها والمذكرات، كما أن المذكرات يمكن أن تكون ذاتية ويمكن أن تكون غيرية أيضاً، ولا تكون فيها عملية الاسترجاع طويلة ومتكاملة كما هو الحال في السيرة الذاتية، بل يجب أن تكون قصيرة.

المذكرات الشفوّية سرد شفوي مرتجل يعتد فيه السارد الشفوي اعتماداً كليّاً وآنيّاً على نشاط الذاكرة وفاعليتها منسجمة مع قصر عملية الاسترجاع، إذ يروي السارد مشاهداته الشخصية في ظل الحدث المعاصر والتاريخ، منصرفاً إلى الحدث أكثر من انصرافه إلى ذاته، على أن يبقى الخيط قائماً بينهما.

وهي تختلف عن المذكرات المكتوبة في أسلوبية السرد ودقّة المعلومات وانتظامها، إذ تروى المذكرات الشفوية بطريقة حكوائية من خلال وسيلة بثّ تصل الكاتب بجمهور المتلقين، إما على نحو مباشر وجهاً لوجه، أو عن طريق الإذاعة أو التلفزة، أو أية وسيلة اتصال أخرى تحقق وجود راوٍ ومروي له، في حين يتم التواصل في المذكرات كتابياً.))21

طبيعة العتبات (العنونة) بين السيرة الذاتية للأمير (المذكرات) و تحفة الزائر لابنه محمد .

العنوان الأكبر (الرئيس) في هذا العمل أو ذاك قد يكون من وضع المؤلف ، و قد يكون من وضع الناشر أو المحقق في حال الكتاب المطبوع ..الخ ، و في حال مذكرات الأمير عبد القادر (السيرة الذاتية) ورد في الغلاف بحسب طبعة وزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى الخامسة والأربعين لعيد الاستقلال و الشباب عنوان " مذكرات الأمير عبد القادر" و في داخل الكتاب ورد العنوان ذاته " مذكرات الأمير عبد القادر " وتحته عنوان فرعي نصه "سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة 1849 تنشر لأول مرة " ولست أدري من أين جيء بهذا العنوان " المذكرات " ؟ وحتى في الصفحتين اللتين صورهما المحققون الكرام لم ترد كلمة المذكرات و لم يرد حتى العنوان أصلا ، فهي (المخطوطة) تبدأ بـــ "بسم الله الرحمن الرحيم "و تنخرط في المقدمة أو الخطبة مباشرة . على الرغم من أن المحققين يذكرون أن ما ورد على ظهر الصفحة الأولى من المخطوطة التي نشرتها وزارة المجاهدين هو عبارة " تاريخ الأمير عبد القادر نسخة مخطوط السيد الحاج مصطفى بن التهامي كتب بعضه بخط الأمير 1849 " والأجمل في هذه العملية بالذات أن المحققين الكرام واعين بالبعد التجنيسي لهذا النص الأدبي ،مفرقين بين المذكرات التي تكتب على مدار السنين وبين السيرة التي تكتب في أيام معدودة تسترجع الماضي من الوثائق و من الذاكرة ، و فريق المحققين الكرام كانت تسميتهم للنص واضحة جدا ، وهي عندهم سيرة ذاتية و الجهد العلمي في التحقيق لهم طبعا ، و هو ما يؤكده محتوى هذه السيرة التي تم الإطلاع عليه بما أثبته الدكتور عبد العزيز شرف بقوله : ((يمكن القول إن السيرة الذاتية نقل مباشر ، أما السيرة الغيرية — أي ترجمة حياة الآخرين — فإنها نقل عن طريق الشواهد والشهادات و الوثائق ، و شتان ما بينهما ، ثم إن الصفات التي تجعل السيرة الذاتية عظيمة ليست هي الصفات نفسها التي تجعل السيرة الغيرية عظيمة . و في رأس تلك الصفات أن يكون كاتب السيرة الغيرية موضوعيا ، يلمح بسرعة و يفهم بإحكام و يلم الحقائق ، و يحكم عليها ، ويمزجها مزجا متعادلا منسجما ، و يصبغها بأسلوبه . أما كاتب السيرة الذاتية فإنه ذاتي قبل كل شيء ، ينظر إلى نفسه و يسلط أضواء النقد ودقة الملاحظة على شخصيته ، و مترجم غيره يقف موقف الشاهد لا القاضي ، أما مترجم نفسه فإنه يجمع بين الصفتين .، فعلى الأول أن يرتد إلى الخلف لينقل صورة العلم كما كانت معروفة بين معاصريه .)) 22 و هذا ما وقع للأمير عبد القادر حين أملى هذه السيرة على أحد أصهاره (ابن التهامي) وهو في السجن و ليس منذ مبايعته أميرا و قبلف ذلك بأي حال من الأحوال .

و الحق أن هذه الطبعة من المذكرات (السيرة الذاتية) فاخرة على الأقل في غلافها الفاخر ، و قد صدّر لها شيخ النقاد والمؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله ، الذي أفرد لعائلة الأمير عبد القادر مبحث غير قصير في كتابه " تاريخ الجزائر الثقافي "[23] ، كما قدم لها وزير المجاهدين زمن صدور الكتاب أول مرة سنة 1983 الدكتور عبد المجيد مزيان وزير المجاهدين آنذاك كما احتوى الكتاب على مقدمة المحققين أيضا .

طبيعة العناوين في هذه السيرة الذاتية المذكرات تختلف كثيرا عن سيرة الأمير محمد لأبيه ،ذلك أن ما غلب على عناوين التحفة لفظ" ذكر كذا وكذا "وهو لفظ تراثي ظل لصيقا بمنتجات الثقافة العربية في عناوين الأبواب و الفصول و المباحث و حتى الرسائل في مجملها منذ فجر الشعرية الكتابية العربية ، بينما العناوين في المذكرات فهي في أغلب الظن من وضع المحقين و لا يمكن التعليق عليها لأنها إطار ميتا نصي لا علاقة له بمتن النص بل هو خارجي مساعد .و يمكن حساب تكرار كلمة ذكر في عناوين المباحث داخل السيرة التحفة بجزئيها فهو قد بلغ 136 عنوانا لمبحث من مجموع عناوين المباحث الكلية والمقدرة بـــ 159 عنوانا لمبحث .

تبقى التحفة بجزئيها ، و هو عمل كامل النسبة لصاحبها الأمير محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري و قد اعتمد على عنوان طويل نسبيا يحاكي ما ساد عند العرب في فن العنونة للكتب و الرسائل المؤلفة " و هو يشبه إلى حد بعيد عنوان كهذا مثلا " نفح

الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيره لسان الدين بن الخطيب " ليس فقط من حيث المحتوى المتشابه والمتعلق بالكوزموغرافيا (الجغرافيا التاريخية للأندلس) والمتعلق بالسيرة الذاتية للسان الدين بن الخطيب ، الفارق هو في تقديم المقري في العنوان للأندلس على صاحب السيرة ، و تقديم صاحب التحفة للأمير صاحب السيرة على الجزائر ، و لقد احترم المقري الترتيب الوارد في العنوان فبدأ بالأندلس و طبيعتها و جغرافيتها و تاريخها و سير أعيانها أو سيرها الصغرى لينتقل إلى السيرة الكبرى سيرة لسان الدين بن الخطيب تماما كما احترم الأمير محمد الترتيب في التركيب الإسنادي للعنوان فبدأ بالمغرب و الجزائر ثم انتقل إلى الأمير عبد القادر كما سنلاحظ في محتوى السيرة التحفة .

بقي لنا التنبيه على هذه الوزن في الموسيقى الداخلية المسجوعة للعنوان في شكل تكرار لحرف الراء كما تكرر حرف الباء في عنوان النفح،يضاف إلى ذلك التصاعدية في مقاطع الفواصل فالمقطع الأول قصير"نفح الطيب/وتحفة الزائر"والمقطع الثاني أطول نسبيا"من غصن الأندلس الخصيب/ في مآثر الأمير عبد القادر"و المقطع الثالث أطول من المقذعين السابقين عند المقري و لكنه عند الأمير محمد في التحفة أقصر " و ذكر وزيره لسان الدين بن الخطيب/ و أخبار الجزائر " و لكنه هنا لم يحدث خرقا موسيقي و لا نشازا لأنه تساوى مع المقطع الأول ، فكان المقطع الوسيط طولا بين قصرين و هو منطق ذوقي مستلذ في عرف البديع .

أثر البيئة في العنونة مبحث شريف على رأي العقلية التراثية ، و لذلك عنوان مثل هذا العنوان لابد أن تظهر فيه آثار البيئة سواء البيئة الواقعية أم البيئة المتخيلة ، فالتحفة تدل على الغنى و الجاه و السلطان و الإمارة لأن الأغنياء هم من بإمكانهم الحصول على التحف و في التحفة دلالة المتعة و الأريحية و الطرب و من ألفاظ حقلها الدلالي علو الذوق و الطرب الوجداني و الإحساس بالجمال و الشرف و الزيارة تحمل دلالة الشوق إلى الوطن و الغربة عنه و الرغبة في زيارته كما تحمل دلالات التصوف في الزيارة و المجاورة لدى المولديات العربية أندلسيها و مغربيها و حتى مشرقيها ، فالحس الصوفي لا يفارق صاحبه ، إما لباطنيته ، و إما بارتباطه بالتجربة الروحية الوجدانية ، و ذلك سبيل كل سيرة أو ترجمة تتعلق بأشخاص وثيقي الصلة بالتصوف ، ((ومن أهم ما يميز هذه التراجم أنها تصور لنا سلوكهم و تضع تحت أعيننا كثيرا من تجاربهم التي تعد في جوانب منها غريبة و خاصة حين يتحدثون عن كراماتهم و مكاشفاتهم و ما عرض لهم من الأحوال ... و هم في ذلك إنما يصفون أنفسهم ويعرضون سيرهم و قد يعرضونها شعرا ، و قد يعرضونها نثرا أشبه ما يكون بالشعر ، ففيه الإبهام و الغموض ، و فيه هذا التطلع الحالم إلى أشعة الذات العلية . و لعل ذلك ما يجعل قراءة هذه التراجم محببة إلى النفس ... وهي مجاهدات و تجارب بدأت منذ رابعة العدوية و معاصرها إبراهيم بن أدهم))24 .و هو ما جعلنا نختاره – المضمون الصوفي – كمثال على المحتوى المضموني الديني . انظر مثلا حين يعلق المحققان على كلمة " الأغيار" ذات البعد الصوفي و قد ردت في بداية الفصل الرابع من المذكرات فيرجعاها إلى تصوف الأمير بقولهما :((الأغيار : ج غير . يقال غير الدهر أحواله ،و أحداثه المتغيرة ،و الأغيار : الحالات النفسية أو غيرها . و الأمير يلمح بها إلى المعنى الصوفي الذي عبر عنه في" المواقف " عند تفسيره لقوله تعالى " هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن " بقوله : " محق تعالى بهذه الآية ... الأغيار كلها لأن كل ما يصح أن يعلم و يخبر عنه بالشيئية لا يخرج عن هذه المراتب الأربع (ج 1 ص 59))[25]

كما نجد ذلك في المآثر تعني المفاخر و الفروسية و ذلك الرصيد الغنائي الوجداني من شعر الفخر و السيادة و الحماسة عند العرب ، كما ترجع إلى النسب الشريف و الافتخار بالأجداد و الأمير فارس و أمير و شاعر و متصوف و متدين و حاج لبيت الله الحرام زائر لقبر النبي ص ، والأمير يعبر عن إثبات الصفة الشرعية المتولدة عن البيعة للأمير ، و ذكر الاسم له دلالة عظمى حكاها المتنبي في مدحياته للأمير خسرو شاه ، و في لفظ الأخبار معاني الشوق و الحنين و ألم الفراق للبلد الذي خلفه الأمير عبد القادر

وراءه كما خلف النبي مكة وراءه و من حين لآخر يسأل عن البلد الأمين،ولفظ الجزائر أيضا له دلالة التشخيص للوطن،ولذلك كان العنوان معبرا عن بيئة الكاتب و بيئة المكتوب عنه ، بيئة الشرف الأميري والقدسية الدينية في الزيارة النبوية و بيئة السمو والغنى النفسي الروحي و المادي عند الأمراء و بيئة الإحساس بالجمال و الشرف و السمو عند الأمراء و السادة و القادة و بيئة المآثر و المفاخر عند الأمير الفارس الشاعر فخر الجزائر و العالم العربي و كل عالم حر ثائر . هذا هو العنوان وهذا هو أثر البيئة في هذا العنوان على الأقل هي بيئة الأمير عبد القادر كأمير و إن آل مصيره إلى سجن لمبواز .

الاستشهادات التي غص بها النص السيري في سيرة الأمير الذاتية (المذكرات) أغلبها ممثلا للبيئة الدينية و العقائدية للأمير ، و مثلما رأينا التصوف من خلال العنوان نرى الدين من خلال الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية التي يمتلئ بها النص السيري ، كما نجد الكثير من الآثار الدينية و أقوال السلف الكرام ، و من الطبيعي أيضا أن يبان الموروث الأدبي في هذه السيرة فالأمير عبد القادر شاعر و أديب و لكن مسيرته السياسية و الحربية فاقت مسيرته الأدبية فقد قاوم فرنسا من سنة 1833 إلى سنة 1847 من بيعة الأمير إلى نشاطه و إنجازاته إلى معاهدة ديميشال إلى معركة المقطع إلى سقوط معسكر إلى معاهدة تافنة إلى نهاية الإمير ، و هي كلها مباحث تتبع التسلسل الزمني في مرحلته الكفاحية يمكن الاستفادة منها في التسلسل الزمني الحاصل في السيرتين الذاتية للأمير و الغيرية لابنه محمد ([26])، و لذلك كثيرا ما ينحاز دارسو السيرة الكتاب إلى كاتب مثلهم حتى وجدنا و كتاب فيليب لوجون الرائع " السيرة الذاتية – التاريخ و الميثاق " اقتصر في فصله الأخير على علاقة السيرة بالتاريخ الأدبي و هو ما لم تركز عليه لا تحفة الزائر للأمير محمد و لا المذكرات للأمير عبد القادر و إلا لكانت إفادتنا من هذا الكتاب عظيمة ، إذ لم تنقل لنا مسيرة الأمير الأدبية بأشعارها و رسائلها ، و لذلك يمكن الاستئناس بقول الكاتب عن الطابع الغنائي في السيرة و عن حضور المخيال الأدبي في سير الأدباء : ((إن السيرة الذاتية شكل آخر ينضم إلى الرواية من خلال مجموعة من التحولات غير المحسومة ، فأغلب السير الذاتية تكون ملهمة باندفاع إبداعي ، واسع الخيال نتيجة لذلك ، يدفع الكاتب إلى عدم الاحتفاظ من أحداث و تجارب حياته إلا على تلك التي يمكنها أن تدخل ضمن بناء نموذج مبين)) 27 .

حجم المحتوى النصي و المحتوى الميتا نصي في مذكرات الأمير (السيرة الذاتية) بحساب المباحث .

كان بالإمكان أن تكون العملية الحسابية التي سنجريها بخصوص المحتوى الميتانصي في السيرة و حتى في تحفة الزائر معتمدا على عدد الصفحات ، و لكن الصفحات المرفقة بالهوامش الغنية من قبل المحققين فيما يخص المذكرات لا تعطي نسبة حقيقية عن حجم المحتوى و لذلك لجأنا في عدد المباحث مهما يكون حجم هذا المبحث أو ذاك،إذ العبرة بالاهتمام و الاهتمام يحدده المبحث وحتى المبحث الدال عليه العنوان المرصود له .

ففي مذكرات الأمير عبد القادر (السيرة) [28] كانت المقدمة فمبحث ذكر الفصول التي يحتوي عليها الكتاب .و كان الفصل الأول في نسب الأمير عبد القادر 09 عناوين (مباحث) 05 مباحث فقط لها علاقة بالسيرة و البقية عناوين ميتا نصية .تتعلق بالمذاهب و مذهب مالك و التعريف به في أصوله و ليس في واقعه في بلاد الجزائر و إلا لكان الأمر مقبولا . أما الفصل الثاني في نسب الرسول و أصل العرب 06 عنوين مباحث ميتانصية كلها .و أما الفصل الثالث في معنى النبوة و الرسالة 09 مباحث عناوين كلها ميتانصية .والفصل الرابع كفاح الأمير عبد القادر 83 مبحث عنوان 79 مبحث ذات علاقة بالنص و أربعة مباحث 04 لا علاقة لهما بالسيرة تتعلق بالشاعر الغزال و حادثة له بملك اسبانيا وأخرى بزوجة هذا الملك في إطار الاستطراد ، واجدة سميت باللطيفة و الأخرى سميت بالطريفة بالإضافة إلى مبحث التذكير بمفاخر العرب وإيفائهم بالعهود و مبحث ذكر " أحلاف" العرب و تنفيذهم لما تعهدوا به ، و إن كان للمبحث الثالث المذكور ما يبرره إلا أن المبحث الرابع بعيد كل البعد عن

جو السيرة . و الحقيقة أن لا السياق المكاني و لا الزماني يفرض استحضار هاتين الحكايتين و هو المنطق الذي جعلنا نعد مثلا فصلا كفصل : " شرح لغوي لمفهوم الجمهورية " من صلب السيرة للعلاقة الواضحة بين الجمهورية الفرنسية و الأمير عبد القادر زمنيا و سياسيا (المعاصرة و العلاقة المباشرة الفاعلة) و لو في المراحل المتأخرة من سيرورة السيرة (نهاية فترة الكفاح العسكري وسقوط الزمالة .

الفصل الخامس في سجايا العرب تكون من 28 مبحث عنوان و هو كما هو مبين لا علاقة له بالسيرة فهو قد تكون من مباحث مينا نصية .

الفصل السادس في نسب الروم القيصرية تكون من 16 مبحثا و هي مباحث ميتا نصية في مجملها .و الفصل السابع في تبيان من اجتمع نسبه من هذه الأجناس و تكون من 15 مبحثا و كلها مباحث ميتا نصية . و أخيرا الخاتمة و جعلها في : عدد الشهور و السنين و في أسمائها عند العرب و العجم و في علامات قيام الساعة و هي 03 مباحث ميتانصية أيضا .

و المجموع بحسب الباحث بحساب المقدمة و الخاتمة كلا بعدد مباحثه تكونت السيرة من حوالي 162 مبحثا كانت المباحث ذات العلاقة بالسيرة حسب منطق السرد و السياق الاجتماعي و التاريخي و السياسي 86 مبحثا و عدد الباحث الميتانصية كان عددها حوالي 76 مبحث . و بالتالي تكون نسبة المباحث السيرية 53.08 بالمئة و نسبة المباحث الميتانصية 46.91 بالمئة .

ومهما يكن عدد المباحث الميتانصية أقل من المباحث ذات العلاقة بالسيرة و لكن المباحث الميتا نصية كادت تصل إلى النصف إذ الفارق أقل من عشرة مباحث وكان المبحث الذي توسط المقدمة ومباحث الفصل الأول مجرد سرد للفصول(مجرد إجمال إحصائي) ومع ذلك جعلناه هو والمقدمة من صميم السيرة وحتى الخاتمة تضمنت 03 مباحث وكانت كلها ميتا نصية.

أما في تحفة الزائر [29] فالأمر لا يختلف كثيرا و إن كانت هذه الأخيرة أكبر حجما في عدد الصفحات مع ما في المذكرات من هوامش المحققين و مع ذلك فقد بلغت 353 صفحة من القطع المتوسط بما في ذلك التصدير و مقدمة المحققين ، و لولا ذلك لكانت التحفة أضعافا مضاعفة للمذكرات ، و هي بجزئيها الأول (سيرته السيفية) و الثاني (سيرته القلمية) قد بلغت 633 صفحة و بدون هوامش و بطباعة قديمة و حجم الخط صغير و من دون علامات وقف و بأكثر من 25 سطر في الصفحة . مما يعني أكثر بكثير من الضعفين هي نسبة التحفة إلى المذكرات .

و بالرجوع إلى نسبة ما هو نصي إلى ما هو خارج النص ، نص السيرة ، نرجع إلى ما قررناه في مبحث العنونة و هو أن المذكرات عنوانها هكذا " مذكرات الأمير عبد القادر " بينما التحفة عنوانها " تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر " على ما لهذا العطف الأخير من دلالة و تسويغ لما سنجده من مواد ميتانصية في هذه السيرة ، و إنما نورد مصطلح السيرة لأن صاحبها كما أسلفنا جعل للجزء الأول عنوانا فرعيا هو " سيرته السيفية " و جعل للجزء الثاني عنوانا فرعيا آخر و هو (سيرته القلمية) و يقصد الأمير طبعا بالسيرتين .و هنا نتذكر بالطبع نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيره لسان الدين بن الخطيب ، و كيف طالت المقدمة في وصف الأندلس حتى غدت كتابا مستقلا عن سيرة ذي الوزارتين لسان الدين بن الخطيب في كتاب نفح الطيب .

في الجزء الأول (السيرة السيفية) و الأمير عرف كرجل سيف أكثر من أي شيء آخر ((و هو القائد المغوار الذي حارب الجيوش الفرنسية بحنكة و خبرة لا مثيل لهما ، و هو السياسي المتمرس ، و العالم الصوفي الفد ، و الأديب المبدع ، و الأب العطوف الحنون ، و العالم الذي يقصده طلاب المعرفة من كل فج قصي ، و الباذل التبر و النفس الغالية من أجل حماية الروح البشرية أينما حل و أقام ...))30 نجد في هذه السيرة السيفية بالإضافة إلى خطبة الكتاب و المقدمة في ذكر جغرافية المغرب ،

وهما مبحثان اثنان ، الأول خطابي و الثاني جغرافي نجد مبحثا آخر في جغرافية بلاد الجزائر و مساحتها و تضاريسها و ما بها من حيوانات و نباتات ، ليصبح عدد المباحث ثلاثة(03) لا علاقة لها بسيرة الأمير عبد القادر ، و نجد بعد ذلك في تاريخ المغرب العربي أدناه و أوسطه و أقصاه إلى استيلاء فرنسا على الجزائر سنة 1838 وبالضبط في الخامس من يونيه كما يحددها الأمير محمد، و نجد كل ذلك في 22 مبحثا جلها في تاريخ دول المغرب و بعضها في ثورات الشعبية للجزائريين على المستعمرين و الغزاة الفرنسيين و غيرهم .

ابتداء من هذا المبحث المذكور و هو استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر و هو مبحث ذو علاقة وطيدة بالسيرة نعثر على 97 مبحثا كلها تروي أحداثا حول الأمير عبد القادر منذ بويع له بالإمارة و إلى آخر وقائع الأمير عبد القادر في بلاد المغرب الأقصى بعد واقعة بني عامر في نواحي فاس .

الجزء الثاني من السيرة و هي سيرته القلمية تبدأ من نهاية الكفاح العسكري و بالضبط من ركوبه إلى طولون بفرنسا هو وأهل بيته ، وتضمن هذا الجزء 37 مبحثا كلها من صميم السيرة ، بما في ذلك المبحثين الأخيرين و هما : رسائل التعازي و المراثي طبعا بعد موته ، و المبحث الأخير و اسمه الخاتمة في ذكر نسبه الشريف .

و عليه يمكن الجمع بين مباحث الجزء الأول و الثاني من التحفة ليصبح مجموع عدد المباحث بحساب المقدمة و الخاتمة 159 مبحثا ، كان 25 مبحثا منها ميتانصيا و الباقي 134 مبحثا ذا علاقة وثيقة بالسيرة (التحفة) و بالتالي تكون النسبة لما هو نصي 84.27 بالمئة و نسبة ما هو ميتا نصي 15.72 بالمئة .

و الخلاصة في هذا الشق بالذات ألم يطلع الأمير محمد على سيرة أبيه الذاتية أو المذكرات التي أملاها على صهر العائلة ؟ حتى لا نجد تكرارا في المحطات الرئيسة التي أتى على ذكرها الأمير في المذكرات النصية أم غير النصية؟

طبيعة (المضمون) النصي و الميتانصي بين السيرة و المذكرات (التخييل و (الصدقية)

يقول جان ماري شيفير عن شرط التخييل في الآداب حتى تعد أدبا ، و لاسيما عن الاعتدال في هذا التخييل و أن يكون الأدب وسطا بين الخطابية و التخييل : ((إذا كان صحيحاً أن الأدب ركام أكثر من كونه نظاماً محدداً بطريقة مشتركة، فإنه يجب عدم الاندهاش عند اكتشاف أن أسماء الأجناس لا تتواجد جميعها في الجهة نفسها من الحدود: الأدب لا يختزل إلى التخييل ولا إلى أفعال خطابية غير جادة. صحيح أن أكثر أسماء الأجناس الشرعية للتقليد الأدبي الغربي تقوم على المجال اللعبي: علماً بأن بعض الأجناس غير اللعبية مثل الأدب الترسلي، والسيرة الذاتية، والتاريخ، قد دخل ضمن مجال الأدب. كذلك إذا بحثنا عن شروط التغيرات الثقافية إلى ممارسات يعتبرها الغرب أدبية، وإذا قبلنا أن كل نشاط لغوي له أساس اجتماعي وواقعي، أو الذي يفسح المجال لتركيب لغوي متميز يمكن أن يندرج تحت عنوان الأدب، فإننا نرى أنه في عدد كبير من الحضارات، خاصة الشفهية منها، يتضمن المجال المقصود عدة أنشطة غير لعبية، مثل الرثاء، والصلوات، والأغاني الجنائزية، والأمثال، والأناشيد الدينية، والخطب الوعظية. من المفيد تحديد أنه إذا كان التمييز بين أسماء الأجناس المستندة على المجال اللعبي وبين أسماء الأجناس المستندة على ممارسات لغوية جادة، ذا طبيعة وظيفية، فإنها كلها، مهما تكن الوظيفة التي تستند عليها، تستطيع التعريف بظواهر مرتبطة بمستويات أخرى للفعل التواصلي في الوقت نفسه))31.

السياق و الهدف الذي كتبت من أجله السيرة الأدبية للأمير عبد القادر يفرض الصدقية و هو سياق الأدب الهادف ، و مع ذلك فهذا ملمح نقدي سياقي ، و هذه آلية سياقية و الأمر يحتاج إلى دليل نصي ، بل و قد تكون هذه الحجة عليه و ليست له من حيث الصدقية ، ولكننا هنا لا نناقش الصدق كمقابل للكذب و إنما الصدق مقابلا للتخييل ، و لكن هذه الحجة ، على كل

حال، تساعد على التدليل على الصدقية و الحقيقة في النص السيري في النصين اللذين بين أيدينا .فلم يكتب الأمير عبد القادر سيرته للمتعة الأدبية ، و عليه فهو ليس في حاجة للتزييف و لا للمبالغة ، و لا للتخييل ، و إنما كتبها للتاريخ و هي ليست بتاريخ ، كتبها للاعتبار و هي نص فني توفرت فيه شروط الأدبية من حيث جمالية الأسلوب ، و مهما يكن أسلوب الأمير جميلا كان بإمكانه استخدام الأسلوب العلمي المستخدم في كتب المؤرخين و الإخباريين ابتداء من هيرودوت و إلى ابن خلدون ، و عليه كتبت السيرة بهدف الدفاع و رد الشبهات و تفنيد الاتهامات ، فهي مرافعة يدافع بها صاحب السيرة عن نفسه في حالة المذكرات و عن والده في حالة السيرة التحفة تؤكدها الحقائق و الشواهد و تحميها ، مصداقية ، آلية التواتر في الحوادث التاريخية انطلاقا مما يشهد به الناس و انطلاقا مما سيكتبه الآخرون .((و في جميع الأحوال ، سواء أكان كاتب السيرة الذاتية صادقا أم كاذبا ، فنحن لا نعد السيرة الذاتية وثيقة تاريخية ، و لكننا نتوخى فيها الصدق لأننا نعدها وسيلة لإقامة جسور من التعاطف والصداقة بين القارئ والكاتب ولكي يستطيع الكاتب أن يكسب ثقة القارئ لا بد أن يلتزم الصدق والصراحة))32.

في حالة الأمير محمد كانت الحرفية و الإغراق في المتوفر من وثائق و شهادات في نقل الحقائق و الحوادث التاريخية حامية له مما يمكن أن تمليه عاطفة الولد تجاه والده مما يتوقع من مبالغة أو زيادة ، و هذا ليس غريبا عمن تصدر للكتابة السيرية ، فـــ ((لعل كثيرا من كتاب السير التاريخية عندنا كانوا أسبق إحساسا بمعنى الاعتدال في الحكم و التقدير ، واضعين الصواب إلى جانب الخطأ حين يتحدثون أو يترجمون لأن " علم الرجال " علمهم أن هناك جرحا و تعديلا ، و أن هناك مرتبة وسطى تجمع بين الجرح و التعديل ، و لذلك لم تكن السيرة مدحا مطلقا أو ذما مطلقا ، بل كثيرا ما كانت تجمع بين هذين في صدق و اعتدال))33 و مع ذلك فهي نصوص أدبية فنية توافرت فيها الجمالية الأدبية ، و إن لم يقصد بها الإمتاع و مع ذلك فقد حققت إمتاع المتلقي .

و لذلك يمكن القول : ((لقد كانت التراجم أو السير في العصر العربي الوسيط ،هي شيء أكبر من مجرد مستودع للبيانات التأريخية للسيرة ، بل ، كانت أيضا أداة للتقريظ و الجدل .فعند كتابة ترجمة ما ، كان المؤلف ، على الأقل تتاح له الفرصة لاتخاذ موقف يتعلق بهيئة الشخص موضع الاهتمام أو بجوانب معينة من حياته . فإذا ما حدث و أصبح كاتب السيرة مدركا لبعض المعلومات التي تثير الجدل فيما يتعلق بشخص ما ، فهل يقوم باستبعادها أم عليه أن يضمنها ؟ و إذا كان عليه أن يضمنها ، ، فكيف يعرضها ؟))34 هذا عن العصور السابقة عند العرب ، و هو نفسه ما يمكن أن يتحقق عند بقية الأمم و منها الغرب ، فـــ((إن التاريخ بالنسبة إلى أجيال ما بعد ثورة 1789 م لا يمكن إلا أن يكون أساسيا : مواجهة بين ما هو كائن و ما كان وبحث عن التعليلات و عن قوانين تجعل من هذه التحولات الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية الكبيرة شيئا غير الحوادث ، لكن الإمبراطورية ، ذلك الشكل المركزي و المشخص في السلطة ، هي التي ستصنع من المذكرات نوعا من ملاحم مرحلة تريد أن تكون جديدة و لا تنسى))35.

التسلسل الزمني للأحداث بين السيرة الذاتية للأمير (المذكرات) و تحفة الزائر.

نعني بالتسلسل الزمني للأحداث مدى التراتبية في رواية الأحداث ، التداخل الزمني و الانتقال من الحاضر إلى الماضي أو من الماضي القريب لإلى الماضي البعيد من خصائص فنية الرواية الحديثة و المعاصرة ، و إن لم يكن في العربية صيغ تفاضل بين الزمنين كما هو متواجد في اللغات الأوروبية مثلا ، إلا أننا نستشف ذلك من سياق الكلام و من عبارات دالة على ذلك و منها ظروف الزمان ، و مع ذلك يمكن أن نكتشف احترام التراتب الزمني في النص السيري سواء في السيرة الذاتية (المذكرات أم في السيرة الغيرية (التحفة) و أقترح أن يكون ذلك بشكل تفصيلي فيما يتعلق بالمباحث النصية ، ذات العلاقة الوطيدة بالسيرة ، و أن يكون بشكل عام فيما يتعلق بالمباحث الميتانصية .

ففي المذكرات كان الفصل الأول مزاوجا بين الإطارين الزماني و المكاني (بيئة أو فضاء الولادة و النشأة) ، و هو فصل في نسب الأمير ، تطرقت المذكرات إلى النسب(الزمن الماضي البعيد جدا أو السحيق) بمعنى الأجداد ،فالموطن كدلالة على المزاوجة بين المكان و الزمان (الفضاء) ، فالتعريف بزاوية القيطنة لتحقيق النسبة المذهبية و العقائدية ، فالمولد و التعلم ، فالمشائخ .، و عليه كان التراتب محترما لأن الأجداد (الماضي سحيق) أسبق من الموطن و تكونه كقرية جزائرية و عربية و إسلامية من معسكر (الماضي البعيد)، و بلدة القيطنة في التكون أسبق من زاوية القيطنة ، و بعدها كان المولد أسبق من التعلم و من ذكر المشائخ ، و إن كان المشائخ أسبق ظهورا من صاحب السيرة و مع ذلك تأخر الحديث عنهم لأن صاحب السيرة في النص أهم من حيث الذكر من المشائخ و لذلك ألغت أهمية المترجم له زمنية المشائخ .

المباحث التالية ، و لأنها ميتانصية خرقت تماما التسلسل الزمني ، و رجعت إلى الماضي السحيق ، و هي الآراء الفقهية في ضرورة الإلتزام بمذهب فقهي واحد و التعريف بإمام دار الهجرة مالك بن أنس و بصفاته و خصاله .

ما يقال عن هذه المباحث يقال بشكل أعمق حول الفصل الثاني بأكمله لغوصه في الماضي السحيق جدا وذلك متعلق ببالنبي ص وبأجداده وبأصل العرب . و يلاحظ أن المباحث الميتانصية يكون الترتيب فيها من الحاضر إلى الماضي أو من الماضي القريب إلى الماضي البعيد ، أما المباحث النصية فعلى العكس من ذلك يكون تتيب الأحداث فيها من الماضي القريب إلى الحاضر .بهذا الشكل:

حالة المباحث الميتانصية حالة المباحث السيرية

إلى الماضي السحيق من الماضي البعيد من الماضي القريب إلى الحاضر

و هو الأمر نفسه مع الفصل الثالث المتعلق بمباحث النبوة و الرسالة في الإسلام و منه انتقل إلى الحديث عن عيسى بن مريم عليه السلام .

فيما بعد سنلاحظ أن أن الفصلين الخامس و السادس و المتعلقين على التوالي بسجايا العرب و مكة و تاريخها من آدم عليه السلام إلى عبد المطلب جد النبي(ص) و بنسب الروم القيصرية من الحواريين إلى إبراهيم الخليل عليه السلام . و الحق أن في الفصل السادس خرق لما قررناه في الفصول الميتانصية أو الميتاسيرية من تراتبية زمنية عكس سيرورة الزمن ، فقد حافظ الفصل على ترتيب مباحثه من الماضي السحيق إلى الماضي البعيد ، أما الفصل السابع فالتذبذب عليه واضح في ترتيب الأزمنة أيما وضوح ، وتبقى الخاتمة التي لا يسري عليها هذا الحكم أيضا ، فهي تبدأ بعدد الشهور و السنين عند العرب بداية و تنتهي بعلامات قيام الساعة و منه فهي مرتبة من الماضي إلى المستقبل .

لا مجال هاهنا للتأويلات الباطنية فهذا ليس مجالها و لكن تراوح الترتيب من الماضي إلى الحاضر تارة و من الحاضر إلى الماضي تارة أخرى وبقائه في الخاتمة من الماضي إلى المستقبل تحديدا ليس بأمر جزافي في هذا النص الأميري .

الفصل الرابع المتعلق بكفاح الأمير عبد القادر يفترض أن يكون النص السيري قد احترم التسلسل الزمني بشكل يوافق إلى حد بعيد ما قرره التاريخ الحديث للدولة الجزائرية الحديثة بقيادة الأمير و لو على مستوى معسكر و الزمالة ، و توافق ما ذكره كل من شارل هنري تشرشل في " حياة الأمير عبد القادر "[36] بحسب ترجمة أبي القاسم سعد الله و برونو إتنين في " عبد القادر الجزائري "[37] ترجمة ميشال خوري ، إلا فيما يتعلق بمبحثين أشرنا إلى " ميتانصيتهما " أو" ميتاسيريتهما " و يتعلقان بطريفة قصة الشاعر الغزال بملك إسبانيا و لطيفة علاقة هذا الشاعر بزوجة الملك المذكور في صفحة 129 بحسب الطبعة التي يتم الاشتغال عليها .

ولكن ذلك ما لم يحدث ، لكأن النص الذي بين أيدينا نص فني يرقص على حبل التداخل الزمني كما هي الرواية اليوم ، وعليه فالتراتب متسلسل من الماضي القريب إلى الماضي الأقرب في بعد الأحيان و خارق لهذه التراتبية في أحايين كثيرة من المتن النصي للسيرة حتى في مباحث يفترض أنها نصية و سيرية مائة بالمائة .و لنأخذ على ذلك مثالا فقد بدأت رحلة الكفاح بالرحلة مع الوالد إلى الحج من ركوب البحر من تونس إلى القاهرة إلى جدة إلى المدينة ،... ثم انتقلت إلى ما سيأتي فيما بعد و لم يحن أوانه و هو فتنة عين ماضي و ما وقع للتيجاني بعد معاهدة التافنة ، كل هذا الكلام ذكره قبل معركة المقطع ؟؟؟ تكرار عبارات من مثل : (عودة) (الرجوع) استطراد) (رجع) (ولنرجع) دليل على عدم احترام التسلسل الزمني للأحداث في هذا النص السيري . والأمثلة كثيرة على هذا الانتقال الزمني المتراوح ، فبعد كل ما ذكرناه يبدأ البداية الرسمية في علاقته مع فرنسا في صفحة 138 من الكتاب منذ من كان قبله من أصحاب حادثة المروحة إلى دخول فرسا سيدي فرج إلى مبايعة أبيه و هو من بعده على الجزائر ، وهذا بعد أن تحدث ما شاء له الاستطراد أن يتحدث عن علاقته بجنرالات فرنسا حربا و هدنة .

بل نجد الأمير ينهي كلامه عن الرحلة الحجازية بزيارة بغداد مع الركب الشامي و تجنبه لبقية الطرق تجنبا لقطاع الطرق وينتقل إلى ثورة التيجاني على الباي حسن باي وهران من قبل الأتراك و أطال لأن الحادثة ستتكرر و لكن بين الأمير و أخ التيجاني في عين ماضي ، حيث الزاوية ، والأمير ينتقل من هذه الحادثة ، و إن لم يكملها باعترافه ، إلى معاركه مع الجنرالات و الماريشالات الفرنسيين ثم في صفحة 124 يتذكر أنه لم يكمل حديثه عن الرجوع من الحج و يبرر هذا بتنويع الموضوعات و الأساليب و إن كان يستخدم عبارات الفوت من مثل " و مع كوننا لم نتم قصته " و " و لا أكملنا كلامنا في شأن السفر الحجازي و ما آل إليه الأمر ، إلى أن وصل هذا السيد الرفيع البلاد " و يقصد أباه محي الدين و " و حقنا أن نذكر ذلك مفصلا مرتبا ، ليجري الكلام على سنن واحد ، لكن إنما غايرنا بين الأساليب و ارتكبنا هذا التركيب ، تلوينا لتحسين الكلام ، و انتقالا من مقام إلى مقام " ومن ثمة فهو لا سيرجع مرة أخرى إلى إتمام الرحلة الحجازية و لكن في صفحة 127 أي بعد قرابة عشرين (20) صفحة من الكتاب .و هذا دليل آخر على عدم احترام الأمير للترتيب الزمني بوعي و بقصد منه ، و الأجمل هو أن الأمير يؤرخ لكل حادثة ليس بشهر بعدها أو عشرين يوم و إنما بالتاريخ الهجري المضبوط باليوم و الشهر و السنة و بالمدة ، و ذلك على شكل حوصلات (خلاصات) لكل مرحلة من مراحل السفر يحصي مدتها من بداية الرحلة إلى نهايتها مدة كذا .

ضمن هذا الفصل نفسه و هو الفصل المتعلق بالكفاح ، و هو أكبر الفصول سيريا و نصيا ، حتى أنه أكبر حجما من فصل النشأة و التعليم ، نعثر على العديد من النصوص غير السيرية و التي تكون عادة في النصوص من باب الاستطراد الذي له منطقية التواجد إما عن طريق علاقات التشابه أو الاستشهاد أو التذكر أو التخيل أو المناسبة فكما قيل : " الشيء بالشيء يذكر " و هو ما سيفضي إلى صلة هذه النصوص الجزئية بأزمنة غي مرتبة و لا متسلسلة و لا مترابطة ، فتكون السيرة هاهنا أشبه بالعمل الروائي ولكن من غير تخطيط لسير الحكي ، و هو ما يعبر عن منطقية المناسبة لا منطقية الترتيب الزمني ، فنص من مثل النص المستخدم للتدليل على أنواع الرياح الأربع فالثمانية و استحضار نصوص من الهدي النبوي في الرياح من صحيح البخاري ، و مع الإيمان بانفتاح هذه النصوص زمنيا إلا أن الشحنات الدلالية التي تحتفظ بها و حتى الحمولات المعرفية و الثقافية تنتمي إلى ومن ليس هو بزمن حياة الأمير حتما ، و إنما هو زمن موغل في الماضوية و القدم .[38] و يمكن استحضار العديد من النصوص التي تعبر عن التداخل في الأزمنة عبر قنوات هذا الانتقال غير المنتظم المتعددة و أساليبه المختلفة .

في " تحفة الزائر " و في الجزء الأول منها (السيرة السيفية) كانت المداخل الكوزموغرافية لبلاد المغرب الإسلامي محترمة الترتيب الزمني من الماضي البعيد إلى الماضي القريب من تاريخ البربر إلى الفتح الإسلامي إلى مختلف الإمبراطوريات ثم الدويلات

التي حكمت المغرب الإسلامي ، وانتهاء بدولة آل عثمان ، ثم ما كان من بعض الثورات الشعبية على الإسبان و على آل عثمان ثم الاستيلاء الفرنسي على الجزائر العاصمة و هو ترتيب زمني تراتبي محترم ، و لكنه ميانصي خارج عن معطيات سيرة الأمير عبد القادر .

ما جاء بعدها من صميم محتويات السيرة الذاتية الكفاحية للأمير و هو من خلال استعماله لكلمة " ذكر " قد وجهته هذه الكلمة فيما هو سيري ّإلى ترتيب زمني دقيق جدا بحسب وقائع و معارك الأمير عبد القادر مع الجيش الفرنسي و مع غيره إلى الإنتهاء بواقعة بني عامر بفاس وما كان بعدها من وقائع بالمغرب الأقصى .

الجزء الثاني من التحفة و الذي تضمن السيرة القلمية للأمير عبد القادر أيضا احترم الأمير محمد تسلسل الأحداث في سيرة والده منذ ركوبه إلى فرنسا و بالضبط إلى طولوز و إلى استقراره في لومبواز و إلى انتقاله إلى دمشق و وفاته رحمة الله عليه .

الاستثناء الوحيد الذي فعله الأمير محمد ، و الذي خرق الترتيب الزمني لتسلسل الأحداث ليس هو خرق وسطي و إنما هو خرق من البداية ، فقد أرجأ الحديث عن نسب الأمير عبد القادر إلى الخاتمة و قصرها على ذكر النسب ، و كان من المفترض تبعا لقاعدة الانتقال من الماضي السحيق إلى الماضي البعيد و منه إلى الماضي القريب و لما لا إلى الحاضر إن كان قد كتب السيرة في حياة والده و حتى الانتقال إلى المستقبل فيما يتوقع أو يحلم به من أمر الوطن و مسيرة الكفاح .

خاتمة :

لقد خشيت أن تطول هذه المقالة حتى تخرج عن ما وضعت له كمقالة و إلا لتم الإكثار من الأمثلة فيما يتعلق بالعناصر التي طرقتها ، سواء عند الحديث عن طبيعة المحتوى في المذكرات و في السيرة أم أثناء الحديث عن حجم هذا المحتوى في النصين أم أثناء الحديث عن التسلسل الزمني في سرد الأحداث وفق منطق السرد المتتابع و المتسلسل ، مع العلم أن المنطقية قد تدرك بالتناسب في السرد و إن اختلطت الأزمنة في سياق النص الفني السردي كالرواية و لما لا السيرة بنوعيها أو بأنواعها .

و عليه ، فقد آثرت أن يكون ختام الحديث في هذا العرض على شكل موازنة ، ليس بين التحفة و المذكرات كما قد حُبكت عليه خيوط البحث ، و إنما بين هذه السيرة الثنائية (التحفة و المذكرات) من جهة وبين الموروث السيري الأدبي عند العرب في مراحل متأخرة من ثقافة هذه الأمة و تبلور أدواتها الفنية و هي تصوغ أجناسها الأدبية ، و هو ما لم نره لا في سير و مغازي الأولين و على رأسها سيرة النبي (ص) لابن إسحاق أو لابن هشام أو للسيوطي و لا حتى السير الأسطورية لعنترة بن شداد ولسيف بن دي يزن و لصلاح الدين الأيوبي و لا لبني هلال ... الخ .و إنما في سيرة لرجل شديد الشبه في مساره السيفي و القلمي بالأمير عبد القادر و هو ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب ، مع الفارق في جدلية الأنا و الآخر فشتان بين المرابطين و بين الفرنسيين ، و هو ما تمثلناه لإجراء مسح وفق آليات موازنة أو مقارنة عامة .

انطلاقا من هذا ،و على العموم ،لعل الطابع العام لمسيرة فن السيرة عند العرب في المراحل المتأخرة من الثقافة العربية أنها لا تنفك تؤكد علاقتها بالكوزموغرافيا ، و لذلك يتكرر الأمر الذي حدث مع كتاب لطالما وسم بأنه موسوعة " نفح الطيب من غصن الأندلس الخصيب و ذكر وزيره لسان الدين بن الخطيب " للمقري التلمساني– ولدينا فيه مذهب خاص و متواضع ليس هذا مجاله ، ولكن ملخصه أن هذا الكتاب كتاب سيرة وليس هو بموسوعة و لا بتاريخ – [39] ، و لعل وجه الشبه و التكرار الحاصل في هذين الجزئين من " النفح " يحدث مع " تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر " للأمير محمد بن الأمير عبد القادر ، ولاسيما في ذلك الباب التمهيدي الكوزموغرافي أو المدخل التاريخي والجغرافي الذي طال حتى كاد أن يصبح كتابا بعينه،

هو هاهنا المغرب و الجزائر في حال " التحفة " و هو المبحث الذي عبر عنه صاحب السيرة " التحفة " بعنوان " المقدمة في ذكر جغرافية أقسام المغرب " و ما تلاه من فصول حتى بلغ الثمانين صفحة من الجزء الأول من الطبعة التي بين أيدينا ، و التي تنتهي بعنوان هو " تسلط الفرنسيين على مدينة الجزائر " مما يعطي الطابع التقليدي لكتاب السير و التراجم العرب القدماء في تحفة الزائر، و هو ما لم نجده في مذكرات الأمير عبد القادر فالمعلوم أن للأمير في مجال النثر الأدبي أو السيرة الأدبية الذاتية " المذكرات " و لكن وسيني الأعرج في روايته " كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد " يخبرنا بأنه قد أملى سيرته الذاتية على أحد معاونيه ، و أغلب الظن أنها المذكرات ، غير أن تحفة الزائر لابنه محمد ، كما يشير إلى ذلك المهتمون بتراث الأمير و يؤكد ذلك أبو القاسم سعد الله، هل يجوز لنا بعض التمحل للقول أن صلة محمد بالأمير و هو ابنه تكاد تجعل من هذه السيرة الغيرية كأنها سيرة ذاتية للقداسة والعلاقة الروحية التي يشكلها الوالد لولده ؟؟ ربما .. و لكن و على كل حال هي في أسوء حالاتها لن تكون كسيرة ميخائيل نعيمة لصديقه جبران خليل جبران في سيرورة الأدب العربي النثري الحديث و في فن السيرة تحديدا .و المجال هنا هو مجال حدود الموضوعية و الرؤية و درجة التبئير فيها بالنسبة لولد مع والده . و هو ما يعزز الموقف بالاختلاط ببين السيرة الذاتية و السيرة الغيرية مع ما عرف به تاريخ الأدب العربي في ميدان فن السيرة و الترجمة و الوفيات و الرحلات والمذكرات و الاعترافات غيرها منذ سيرة النبي ص لابن إسحاق .

مذكرات الأمير عبد القادر التي تعنينا هنا أكثر حتى من تحفة الزائر كأنما هي مسودة أملاها الأمير في عجلة من أمره أو في سباق مع الذاكرة مع الأمل في العودة إليها و تنقيحها و تصحيحها ، و إلا فما العلة في استخدام النظم العربي للكلام و تركيبه و هو نظم صحيح نحويا و بلاغيا و من جهة أخرى عج النص السيري بالألفاظ العامية ليس لأنها تعبر عن أسماء أو مصطلحات بل حتى بألفاظ لها بدائل فصيحة و مع ذلك يستخدم الأمير الألفاظ العامية الدارجة و المنقولة حتى عن الفرنسية .

ملاحظة أخرى و هي التعبير بضمير الغائب في المذكرات يعطي الانطباع في الاشتراك في كتابة السيرة بين الأمير و من أمليت عليه إذ سُمح له بإضافة بعض الأحداث ، و لا يستبعد أن يكون الكاتب الذي أمليت عليه هو صهره ابن التهامي الذي لم يفارقه في معاركه ، فهو حاضر وشاهد و يمكن أن يضيف ما نسيه الأمير أو غفل عنه ، و بالذات في فصل الكفاح لأن ضمير الغائب وهو يقصد الأمير يقل في بقية الفصول والمباحث ويكثر في فصل الكفاح بشكل ملفت مما يعبر عن سماح الأمير لابن التهامي بالإضافة و المشاركة .

قائمة المصادر و المراجع

1 – عبد العزيز شويط : الحدود الفاصلة بين النص التاريخي و السيرة عند المقري التلمساني (دراسة في مبدأي الموافقة و التوفيق في نفح الطيب) مجلة آفاق الثقافة و التراث ، عدد 75 سبتمبر أيلول 2011 ، مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث ، دبي ، الإمارات العربية المتحدة .

2 – عبد العزيز شويط : أدب التراجم و السير في الجزائر بين الحقيقة التاريخية و أدبية الأدب ، مجلة عيدان الخيل للثقافة و الآداب و العلوم ، الشارقة الإمارات ، عدد 01 ، دراسة في "كتاب" الوفيات لابن قنفذ القسنطيني (النشر).

3 - ابن منظور الإفريقي : لسان العرب ، دار المعارف مصر ، د ط ، د ت .

4 - الفيروزبادي : القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة مصر ، د ط ، 1978 .

5 - جبور عبد النور : المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط 02 ، 1984 .

6 - مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، إخراج إبراهيم مصطفى و آخرون ، دار العودة ، مصر ، د ط ، د ت .

8 - بول آرون ، دينيس سان جاك ، آلان جيالا : معجم المصطلحات الأدبية ، ترجمة : د محمد حمود ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع مجد ، بيروت لبنان ، ط 01 ، 2012 .

9 - هتشنسون : معجم الأفكار و الأعلام ، ترجمة خليل راشد الجيوسي ، دار الفارابي بيروت لبنان ، ط 01 ، 2007 .

10 - ابراهيم فتحي : معجم المصطلحات الأدبية ، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين ، سفاقص تونس ، د ط 1986 .

11 - شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، دار المعارف مصر ، ط 04 ، د ت .

12 - نخبة من الأساتذة:الأدب والأنواع الأدبية،ترجمة طاهر حجار،دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، دمشق سورية ،ط 01 ، 1985 .

11- فدوى مالطي دوجلاس: بناء النص التراثي ، دراسات في الأدب و التراجم ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة مصر،د ط ، 1985 .

12 - فيليب لوجون : السيرة الذاتية : التاريخ و الميثاق الأدبي ، ترجمة و تقديم عمر حلي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت لبنان ، الدار البيضاء المغرب الأقصى ، ط 01 ، 1994 .

13 - محمد صابر عبيد: تمظهرات التشكّل السير ذاتي قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتيّة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق سورية، د ط ، 2005 .

14 - إحسان عباس ، فن السيرة ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، ط 04 ، 1978 .

15 - الأمير عبد القادر الجزائري : الديوان ، جمع و تحقيق وشرح و تقديم ، العربي دحو ، منشورات تالة الجزائر ، ط 03 ، 2007 . (مقاربة شريبط احمد شريبط للديوان)

16 - جان ماري شيفير : ما الجنس الأدبي ، ترجمة غسان السيد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق سورية ، د ط،د ت .

17 - محمد الباردي:عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث،منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق سورية،د ط ، 2005 .

18 - ندى محمود مصطفى الشيب : فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992- 2002 ، رسالة ماجستير ، إشراف الأستاذ الدكتور عادل أبو عمشة ، جامعة النجاح الوطنية غزة فلسطين ، 2006 .

19 - عبد العزيز شرف : أدب السيرة الذاتية ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ، مصر ، مكتبة لبنان ، د ط ، 1998 .

20 - تهاني عبد الفتاح شاكر : السيرة الذاتية في الأدب العربي ، فدوى طوقان و جبرا ابراهيم جبرا و إحسان عباس ، نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت لبنان ، ط 01 ، 2002 .

21- الأمير عبد القادر : مذكرات الأمير عبد القادر ، تحقيق محمد الصغير بناني و آخران ، شركة دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع (طبعة خاصة بوزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى الخامسة و الأربعين لعيد الاستقلال و الشباب) د ط ، 2008 .

22- شارل هنري تشرشل :حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة أبي القاسم سعد الله ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، د ط ، د ت .

23- برونو إتنين : عبد القادر الجزائري ، ترجمة ميشال خوري، دار عطية ، بيروت لبنان ، ط 01 ، 1997 .

24- الأمير محمد بن الأمير عبد القادر ، كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر ، المطبعة التجارية ، الاسكندرية مصر ، د ط ، 1903 ، ج 1 و 2 .

25- محمد الطيب العلوي:مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى ثورة نوفمبر 1954 ،دار البعث للطباعة و النشر ، قسنطينة الجزائر ، ط 01 ، 1985 .

26- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954 دار البصائر ، الجزائر ، ط 06، 2009 ، ج 05 .

27 – محمد القاضي و آخرون : معجم السرديات ، دار محمد علي للنشر تونس ، دار الفارابي لبنان ، مؤسسة الانتشار العربي لبنان ، دار تالة الجزائر ، دار العين مصر ، دار الملتقى المغرب ، ط 01 ، 2010 .

28- عبد العزيز شويط : تجليات الذوق الفني ، و مظاهر الوعي النقدي في أدب التراجم و السير من خلال كتاب عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية للقاضي أبي العباس الغبريني مجلة آفاق الثقافة و التراث ، عدد 82 جوان حزيران 2013 ، مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث ، دبي ، الإمارات العربية المتحدة .

الهوامش:

1. 1- ابن منظور الإفريقي:لسان العرب،دار المعارف مصر ، د ط ، د ت ، مادة : سير ، ج 23 ، ص : 2169 ، 2170 .
2. 1- الفيروزبادي : القاموس المحيط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة مصر ، د ط ، 1978 ، مادة السير ج 02 ص : 53 .
3. 1- جبور عبد النور : المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، ط 02 ، 1984 ، ص : 143 .
4. 1- مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط ، إخراج إبراهيم مصطفى و آخرون ، دار العودة ، مصر ، د ط ، د ت ، ص : 455 .
5. 1- شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، دار المعارف مصر ، ط 04 ، د ت ، ص : 52 .
6. 1- ندى محمود مصطفى الشيب : فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992- 2002 ، رسالة ماجستير ، إشراف الأستاذ الدكتور عادل أبو عمشة ، جامعة النجاح الوطنية غزة فلسطين ، 2006 ، ص: 07 .
7. 1- بول آرون ، دينيس سان جاك ، آلان جيالا : معجم المصطلحات الأدبية ، ترجمة : د محمد حمود ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع مجد ، بيروت لبنان ، ط 01 ، 2012 ، ص 626 .
8. 1 – ((يشير مصطلح " كتابة الأنا " إلى جنس جامع لضروب من الكتابة السردية تتخذ ذات المؤلف مدارا لها و تقوم على التطابق الصريح بين أعوان السرد الثلاثة : المؤلف و الراوي و الشخصية . و تعد السيرة الذاتية و اليوميات الخاصة و الاعترافات و الرسم الذاتي و المذكرات من أشهر كتابات الأنا ، . فهذه الأشكال من الكتابة و إن اختلفت فيما بينها و تنوع توظيفها تقنيات السرد ' فإنها تلتقي في اعتماد حياة المؤلف مصدرا للكتابة و ممادة لها و موضوعا . و ذلك بقص سيرته أو تسجيل ما يجري له من وقائع يوما بيوم ، أو عرض ملامحه النفسية و الجسدية أو استحضار ذكرياته عن الناس و العصر " ينظرّ: محمد القاضي و آخرون : معجم السرديات ، دار محمد علي للنشر تونس ، دار الفارابي لبنان ، مؤسسة الانتشار العربي لبنان ، دار تالة الجزائر ، دار العين مصر ، دار الملتقى المغرب ، ط 01 ، 2010 ، ص : 354 .
9. 1 – ابراهيم فتحي : معجم المصطلحات الأدبية ، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين ، سفاقس تونس ، د ط 1986 ، ص : 202 .
10. 1- محمد الباردي:عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث،منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق سورية ،د ط، 2005 ،ص: 181 ، 182 .
11. 1 – بول آرون ، دينيس سان جاك ، آلان جيالا : معجم المصطلحات الأدبية ، مرجع سابق ، ص 624 .
12. 1- هتشنسون : معجم الأفكار و الأعلام ، ترجمة خليل راشد الجيوسي ، دار الفارابي بيروت لبنان ، ط 01 ، 2007 ، ص: 269 .
13. 1- فيليب لوجون : السيرة الذاتية : التاريخ و الميثاق الأدبي ، ترجمة و تقديم عمر حلي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت لبنان ، الدار البيضاء المغرب الأقصى ، ط 01 ، 1994 ، ص : 21 ، 22 .
14. 1- جان ماري شيفير : ما الجنس الأدبي ، ترجمة غسان السيد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق سورية ، د ط ، د ت ، ص : 72 .
15. 1- فيليب لوجون : السيرة الذاتية : التاريخ و الميثاق الأدبي ، مرجع سابق ، ص : 10 .
16. 1- بول آرون ، دينيس سان جاك ، آلان جيالا : معجم المصطلحات الأدبية ، مرجع سابق ، ص 627 .

17. 1- ينظر القول : ((و كتابة المذكرات نشأت في أوروبا قبل أن تنتشر في مختلف الآداب ، إذ منذ أواخر القرن 15 ظهرت مذكرات أعلام من وزراء و قادة جيوش و أشخاص مقربين من الملوك أو صانعي القرار تروي تفاصيل فترة تاريخية عاشها الكاتب بأحداثها و أسرارها و حوافّ قراراتها السياسية أو العسكرية و تقلباتها المختلفة ... و كثيرا ما يقع الخلط بين المذكرات و السيرة الذاتية التي تُجعل فيها الذات الكاتبة نفسها موضوعا للكتابة ، و تتحدث عن التاريخ و منه تاريخها الخاص)) محمد القاضي و آخرون : معجم السرديات ، دار محمد علي للنشر تونس ، دار الفارابي لبنان ، مؤسسة الانتشار العربي لبنان ، دار تالة الجزائر ، دار العين مصر ، دار الملتقى المغرب ، ط 01 ، 2010 ، ص : 380 .

18. 1- ((و نستطيع أن نلاحظ أن تعريفات هذه الأشكال أيضا لا تحتوي على تعريف جامع مانع للسيرة الذاتية ، لأننا لا نستطيع أن نعد كل عمل يجمع بين التحري التاريخي ، و الإمتاع القصصي سيرة ذاتية ، فالتاريخ نفسه في بعض الحالات ، حين يصوغه ((و مع ذلك سعى منظرو الأدب إلى رسم هذه الحدود الفاصلة بين السّيرة الذّاتيّة والأجناس السرديّة القريبة منها ولعلّ أوشج هذه الأجناس قربي ما يعرف بالمذكّرات فكثيرا ما استعمل هذا المصطلح بمعنى السّيرة الذّاتيّة وكثيرا ما وشّحت كتب السّيرة الذّاتيّة بعبارة "مذكّرات" وبها تعقد مع المتلقّي ميثاق قراءة ولكنّه ميثاق زائف لأنّ الحدّ الفاصل بين السّيرة الذّاتيّة والمذكرات قائم. فالسّيرة الذّاتيّة، على خلاف المذكّرات تروي أحداثا شخصيّة وتنأى عن سرد الأحداث العامّة في حين تركّز المذكّرات عادة على تدوين الأحداث دون التّعليق على الحياة الشّخصيّة لكاتب المذكّرات.و يتّخذ التّعامل مع الزّمن المروي معيارا للفصل بين السّيرة الذّاتيّة واليوميّات. فالسّيرة الذّاتيّة وهي أعرق من اليوميّات الخاصّة ترتبط أحيانا كثيرة بفترة محدودة من حياة الكاتب في حين تتّصل اليوميّات الخاصّة بالماضي القريب. ولئن سلك الجنسان اتّجاها زمنيّا واحدا ينطلقان من الحاضر إلى الماضي ومن لحظة الكتابة إلى لحظة التّجربة فإنّ المساحة الزّمنيّة الّتي تفصل بين زمن الكتابة وزمن التّجربة تكون في السّيرة الذّاتيّة أوسع منها في اليوميّات. كما يعدّ التّعامل مع المرجع وجها من وجوه الاختلاف بين الجنسين الأدبيين، فالإحالة المرجعيّة في اليوميّات تمتاز بالدقّة نظرا لقرب لحظة التّدوين من لحظة التّجربة في حين تتعرّض الإحالة المرجعيّة في السّيرة الذّاتيّة إلى ضرب من التّشويش والاضطراب فلا سلاح لكاتب السّيرة الذّاتيّة سوى ذاكرته والذّاكرة معرّضة لآفة النّسيان وهو "غربال لا يمرّ من ثقوبه إلاّ ما هو جوهريّ" على حدّ عبارة جوليان قرين (Julien Grean).

19. و تختلف السّيرة الذّاتيّة عن السّيرة في أكثر من وجه. فموضوع السّيرة الذّاتيّة وكاتبها لا يزال على قيد الحياة يظلّ مطروحا في حين يحسم كاتب السّيرة في موضوعه ويقول الكلمة الفصل كما تتّسم كتابة السّيرة بنزعة تاريخيّة لا تخلو من موضوعيّة لأنّ المواد الّتي يستعملها كاتب السّيرة شأنها شأن المواد الّتي يستعملها المؤرّخ منفصلة عن الذّات الكاتبة في حين يمتح كاتب السّيرة الذّاتية من ينبوعه الذّاتي والشّخصي المتمثّل في ذكرياته الخاصة فتجيء الكتابة مغرقة في "الأنا" سابحة في الذّات لا معيار موضوعيّا للنّظر في مصداقيّتها وصحّتها وذلك لاختلاف الغاية الّتي يسعى كلا الجنسين الأدبيين إلى تحقيقها. فإذا كان كاتب السّيرة الذّاتيّة يرغب في الانتصار على الموت إذ هو يسعى إلى توثيق حياته الماضية وإخراجها من الإهمال والنّسيان، فإن كاتب السّيرة يؤكّد فعلا أنّه استطاع أن يغلب الموت، فهو عندما يدوّن حياة شخصيّة أدبيّة أو فكريّة أو سياسيّة يقدّم الدّليل القاطع على أنّ ذكرى تلك الحياة الّتي عاشها قد استمرّت بعد فناء الجسد، إضافة إلى أنّ كاتب السّيرة وهو يكتب سيرته يظلّ منسجما انسجاما فكريّا كاملا إذ لا يعيش الإشكاليّة الزّمنيّة الحادّة الّتي يتعرّض لها كاتب السّيرة الذّاتيّة، ذلك أنّ كاتب السّيرة الذّاتيّة وهو يكتب يظلّ يسبح عكس مجرى حياته إذ يعود إلى الماضي البعيد وأمواج الحاضر المتلاطمة تعترض سبيله في حين يظلّ كاتب السّيرة قادرا على ترتيب حياة صاحب السّيرة ويخضعها لمعايير موضوعيّة تفصل بين المراحل وتزيح المواجهة بين الماضي والحاضر.

20. و تظلّ العلاقة بين السّيرة الذّاتيّة والرّواية أكثر التباسا فكثيرا ما ننظر إلى الرّواية على أنّها في وجه من وجوهها جنس سير ذاتيّ. وظهرت أجناس وسيطة بين الرّواية والسّيرة الذّاتيّة شأن رواية السّيرة الذّاتيّة roman autobiographique والسّيرة الذّاتيّة الرّوائيّة auto romanciée biographie والسّيرة الذّاتيّة ذات الاسم المستعار وهي جميعها توظّف أساليب سرديّة متشابهة سعى منظّرو الأدب إلى البحث عن الحدود الفاصلة للتّمييز بينها. ويظلّ ميثاق القراءة المعيار الأساسي للتّمييز بين الرّواية والسّيرة الذّاتيّة))1 ينظر محمد الباردي :عندما تتكلم الذات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، مرجع سابق ،ص : 09، 10.

21. 1- تهاني عبد الفتاح شاكر : السيرة الذاتية في الأدب العربي ، فدوى طوقان و جبرا ابراهيم جبرا و إحسان عباس ، نموذجا ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت لبنان ، ط 01 ، 2002 ، ص : 14 .

22. 1- نخبة من الأساتذة:الأدب و الأنواع الأدبية ،ترجمة طاهر حجار ،دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ،دمشق سورية ،ط 01 ، 1985 ،ص : 233 ، 234 .

23. 1- محمد صابر عبيد:تمظهرات التشكّل السير ذاتي قراءة في تجربة محمد القيسي السير ذاتيّة،منشورات اتحاد الكتاب العرب،دمشق سورية،د ط، 2005 ،ص: 150.
24. 1- عبد العزيز شرف:أدب السيرة الذاتية ،الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ،مصر ، مكتبة لبنان ، د ط ، 1998 ، ص : 05 ، 06 .
25. 1- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954 دار البصائر ، الجزائر ، ط 06، 2009 ، ج 05 .
26. 1 - شوقي ضيف : الترجمة الشخصية ، دار المعارف مصر ، ط 04 ، د ت ، ص : 60 .
27. 1- الأمير عبد القادر : مذكرات الأمير عبد القادر ، ص 106 الهامش .
28. 1- محمد الطيب العلوي : مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتى ثورة نوفمبر 1954 ، دار البعث للطباعة و النشر ، قسنطينة الجزائر ، ط 01 ، 1985 ، ص : 34 – 47 .
29. 1- فيليب لوجون : السيرة الذاتية : التاريخ و الميثاق الأدبي ، مرجع سابق ، ص : 93 .
30. 1- الأمير عبد القادر : مذكرات الأمير عبد القادر ، تحقيق محمد الصغير بناني و آخران ، شركة دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع (طبعة خاصة بوزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى الخامسة و الأربعين لعيد الاستقلال و الشباب) د ط ، 2008 .
31. 1- الأمير محمد بن الأمير عبد القادر ، كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ، المطبعة التجارية،الاسكندرية مصر، د ط ، 1903 ،ج 1 و 2.
32. 1- الأمير عبد القادر الجزائري : الديوان ، جمع و تحقيق وشرح و تقديم ، العربي دحو ، منشورات ثالة الجزائر ، ط 03 ، 2007 ، ص : 15 (مقاربة الأستاذ شريبط احمد شريبط للديوان).
33. 1- جان ماري شيفير : ما الجنس الأدبي ، مرجع سابق ،ص : 75 .
34. 1- تهاني عبد الفتاح شاكر : السيرة الذاتية في الأدب العربي ، مرجع سابق ، ص : 12 .
35. 1 - إحسان عباس ، فن السيرة ، دار الثقافة ، بيروت لبنان ، ط 04 ، 1978 ، ، ص : 37، 38 .
36. 1- فدوى مالطي دوجلاس:بناء النص التراثي،دراسات في الأدب والتراجم،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة مصر،د ط، 1985،ص: 123.
37. 1- نخبة من الأساتذة : الأدب و الأنواع الأدبية ، مرجع سابق ، ص : 237 .
38. 1- شارل هنري تشرشل :حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة أبي القاسم سعد الله ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، د ط ، د ت .
39. 1- برونو إتنين : عبد القادر الجزائري ، ترجمة ميشال خوري، دار عطية ، بيروت لبنان ، ط 01 ، 1997 .
40. 1- الأمير عبد القادر : مذكرات الأمير عبد القادر، ص : 108 ، 109 .
41. 1- ينظر عبد العزيز شويط : الحدود الفاصلة بين النص التاريخي و السيرة عند المقري التلمساني (دراسة في مبدأي الموافقة و التوفيق في نفح الطيب) مجلة آفاق الثقافة و التراث ، عدد 75 سبتمبر أيلول 2011 ، مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث ، دبي ، الإمارات ص 106 و ما بعدها .

((حُب النبي صلى الله عليه وسلم وأثره في الأدب الإسلامي الهندي))

Tracing The Love For The Prophet 'Mohamed' Peace And Blessings Be Upon Him In Islamic Indian Literature

د. خالد ناجي السامرائي
كلية العلوم الإسلامية/ جامعة سامراء ـــــــ العراق

ملخص البحث بالعربية

إن أبرز ما ينماز به المسلمون الهنود هو حبهم الجارف للنبي صلى الله عليه وسلم، إذ لا يكاد يخلو بيت من بيوتهم من اسم محمد، ذلك أن الأقليات المسلمة في بلدانها ـــــ ومنها الأقلية المسلمة الهندية ـــــ تتسم بشعور عال بالهوية والانتماء، والحرص على التمايز خوف الذوبان في ثنايا الأكثرية وثقافتها ومعتقدها، لذا حرصوا على إبراز شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه الرمز الأول عند المسلمين، وبيان ما لشخصيته من صفات ومناقب ومنجزات على الصعيد الأنساني.

من تلك الثيمة ومن تجلياتها الأدبية انطلق بحثنا، وفي المقدمة من ذلك فن المديح النبوي. إذ لم يبخل الشعراء الهنود في التعبير عن حبهم الغامر للرسول صلى الله عليه وسلم بل قرضوا في حبه وتعداد مناقبه الكثير من الأشعار والأذكار والرسائل حتى صار المديح النبوي بالعربية والأردية أحد الأركان الهامة لبنيان الأدب الإسلامي الهندي قديمه وحديثه.

الكلمات المفتاحية: المسلمون الهنود – النّبي {صلى الله عليه وسلم}- محمد الشخصية- الهوية – الانتماء – التمايز – المديح – الأدب الهندي.

Abstract

The major distinguishing element of Indian Muslims is their unending love to the prophet(PBUH), as one hardly find a home having a name except Muhammad. The reason is that muslim minorities in general and indian muslims in particular enjoy a high degree of identity and a deep sense toward the prophet. The stress on the theme of identity also comes due to the fair of loss in the very crowd of majority, its many fold faiths and culture. It led them to refer to the prophet (PBUH) as the first and foremost icon to muslims through describing his personality, attributes and achievements along.

The said footprint was followed by literary genere which begins with Madeeh(Encomium of the holy Prophet), as the Indian poets did not lake courage to express their feelings towrads Prophet and his loved ones. Hence, they not only composed poetries but also descriptions and letters as well. And thus, the Madeeh al Nabvi (prophetic genere) has been taken as a basic componant of Indian Islamic literature both ancient and modern.

Key words: Indian Muslims – Prephet (pubh) – Mohamed – Ide,tity – Faith – Culture – Poetry Poets – Madeeh – Indian Poets.

المقدمة

تُعد الهند بدياناتها وطوائفها ومكوناتها المجتمعية وثراها الحضاري والفلكلوري مجالا خصبا للبحث، وكان أن تولدت الرغبة في الإفادة من العلاقات التي تربطنا بالأساتذة والمؤسسات الأكاديمية والإسلامية هناك لإنجاز بحث عن المسلمين الهنود، إذ كان لزاما الجمع بين تخصصنا الأكاديمي الدقيق وهو الأدب الإسلامي ومن تدريسنا لمادة فقه السيرة في كلية العلوم الإسلامية في جامعة سامراء في إنجاز بحث يجمع الحقلين الذي يدور في حومتيهما إختصاصنا الأكاديمي واهتمامنا البحثي وأعني بهما الأدب والفكر الإسلاميين، وهكذا كان القرار بإنجاز بحث أدبي ــــــــ إسلامي.

لم يكن إختيار الحقل البحثي ولا عنوان البحث مصادفة بل نبع من رغبة قديمة وملحة راودت الباحث في دراسة أحوال المسلمين غير العرب والإجابة عن تساؤلات اعتملت في خاطره مفادها: ما الذي يعيق تقدم المسلمين ونهوضهم ؟!!
هل هي أسباب بنيوية أم أسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية ؟ وهل أحوال المسلمين في البلاد غير العربية يختلف عن أحوالهم في البلاد العربية ؟ وهل أسباب تأخرهم هي نفسها التي أخرت العرب المسلمين أم ثمة أسباب أخرى تتباين عن تلك التي تعيق نهوض العرب ؟ هكذا ولدت فكرة الغوص في أحوال المسلمين الهنود بسلسلة من البحوث، أحدها بحثنا:(النبي صلى الله عليه وسلم وأثره في الأدب الإسلامي الهندي). وهكذا قادتنا الظروف الى الهند وربوعها ومسلميها.

إن المهتم بشؤون المسلمين الهنود لا بد أن تستوقفه جملة من القضايا التي تكررت في حياتهم حتى صارت لازمة لها وعلامة عليها، لعل من أبرزها حب النبي صلى الله عليه وسلم.

سيقول قائل: وهل ثمة مسلم لا يحب النبي ؟!! الجواب: إن المسلمين كلهم يحبون رسول الله، لكن الفارق يكمن في أن شعور الأقليات المسلمة في بلدانها ــــــــ ومنها الأقلية المسلمة الهندية ــــــــ شعور عال بالهوية والانتماء، والحرص على التمايز خوف الذوبان في ثنايا الأكثرية وثقافتها ومعتقدها، لذا كان توقهم الى إبراز شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه الرمز الأول للمسلمين، وبيان ما لشخصيته من صفات ومناقب ومنجزات على الصعيد الإنساني.

انطلق البحث من هذه الثيمة وتجلياتها الأدبية، وفي المقدمة من ذلك فن المديح النبوي، ولإجل الإحاطة بثنايا الموضوع، مهدنا للبحث بتسليط الضوء على بعض المفاهيم، ثم قسمناه على جزئين، خُصص الأول منها للمديح النبوي بالعربية، أما الثاني فكان البحث فيه يدور حول المدائح النبوية بالأردية، وهي لغة المسلمين في الهند وباكستان وبنغلاديش.

بيّن القسم الأول: (المدائح النبوية في الأدب العربي الهندي) أهم أغراض المديح النبوي، وهي: شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ووقعها المحبب في نفوس المسلمين، كيف لا وهو النبي الذي يلهج في يوم القيامة : أمتي أمتي، لم تشغله أهوالها، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد. أما المسألة الثانية، فكانت عن أخلاق النبي وصفاته ومناقبه، وهو غرض شائع وطاغ، ويشكل العمود الفقري للمدائح النبوية. بينما كانت المسألة الثالثة عما عاناه الرسول صلى الله عليه وسلم وقاساه من لدد وخصومة وعداوة وإرجاف من عشيرته وأقرب الناس اليه. أما الرابعة فتطرقت لمعجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الغرض المحبب الى الصوفية خاصة، فهم الأكثر قربا بحكم تركيبتهم الاعتقادية إلى مثل هذه المواضيع .

بدأ القسم الثاني (المدائح النبوية في الأدب الأردي الهندي) كالأول بأغراض المديح، وكانت موضوعاته على التتابع: التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وتطهير العقائد، والدعوة الى الإسلام والتفقه بالدين، والشعائر الإسلامية.

كما استعرض القسمان أبرز المدّاحين الذين برعوا في هذا الفن إن كانوا ممن نظم الشعر بالعربية أو الأردية، ومن مختلف الحقب التأريخية، وقد بيّنا في مواضع منهما الجدل الذي أثير حول بعض المدائح النبوية، وعدّها بعض التيارات الإسلامية مآخذ عقدية وشوائب شركية، كالغلو والتهويل في وصف النبي صلى الله عليه وسلم، أو طلب المدد والتوجه بالدعاء إلى حضرة النبي أو الأولياء والصالحين، أو التبرك بالقبور وشدّ الرحال إلى المراقد والأضرحة وما شابه ذلك، فضلا عن ذلك فقد خصص القسمان جزءا منهما لبيان السمات الفنية والإسلوبية للمدائح النبوية، وشخّصا أهم ما امتازت به هذه المدائح، من الإفراط في استخدام المحسنات البديعية والتزويق اللفظي، وعرّجا على نزعة بعض الناظمين في تقليد قصائد الشعر القديم من الاستهلال الغزلي والتشبيب والوقوف على الطلل، وخلصا إلى نتيجة مفادها: تأخر مدائح الهنود عن مثيلاتها العربية من حيث المستوى الفني والمُكنة الأدبية لأسباب ذكرت في ثنايا البحث، كل ذلك جاء مقرونا بالنصوص الشعرية كلما دعت الحاجة البحثية إلى ذلك.

وبعد أن استوفى البحث أقسامه خلص إلى خاتمته ونتائجه، إذ استعرض أهم ما توصل إليه الباحث من نتائج وتوصيات، واتّبع ما درج عليه الباحثون من عرض لنتائج بحوثهم سالكين لتحقيق ذلك سبيلين، الأول، اقتباس بعض النتائج من ثنايا المباحث وإعادة ذكرها متدرجة، والثاني، استنتاجات عامة خرج بها الباحث من دراسة المعطيات التي تناولها البحث، مع عدم إهمال الظواهر السلبية التي بها حاجة إلى تقويم وتشذيب، ثم جاءت قائمة الهوامش. وقد أدرجناها متسلسلة كما جاءت في ثنايا البحث مع الحرص على ذكر بيانات المرجع حينما يُذكر للمرة الأولى، والاكتفاء بذكر عنوانه واسم مؤلفه في المرات التالية.

اعتمد الباحث في بناء أركان بحثه والإلمام بمعطيات موضوعه الذي ينبع من بيئة غريبة عنه، إسلوب الاستقراء للنصوص الشعرية، والاستئناس بآراء الأساتذة المتخصصين في هذا الفن الشائع في الهند، فضلا عما أبداه الأستاذ الدكتور مجيب الرحمن رئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية في جامعة جواهرلال نهرو والباحثان في مرحلة الدكتوراه محمد سليم وعطاء الله من جهود مباركة وإمدادهم البحث بالمراجع والآراء المفيدة التي كان من شأنها ترصين أركان البحث وتعزيز صدقيته، فجزاهم الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء.

أخيرا ندعوا الله أن يأتي بحثنا هذا بجديد إلى المكتبة الأدبية العربية، فهو يسلط الضوء على فن شعري شائع في بيئة أدبية بها حاجة إلى الإهتمام والإنارة، هي البيئة الأدبية العربية والأردية في الهند، فإن وفقنا فمن الله، وإن أخفقنا فمن أنفسنا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التمهيد

من الطبيعي أن يحب المسلمون الهنود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحبه جزء
من الإيمان ، ومن الطبيعي أيضا أن يتجلى هذا الحب في مظاهر عدة ، منها انتشار إسم محمد في أوساطهم انتشارا لافتا ، إذ يكاد لا يخلو بيت من بيوتهم من هذا الإسم المبارك ، بل ربما ضم البيت المسلم أكثر من محمد ، مركبا مع صفة من صفات النبي عليه الصلاة والسلام كمحمد أمين ومحمد مصطفى ومحمد أنور ومحمد طه ومحمد رسول ومحمد أكرم ... الخ .

لم يبخل الشعراء الهنود في التعبير عن حبهم الغامر للرسول صلى الله عليه وسلم بل قرضوا في حبه وتعداد مناقبه الكثير من الأشعار والأذكار والرسائل حتى صار المديح النبوي أحد الأركان الهامة لبنيان الأدب الإسلامي الهندي قديمه وحديثه، فقلما تجد شاعرا أو أديبا هنديا مسلما لم ينظم شيئا من الشعر أو النثر في حب النبي والتغني بخصاله الكريمة والتنويه بمكانته العظيمة عند الله وخلقه منذ أن دخل الإسلام في هذه البلاد حتى يوم الناس هذا في جيشان عاطفي وفيض وجداني لافت وباهر.

ولا يعني هذا أن مديح النبي صلى الله عليه وسلم كان مقصورا على الشعراء والأدباء، بل تعداهم إلى علماء الدين والدعاة الذين أمدتهم قدرتهم اللغوية ــــــ التي بهم حاجة إليها في مهامهم الدينية ـــــــــ بأسباب النظم في هذا الباب الواسع والمحبب على منوال أترابهم الأدباء ، لإجل ذلك نجد هذا التفاوت والبون الشاسع في المستوى الفني بين شاعر متمرس وآخر نظم شعرا في حب النبي وتعداد خصاله الكريمة وفي آل بيته وأصحابه يتقرب به إلى الله .

صار حب النبي صلى الله عليه وسلم قاسما مشتركا بين المسلمين الهنود على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وتوجهاتهم، فعبر الآيديولوجيات ولم يقف أمام سيله الجارف انتماء سياسي أو توجه حزبي، فلا غرابة إن وجدنا بعض الشعراء الشيوعيين من المسلمين قد قرضوا قصائد المديح، كفيض أحمد فيض، ونياز أحمد فتحفوري، وآخرين من شعراء الحركة التقدمية.

وفي ظاهرة لا تخلو من الغرابة، نجد كثيرا من الشعراء الهنادك قد نظموا قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، بل تعدى ما نظمه البعض منهم إلى دووباين شعرية كاملة.

صنف نور ميرتهي كتابا يحوي قصائد المديح النبوي الأردي لنحو 336 شاعرا، وسماه "به هر زمان وبه هر زبان (أي في كل عصر وعلى كل لسان)، ومن هؤلاء الشعراء: منشي شنكر لال ساقي (1890)، و مهاراجه سر كشن براساد (1359هــ)، و دلورام كوثري (1365هــــ) وقد لقبه أحد المتصوفة جماعت علي شاه بـــــــ حسان الهند. وبندت ديا شنكر نسيم اللكناوي(ت 1844)، ومنشي درغا سهائ سرور جهان آبادي، (ت1910)، وبندت هري تشاندرا أختر ، وتلوك تشاندرا محروم، وغلزار دهلوي، وفراق غوركفوري... وأمثالهم الكثيرين.

من نافلة القول أن يكون للإيمان بالنبوة دور هام في ازدهار هذا الغرض الشعري ، لكن ثمة عوامل وقرت في عقلهم الباطن دفعت المسلمين الهنود الى الإكثار من هذا الفن الشعري، لعل في مقدمتها إحساسهم العالي بالهوية الإسلامية وسط أغلبية هندوسية تحكم البلاد وتحرص على هيمنة ديانتها وطقوسها على عموم الهند . وليس أصلح من شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم رمزا تبنى عليه الشخصية المسلمة ويتماسك في حبه جسدها . فضلا عن الشوق العارم إلى قرب الحبيب المصطفى في بلاد العرب النائية واتخاذ المدائح النبوية سبيلا لريّ ظمأ المحبين ، فلا غرابة أن نجد كل هذا الحب للعرب ولبلادهم والشوق إلى لقياهم ، فهم أرومة الحبيب المصطفى وقرابته ورحمه.

المدائح النبوية في الأدب العربي الهندي

أغراضه:

إن أغراض المديح النبوي كثيرة، لكن بعضها تكرر بما يسوغ عدّه غرضا رئيسا، من مثل:

ـــــــ شفاعة النبي:

تعد الشفاعة أعظم الصفات التي احتفى بها الشعراء الهنود ، فنبي سيشفع لأمته يوم القيامة ويدخلها الجنة لجدير بالحب والفداء لذا أظهروا له كل هذا الحب الذي يشع صدقا وإقناعا مع غلبة الروح الإيمانية والترعة الدينية الدافقة .

وعادة ما تميز الشعر الذي دار حول شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم بمظاهر الفرح والاستبشار والانتشاء بما آتاهم الله من حظ وافر إذ جعلهم في عداد الأمة المرحومة وخصّ نبيهم بمثل تلك المكانة السامية وجعله شفيعا لهم يوم القيامة.

ومن الذين ضمّنوا مدائحهم ثيمة الشفاعة الشاعر الهندي الكبير القاضي عبد المقتدر الكندي الدهلوي (703هــ – 791هــ) الذي قال عنه صاحب كتاب "سبحة المرجان في آثار هندوستان": " هو عالم مقتدر على العلوم الصورية والمعنوية

وكوكب دري أنار الآفاق باللوامع القدسيّة"1 ، يقول عبد المقتدر الكندي عن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأمته في قصيدته الشهيرة المعروفة بـــ "لامية الهند":

ياسيد المرسلين المكرمين آدم شفاعة لعبيد ضارع وجل
أردت مدح نبي الله مجتهدا حتى عجزت فقال العقل لي فقل
ياعبد مقتدر أوصاف سيدنا تعلو علوا عن التفصيل والجمل2

ويكرّر الشيخ عبد الرحمن السيوهاروي المعنى نفسه ، يقول:

من يدفع الهم عن ذي الهم حينئذ ويجمع الشمل حيث الشمل في بددِ
أنت الشفيع لمن قد فاته أمل عند العزيز الجليل الملك الأحدِ3

ـــــــــ أخلاق النبي وصفاته:

اعتنى شعراء المديح النبوي بالجوانب الخُلقية للنبي الكريم اعتناءً كبيرا ، فأكثروا من ذكر مكارم أخلاقه وشمائله الحميدة وخصاله الحسنة التي شهد عليها الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز حين وصفه: "وإنّك لعلى خلق عظيم" ، داعين بذلك المسلمين إلى التأسّي بالنبي ، والامتثال لأوامره ، واقتفاء أثره ، واتباع سنته .

يقول الشاعر عبد المقتدر الكندي الدهلوي واصفا صفات النبي الكريمة:

محمد خير خلق الله قاطبة هو الذي جلّ عن مثل وعن مثلِ
له المزايا بلا نقص ولا شبه له العطايا بلا منّ ولا بدلِ
له المكارم أبهى من نجوم دجى له العزائم أمضى من قنا البطلِ4

وللشاعر الهندي الشهير الشيخ باقر بن مرتضى المدراسي ديوان باسم "العشرة الكاملة" في المديح النبوي ، يمدح النبي الكريم في إحدى قصائده ويشير إلى سجاياه الكريمة ومعجزاته الخالدة وشمائله النبيلة، فيقول:

ليس من قابله قسوة أمن من قاتله بالقنا
بشّر من أنذره جاهلا واصل من هاجره بالجفا
أوضح كالشمس براهينه شيد كالمجد منار الهدى5

ـــــــــ معاناة النبي في سبيل نشر الدعوة:

لقد وظّف شعراء المديح النبوي الشعر لدعوة الناس إلى دين الرحمة ونشر تعاليم الدين الحنيف ورسالته العظيمة ، فبيّنوا لهم طريق الرشاد وسبله ، وشرحوا لهم ما صادفه النبي صلى الله عليه وسلم من اللدد والخصومة والأهوال وهو يدعو الناس إلى الإسلام ليخرجهم من الظلمات إلى النور فيسعدوا في الدنيا والآخرة.

يذكر الشاه ولي الله المحدث الدهلوي في قصيدته المعروفة بالقصيدة البائية أذى قريش للنبي صلى الله عليه وسلم والأهوال التي تحمّلها في سبيل نشر الدعوة وكيف ساموا أصحابه سوء العذاب وأذاقوهم أنواعا من الظلم والاضطهاد والتعذيب ومع ذلك عفا عنهم بدل أن يقتص منهم ، يقول:

وآذاه قوم من سفاهة عقلهم و لم يذهبوا من دينه بمذاهبِ
فما زال يدعو ربّه لهداهم وإن كان قد قاسى أشد المتاعبِ
وما زال يعفو قادرا عن سيئهم كما كان منه عند جذبة جاذبِ

أتانا مقيم الدين من بعد فترة وتحريف أديان وطول مشاغبِ6

معجزات النبي:

إتخذ شعراء المديح من معجزات النبي الكريم وسيلة لإيضاح رسالة السلم والرحمة والذبّ والمنافحة عن الإسلام الذي يحاول خصومه كيل التهم إليه ووسمه بما ليس فيه ولا منه من صفات العنف والتطرف والتكفير، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى مثل هذه المحاولات الجادة والمخلصة لدحض مثل هذه التهم التي ألصقت بديننا الحنيف وبنبينا الكريم، مثلما بنا حاجة إلى توكيد نبوته بذكر المعجزات الكبرى التي تخللت حياته الكريمة ، يقول الشاعر الشاه ولي الله المحدث الدهلوي في إحدى قصائده ذاكرا بعض تلك المعجزات:

ودرت له شاة لدى أم معبد حليبا ولاستطاع حلبة حالبِ

وقد ساخ في أرض حصان سراقة وفيه حديث عن براء بن عازبِ7

ومثلما ذكر الدهلوي معجزة درّ ناقة أم معبد ، ومعجزة عدم تمكن سراقة من قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد أن همّ بذلك فساخت أقدام فرسه في الرمل ، يذكر الشيخ حبيب الرحمان العثماني في قصيدته المعروفة بلامية المعجزات ، معجزة الغار، حين صار صناديد قريش قاب قوسين أو أدنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر في حادثة هجرته الشهيرة، يقول:

وانتدوا للمكر فارتاءت له ثلة من كل مقدام بطلِ

أعميت أبصارهم لما أتوا غار ثور في شقاء ودغلِ8

- **مشاهير الشعراء في المديح النبوي العربي:**

نظم عدد من الأدباء والعلماء الهنود قديمهم وحديثهم شعرا في مدح النبي صلى الله عليه وسلم من أمثال عبد المقتدر الكندي، وأحمد بن محمد التهانيسري، والشاه ولي الله محدث الدهلوي، والسيد غلام علي آزاد البلكرامي، وعبد العزيز الدهلوي، والشاه رفيع الدين الدهلوي، والشيخ باقر بن مرتضى المدراسي، وفضل الحق الخير آبادي، والشيخ حبيب العثماني، والنواب صديق حسين خان القنوجي، والعلامة أنور الشاه الكشميري، والشيخ محمد إدريس الكاندهلوي، وغيرهم كثير.

من الجدير بالذكر أن هؤلاء وأمثالهم لا يمكن عدهم من الشعراء ولا من الأدباء، بل من المشتغلين بفنون ومجالات أخرى علمية وفنية كالشاه ولي الله المحدّث الدهلوي الذي كان محدّثا ومفسّرا وفقيها في عهده، والنواب صديق حسن خان الذي كان محدثا وفقيها، وفيض الحسن السهارنبوري فإنه كان من علماء المنطق والفلسفة.

لقد أعانت القدرة اللغوية لهؤلاء واطلاعهم الواسع على التراث العربي فضلا عن معرفتهم بالسيرة النبوية الشريفة، على النظم في هذا الغرض الشعري المحبب ، لقد قرأوا الشعر العربي بعصوره المختلفة بما في ذلك اتجاهاته الحديثة، وكانت بين أيديهم نماذج من أشعار المديح التي قيلت في النبي الكريم في عصور مختلفة، كقصائد حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وقصيدة البردة لكعب بن زهير ومن بعدها نهج البردة للبوصيري وقصائد أخرى كثيرة، كل ذلك ألهمهم وأثر في نفوسهم فنظموا على منواله وقلدوا أسلوبه.

- **الإنحراف العقدي والفكري:**

حافظت معظم المدائح النبوية على الحدود المسموح بها شرعا في وصف النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وذكر محاسنه ومناقبه، غير أن البعض منها بالغ وأفرط في ذلك وأخرج النبي الكريم من آدميته ورفعه إلى مقام الألوهية، ما ورطها في الغلوّ والانحراف العقدي.

يقول السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي عن ذلك: " ومن الإنصاف للموضوع أن يقال أنه قد تورّط عدد من أصحاب المدائح في بعض المزالق بتأثير بعض البيئات الموبوءة أو ضعف الثقافة الدينية أو بسبب الإتجاه إلى الغلو والمبالغة التي اعتبرت من سمات الشعر ومحاسنه في كثير من الآداب واللغات والعهود والأدوار وقد أبدى العارفون لروح الدين والغيارى على الإسلام في كل زمان ومكان استنكارهم لذلك واعتبروه شيئا دخيلا طارئا على المديح النبوي"9، ومن ذلك الغلوّ ، نسبة صفات الله الى النبي صلى الله عليه وسلم كقول رفيع الدين الدهلوي:

يا أحمد المختار يا زين الورى　　　يا خاتما للرسل ما أعلاكا
يا كاشف الضرّاء من مستنجد　　　يا منجيا في الحشر من والاكا10

إذ ينسب كشف الضرّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكلنا يعرف أن تلك من صفات الله وحده لا يؤتّاها غيره من العباد، ومثلما وقع رفيع الدين في المحضور العقدي وقع عبد العزيز الدهلوي حين طلب الغوث من قبر النبي صلى الله عليه وسلم، مع إن الله أمرنا أن ندعوه وحده، وأن نطلب العفو منه بلا واسطة، يقول:

وإن جرتم عليّ فلي غياث　　　بباب المصطفى خير الأنامِ
فمدحك رقيتي وشفاء دائي　　　إذا ما خضت في لجج السقامِ
فمن لي بعد ما وهنت عظامي　　　إذا ما اشتد البلاء سواك حامي
وإن أك ظالما عظمت ذنوبي　　　فحبّك سيّدي ماحي الآثامِ11

وقد جعل الشيخ باقر بن مرتضى المدراسي النبي صلى الله عليه وسلم ملجأ المخلوقات وملاذها الحامي في الدارين فيقول:

يا ملجأ الكونين في الدارين يا　　　خير الأنام وسيد السادات12

وهكذا نرى أن غير واحد من الشعراء الهنود وقع في خطأ عقدي، إما لقصور في فهم الإسلام والتبحر في عقائده أو لغلبة عاطفة حب النبي صلى الله عليه وسلم وجنوحها ما أوقعهم في المبالغة والغلوّ، وكان الأجدر بشعراء المديح النبوي التحرز وتجنب الوقوع في شوائب شركية تسيء إلى الإسلام قبل إساءتها إلى الشاعر.

هذا الأمر حفز عددا من الباحثين والدعاة للكتابة فيه والتنبيه على خطل أحكامه والتوعية في تجنب الوقوع فيه، بل ذهبوا أبعد من ذلك حين إتهموا الجانحين إلى المغالاة، بالشرك !!!

من هؤلاء الدكتور صدر الحسن الندوي الذي قال في هذا الشأن: " قد قرّر العلماء أن من آداب المديح النبوي عدم الغلو والإطراء في وصفه صلى الله عليه وسلم، فلا يجوز لنا أن ننسب إليه الأمور التي لم تثبت بالرواية الصحيحة كما لا يجوز أن نخلع عليه خلعة الألوهية كما يفعله بعض الجهلة الذين أرادوا مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فوقعوا في الشرك أعاذنا الله منه"13

- **السمات الأسلوبية والفنية لشعر المديح النبوي العربي:**

حاكى الشعراء الهنود في مديحهم النبوي قدامى المداحين في الأسلوب الشعري والبناء الفني والمضمون المعنوي، مثلما حاكوا من سبقهم ومن لحقهم من كبار الشعراء العرب، فقد أتاحت لهم المدارس الدينية التي تخرجوا منها دراسة أشعار الفحول، فوقفوا

مثلهم على الديار وبكوا الدمن والأثافي، وتذكروا الأحبة والأهل، وبدأوا قصائدهم بالتشبيب والغزل، ولا غرابة في ذلك لأن المرء ابن بيئته، فإذا كانت البيئة التي نشأوا وترعرعوا فيها تركن إلى قراءة الشعر القديم وتجنح إلى الإهتمام به، فإنهم أيضا مالوا إليه واحتذوا حذو أهله، وهم في كل ذلك نظموا في ضروب البيان المختلفة، وقرضوا شعرهم على وفق الأساليب الشعرية التي توارثوها.

فها هو الشاعر الهندي القدير القاضي عبد المقتدر الكندي الدهلوي الذي له إسهامات كثيرة وقيمة في المديح النبوي يستهلّ قصيدته المعروفة بـــ "لامية الهند" بذكر الأطلال والديار على غرار الشعراء الأوائل، فيقول:

يا سائق الظعن في الأسحار والأصل   سلّم على دار سلمى ثم سلِ

عن الظباء التي من دأبها أبدا   صيد الأسود بحسن الدل والنجلِ14

ومثله يبدأ "حسان الهند" غلام علي آزاد البلغرامي قصيدته بالتشبيب فيقول:

رمت أسماء قلبي في الصلاء   تشمم منه رائحة الشواءِ

طلبت عناية منها فسلّت   على أمنيتي سيف الإباءِ15

وعلى الرغم من شيوع ظاهرة محاكاة الشعراء العرب القدامى في أساليبهم، لا نعدم وجود شعراء تحرجوا من التشبيب والغزل في صدور قصائد المديح النبوي، اذ رأوا أن ذلك ليس موضعه وأن مقام النبي لا يصح معه أن يقرن بالتغزل والتشبيب، فامتنعوا عن ذلك ونصحوا الآخرين بتركه وعدوه من بقايا الجاهلية واجبة الترك.

فها هو الشاه ولي الله المحدث الدهلوي يستهل قصيدته الهمزية في المديح النبوي بالتحذير من سلوك مسلك الشعراء القدامى التي حث الإسلام على تركها، فيقول:

وإن بينت في المنظوم وحدا   فحاشا أن تشبّب بالنساءِ

فتلك شرائع للشعر قدما   وقد نسخت بختم الأنبياءِ16

ومثلما قلّد المداحون الهنود أقرانهم من الشعراء العرب في استهلال القصيدة عارضوا قصائدهم المدحية الشهيرة، كعبد المقتدر الكندي الذي عارض لامية العرب للشنفرى ولامية العجم للطغرائي وعرفت قصيدته ب"لامية الهند" ، واحتذى حذوه غلام علي آزاد البلكرامي فنظم قصيدته المعروفة بالقصيدة اللامية، إلا أنهما لم يستطيعا أن يرتفعا بقصيدتيهما إلى مقام قصيدتيّ الشنفرى والطغرائي، لا من حيث الموضوع، ولا من حيث البناء الفني والشكلي.

على الرغم من محاولة الشعراء الهنود اللحاق بركب فحول الشعراء العرب من خلال محاكاتهم أو تقليدهم أو معارضتهم، لم ينجحوا في الاقتراب من مكانتهم الشعرية، و لم تحز قصائهم ما حازته قصائد العرب من مزايا، وربما يعود سبب ذلك إلى افتتان الهنود بالمحسنات البديعية وإكثارهم من الزخارف اللفظية كالتورية والجناس وغيرهما من ألوان البديع، وقد نبه على ذلك بعض الباحثين كعبد الحي الحسني الذي نقد شعر فضل الحق الخيرآبادي قائلا: "كم له من قصائد وأشعار أتى فيها بكل لفظ لطيف ومعنى بديع لولا أنه أكثر فيها من التجنيس والاشتقاق"17

إن ضعف وهلهلة الكثير من المدائح الهندية يعود إلى الضعف العام الذي انماز به الشعر العربي في الهند، وقد لخص الدكتور أحمد ادريس ذلك بقوله: "شعراء العربية في شبه القارة الهندية قلّدوا و لم يبتدعوا، وحين فتح الشعر العربي عندهم عيونه ليتعرف على ما حوله كان الموجود أمامه من الشعر العربي جامدا في موضوعاته، ساذجا في فكره، وأغلبهم فهم – وربما اعتقد – أن المهم في صنعة الشعر هو الأسلوب والألفاظ لا المعاني، وشعراء العربية في شبه القارة لم يخرجوا عن تقليدية الموضوعات، فالرثاء ومدح

الرسول والسلاطين والأمراء هي الموضوعات الأساسية التي شكّلت العمود الفقري للشعر العربي في شبه القارة، وإن وجدت موضوعات أخرى فهي ثانوية لا أساسية"18.

لكن هذا لا يبخس الشعراء الهنود حقهم ولا يثلم من أهمية إسهامهم الشعري ولا من إنجازهم الدعوي الذي استثمروا فيه طاقة الشعر وقدرته على التأثير.

المدائح النبوية في الأدب الأردي الهندي

أغراضه:

لم يختلف المديح النبوي الأردي كثيرا عن مثيله العربي في الموضوعات التي تناولها، فقد كانت موضوعاتهما متقاربة ودارت معظمها حول شخص النبي صلى الله عليه وسلم، ومحاسنه، وأوصافه الخَلقية والخُلقية، وسيرته ومعاملاته، وصفاته التي وردت في القران الكريم.

أما أغراضه الرئيسة فكانت التيمن والتفاؤل وحصول البركة، بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، والاعتزاز بالانتماء إليه، والدعوة إلى الله من خلال إبراز مكانة النبي صلى الله عليه وسلم ودوره في إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور الوحدانية، والحث على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وصولا إلى طاعة الله، وإبراز جوانب من السيرة النبوية الشريفة، وإبلاغ رسالته صلى الله عليه وسلم إلى الناس أجمعين.

وقد أجمل بعض الباحثين الصور التي قدم شعراء المديح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث " الصورة الأولى هى صورة الشعر الصوفي، وفيها مدح النبي صلى الله عليه وسلم وإبراز شخصيته وأوصافه بهدف شرح نظرية أو تبليغ عقيدة، أما الصورة الثانية من غرض المديح النبوي، وهو أن يبدأ الشاعر ببعض الأشعار فى حمد الله والثناء عليه، وبعض الأشعار فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم، ثم بعض الأشعار فى بيان مناقب الصحابة الكرام وخاصة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين، ثم يلى ذلك بعض الأشعار فى مدح سلطان العصر، وبعدها يبين الشاعر سبب منظومته ، ثم يدخل إلى المنظومة مباشرة، ولم يشذ عن هذا التقليد إلا القليل . ومن ثمّ فإن المديح كان تقليديا لا جديد فيه، بل ولا تبرز فيه شخصية النبي صلى الله عليه وسلم بشكل واضح مؤثر، وإنما شخصية مقدسة مباركة معجزة. والصورة الثالثة التى تظهر فيها شخصية النبى صلى الله عليه وسلم هى الصورة التي نجدها عند إقبال وأمثاله الآخرين والتي أرادوا بها تبليغ رسالة معينة أو فكرة خاصة إلى المسلمين من أهل شبه القارة الهندية خاصة، وإلى المسلمين كافة ، وهذه الصورة تتميز عن سابقتيها بأنها صورة حية تجري فيها الروح وتملؤها الحركة والحياة"19.

من ذلك نخلص الى أن الصورة الثالثة التي قدم بها النبي صلى الله عليه وسلم هي المعوّل عليها، إذ كانت بمثابة دراسة شخصية الرسول ليقدم من خلالها إنموذجا للمسلمين يحتذونه ويسيرون على نهجه فى حياتهم، مع تأكيد مسبق بأن هذا النموذج هو الأمثل والأفضل، وليس ما قد يفرض عليهم من نماذج بشرية أخرى تبهر أنظارهم ببريقها الزائف مثلما هو الأمر مع المدنية الغربية20.

أما أهم المحاور التي تناولتها المدائح النبوية الأردية وعملت على ترسيخها في نفوس المسلمين الهنود، فهي:

ـــــــــ التأسّي برسول الله صلى الله عليه وسلم:

ف"المدائح النبوية" تتطلب منا اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في شتى مجالات

حياتنا، لأجل سعادتنا وإحراز النجاح في حياتنا. فهو الرحمة للعالمين، والشفيع للمذنبين يوم القيامة،المكرم بالمقام المحمود، والمعطى الكوثر، والواجب الطاعة والاتباع، الصلاة عليه واجبة وتصديق معجزاته فريضة، وما أصدق ما قاله الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي ذات مرة في "ندوة حول المدائح النبوية العربية في الهند: أصلا وترجمة": "ومطلوب من الإنسان أن يجعل هذه المدائح

النبوية إنموذجا في كل مجال من المجالات الحياتية، ونحن أولى بأن نتصف بهذه الصفات العليا التي أُكرم بها الإنسان. وإذا اتصف الإنسان بالصفات النبوية يمكن أن يقود العالم"21.

لكن الحقيقة والواقع الهندي المعيش لا ينمان عن ذلك، فحب النبي صلى الله عليه وسلم لا يعدو عند الكثير من المدّاحين والقارئين، بل ومعظم المستمعين أيضا عن أن يكون دعاوى كلامية فحسب، وليس له أثر ملموس في حياتهم، صور شاعر أردوي هذه المفارقة العجيبة قائلا:

ترے حُسنِ خُلق کی اک رمق میری زندگی میں نہ مل سکی
میں اسی پہ خوش ہوں کہ شہر کے تمام دروبام کو تو سجادیا
میں ترے ''مزار کی جالیوں'' ہی کی مدحتوں میں مگن رہا
ترے ''دشمنوں'' نے ترے چمن میں خزاں کا جال بچھادیا22

وترجمتها: لاتعكس حياتي شيئا من مكارم أخلاقك، وبالرغم من ذلك أنا سعيد بتزيين مدينتي من أقصاها الى أدناها(بمناسبة ذكرى الميلاد)، ومازلت فرحا مستبشراً في وصف شبابيك ضريحك، إلى أن أفسد الأعداء علينا أمر دينك..

ــــــــــ تطهير العقائد:

ومن تأثيرات المدائح النبوية إسهامها في تطهير عقائد المسلمين مما شابها من شوائب الغلو في شأن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، بشتى أنواعه من الاستمداد منه، والاستغاثة به، ووصفه بالصفات الربانية، وما شابه ذلك.

ــــــــــ الدعوة الى الأسلام والتفقه بالدين:

ومن تأثيراتها الإيجابية أيضا التوعية الدينية ونشر الرسالة وبسط حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين وغيرهم، فضلا عن تعليم الإسلام وعباداته ومعاملاته وشرعته وفقهه وسنة نبيه المثل الأعلى، بما يساعد على إيجاد رؤية عصرية لحل معضلات المجتمعات إنطلاقا من قوله تعالى: "وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"23. فقد صار ملحّا إبراز السمات الرائعة في شخصية النبي لدفع التهم التي يحاول أعداء الأسلام إلصاقها به، فضلا عن سعي أتباع الديانات الأخرى إلى إبراز رموزها في القنوات الفضائية ووسائل الأعلام الأخرى بواسطة الأفلام الكارتونية الهندوسية والمسيحية، مثل تشوتا بهيم، وبين تين، ودورامون، ولف ايند كش، والكثير من الأفلام التي تتحدث عن شخصيات الديانات الأسطورية، وتحببها إلى قلوب وعقول الأطفال المسلمين ويهدد بفتنتهم.

ــــــــــ الشعائر الأسلامية:

وبفضل المدائح ازدادت علاقة المسلمين لا بالرسول وآله وصحبه ومَن والاهم فحسب، بل تطورت علاقاتهم بالشعائر الإسلامية الأخرى الموجودة في أرض الحجاز لكثرة ترددها في المدائح، خاصة في مكة والمدينة، الأضرحة، والمساجد، وغار حراء، والصفا والمروة، وضريح النبي، والمسجد النبوي الشريف، و لم يحتفِ المداحون برمز إسلامي حفاوتهم بقبة المسجد النبوي الخضراء.

تاريخ المديح النبوي الأردي ومشاهير الشعراء فيه:

يُعد المديح النبوي عنصرا قارا في آداب العربية والفارسية، حيث نبغ في هذا الفن الواسع الانتشار العديد من الشعراء واحتفوا بنبيهم بمدائح كثيرة لا حصر لها، وعندما قامت اللغة الأردية على أكتاف العربية والفارسية اهتم الشعراء بالمديح النبوي منذ نشأة الأدب الأردي.

بدأ المديح النبوي الأردي رحلته من جنوب الهند وبالتحديد من "دكن" متجها إلى شمال الهند. وسقى رياض المدائح النبوية الأردية جحافل من الشعراء بداية من ولي دكني إلى أمير مينائي، ثم حمل رايته أحد عمالقة الأدب الأردي ألطاف حسين حالي، إلى أن وصلت الرحلة إلى ظفر علي خان، ثم رحب بها الشاعر الشهير العلامة إقبال24.

ويرى الناقد الكبير المولوي عبد الحق أن قصب الريادة في المديح النبوي الأردي يذهب إلى الصوفي بنده نواز غيسودراز، في حين يرى الناقد جميل جالبي أن المثنوي "كدم راو بدم راو" للشاعر فخر الدين النظامي هو نقطة الإنطلاق للمديح الأردي.

ومن رواد المديح النبوي الأردي: برهان الدين قطب عالم، والشيخ صدر الدين، وشاه ميران جي، والشيخ بهاء الدين باجن، وكبير، والشاه أشرف السابايي، والقاضي محمود دريايي، والشاه علي محمد جيوغام داني، وميرتقي مير، وداغ، ورسوا، وأصغر غوندوي، وبهزاد لكناوي، أحمد رضا البريلوي، وحسن رضا خان حسن بريلوي، وشاد عظيم آبادي وآخرين...25

كما يمكن أن نعد أبرز شعراء الجيل الذي تبع الرواد فيض أحمد فيض، وأحمد نديم قاسمي، وقتيل شفائي، وأنور سديد، وعطاء الحق القاسمي.

ثم توالت الأجيال وصولا إلى ماهر القادري، وشفيق جونفوري، وحفيظ جالندهري، ونعيم صديقي، وعروج قادري، وعامر عثماني، وأبوالمجاهد زاهد، وحفيظ ميرتي، وكليم عاجز، وحفيظ بنارسي، وعزيز بغروي، ومسعود جاويد هاشمي، وقيصر الجعفري، وأبوالأثر حماد أنجم، وتابش مهدي، وأبو الفاروق شعور، ورؤوف خير (حيرت بستوي)، وسالك بستوي، وحفيظ محمد بلند شهري، وتابش ماليغانوي.

وقد نبغ عدد كبير من المداحين الذين اتخذوا المدائح موضوعا وحيدا لقصائدهم، من مثل الشاعر المبرّز محسن كاكوري الذي لم يخط بيمينه إلا القصائد المدحية.

تتابع التأليف في المديح النبوي عبر الأجيال، على صورة قصائد أو مقطعات أو دووابن مستقلة أحادية الغرض، حتى تكاد لا تعدم شاعرا كتب بالأردية لم يكتب شيئا من المديح النبوي، في الحفلات الدينية، أو في "المساجلات الشعرية" أو"المشاعرة"، وقلما تخلو الصحف والدوريات والمجلات التي تصدر بالأردية من المدائح النبوية، الأمر الذي سوّغ لبعض الباحثين عدّ الأردية اللغة الثانية من حيث النتاج في المديح النبوي بعد العربية26، وإن ذهب الشيخ العلامة أبو الحسن علي الندوي إلى أن الفارسية وليست الأردية هي الثانية بعد العربية في عدد المدائح النبوية التي تحويها27.

نماذج من المدائح النبوية:

وصل إلينا من شعر المديح النبوي كم هائل، فيه الغث والسمين، لذا سيورد البحث نماذج شعرية من شعر المبرّزين في هذا الفن، منهم "محسن كاكوروي" (ت 1323هـــــ) الذي وقف حياته كلها على شعر المديح النبوي، لم يكتب غيره. ومن أهم أبيات المديح عنده، في معجزة الأسراء والمعراج:

"أيقظ النبيَ الكريم في أدب وتواضع، بل أيقظ – في تعبير أصح وأفصح – حظه وجده وطالعه، فإذا هو صلى الله عليه وسلم يرى في هذا الليل من العجب العجاب ما يأخذ بالألباب، أن تتابع الأيام والأعوام، وتقلب الليل والنهار، لم يلدا ليلة مباركة كهذه الليلة، أن هذا الإكرام الذي نالته الأرض في هذه الليلة لاتناله الآن إلى الأبد، ولو أصبحت تبرا وتحولت درا وجوهرا وإكسيرا، تتابعت فيها الرحمات كالندى واتصلت الأرض بالسماء"28.

ويقول العلامة ألطاف حسين حالي، وهو تلميذ ميرزا غالب يمدح خير البرية صلى الله عليه وسلم، ننقل هنا ترجمة أشعاره، عرّبها الشيخ الندوي لئلا يطول بنا الكلام: "لقد خص من بين النبيين بلقب "رحمة للعالمين" هو الذي كان من دأبه إسعاف

حاجات الفقراء، وتحقيق رغباتهم المكبوتة، وكشف كربات الأعداء البعداء، ومشاركة البعيد والقريب في أحزانهم ونوائبهم، يتألم بألمهم، ويفرح بفرحهم، ملجأ الفقراء، ومأوى الضعفاء، وولي الأيتام، ومربي العبيد والأرقاء، يصفح عن الأخطاء، ويُحسن إلى من أساء، ويصلح ما أفسده الناس، يوحّد القبائل المتناحرة، ويؤلف بين القلوب المتنافرة ....إلخ"29.

كما أدلى الشاعر الكبير "ظفر علي خان" (ت 1956م) دلوه في مجال المدائح النبوية، ونظم أبياتا تتسم بجمال البحر وأناقة الوزن، وحسن النغمة، واللحن، كما نرى في الأبيات التالية: "إن السراج المنير الذي ظل سنين طوالا يتلألأ في الخلوات، وفي بئية محددة، لقد سبق علم الله أن تستنير به مجالس الملوك والعلماء وتقتبس نوره، وتمشي في ضوئه قوافل العلم والحضارة، إنه سر الوجود، ولولا دينه ورسالته، ولولا نبوته وبعثته، لما أخذت الأرض زخرفها، ولما أكملت السماوات زينتها"30.

ويعد إقبال أحمد سهيل (ت 1955م) من المجيدين في المديح الأردي، حيث فاض لسانه مادحا نبينا صلوات الله وسلامه عليه، في قصيدته الشهيرة الموسومة بــــ "موجِ كوثر": وترجمتها:

"غرة ناصية البشرية، ونور جبين الإنسانية، النبي الذي بدد ظلمات الكفر، ونشر درر الإيمان، ورفرف راية التوحيد، حارس حديقة البشرية، وروضة الإنسانية، ألغى عادة الرق، وحطم سلاسل العبودية والذل، أعاد إلى الروضة رواءها وأفاض عليها خيرها، وبركتها، كانت أسرة البشرية متفرقة، فجمعها على مائدة واحدة، وكانت لآليء الحق والإيمان منتشرة ضائعة، فربطها في سلك واحد. قضى على أوهام الجاهلية، وخرافات الوثنية، وأتاح للإنسان أن يتصل بالخالق الأحد الصمد، صب على من عاداه وآذاه رشحات حبه وعفوه، وشمله برعاية عطفه، وحنانه، جمع بين سلطان الفقر والغنى، والجسد والروح، والدين والدنيا، صلى الله عليه وسلم"31.

ويقول صاحب "شاهنامه إسلام" حفيظ جالندهري واصفا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه ردّ إلى الإنسانية كرامتها واعتبارها، وإلى أفراد النوع الإنساني حقَّهم في الحياة، نكَّس الباطل، وقلب عروش الملوك الجبابرة، رفع رأس كلِّ إنسانٍ صابرٍ، وشرّفَ قدر الأجير، وأهان المُثري المستأثِر، لقد كان الفقرُ فخرَه، ولكنه كانت سطوة كسرى وقيصر تحت قدمه، إنه كسر سلاسل الظلم والباطل النارية التي يصعب كسرها، وجَبَرَ القلوب المنكسرة المتهافتة التي يصعب جبرها، فصلوات الله عليك يا مَنْ كان كسره معجزةً، وجبره معجزة!"32

ومن روائع المدائح النبوية التي جرت على لسان أفحل الأدباء الإسلاميين "ماهر القادري": "أقام الصلة بالرب، وفك طلاسم الباطل، وغير مجرى التاريخ، وأنزل السفينة على بر الأمان والسلامة والإيمان، رغم أمواج هائلة، ورياح عاتية، منح الإنسانية سيفا ومصحفاً، ودنيا وآخرة، وجعل الموت شهادة، وعلّم آداب الحياة"33.

ويمدح الشاعر الأردي الكبير العلامة الدكتور إقبال صلى الله عليه وسلم بروحه: "إنّ قلب المسلم عامرٌ بحبّ المصطفى صلى الله عليه وسلم، وهو أصل شرفنا، ومصدر فخرنا في هذا العالم، إنّ هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى، كان يرقد على الحصير، إن هذا السيد الذي نام عبيدُه على أسرَّة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد، فكان أن وُجدت أمةٌ ووُجد دستورٌ، ووُجدت دولةٌ، إذا كان في الصلاة، فعيناه تذرفان دمعاً، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً"34.

الإنحراف العقدي والفكري في المدائح الأردية:

يمكن تلخيص مظاهر الإنحراف العقدي والفكري في المديح الأردي في الأمور الاتية:

ـــــــــ الغلو في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

بداية، لابد للشاعر أن يراعي الفوارق ما بين النبوة والألوهية، لكن شاع في المديح النبوي الأردي توجيه النداء إلى الرسول، والاستمداد منه، والاستغاثة والاستعانة به، مع أن الله تعالى هو كاشف الضرّ، وهو الذي ينجي من كل كرب، ويجيب دعوة الداع والمضطر إذا دعاه، ويكشف السوء عن عباده، فضلا عن التمسح بالحجارة وطلب البركة منها، أو توحيد ذات النبي صلى الله عليه وسلم والذات الألهية وعدهما شيئا واحدا، بل ذهب البعض الى أبعد من ذلك حين عدّ النبي هو الله تجلى بصورة رجل اسمه محمد، أو الاعتقاد بأن البشر هم عبيد للرسول صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي يبين بوضوح عن انحراف عقدي وفكري، بل ذهب البعض ــ من الموسومين بالتشدد ــ إلى عده شركا بواحا!، يتضح ذلك من خلال قول جلال اللكناوي:

شرف کعبے کا ہے گر طواف کرنے آئے مرقد کا ترى چوکھٹ کو وہے فخر ہے یہ سنگِ اسود کا ،

وترجمتها: من شرف الكعبة أن تتطوف بضريح الرسول، ومن شرف الحجر الأسود أن تجيء إلى عتبة الضريح لتقبيلها.

ويقول ماني جائسي: (مدینہ سجده گاهِ آفتاب وماه و اختر ہے)، أي أن المدينة المنورة هي موضع السجود للشمس والقمر.

ويقول أحمد رضا خان البريلوي: " جس کے سجدے کو محرابِ کعبہ جھکی"، أي ان النبي هو الذي انحنى محراب الكعبة ساجدا له.

ويقول: (رب ہے 'معطی' یہ ہیں قاسم رزق اس کا ہے کھلاتے یہ ہیں)، أي أن الرب هو المعطي وهذا (محمد) قاسم، فالرزق لله ويُطعمنا محمد.

ومن ذلك توحيد البعض في شعره ما بين الذات الألهية وذات الرسول صلى الله عليه وسلم أو الخلط بينهما وتبادل نسبة الصفات إلى بعضهما البعض، كقول الشاعر الشهير ناسخ:

" معانی قل هوالله احد کے ہیں عیاں ناسخؔبرائے قافیہ رکھا ہے میں نے میم احمد کا"، أي توحيد الله تعالى المشار إليه في سورة الإخلاص مفهوم ببساطة، الأحد وأحمد كلاهما شيء واحد، والميم الفارق بينهما لايفرق بينهما، بل أُضيف لضرورة اقتضت القافية، يعني لافرق بين الله ورسوله محمد. وتمادى الشاعر عاصي الغازيفوي في قوله: " وہی جو مستویؐ عرش تھا ''خدا'' ہوکر اتر پڑا ہے وہ مدینے میں مصطفی ہو کر "، أي هو الذي كان إلهاً مستوياً على عرشه، نزل بالمدينة في صورة محمد"، ويقول الشاعر تسليم اللكناوي: "عرش وکرسی جب عدم تھے جلوه گستر کون تھا؟ سامنے خالق کے جز ''نورِ پیمبر'' کون تھا؟ " أي قبل أن خلق الله العرش والكرسي، كان نوره صلى الله عليه وسلم يتمثل بين يدي الرحمن.

يعود معتقد انكار آدمية النبي صلى الله عليه وسلم إلى تأويل الآية الكريمة "قد جاءكم من الله نور وكتب مبين"35، ورواية لحديث منسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم نصه: "أول ما خلق الله نوري"36

ومن مظاهر الغلوّ في حبه صلى الله عليه وسلم اعتقاد البعض أنهم عبيد للرسول، كما يقول أحمد رضا خان البريلوي: "ہم ہیں عبدِ مصطفی، پھر تجھ کو کیا"، أي نحن عبيد مصطفى، وهل فيه حرج؟ ومنها استخدام تشبيهات فاسدة لا تليق بشخص النبي صلى الله عليه وسلم، كتشبيه الشاعر محسن كاكوروي شخصية الرسول ب(سري كرشن)، قائلاً: " دیکھئے ہوگا 'سری کرشن' کا کیوں کر درشن سینہؑ تنگ میں دل گوپیوں کا ہے بے کل"،

وسري كرشن هذا هو شخصية هندوسية أسطورية، كان يتغزل بالنساء، اللواتي يطلق عليهن "غوبيان" وقد شبه الشاعر نفسه وأمثاله بهن، ووصف حنينه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بحنين غوبيان إلى سري كرشن وتطلعهن إلى لقائه في كرشنا"..

ـــــــ الموسيقى:

تعتقد بعض التيارات الإسلامية في الهند بحرمة الموسيقى بعامة، لذا رأت أن حرمتها أشد في حال مصاحبتها لأشعار المديح النبوي، فما بالك لو صاحب الرقص الإثنين ؟!! مثلما حصل عندما شاع القوالي والمُجْرى37 في الهند منذ أواخر العصر المغولي، حين اتخذ القوّالون "المدائح النبوية" مادة خام لوصلاهم الغنائية والراقصة، واستمرت هذه العادة إلى يوم الهند هذا، يهواها أناس ويبالغون، ويدخلون فيها طقوسا أقرب إلى الهندوسية منها إلى الإسلام ، وثمة أناس، مع ميلهم إليها، لا يحبذون المبالغة فيها، بينما فريق ثالث يحرّمها ويعدها من مزامير الشيطان التي ينبغي أن لا تصاحب كلاما نظم في مدح خير الورى، ويشتد فريق رابع في حرمتها حتى يعدها من الشركيات المكفرة.

وعادة ما يحدد المعتقد موقف المتلقي من مظاهر الموسيقى والإيقاع والرقص المصاحبة للمدائح النبوية، فالصوفية بغلاهما ومعتدليها يمثلان الفريقين الأول والثاني، والسلفية أو ما يسمى في الهند بأهل الحديث بمعتدليها وغلاهما يمثلان الفريقين الثالث والرابع.

ومما زاد الطين بلّة في نظر المحرمين لهذه الظاهرة، جنوح البعض إلى صياغة مدائح نبوية مغناة على ألحان أغاني حب شهيرة من أغاني أفلام بوليوود، على سبيل المثال، فإن قصيدة:

"در پہ بلاؤ ! مکی مدنی بگڑی بناؤ! مکی مدنی"

تغنى على لحن أغنية:

"گھر آیا مرا پردیسی پیاس بجھی میری اَکھیَنْ کی"

وقصيدة:

"مری بات بن گئی تری بات کرتے کرتے

ترے شہر میں میں آؤں تری نعت پڑھتے پڑھتے"

نظمت على الوزن واللحن ذاهما للأغنية السينمائية:

"یونہی کوئی مل گیا تھا مجھے راہ چلتے چلتے "

وقصيدة:

"اے سبز گنبد والے منظور دعا کرنا

جب وقتِ نزاع آئے دیدار عطا کرنا"

شبيهة بوزن وقافية ولحن أغنية سينمائية هي:

"بچپن کی محبت کو دل سے نہ جدا کرنا

جب یاد مری آئے ملنے کی دعا کرنا".

السمات الأسلوبية والفنية للمديح النبوي الأردي:

إن أهم ما ميز المديح النبوي الأردي محسناته البديعية، وصناعته اللفظية والمعنوية، كاستخدام التشبيهات النادرة المبتكرة، والتفنن في نظم قصائد كاملة غير منقوطة، فضلا عن تخصص بعض الشعراء في هذا الفن ونظمهم لمجاميع شعرية تحوي قصائد في المديح النبوي حصرا، مثل مجموعة راغب مرادآبادي الشعرية "مدح الرسول" التي نشرها في عام 1983م والتي تحتوي على أربعين

قصيدة، وثلاثين رباعية، كلها في المديح النبوي، ولأجل ذلك يقول الناقد غوهر ملسياني " ... وعلى هذا، اعتقد، أنه لابد من عدّ المديح النبوي من الأدب العالي"38.

لا غرابة إن استحسن الهنود بشعرائهم ومتلقيهم المحسنات البديعية والفذلكات اللغوية والتصنع في نظم الشعر، فهم بعيدون كل البعد عن المعايير الفنية التي وضعها النقاد العرب القدامى للشعر الجيد، فقد ظلوا حبيسي الذائقة الملائية للشعر، وظلوا أقرب إلى الذوق الشعري العربي في عصور انحطاطه وصولا إلى شعر الوعاظ والمنشدين الدينيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

الخاتمة ونتائج البحث

تتراوح مقاصد المديح النبوي الهندي بشقيه العربي والأردي بين من كتبها على سبيل التيمن والبركة، ومن حاول إثبات شخصيتة الأدبية وضمان انتشارها في الأوساط الشعبية بعد أن صار المديح النبوي الغرض الشعري الأكثر شعبية وانتشارا بين المتلقين الهنود، وآخر رأى في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم قدوة ومثالا أعلى يحتذى في شتى مناحي الحياة ورمزا إسلاميا يقارع به رموز الهندوس وشخصياتهم الدينية والأسطورية على السواء، وآخر اتخذ من المديح النبوي وسيلة للدعوة ونشر الإسلام لما في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم من محتوى إنساني وفيض إصلاحي يغري أتباع الديانات الاخرى التي ترزح تحت نير الطبقية وذلّ العبودية.

يعود تاريخ المديح النبوي الهندي إلى العربية ومنها انتقل إلى الفارسية ومنهما إلى الأردية، لأن العربية والفارسية هما البنيتان التحتيتان لنشوء اللغة الأردية، وعلى الرغم من الأسبقية التاريخية للفارسية على الأردية، فإن الأردية لا الفارسية هي من يحتل المرتبة الثانية في عدد المدائح النبوية بعد العربية.

يكاد الشعراء المسلمون الهنود كلهم قد نظموا في باب المديح النبوي، بل تعدى ذلك إلى العديد من الشعراء الهنادس الذين تغنوا بمحبة الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – ونظموا فيه القصائد والدوواوين، اذ رأوا فيه مثلا أعلى للإنسانية والرحمة والأخوة العالمية، عبرت رسالته الآفاق ونشرت معاني السلام في ربوع المعمورة.

انقسمت المدائح النبوية من حيث السلامة العقدية على نوعين، منها ما هو سليم ومنها ما يشوبه الغلوّ والشطط، وعلى الرغم من انتشار المدائح الغالية فأن المدائح السليمة كانت وافية في إثبات شخصية الرسول وعدم السماح بالطعن عليها، وكافية لإبراز مثاليته.

لعبت المدائح النبوية دورا فاعلا في ترسيخ حب الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس المسلمين الهنود، فحب المسلمين الهنود للنبي صلى الله عليه وسلم يبلغ الغاية القصوى، ولا فرق في ذلك بين الجاهل منهم والمثقف، ولا بين الملتزم دينيا والمتهاون، فالجميع يلهج بذكر النبي ويتهلل وجهه بشرا كلما سمع لفظ "محمد" في خطب الجمعة، أو الندوات أو المؤتمرات أو الجلسات، ويسارع بالصلاة عليه "صلى الله عليه وسلم"

لكن اللافت، أن المدائح النبوية خلقت حبا عميقا في نفوس الهندوس أيضا، وبسبب منها مدت شخصية النبي صلى الله عليه وسلم وشائج حميمة معهم، ما دفع البعض من شعرائهم إلى نظم القصائد وتدبيج الدواوين في حب النبي وذكر مناقبه، الأمر الذي قرّب الكثير منهم إلى الإسلام واستثمره الدعاة وحصدوا غلته أفواجا من الهندوس الداخلين في دين الله.

ومن نتائج بحثنا: اقتصار المديح النبوي في بلاد العرب على مريدي الطرق الصوفية، وتعامل أنصار المذاهب الاخرى معه بحذر وعدم ارتياح في كثير من الأحيان، وتسفيه وتفسيق في بعض الأحيان، بينما نجده عند المسلمين الهنود عابرا للمذاهب

والاجتهادات، يحبه ويتبرك به الجميع، ولم يعارضه من حيث المبدأ أحد من التيارات السائدة هناك، بل اقتصرت اعتراضات السلفيين الهنود على ما عدوه شوائب شركية شابت بعض المدائح، كطلب المدد من النبي والصحابة والأولياء والصالحين، أو ذكر القبور والأضرحة والتبرك بها، أو مصاحبة الموسيقى والرقص الأيقاعي لقصائد المدح، وغيرها.

لقد حفزت هذه الشوائب دعاة المسلمين ومصلحيهم على بث ثقافة التوحيد الخالص، وبيان خطورة تسرب بعض عقائد الهندوسية وغيرها من المعتقدات في ثنايا عقيدة الإسلام، ما حافظ على إسلام هندي نقي نسبيا.

خلُص البحث إلى أن أهم ما حققه فن المديح النبوي، إشاعة ثقافة التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، فالمدائح النبوية تطلب منا اتباع سنته في شتى مجالات حياتنا، لأجل إسعادنا والنجاح في حياتنا، فهو الرحمة للعالمين، والشفيع للمذنبين يوم القيامة،المكرم بالمقام المحمود، والمُعطى الكوثر، والواجب الطاعة والاتّباع، الصلاة عليه واجبة وتصديق معجزاته فريضة.

لقد صار ملحّا إبراز السمات الرائعة في شخصية النبي لدفع التهم التي يحاول أعداء الإسلام إلصاقها به، فضلا عن سعي أتباع الديانات الأخرى إلى إبراز رموزها في القنوات الفضائية ووسائل الإعلام الأخرى بواسطة الأفلام الكارتونية الهندوسية والمسيحية، مثل تشوتا بهيم، وبين تين، ودورامون، ولف ايند كش، والكثير من الأفلام التي تتحدث عن شخصيات الديانات الأسطورية، وتحببها إلى قلوب وعقول الأطفال المسلمين وتهدد بفتنتهم.

وبفضل المدائح النبوية ازدادت علاقة المسلمين لا بالرسول وآله وصحبه ومَن والاهم فحسب، بل تطورت علاقاتهم بالشعائر الإسلامية الأخرى الموجودة في أرض الحجاز لكثرة ترددها في المدائح، خاصة في مكة والمدينة، الأضرحة، والمساجد، وغار حراء، والصفا والمروة، وضريح النبي، والمسجد النبوي الشريف، ولم يحتفِ المداحون برمز اسلامي حفاوتهم بقبة المسجد النبوي الخضراء.

قائمة الهوامش

1ــــــ سبحة المرجان فى آثار هندوستان / غلام علي آزاد البلكرامي/ (د.ت)،(د.م)/ ص:.30

2ــــــ نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر (الإعلام بمن في الهند من الأعلام)/ عبد الحي الحسني / دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ــــ بيروت/ ط1، 1999م/ ج 2 ، ص.163

3ــــــ مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي / د. زبير أحمد الفاروقي/ دار الفاروقي ــــ دلهي/ ط1، 1990م/ ص104.

4ــــــ المرجع نفسه/ ص:159ـــــ160.

5ــــــ المدائح النبوية في الهند/ د. محمد صدر الحسن الندوي المدني/ معهد الدراسات الاسلامية ــــ اورنك آباد ــــ مهاراشترا ــــ الهند/ ط1، 2007م/ ص:212.

6ــــــ المرجع نفسه/ ص:188.

7ــــــ المرجع نفسه / ص:190.

8ــــــ مساهمة دار العلوم بديوبند في الأدب العربي / د. زبير أحمد الفاروقي/ ص:99ـــــ98

9ــــــ مقال أبي الحسن على الحسني الندوي/ مجلة الرائد/ دار العلوم ندوة العلماء/ 2-8 جمادي الأول،1417ه.

10ــــــ المدائح النبوية في الهند/ د. محمد صدر الحسن الندوي/ ص: 222.

11ــــــ المرجع نفسه/ ص: 230.

12ــــــ المرجع نفسه/ ص:213.

13ــــــ المرجع نفسه/ ص: .55

14ــــــ المرجع نفسه/ ص: 156

15ــــــ المرجع نفسه/ ص:.198

16ـــــــ المرجع نفسه/ ص: 185.

17ـــــــ الثقافة الإسلامية في الهند / عبد الحي الحسني/ مجمع اللغة العربية ـــــ دمشق / ط2، 1983/ ص:48.

18ـــــــ الأدب العربي في شبه القارة الهندية حتى أواخر القرن العشرين / الدكتور أحمد إدريس/ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية/ ط1، 1998م/ ص:225ـــ226.

19ـــــــ ينظر: النبي صلى الله عليه وسلم في شعر العلامة إقبال / أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم/ مقال منشور على الموقع: http://www.wata.cc/forums/showthread.php

20ـــــــ ينظر: المرجع نفسه.

21ـــــــ ينظر: تقرير الدكتور محمد قطب الدين، أستاذ مساعد، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، بنيو دلهي، تم نشره في مجلة "ثقافة الهند"، المجلد 64، العدد2، عام 2013م، ألقي في ندوة نظمها قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة دلهي، بمساعدة المجلس الوطني لترويج اللغة العربية، المالي، التابع لوزارة تنمية الموارد البشرية، للحكومة الهندية، ودامت لمدة يومين 5-6 مارس عام 2013م.

22ـــــــ نعت گوئی اور اس کے آداب، انتساب/ البروفيسور شاهين عبدالله/ لاهورـــــــ باكستان/ ط1، يناير، 2009م.

23ـــــــ سورة الأحزاب: 21.

24ـــــــ نعت گوئی اور اس کے آداب/ البروفيسور شاهين عبدالله/ ص: 35.

25ـــــــ ينظر: نعت نبوی ۔ افراط و تفریط کے درمیان (المديح النبوي بين الإفراط والتفريط) / محمد إبراهيم سجاد التيمي/ مقال بالأردية تم نشره في مجلة المصباح الشهرية / الكويت / 2015/3/2م / منشور على موقع المجلة الرسمية من خلال الرابط التالي:http://www.misbahmagazine.com/archives/5163.

26ـــــــ منهم الدكتور رضوان أحمد في مقاله الأردي (نعت گوئی: اردو شاعری کے زیور کانگینہ)/ تم نشره في صحيفة "دنيا" اليومية الباكستانية، منشور على موقع الصحيفة الرسمية من خلال الرابط :
http://dunya.com.pk/index.php/special-feature/2013-07-7/4954#sthash.AuisZYb7.dpuf

27ـــــــ مقالات حول السيرة النبوية/ العلامة الإمام السيد أبو الحسن علي الندوي / مقال: "جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية/ أخرجه: سيد عبد الماجد الغوري/ دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع ـــــ دمشق ـــــ بيروت/ط1، 2002م/ ص248.

28ـــــــ الطريق إلى المدينة ، شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم/ ترجمة: أبوالحسن علي الحسني الندوي/ دار القلم ـــــ بيروت/ ط4، 1980م/ ص112.

29ـــــــ المرجع نفسه/ ص:245-.246.

30ـــــــ المرجع نفسه/ ص:.114.

31ـــــــ المرجع نفسه/ ص:115-.116.

32ـــــــ مقالات حول السيرة النبوية ، للعلامة الإمام السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي/ "جوانب السيرة المضيئة في المدائح النبوية الفارسية والأردية/ ص: .246.

33ـــــــ الطريق إلى المدينة ، شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم/ ترجمة: أبوالحسن علي الحسني الندوي/ ص:117-.118.

34ـــــــ المرجع نفسه/ ص:.247.

35ـــــــ سورة المائدة ، الأية: .15.

36ـــــــ حديث موضوع شاع بين الناس أن عبدالرزاق الصنعاني ذكره في كتابه "المصنف" و لم يرد فيه.

37ـــــــ نوع من الرقص السائد في عصر النوابين الهنود عند انحطاط الحكم المغولي في القرن الثامن عشر الميلادي.

38ـــــــ ينظر: "جمالِ محسنِ انسانیت صلی اللہ علیہ وسلم نعت کے آئینے میں" (جمال نبي الرحمة في ضوء المدائح النبوية، باللغة الأردية)/ غوهر ملسياني/ منشور ألكترونيا في 4 فبراير من عام 2004م من خلال الرابط : http://lib.bazmeurdu.net/jamale-mohsine-insaniyat-gohar-milsiyani

النشر الإلكتروني بالوطن العربي في ظل مشروع الذخيرة العربية

Electronic Publication In The Arab Nation On Part Of The Arabic ''Dhakhira''

الدكتورة : سهام موساوي

جامعة حسيبة بن بوعلي _الشلف _ الجزائر

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

ملخص البحث :

توالت التطورات في مجال تقنية المعلومات وتعددت الوسائل والطرق والوسائط المستخدمة في تخزين المعلومات واسترجاعها ،وتبادلها عبر شبكات الحاسوب المحلية والإقليمية والدولية ،للسهولة والسرعة في تحديث البيانات وإصدار الطبعات الجديدة على فترات مناسبة ، كما تعتمد مصادر المعلومات المحوسبة على نظم آلية متطورة في الكشف واسترجاع المعلومات بحيث تمكن الباحث من إجراء عمليات الربط و توسيع دائرة البحث وتضييقها .بما يحقق نتائج مرضية . وهذا مالا يمكن تحقيقه باستخدام المصادر التقليدية، ا ،لذا ارتأينا في هذه الورقة إظهار مدى فعالية النشر الإلكتروني في تطوير مشروع الذخيرة العربية ،باعتباره المشروع العربي الذي يختص باللغة العربية في ذاتها وذلك من خلال الجمع الكلي والمسح الشامل لموروث اللغة العربية ، من أقدم العصور حتى العصر الحاضر، واستغلاله ضمن آليات التطور التكنولوجي الحاسوبي الحديث ووصف هذه الذخيرة بالانترنيت العربي المتفاعل ،مما يسهم في ترسيخ الهوية العربية

الكلمات المفتاحية : تخزين المعلومات واسترجاعها المعلومات المحوسبة النشر الإلكتروني الانترنيت العربي المتفاعل

Abstract :

There are Successive developments in the field of information technology and the various means used in media in information storage and retrieval And sharing over computer networks r shared over at the local, regional and international, for the ease and speed in the updated data new editions at appropriate intervals and computerized by information sources on sophisticated automated systems and information retrieval this enable researchers to make connections and expand research the end it narrowed satisfactory results. This can be achieved using traditional sources, a, so we thought in this paper show how effective publication ordering in the development of the ammunition, as Arabic project, which specialized in Arabic language itself through a combination of holistic and comprehensive survey of the inherited language Arabic, from ancient times to the present era, and within the mechanisms of modern computer technology development and description of the ammunition the Arab Internet interactive, thus contributing to the consolidation of identity Arabic

Key words: Computerized information the Arab Internet interactive Information storage and retrieval Electronic publishing

تعد ثورة المعلوماتية و التكنولوجية و ما تخطوه من خطى متسارعة في التطور والانتشار في العالم نقلة نوعية في القرن الواحد و العشرين ، حيث أصبحت فيه التقنية بمثابة الأرضية الخصبة لمسيرة التعامل بين دول العالم ورفع مستواها و تقدمها و تنميتها لمسايرة التتابع الزمني و مواكبته مع تيسير الحصول على المعلومة ، كما تعتبر حلقة متقاربة للاتصال و التواصل ، فاختزلت كل المسافات و حدود المكان و شملت مختلف مجالات التعامل العلمية و الثقافية و الاقتصادية و السياسية .

ويأتي مفهوم النشر الإلكتروني ليدل على نشر المعلومات التقليدية الورقية عبر تقنيات جديدة تستخدم الحاسبات وبرامج النشر الإلكتروني في طباعة المعلومات وتوزيعها ونشره عبر تقنيات جديدة متطورّة منها :

1. استخدام الحاسب الآلي لتسهيل إنتاج المواد التقليدية .
2. استخدام الحاسب الآلي ونظم الاتصالات لتوزيع المعلومات إلكترونياً عن بعد .
3. استخدام وسائط تخزين إلكترونية .

وكذلك فإن إصدار الدوريات والكتب وغيرها عبر شبكة الإنترنت أو على قرص مليزر (CD) وتوزيعا على المستفيدين يمثل شكلا من أشكال النشر الإلكتروني [1]

فالهدف لأي نظام معلوماتي هو استغلال المعلومات واستثمارها للرفع من مستويات التعليم والثقافي وتشجيع المساهمة في اتخاذ القرار لتقدم البشريه. وتبث المعلومات المنتجه بواسطة العديد من وسائط النشر المتاحة ، وتتعاظم أهمية النشر الالكتروني كلما اتسعت الشبكة المعلوماتيه(الانترنت) ، فحجم المعلومات المتوفر بها مذهل ويزداد مستخدموها بالآلاف كل يوم. كما تعمل التقنيات لحديثه على إحداث تحولات جوهريه في عملية نشر و توزيع المعلومات وهي تشكل اساسا لمجتمع المعلومات الجديد.

لقد جاءت هذه الشبكات و الاختراعات التقنية المتطورة في العالم لتلبية متطلبات الشعوب مع إعطاء الصورة الحضارية لتقدم كل دولة و ارتقائها . ومن ذلك التقدم و التسارع في عصر التكنولوجيا الذي يغطي العالم نقف عند التحدي الأكبر الذي يواجه الأمة العربية هو " أن تكون أمة منتجة للتكنولوجيا ، خاصة و أنه لدينا مصادر قوة يمكن أن تحقق قيمة مضافة إلى العالم في إنتاج ثقافي علمي متميز مع ضرورة التركيز على المضمون أكثر من الشكل ، فاستخدام المفردات التكنولوجية الحديثة في إطار العربية يعتبر دلالة على قوة هذه اللغة و ليس ضعفا ، و الدعوة إلى ضرورة تطويع تكنولوجيا المعلومات مع اللغة العربية "[2] .
وبذلك يمكن للمستخدم العربي من الاستغلال الأمثل للإمكانات المتوفرة في الأنترنيت

التجربة العربية للنشر الإلكتروني :

لقد بدأت تظهر في آفاق عالمنا العربي برامج للنشر الإلكتروني من أهمها وأشهرها برنامج الناشر الإلكتروني الذي هيأته شركة صخر للحاسبات الآلية، وهو يمثل بيئة متكاملة لبناء قرص مدمج من المعلومات مع إمكانية تحديثها من الإنترنت في أي وقت مما يوفر الوقت والجهد والتكلفة. ويتضمن نظام النشر الإلكتروني"[3] لنشر اللغة العربية على الإنترنت، وكذا المتصفح سندباد الذي يتيح استعراض المواقع العربية وتصفح صفحاتها بمنتهى الدقة واليسر ."[4]

وقد طورت صخرُ الناشرَ الإلكتروني ليكون خيرَ مُعين لدور النشر والصحف والمجلات والمؤسسات التي لديها كميات ضخمة من المعلومات والبيانات يراد نشرها وجعلها قابلة للبحث لتسهيل الحصول على أية معلومة منها في أقصر وقت ممكن.

ومن خلال تأمل واقع النشر الإلكتروني وقضاياه في العالم خاصة الآن، يتضح أن هناك مجالين لهذا النوع من النشر هما: النشر عن طريق الأقراص المرنة وأقراص الليزر، والنشر عن طريق شبكة الإنترنت أو النشر على صفحات الويب (الشبكة العنكبوتية)
أولا: النشر الإلكتروني عن طريق الأقراص المرنة وأقراص الليزر تتمثل في المعاجم الإلكترونية عربية / عربية، على هيئة أقراص

مرنة وأسطوانات مليزرة، يتم استخدامها عن طريق الكمبيوتر الشخصي. ومن ضمن هذه المعاجم القاموس المحيط ومعجم الرائد وغيرهما ، فنجد المعجمين الورقي والإلكتروني جنبا إلى جنب في الأسواق، وأصبحت المكتبات الكبيرة ذات الفروع المتخصصة تعرض هذا وذاك معًا، وكل مشترٍ أو مستفيد يريد اقتناء نسخة عليه أن يتخذ قرار الشراء على ضوء موقفه من الوسيط الإلكتروني، ولكن مع ازدياد عدد مستخدمي الحاسبات أو الحواسيب الشخصية، ومع الإقبال المتزايد من قبل الأفراد على اقتناء مثل هذه الحواسيب في منازلهم، فإن المستقبل سيكون بلاشك للمعاجم الإلكترونية وليس الورقية، وسيحذو حذو مؤسسة الرسالة العديد من دور النشر المتطلعة إلى مسايرة ركب التقدم العلمي والتقني والإلكتروني الهائل .

أيضا هناك برنامج المكتبة الألفية للسنة النبوية الذي يحتوي على أكثر من 1000 (ألف) مجلد وكتاب على قرص ليزر واحد، وهناك برنامج مكتبة الفقه وأصوله ويحتوي على أكثر من 700 مجلد وكتاب تتوزع بتوازن بين فقه المذاهب الإسلامية المشهورة، على قرص ليزر واحد.."[5].

ثانيا: النشر عن طريق شبكة الإنترنت أو النشر على صفحات الويب (الشبكة العنكبوتية

الجدير بالذكر أن معظم المواقع العربية المهمة تنتمي ــ كما أشار احد الباحثين في دراسته ــ إلى الكيانات الثقافية التالية: مؤسسات الصحف والإعلام الرسمية العربية ــ مؤسسات الإعلام السياحي ــ غرف التجارة ــ مواقع المجلات العربية ــ الدوريات الثقافية الصادرة باللغة الإنجليزية ــ المتاحف العالمية المالكة لمقتنيات إسلامية وعربية ــ مواقع شركات تطوير البرمجيات العربية ــ منافذ بيع الكتب العربية وأشرطة الكاسيت والفيديو والموسيقى العربية ــ أقسام الإذاعات العربية في الإذاعات الأجنبية ــ أقسام الدراسات واللغات الشرقية والآسيوية والأفريقية واللاهوتية بالجامعات الأمريكية والأوروبية ــ مواقع اتحادات الطلبة العرب بالجامعات الأمريكية والأوروبية ــ أفراد مسلمون غيورون على دينهم ينشرون مبادئ الإسلام وعباداته وشعائره للجاليات الإسلامية بالخارج"[6]

ومن أمثلة تجارب النشر العربي الإلكتروني نذكر:

1ــ اتحاد الكتاب المصريين بالقاهرة

2ــ منتدى الكتاب العربي

3ــ أمواج سكندرية الموقع الثقافي لمدينة الإسكندرية) وقد أنشئ من أجل تأكيد الهوية المصرية السكندرية على شبكة الإنترنت.

4ــ المنتدى الحر في iwebu بباريس.

5ــ الشرق الأوسط ميدل إيست أونلاين

أهمية مشروع الذخيرة العربية في النهضة العربية

ترجع فكرة مشروع الذخيرة العربية إلى أستاذنا الدكتور العلامة عبد الرحمن الحاج صالح"[7] ، الذي دافع عن فكرة المشروع لمدة ثلاث وعشرين سنة، ومازال، إلى يومنا عذا بالرغم من أن المشروع تبنته جل إن لم نقل كل الدول العربية ، وكثير من المنظمات وخاصة جامعة الدول العربية.

وقد عرض الفكرة في مؤتمر التعريب الذي انعقد بالعاصمة عمان سنة 1986 ، فأوضح أهمية المشروع في البحوث اللغوية والعلمية ، خاصة على مستوى توحيد المصطلحات ورصد المفاهيم،...، واستثمار وسائل التكنولوجيا الحديثة في ذلك فهو مشروع عربي تشرف عليه المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .وقد عرض لأول مرة، على مجلسها التنفيذي في ديسمبر 1988 فوافق أعضاؤه على تبنيه .وقد راسلت المنظمة بعد ذلــك، أهم المؤسسات العلمية العربية والجهات الرسمية المعنية بالتربية و التعليم

العالي و البحث العلمي تطلب منها إبداء الرأي فيه وفي كيفية تنفيذه، فتوالت على المنظمة إجابات كثيرة كلها إيجابية وأجمعت على أهمية المشروع وضـــرورة الشروع في إنجازه في أقرب الآجال ."[8] ثم نظمت جامعة الجزائر مع المنظمة في مايو 1991 ، أول ندوة للمشروع شارك فيها بعض ممثلي الهيئات العلميــة العربية وذلك للنظر في كيفية إنجاز المشروع واتخـــاذ التدابير اللازمة لسير العمل المشترك. وخرجوا بتوصيات تخص تنظيم العمل وكيفية المشاركة وإنشـــاء الهيئات المناسبة للمتابعة. واتفقـــوا على أن يلتقوا من جديد في ندوة ثانية موسعـــة بجميع ممثلي البلدان العربية،"[9]

إن مشروع الذخيرة اللغوية يختص اللغة العربية في ذاتها وذلك من خلال الجمع الكلي والمسح الشامل لموروث اللغة العربية ، من أقدم العصور حتى العصر الحاضر، واستغلاله ضمن آليات التطور التكنولوجي الحاسوبي الحديث ووصف هذه الذخيرة بالانترنيت العربي المتفاعل ، من منطلق أن الذخيرة العربية هي البنك العام الآلي لما دوّن من كلام العرب في عهد اللغويين العرب الأولين. والمدونات الشاملة التي تجمع بالإضافة إلى الشواهد القرآنية عددا هائلا من النصوص النثرية والشعرية وأمثال العرب وكلامهم العفوي ممّا يمكّن من استثمار هذه المدونة اللغوية الوافرة، لاستنباط قوانين اللغة العربية وأوصافها من جهة الاستعمال الحقيقي لها، ومن ثمّ إنجاز معجم عربي حاسوبي شامل مستخلص من مجموع متون المدوّنة.

وعلى هذا فإن أنواع الدراسات اللغوية التي يمكن أن تؤديها الذخيرة، ضخمة ومتعددة جدا منها: "دراسة تطور معاني الكلمات عبر العصور، ودراسة تردّدها بالنسبة إلى عصر بعينه أو مؤلّف واحد، أو تردّد المواد الأصلية وأوزانها في كتاب واحد أو عدة كتب، كما تهتم بصيغ الجمل بحسب الأغراض والموضوعات[10]"، وتدرس أيضا أساليب الكتّاب في كل عصر، واتساع رقعة الاستعمال للمصطلحات في عصرنا هذا، وتختص في موضوعها كذلك بالأصوات العربية (من الذخيرة الآلية الصائتة)، ودراسة مجالات المفاهيم الحضارية والعلمية عامة، وتتبع استعمال المترادف والمشترك من الألفاظ في وقت معيّن، وحصر الغريب والشاذ إفرادا وتركيبا كيفا وكمّا، بالنسبة إلى كل مؤلف أو نص وكل عصر، وتحلـّـل صيغ الجمل وظواهر الفصل والوصل في الخطاب، وتشمل دراسات في المجاز والاستعارة والكناية وغيرها من الصور البيانية ودراسة تطور كل هذا،"[11] وغير ذلك مما يخص اللغة العربية قديما أو حديثا عبر العصور.

الهدف المهم من وراء المشروع هو أنه مصدر مهم وموثوق لإنجاز البحوث العلمية بشتى أنواعها ، مع ضمان الدقة والشمولية ، وخدمة كل متطلع أو مستزيد للمعارف ، ودعم عملية التعلم والتعليم في كل الأطوار، ومعرفة التطور العلمي عبر الأزمنة بشكل عام أو خاص.

و يرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في تعريفه للذخيرة العربية بانها : " بنك آلي من النصوص و هي ليست مجرد مدونة أدخلت في ذاكرة الحاسوب ، بل مجموعة من النصوص أدمجت على الطريقة الحاسوبية حتى يتمكن الحاسوب من دمجها كاملة أو جزئيا ، و لها عدد من البرامج الحاسوبية وضعت خصيصا لإلقاء أنواع خاصة و كثيرة من الأسئلة على الذخيرة

لقد نشأ هذا المشروع من فكرة الاستعانة بالكمبيوتر (الحاسوب) واستغلال سرعته الهائلة في علاج المعطيات و قدرته العجيبة في تخزين الملايين منها في ذاكرته ، لإنشاء بنك آلي من المعطيات يحتوي على أهم ما حرر بالعربية مما سينتجه على مر السنين . و هذا البنك الآلي هو تحت تصرف أي باحث في أي مكان في العالم فيمكنه أن يسأل الحاسوب عما يشاء من المعلومات فيجيبه بسرعة الضوء ، خصوصا إذا كان الباحث لاسيما اللغوي قد يقضي الشهور بل السنين في قراءة الأسفار من الكتب حتى يعـــثر على بغيته.

فالاعنماد على مدونة كبيرة للاستعمال الحقيقي للغة العربية هو شرط لازم لتحقيق أولا موضوعية البحث اللغوي وتحقيق نجاعة الوضع والتوليد اللغوي بإعطاء الألفاظ الموضوعة الفرصة لدخولها بالفعل في الاستعمال و إقبال الناس عليها"[12]

و لهذا شرعت بعض المؤسسات العربية في تخزين بعض النصوص العربية التراثية و على معلومات علمية و ثقافية ، فهو مشروع جماعي تتعاضد على إنجازه مؤسسات علمية عديدة مثل : المجامع اللغوية و المنظمات الثقافية و التربوية ، كالمنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، و مكتب تنسيق التعريب ، و الحكومات العربية " لأنه مشروع جدير بأن يشرف عليه لا مركز واحد ولا بلد واحد بل البلدان العربية كلها و في أعلى مستوى مادام هناك إجماع على أهميته القصوى ، و ذلك برفعه للمستوى الثقافي العربي إلى ما يقارب مستوى الغربيين " [13].

أدى ظهور النشر الإلكتروني إلى تأسيس قواعد بيانات تشكل اساس للعديد من الأنشطه المتعلقة باستجلاب المعلومات ، واتخاذ القرارات، وأمكن تحويل العديد من الكتب والدوريات والتقارير والإحصائيات الى شكل الكتروني يسمح باستخدامها عبر الشبكات الرقميه"[14]، و لكن يبقى هذا النشر يقتصر على جهود عربية مستقلة أو فردية خاصة غير مكتملة ، فيحتاج تطوير النشر الإلكتروني إلى المدونة الشاملة للمكانز العربية التي تمثل قاعدة المعطيات اللغوية العامة المجسّدة في الذخيرة العربية ن ويذلك يمكن توحيد طرائق النشر العربي الإلكتروني وتقنيات الحصر والإحصاء

و جعل بعض الكتب المخطوطة الهامة والقيمة في اللغة العربية غير محققة، في متناول الباحث و تسهيل اختيار أفضل الكتب من حيث القيمة العلمية التحقيقات وأحسنها للكتب والمؤلفات ، لأن المؤلف الواحد يمكن أن تجد له عدة تحقيقات على نقيض أن هناك مخطوطات غير محققة ،

آليات النشر الإلكتروني في ظل مشروع الذخيرة العربية

يمكن للنشر الإلكتروني توفير الوقت أكثر في ظل مشروع الذخيرة العربية وذلك من خلال اختصار جهد الباحث لان النشر الالكتروني يغنيه القراءة الكاملة للمحتوى و يمكنه من الحصول على المقاطع او المحتويات التي يريدها مباشرة.وذلك بعد امكانية التعديل في المحتوى سواء بالإضافة أو الحذف ، فإنشاء ذخيرة عربية شاملة تساعد على تخزين المعلومات التي تتميز بها الوسائط الالكترونية و الانترنيت العربي المتفاعل كما يتيح ا للباحثين إمكانية الإطلاع على محتويات المكتبات ومراكز المعلومات و الأرشيف التي تقدم ارصدتها على شكل إلكتروني

وقد يعتمد النشر الإلكتروني في ظل مشروع الذخيرة العربية على حوسبة المواد اللغوية المراد نشرها من خلال وضع قوالب لتحديد ثوابت ومتغبرات اللغة ، وإعداد برنامج خاص باللغة العربية فحسب مستمد من نظرية لسانية عربية أصيلة يمثل المرجعية اللغوية في مداخل هذا البرنامج الإلكتروني الموحّد؛وقد نشمل مجموعة من الأهداف المتوخاة من هذه التجربة أهمّها :

الأهداف التقنية :

- تحويل النصوص الورقية إلى نصوص مطبعية قابلة للمعالجة علة نافدة الوورد
- تعريب المحتوى التقني بدمج الآلية في الأجهزة الالكترونية العالمية المعدة المخزون العربي
- إنجاز منظومة برمجية معلوماتية,تقوم بتحليل الحرف ثم الكلمة,فالجملة باللغة العربية و بالتالي يقوم بتجزئة النص العربي ويسعى إلى تحقيق نسبة جيدة من الدقة أثناء عملية التجزئة، وذلك عن طريق استخدام مجموعة من الخوارزميات مثل: خوارزمية العناصر المتصلة، خوارزمية الصوتية خوارزمية النحوية خوارزمية تتبع السلسلة، وخوارزمية الدلالية
- إدخال البيانات، ومعالجة النصوص المختلفة بالحاسوب.

- تطبيق النظم الآلية على المخطوطات العربية، بهدف حماية التراث الوثائقي العربي و العالمي من التدهور وتيسير الوصول إليه ورفع الوعي بأهميته، ك وذلك بتدعيم مركز المعلومات بتجهيزات تقنية و برامج التعرف الآلي على الكتابة اليدوية العربية
- الأهداف التكنولوجية :
- جعل اللغة العربية تواكب التطور العلمي و التكنولوجي
- استعمال الذكاء الاصطناعي للتعرف الآلي على اللغة العربية
- وضع تقنيات المشابكة ونظم الاتصال في بناء شبكة معلوماتية عربية للتراث الوطني
- الأهداف الثقافية :
- خدمة الحرف العربي ة لغة القرآن الكريم
- إظهار مكانز اللغة العربية التي تعتبر عن ركائز الثقافة والتربية والتعليم و التكوين
- نشر الثقافة العلمية و التقنية في الوطن من خلال التطلع على نصوص المخطوطات القديمة التي يتعذر قراءتها حاليا
- الأهداف الاجتماعية :
- تسهيل عملية التواصل بين الأفراد و توسيع دائرة التخاطب في المجتمع

تحسين الكتابة عند الفرد و زرع حب تعلم الخط العربي و فنياته من خلال التصحيح الذاتي

- لعملية تعلم اللغة العربية و محاكاته للنموذج الفصيح
- .تسهيل دمج اللغة العربية في منظومات التشغيل المعلوماتية سواء كانت فردية أم جماعية,
- إنعاش الاقتصاد العربي من خلال اختزال الوقت و سرعة التنفيذ للإجراءات الإدارية الورقية الخطية في المؤسسات الوطنية العامة و الخاصة

- تيسير إعادة حفظ التراث العربي القديم بطرق تقنية معاصرة
- دعم تسيير المؤسسات ذات الخدمات الوثائقية المتعددة
- توفير الوقت والجهد المستخدم لدى الفرد

الهوامش :

1. سهر إبراهيم حسن، النشر الإلكتروني، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، النشر ع 3س20 ربيع الآخر 1421 هـ ، ص 170 – 186 .
2. براهامي منور ، حمداني محمد ، اللغة العربية في شبكة الأنترنيت : الواقع والآفاق، مجلة اللغة و الاتصال ، جامعة وهران ،جامعة الجزائر ، العدد3 ، ماي 2007 ، ص 12.
3. بشار عباس، دور الإنترنت والنشر الالكتروني، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، م 3 ع ذو الحجة .ينظر الشريف حسن ، أهمية العلاقات المتينة بين مؤسسات البحث وقطاع الإنتاج، ندوة تطبيق نتائج البحوث لتنمية المجتمع العربي، إتحاد مجالس البحث العلمي العربية ، 1987،
4. بشار عباس، دور الإنترنت والنشر الالكتروني، المرجع نفسه
5. http://e-nshr.blogspot.com/
6. http://ar.wikibooks.org/...
7. ولد الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح بمدينة وهران بالجزائر في يوم 8 من يوليه 1927م، وهو من عائلة معروفة نزح أسلافها من قلعة بني راشد المشهورة إلى وهران في بداية القرن التاسع عشر
8. http://www.veecos.net/
9. www.ennokhba.com/vb/showthread
10. ينظرابن جني ، الخصائص ، تحقيق : محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، ج 1 ، ص 33
11. ينظر الجرجاني ، التعريفات ، تحقيق : ابراهيم الأبياري ، 1992، ص 44.
12. –ابن الأكفاني ، إرشاد المقاصد إلى أسنى المقاصد في أنواع العلوم ، تحقيق: عبد المنعم أحمد عمر ، ص 111 .
13. طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة و مصباح السيادة ، حققه : كامل بكري و عبد الوهاب أبوالنور ، القاهرة ، 1968 ، ج 1 ، ص 17 .ينظر دي سوسير ، دروس في اللسانيات العامة ، ترجمة : عبد القادر قنيني ، أفريقيا الشرق ، المغرب ،2008 ، ص 24 . و ينظر أندري مارتني ، مبادئ في علم اللسانيات العام ، ترجمة : أحمد الحمو ، دمشق ، 1985 ، ص 23 . وينظر محمود السعران ، اللغة و المجتمع ، ص 10 .
14. عبد الرحمن الحاج صالح ، مشروع الذخيرة العربية ،دراسة ، مجلة المجمع اللغوي الجزائري ، العدد 2 ، ديسمبر 2005 ، ص 288 .
15. عبد الرحمن الحاج صالح ، مشروع الذخيرة العربية ، ص 287 .
16. عبد الرحمن الحاج صالح ، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية ، موفم للنشر، الجزء الأول ، ص 396 .

عبد الرحمن الحاج صالح ، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية ، الجزء الأول ، ص 399 ينظر سيد فتحي الخولي ، أثر الأنفاق على البحث والتطوير والصيانة والتدريب على أداء شركات القطاع الخاص في المملكة العربية السعودية ، مجلة التعاون الصناعي في الخليج العربي، العدد 55، يناير 1994،.

17. محمد أركون،التأمل الابستيمولوجي غائب عن العرب ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، الأعداد ، 20 ، 21 ، صيف 1982 ، ص 84 ينظر

new scientist magazine ; April 1997 ;translated and published by technology and science ; issue N 44 ;July 1997

18. محمد عابد الجابري ، تطور الفكر الرياضي و العقلانية المعاصرة ، بيروت ، دار الطليعة ، 1976 ، ص 57 .
19. عبد الرحمن الحاج صالح ، مشروع الذخيرة العربية ، ص 287 .

حقيقة صعوبات تعلم الرياضيات عند التلاميذ

Students Difficultiesd Fact At Learning Mathemtics

الأستاذة: د. شريفة شنوف
أستاذة محاضرة، جامعة البليدة(2)

الملخص

إن مجال صعوبات التعلم من المجالات التي شغلت الآباء والمربين والباحتين في ميدان التربية الخاصة لأن نسبة كبيرة من الأطفال تعاني من هذه المشكلة ويكمن الخطر في هذه المشكلة لكونها " صعوبات خفية " حيث أن الأطفال الدين يعانون من صعوبات في التعلم يكونون عادة أسوياء ولا يلاحظ عليهم أي شيء مميز ولا ينتبه المعلم أو الآباء لأي مظاهر غير عادية تستدعي التدخل أو تقديم المساعدة.

ينعتونهم بعد ذلك بالكسل والتخلف وعدم الاهتمام...إلخ فتكون النتيجة الطبيعية لمثل هذه الممارسات الفشل المتكرر والرسوب وأخيرا التسرب المدرسي في حين أن هذه الفئة في حاجة إلى مساعدة تربوية من طرف الأهل والمدرس، وخلق طرق تعليمية مناسبة وتحفيز مستمر، مع عدم الاستسلام أمام النتائج الضئيلة أحيانا، وإثارة الدافعية لديهم بطرق وأساليب متنوعة، والحرص على تقليص الفارق بينهم وبين التلاميذ العاديين حتى لا يفقدهم دلك ثقتهم بأنفسهم.

الكلمات المفتاحية : صعوبات التعلم – طرق التدريس – المساعدة التربوية – الدافعية للتعلم

Abstract

The field of Learning disabilities ,is a field that worries parents , educators and ressearchers in the special education field. Because the majority of childrens suffer from this problem.

The danger resides in the fact that the children with subtiles difficulties are ordinary in general and nothing appears on their usual behaviour.

Teachers and parents do not pay attention to these events for intervention or assistance then the laziness qualified and mental retardation, abscence (looke) of attention … etc are the natural result of these repeated failures practices.

And finally, failling in school in terms of this group are in need of aid to education by parents and teachers, and create an appropriates stimulants methodes of continous learning without accountability toward meagre results sometimes and sensibilize raise motivation how means and variety of methodes and care to reduce the deficit between them and ordinary students in ordre to don't lose self confidance.

Key words: learning difficulties , educating methods , education assistance, learning motivation

مقدمة :

قد تكون صعوبات التعلم نوعية تظهر عندما يفشل التلميذ في أداء المهارات المرتبطة بالنجاح في مادة دراسية بعينها كالقراءة أو الكتابة، وقد تكون عامة كالتي تظهر عندما يفشل التلميذ في أداء المهارات المرتبطة بالنجاح في أكثر من مادة دراسية.

وقد اخترت تسليط الضوء على صعوبات تعلم الرياضيات لما لها من الأهمية البالغة وما تتركه من أثر عميق في نفوس التلاميذ وحتى الأولياء.

أردت الخوض في هذا المجال والبحث عن ماهية صعوبة تعلم الرياضيات، وماهي الاستراتيجيات اللازمة في تعليمها والأسباب التي تؤدي إلى ظهور هذه الصعوبة في التعلم، وذكر أنواعها ثم السمات الخاصة بذوي صعوبة التعلم في الرياضيات وأيضا دورنا كأولياء وكمربين اتجاه هذه الفئة وما هي طرق العلاج الفعالة التي يمكن أن تقدم لهم.

1 صعوبات الرياضيات:

يتحدث وليم عبيد (1966) نقلا عن سامي محمد ملحم عن طبيعة الرياضيات بقوله من الأمور المنطقية أن يعي معلم الرياضيات طبيعة المادة التي يقوم بتدريسها، دلك لأن وعيه ومعرفته بطبيعة الرياضيات يساعده على اختبار أنسب طرق التدريس لتعليم تلاميذه، وبالتالي مساعدتهم على الوصول إلى الأهداف التعليمة المطلوبة.

ومن المعلوم أن الرياضيات علم عقلي مجرد فهو لا يبحث في المحسوسات الحسية لكنه يبحث في الأرقام والنسب كما أن الهندسة لا تبحث في الأشكال الهندسية على أنها مواد حسية مصنوعة من مواد يمكن إحساسها وإنما يتم البحث في الرياضيات في الأعداد على أنها رموز مجردة وفي الأشكال الهندسية على أنها نسب ومساحات، ولذلك يتطلب فهم الرياضيات فهم طبيعة الرياضيات والتي تنطلق من كونه علم عقلي مجرد من المحسوسات وأنه علم تراكمي يتطلب فهم اللاحق منه إدراك السابق من التعلم فهو علم تسلسلي.

والرياضيات تتكون من المفاهيم المجردة كذلك وإن أي ثغرة في تعلمه سيؤثر حتما على التعلم الذي سيلحقه لأنه بطبيعته علم تراكمي مترابط، كل مرحلة مبنية على المراحل السابقة له.

وتقوم الرياضيات في طبيعتها على مجموعة واسعة من الحقائق المتكاملة مثل حقيقة الأعداد والجمع والطرح والضرب والقسمة التي تبنى عليها كل العمليات الرياضية، كما تتطلب الرياضيات كذلك بالإضافة إلى ما سبق حقيقة التقدير (1)

ويتطلب من الطالب قبل تعلم الرياضيات تعلم الأرقام التي تحتاج منه إلى خبرات سابقة تسهل عليه إمكانية إدراك مفهوم العدد.

وتشتمل هذه الخبرات على وصف الأشياء وفق خصائصها وتصنيفها على صورة مجموعات أو أحداث وفق معيار أو أكثر من معايير التصنيف مثل الطول والارتفاع . . . مع القدرة على المقارنة بين الأشياء وفقا لخصائصها والترتيب والمساواة (2)

ماذا نعني بصعوبة تعلم الرياضيات؟

صعوبة تعلم الرياضيات تعني عدم القدرة على استيعاب المفاهيم الرياضية وإجراء العمليات الحسابية والتي قد ترجع إلى اضطراب أو خلل في الوظيفة النمائية.

(dévelop mental), والذي قد يحدث قبل الولادة نتيجة لخلل جيني أو وراثي ,وقد يحدث بعد الولادة نتيجة لكدمات أو إصابات المخ(traumatic brain injury) ويتصف الأطفال ذوو صعوبات الرياضيات باضطرابات أو قصور في عملية

التجهيز المعرفي والتي قد ترجع إلى صعوبات الانتباه، والاحتفاظ به أثناء القيام بالعملية الرياضية، أو تجاهل بعض الخطوات الرياضية، أو صعوبة في التمييز بين الأرقام مثل(91 ,19 ,8 ,7 ,2) (3)

أو صعوبة في فهم الرموز الحسابية واستخدامها أو صعوبة في الكتابة الأفقية أو صعوبة في إدراك العلاقات والاتجاهات عند حل المسائل الرياضية والتي قد ترجع إلى:

-1الخلط بين الآحاد و العشرات و المئات.

-2 صعوبة في التجهيز السمعي.

-3صعوبة في إجراء العمليات الحسابية شفهيا

-4صعوبات العد داخل سلسلة من الأعداد مثل (.............15 ,11 ,7 ,3) بزيادة أربعة كل مرة .

-5صعوبات في الذاكرة و الاحتفاظ بالحقائق الرياضية.

-6نسيان خطوات الحل في المسائل المتعددة الخطوات.

-7صعوبة في إدراك العلاقة بين الأرقام والأشكال .

-8صعوبة في كتابة الأرقام على صورة صحيحة (4)

هناك بالإضافة إلى كل ما سبق بعض الأشياء قد نلاحظها عند الطفل مثلا في بداية تمدرسه (السنة الأولى ابتدائي، السنة الثانية ابتدائي) وهي حفظه للأرقام بصعوبة بالغة، والتمييز بينها صعب، ويبقى فترة طويلة و هو يكتبها بشكل مقلوب مثلا ....7 5 3.

أيضا لا يستطيع هذا الطفل إدراك العدد وسط سلسلة الأعداد مثلا عندما نطلب منه كتابة العدد السابق والعدد اللاحق للعدد يجد صعوبة بالغة في ذلك وعليه، علينا مساعدته بتحديد الاتجاه :مثلا

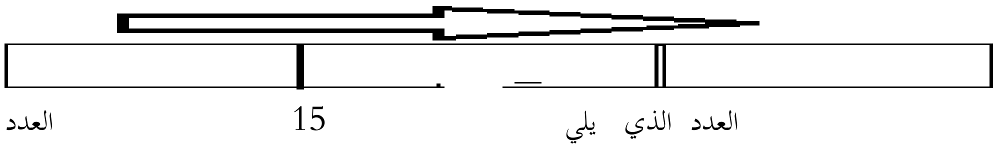

و في أغلب الأحيان هؤلاء الأطفال لديهم مشكل في تحديد الاتجاه يمين يسار و التمييز بين أطول، أكبر أقصر، أصغر .ويتأخر كثيرا تكوينهم لمفهوم الزمن اليوم، البارحة، غدا، الشهر، السنة،(تحديد المدة الزمنية)

وفي مرحلة لاحقة يجدون صعوبة في فهم نص المسألة الرياضية، حتى وإن تمكنوا من آلية الحساب سواء الجمع، أو الطرح، أو الضرب والقسمة .ولا يستطيعون تتبع كل خطوات المسألة، فهم في الغالب لا ينجحون في حل المسألة كاملة، بل يتعثرون في الخطوة الثانية أو الثالثة على أكثر تقدير، إن كان للمسائل أكثر من مطلوب.

ويحتاجون إلى أمثلة توضيحية كثيرة وشرح مفصل، وتذكيرهم بالمعطيات بشكل دائم.

2 أنواع صعوبات الرياضيات:

1.2 صعوبات التمكن من الحقائق العددية الرياضية الأساسية:

تظهر هذه المشكلة في عدم القدرة على الاحتفاظ ببعض العمليات الحسابية، والعمليات الرياضية الأساسية الأربع في تعلم الرياضيات فنجد الأطفال مثلا عند إجراء عمليات الجمع أو القسمة يلجؤون إلى الأصابع أو بعض الإجراءات الأخرى للحصول على الإجابة مما يستدعي منه الحاجة الى أوقات طويلة للوصول إلى الاجابة الصحيحة.

2.2 صعوبات في المهارات الحسابية البسيطة:

يواجه بعض الأطفال إجراء العمليات الحسابية التي تتطلب منه مهارات بسيطة، وتبدو هذه الصعوبة عندهم بشكل متكرر على الرغم من قدراتهم الواضحة في إجراء العمليات الرياضية المتقدمة.

3.2 مفهوم الأعداد

تتطلب عملية الرياضيات إدراك مفهوم الأعداد حتى يتمكن الطفل من عمليات العد، وهذا يتطلب منه إدراك مفهوم العد بعبارة واحد واثنان وثلاثة...... واستخدام الأرقام بصورة متسلسلة مثل1 :،2،3،...4

وإدراك قيمة كل منها، والكمية التي يمثلها كل رقم فيواجه الأطفال صعوبات في إدراك هذه المفاهيم واستخداماتها مما يسهم في صعوبة تعلم الرياضيات وتوظيفها في الحياة اليومية (5)

4.2 صعوبات الترميز الرياضي:

يعد هذا النوع من الصعوبات من أكثر أشكال صعوبات التعلم الرياضي انتشارا بين الأطفال والذي يعود إلى ضعف التطبيقات الرياضية التي تقدم للطلاب، حيث تعتمد الرياضيات في معاملاتها على استخدام الرموز للإشارة للمحتوى .

وضعف التمثيل العقلي المعرفي للمفاهيم والحقائق والمعالجات الرياضية يساهم في صعوبة فهم الترميز الرياضي.

5.2 صعوبات تعلم لغة الرياضيات :

إن التدخل والتشويش في فهم المفاهيم والمصطلحات الرياضية وما يرافقه من شرح لغوي لفظي،- يتطلب تمكن من اللغة-يسبب لهؤلاء الأطفال صعوبات في فهم وتعلم لغة الرياضيات والتي يمكن التغلب عليها من خلال التدريب المتواصل على صياغة الخطوات لفظيا.

6.2 صعوبات العد:

طلاب صعوبات تعلم الرياضيات يواجهون مشكلات في إدراك مفاهيم قواعد العد.

حيث يقوم العد في الرياضيات وفق قواعد محددة مثل عد الشيء مرة واحدة فقط، واستخدام الأرقام في العد بدلا من الحروف مع إدراك لمفهوم أن العد الأخير يدل على عدد المجموعة كلها إضافة إلى إدراك أن عدد الأشياء لا يتطلب فيها الترتيب حيث يمكن أن يبدأ العد من اليمين أو من اليسار .أو العد بصورة عشوائية دون تكرار عد الشيء نفسه مع القدرة على تحرير الأعداد بمعنى أن العدد واحد هو رقم قيمته واحد سواء كان المعدود كتابا أم انسانا.

7.2 صعوبات الإدراك البصري المكاني للأشكال الهندسية :

يظهر لدى العديد من الأطفال الذين يعانون من صعوبات في التعلم الرياضي صعوبة إدراكية تتمثل في التنظيم البصري المكاني الحركي للأشكال الهندسية، والتي قد تعود إلى ضعف في التمييز بين المفاهيم المتعلقة بالأشكال الهندسية الرياضية مثل معين، متوازي الأضلاع، صعوبة في إدراك معاني الأرقام، أو تعود لصعوبات في التمثيل المعرفي للأشكال أو تعود لصعوبات في كتابة الأرقام الرياضية والتعبير عنها والذين غالبا ما يكون لديهم اضطرابات إدراكية تعود إلى خلل وظيفي في النصف الأيمن من المخ. (6)

8.2 الارتباك في تحديد الاتجاه :

لا يستطيعون تحديد مكان البدء بأجراء العملية الحسابية خاصة في حال وجود عدة منازل وتظهر المشكلة أكثر في حالة الطرح والقسمة الطويلة.

9.2 صعوبات الذاكرة قصيرة المدى:

تخلق الذاكرة قصيرة المدى عدة صعوبات من خلال تأثيرها القوي في كيفية معالجة الطالب للأرقام والتي يزداد تأثيرها في حال وجود ضعف في الذاكرة طويلة المدى، فالتلميذ ذو الذاكرة قصيرة المدى الضعيفة لا يستطيع حل العملية الحسابية التالية 47 + 78عقليا دون استخدام الورقة والقلم لأن هذه العملية تحتاج إلى تتبع مجموعة متسلسلة من الخطوات إذا فقد إحداها كان حله خاطئا (7)

3 . أسباب و عوامل صعوبات تعلم الرياضيات:

لابد في الخوض في الأسباب والعوامل التي تساهم في تفاقم مشكلة صعوبات التعلم، مع أن تفسيرها غير واضح تماما نظرا لحداثتها والتباسها بمفاهيم أخرى كالتخلف العقلي من جهة، والاضطرابات السلوكية الانفعالية من جهة أخرى، ومع ذلك فقد أجمعت العديد من الدراسات والبحوث في هذه المواضيع على أن هناك أسبابا مباشرة مسؤولة عن حدوث الصعوبة التعلمية بالإضافة إلى العوامل التي لا تتسبب فيها بل تهيئ وتمهد لوجودها واستمرارها، وفيما يلي عرض لهذه الأسباب والعوامل:

1.3 الأسباب المباشرة:

1.1.3 التركيب البنائي و الوظيفي للمخ :

إن الخلل في التركيب البنائي والوظيفي للمخ، يعد من الأسباب المباشرة لصعوبات التعلم، وهذا من الأسباب المباشرة لصعوبات التعلم، وهذا الخلل أو الإصابة المخية يتعرض لها الطفل قبل الولادة أو أثناها أو بعدها وذلك على النحو الآتي:

- **أ .الإصابة قبل الولادة:**

إن طوال فترة الحمل قد يعرض نمو مخ الجنين لحدوث بعض الاختلالات أو التفكك، فإذا حدث هذا الاختلال في مراحل الحمل المتأخرة بعد أن أصبحت الخلايا العصبية متخصصة فقد يحدث اضطراب في ترابط هذه الخلايا مع بعضها البعض يؤدي إلى ظهور صعوبات التعلم عند الأطفال .وقد ترجع الإصابة قبل الولادة إلى ما يأتي:

-وجود مضاعفات تحدث للجنين أثناء الحمل ، ففي بعض الحالات يتفاعل الجهاز المناعي للأم مع الجنين ، كما لو كان جسما غريبا يهاجمه ، و هذا التفاعل يؤدي إلى اختلال في نمو الجهاز العصبي للجنين.

- سقوط الام الحامل قد يؤدي إلى ارتطام رأس الجنين و بالتالي إلى إصابة المخ.

-نقص التغذية لدى الأم أو سوء تغذيتها أثناء فترة الحمل و كذلك إصابتها ببعض الأمراض في هذه الفترة.

-تأثير التدخين أو الخمور و بعض أنواع العقاقير ، إذ تبين أن كثرة تناول الأدوية أثناء الحمل تصل إساءتها إلى الجنين مباشرة ، و يعتقد العلماء أن الأمهات اللائي يدخن أثناء الحمل يلدن أطفالا بوزن أقل من الوزن الطبيعي ،و هذا اعتقاد هام لأن المواليد ذوي الوزن الصغير أقل من 2.5 كلغ يكونون عرضة للكثير من المخاطر و من ضمنها صعوبات التعلم.

كذلك فإن تناول الكحوليات أثناء الحمل قد يؤثر على نمو الجنين ويؤدي إلى مشاكل في التعلم والانتباه والذاكرة والقدرة على حل المشكلات في المستقبل.

ولهذا وتجنبا للأضرار المحتملة على الجنين يجب على الأمهات تجنب السجائر أو الخمور أو أي عقاقير أخرى أثناء الحمل.

- **ب .الإصابة أثناء الولادة** :إن الإصابة التي قد يتعرض لها مخ الجنين أثناء عملية الوضع قد ترجع إلى سبب من الأسباب الآتية :

-التواء الحبل السري حول نفسه أثناء الولادة ، مما يؤدي إلى نقص مفاجئ للأكسجين الواصل للجنين و هذا يؤدي بدوره إلى خلل في عمل المخ و بالتالي إلى صعوبة التعلم في الكبر.

- إصابة رأس الجنين بآلة من الآلات الطبية التي تستخدم في عملية الولادة مما يؤدي إلى إصابة المخ.

ج–الإصابة بعد الولادة :يولد الطفل سليما ولكنه قد يتعرض بعد ولادته لبعض الحوادث التي قد تؤدي إلى إصابة المخ كالسقوط أو الارتطام، أو قد يتعرض لأحد أمراض الطفولة التي يمكن أن تؤثر على المخ مثل التهاب الدماغ، أو التهاب السحايا أو الحصبة أو الحمى القرمزية، وهذه الأمراض يمكن أن تؤثر على المخ وغيره من أجزاء الجهاز العصبي المركز ي. (8)

2.1.3 الأسباب الوراثية الجينات :

لقد بينت بعض الدراسات والبحوث أن صعوبات التعلم قد ترجع إلى سبب وراثي بدليل وجود تعاقب هذا المشكل التعليمي بين أجيال الأسرة وانتشاره بين أفرادها.

والأمثلة على دلك كثيرة و عديدة منها :أن الأطفال الذين يفتقرون إلى بعض المهارات المطلوبة للقراءة مثل سماع الأصوات المميزة والمفضلة للكلمات من المحتمل أن يكون لدى أحد الآباء مشكلة مماثلة.

-عندما يعاني أحد الآباء من التوائم المتماثلة في صعوبات في التعلم في جانب من المهارات الأكاديمية فإن الأخر قد يعاني من الصعوبة ذاتها

3.1.3 الأسباب الحيوية الكيميائية

من العوامل التي قد تتسبب في صعوبات التعلم اضطراب التوازن الكيميائي الحيوي في الجسم علما أن جسم الإنسان يحتوي على نسب محددة من العناصر الكيميائية الحيوية التي تحفظ توازنه وحيويته ونشاطه وأن الزيادة أو النقص في معدل هده العناصر يؤثر على خلايا المخ فيما يعرف بالخلل الوظيفي المخي البسيط.

وكذلك حالة اضطراب إفرازات الغدد النخامية والدرقية وحارات الدرقية هذا الاضطراب الذي يمكن أن يؤثر سلبا على نمو الجهاز العصبي المركزي بشكل يحدث صعوبات التعلم.

(1)

2.3 الأسباب غير المباشرة:

وهي الأسباب التي تهيئ وتمهد لوجود الصعوبات في تعلم الرياضيات نذكر منها ما يأتي:

.1.2.3 العوامل المدرسية :

إن الاهتمام الكبير بالعلامات التي يجب الحصول عليها من قبل التلميذ والتي تحدد مستقبل التلميذ التعليمي حيث يتم تحديد مستقبل التلميذ وفقا لما يحصل عليه من علامات في مراحله الدراسية حتى انعكس ذلك الأمر على اهتمامات الأسرة ليصبح منصبا نحو العلامات بدلا من مقدار المعرفة التي جناها التلميذ من المنهاج و الطريقة التي يقدم بها والذي أفرز ظواهر سلبية اقتصادية وتربوية و اجتماعية بالإضافة إلى الظواهر النفسية التي تترك أثارها على التلميذ و الأسرة سواء على المدى القريب أو البعيد والذي يصبح حملا ثقيلا على التلميذ نفسه مما يدفعه إلى تكوين صورة سلبية عن نفسه وعن المادة التعليمية.

وقد أفرزت عمليات الاهتمام بالعلامة كمؤشر للتحصيل العديد من الظواهر التربوية السلبية كان من بينها انتشار الدروس الخصوصية و التعليم في المترل و تراجع فاعلية عملية التعليم داخل الغرفة الصفية وانتقالها إلى المترل وانتشار الملخصات,وتقلص جهد التلميذ ودوره في استيعاب المادة العلمية,وظاهرة التركيز على العلامات النهائية والتفوق الزائف وغيرها من الظواهر التي تسهم في تأخير واستخدام الرياضيات كوظيفة حياتية وعملية عقلية مرضية مم يساهم في زيادة صعوبة تعلم الرياضيات (10)

2.2.3. العوامل الاجتماعية :

تلعب الثقافة الاجتماعية دورا هاما وبارزا في التأثير على تطلعات وطموح التلميذ وتوجيهه في الحياة وما يختاره إذ تتجه اختيارات وتفصيلات أفراد ذلك المجتمع إلى الأنشطة السهلة التي تحقق الطموحات والتطلعات بأقل جهد بغض النظر عن الطبيعة النوعية لهذه الأنشطة ومدى ملامتها لاستعدادات الأفراد وقدراتهم ومستويات تأهيلهم من ناحية ومدى تلبيتها لحاجات المجتمع ومواءمتها لحركته وتقدمه من ناحية أخرى، وتكمن تلخيص العوامل المؤدية إلى صعوبات التعلم الخاصة بالرياضيات بالنقاط الرئيسية التالية.

-ضعف أو سوء الإعداد السابق لتعلم الرياضيات.

-اضطرابات اللغة وصعوبة قراءة المشكلات الرياضية.

-الافتقار إلى إدراك مفهوم الزمن .

-اضطرابات ومشكلات الذاكرة.

-اضطرابات في تعلم استراتيجيات الرياضيات

-قلق الرياضيات.

بالإضافة إلى كل ما سبق الظروف الاقتصادية والاجتماعية للأسرة قد تسهم في حدوث صعوبات التعلم واسمرارها ومن بينها تدني المستوى المعيشي للأسرة، ومستواها التعليمي، النقائص الولادية العقلية كالعته والغباء، الخلافات بين الوالدين، أو قلة اهتمامهما ومتابعتهما لأبنائهم.

4. *سمات التلاميذ ذوي صعوبة تعلم الرياضيات*

غالبا ما تكون المشكلات الخاصة بصعوبات التعلم عامة خفية وغير واضحة للمدرسين والاولياء لان ذوي صعوبات التعلم يتمتعون بصحة جسمية جيدة من حيث الابصار والسمع وغيرهما من الخصائص.

ومع ذلك أهم خصائص تميزهم عن غيرهم ويمكن عرضها بإيجاز على النحو الاتي حتى يتمكن المهتمون وخاصة المدرسين من التعرف على هذه الفئة:

-يتميز الأطفال الذين يعانون من صعوبات مركبة بشكل عام بضعف الاصغاء و التركيز و كثرة النشاط و الاندفاعية و يطلق على تلك الظاهرة اضطرابات الاصغاء و التركيز او الحركة الزائدة و هي ظاهرة مركبة من مجموعة صعوبات تتعلق بالقدرة على التركيز و السيطرة على الدوافع و درجة النشاط.

وتكون هذه الظاهرة عادة قائمة بحد ذاتها كإعاقة تطويرية مرتبطة بأداء الجهاز العصبي ولكنها كثيرا ما تترافق مع الصعوبات التعلمية وليس كل من يتصف بتلك الظاهرة يعاني بالضرورة من صعوبات تعلمية ظاهرة.

-يفتقر هؤلاء إلى التنظيم و يواجهون مشكلة في توظيف الاستراتيجيات الملائمة لحل المشاكل التعليمية المختلفة فقد يقومون بتوظيف استراتيجيات بدائية و ضعيفة لحل مسائل الحساب و فهم المقروء.

-يصعب عليهم فهم التعليمات خاصة التي تعطى لفظيا و لمرة واحدة من قبل المدرس بسبب مشاكل التركيز و الذاكرة كما ان البعض منهم لا يفهمون التعليمات المطلوبة منهم كتابيا لذا يلجؤون إلى السؤال المتكرر للمدرس او تنفيذ التعليمات حسب فهمهم الجزئي أو التوقف عند التنفيذ في انتظار إرشادات فردية من المدرس.

-البطء الشديد في أداء المهمات التعليمية التي تتطلب تركيزا متواصلا و جهدا عضليا و ذهنيا في نفس الوقت

-عدم المجازفة و تجنب أداء المهام خوفا من الفشل فهذا النوع من التلاميذ لا يجازف ولا يخاطر في الاجابة عن أسئلة المدرس المفاجئة و الجديدة.

-صعوبة تكوين علاقات اجتماعية سليمة و هي نقص في مهارات الفرد الاجتماعية يؤثر على جميع جوانب حياته و لقد أشارت الدراسات إلى أن نسبة 34% إلى 59 % من التلاميذ الذين يعانون من الصعوبات التعلمية معرضون لمشاكل نفسية و اجتماعية كالانعزال و الاكتئاب و غيرها.....

ومشاكل هؤلاء الإفراد في التأقلم مع المتطلبات المدرسية تحبطهم بشكل كبير حتى أنها توقف رغبتهم في الظهور والاندماج مع الآخرين (11)

ومن بين السمات الأكثر شيوعا عند ذوي صعوبات تعلم الرياضيات:

-ضعف في ذاكرة قصيرة المدى مما يسبب صعوبة في استقبال و تجهيز العمليات الحسابية

-ضعف في الذاكرة الرقمية و التي تبرز على صورة عدم القدرة على حفظ و تذكر المفاهيم الرياضية و ترتيب و اجراء العمليات الحسابية و حقائق الجمع و الطرح و الضرب و القسمة

-صعوبة في إدراك الصور الكلية أو علاقة الكل بالجزء أو الجزء بالكل.

-صعوبة في تذكر الأحداث والحقائق التاريخية ونتائجها.

-صعوبة في تذكر واسترجاع الأسماء.

-القلق عند العمل تحت إجبار وضغط الوقت.

-صعوبة في تذكر قواعد الألعاب الرياضية.

-صعوبة في جمع وطرح وقسمة الكسور العشرية.

-صعوبة التحويل بين وحدات الأطوال والمساحات والحجم (12)

والفشل في تعلم المفاهيم الرياضية يؤدي إلى اليأس من اكتساب الرياضيات، ويشعر هؤلاء التلاميذ دائما بالحاجة إلى المعلم في مساعدتهم على حل المسائل، وذلك يسبب لهم تدني الدافعية نحو تعلم الرياضيات

ويجب الذكر أن هذه الخصائص ليست بالضرورة أن تظهر في تلميذ واحد، وإنما قد يظهر جزء منها في تلميذ أخر.

وما تجدر الإشارة إليه أيضا أن هذه الصفات شائعة جدا في المراحل المبكرة من عمر الطفل العادي، وتعد طبيعية في ذلك العمر وما يميز وجودها لدى التلاميذ ذوي الصعوبات التعلمية هو أنها تستمر لديهم حتى سن متقدمة إذا لم يتم التدخل والعلاج من طرف الأولياء والمدرس.

5. علاج صعوبات التعلم الخاصة بالرياضيات عموما والحساب خصوصا

ومن هذه الطرق :

-فاعلية التلميذ وعدم سلبيته وتفاعله مع الدرس والمدرس وقيامه بالأنشطة التعلمية.

-زيادة زمن التعلم من خلال توفير الوقت الكافي لتدريس الرياضيات مع تقسيم التلاميذ إلى مجموعات صغيرة يتعاون أفرادها على حل المسائل.

-استخدام أمثلة واقعية من خلال المواقف الحياتية اليومية للطالب مما يسهل عليه إمكانية استيعاب المفاهيم الجديدة.

-التنويع في أساليب التعزيز من خلال قيام المعلم بتدريب تلاميذه على الخطوات الصحية للحل بغض النظر عن الإجابة مع التعزيز المعنوي أو المادي الرمزي.

-توظيف التعليم الفعال من خلال تقسيم الحصة الدراسية إلى أجزاء كل جزء يعبر عن خطوة تمهد هذه الخطوة لما يليها من الخطوات اللاحقة ,مع التركيز على تدريس المهارات الرياضية الأساسية كمهارات محددة بالنسبة لتلاميذ ذوي صعوبات التعلم.

-يجب أن يكون المدرس على علم بمستوى التلميذ في مجالات التصنيف والعلاقات التطابقية و العد التسلسلي والتذكر والمرونة والاسترجاع,لأن ذلك يساعده في تحديد شكل التعديلات التي ينبغي إجرائها لتحسين مستوى الأداء عنده , لأن ذلك يتطلب تطوير مفاهيم الأعداد مثل صغير وكبير والصفات مثل اللون و الحجم و الشكل مما يتطلب توفير حصص دراسية أطول من الحصص العادية .

-ولكي يتم حفظ الحقائق الأساسية يجب استخدام الألعاب و التمرين المتواصل ,أو تقديمها على نحو متسلسل ليسهل حفظها.

-يجب دائما أن يحدد المدرس المهارات السابقة التي يعرفها التلميذ

-أما في حل المسائل الحسابية أو المشكلات فعلى المدرس تكليف التلاميذ قراءة المشكلة بتمعن,وتوجيه تركيز التلاميذ إلى المعلومات والكلمات المهمة و المفيدة للوصول إلى الإجابة الصحيحة واستبعاد المعلومات والكلمات التي لها صلة ,والطلب من التلميذ التعبير عن الحل شفويا ,أو استخدام مخطط أو رسم مناسب والقيام بالعمليات الحسابية الضرورية للحل و التحقق من معقولية الإجابة.

وبالطبع يجب تقديم مسائل نموذجية لهذه الفئة وأؤكد دائما على ضرورة التوضيح المفصل والأمثلة الكثيرة.

6 دور المربين تجاه ذوي صعوبات تعلم الرياضيات :

1.6 دور المدرس:

-اكتشاف نواحي القوة والضعف لدى التلاميذ وإعداد برامج إثراء أو تقوية أو علاج لها.

-ضرورة جلوس التلميذ في الصف الأمامي المواجه للسبورة بعيدا عن كل ما يشتت الانتباه.

-مراعاة الفروق الفردية بين التلاميذ.

-تكليف التلميذ القيام بأنشطة خاصة به ومناسبة لقدراته ومتابعته.

-تقديم أعمال وواجبات منزلية تمس مواطن الضعف عند التلميذ والحرص على القيام بها.

-التعاون مع الأولياء خاصة إذا كانوا على وعي بحالة التلميذ .أو توجيههم لذلك.

-تعزيز نجاح و تحسن التلميذ.

-إشراك التلميذ في الأنشطة المختلفة بالمدرسة وتكليفه بالقيام ببعض الأعمال لبث الثقة في نفسه وحمايته من الانسحاب من جماعة الصف.

والمدرس الكفء هو الذي ينتبه لهذه الحالات ويتعامل معها و يسعى دائما لتحسين مستوياقم وتوصيل المعلومة لهم، ولا يلهث فقط وراء إكمال البرنامج الدراسي أو يتعامل فقط مع النخبة من التلاميذ لأن ليس كل من له صعوبة في التعلم يجب أن يوضع في

قسم خاص بل ذلك يتحدد وفق درجة الحدة، وأغلبهم يدرجون في الأقسام العادية بموافقة الأخصائيين لأنه يمكنهم مواكبة التلاميذ العاديين وإنما توجه لهم عناية واهتمام بالغين.

2.6 دور الوالدين:

-عدم الخجل من حالة ابنهما.

-السعي دائما لتطوير قدراته ,والقراءة المستمرة عن موضوع صعوبات التعلم والتعرف على أسس التدريب والتعامل المتبعة للوقوف على الأسلوب الأمثل لفهم المشكلة.

-الاتصال الدائم بالمدرسة لمعرفة مستوى الطفل ,أو أي أخصائي له علاقة به.

-عدم مقارنته بإخوانه أو أصدقائه خاصة أمامهم.

-عدم توجيه ملاحظات جارحة له ونعته بالبليد أو ثقيل الفهم...........الخ

خلاصة:

يعد هذا العرض لخصائص هذه الفئة والسمات الخاصة بهم. أود القول إن لطرق التدريس واستراتيجياته أهمية بالغة في الوقوع في هذا المشكل أو تجاوزه بسلام فعلى المدرس قبل كل شيء أن يراعي الفروق الفردية بين التلاميذ ويتقدم في الدروس في حدود استيعابهم وليس تقدم سريع مخافة ألا يكمل المقرر .

هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى عليه ان يتأكد من اكتساب تلاميذه للمتطلبات والمهارات السابقة في الرياضيات وينتقل تدريجيا من المحسوس إلى المجرد.

ويمكنه استخدام الصور والأشكال والرسوم الممثلة لأشياء حقيقية أو فعلية ثم يعمل على استخدام الرموز والمفاهيم الرياضية بغرض تعميق فهم وبناء المهارات والمفاهيم الرياضية والتنويع في طرق التدريس والتقييم المستمر لهذه الممارسات بغرض معالجة نقاط الضعف وتعزيز نقاط القوة.

وعليه أن يحدد إلى أي مدى تؤثر القدرة اللغوية أو تسهم في حل التلاميذ للمشكلات الرياضية فقد يكون أساس الصعوبة في الرياضيات هو ضعف لغوي وعليه يجب تعزيز النمو اللغوي لديه.

أيضا على المدرس أن يتنبه لتلاميذه إن كان عندهم مشكل في الانتباه والتركيز، والقدرة على المتابعة أم لا؟ .

وأن يعمل دائما على ترسيخ المكتسبات السابقة ودعمها لتكون أرضية صلبة لما يلحقها. فالرياضيات علم تراكمي متسلسل متكامل، وعليه الانتقال بالتلميذ تدريجيا وربط المادة العلمية بالواقع دائما.

والعمل على تنمية القدرة الرياضية للتلميذ من خلال الممارسة المستمرة لحل المشكلات الرياضية، وبعث الثقة في النفس لدى التلاميذ من خلال التشجيع وعدم الوقوف أمام العثرات فقط.

من جهة أخرى على الأولياء التعاون مع المدرسين وتخصيص الوقت الكافي للطفل في الشرح المفصل وحل التمارين ووضعه دائما في وضعيات امتحان في البيت وعدم تعنيفه دائما.

بل الوقوف عند نقاط ضعفه وعلاجها وتداركها مستقبلا، بصبر وإرادة كبيرتين.

الهوامش :

(1) احمد قحطان الظاهر صعوبات التعلم دار وائل للنشر الأردن 2001 ص 170

(2) سامي محمد ملحم, صعوبات التعلم دار المسيرة للنشر و التوزيع الأردن ط 1 2002 ص315

(3) أسامة محمد البطانية **وآخرون** صعوبات التعلم النظرية و الممارسة دار المسيرة للنشر و التوزيع ط2 2007 **ص113**

(4) السرطاوي و السرطاوي مدخل الى صعوبات التعلم مكتبة الثقافة الأردن 2001 ص 120

(5) السرطاوي و السرطاوي مدخل الى صعوبات التعلم مكتبة الثقافة الأردن 2001 ص 125

(6) الزياد فتحى صعوبات التعلم الأسس النظرية و الشخصية العلاجية سلسلة علم النفس المعرفي العدد 4 كلية التربية جامعة المنصورة 1998

(7) تيسير مفلح لجوافحة علم النفس التربوي وتطبيقاته في مجال التربية الخاصة دار المسيرة للنشر و التوزيع الأردن ط 1 2004 ص 45

(8) جحيش جميلة : صعوبات التعلم : الجزائر المركز الوطني للوثائق التربوية العدد 16 الجزائر 2005 ص 88

(9) جحيش جميلة : صعوبات التعلم : الجزائر المركز الوطني للوثائق التربوية العدد 16 الجزائر 2005 ص 89

(10) 10 سامي محمد ملحم, صعوبات التعلم دار المسيرة للنشر و التوزيع الأردن ط 1 2002 ص 65

(11) جحيش جميلة : صعوبات التعلم : الجزائر المركز الوطني للوثائق التربوية العدد 16 الجزائر 2005 ص 90

12 الزياد فتحى صعوبات التعلم الأسس النظرية و الشخصية العلاجية سلسلة علم النفس المعرفي العدد 4 كلية التربية جامعة المنصورة 1998

المراجع :

- أحمد قحطان الظاهر : صعوبات التعلم : الأردن : دار وائل للنشرة 2001
- أسامة محمد البطانية و آخرون : صعوبات التعلم النظرية و الممارسة دار المسيرة للنشر عمان ط2 :2007
- تيسير مفلح لجوافحة : علم النفس التربوي وتطبيقاته في مجال التربية الخاصة الأردن دار المسيرة ط1 : 2004
- السر طاوي وآخرون : مدخل إلى صعوبات التعلم : الأردن مكتبة الثقافة : 2001
- سامي محمد ملحم : صعوبات التعلم : الأردن دار المسيرة للنشر والتوزيع : ط1 2002.
- جحيش جميلة : صعوبات التعلم : الجزائر المركز الوطني للوثائق التربوية العدد 16: 2005.
- الزيات فتحي صعوبات التعلم الأسس النظرية والشخصية العلاجية : سلسلة علم النفس المعرفي العدد 4 كلية التربية جامعة المنصورة 1998

الأساس الأيديولوجي والمقاربة العلمية (السوسيولوجية) للعنف

Ideological Foundation And Scientific Approach (Sociological) Of Violence

الدكتورة :مداني سليمة
قسم العلوم الاجتماعية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة البليدة 2

ملخص:
العنف موضوع اهتمام واسع اليوم في مجتمعاتنا. فالحروب، التصفيات العرقية، المجاعات، التعصب، العنف الشبابي، سوء المعاملة الأسرية، جزء من حياتنا اليومية. العنف في كل مكان والإعلام جعله مبتذل وعادي (Banaliser) لما أصبح موضوعا مفضلا له. يهدف هذا العمل إلى اقتراح مجموعة من التعاريف للألفاظ المرتبطة بالعنف والعدوانية وإظهار الطابع القيمي/المعياري لهذه التعاريف. سيهتم أيضا بتقرير وعرض نماذج التمثلات (الأطر النظرية) المقترحة من طرف مختلف العلوم (المقاربة الأنتروبولوجية، علم الطبائع، وجهة النظر النفسية والمقاربات السوسيولوجية) التي تناولت الموضوع بالتفسير والبحث في أسبابه وآلياته.
الكلمات المفتاحية: العنف، العدوانية، المقاربات النظرية للعنف، العنف الرمزي.

Abstract:
Violence is a subject of wide interest in our societies today. Wars, ethnic playoffs, famines, intolerance, youth violence, ill-treatment in family, became a part of our everyday lives. Violence is everywhere and the media make it tacky and normal since it has become a favorite subject of his.
This work aims to propose a set of definitions for concepts associated with violence and aggression and to show moral character/standard for these definitions.
This paper also reports and display representations and models (theoretical frameworks) proposed by the various sciences (anthropological approach, aware of complexions, and the point of view of psychological and sociological approaches) which addressed an interpretation of the subject and make research in his causes and mechanisms.
Keywords: Violence, Aggressivity, Theoretical Approaches Of Violence, Symbolic Violence.

1.مقدمة

العنف موضوع اهتمام واسع اليوم في مجتمعاتنا. فالحروب، التصفيات العرقية، المجاعات، التعصب، العنف الشبابي، سوء المعاملة الأسرية، جزء من حياتنا اليومية. العنف في كل مكان والإعلام جعله مبتذل وعادي (Banaliser) لما أصبح موضوعا مفضلا له. العنف يمس الحقوق الأساسية لكل واحد، الحق في الأمنوالأمان، مثلما ينص عليه الدين الإسلامي الحنيف(المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده) والمواثيق الدولية،المادة 3 من بيان حقوق الإنسان تنص على أن: "كل شخص له الحق في الحياة، الحرية والأمن على شخصه.

بعد أن تم تعيينه كآفة عالمية حقيقية، "تحد على مستوى الكوكب كله" حسب تعبير المنظمة الدولية للصحة، أصبح العنف يعتبر بمثابة إحدى المسائل الأكثر أهمية للصحة العامة الدولية.

غير أن ماهية العنف وتصنيف الأفعال العنيفة ليس محل إجماع لأنه يقوم على اعتبارات فلسفية ايديولوجية، دينية، قانونية يجدر توضيحها.

أيضا ظاهرة العنف جد معقدة، من الضروري القيام بجهد فكري للتمكن من فهم مختلف مركباتها. فلما يظهر العنف في فضاء معين، لابد من فهم ظاهرة العنف نفسها، وأيضا الوسط الذي نمت وتشكلت فيه، دون الاهتمام فقط بفحص أثارها ومخلفاتها.[1]

2.منطلقات بناء مفهوم العنف

مفهوم العنف معقد بسبب الأشكال العديدة التي يكتسيها والطريقة التي يبنى عبرها هذا المفهوم. نتيجة ذلك هنالك العديد من أنواع العنف وتعاريف مختلفة، متنوعة وبعض الأحيان متضادة.[2]

أ. الاستخدام الشائع

تعرف القواميس الحديثة العنف على أنه حالة (Un état)، قوة شديدة غالبا مدمرة، لصدمة، لخاصية، لرغبة جامحة، ...، وكامتداد لهذا المعنى، يعين العنف مبالغة، نشاط أو قوة مفرطة، نقول مثلا: تعبير لفظي عنيف.

العنف هو أيضا حدث (Un fait)، يميزه التعسف أو التعدي في استعمال القوة بهدف مضادة أحدهم عكس إرادته (اغتصاب ملك الغير)، أو الهجوم ضد أشخاص أو ممتلكات، بهدف تدميرهم، الاستحواذ عليهم، إهانتهم.

العنف هو السلوك الذي يتسبب في أذية وأضرار للأشخاص وإتلاف للممتلكات. هنالك العديد من حالات العنف الإجرامي. كل الجرائم ضد الأشخاص (القتل، الاغتصاب، السرقة والسطو والهجوم الخطير) أمثلة للعنف الإجرامي.[3]

ولكن العنف أيضا جزء من حياتنا اليومية، دون أن نخرق أي قانون. الكثير من الرياضات المحببة لدينا (مثل كرة القدم) تتطلب العنف. مثلما تفعله بعض أشكال الترفيه والتسلية في الحياة (الفدرالية العالمية للمصارعة) والكثير من الأفلام وألعاب الفيديو تقدمنا من خلال صورة عنيفة.

ب. المعنى القانوني

يبحث القانون في تعيين ما العنف بالضبط، أو بشكل أدق أشكال العنف التي بموجبه تكون موضوع عقوبة أو تجريم.وهي عموما:"الأفعال التي من خلالها يتم التعبير عن عدوانية (l'Agressivité) ووحشية(la Brutalité) الإنسان الموجهة ضد بني جنسه والتي تتسبب لهم في جروح/أضرار (Lésions)، إصابات أو ارتجاجات (Traumatismes) خطيرة إلى حد ما.

ت. الأساس الأيديولوجي لتعريف العنف

مثله مثل الطبيعي أو العادي والمرضي (Pathologique)، يتوقف فهم، إدراك وتصور العنف على القيم والمعايير الفاعلة داخل مجتمع أو مجموعة ما (Groupe)في عصر معتبر أو معين.

فكرة العنف محملة بقيم إيجابية أو سلبية، مرتبطة بالوضعيات التي يحكم عليها بأنها عادية أو قانونية. هذه المعايير يمكن أن تكون مؤسساتية، قانونية، دينية، ثقافية، شخصية. إنها تقحم خطر احتمال اللامتوقع(عدم الاستعداد والقدرة)، وقوع خلل في النظام (الفوضى)، الدمار الكلي (Chaos).

وبهذا نجد أن العنف يحمل في طياته فكرة مخالفة معيار أو قيمة قائمة.

لما نتحدث عن العنف، من الصعب إذن فصل الأحداث عن الطريقة التي تدركها بها عقولنا(Façon d'appréhender les faits). وعندها يصبح من المستحيل إعطاء العنف تعريف عام أو موحد.

ث. العنف والمعايير الاجتماعية

لما نحاول تقديم تعريف عملي للسلوك العنيف، نصطدم مباشرة بمشكل المعايير (Les critères) والإطار المرجعي الذي نعتمده. لا يبدو الفعل العنيف أبدا عنيف جدا عند مرتكبه مثلما هو الحال بالنسبة للضحية. ومن المسلم به، حاليا، أن فعلا لا يمكن الحكم عليه بأنه عنيف إلا بالرجوع إلى معايير(Normes)، إلى ظرف أو وضعية، إلى سياق (Un contexte). إن فعلا عنيفا، هو قبل كل شيء، فعل مخالفة (Acte de transgression). وبذلك، فإن نفس الفعل الممارس على ملعب (Rugby)، في ساحة مدرسة أو في مجلس النواب، لن يعتبر ولن ينظر إليه بنفس الطريقة، على أنه فعل عنيف.[4]

يبقى أنه بمقدورنا تقييم درجة عنف فعل مرتكب في مجتمع ما بالنسبة أو بالنظر للعقوبة التي يفترض أن تلحق بمرتكبه. دراسة مظاهر العنف تسمح إذن بدراسة القيم والمعايير الاجتماعية وترجماتها القانونية داخل المجتمع. يحيل العنف وفق هذا المعنى إلى الانحراف. إنه في هذا الأفق الذي تندرج أعمال (Norbert Elias)حول التطورات التاريخية لمظاهر العنف الفيزيقي (الجسدي) في الغرب.

أيضا تجدر الإشارة إلى وجود محوري بحث سوسيولوجي حول العنف. قبل كل شيء سوسيولوجيا تجعل من العنف موضوع دراسة أمبريقي مركبة من أعمال بمنهجيات جد متنوعة، بدأ بمنهجية دوركايم التفسيرية، مرورا بسوسيولوجيا تأويلية لماكس فيبر (Weber)، التفاعلية لمدرسة شيكاغو، إلخ. إنها مرتبطة بملاحظة أحداث العنف، ضد الأشخاص، التي يسهل التعرف عليها، ثم تأويلها.

محور بحث ثان يسمح بإلقاء الضوء على قيم ومعايير المجتمعات، بالإضافة إلى نقائصها المحتملة. ويصبح بذلك وسيلة لدراسة التلاحم الاجتماعي، بالإضافة إلى طبيعة السلطة الحاكمة.

محوري البحث هذان، هما إذن مرتبطان كلاهما باعتبارات سياسية، وهو ما يجعلهما يسمحان بنفوذ اعتبارات أيديولوجية. العنف يمس فعلا بالضرورة مسألة الأخلاق، التمثلات الجد العميقة للخير والشر، وبالتالي لتصورات العالم. وعالم الاجتماع بعيد عن أن يكون معصوم أو خال من مثل هذه الاعتبارات. لا يمكنه أن يفعل خلاف أو غير القبول بهذا الجزء اللامنطقي، اللاعقلي، اللاعلمي الذي يمثله والذي يحس به بالضرورة في عمله، مهما كان عقلاني وموضوعي.

ج. البناء الاجتماعي للمشاكل الاجتماعية (الجريمة، الانحراف والعنف)

بعض القوانين التي تحمي المواطنين من الأذى الجسدي (القتل، الاعتداء، الاغتصاب)، أو فقدان الممتلكات (السرقة، التخريب المتعمد للممتلكات العامة أو الخاصة (Vandalism)) تثير وتستند إلى الاجماع والاتفاق العام (Universal agreement). ستعكس قوانين أخرى قيما دينية أو سياسية لبعض المجموعات فقط وبالتالي سوف تعارض. الجدل والخلاف القائم حول قانون الإجهاض، هو مثال رئيسي عن القيم الدينية الخلافية أو الجدلية.[5] بإمكاننا فهم الطابع السياسي لبعض القوانين وتنفيذها إذا ما تفحصنا الأعمال التي تتحدى أولئك الذين هم في السلطة. مثلا، ردة فعل الشعب والشرطة على تحطيم الممتلكات أثناء احتفالات بطولة رياضية أو حفلة شرب-رقص لطلبة جامعيين في عطلة نهاية الأسبوع تكون عادة أقل، منه خلال مظاهرة أو مسيرة احتجاجية ضد المؤسسات. عموما، الأفعال التي تهدد البنى السياسية تستدعي وتجلب ردة فعل قوية مقارنة بتلك التي لا تفعل.

إذا ما افترضنا أن القوانين الجنائية تعكس على نحو دقيق القيم الثقافية، فعليا، لكل واحد بالمجتمع، فلن نكون مصيبين. في المجتمعات المعقدة مثل الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عموما وحتى بلادنا، العديد من المجموعات المختلفة تعيش مع بعضها بقيم ومعايير مختلفة داخل ثقافاتها الفرعية. وبذلك فالناس، بإمكانهم الاستمساك والاحتفاظ بقيم عزيزة عليهم لا يعكسها القانون.

برغم أن القوانين تمكن المجتمع من الحفاظ على بعض إجراءات التلاحم، التضامن والاستقرار. نحن في حاجة إلى الاعتراف، مع ذلك، أنها مبنية اجتماعيا(Social constructs)، ليست حيادية، ولا كينونات أو أشياء تحضي بالإجماع (Universal entities).

ح. تعيين السلوك الطبيعي والمنحرف

ما الذي يعين إذا ما كانت أفعال الأشخاص ينظر إليها على أنها غريبة الأطوار، إبداعية أو منحرفة؟ الإجابة هي الثقافة، بدقة أكبر، معايير وقيم كل ثقافة. معا، القيم والمعايير تصنع قانون الأخلاق (Moral code) للثقافة، نظام رمزي، الذي من خلال تعاليمه، السلوك يأخذ صفة أو خاصية "الحسن" أو "السيء"، "صحيح" أو "خاطئ". وبذلك، لتقرير إذا ما كان أي فعل معين هو "طبيعي" أم "منحرف"، من الضروري معرفة أكثر من مجرد أو ليس فقط ما فعلة الشخص. لابد من معرفة أيضا من هو الشخص (هذه هي الهوية الاجتماعية للشخص) والسياق الاجتماعي والثقافي للفعل.[6]

بالنسبة للسوسيولوجيين، إذن، السلوك المنحرف هو السلوك الذي يفشل في موافقة قواعد ومعايير المجموعة في حد ذاتها (Durkhiem, 1960/1893).

3.نماذج تمثل العنف والعدوانية

أ. المقاربات الأنتروبولوجية

إن الخطاب الأنتروبولوجي يفضل ألفاظ العدوانية، الاعتداء، التهيج الجسماني (Irritabilité) أو روح القتال أو النضال (Combativité)عوض لفظ العنف (الصراع من أجل البقاء).

وجهة نظر علم الطبائع (Ethologique)

بالنسبة للباحث (K.Lorenz)، الاعتداء غريزة تمتلك داخلها نبض عفوي.إنه ضروري لتشكل العالم لأنه يهيكل (يعطيها بنية وشكل) العلاقات الاجتماعية بجعلها تتطور نحو التبادل والتواصل(La communication et l'échange).

وجهة النظر العصبية الفيزيولوجية(Neurophysiologique)

العضوية (Organisme) تستجيب لمنشطات أو مثيرات (Stimulations) الوسط أو المحيط الذي تنشأ وتتطور داخله. عوامل مقلقة أو مثيرة، تسمى (Streesors) تشكل اعتداءات تستجيب أو ترد عليها العضوية التي هوجمت.

ب.المقاربات النفسية (Psychologique)

العديد من المقاربات البسيكولوجية للعنف والعدوانية تتعايش. إنها تسعى لإقامة وإثبات وجود علاقة بين السلوكات العدوانية وعوامل معينة.

النظريات من النمط السلوكي تدرس العلاقات بين مثيرات (Stimuli) المحيط والعدوانية. منع الطعام، الحركة أو التنقلات، تغيرات معالم أو ثوابت (Paramètres) خارجية، مثل الضجيج أو درجة الحرارة، هي بنفس القدر مصادر للعدوانية والهيجان.

نظريات أخرى (**النماذج السلوكية**)، تقوم بالخصوص على أعمال (Bandura)، تأكد على **أهمية النماذج**(Modèles)، إنها تقترح أنه يوجد تعلم (Apprentissage) للعنف انطلاقا من تجارب ذات جرعة عاطفية مكثفة. وفق هذا الأفق، ميل شخص للعنف وليد أو تابع لنماذج سلوكية عنيفة، عائلية/أسرية أو بيئية (تتعلق بالوسط).

أعمال أخرى تقود إلى اعتبار الاعتداء كاستجابة أولى أو أولية **للمنع، الكبت والحرمان**(**Frustration**)، إنه الطرح (J.Dollard) الذي ينظر إلى الاعتداء على أنه تحرير[*](Catharsis)الكبت والحرمان. ويعرف الكبت على أنه "حالة موضوع (Sujet)، شخص الذي بالنسبة له الاستجابات المناسبة والملائمة للمثيرات التي تستقبلها ممنوعة" [...]، الاعتداء ينقلب أو يوجه مباشرة ضد مصدر الكبت. وإذا منعت أو كبتت بدورها، فإنها تنتج اعتداءات مشتقة (Dérivées)، أو الاعتداء على النفس (Autoagression).

المقاربات الكلينيكية(Cliniques) تأكد على العوامل الصدماتية العنيفة (Traumatiques)[**]مثل الانفصال أو الأزمات/المشاكل الأسرية، في تشكل الشخصيات العدوانية.

لقد أظهرت بعض الأبحاث الإحصائية وجود ارتباط بين الاعتداء الذاتي ذي الميولات الانتحارية (Autoagression suicidaire) والاعتداء الموجة ضد الآخرين. إن أبحاث دوركايم (E.Durkhiem) حول الانتحار تخلص أيضا إلى ارتدادية وانعكاسية (la Reverssibilité) العدوانية.

علم النفس الاجتماعي (**Psychologie sociale**) يدرس العدوانية والعنف داخل أو ضمن وضعيات التفاعل. إنه يأكد على أهمية بنى وهياكل الوضعية، تخصيص وتوزيع (Assignation) الأدوار ويلاحظ أو يسجل أن سمات (Traits) الشخصية ليست الوحيدة المتسببة في إنتاج سلوكات عدوانية (العنف الأسري، مفهوم الفحولة).

وجهة النظر التحليلية النفسية (**Psychanalytique**)

موسعا صياغات وطروحات فرويد (S.Freud)[***]، يعتقد (M.Klein) أن الجزء المستبطن لنبض الموت يحدث قلق نفسي (Angoisse) شديد عند الطفل، الذي يضاف إلى القلق النفسي الناتج عن قذف النبضات العدوانية نحو الخارج. هذا القلق النفسي يولد ميكانزمات دفاعية عدوانية، موجهة نحو الأشياء والفوق أنا الأبوي (Surmoi parental) (الخيالات التدميرية (Fantasmes de destruction). وكأثر رجعي، هذه النبضات العدوانية تولد قلقا نفسيا الذي يعزز ويقوي سلوكات الاعتداء.إن النمو الجيني (المورثات) الناجح هو من سيتوصل إلى إنهاء هذه الحلقة المفرغة. إن السلوكات العنيفة والإجرامية تدل على فشل حل هذه المرحلة وعلى إعادة تحيين وتجديد الخيالات المدمرة لدى الطفل.

ت.المقاربات السوسيولوجية

تجمع النظريات السوسيولوجية بين العنف والتنظيمات الاجتماعية والسياسية.

جاعلين مصدر استلهامهم نظرية العدوانية/الكبت والحرمان (Agression/frustration)، يربط(T.R Gurr و J.C Davies) العنف بالحرمان النسبي (La privation relative). حجم العنف بالنسبة لهما مشروط وتابع للفارق بين مستوى الطموحات والآمال ومستوى تحقيق وإشباعالأشخاص.

يقيم (S.P Huntington) رابطا بين التغير، الحداثة والعنف. إنه يلاحظ أن تغيرات سريعة في المجتمعات تنشأ وسطا ملائما ومساعدا على التفكك والتفتت الاجتماعي (Désintégration sociale) وبذلك، بروز العنف. هذه الفكرة قريبة من الصياغات والطروحات الماركسية، التي تجعل من الصراع بين الطبقات محرك التنمية الاقتصادية والرقي الاجتماعي (Progrès social).

إن الصياغات النسقية (Systémiques) تفسر العنف كنتيجة لتفتت النظام الاجتماعي، الذي جعلته صعاب وعوائق (Contraintes) خارجية أو داخلية (Les Inputs) يفقد توازنه.

إميل دوركايم (E. Durkheim) يربط بين العنف ومفهوم اللامعيارية (L'Anomie). إنه يتقدم بطرح مضمونه كون الأزمات، الاقتصادية، الأخلاقية والسياسية، ينجر عنها اختلال النظام، نشوء الفوضى(Une dérégulation) في معايير عمل (Les valeurs de fonctionnement) النظام الاجتماعي وفي القيم الجماعية.[7]

4.العنف الرمزي، ما هو؟

ظهرت وصيغت النظرية العامة للعنف الرمزي انطلاقا من سنوات 1970 من طرف (Pièrre Bourdieu) و(Jean-Claude Passeron) في كتاب لهما يحمل عنوان (La Reproduction. léments pour une théorie du système d'enseignement).

أ. العنف الرمزي هو هيمنة اجتماعية (Domination sociale)

إنه عملية (Processus) الإخضاع التي من خلالها أو عبرها ينظر ويرى المهيمنون للسلمية الاجتماعية أو التراتبية الاجتماعية (Hiérarchie sociale) على أنها شرعية وطبيعية.يتبنى المهيمن عليهم ويصبحون ينظرون من خلال نظرة أو تصور المهيمنين للعالم.هذا ما يقودهم إلى أن يجعلوا لأنفسهم تمثلا سلبيا عن ذواتهم.

- يخصص المهيمنون للمهيمن عليهم مكانة دونية،
- هذه المكانة تولد وضعيات تدني من قيمة المهيمن عليهم،
- المهيمن عليهم يشعرون بالنقص أو المهانة:
  - فهم إما غير مرئيين (أي يمارسون مهنا لا يلقى لها الكثيرون بالا أو أهمية مثلا)،
  - إما موصومون أو موسومون (Stigmatiser) (يصفهم Bourdieu بكونهم مصنفين كذا (Perçus) بينما المهيمنين هم من يصورون (Ceux qui perçoivent))،
- هذه الحقائق الاجتماعية تؤكد التمثلات الذهنية التي يخصصها المهيمنون للمهيمن عليهم،
- إلى درجة أن التراتب الاجتماعي يظهر منطقي في نظر الجميع.

للمهيمنين القدرة على فرض نظرتهم هم على أنها موضوعية وجماعية، بشكل محكم إلى حد أن المهيمن عليهم لا يتوفرون على أنماط تفكير أخرى غير نمط المهيمنين، إذن لا يمكنهم اجتناب العنف الرمزي. كل شيء يحدث بطريقة ضمنية ولاواعية. هذا ما يجعل أي اعتراض أو أي ثورة صعبة للغاية.

ب. العنف الرمزي، تأثير أم استعمال بدهاء (Manipulation)

إن العنف الرمزي ليست عملية تأثير أو استعمال بدهاء لأحدهم(Une manippulation)، واسع النطاق لتحقيق أغراض شخصية. إنه اعتقاد جماعي (Croyance collective) يسمح باستبقاء والحفاظ على التراتبات والسلميات (استقرار المجتمع). لها كأثر انقياد وانصياع المهيمن عليهم دون أن يحتاج المهيمنون لاستخدام القوة.[8]

يرسخ العنف الرمزي النظام القائم على أنه شرعي. إنه يخفي بذلك، علاقات القوة التي يقوم عليها التراتب والسلمية الاجتماعية. إنها تفيد في جعل العلاقات داخل البنية الاجتماعية سلمية (Pacifier).

ت. في الأخير، هل العنف الرمزي له محاسن أم لا؟

إن عالما بدون عنف رمزي هو عالم أين علاقات القوة والهيمنة تصبح ظاهرة للعيان وبالتالي عنيفة ووحشية: فإما أن تكون هنالك حرب أهلية، وإما الديكتاتورية. في عالم المؤسسة، إن ثقافة المؤسسة هي التي تلعب دور العنف الرمزي. وعندما لا تكون قوية كفاية لإعطاء الشرعية لزعامة ورئاسة (Leadership) المسيرين، عند هذه اللحظة تظهر الخلافات المفتوحة والعنيفة في بعض المرات.

إن مفهوم العنف الرمزي، الذي صاغه وطوره (P.Bourdieu)، يوضح كل الصعاب التي يثيرها تعريف المعايير التي تمكن من تقرير عنف فعل ما.

إن العنف الرمزي، يعبر عنه في نفس الوقت، **بشكل موضوعي** من خلال قواعد، قوانين، ميكانزمات تنظيم اجتماعي (Mécanismes de régulation sociale) **وبشكل ذاتي**، في أنفسنا(Nos esprits)، على شكل أفكار، بنى تصورية (Schème de perception)[*]. إنها نهاية ونتاج مجموعة عمليات منتظمة(Un processus)، التيتعد،تبنى وتقوم بنفس الوقت، داخل المؤسسات وفي الذهنيات. وبذلك، فإن هذا العنف الرمزي، يظهر كنتاج لسلسلة طويلة من التجارب ممتدة عبر التاريخ، ولكنها تقدم نفسها على أنها طبيعية، بدهية.[9]

في هذا الأفق، يتصور المهيمن عليه من يوقع به العنف، من خلال مفاهيم، نظم فكرية، التي أنتجتها وأفرزتها علاقة الهيمنة والسيطرة. وبهذا، فهو لا يتوفر، إلا على الأدوات المعرفية التي يتقاسمها مع المهيمن، والتي هي بالضبط، تعبير لعلاقة الهيمنة والسيطرة.

مثال : نسبة النساء في سن 15-49 سنة، اللاتي يبررن ضرب الرجل لزوجته عند ظروف مختلفة حسب بعض الخصائص (MICS3, 2006)، الجزائر.[10]

الخصائص	نسبة النساء في العمر 15-49 سنة اللاتي يبررن ضرب الرجل زوجته إذا ما :						النسوة البالغات 15-49 سنة
	خرجت دون علمه	أهملت أطفالها	تجادلت معه	رفضت المعاشرة	أحرقت الطعام	لأي من هذه الأسباب	
المنطقة							
وسط	46,0	42,1	27,7	34,3	17,4	56,8	15317
شرق	64,7	66,6	36,5	52,5	30,6	78,9	13743
غرب	58,9	54,1	27,7	40,8	24,9	68,9	10193
جنوب	58,1	57,2	36,3	43,6	30,1	70,2	4389

مكان الإقامة							
حضر	50,2	48,5	25,1	35,8	18,2	62,7	24401
ريف	63,7	61,4	39,3	50,9	32,7	74,6	19241
السن							
15–19	53,8	52,7	29,1	35,2	21,5	66,3	8364
20–24	53,1	51,6	27,4	38,9	20,5	66,5	8570
25–29	52,9	51,0	28,6	41,0	21,1	65,9	7147
30–34	55,4	52,9	30,5	42,7	24,2	66,7	6130
35–39	59,0	56,6	33,7	46,4	27,6	69,2	5259
40–44	61,5	58,9	38,1	50,1	33,0	71,2	4604
45–49	65,6	62,6	41,0	55,0	34,0	75,1	3567
الحالة الزواجية							
متزوجة حاليا	62,4	58,8	36,4	50,4	29,7	72,6	19319
كانت متزوجة	56,1	51,8	33,4	45,1	27,5	65,2	1387
لم يسبق لها الزواج	50,9	50,4	27,0	35,6	20,2	64,2	22936
المستوى التعليمي							
أمي	77,7	72,8	51,7	64,6	47,3	85,7	9775
ابتدائي	64,3	61,6	36,1	48,3	30,4	74,4	8045
متوسط	55,4	53,4	28,0	38,6	19,8	67,6	11837
ثانوي	41,7	41,1	19,7	29,9	11,4	56,4	10092
جامعي	24,9	27,9	10,6	19,0	4,2	40,5	3893

يظهر الجدول كيف أن نسبة عالية من النسوة الجزائريات، مهما كان مكان إقامتهم وحتى مستواهم التعليمي يبررن ضرب الأزواج لهن لأسباب لا يقرها لا الشرع الحنيف ولا المنطق السليم (Le bon sens).

5. الخلاصة:استحالة تفسير وحيد السبب

كل تفسير للعنف هو بالضرورة معقد ومتعدد العوامل. للعنف العديد من الأسباب والعديد من الآثار. هذه الظاهرة تعني علم الأحياء أو البيولوجيا، الكيمياء، علم الأخلاق، علم النفس، السوسيولوجيا، السياسة، ...

إذا كنا نسلم بأن غريزة العدوانية جزء من الطبيعة المغروسة في الإنسان، فإن الحضارة جعلت قانون الغاب يتراجع إلى الخلف، على الأقل، في أشكاله الخام.

إن النمو النفسي العاطفي (Psychoaffectif) -المتوازن-، عملية التنشئة الاجتماعية والمؤسسات قنوات لتوجيه العنف على المستوى الفردي والجماعي، وهو ما يسمح للمجموعة بالتواجد (التعايش في إطار منظم) كذلك (أي كمجتمع). ميكانزمات التحكم هذه تميل إلى دحر العدوانية الفردية خارج مجال ما يسمح به الضمير الحي أو السليم في كثير من الأحيان.

إن التجاوزات، التعسفات والأفعال العنيفة تجعلنا نتذكر أن تدجين هذه الهمجية (البربرية) الغريزية ليست إلا جزئية أو مؤقتة.

إن تفريغ العنف المدمر (التصفيات العرقية مثلا) يتولد على الأرجح عن ميكانزمات داخلية، أحداث خارجية وتجارب مرتبطة بالتعلم الاجتماعي.

إن القضاء على العنف، في شكله المدمر، يفترض الكشف عن كل هذه الأشكال. كون العدوانية تخدم أغراضا مفيدة أو غير مفيدة، حسنة أو سيئة، من الضروري تعيين معايير التفريق، التي هي حاليا معرفة بشكل سيء.

منذ وقت قريب، كانت السلطات التي تضطلع بوضع المعايير المرجعية للحكم بالعنف، تتمثل في الدين، الدولة والعائلة. هذه المؤسسات الثلاث هي التي كانت تمارس العنف الرمزي وإنه ضدها الذي قامت الاعتراضات، بحق أم بباطل، العنيفة أحيانا، للأشخاص أو المحكومين الذين كانوا يسعون للتحرر من روابط الهيمنة والسيطرة.

حاليا، إنه من خلال خطابات يزعم أنها علمية (وهي في الحقيقة إيديولوجية بحته لادينية)، الذي تتجه وتميل ممارسة هذا العنف الرمزي وخطابات 'المختصين' تهدف في كثير من الأحيان إلى إضفاء الشرعية على علاقات الهيمنة والسيطرة. إذن في النهاية لقد تم استبدال توجيهات دينية بتوجيهات إيديولوجية بحتة، يزعم أنها علمية، تبنى عليها إجراءات سلوكية (فردية أو حكومية).

المراجع :

1. Jaques Sémelin, La violence, observatoire Régional de la Santé Nord -Pas-de-Calais, 2011, p1.
2. Idem.
3. Jhon J Macionis, Social problems, fourth edition, Census edition, Pearson, Upper Saddle River, USA, 2012, p 154.
4. Martine Timsitt-Berthier, Violences ..., Neuro-Psychiatre, Docteur en Sciences. E-mail : timsit.berthier@wanadoo.fr
5. Vincent N. Parrillo, Contemporary Social Problems,Sixth Edition, Pearson Education, USA, 2005, P 258.
6. Henry H. Tischler, Introduction to Sociology, Ninth Edition, Thomson Wadsworth, USA, 2007, P 153.
7. Appleford Associates, Étude documentaire sur la violence familiale : Prévention et traitement, Rapports de recherche, Direction de la recherche :Communications et développement organisationnel, MARS 1989, 1989, N°. R-03
8. « Démocratisation de l’influence : mythe ou réalité ?, Le rêve américain, dissonance cognitive et violence symbolique »
9. M. Timsit et M. Timsit-Berthier, (1993). "Approche compréhensive du meurtre et des meurtriers dans une perspective psychobiologique". Analise Psicologica. Psicologia Legal, XI, 1, 99 -115.
10. وزارة الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات، المسح العنقودي متعدد المؤشرات، 3MICS، التقرير الرئيسي، الجزائر، جويلية 2009، ص 179.

الهوامش:

(*) ظاهرة تحرير ذات طابع عاطفي (**émotionnel**) ناتجة عن إخراج (**extériorisation**) لعواطف تصاحب نبض (**affects**) المكبوتة (**refoulés**) في اللاوعي (**subconscient**).

(**) مجموع الاضطرابات الناتجة عن إصابات أو جروح، صدمة أو انفعال عاطفي (**Emotion**) عنيف.

(***) عند البدء، كان (S.Freud) يعتبر العنف كقدر ممكن لنبض غريزي يبحث عن إشباع له. في كتابه (Pulsions et destins des pulsions) يميز بين النبض الجنسي، الذي يفوق الفرد بحمله نحو تحقيق أهداف النوع، ونبضات الأنا التي تهدف إلى الحفاظ الذاتي والاستبقاء الذاتي للفرد نفسه. الحب بذلك يصنفه من جهة النبضات الجنسية، أما الحقد والكره فيرجع إلى كفاح الأنا من أجل يؤكد ويفرض ذاته ويستبقيها أو يحميها. بعد ذلك، يقحم (Freud) فكرة نبض الموت (Thanatos) المعاكس أو المقابل إلى نبضات الحياة (Ethos). إن نبض الموت مستبطن جزئيا، والذي يفسر السلوكات العدوانية ضد الذات، والجزء الآخر يصرف إلى الخارج (Extériorisé) معبرا عن الميولات التدميرية.

(*) في الفلسفة الكانتية، تمثلات تسمح بالربط بين فئات المعاني المفهومة (L’entendement) والظواهر الخاضعة للحس والمشاهدة.

الاختلافات النفسية للمتعلم وأثارها على قدرة الاستيعاب

Psychological Differences Of The Learner And Their Effects On Absorption Capacity

الأستاذة: د.فاطمة الزهراء نسيسة
الأستاذة : د. أمينة غوالم
قسم العلوم الاجتماعية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة خميس مليانة

الملخص:

المدرسة الابتدائية هي التي تقوم بالمرحلة الأولى من التربية والتعليم بعد الأسرة، وتهدف إلى تربية الأطفال وتعليمهم عن سن السادسة، فهي تحاول إكسابهم العادات والمهارات والمعلومات التي سيحتاجون إليها في المستقبل مهما كانت المهن التي تنتظرهم، كما تعرفهم إلى المسالك التي سيسلكونها.

ومن هنا نرى أن دور المدارس الابتدائية ليس تعليم الأطفال وتنوير أذهانهم فحسب، بل إن دورها يشمل ترويض وتنمية جميع ملكات الطفل الجسمية والنفسية، لأن غايتها تشكيل الكائن الكامل، لتقدم للوطن المواطن الصالح من رجال ونساء.

فالمدرسة الابتدائية إذن حقل تربية للجسم والعقل والنفس، وتهذيب وتنمية للملكات وهي بالتالي حقل لأولويات الحياة ومفاتيحها، وتوطئة للتعليم الثانوي والعالي لمن كتبت له وهيأت له مثل تلك الفرص .

إن المدرس عنصر أصيل وهام للجهاز التعليمي إذ يتمثل فيه النضج والخبرات الفنية والقدرة على التوجيه المهني وعلى أعمال التخطيط والمتابعة في الإطار الفني لمادة تخصصه، وفي الميدان الإداري بمدرسته، وهو بهذا كله يعد من أهم المقومات لتحصيل العملية التعليمية.

المعلم بحكم عمله هذا يتعرف على أمور متعددة أثناء قيامه بمهمته التعليمية، إنه يتعرف على خصائص تلاميذه من حيث نموهم الجسمي والفكري والاجتماعي والخلقي والنفسي، ويتعرف كذلك على خصائص بيئتهم، لذا وجب أن يشترك المعلم في تخطيط سياسة التعليم، لتصبح أكثر انسجاما، وملائمة لمستوى الأطفال ".(1)

وأول الأمور التي ينبغي إشراك المعلم فيها هي وضع المناهج والخطط والطرق والأساليب في تلقين الدروس خلال العملية التعليمية وكذا محاولة التعرف على نفسيات التلاميذ وتأثرهم بهذه الطرق، ومحاولة تذليل الصعوبات التي تعترضهم.

الكلمات المفتاحية: المعلم الابتدائي، تكوين المعلم الابتدائي، طريقة التدريس، نفسية التلميذ.

Summary:
Elementary school is doing the first phase of education after the family, and aims to raise children and teach them about the age of six, they are trying to acquire the habits and skills and information that will be needed in the future, whatever the professions that await them, as you know to tract which Cislkunha.

It is here we see that the role of elementary schools is not the education of children and enlighten their minds, but that their role includes the development of all tame and queens of child

physical and psychological, because the purpose of the formation of a full object, to provide a good citizen of the nation of men and women.

The school elementary education field permission for the body, mind and soul, and the development and refinement of the queens of the field and are therefore priorities of life and the keys, and in preparation for secondary and higher education to those who wrote to him and provided him such opportunities.

The teacher component of an authentic and important for a tutorial, as is the maturity and technical expertise and the ability to vocational guidance and the work of planning and follow-up in the technical framework for the substance of specialization, and in the field of administrative his school, which is all this is one of the most important ingredients for the collection of the educational process.

Teacher virtue of his work that recognizes several issues during his mission of education, said he recognizes the characteristics of his disciples in terms of growth, physical, intellectual, social, moral, psychological, and recognize as well as on the characteristics of their environment, so it must be shared teacher in planning education policy, to become more consistent, and appropriate to the level of children .

The first things that should be involved where the teacher is the curriculum development plans and methods and techniques in teaching lessons through the educational process, as well as try to identify the psyches of students and affected in these ways, and try to overcome the difficulties they face.
Key words: Primary Teacher, configure the primary teacher, teaching method, psychological pupil.

المقدمة:

تتجلى قيمة التعليم الحقيقية بمقدار ما يستطيع الطفل أداءه من مهارات، وما تكون فيه من اتجاهات وعادات، ولا بمقدارها ما يحفظه من معلومات فقط. اهتمت التربية القديمة بالعقل وحده واعتبرت الجسم مطية للعقل ولهذا كانت تهتم بحشو عقل الطفل بالمعلومات وتهمل ماعدا العقل، بينما تعتبر التربية الحديثة عملية شاملة وتهتم بالنواحي الاجتماعية والخلقية والجسمية ، والعاطفية والجمالية لهذا تعتبر التربية الحديثة عملية شاملة، وتحاول تحقيق النمو المتعادل المتكامل في هذه النواحي جميعا بشكل متوازن سليم. خير أنواع التعليم ما تم بصورة طبيعية عن طريق الاحتكاك بالحياة، والتعليم بالحياة نفسها هو أحدث الوسائل التربوية لتحقيق النمو المتكامل السليم. لهذا يجب أن ينمي الطفل قواه النفسية بذاته، أي يجب أن ينشئ نفسه بنفسه، ويبني شخصيته معتمدا على ذاته، وأن يكون دور المعلم في العملية التربوية هو الإشراف والتوجيه والرعاية الطيبة. اهتم القدماء بمادة الدرس لا بالتلميذ، وقد ترتب على هذا الدعم اكتراثهم بميوله ودوافعه ومراحل نموه، بل كانوا يرون ميوله الفطرية مصادر للنشر يجب قمعها بشتى الوسائل إن كنا نريد أن نصل به إلى مرحلة النضج والرشاد. أما الاتجاه الحديث في التربية فيرى أن الطفل لم يخلق للمدرسة، ولكن المدرسة ومبانيها أدواتها ونظمها، وطرق التربية فيها يجب أن تدور حول الطفل وطبيعته، فتعمل على إشباع حاجته وتوجيه ميوله واستغلال استعداداته وقدراته. كما أنكر القدماء ما بين عقل الطفل وعقل الراشد من فروق جوهرية، فكانت مهمة المدرسة تزويد الطفل بمعلومات الكبار وحاجتهم حتى يصبح مثلهم، و لم يكن على المعلم إلى أن يحتال

ويتوسل بكل الوسائل لتلقين الطفل ما يريد من معلومات، وليس على التلميذ إلاّ أن ينظر ويسمع ويختزن الحقائق في ذاكرته ليصبّها على ورقة الإجابة في الامتحان.

ولهذا كان المعلم إيجابيا والتلميذ سلبيا، وبما أنهم لم يحفلوا بميوله ودوافعه فقد وجدوا أنفسهم مكرهين على استعمال بواعث خارجية تحمّله على التحصيل كالعقاب والثواب، وقد ترتّب على هذا أيضا أنهم كانوا يقدمون له من المعلومات ما لا يستطيع هضمه، ويعرضونها عليه بأسلوب منطقي لا سيكولوجي، أي بأسلوب يلاءم عقل الراشد الناضج ولا تمشى مع خصائص التلميذ العقلية وحاجاته في مراحل نموه المختلفة .[2]

أما اليوم فنحن ننظر إلى الطفل باعتباره كائنا حيا ناشطا له حاجاته الخاصة وميوله الذاتية التي تدعوه إلى الاتصال بالبيئة لكسب الخبرات والمهارات المختلفة.

كما تشجعه على التفكير والنقد والسؤال، حتى تنمو فيه روح البحث والابتكار والجرأة على مواجهة المشكلات، ثم نرعى حاجاته الحاضرة قبل حاجاته المقبلة ونربط المدرسة بالحياة حتى يشعر بالحاجة إلى ما يتعلمه ويقبل على التعلّم بدافع داخلي لا عن طريق الباعث الخارجي، ولم تعد مهمة المعلم إيصال المعلومات إلى عقول التلاميذ وإعدادهم للامتحانات، بل أصبحت تهيئة الجو الذي يسمح للتلميذ بالتعبير عن دوافعه وتنمية شخصيته في جو مدرسي يشعّ بالنشاط والبهجة والسعادة.

1/ تحديد المفاهيم:

أ/ تعريف التربية: تعد تربية الإنسان من أهم الأنشطة القديمة التي تولّى أمرها الأفراد والمجتمعات، وبطبيعة الحال سيستمر هذا النشاط على وفق التصورات المختلفة حول الإنسان الذي يتطلبه ذلك طيلة مدة حياته، إن هذا النشاط يختلف باختلاف مفاهيم التربية نفسها، وباختلاف وظائفها وأهدافها، وعلى هذا الأساس فإنها تختلف من مجتمع لآخر ومن مفكر تربوي إلى آخر[3]

يقال ربّ القوم، أي ساسهم وكان فوقهم ورب النعمة زادها، ورب الولد رباها حتى أدرك.[4]

ب/ مفهوم التعليم: شهد العالم نهاية القرن الثامن عشر، ميلاد حركة فكرية عملت على توجيه التعليم نحو تنمية الإنسان تنمية متكاملة عقليا، وجسميا، ونفسيا بواسطة خبرات تربوية لتحقيق هذه الأهداف على مراحل ومستويات، والتعليم لغة يعني التلقين أي تلقين الطلاب المعارف ومبادئ العلوم باختلاف أنواعها.[5]

أما اصطلاحا فقد اختلف الفلاسفة والمربون، ومن بعدهم علماء النفس والتربية الاجتماعية، والانثربولوجيا، والاقتصاد، والسياسة في تحديدهم لمعنى التعليم ومفهومه فمنهم من يركز على المؤسسات التعليمية كوسيلة لنقل الثقافة والتراث الاجتماعي للتلاميذ، ومنهم من يرى أن المؤسسات التعليمية بمختلف أنواعها ينبغي أن تكون مركز إشعاع لتغير المجتمع وأن وظيفتها لا يمكن أن تنحصر في داخل جدرانها، ويرى أن عملية التعليم تستمر مدى الحياة ولا تقتصر على المدارس والجامعات.[6]

والتعليم هو نقل وتوصيل المعرفة عن طريق قنوات رسمية وغير رسمية من جيل إلى جيل وهو كذلك فن مساعدة الآخرين على التعلم، وهو يثير نشاط المعلم والمتعلم لاكتساب نوع جديد من السلوك، وبالتالي فعملية التعلم تنصب على المعلم والمتعلم، ولا تكون لهـا نتيجة إلا بقدر ما تساعد على حدوث التعلم.(7)

والتعليم وسيلة لتدريب الطفل، والنضج هو الأساس الذي ينبني عليه هذا التعليم لإكسابه ما يحتاج إليه من معلومات ومهارات واتجاهات وعادات.

ج/ **المعلم**: عندما نتحدث عنه نشير إلى شخصيته مؤهلاته، تكوينه، سلوكه وقدرته على التكيف مع المواقف المستجدة، قدرته على التبليغ والتسميع والتنشيط الجماعي، وقدرته على استثمار علاقاته التربوية في بناء الدرس ، كما نتحدث عن حبه لمهنته أو تذمره منها كلها عوامل متداخلة ومتفاعلة تساعد بصورة أو بأخرى في بناء وتكوين المتعلم .

مما لا شك فيه أن المعلم في كل حركة وتعبير لوجهه ولباسه وأسلوبه ونظراته يترك في نفسية التلميذ شيئا فرديا من شخصيته وذاته(8).

وكما قال الباحث فوراستيه (Faurastié) إذا كان من عادة المهندس المعماري أن يدرس في شهرين ما ينوي بناءه في سنة فإن الواجب يفرض عليه اليوم أن يدرس في سنة ما يريد تشييده في شهر حتى يقوم بإنجازه على أسس ثابتة ودعائم سليمة، وإذا كان هذا من واجب المهندس المعماري فما بالك بالمعلم الذي ينشئ العقول، إن المعلم أولى بالابتعاد عن كل ارتجال وعشوائية حتى يكون عمله هادفا فعالا، ويكون ذلك بالتخطيط الدقيق(9).

2/اتجاهات التعليم:

الاتجاه الأول: يركز على التعليم كوسيلة نقل الثقافة والتراث الاجتماعي إلى التلاميذ ويتم داخل المؤسسات التعليمية (المدارس والجامعات).

الاتجاه الثاني: يركز على التعليم كعملية مستمرة ووسيلة للتنمية الاجتماعية وذلك عن طريق تزويد الأفراد بالمعارف والاتجاهات والمهارات المهنية، وأي قدرات أخرى يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع.(10)

وعليه فالتعليم هو العملية بمقتضاها إعداد فئات وكوادر مختلفة من ذوي التخصصات المتباينة إعدادا اجتماعيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا وإكساب الأفراد المعرفة والمهارات، وتنمي فيهم القدرات والاستعدادات والقيم، وتنمي البناء أو التكوين الكلّي للشخصية الإنسانية لتصبح أكثر فاعلية وتوافقا وتفاعلا وإنتاجية في مجتمعها ويتم ذلك عن طريق المدارس والمعاهد التعليمية التي تنشئها الدولة لهذا الغرض وذلك بهدف المشاركة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

3/ تكوين الأستاذ وأثره على نفسية التلميذ:

أ/ **صفات المعلم ومهاراته**: الكثير من الكتاب والمختصين ركزوا على صفات ينبغي على المعلم الاتصاف بها حتى يكون مدرسا ناجحا كالصفات الأخلاقية حب العمل، حسن التصرف، الأمانة... والصفات الجسدية وحسن المظهر و... كلها صفات أساسية وضرورية لا بد للمعلم التحلي بها لكننا لن نكثر الحديث عنها وهذا لأننا سوف نركز على بعض المهارات الأدائية التي ثبتت فعاليتها وضرورتها في الصف .

- ❖ **مهارة تقديم الدرس وتهيئة التلاميذ**: من العوامل التي تضمن حسن متابعة التلاميذ للدرس ورغبتهم في التعلم هي الخمس الدقائق الأولى في الدرس، ففيها يستطيع المعلم لفت انتباه التلاميذ وإثارة رغبتهم دافعيتهم للتعلم، وإما

ينصرف التلاميذ من الدرس ولا يبالون بما سيقوله، لذلك نقول أن المدرس الناجح يستطيع من خلال تقديم شيق أن يثير دافعية التلاميذ.

وتتنوع طرق التقديم حسب الموضوع وسن التلاميذ كما يتم ربط الدرس بالدرس السابق أو بالمعارف السابقة للتعرف على مستوى التلاميذ والانطلاق منه لاستكمال بنيتهم المعرفية عن الموضوع ، كما يمكن للمعلم الاستعانة بأشرطة أو أفلام عن الموضوع ....والأفكار بالنسبة للتقديم لا ينتهي، لكن المهم أن تكون متنوعة حتى لا تفقد جاذبيتها وعلى المعلم ألا يطيل في المقدمة على حساب زمن الدرس وأن ينتقل من التقديم إلى الموضوع المحدد للدرس.

❖ **مهارة إنهاء الدرس:** قد تكون نهاية الدرس أكاديمية أي تركز على تلخيص النقاط العلمية والعملية التي تناولها الدرس ويتم عن طريق أسئلة توجه للتلاميذ أو قد يقوم المعلم بهذا التلخيص، وفي هذه المرحلة تستخلص التعميمات الأساسية في الدرس وتكتب على السبورة وقد يهتم المعلم عند إنهاء الدرس ببعض الجوانب الوجدانية والسلوكية كأن يشكرهم على تجاوبهم ومتابعتهم الدرس (قد يكون فردي أو جماعي) كما قد يعاتب البعض على سلوكياتهم السلبية.

❖ **مهارة الشرح:** تعني القدرة على توضيح معنى المفاهيم والمدركات الواردة في الدرس وهذه المهارة جوهر عملية التدريس العلمية والاجتماعية، مع ضرورة أن يكون المعلم ملما بمادته متعمقا في مفاهيمها بحيث يستطيع تبسيطها وتوضيحها بأكثر من طريقة ومن بين الأساليب التي يمكن الاستعانة بها(الأمثلة،التشبيهات،الاستعانة ببعض الرسوم ..).

ويجب التركيز في الشرح الجيد على الاختصار، التسلسل المنطقي والترتيب، توضيح علاقة الأفكار والمفاهيم ... (11).

❖ **حيوية المعلم والتلاميذ في الفصل:** ترتبط حيوية المعلم بمواصفاته الشخصية، لكن هذا لا يعني أنها موهبة ولكنها مهارة تدريس وهي قابلة للتعلم من خلال الممارسة والتدريب، ولكي تؤدى هذه المهارة بكفاءة فإن المدرس بحاجة إلى تدريب صوته (التنويع في درجاته ومستوياته) وتحركاته وتعبيرات الوجه.

❖ **التفاعل بين المعلم والتلميذ في الفصل:** يظهر من خلال التفاعل اللالفظي (الإيماءات) والتفاعل اللفظي الذي يركز على الكلام الذي يجري داخل الموقف التعليمي من المعلم أو المتعلم.

وقد أوضحت الدراسات والتي من أشهرها دراسات فلاندرز (Flanders)، أن المعلم يأخذ معظم وقت الحصة بالكلام ولا يدع مجالا كبيرا للتلاميذ للتحدث أو الحوار، كما دلت النتائج أن نسبة كبيرة من كلام المعلم تكون في صورة أسئلة تعليمات وتوجيهات أو تحذير أو توبيخ لتوجيه سلوك التلاميذ، كما وجد أن نسبة مبادرة التلاميذ بالكلام منخفضة للغاية، كما أن نسبة الحوار المتبادل بين التلاميذ بعضهم ببعض منخفضة جدا.

وقد وجد أنه كلما زاد دور التلميذ الإيجابي في الموقف التعليمي زاد التعلم وزادت كفاءة العملية التعليمية، لذلك يتم تدريب المعلمين قبل الخدمة -في كليات التربية- وبعد التخرج لرفع مهارتهم في هذا الجانب، بمعنى تدريبهم على زيادة التفاعل في الفصل، بحيث يكون الدور الأكبر للتلاميذ وتعويد المعلم على التقليل من دوره الدكتاتوري المهيمن على الموقف التعليمي.

❖ **مهارة صياغة وتوجيه الأسئلة أثناء التدريس:**يستخدم المعلم الأسئلة من آن لآخر في المحاضرة وفي الحوار والمناقشة وفي مرحلة تقييم الطلاب والتأكد من فهمهم للدرس، ومن المهم أن يتقن المعلم مهارة صياغة وتوجيه الأسئلة، وأن يميز بين أنواعها ومستوياتها، وتعتبر الأسئلة عملية ديناميكية تساعد على التفاعل المتبادل بين المدرس والتلاميذ والتلاميذ وبعضهم البعض.

❖ **مهارة تعزيز استجابات التلاميذ:**التعزيز سلوك لفظي يأتي عقب سلوك آخر سواء كان لفظيا أو غير لفظي بهدف التعبير عن مدى الموافقة أو الرفض للسلوك.وأنواعه كالتالي :

1/التعزيز اللفظي : كأن يقول المعلم للتلميذ أحسنت، جيد أكمل، أو غير صحيح، إجابتك ناقصة.

2/التعزيز غير اللفظي : يكون في صورة ابتسامة أو تصفيق من الزملاء...

3/التعزيز الفوري : يكون مباشرة بعد أداء السلوك دون تأجيل.

4/التعزيز السلبي : وفيه لا يكون هناك رد فعل لسلوك الفرد بل تجاهل وإهمال كامل.

❖ **مهارة استخدام الوسائل التعليمية:** تتطلب المهارة أن يكون المعلم ملما بأنواع الوسائل التعليمية المختلفة والمواقف التي تصلح فيها وسيلة ما، واستعمال أكثر من وسيلة إذا استدعى الأمر ذلك، مع التأكد من أنها تعمل بكفاءة قبل موعد الدرس.

❖ **مهارة إعطاء التعليمات:** نادرا ما يخلو درس من الدروس في جميع التخصصات من تقديم التعليمات للتلاميذ والتي تكون إما شفهية أو مكتوبة ومدونة، ومن الضروري أن تكون التعليمات مقدمة بلغة سليمة وواضحة ودقيقة، وما يساعد المعلم على إتقان هذه المهارة أن يجري تعليماته في خطوات قصيرة في تسلسل منطقي تمكن التلميذ من متابعتها وتنفيذها بطريقة صحيحة، ومن الضروري أن يوضح المعلم للتلاميذ الأهداف من هذه التعليمات والنتائج المتوقع منها... وقد يستعين المعلم في تعليماته ببعض الرسوم التوضيحية والأرقام والرموز لمساعدة التلاميذ على المتابعة والفهم.

❖ **مهارة إدارة المناقشة:** إن المناقشة تزيد من فاعلية التلاميذ ومشاركتهم الإيجابية في الموقف التعليمي؛ وهناك عدة أنواع للمناقشة ولكل منها أهدافها الخاصة في مناقشة المجموعات الكبيرة يجد المعلم طريقة ونظام الفصل وترتب المقاعد على شكل دائرة، ويجلس المعلم في مقعد في الدائرة يرى فيه الجميع، ويعين أحد التلاميذ ليصبح مقررا للجلسة لتدوين نقاط المشاركة والآراء المختلفة مع ضرورة تغيير المقرر في كل جلسة حتى لا يستأثر واحد منهم بهذا الدور، ويشرح المعلم أهداف المناقشة وموضوعها ويوضح قواعد النقاش (كيف يأخذ الكلمة، أو كيف يعلق على كلام زملائه، أو يطلب استفسار) ، وحتى تنجح المناقشة لابد أن يشعر التلاميذ بالارتياح والاطمئنان ولا يشعرون بالتهديد حتى يبدو بآرائهم أي كانت، وعلى المعلم كمدير للمناقشة، ضبط الوقت والتأكد من أن كل جوانب المناقشة قد نوقشت.

❖ **مهارة إدارة دروس المعمل:** يتطلب من المعلم مهارة غالية في التخطيط والإعداد السابق لزمن الدرس، ونقصد بالمعمل تجارب المخبر، التطبيقات...

والمهارة الأساسية اللازمة للمعلم في دروس المعمل هي القدرة على الملاحظة لما يدور في حجرة الدرس (يلاحظ أداء التلاميذ وأساليب تعاملهم مع بعضهم البعض والتأكد من حسن استخدام الأجهزة) على المعلم أن يوضح في بداية العمل السلوك الناتج والنتائج المتوقعة من هذه التجربة[12]، إضافة إلى المهارات التي سبق ذكرها فإن إتقان المعلم لصياغة الأهداف التدريسية صياغة سليمة يعتبر كذلك من أهم المهارات اللازم توافرها في كل مدرس بصرف النظر عن مادة تخصصه أو عن المرحلة التي يدرس لها ومن المهم أن يختار المعلم أنواع الأنشطة التي تلائم الأهداف المحددة للدرس مع مراعاة الظروف المادية والاجتماعية للبيئة المدرسية، ومراعاة ميول التلاميذ بحيث تدفعهم الأنشطة المختارة للمشاركة الإيجابية والتفاعل المثمر مع الموقف التعليمي، مع ضرورة أن ينوع المعلم في الأنشطة التعليمية التي يختارها سواء في الدرس الواحد أو من درس لآخر لأن هذا يؤدي لتعلم أفضل ويبعد الملل عند المعلم والتلميذ على حد السواء[13] ، فالمعلم من خلال تحديده للأهداف أن يحدد نوعية التعبير المعرفي والمهاري الذي يصبو إلى إحداثه على سلوك المتعلم، ماذا ينتظر من المتعلم إنجازه في نهاية الدرس ؟ أو ما الذي ينبغي أن يكون المتعلم قادرا على فعله في نهاية هذا النشاط ؟[14] .

نستخلص إذا أن وضوح الأهداف ودقتها يمكنان المعلم من السيطرة على الموقف التعليمي ويجعل هذا الأمر يحدد الوسائل المناسبة لتحقيق هذه الأهداف ...

بعد تحديد الأهداف على المعلم أن يعمل على التخطيط الجيد للمنهج المدرسي تمهيدا للتدريس، فالتخطيط بمثابة رسم بياني أو خريطة توضيحية يستعين بها المعلم قبل التنفيذ والتقييم فالتخطيط يوضح مسار عمل المعلم واتجاهاته وطرقه ومشكلاته وكيف يمكن التغلب عليها.

لهذا كان لابد من أن يتقن المعلم مهارة التخطيط لتدريسه حتى يتمكن من توفير أفضل بيئة تعليمية ويعمل على خلق المناخ الذي يشجع على حدوث أكبر قدر من التفاعل وبالتالي أكبر قدر من التعلم[15].

فالتخطيط يكون من خلال البحث عن وضعية الانطلاق من خلال التعرف على مكتسبات التلاميذ ذات العلاقة المرجعية بالموضوع الجديد وعلى مدى تحكمهم في هذه المهارات والقدرات، في هذا الصدد تقول الباحثة أنا بونابوار (Anna Bonaboir) "إن نجاح الفعل التعليمي يتوقف أولا وقبل كل شيء على وضعية الانطلاق فالمعلم الذي يقبل على درس الأفعال الناسخة في قواعد اللغة العربية ينبغي أن يتأكد من مدى استيعاب تلاميذه ومدى تحكمهم في عناصر الجملة الاسمية، وإلا فإن جميع جهوده ستذهب سدى إذا لم تتوفر لديهم هذه الأرضية[16].

4/ **مشكلات المعلم**: المعروف عن كل مهنة أن لها صعوبات وعراقيل تقف حاجزا وعائقا أمام حسن سيرها، وقد تكون هذه المشكلات ذات طبيعة مادية أو غير ذلك، فما بالك بمهنة التعليم التي تعتبر من أعقد المهن وأكثرها حساسية.

أ/ **مشكلات متعلقة بالأهداف**: إن المعلم يبدأ نشاطه التعليمي بتكوين فكرة واضحة عما يريد إنجازه من خلال عملية التعليم، وبالتالي عليه أن يقف على الأهداف التي يتوقع من طلبته إنجازها نتيجة هذه العملية.

ب/ **مشكلات متعلقة بخصائص الطلاب**: يتباين عادة الطلاب في خصائصهم الجسمية والانفعالية والاجتماعية، هذا الأمر الذي يفرض على المعلم مواجهة مشكلة فهم الطلاب من خلال التعرف على قدراتهم ومستوى نموهم، ونقاط ضعفهم وقوتهم لتحديد مدى استعدادهم وقدراتهم على إنجاز الأهداف التعليمية المسطرة.

ج/ **مشكلات متعلقة بالتعلم**: يحتاج المعلم لأداء مهمته التعليمية إلى معرفة المبادئ المتنوعة التي تحكم عملية اكتساب المعلومات لدى الطلاب، ونظرا لتنوع سلوك الطلاب، فإن المعلم سيواجه مشكلة اختيار مبادئ التعلم التي تتفق مع طبيعة المواقف التعليمية التعلمية.

د/ **مشكلات متعلقة بالتعليم**: لابد من أن يلجأ المعلم إلى اختيار طريقة أو أكثر من طرق التدريس التي تختلف باختلاف المواد، وقد تختلف في نفس المادة حتى يكون هناك استيعاب أكثر للمتعلمين.

خ/ **مشكلات متعلقة بالتقويم**: يقوم المعلم بالتقويم للتعرف على مدى التقدم في تحقيق الشيء الذي يجعله يواجه اختبار أو تطوير الإجراءات التي تساعده على معرفة هذا التقدم[17].

5/ الاختلافات النفسية وأثارها على الاستيعاب

أ/ **الفوارق الفردية**: يستخدم مصطلح الفوارق الفردية في مجال علم النفس الفارقي للتعبير عن الانحرافات الفردية عن المتوسط الجماعي في الصفات المختلفة، الذي قد يضيق مداه أو يتسع وفقا لتوزيع المستويات المختلفة، لكل صفة من الصفات التي تهتم

بتحليلِها ودراستها، يقول جيمس دريفر James Drever (1965) في هذا الصدد: " إنها الانحرافات عن متوسط الجماعة في الصفات العقلية والجسمية"(18)

إنها مجموع الخصائص والصفات والسمات التي يتميز بها كل إنسان عن غيره سواء كانت تتعلق بالنواحي الجسمية أو العقلية أو الاجتماعية أو المزاجية أو الأخلاقية.

والفوارق الفردية ظاهرة طبيعية، لازمت الإنسان منذ نشأته، حيث يكاد يكون من المحال وجود شبيهين في كل شيء، حقيقة ساهمت بلا شك في إعطاء معنى للحياة، وتحقيق حالة التوازن والتكامل المنشودة بين الأفراد، وذلك من خلال تحديد وظائف وأدوار كل واحد في تحقيق المصالح المشتركة للجماعة التي ينتمي إليها.

والفصل الدراسي، كفضاء للعيش المشترك لمجموعة من المتعلمات والمتعلمين، يشكل مجالا خصبا لبروز كل أنواع الفوارق والاختلافات، والتي لا يستقيم الفعل التعليمي/ التعلمي ولا يحقق أهدافه وغاياته المختلفة، إلا باستحضارها أثناء كل العمليات والإجراءات المحايثة له.

وتتعدد مظاهر الفوارق الفردية بين الأشخاص، ومنها: فوارق في مستويات النمو المعرفي؛ فوارق في نسق التعلم؛ فوارق في مستوى الأنماط المعتمدة في التعلم؛ فوارق في مستوى الاستراتيجيات المعتمدة في التعلم؛ درجة التحفز للعمل المدرسي (الرغبة والدافعية)؛ علاقة المتعلم بالمعرفة المدرسية؛ التاريخ المدرسي للتلميذ.

ب/ **مجالات الفوارق الفردية:**

❖ **المجال الفيزيولوجي:** إن دراسة الفوارق الفردية لا يمكن أن تكتمل دون الأخذ بعين الاعتبار نواحي التكوين الجسمي للفرد، فالنواحي الجسمية تؤثر على الحالة النفسية للفرد وتتأثر بها وسوف نبين فيما يلي أهمية بعض النواحي الجسمية.

1/ حالة الحواس: تعتبر الحواس حلقة الوصل بين المنبهات الخارجية أو الداخلية ووسيلة اتصال بين الفرد والعالم الخارجي المحيط به، فهي أبواب المعرفة عند الإنسان ووسيلة الإدراك والإحساس بالمؤثرات الخارجية. ويختلف الأفراد فيما بينهم في قوة الحواس أو ضعفها مما يؤدي إلى اختلاف قدراتهم على التكيف مع البيئة التي يعيشون فيها. كما تختلف شدة الإحساس من حاسة إلى أخرى في الفرد الواحد وذلك طبقا للطاقات النوعية لدفعاتها العصبية التي ولد مزودا بها.

2/ المظاهر الحركية: تتوقف المظاهر الحركية على عوامل جسمية وعوامل عقلية في آن واحد، فسرعة الحركة أو بطؤها والقدرة في التحكم في الحركة والتوافق الحركي سواء في المشي أو الكتابة أو القيام بأعمال يدوية تحتاج لمهارات خاصة وهذا يتوقف على ما يتكون بين الجهاز العصبي والعضلي وبين عمليات الإحساس والإدراك والانتباه من ارتباطات، وما يحدث للشخص من تغيرات انفعالية ومزاجية وهذا من شأنه أن يجعل فوارق فردية واسعة في هذه المظاهر الحركية وكذلك تظهر هذه الفوارق جلية بين الجنسين.

3/ بنية الجسم من حيث النمو والنضج: إن التكوين الجسمي يؤثر كثيراً على اتجاهات الشخص وعلى الكثير من جوانب سلوكه وكذلك في نظرته إلى الناس أو نظرتهم إليه وكذلك في نظرته نحو نفسه ويكون في الفوارق بين الأفراد سواء في تكوين الاتجاهات أو التعامل مع الآخرين والسبب الكامن وراء ذلك هو التكوين الجسمي الذي يميز الأفراد عن بعضهم البعض.

لهذه الفوارق الفردية على المستوى الفيزيولوجي أثار مهمة على صورة الذات، وهي صورة تتفاعل بشكل كبير مع مستوى التعلم.

❖ **المجال المعرفي**: مع تطور الدراسات النفسية وظهور علم النفس المعرفي، ازداد الاهتمام بالفوارق الفردية في مجال تناول المعلومات ومعالجتها.

وهناك علاقة قوية بين الأساليب المعرفية للتحصيل الدراسي، إذ أنها تتعلق بأشكال النشاط المعرفي للإنسان وليس بمحتواه. أي يستطيع الأسلوب المعرفي أن يجيب عن الطريقة التي يفكر بها الإنسان. كما تعبر الأساليب المعرفية عن تفضيل الإنسان لاستقبال المعلومات وإصدارها عن النحو الذي يدل على تعلقها بعمليات تناول المعلومات وتجهيزها.

وفضلا عن ذلك، فإن الأساليب المعرفية تعد جزء من مجال واسع، هو أساليب التعلم. ويعرف أسلوب التعلم في المجال المعرفي بأنه تفضيل الفرد لنمط ما من أنماط معالجة المعلومات.

ج/ أنواع الفوارق الفردية

يوجد نوعان من الفوارق الفردية هما:

1/ **فوارق في النوع**: يطلق على الفوارق الفردية في الصفة فوارق في النوع، وذلك لاختلاف وحدة القياس المشتركة التي تسمح بالمقارنة بينهم، فمثلا قياس صفة الطول بالمتر بينما يقاس الوزن كصفة أخرى بالكيلو جرام، والفرق بين صفة الطول والوزن هو فرقا في النوع.

كذلك الحال في الصفات النفسية، والقدرات العقلية، فالفرق بين الذكاء، والابتكار هو فرق في نوع الصفة، فلا يمكن المقارنة بين ذكاء فرد وقدرة آخر على الابتكار، كذلك لا يمكن المقارنة بين سمة الانطواء لدى فرد ما والاتزان الانفعالي لدى فرد آخر، لأنه لا توجد وحدة قياس واحدة مشتركة بين أي منهما.

2/ **فوارق في الدرجة**: بالنسبة للفوارق بين الأفراد في أية صفة أو سمة واحدة، فيطلق عليها فوارق في الدرجة، أي فوارق في درجة وجود هذه الصفة أو السمة، فالفرق بين الطول والقصر هو فرق في الدرجة، وذلك نظرا لأنهما يمكن قياسهما والمقارنة باستخدام مقياس أو معيار واحد، فكلاهما يقاس بالمتر أو السنتيمتر، كما أنه توجد درجات متفاوتة في الطول أو القصر يقاس بالمتر أو السنتيمتر، حيث تتضمن الفوارق في الدرجة والنظر إلى أي صفة من الصفات أو أي سمة من السمات على أنها بعد Dimension أو متصل Continum فكل شخص يقع عند نقطة معينة على هذا البعد، فنستطيع أن نتصور أي صفة على أنها مسطرة متدرجة، وكل شخص يقع عند درجة معينة على هذه المسطرة، وفقا لمقدار ما يتصف به من السمة، فالفرق بين الفرد المبتكر وبين الفرد الغير مبتكر هو فرق في درجة الابتكار لدى كل منهما، إيضاحات الفرق بين الفرد المنبسط وبين الفرد المنطوي هو فرق في درجة كل منهما على مقياس سمة الانبساط / الانطواء، وهو يقيس كل منهما بمقياس واحد يحصل كل فرد على درجة على هذا المقياس وبناء على ذلك يضف أما إلى منبسط أو منطوي أو متوسط بين الانبساط والانطواء.

د/ **مظاهر الفوارق الفردية**: تتحدد مظاهر الفوارق الفردية في:

1/**الفوارق بين الأفراد**: هي تلك الاختلافات التي نلاحظها بين الأفراد في مختلف السمات الانفعالية والعقلية والمهارات الحركية... الخ.

والفوارق بين الأفراد هي فوارق في الدرجة وليست في النوع، وبمعنى آخر هي درجة تشتت الأفراد على توزيع أي سمة لديهم سواء كانت عقلية أو انفعالية...الخ.

2/ **الفوارق داخل الفرد**: تختلف الفوارق الفردية في القدرات أو السمات لدى نفس الفرد ولا تتساوى فيما بينهم، فمثلا الفـــرد الرياضي المتفوق في الثبات الانفعالي قد لا يكون متفوق في القدرة العقلية، وهذا الاختلاف في القدرات أو السمات لدى الفـــرد الرياضي فوارقا داخل الفرد.

وتشير نتائج الدراسات التي أجريت لمعرفة الفوارق في قدرات وسمات الفرد الواحد، إلى أنه لا توجد علاقة بين السمات المختلفة لدى الفرد الواحد، فليس الفرد متفوقا في جميع السمات وليس ضعيف في جميعها، بل أننا نشاهد عادة في معظم الحـــالات أن الفرد يكون متفوقا في بعض السمات، ومتوسط في بعضها وضعيفا في البعض الآخر.

الخاتمة:

يعد بحثنا هذا محاولة بسيطة لإبراز دور أهمية طريقة الأستاذ في الشرح والتدريس مع مراعاة الجوانب النفسية للتلميذ، فليس المهم الكم ألمعلوماتي الذي يحمله الأستاذ بل المهم هو كيفية إيصال الفكرة، ومن أهم النتائج المتوصل إليها:

- اختيار الأستاذ الطريقة الجيدة تساعد على إنجاح درسه.
- المعاملة الجيدة للتلاميذ تساعد على الارتياح داخل القسم وبالتالي يستطيعوا أن يستوعبوا قدرا كبيرا من المعلومات.
- المعلم هو القدوة الأساسية ومهمته بالنسبة للتلاميذ، فكانت سلوكياته وأخلاقه عاليـــــة كان هناك جيل ناضج يساعد على تطور وازدهار العلم.
- الوسائل الحديثة تساعد على اكتساب المهارات وتنميتها.
- تعكس البيئة الصفية اهتماما أصيلا بالنسبة للتلاميذ واحتراما لهم كأفراد.
- استعمال ألفاظ التحفيز تساعد الطفل على العمل بجدية أكثر.

ومن بين الاقتراحات والتوصيات:

1) يجب أن تتبع الطريقة الاستقرائية في تدريس بعض المواد التي تحتاج إلى التركيز والدقة كالقواعد مثلا.
2) ضرورة إتباع طرق التدريس الحديثة التي تعتبر التلميذ طرفا ايجابيا في عملية التعليم.
3) يجب الإكثار من التمارين التطبيقية المتنوعة في جميع المواد.
4) يجب على المعلم تتبع مراحل الدرس في التسلسل من تمهيد وعرض وخاتمة، محاولا إشراك التلميذ في ذلك.
5) التركيز على ما هو ضروري وتعدي التفاصيل التي تؤدي إلى الملل والركود ومهما فعلنا لا يمكننا الإلمام بباب التربية، لان هذا الأخير باب واسع، ولا يعد الجزء الذي فتحناه إلى جانب من جوانبها والذي نأمل أن نكون قد قدمنا فيه المفيد، ولو كان بسيطا، ويبقى أملنا أن نفتح هذه الجوانب مرات أخرى كي يقدم فيها الأفضل والأحدث.

المراجع:

1/ "همزة وصل"، تربية عامة، وزارة التعليم الابتدائي والثانوي، العدد08، الجزائر،1974، 1975.

2/ أحمد خنسة "دليل المعلم إلى التربية وعلم النفس" 2000، دار علاء الدين.

3/ أحمد عبد الحميد رشوان ،"التربية والتعليم"،مؤسسة شباب الجامعة ،الإسكندرية،2005.

4/ سامي محمد ملحم " صعوبات التعلم"، دار المسيرة للنشر والتوزيع: القاهرة، 2002 .

5/ سيد جاب الله، التعليم و التنمية، مؤسسة الوراق، عمان، 2004.

6/ طه حسين الدليمي و سعاد عبد الكريم عباس الوائلي، "اللغة العربية مناهجها و طرائق تدريسها"، دار الشروق للنسر و التوزيع، الطبعة الأولى، 2003.

7/ عبد المؤمن يعقوبي "أسس بناء الفعل الديداكتيكي من بيداغوجية التدريس إلى بيداغوجية التقييم والدعم"1996 ـــ الجزائر.

8/ كوثر حسين كوجك "اتجاهات حديثة في المناهج وطرق التدريس"1997 ،عالم الكتب ط 2 القاهرة .

9/ معروف رزيق،"كيف تلقي درسا" ،بيروت،منشورات دار اليقظة،ط1 ،.1969.

10/ المنجد الابجادي"، بيروت،لبنان، المطبعة الكاثوليكية، 1986.

11/Individual differences : variations or deviation from the average of the group, with rite respect to mental or physical characters, occurring in the individual members of the group. (James Drever, 1974 .

الهوامش:

1/"همزة وصل"، تربية عامة، وزارة التعليم الابتدائي والثانوي، العدد08، الجزائر،1974، 1975،ص 141.

2 / معروف رزيق،"كيف تلقي درسا" ،بيروت،منشورات دار اليقظة،ط1969،1 ،ص26.

3 / طه حسين الدليمي و سعاد عبد الكريم عباس الوائلي، "اللغة العربية مناهجها و طرائق تدريسها"، دار الشروق للنسر و التوزيع، الطبعة الأولى، 2003،ص 22.

4 / أحمد عبد الحميد رشوان ،"التربية والتعليم"،مؤسسة شباب الجامعة ،الاسكندرية،2005،ص22

5 / المنجد الابجادي"، بيروت،لبنان، المطبعة الكاثوليكية، 1986، ص264.

6 / سيد جاب الله، التعليم و التنمية، مؤسسة الوراق، عمان،2004،ص 15.

7 / أحمد عبد الحميد رشوان، التربية و التعليم، ص 127.

8 / أحمد خنسة "دليل المعلم إلى التربية وعلم النفس" 2000، دار علاء الدين.ص269.

9 / عبد المؤمن يعقوبي "أسس بناء الفعل الديداكتيكي من بيداغوجية التدريس إلى بيداغوجية التقييم والدعم"1996 ـــ الجزائر. ص27.

10 / سيد جاب الله، "التعليم والتنمية"،ص 17.

11 / كوثر حسين كوجك "اتجاهات حديثة في المناهج وطرق التدريس"1997 ،عالم الكتب ط 2 القاهرة .ص 269-272.

12/ كوثر حسين كوجك "المرجع السابق" .ص 269-296.

13/ كوجك كوثر حسين ، المرجع السابق، ص 26.

14/ عبد المؤمن يعقوبي، المرجع السابق، ص 24.

15/ كوجك كوثر حسين، المرجع السابق، ص 55.

16/ عبد المؤمن يعقوبي، المرجع السابق، ص 28.

17/ سامي محمد ملحم " صعوبات التعلم"دار المسيرة للنشر والتوزيع2002 ، ص 36-37.

18/ Individual differences : variations or deviation from the average of the group, with rite respect to mental or physical characters, occurring in the individual members of the group. (James Drever, 1974, p. 134.

دور الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية في تحقيق التميز الإداري

The Role Of Strategic Management Of Human Resources In Achieving Administrative Excellence

الأستاذة: سلمى رزق الله
قسم العلوم الاجتماعية
جامعة البليدة 2 ، الجزائر .

الدكتور: مساك أمينة
قسم العلوم الاجتماعية
جامعة البليدة 2 ، الجزائر

الملخص :

يهدف هذا المقال إلى تحديد دور الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية في تحقيق التميز الإداري خاصة في ظل التغيرات الجديدة التي شهدها العصر التي أدت إلى تغيير النظرة إلى الموارد البشرية ، فإنتقال المؤسسة إلى عصر المعلومات والمعرفة أوجب عليها أن تجدد رأسمالها الفكري وتتعلم كيف تحوله إلى أرباح أو إلى وضع استراتيجي معين يسمح بتحقيق الميزة التنافسية ، وهذا يعني ضرورة أن تبحث المؤسسات عن الثروات الفكرية والمهارات والأفكار الإبداعية والمبتكرة الكامنة في كفاءاتها البشرية غير المستغلة حتى يمكنها الاستثمار فيها ، لاستخلاص قيمة أعلى من خلال تنميتها وتحويلها إلى ميزات تنافسية مستدامة ، فهم حاليا يشكلون الركيزة الأساسية لبقاء المؤسسة في مجال المنافسة .

الكلمات المفتاحية : الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية ، التميز الإداري ، الموارد البشرية ، الميزة التنافسية .

Summary:

This article aims to define the role of strategic management of human resources in achieving administrative excellence especially in light of the new changes in the era that led to change the perception of human resources , Transmission institution to the era of information and knowledge binds it to renew its capital intellectual and learn how to turn it to profit or to certain strategic position to achieve competitive advantage, and this means the need for institutions looking for intellectual wealth, skills and creative ideas and innovative potential in human competencies untapped so that it can invest in them, to extract higher than during its development and turn them into competitive advantages sustainable, understand the value of currently make up the essential foundation for the survival the institution in the field of competition.

Key words : strategic management of human resources, administrative excellence, human resources, competitive advantage.

مقدمة :

نتيجة للتحولات الجديدة التي تطرحها العولمة والتطورات التي يشهدها الميدان التكنولوجي بكل جوانبه ، أصبح تأقلم المؤسسات وما تتوفر عليه من موارد مادية وبشرية ضرورة ملحة لضمان الاستمرارية في ظل بيئة تتميز بكثرة التقلبات وإشتداد حدة المنافسة ، وهذا ما جعل مختلف المؤسسات تسعى جاهدة إلى احتيار وتطبيق العديد من الاستراتيجيات والرؤى الجديدة من أجل المحافظة على البقاء . ومن أهم الاستراتيجيات التي تعتمد عليها المؤسسات في هذا الشأن الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية التي تعنى برسم سياسة المؤسسة طويلة الأجل للعنصر البشري في العمل وكل ما يتعلق بحياته الوظيفية داخل المؤسسة ، وتسعى الإدارة إلى الاستثمار في المورد البشري واعتباره رأس مال فكري لا عبء عليها، لذا يجب الإهتمام به وبكل متطلباته ، والعمل على تأهيله تطوير كفاءاته وذلك بإتباع عدة مناهج وطرق مساعدة لرفع قدرتها على التحكم في متطلبات وظيفته .

إذن يعد الاستثمار في رأس المال البشري محركا ومفتاحا لتحقيق النمو وتدعيم القدرة على المنافسة وبالتالي الوصول إلى تحقيق التميز الإداري الذي أصبح مطلبا وغاية تسعى كل المؤسسات إلى الوصول إليها ، والعمل الجاد وبنفس الوتيرة للمحافظة على هذه الريادة .

وعليه يهدف هذا المقال إلى إبراز أهمية الموارد البشرية في تحقيق التميز الإداري، من خلال إدارة الأفراد إدارة إستراتيجية والتخطيط إستراتيجيا لمسارهم الوظيفي داخل الموسسة والعمل على الاستثمار فيهم لتنمية وتطوير قدراتهم وذلك من خلال الإجابة على التساؤلات الآتية :

- **ما المقصود بالإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية ؟**
- **ماهي الأساسيات التي ترتكز عليها ؟**
- **كيف يمكن أن تسهم في تحقيق التميز الإداري ؟**

وللإجابة على هذه التساؤلات سيتم التطرق إلى كل من ماهية الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية ، ماهية التميز الإداري وأخيرا دور الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية في تحقيق التميز الإداري .

أولا : ماهية الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية :

1. مفهوم الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية :

يدل هذا المفهوم على" رسم سياسة تعامل المؤسسة مع العنصر البشري في العمل وكل ما يرتبط بشؤونه الخاصة بحياته الوظيفية في عمله وذلك بواسطة ممارسات جديدة ومعاصرة تتماشى مع إستراتيجياتها العامة في ظل البيئة التي تعيشها "[1]

كما تعرف أيضا بأنها " الاتجاه العام للمنظمة لبلوغ أهدافها الإستراتيجية من خلال مواردها البشرية والتي تسهم بجهودها في تنفيذ الخطة الإستراتيجية للمنظمة "[2]

يتضح من خلال هذين التعريفين أن إدارة أعمال المؤسسات هي خطة طويلة الأجل مكونة من برامج وسياسات تكون وظائف هذه الإدارة ومهمتها داخل المؤسسة شاملة مجموعة القرارات العامة المتعلقة بأمور الموارد البشرية التي تعمل فيها كما تهدف إلى خلق قوة عمل مؤهلة وفعالة كالقدرة على تحقيق متطلبات تنفيذ إستراتيجيات المؤسسة .

وبهذا فهي مدخل أو إطار لصنع القرارات الإستراتيجية المتعلقة بالموارد البشرية داخل المؤسسة على كل المستويات خلال مسارهم الوظيفي بداية من التوظيف إلى التقاعد في ضوء الإستراتيجية العامة للمؤسسة وذلك بغرض تنمية وتطوير قدراتهم وبالتالي تحقيق الميزة تنافسية والمحافظة على الريادة .

2. خصائص الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية :

للإدارة الاستراتيجية عدة خصائص من أهمها:

- الاهتمام بالجانب الاستراتيجي، إضافة إلى الجانب التنفيذي الإجرائي قصير الأجل عند إدارة الموارد البشرية في المنظمة .
- النظر للموارد البشرية باعتبارها موردا استراتيجيا .
- ضرورة الربط بين الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية مع الإستراتيجية العامة للمنظمة وتحقيق التكامل بينهما .
- ضرورة الأخذ في الحسبان البيئة الخارجية المحيطة بالمنظمة بما تضمنه من فرص وتهديدات ، وكذلك البيئة الداخلية لإدارة الموارد البشرية بما تشمله من جوانب قوة أو نواحي ضعف .
- النظر للإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية باعتبارها أداة لتحسين مستويات الأداء التنظيمي وتنمية ثقافة تنظيمية معززة لهذا الأداء . [3]

3. أهمية الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية

إن إستراتيجية التنمية والتطوير داخل المؤسسات يجب أن لا تغفل أهمية التكامل والارتباط بين رأس المال المادي والبشري باعتبارهما عنصران أساسيان يمتزجان امتزاجا كاملا في تحقيق النشاط الإستراتيجي ، فتحقيق المؤسسات لأهدافها لم يعد يقتصر على ما تتوفر عليه من عناصر إنتاج تقليدية ، بل أيضا على ما تتوفر عليه من مستوى معرفي وفني يتميز به موردها البشري ، فقد ثبت أن التقدم المهاري والتقني الذي يعتمد على الجهد الإنساني في البحث العلمي والابتكار والمبادرة أن التطوير والإبداع كان السبب المباشر في تزايد الإنتاجية ، ومن ثم تمكين المؤسسات التي أتقنت هذا الجانب من امتلاك زمام المبادرة في تحقيق التفوق والريادة [4]

تعتبر الموارد البشرية هنا ممثلة في العاملين من مختلف الفئات والمستويات والتخصصات الدعامة الحقيقية التي تستند إليها المؤسسة الحديثة في تحقيق أهدافها، فالعاملين هم الأداة الحقيقية للتنمية والمصدر الأساسي للتطوير داخل المؤسسة واعتمادًا عليه تتحدد كفاءة باقي الموارد . [5]

وعليه فاهتمام الإدارة المعاصرة بقضايا الموارد البشرية يعبر عن محاولة إيجاد التوازن الدائم بين أهداف المؤسسة وأهداف العاملين بها، وذلك من خلال التعامل مع الأفراد على أساس معيار التكلفة والعائد، وأن فهم مدلول الموارد البشرية وتحديد أهميتها ضمن موارد المؤسسة يوفر المجال لتحديد مدى الحاجة إلى تطبيق مفهوم الإدارة الإستراتيجية على مستوى هذا النوع من الموارد . حيث يتمثل دور إدارة الموارد البشرية في جذب وتنمية الأفراد الذين يمتلكون المواهب والخيال اللازمين للمؤسسات لتحقيق التنافس في بيئة متغيرة ، معقدة ومتصارعة ، وهذا يعني أن إدارة الموارد البشرية يجب أن تكون الوظيفة الأكثر أهمية في كل الأعمال [6] ، يستوجب إدارتها بمنظور إستراتيجي يأخذ بعين الاعتبار أهداف المؤسسة وأهداف العاملين بها ، ويمكن حصر أهمية الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية في ما يلي :

– كونها نظام يهدف إلى تحقيق الاستثمار الفعال للقدرات والمهارات البشرية، من خلال اعتماد إستراتيجيات ملائمة وسياسات وبرامج مناسبة تعمل على استغلال كل الطاقات والإمكانات التي تتوفر لدى الأفراد العاملين بالمؤسسة .

– هي خطة طويلة الأجل مكونة من مجموعة من النشاطات على شكل برامج وسياسات تتعلق بالعنصر البشري داخل المؤسسة حيث تنسجم مع الإستراتيجية الكلية للمؤسسة، وهي تهدف إلى خلق قوة عمل مؤهلة وفعالة وقادرة على تحقيق متطلبات النشاط الإستراتيجي داخل المؤسسة .

– إن الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية بهذا المعنى تشير إلى مجموعة الإستراتيجيات والخطط الموجهة لإدارة التغيير في نظام الموارد البشرية ، والتي تعمل على تدعيم إستراتيجية المؤسسة الهادفة إلى مواجهة التغيرات البيئية .

– حتى تحقق إدارة الموارد البشرية الفعالية المطلوبة في مختلف الجهود المبذولة لإعداد وتطبيق البرامج والسياسات المتعلقة بالأفراد، وجب عليها الانخراط في عمليات الإدارة الإستراتيجية للمؤسسة. ويتطلب هذا من مديري الموارد البشرية أن :

– يساهموا في صياغة إستراتيجية المؤسسة خاصة المتعلقة بالقضايا ذات العلاقة بالعنصر البشري ، أو المتعلقة بتوجيه المورد البشري نحو بديل إستراتيجي محدد .

– أن يمتلكوا معرفة تامة بالأهداف الإستراتيجية للمؤسسة .

– معرفة نوعية المهارات وأنماط السلوك والاتجاهات المطلوبة لتحقيق الدعم وتوفير سبل النجاح للخطة الإستراتيجية المختارة . [7]

ونشير هنا أن الكثير من المؤسسات الاقتصادية نجحت في تحسين وتطوير أنظمة وبرامج الإنتاج ، التسويق وغيرهما ، سعيًا منها لتحقيق المزيد من التفوق التنافسي، إلا أن هذه الأنظمة لا تستطيع أن تحقق الفعالية المطلوبة إلا من خلال المورد البشري ، وعليه فإن الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية ستكون هي الملجأ الذي يضمن تحقيق التوافق بين مختلف برامج التنمية والتطوير التي تتحقق داخل المؤسسة على اختلاف أنواعها وغاياتها.

4. التحديات التي تزيد من أهمية الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية :

تواجه مختلف المنظمات العديد من التحديات في كل من بيئة العمل الداخلية والخارجية ، مما يزيد من حاجتها إلى إدارة مواردها البشرية إستراتيجيا ولعل من أهم هذه التحديات ما يلي :

❖ **التحديات الداخلية** : تعد الموارد البشرية من أهم التحديات والعوائق الداخلية التي قد تقف حائلا أمام نمو المنظمة لمواجهة التحديات المختلفة وخاصة التغيرات التكنولوجية ، ويرجع السبب في ذلك إلى التغير في اتجاهات الأفراد المتعلقة بالعمل متمثلة في :

– انخفاض رضاء الأفراد عن الأجور والمزايا الممنوحة لهم مما ينعكس على ولائهم وانتمائهم إلى المنظمة .
– شعور الأفراد بنقص المعلومات المتاحة لهم واللازمة لأداء العمل بالشكل المأمول .
– إنخفاض شعور الأفراد بالأمان الوظيفي الناجم عن النقص في بعض مهاراتهم المطلوبة للعمل نتيجة التطور التكنولوجي السريع .اعتقاد الأفراد بعدم إستغلال المنظمة لقدراتهم إستغلال كاملا .
– شعور الأفراد بعدم الوضوح في طرق تقييم أدائهم . [8]

❖ **التحديات الخارجية** : تواجه المنظمة العديد من التحديات في بيئة العمل الخارجية التي تؤثر بدورها على الإدارة الإستراتيجية لمواردها البشرية ولعل من أهم تلك التحديات ما يلي :

– التطور التكنولوجي السريع والتحولات العالية في مجال المعلومات والعلاقات الدولية .
– حرية انتقال العمالة في ظل النظام العالمي الجديد وتعدد القوانين الحكومية المنظمة لأنشطة المنظمات المختلفة .

- زيادة حدة المنافسة لدرجة أنها أصبحت عالمية مما أدى إلى إعادة تنظيم المنظمات .
- البطء في نمو الأسواق وما يصاحب ذلك من تغير مستمر في أذواق ورغبات المستهلكين .
- التغيرات الديمغرافية للقوى العاملة في سوق العمل . [9]

ثانيا : ماهية التميز الإداري :

1. مفهوم إدارة التميز :

" هو حالة من الإبداع الإداري والتفوق المؤسساتي تحقق مستويات عالية غير عادية من الأداء والتنفيذ للعمليات الإنتاجية والتسويقية والمالية وغيرها في المؤسسة ، بما ينتج عنه نتائج وإنجازات تتفوق على ما يحققه المنافسون وترضى عنها الفئة المستهدفة وأصحاب المصلحة كافة في المؤسسة **"** [10]

يعرفه بن عبود على أحمد ثاني بأنه : **"** الجهود التنظيمية المخططة التي تهدف إلى تحقيق التحسينات المستمرة والتميز والاستجابة للقوى الداعمة للتميز وتحقيق الميزات التنافسية الدائمة **"** [11]

ومن خلال مختلف تعاريف التميز نحدده كونه القدرة على توفيق وتنسيق عناصر المنظمة وتشغيلها في تكامل وترابط لتحقيق أعلى معدلات الإتقان والوصول بذلك إلى مستوى المخرجات الذي يحقق رغبات ومنافع وتوقعات أصحاب المصلحة المرتبطين بالمؤسسة داخليا وخارجيا .

2. مبادئ إدارة التميز :

من خلال ما تطرق إليه المختصين، حاولنا حصر أهم مبادئ التميز المتمثلة في:

- **التركيز على الزبائن** : يركز التميز هنا على وجود علاقة مستديمة بين المنظمة وبين عملائها الداخليين والخارجيين .
- **القيادة وتناسق الأهداف** : التميز هو وجود قيادة قوية ومميزة تستطيع أن تحقق أهدافها التي تكون مشتركة ومنسجمة بشكل يحقق مصلحة كل الأطراف داخل وخارج المؤسسة .
- **الإدارة بالعمليات والحقائق** : فالتميز هو إدارة المنظمة من خلال مجموعة مترابطة من النظم والعمليات . [12]
- **تطوير ومشاركة القوى البشرية** : التميز هو تعظيم مساهمة العاملين من خلال تنميتهم وزيادة نسبة مشاركتهم
- **نتائج الأعمال** : حيث أن التميز يؤدي إلى تحقيق النتائج التي تؤدي إلى تفوق المنظمات .
- **الابتكار والتجديد** : فالتميز هو تحدي للوضع الراهن وإحداث التغيير باستخدام التعلم لخلق فرص الابتكار والتحسين . [13]
- **تنمية علاقات الشراكة والتحالف** : التميز هو التنمية والحفاظ على القيمة المضافة للشركات .
- **المسؤولية المجتمعية** : التميز هو السعي إلى الفهم والاستجابة لتوقعات أصحاب المصلحة . [14]

كل هذه المبادئ تتم في حدود:

- تركيز المؤسسة في نشاطاتها على العميل وكيفية إرضائه وتلبية رغباته ومتطلباته ، ويكون ذلك من خلال جمع أكبر قدر من المعلومات عن كل ما يتطلع إليه العميل بشكل دوري وفي الوقت المناسب إعتمادا على التغذية العكسية وعن ردود أفعاله تجاه المنتجات المتوفرة ومن هنا العمل على التطوير والتحسين المستمر للمنتجات مهما كان نوعها .
- إدارة المعلومات وتحليلها ودراستها في كافة المستويات فعلى المؤسسة الراغبة في تحقيق التميز أن تضمن نوعية وجودة توافر المعلومات المطلوبة المتعلقة بالعملاء الداخليين والخارجيين ، ظروف العمل الداخلية والخارجية ، الفرص والتهديدات التي قد تعترضها .. [15]

3. أهمية إدارة التميز .

تعتبر إدارة التميز الاختيار المهم الذي لا بد منه لمواجهة تحديات البيئة الراهنة ومن أجل توضيح أهميتها كان لزاما توضيح مظاهر هذه البيئة والمتمثلة فيما يلي :

– **التغير ثابت وسريع** : لا يمكن للمنظمة التي حققت نجاحا في الماضي أن تستمر على نفس النهج دون البحث عن سبل جديدة وذلك كون البيئة التي تعمل فيها تلك المنظمات ذات طابع التغيير والتطور السريع فالأسباب التي كانت تؤدي للنجاح سابقا قد تكون سبب الفشل في الحاضر ولا بد للمنظمات أن تخطط للمستقبل ضمن كل الاحتمالات حتى تتمكن من الاستمرار قبل أن يخطط لها بالفناء من قبل المنافسين أو طبيعة البيئة المحيطة المتغيرة .

– **حفظ المكان والمكانة** : من الطبيعي إن الأداء غير المتميز يفقد المنظمة قدرتها على السيطرة على المكان (المنظمة) فهي تعمل بعشوائية وبالتالي ستفقد المكانة (الأسواق والمستهلكين) .

– **لا بديل عن الجودة** : أصبح المستهلك لا يقبل عن الجودة بديلا خاصة في ظل وجود البدائل والمنافسة العالمية ، فقد زاد الوعي لدى المستهلك وأصبح يختار المنتج ضمن المواصفات التي يريدها بغض النظر عن بعد المسافة أو السعر أحيانا .

– **تكنولوجيا المعلومات** : لا يمكن تجاهل دور التقدم في تكنولوجيا المعلومات على تغير بيئة الأعمال، فدخول العالم إلى عصر الانترنت والإلكترونيات والعمل عن بعد ...وما إلى ذلك من فرص ساعدت في تغيير الأعمال وتطويرها بشكل يختصر الوقت والجهد ، بحيث أصبح التنافس بين المنظمات على مدى قدرتها على امتلاك أحدث التكنولوجيا في أدائها لعملياتها .

– **المنافسة المستمرة** : حيث فرضت العولمة وتكنولوجيا المعلومات والاتصال أن يكون السوق مفتوح بدون حدود وهذت يعني منافسة غير محدودة وبلا حدود وبالتالي لا تستطيع المنظمة الاستمرار في المنافسة إلا من خلال إدارة التميز .[16]

إذن فإن اعتناق المنظمات لإدارة التميز وتحمل التحديات المبنية على ذلك أصبح في وقتنا الحاضر ضرورة لا غنى عنها، فمن الضروري لأي منظمة أن تسعى لتطبيق إدارة التميز إذا كانت تحرص على استمراريتها وتقدمها، حيث لا بد أن تستجيب للتطورات الداعمة للتميز.

4. نماذج التميز .

تعتبر مفاهيم إدارة الجودة الشاملة قاعدة الأساس التي انطلقت منها حركة البحث عن مصادر ومرتكزات الأداء المتميز، حيث تتمحور تقنيات إدارة الأداء المتميز على كل العناصر والمبادئ الإدارية والتنظيمية التي تجعل تطبيق مفاهيم إدارة الجودة الشاملة أمرا ضروريا يتخلل كافة فعاليات المؤسسة نحو تحقيق الرضا لكل الأطراف المتفاعلة. ومن بين نماذج الجودة والتميز نجد :

❖ **نموذج الياباني لإدوارد ديمنغ Deming**

تم وضع هذا النظام من طرف عالم الرياضيات والفيزياء " ويليام دومينغ" سنة 1951 ، وتم تأسيس الجائزة الوطنية للجودة في اليابان تكريما لهذا الرجل منذ سنة 1962 التي يمنحها اتحاد العلماء والمهندسين اليابانيين (J.U.S.E) ، حيث قام ديمنغ بوضع المبادئ الأربعة عشر لإدارة الجودة وهي عبارة عن إشارة لمفهوم إدارة الجودة الشاملة والتي نجد من بينها :

- التهيؤ للاستمرارية في التوجه نحو تحسين المنتج .
- تصميم برامج للتحسين المستمر في التكاليف ، الجودة ، الخدمة ، والإنتاجية .
- استخدام طرق إحصائية للتحسين المستمر في الجودة والإنتاجية .
- عدم السماح بوقوع أخطاء عند التموين أو في الأداء البشري .

- الاهتمام بالتدريب لتحسين مستوى جميع العاملين .[17]
- التركيز على مساعدة الأفراد نحو أداء أفضل للعمل وتهيئة كل الأساليب والأدوات لتسهيل الأداء الجيد والذي يجعل العاملين فخورين بأدائهم .
- إزالة الحواجز بين الإدارات وتشجيع حل المشاكل من خلال فرق العمل .
- توضيح الالتزام الدائم للإدارة بكل من الجودة والإنتاجية .

ويحتوي نموذج دومينغ على 10 عناصر متساوية في التنقيط لكل منها 10 نقاط لتصل في مجملها 100 نقطة مقسمة كالتالي : سياسات الجودة ، التنظيم وإدارة التنظيم ، جمع واستخدام معلومات الجودة ، التعليم ونشر الجودة ، التحليل (للجودة والعمليات) ، ضمان الجودة ، التحكم في الجودة ، المعايير والإجراءات ، التخطيط للمستقبل ، نتائج الأداء .

حيث يظهر من خلال عرض معايير جائزة Deming اليابانية لإدارة الجودة الشاملة أنها مقسمة على 10 عناصر أساسية دون تفضيل عنصر على عنصر أخر وهي تعد الأغلى قياسا بباقي النماذج الأخرى وأكثر تكلفة وشروطا عن مثيلاتها وبالمقابل الأكثر تميزا وشهرة بالنسبة للمؤسسات التي تحصل على شهادتها فيما يتعلق بكسب ثقة العميل والتنافسية في الأسواق .

❖ **النموذج الأمريكي لإدارة الجودة الشاملة :**

يعود أصل تسمية هذه الجائزة إلى" مالكولم بالدريج "وزير التجارة الأمريكي لعشرينيات القرن الماضي ، وقد تم إطلاق هذه الجائزة خلال سنة 1987 ويبلغ عدد نقاط هذا النموذج 1000 نقطة مقسمة على 7 عناصر ، وهي القيادة (125 نقطة) ، التخطيط الاستراتيجي (85نقطة) ، التركيز على العميل (85نقطة) ، المعلومات والتحليل (85نقطة) ، تطوير الموارد البشرية (85نقطة) ، إدارة العمليات (85نقطة) ، نتائج العمليات (451نقطة) .[18]

يتضح من التقسيم أعلاه ونظام التنقيط أنها ليست متساوية في عدد من العناصر وأعطت الأولوية إلى نتائج العلميات التي قاربت نسبتها نصف النقاط حيث تشكل 45 % ويليها عنصر القيادة بـــــــ 12.5 % فيما تتساوى العناصر الخمسة المتبقية الأخرى على خلاف النظام الياباني الذي يعد الأكثر إيضاحا وتناسقا كما سبقت الإشارة إليه سابقا .

❖ **النموذج الأوربي للتميز :**

- **سمات النموذج الأوروبي للتميز :**

يعبر النموذج الأوروبي للتميز من أبرز نماذج إدارة التميز ويقوم على قاعدة أساسية من فكر الجودة الشاملة وفعاليات الاتحاد الأوروبي لإدارة الجودة الذي أنشأ في عام 1988 ويترابط مع الجائزة الأوروبية للجودة الذي يديرها الإتحاد ذاته ويعتبر المرجع الأول للشركات الأوروبية التي تبحث عن أرقى معايير الجودة وتسعى الى التميز في أسواقها وفي مجالاتها . تتخذ الجائزة الأوروبية للتميز التي أسست عام 1992 من العاصمة البلجيكية بروكسل مركزا لها وتضم مجموعة اعضائها اكثر من 700 شركة وشريك ينتشرون في انحاء العالم ومؤسسة EFQM هي مبتكرة الجائزة الأوروبية للجودة التي تمنح سنويا لتكريم عدد من أبرز الشركات الناجحة، والمحافظة على تقليدها الذي يزود الشركات بتوجيهات عامة لتمكينها من تحقيق النجاح وقياسه وتحديد مستويات الادائية وتقييمها في كل الأماكن والعناصر السياسة .

وتتبلور فلسفة النموذج الأوروبي في ان التميز في الاداء لا يتحقق من خلال خدمة العملاء، تحقيق المنافع لأصحاب المصلحة من االعاملين وغيرهم والمجتمع بأسره فحسب ـــ وانما يتحقق من خلال القيادة التي تقوم بصياغة وتوجيه السياسات والاستراتيجيات والموارد البشرية وتستثمر العلاقات وتدير العمليات المختلفة بالمنظمة ويعرف النموذج الاوروبي التميز بأنه

" الممارسة الباهرة في إدارة المنظمة وتحقيق النتائج " ومن ثم فإن المنظمة تستطيع الوصول الى رتبة إدارة التميز إذا ما التزمت بأفكار وانماط الإدارة القائمة على الأسس المصممة في النموذج .

- **المعايير التي يقوم عليها النموذج الأوروبي للتميز** : يصل عدد عناصر هذا النموذج 9 عناصر ، ونظام التنقيط مقسم على 1000 نقطة توزع كما يلي: القيادة (100 نقطة)، السياسة الإستراتيجية (80 نقطة)، الموارد (90 نقطة)، تسيير الموارد البشرية (80 نقطة) ، العمليات (140 نقطة) ، إرضاء العميل الداخلي – العاملون – (90 نقطة)، إرضاء العملاء الخارجيين (200 نقطة) ، النتائج المتعلقة بالمجتمع (60 نقطة)، نتائج الأداء الرئيسية (150 نقطة) .[19]

ما يمكن ملاحظته من خلال هذا النموذج أنه يتشابه مع النموذج الأمريكي- السابق الذكر- في العديد من العناصر، كما يتقاربان في عدد النقاط التي تمنح إلى هذه العناصر. ولكن يتميز عنه بتركيزه الأكبر على العملاء الخارجيين حيث خصص لهم 20 % من مجمل النقاط دون إغفال العملاء الداخليين (العاملين) ، ثم نتائج الأداء التي خصص لها 15 % من النقاط ، ثم العمليات بـــــــ 14 % من مجمل النقاط ، أما الموارد البشرية والمادية في هذا النموذج فقد خصصت لها نسبة متساوية تقدر بـــــــ 9% من مجمل النقاط، كما أنه يتفرد في الاهتمام الخاص بعنصر خدمة المجتمع التي شكلت نسبة 6 % .

❖ **النموذج الجزائري للتميز** : ويعتبر من النماذج الرائدة في إفريقيا ، وقد انشئ إقتداءا بنماذج التميز السابقة وذلك لمسايرة التطورات العالمية وتحدياتها. وقد أقترح لأول مرة إنشاء نموذج وطني للتميز سنة 2000 وهذا في إطار برنامج تطوير نظام وطني من قبل الحكومة ، وبالفعل تم إقرار هذا النموذج بشكل رسمي وذلك بموجب المرسوم التنفيذي رقم 05- 02 المؤرخ في 06 جانفي 2002 حيث وضع تحت إشراف وزارة الصناعة وترقية الاستثمارات ممثلة بقسم الجودة والأمن الصناعي، ويقدم النموذج الوطني للتميز الجائزة الجزائرية للجودة (PAQ) التي تتمثل في مكافأة مالية قيمتها 2 مليون دينار جزائري بالإضافة إلى كاس الاستحقاق وشهادة شرفية وتمنح الجائزة سنويا كما تعنى بها جل المنظمات التي تنشط على مستوى التراب الوطني سواءا كانت منظمات وصناعات صغيرة ومتوسطة ، منظمات كبيرة ، منظمات عمومية أو خاصة ذات طابع ربحي أو غير ربحي .

يتم التقييم على أساس سلم تنقيط من 1000 نقطة توزع بأوزان متفاوتة على معايير التقييم الثمانية وهي : التزام الإدارة : (120 نقطة) ، الإستراتيجية والأهداف (80 نقطة) ، الاستماع للزبائن : (200 نقطة) ، التحكم في النوعية (120 نقطة) ، قياس الجودة (80 نقطة) ، تحسين الجودة (80 نقطة) ، مشاركة العمال (100 نقطة) ، النتائج (200 نقطة) :[20]

ثالثا: دور الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية في تحقيق التميز الإداري :

1. **الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية كمدخل لتحقيق الميزة التنافسية :**

تتمثل الميزة التنافسية بشكل عام في تميز المنظمة على منافسيها بمركز فريد يمكنها من تقديم منتج متميز أو أكثر بأسلوب ناجح وربحية أفضل وذلك من خلال إنخفاظ تكلفتها أو الحصول على براءة اختراع أو حق امتياز أو تصنيع أو تكنولوجيا جديدة أو تصميم منتجات تتناسب مع توقعات وتقييمات العملاء وغيرها .

ويمكن تعريف الميزة التنافسية بأنها : " مجموعة العوامل التي تميز منتجات المنظمة عن غيرها من منتجات المنافسين بهدف زيادة الحصة السوقية "

وهناك العديد من الوسائل التي يمكن من خلالها تحقيق الميزة التنافسية منها :

❖ **الريادة في التكلفة** : من خلال سعي المنظمة لأن تكون تكلفة منتجاتها أقل من تكلفة مثيلاتها في السوق ويكون ذلك من خلال عدم تبذير المواد المستعملة والتركيز في الوقت نفسه على جودة المنتج ، حيث انه كلما كانت تكلفة المنتج أقل كان سعره أقل وهو ما يجعله مرغوبا من طرف المستهلكين خاصة إذا كان إضافة إلى سعره المنخفض يتميز بالجودة في الأداء.

❖ **التميز أو الاختلاف** : ويقصد بالاختلاف سعي المنظمة لأن تكون هي المتميزة على مستوى الصناعة التي تنتمي إليها وذلك من خلال التركيز على الجوانب التي يرغب العملاء في توافرها في المنتجات التي تقدمها تلك المنظمة .

هذا وتعتبر إدارة الموارد البشرية على مستوى المنظمة مدخل إستراتيجي لإدارة أهم أصول المنظمة وهم العاملون بها والذين يسهمون بشكل فردي وجماعي في تحقيق أهدافها ، وهو ما يحقق ميزة تنافسية للمنظمة . [21]

وهو ما جعل المنظمات الحديثة تهتم بهذا المورد اهتماما كبيرا بداية من توظيف عمالة عالية المهارة، والعمل على زيادة ولاءها والتزامها نحو العمل من خلال والاهتمام بتنمية قدرات مواردها البشرية المادية والمعنوية والفكرية، مما يمكنها من إنتاج منتجات عالية الجودة بأقل تكلفة، ومن أمثلة هذه المنظمات نجد شركة تويوتا وما تحققه من ميزة تنافسية في التكلفة لما تنتجه من سيارات بفضل وجود قوة عمل أكثر التزاما وأكثر قدرة على المنافسة .

ومن ناحية أخرى فإن تحقيق ميزة تنافسية للمنظمة من خلال الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية وممارساتها المختلفة ربما يختلف في نتائجه عن أي ميزة تنافسية أخرى ناتجة عن أنشطة الإنتاج أو التسويق أو التمويل وذلك لأن خلق ميزة تنافسية عن طريق ممارسات إدارة الموارد البشرية يستغرق وقتا طويلا. وفي نفس الوقت فإن ردود أفعال المنافسين تجاه هذه الميزة التنافسية يكون بطيئا في العادة، لأن محاولات المنافسين لتغيير ممارسات إدارة الموارد البشرية الخاصة بهم لمواجهة هذه الميزة يحتاج وقت وجهد كبير. أضف إلى ذلك أن تغيير الممارسات يحتاج لتحليل عميق ودراسة متأنية حتى يمكن تحقيق التنسيق والانسجام بين هذه الممارسات والإستراتيجية العامة للمنظمة من ناحية، وبينها وبين احتياجات الأفراد العامين بالمنظمة من ناحية أخرى .

ومن هنا فإن خلق ميزة تنافسية من خلال الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية وممارستها إنما يحقق عائد كبيرا للمنظمة يستمر لفترة غير قصيرة إلى أن يتمكن المنافسون من التغلب على ذلك بخلق ميزة تنافسية لهم .

ولعل من أهم المزايا التي تحققها المنظمة من خلال الاعتماد على الإدارة الاستراتيجية للموارد البشرية ما يلي :

– استخدام الخطط الإستراتيجية كمرشد ودليل للمنظمة لتحديد التغيرات الهامة والتكيف معها بفعالية وخلق منظمة قادرة على التعلم والتكيف مع المتطلبات الحالية والمستقبلية .

– زيادة قدرة المنظمة على تحديد أهدافها المتغيرة والتعرف على نقاط القوة والضعف بها، والفرص والتهديدات في البيئة المحيطة، وتحديد البرامج التنفيذية للتعامل معها .

– زيادة قدرة المنظمة على التنبؤ باحتياجاتها من الموارد البشرية كما وكيفا، وتنميتها بصورة تتفق مع تحقيق أهدافها الإستراتيجية ومن هنا زيادة الاتساق والتوافق بين خطط الموارد البشرية والعمليات التنفيذية بالمنظمة .

– إيجاد وسيلة للربط بين سياسات وأنظمة الموارد البشرية – بما فيه سياسة التدريب وتنمية الأفراد – وربطها بإستراتيجية العمل ككل.

– زيادة فعالية استخدام الموارد البشرية وتحسين إنتاجيتها وخفض معدلات الحوادث ودوران العمل والغياب ومن ثم تحسين الفعالية التنظيمية والأداء الكلي للمنظمة. [22]

2. تنمية الكفاءات كمدخل لتدعيم التميز في المؤسسة .

تحتل عملية تنمية كفاءات الأفراد في المؤسسة أهمية كبيرة نظرا للارتباط الوثيق بين جودة المنتجات وكفاءة الموظفين المساهمين في إنتاجها، لذلك تلجأ هذه المؤسسات إلى تصميم وتنفيذ البرامج التدريبية المكثفة التي تعمل على إكساب العاملين بها المعرفة والسلوك المناسبين لتقديم منتجات ذات جودة عالية تسمح للمؤسسة بمواجهة المتطلبات التنافسية محليا ودوليا.

وهو ما جعل المؤسسة الباحثة عن دعم مشروع التميز تركز على كل أنشطة الإستراتيجية لإدارة الموارد البشرية بداية من استقطاب أفضل المهارات البشرية وتنظيم دورات تكوينية متخصصة لها،ووضع نظام متكامل لتقييم أدائها ومن ثم تصميم النظام المناسب لتحفيزها خاصة وان عملية بناء الميزة التنافسية تتطلب التركيز على نظام تنمية الكفاءات والذي يمر عبر سياسة البحث عن أحسن المداخل لتثمين الموارد البشرية بما يساهم في ترقية الخدمات والمنتجات، ومن هذا المنطلق تمارس هذه الإدارة الكثير من الجهود وتحقق الكثير من السياسات الهادفة إلى تعزيز مكانة المورد البشري ضمن موارد المؤسسة والتي من بينها :

- **نظام تثمين كفاءات الأفراد في إطار تدعيم الميزة التنافسية** :يدخل هذا النظام في إطار الإدارة التكاملية للموارد البشرية حيث يساهم وضعه في دعم الإستراتيجية التنموية للمؤسسة ، ويهدف اعتماد مثل هذا النظام من طرف المؤسسة إلى تحقيق جملة من النتائج ومن أهمها نجد
  - عقلنه القرارات الخاصة بتنمية المسارات المهنية للأفراد عن طريق ربطها بكل من :
    - تقييم موضوعي للأداء لضمان عدم الانحياز الشخصي الذاتي في تقييم الأداء .
    - تثمين الطاقات الكامنة للأفراد عن طريق استغلال القدرات الكامنة وتفجيرها .
  - العمل على الأخذ بعين الاعتبار المعطيات التالية :
    - الاحتياجات والإمكانيات الحالية والمستقبلية للمؤسسة.
    - التطلعات والطموحات الحالية والمستقبلية للأفراد .
  - التأكيد على أهمية تحديد احتياجات التدريبية لتهيئة الأفراد لتحقيق أهداف المؤسسة.
- **تقييم كفاءات الأفراد في المؤسسة** :يهدف نظام تقييم كفاءات الأفراد إلى تقديم معلومات مفيدة للإدارة لمساعدتها على إكتشاف مواطن الضعف عند الموارد البشرية ومن ثم العمل على تصحيحها من خلال التدريب ، التحفيز ، التطوير ... وهذا يعني أن تقييم أداء العامل تتجلى أهميته في كونه يعالج إشكالية حساسة تمس وترتبط بمتابعة تطور أدائه قصد دفعه إلى الاستغلال الأمثل لقدراته وطاقاته .

إذن فتنمية الكفاءات في المؤسسات تسعى إلى تحقيق الإستثمار الفعال لقدراتها من خلال اعتماد إستراتيجيات لتحسين أدائها تشمل دراسة وتحليل نظام الموارد البشرية وتحديد نقاط قوتها لتدعيمها ونقاط ضعفها لمعالجتها ، بما يساهم في تدعيم انجاز الأهداف المبرمجة ، حيث تقوم تنمية المهارات على مبدأ المشاركة الجماعية داخل المؤسسة بهدف تحقيق تميز الأداء من خلال إيجاد بيئة يتم فيها تطوير وتحسين مستمر لها لتحقيق رضا العميل بمساهمة جميع العاملين بشكل مستمر .[23]

الخاتمة :

تأسيسا على ما سبق يمكن القول أن التغيرات التي عرفها العالم المعاصر جعل المؤسسات بإختلاف مجال عملها تغير نظرتها للموارد البشرية التي أصبحت تنظر إليها بإعتبارها راس مال فكري واستثمار طويل المدى يساعدها في تحقيق إستراتيجيتها التنافسية ، فالكفاءات البشرية هي التي تحقق النجاح والتميز إذا ما إستطاعت المؤسسة وضع هيكلة إستراتيجية لكيفية التعامل معها والاستثمار فيها باعتبار انها من الموارد التي يصعب على المنافسين اقتناءها إلا بعد جهد وعناء يتمثل اما في التخطيط لاستقطاب وجلب هذه الكفاءات البشرية من المؤسسات المنافسة أو العمل على استثمار وتنمية مواردها البشرية المتاحة وتطوير قيمتها الاستثمارية والتنافسية حتى تكون قادة على مواجهه التغيرات المتسارعة التي يشهدها سوق العمل حاليا والذي يتميز بالحركية الشديدة حيث لا مكان فيه إلا للمؤسسات المتميزة ، وهو ما زاد من اهمية مدخل الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية الذي اصبح من بين اهم المداخل الحديثة التي تسعى مختلف المؤسسات إلى تطبيقه كونه يعنى بشكل خاص بتحليل نظام الموارد البشرية طيلة مسارهم المهني بداية من التوظيف الى التقاعد لتحديد نقاط القوة وتدعيمها وتحديد نقاط الضعف ومعالجتها ، ومن ثم ايجاد بيئة تتميز بالتطوير والتحسين المستمرين تساهم في تحقيق الاهداف المرسومة ورضا العملاء بمساهمة جميع العاملين .

اذن فتنمية وتطوير الموارد البشرية واستقطاب الكفاءات البشرية المؤهلة أصبح من بين اهم الرهانات التي تمكننا من التمييز بين المؤسسات وتحديد مكانتها في السوق ومقارنتها ببقية المؤسسات .

قائمة المراجع :

1 – علي عبد الوهاب : **إدارة الأفراد منهج تحليلي** . المكتبية عين شمس، القاهرة ، 1976 ، ص 30 .

2 – محمد سمير أحمد : **الإدارة الإستراتيجية وتنمية الموارد البشرية** . دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان ، ط 1 ، 2009 ، ص 25 .

3 – نفس المرجع . ص 25 .

4 – عبد الواحد بن خالد الحميد : **سياسات العمل وتحديات القرن الواحد والعشرين** . دار وائل للنشر والتوزيع ، عمان ، **2002** ، ص**28** .

5 – علي السلمي : **إدارة الموارد البشرية الإستراتيجية** . دار غريب للنشر والطباعة ، القاهرة ، 2001 ، ص 41 .

6 – عبد الحكيم أحمد الخزامي: **إدارة الموارد البشرية إلى أين ؟ التحديات ، التجارب والتطلعات** . دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، **2003** ، ص**18** .

7 – جمال الدين محمد المرسي : **الإدارة الإستراتيجية للموارد البشرية المدخل لتحقيق ميزة تنافسية لمنظمة القرن** 21 . الدار الجامعية للنشر ، القاهرة ، **2003** ، ص**91** .

8 – محمد سمير أحمد . **المرجع السابق** ، ص 26 .

9 – محمد سمير أحمد . **المرجع السابق** ، ص 27 .

10 – محمد الصيرفي ، **التميز الإداري ، للعاملين بقطاع التربية والتعليم** . مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2009 ، ص 7 .

11 – بن عبود على أحمد ثاني : "**دور جوائز الجودة والتميز في قياس وتطوير الأداء في القطاع الحكومي** "، ورقة عمل للمؤتمر الدولي للتنمية الإدارية نحو أداء متميز في القطاع الحكومي ، معهد الإدارة العامة ،الرياض ، السعودية ، ص 05 .

12 – سلمان زيدان ، **إدارة الجودة الشاملة – الفلسفة ومداخل العمل.** ، دار المناهج للنشر والتوزيع ، عمان، ج 1،ط2 ، 2010 ، ص 28 .

13 – عاطف الديب، " **إدارة الإمتياز** ". المؤتمر السنوي التاسع نحو منظومة للتميز الإداري العربي ، الجمعية العربية للإدارة ، 9 – 10 /2008/4.

14 – بسام جرار ، "**برنامج الشيخ خليفة للتميز الحكومي** " . كلية دبي للإدارة الحكومية ، تارسخ الزيارة على الانترنات 2014/03/25 ، الموقع **www.mof.gov.ae/arabic/doclibl.pdf** .

15 – تشارلز دبليو سورنسن وآخرون ، **التميز في الجودة النوعية والأداء في التعليم العالي** . ترجمة سمة عبد ربه ، مكتبة العبيكان للنشر ، المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 2006 ، ص 33 .

16 – عادل زايد، **الطريق إلى الأداء التنظيمي المتميز**. مركز البحوث والدراسات التجارية، كلية التجارة، جامعة القاهرة، 2005، ص ص 6-16.

17 – لويد دوبيتز وكلير كراوفورد ماسون ، **إدارة الجودة – التقدم والحكمة وفلسفة ديمنغ–** . ترجمة : حسين عبد الواحد ، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية، القاهرة ، ط 1، 1997 ، ص ص 72- 86 .

18 – فرنسيس ماهوني، كارل جي ثور، ترجمة عبد الرحمن الخزامي، **ثلاثية إدارة الجودة الشاملة** ، دار الفجر للنشر ،القاهرة ، 2000 ، ص 140 .

19 – نزار عبد المجيد البرواني، لحسن عبد الله باشيوة، **إدارة الجودة مدخل للتميز والريادة مفاهيم وأسس وتطبيقات.** مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ، عمان ، 2010 ، ص ص 485 ، 486 .

20 – قبطان شوقي ، " **إدارة التميز: الفلسفة الحديثة لنجاح المنظمات في عصر العولمة والمنافسة** " . ورقة بحثية مقدمة في إطار الملتقى الدولي الرابع حول المنافسة والإستراتيجيات التنافسية للمؤسسات الصناعية خارج قطاع المحروقات في الدول العربية ، جامعة المدية ، ص ص 12 ، 13 ، 14

21 – محمد سمير أحمد ، **المرجع السابق.** ص 27 ، 28 .

22 – محمد سمير أحمد ، **المرجع السابق.** ص ص 28 ، 29 .

23 – مصنوعة أحمد ، **تنمية الكفاءات البشرية كمدخل لتعزيز الميزة التنافسية للمنتج التأميني** . ورقة بحثية مقدمة في إطار الملتقى الدولي السابع حول الصناعة التأمينية الواقع العملي وأفاق التطوير ، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف ، يومي 3 ، 4 ديسمبر 2012 ، ص 13 .

المؤسسة العمومية الاستشفائية في مواجهة التغييرا ت التنظيمية (الاصلاحات الاستشفائية)

دراسة ميدانية بالمؤسسة العمومية الاستشفائية بعين وسارة

Hospital Institution facing the organizational changes (Hospital reform) Practical Study in the Public Hospital Institution in AinOussara

الأستاذة: قاسمي الحسني أشواق
قسم علم اجتماع تنظيم و عمل
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
جامعة الجزائر 02

الملخص:

تهدف من خلال هذه الدراسة إلى إعطاء رؤية حقيقية عن التغييرات التنظيمية على مستوى التنظيمات الاستشفائية بالجزائر والتي هدفها تحقيق الفعالية و إضفاء الشفافية في العلاقة بينها و بين المريض بالوقوف على أهم الأسباب والصعوبات المتعلقة بالبيئة التنظيمية و الخارجية و التي تعرقل سيرورة التغييرات و تحسين الخدمات الصحية .

الكلمات الدالة :

التنظيمات الاستشفائية – الاصلاحات الاستشفائية – التحفيز – نوعية العلاج – السلطة – الاتصال .

Resume

Through this study we aim to give a true practical vision about the organizational changes in hospital institutions in Algeria, the main purpose of which is realizing efficiency and transparency in the relationship between the hospital institutions and the patient.
To do so we tend to present the main causes and difficulties linked to the organizational environment, standing between it and the health service improvement.

Key words

Hospital reforms - Hospital Organizations - Motivation - Health care quality - Authority - Communication

مـــقــــدمـــــــــــة :

إن مجموعة التحولات الاقتصادية و الاجتماعية التي مرت بها الجزائر، و التي تمظهرت أساسا بصفة صريحة ضمن دستور 1989، بتبني النهج الليبرالي بدلا من النهج الاشتراكي لا تبتعد عن زاوية الدخول في إطار العولمة والتي تتمحور حول تثمين البعد الليبرالي، و رسم حدود جديدة للدولة التي أخذت شكل توجيه، وتنسيق ومراقبة بإنقاص مجال القطاع العمومي، فدولة الرعاية لم تعد تستطيع الاستجابة لكافة المتطلبات الاقتصـــادية، والثقافية والاجتماعية.

الجزائر مثلها مثل الدول المتخلفة تعيش ضغوطا لإحداث هذه التحولات فهي تعيش تناقضا بين مسار الدولة غير المكتمل، وضعف البنية الاقتصادية وبين ما يطلب منها في إطار المنافسة الدولية من إعطاء نظرة جديدة للتسيير قائمة على تفتح المؤسسات على المحيط، و التأقلم مع كافة التغييرات، والإجماع حول ضرورة إصلاح الدولة، ومن بين الإصلاحات التي تبنتها الجزائر ضمن إصلاحات الدولة إصلاحا مس قطاعا جوهريا، و هو القطاع الصحي بما يسمى بالإصلاحات الإستشفائية.

ويجب أن نشير أنه بالإضافة إلى الإطار العام و العالمي الذي ذكرناه سابقا، فان هناك أسبابا داخلية مهدت الطريق إلى الإصلاحات، ناتجة عن نظام تمويل المؤسسات الإستشفائية الذي يعتمد على تمويل الهياكل و ليس على تمويل النشاط، الأمر الذي أدى إلى تشجيع ظهور سلوكات غير عقلانية لا تعتمد على مؤشرات للتقييم، وعدم التوازن بين حاجيات المواطنين المتزايدة، وبين ما تقدمه المؤسسات الإستشفائية من خدمات، فبالرغم من أن الدولة جندت موارد مالية معتبرة لتعميم الخدمة العمومية تصل إلى 98 % من التغطية الصحية، إلا أن نوعية الخدمات لا زالت غير فعالة مسجلة عدم مساواة في التغطية، ففي الجنوب تتراوح نسبة وفيات الأم أثناء و بعد الولادة بين 433 من كل 100 ألف إلى 232 لكل 100 ألف، بالإضافة إلى العجز المسجل في الموارد البشرية حيث بلغت الاحتياجات في المستخدمين الطبيين إلى 99666 و224248 شبه طبي والتوزيع غير العادل لها عبر مناطق الوطن.

دور الدولة الجديد يفرض على المؤسسات العمومية الإستشفائية البحث، و الإلمام بكل الظروف التي تمكنها من تمويل نفسها، التطور التكنولوجي و ظهور الوعي لدى المواطن، و إرساء ثقافة المنافسة تفرض على المؤسسات الإستشفائية تحقيق نوعية في الخدمات المقدمة.

المؤسسة الإستشفائية بصفتها الوحدة التطبيقية للإصلاحات الإستشفائية هي في مواجهة حقيقية لصدى هذه الإصلاحات في مواجهة طبيعتها التنظيمية بما تحمله من سلوكات وثقافة ماض وحاضر، وسلطة وقواعد تسييرية، وهي أيضا في مواجهة محيط مليء بالرهانات وبالخصوص وأن النظام الصحي الجزائري يعاني من الازدواجية، أي بقاء الأمراض الوبائية والمعدية والتي من المفروض أنها زالت منذ سنين و ظهور الأمراض المزمنة و التي يكلف علاجها و متابعتها مبالغ باهظة.

وهذا الذي يجعلنا نطرح التساؤل التالي :

- **كيف ستواجه المؤسسات الإستشفائية عملية التغيير الذي هو ضرورة حتمية لا يمكن تفاديها، وهو أعمق من أن يكون مجرد تغيير في القوانين والإجراءات إنما هو تغيير في السلوكات إلى سلوكات متكيفة مع روح الإصلاحات ؟**
- **هل المؤسسة الاستشفائية العمومية بكل ماتحمله من خصوصية وتعقيدات تنظيمية وسلطوية وقانونية ،بالاضافة الى حساسية مهمهمتها قادرة على مسايرة التغييرات .**
- **هل السياسة الاتصالية و التحفيزية المتبعة قادرة علىى تجنب مقاومة التغيير .**

سنعالج موضوعنا حسب المحاور التالية :

1. **صعوبات تطبيق الإصلاحات بالمؤسسة الاستشفائية**

1.1 الخصوصية التنظيمية للمرفق العمومي الصحي .

2.1 المشاكل الناتجة عن هذه الخصوصية .

2. خلل بين الأهداف المرجوة من الإصلاحات وبين النتائج المحققة بالمؤسسة العمومية الاستشفائية

1.2 تحليل للأسباب الميدانية .

2.2 علاقة سياسة الاتصال و التحفيز المتبعة بمقاومة التغيير.

1. التعريف الإجرائي للإصلاحات الإستشفائية:

هي شكل من أشكال التغيير، هي جزأ من إصلاحات الدولة مجاراة للتحولات العالمية ونتيجة أساسية للتأقلم مع ثقافة العولمة، و السعي نحو الانخراط في قوالب الحداثة سياسيا اقتصاديا و اجتماعا و ثقافيا، كالدخول ضمن اقتصاد السوق وضرورة تحقيق الفعالية و الفاعلية.

هي "كافة الإجراءات التنظيمية والتسييرية و المالية والتي تمس النظام الصحي بمختلف مؤسساته و هيئاته من أجل تحقيق:

- الفعالية و الكفاية.
- ترشيد النفقات العمومية.
- طرق تسيير حديثة.
- تحقيق النوعية في العلاج.
- تحسين معاملة و استقبال المريض .

2. **التعريف الإجرائي لنوعية العلاج** : هي التكفل بالمريض و إرضائه ،وذلك يكون بعدة شروط أهمها:

- استقبال وتوجيه جيد
- معاملة جيدة
- مدة انتظار أقل
- تشكيل صورة جيدة عن المؤسسة: وذلك يكون بالشفافية و الوضوح عن طريق وضع كافة المعلومات المتعلقة بالمؤسسة على مرأى المرضى، و المنتفع و هيئات المراقبة و الوصاية مثلا في الانترنت، إعلام المريض بكل المضاعفات لكل نشاط طبي،

و كذا الأخطاء الطبية.

- احترام حقوق المريض و كتابتها: مثلا إذا تم إعلام المريض بالأخطار الناتجة عن عملية جراحية فلا بد من كتابتها.
- إحصاء جميع الأخطار المهنية التي تهدد المريض من جهة، و العامل بالمستشفى، ومحاولة تفاديها في المستقبل منها " الأمراض الإستشفائية ".
- تقييم النشاطات المهنية، الإدارية و الطبية و شبه الطبية، التقييم الآلي واقتراح برامج لتطوير التكفل بالمريض.
- التعامل وفق الاستشارة مع هيئات المرتفقين، وجمعيات المرضى عن طريق تفعيل اللجان المتعلقة بالوساطة لحل المشاكل المتعلقة بالمريض.

وقد يتعد ذلك من الناحية التسييرية إلى: وضع هيكل يكلف بالتقييم الدائم القبلي و الآني والبعدي للنشاطات الطبية و لجودة الخدمات العلاجية، مشكلا من أخصائيين من مختلف الهيئات و التي تقدم توصيات بعد مراقبة المؤسسات الإستشفائية و شهادة " certification ".

إن للإصلاحات الإستشفائية تعقيداتها ترجع إلى حساسية مهمتها،بالإضافة إلى الطبيعة القانونية والتنظيمية للمؤسسة العمومية الاستشفائية ،فما هي أهم الصعوبات التي تواجهها بصفتها مرفقا عموميا و صحيا في تطبيق الإصلاحات ؟

1. **صعوبات تطبيق الإصلاحات بالمؤسسة الاستشفائية** : إن للمستشفى خصائص تنظيمية، و خيوط تميزها عن باقي التنظيمات الأخرى، والتي تشكل نقاط ضعف و قوة في مواجهة مختلف المشاكل، بما تمتلك من علاقات سلطة متضاربة ولغات مختلفة لصنع قرارات استعجاليه وحساسة، و عميقة في مواجهة حياة أو موت مريض، لهذا سوف نعرض أهم هذه الخصائص و نتائجها على تطبيق الاصلاحات .

1.1 خصوصية المؤسسة العمومية الإستشفائية بصفتها مرفقا صحيا

ان المؤسسة الصحية لها خطوط هرمية، وخطوط سلطة مختلفة عن باقي المؤسسات، اختلاف الأهداف والفاعلين، والمهام وتحقيق التوازن بين المتطلبات التنظيمية، وبين متطلبات البيئة
و التأقلم معها، كل هذه العوامل تخلق صعوبات:

- ذات طبيعة تنظيمية.
- من ناحية الموارد البشرية.

* **الصعوبات التنظيمية:** المؤسسة الإستشفائية تعتبر مرفقا عموميا له خصائص تنظيمية:

- هو مرفق حساس بخصوصيته الاجتماعية و بمهامه، الخدمات الصحية و الاجتماعية التي يقدمها لها تأثير على حياة الإنسان فلا يمكن أن نتعامل معها مثلها مثل المنتوجات المادية التي تنتجها أي مؤسسة اقتصادية أو صناعية.
- هو مرفق و بما أنه يتعلق بحياة المريض لابد أن تتخذ به قرارات سريعة و عميقة بالخصوص أثناء المداومة الطبية والاستعجالات، مثلا تحديد نقل المريض، أو في حال عدم وجود الأدوية
و الوسائل الكافية فعلى الطبيب المداوم و الإداري أن يكون فعالا باتخاذ القرار الصائب، و في الوقت المناسب.
- هو مرفق يعمل 24 ساعة على 24 ساعة من أجل ضمان استمرارية العلاج: فالعمل بمؤسسة صحية هو عمل مستمر على مدار السنة و الأربع و عشرين ساعة، و لا اعتبار فيه لأيام الإجازة الأسبوعية، الأعياد و الأيام الوطنية... و هو بالتأكيد ما سيخلق عدة معوقات في مجال تنظيم الوقت، ومتطلبات استمرارية هذه الخدمة، و خصوصا في حالات: الغيابات المستمرة، و الفجائية و قلة الموارد البشرية، مما يتطلب إيجاد حلول سريعة.

فهذا أمر مرهق و يتطلب جهدا من ناحية المسؤولية بالنسبة للمسير في ضرورة خلق ديناميكية وتنسيق فيما يخص المعلومات و القرارات المتخذة بين الموظفين الذين يعملون أثناء الساعات العادية والمداومة، ويعتبر تنظيم الوقت في المؤسسات الصحية من أعظم المشكلات التي تواجه المسؤولين.

يضاف إلى ذلك تداخل النشاطات المرتبطة بالمؤسسة الصحية، فهي لا تقتصر على العلاج وإنما تتعداها إلى أعمال الفندقة من الإطعام و الإيواء إلى التمويل، الوقاية... فهو بالفعل بيئة عمل متعددة النشاطات، و إن كان النشاط الرئيسي فيه هو مباشرة علاج المرضى، و كل هذا له تأثيره على أداء و طبيعة العلاقات بين مختلف مستخدميه.

و بما أنها مؤسسة تقوم أهدافها على عناصر غير مادية، هذا يجعلها أقل مسايرة للتغييرات وفي هذا الإطار يقول علي عبد الرازق جلبي " فان التنظيمات البشرية، حتى الأكثر رشدا فإنها تميل إلى التخلف في تغيير أنماطها على نحو يجعلها لا تتماشى مع الظروف المتغيرة، و يميل هذا التخلف إلى الظهور على وجه الخصوص في المجالات التي تشمل على علاقات إنسانية، و على الأهداف غير المادية بعكس عند تناول الموضوعات المادية[1]

- تقييم نوعية الخدمات داخل المنظمة هو أمر صعب لأنه يتعلق بشي غير ملموس، وكذلك نظرا لتعدد و تعقيد الإجراءات التقنية، فلا يمكن أن نحدد طريقة معينة أو وقتا لازما لفحص مريض فذلك أمر نسبي يعود لكل طبيب.
- الهيكل التنظيمي في المؤسسات الصحية بالجزائر لا يتميز بالمرونة تبعا للأهداف التي يراها المسير، بإضافة مكاتب أو مصالح بل هي محددة مسبقا من طرف السلطة المركزية حسب طبيعة المؤسسة الصحية، إذا كانت مؤسسة اختصاصية أو مستشفى جامعيا.

*. **الصعوبات المتعلقة بالموارد البشرية الصحية:**

إن تركيبة المؤسسات الصحية، و المستشفيات منها على وجه الخصوص تعطي بيئة معينة تنعكس على أداء المورد البشري فيها، منها بعض القيود المرتبطة ببيئة العمل المادية، و بعضها مرتبط ببيئة العمل الاجتماعية، و من ذلك يمكن تحديد بعض خصائص بيئة العمل هذه كالتالي[2]:

1)- تنوع الموارد البشرية الصحية:

تحتل الكتلة العمالية في قطاع الصحة الرتبة الثالثة من مجموع تعداد الوظيف العمومي بعد قطاع التربية بـــ: 33.5 % و الجماعات المحلية بـــ: 28 %، حيث وصل عدد العمال إلى 196.000 سنة 2000. [3]

و تتميز هذه الكتلة بتنوعها، إذ تنقسم إلى ثلاثة أسلاك:

- السلك الطبي: و يتمثل في الممارسين الأخصائيين المساعدين، الممارسين الطبيين العامين للصحة العمومية، جراحي الأسنان والصيادلة...
- السلك شبه الطبي: و يتمثل في الممرضين، و القابلات، أعوان التخدير و الإنعاش... الخ.
- السلك الإداري و التقني: و يتمثل في الإداريين، التقنيين، عمال الخدمات و الصيانة...الخ

2- ندرة الموارد البشرية: إبان الاستقلال كانت الجزائر تفتقر إلى الموارد البشرية الطبية، فكان عدد الأطباء 600 طبيب أي بمعدل طبيب واحد لكل 100.000 مواطن، يمارسون الطب العلاجي ويتمركزون في المدن الكبرى الثلاث: الجزائر، قسنطينة ووهران. أما موظفو شبه الطبي فكان عددهم 1380 أغلبهم ليست لهم شهادات، كما كانت تنقص الخبرة موظفي الإدارة والتسيير. [4]

– تم القيام بمجهودات لتفادي النقائص غير أنه و مع كل الجهود المبذولة ما يزال قطاع الصحة في الجزائر يعاني من أزمة في الموارد البشرية الصحية.

– إن هذه الندرة لها تأثير على التسيير اليومي سواء بإيجاد حلول سريعة فيما يتعلق بحياة المرضى وتوفير الاختصاصات اللازمة أو بتوفير الإمكانات لتحويل المريض من منطقة إلى أخرى، واستقطاب الموارد البشرية، وقد يصل إلى حد تقديم تنازلات و نشوء علاقات تفاوضية بين الطبيب، و الممرض وبين الإدارة لتغطية هذه الندرة.

3- الوزن الاجتماعي للمهنة: نظرا للاحترام التاريخي و الاجتماعي للمهنة، ومكانته في الإدارة و المجتمع والنقابة،مثلا الطبيب حتى في البلدان المتطورة مثل فرنسا يشكل مقاومة و يتطلب جهود لإقناعه بفكرة التغيير، ينشأ هذا الاعتبار أيضا لندرة الموارد البشرية مثل الندرة في بعض التخصصات في السلك شبه الطبي.

4- توزيع الموارد البشرية: الموارد البشرية توزيعها غير متوازن بشكل واضح على مختلف ربوع الوطن، فنحصي أنه في سنة 2004، أن الجزائر العاصمة لوحدها تحتكر نسبة 55% من الكادر الطبي، الشرق الجزائري بــ 22 %، الغرب بــ: 20 %، الجنوب الشرقي بــ 2 % والجنوب الغربي بــ: 1 %.[5]

- و يزداد الأمر سوءا عند الحديث عن الأطباء الأخصائيين، أين تعرف المناطق الجنوبية و مناطق الهضاب العليا عجزا ملحوظا في ذلك، خصوصا في تلك التخصصات التي تتطلب مهارة نوعية كطب أمراض النساء و التوليد، التخصصات الجراحية المختلفة وطب العيون ...الخ

- إن هذا الخلل في التوزيع له أثره على التحكم في التسيير بغرض تحقيق أهداف المؤسسات الصحية، إذ يضع الكثير من المؤسسات في موضع حرج لافتقارها للعنصر الرئيسي في أداء أي مهام صحية وهو الطبيب.

5* لغات مختلفة: فالمؤسسة الإستشفائية تتميز بدرجة من التعقيد ذلك لأنها تتكون من أشخاص لهم تكوين مختلف، و انشغالات مختلفة و أطر اجتماعية مختلفة في النظرة إلى كل مهنة من هذه المهن بين الطبيب و الممرض و بين الإداري، فهناك اختلاف في الأهداف، و في درجة التفاعل مع المشاكل التي تواجهها المنظمة أو التغييرات الناتجة عن المحيط، هناك اختلاف اللغة : لغة إدارية، و لغة تقنية بحتة، هذه الفوارق قد تؤدي إلى حد الخلاف، خصوصا إذا لم تكن هناك طريقة تسيير تسمح بتقوية الاتصال من أجل محو هذه الفوارق وتبسيط لغة الحوار.

- المريض: و هو غاية وجود المستشفى أو المؤسسة الصحية.
- المدير: و يمتلك مشروعية تنظيمية و قانونية.
- السلك الطبي: له مشروعية منبثقة عن التحكم في التقنيات (مشروعية فعلية).
- السلك شبه الطبي: له مشروعية فعلية كذلك مثل الطبيب و هو عنصر لا غنى عنه.
- السلك الإداري: يمثل جزءا من الكفاءات الوطنية.

فهذه الأطراف المتعددة تختلف فيما بينها؛ حيث أن كل طرف يريد أن يستحوذ على اتخاذ القرار وهنا لا بد من الإشارة هنا إلى الصراع التاريخي بين السلك الطبي (ممثل المصالح العلاجية) و المدير (ممثل الإدارة) فالأول له مشروعية فعلية، في حين أن المدير له مشروعية قانونية، و كل منهما يحاول استعمال مشروعيته لفرض آرائه دون مراعاة الطرف الآخر، وأحيانا دون مراعاة المصلحة العامة.

حتى العلاقة بين الطبيب و الممرض فهي في مد و جزر، بالرغم من أنها تختلف من مؤسسة إستشفائية إلى أخرى، على حسب ندرة الموارد البشرية، إلا أنها تمثل في داخلها صراعا على السلطة ومشاعر الاستعلاء أو العكس.

1. 2المشاكل الناتجة عن هذه االخصوصية

إن المشاكل التي لاحظناها و المتعلقة بوجود لغات مختلفة وعلاقات متشابكة، وكيف أن كل فرد بالمؤسسة يمتلك أسبابا قوية لامتلاك السلطة، فالسلطة موجودة في كل مستوى و في كل مكان بالتنظيمات وخاصة التي تتميز بغلبة العلاقات غير الرسمية و تزيد قوتها في التنظيماتالاستشفائية ، إذن ما هي المشاكل التي تنشأ عن هذا النسق من السلطة ؟

***.. تقسيم السلطة المتطرف:**

نمو التخصصات في المهنة الطبية، العدد المتزايد للخدمات التي تقدمها المستشفى، و إلى صور التقدم التكنولوجي وزيادة التسهيلات و الخدمات أسهمت بفعالية في تعقيد المستشفى كتنظيم و أسهمت في التدرج المتزايد من خلال التخصص، و لقد أدى

ذلك إلى ظهور مشاكل متزايدة تتعلق بالتنسيق والضبط. و في نفس الوقت قد يميل التدرج في المستشفى إلى إعاقة عملية تنمية الفريق بوظائفه إذ أنه كلما كان نسق السلطة جامدا كلما زاد احتمال تعطل عمليات الاتصال به.

و لنظام التدرج أيضا نتائج تنعكس على رعاية المرضى، إذ يرهن كل من سيمان و ايفانز باستخدام مقاييس الاتجاه و تقديم الرؤساء بأن" معلومات التنسيق المتعلقة بالمريض كانت أفضل في وجود هيئة التمريض ذات التدرج الأقل ".

ونجد هذه الصعوبة خاصة في المؤسسات الإستشفائية الكبيرة منها المؤسسات الإستشفائية الجامعية، التي تتميز باختصاصات مختلفة، ومعالجة كافة المرضى بربوع الوطن، أو المؤسسات الصحية الجوارية التي تتميز بكثرة الهياكل الصحية التابعة لها كالعيادات متعددة الخدمات، والتي تبعد عن الإدارة بمئات الكيلومترات، و التي تتطلب تفويض للسلطة من أجل التحكم وضمان تحقيق للأهداف ،وهذا يتطلب جهد امن طرف الإدارة لتنسيق كافة الجهود و فتح قنوات الاتصال، و امتصاص الصراعات التي قد تنشأ.

لابد أن نذكر أن هناك عوامل قد تؤدي إلى تخفيف التوترات الناشئة عن الخصائص البنائية، هو البناء غير الرسمي و أنساق الاتصال غير الرسمية، إذ تميل الاتصالات في الجماعات التي تمتاز بالعلاقات الأولية إلى أن تكون عميقة و أكثر حرية في تدفقها.

ولهذا ينشأ نوع من التخفيف للتدرج الذي قد ينشأ من الخطوط المهنية الصارمة، و يتجنب الصراع الذي ينشأ حول بعض القضايا و الخصائص التي تميز البناء الاجتماعي بالمستشفى أنها تجعل الصراع ممكن حله عن طريق التفاوض خاصة أن القرار الطبي يعد صعبا ويستلزم استشارة الآخرين.

***نسق السلطة المزدوج:**

يؤدي التجاور بين جماعتين اثنين من جماعات القوة في نفس الموقع بالضرورة إلى الصراع على الأهداف التنظيمية بينهما، و تعد مصدرا خصبا للصراع و ينبغي أن نذكر بطبيعة الحال أن هناك بعض الميادين للسلطة مرسومة الحدود بوضوح و معترف بها فسوف لا يقوم الإداري مثلا بمحاولة إسداء النصح إلى الهيئة الطبية في القرارات المتعلقة بعلاج المرضى، كما أن الطبيب لا يحاول تحديد الطريقة التي ينظم بها الإداري برنامج لشراء احتياجات المستشفى، وفي نفس الوقت ينبغي أن نسلم بأنه نتيجة للطبيعة الكاريزمية لسلطة الأطباء، و المنزلة التي يضيفها عليهم المجتمع، فان تأثيرها قد يكون نافذا إلى حد يتجاوز قدرتهم الفعلية.

كما أن هناك مجالا واسعا يظهر فيها اهتمامات و مستويات السلطة متداخلة بين كل من الهيئة الطبية و الإدارة، و ليظهر الصراع مثلا التسجيل الطبي، إدارة العيادات الخارجية، اختلاف الهدف بين التكلفة و العلاج في المستشفى أيضا الجماعات المتباينة لها منظورات مختلفة فيما يتعلق بمن الذي يمسك بزمام السلطة و في أي مجال، رغم أن الكثير يفضل الهيئة الطبية بالإدارة، إلا أن الصراع يبقى دائما قائما أيضا سرعان ما ينظر الأطباء الآخرون لهم على أنهم مشغولون في أوجه نشاط غير مهني و هكذا يصبح الطبيب واحد امن الإداريين وليس واحدا من الأطباء[6].

ويمكن أن نستشهد من تجارب بعض البلدان و الذين ثقافيا لا يقبلون أن تكون زمام الإدارة لإداري وإنما لا بد أن تكون من صلاحية الطبيب، بما أنه يعلم بالحيثيات التقنية، ونجد هذا الصراع أيضا من خلال المناقشات التي تدور حول مشروع الإصلاحات الإستشفائية في فرنسا حول إدارة الأقطاب التي يراد إنشاؤها في إطار عصرنة الإدارة الصحية، فهناك مقاومة من طرف الأطباء وصراع من أجل السلطة من أجل القبض على زمام الأمور.

ويمكن أن نعطي مثالا عن التجربة الجزائرية، حيث أعطيت إدارة المؤسسات العمومية للصحة الجوارية إلى أطباء و التي نشأ عنها مشاكل عديدة من عدم التحكم في التسيير ومشاكل في التنسيق والاتصال، والأدهى ظهور صراعات بين الطبيب الإداري و الأطباء.

وتتمثل المشكلة الثانية التي تنشأ من نسق السلطة المزدوج، و التي ترتبط بالصراع على الهدف في استعراض بين الاستقلال المهني و الضبط البيروقراطي، إذ يؤكد الأطباء بفضل خبراتهم في الطب هم فقط الذين لديهم الكفاءة على اتخاذ القرارات المتعلقة برعاية المريض، و لديهم الحق في ممارسة الضبط على أعضاء هذه الهيئة، و يمكن تتبع هذا النسق منذ الوقت الذي كان فيه المستشفى مأوى للفقراء وكان الأطباء في هذه الفترة يعالجون مرضاهم الخصوصيين في منازلهم و يعالجون المرضى الفقراء في المستشفى، فكان الطبيب مجرد ضيف و ليس مشاركا في تنظيمها و اليوم توصل إلى مكانة بالرغم من افتقاره إلى قوة رسمية في الموقع النظامي نظرا لاحتكار – الأطباء – للمعرفة الطبية والمهارات التي يعتمد عليها المستشفى، مع هذا فان الطبيب يفضل استعمال السلطة الكاريزماتية، إذ أوضحت دراسة تتناول أطباء الهيئة في موقع العلاج أنه حتى الطبيب المسؤول كان يرفض استخدام سلطته الشرعية و لكن كان يفضل بدلا من ذلك ممارسة تأثيره المهني في التحكم في الأطباء الذي يشرف عليهم[7].

إذن كما قال ميشال كروزي و فريدبيرغ أن السلطة موجودة في كل مكان فالسلطة هي "ميكانيزم اعتيادي و يومي في حياتنا الاجتماعية فنحن نستعمله بدون توقف في علاقاتنا مع أصدقائنا، زملائنا وعائلاتنا، السلطة موجودة في كل مكان و ليست موجودة في موقع معين و سام من الدرجة السلمية، لأن السلطة تجد مصدرها من العلاقات المتبادلة بين الأشخاص "[8]

كذلك إن خطوط السلطة هي ليست حكرا على الإداريين و الأطباء بل حتى عند شبه الطبيين نظرا لندرتهم أو نتيجة لسلطة كاريزماتية أيضا أو التحكم في تقنيات حتى الطبية منها .

و قد عبر عن ذلك أيضا ميشال كروزي " فان الأفراد داخل المنظمة فاعلون و ليسو أفرادا سلبيين ينفذون فقط التعليمات، فهم ينشؤون استراتيجيات حسب منافعهم الشخصية، و التي قد تكون في بعض الأحيان متناقضة مع تلك المتعلقة بالمنظمة.

توجد في كل منظمة فضاءات حرية تسمى بمناطق عدم التأكد، عن طريقها يلعب الفاعلون وينشئون نظاما للتفاعل مستقرا نسبيا وتعرف بالإستراتيجية و التي " مجموعة من السلوكات المنظمة، و المعتادة التي يتبناها الفاعل من أجل المحافظة على مصالحه.

إن الفاعل قادر على اتخاذ القرار و لو أن البحث عن الحل المثالي بالنسبة إليه هو أمر مستحيل لأنه لا يملك كافة المعلومات وبالتالي فهو يتمتع باستقلالية جزئية و بعقلانية محدودة ، فهو يقرر بصفة جزئية و يختار الحل الأول الذي يحقق له حد ا أدنى من الإرضاء.

الفاعل ليس له هدف واضحا، فله أهداف متعددة قد تكون متعارضة

الفاعل أيضا له سلوك ايجابي أي يتفاعل مع الأحداث [9]

وخلاصة ذلك أن الممرض و الطبيب و التقني، كل يحاول أن يرسم إستراتيجية لتطوير سلطته من أجل المحافظة على مكانته داخل المنظمة، و لا يمكن أن نقول أنها منظمة ضمن هرم إداري، إذ يمكن أن يتحكم مهندس في الإعلام الآلي على زمام المصلحة التي يعمل بها و كذلك الممرض يمكنه أن يتحكم و تكون له سلطة أكثر من الطبيب في المصلحة التي يعملان بها.

ففي دراسة حالة قام بها ميشال كروزي في كتابه عن ظاهرة البيروقراطية، فإن عمال النظافة والتصليح هم الذين كان لهم سلطة معتبرة على عمال الإنتاج، بما أنهم هم الذين كانوا يحددون تكرار و مدة توقيف الآلات، فهذا التحكم في الوقت وهب لهم هذه السلطة غير الرسمية.

السلطة تمارس من طرف الأفراد عن طريق مراقبة، و التحكم في منطقة عدم التأكد التي تمس هامش الحرية الفردية للفاعلين ،مثلا تاجر يدرك مهنته جيدا، عامل يتقن الإجراءات القانونية

يفرق Michael Crozier بين أربع مصادر للسلطة و الناتجة عن:

- امتلاك كفاءة خاصة.
- التحكم في معلومة تخص محيط المؤسسة: علاقات جيدة مع المصالح المالية.
- مراقبة الاتصال و المعلومات الداخلية "له سلطة التحفظ.
- معرفة القواعد التنظيمية للمنظمة "القدرة على تغيير القواعد، التحكيم بين القواعد و خلق هذه القواعد [10]

إن المنظمة حسب Michael Crozier و Freidberg "هي ليست شيئا طبيعيا و لكنها بناء اجتماعي هي" بناء إنساني وليس لها معنى خارج علاقات أعضائها، لابد أن ندرس من خلالها الرهانات والمنافع وقواعد اللعبة، و فهم الإستراتيجية المقامة من طرف الأفراد، وعليه لا بد من استغلال بعض العوامل غير الرسمية لسهولة تدفقها[11].

2. خلل بين الأهداف المرجوة من الإصلاحات وبين النتائج المحققة من طرف المؤسسة العمومية الاستشفائية

من خلال الدراسة الميدانية التي أنجزناها،والتي اعتمدنا بها خصوصا على الاستبيان الموجه إلى كافة المستخدمين ،بالإضافة إلى الاعتماد على الملاحظة بالمشاركة طيلة سنوات تطبيق الإصلاحات الاستشفائية ،وقد خلصنا الى النتائج التالية :

1.2 تحليل للأسباب الميدانية .

وجود خلل في تطبيق الإصلاحات الاستشفائية، و الذي ظهر من خلال النسب العالية في سوء تطبيق التعليمات على مستوى المؤسسة، هذه الإجراءات التي تعبر في مجملها عن تحول من ثقافة الإنفاق و الوسائل إلى ثقافة النتائج والى ثقافة الشفافية، مما يتطلب قلب القواعد التنظيمية، للثقافة

و للسلوكيات ويتطلب درجة عالية من التنسيق .

وجود خلل في تطبيق التغييرات لأسباب نفسية و تنظيمية.

مقا ومة التغيير العالية ترجع إلى الأسباب التالية:

* **أسباب نفسية و تنظيمية** : و التي يمكن تلخيصها في المحاور التالية:

– صعوبة التحول من **ثقافة** مبنية على أسس **علاقاتية و شفهية** بين المعالج و المريض و ثقاقة تقنية إلى **ثقافة مكتوبة** .

– **صعوبة الانتقال في الأدوار**، من دور تقليدي، من دور المعالج إلى دور مزدوج، الأمر الذي يتطلب جهدا ووقتا، بالإضافة إلى عدم وجود هذه الثقافة ضمن التكوين الأصلي الذي ينتج عنه تصادم في الوسط المهني.

– **عدم تبسيط الإجراءات و العمل** .

– الأفراد الذين يشكلون نخبة في الاختصاصات الضرورية للمؤسسة، يمثلون سلطة و مصدرا لمقاومة التغيير.

– عدم إعطاء سلطة فعلية وحقيقية لرؤساء المكاتب، و عدم توزيع المسؤولية يساهم في خلق مقاومة عن طريق تنمية اللامبالاة بين الأفراد.

– عدم قيام الأفراد المكلفين بالتنسيق و الإشراف على مستوى المؤسسة بدورهم، لعدم معرفتهم و وعيهم بحيثيات التغييرات.

– ظهور صراعات على مواقع السلطة، بقدوم الأطباء الاختصاصيين، بينهم و بين الأطباء العامين

و الشبه طبيين، نظرا إلى تعود الشبه الطبي و الطبيب العام على الاستقلالية و السلطة لسنوات كانت تعاني منها المؤسسة من قلة التأطير.

* التباين في تطبيق الإجراءات بين المصالح الاستشفائية يرجع إلى أسباب تنظيمية :

– فعدد فريق العمل و كفاءة رؤساء المصالح يلعب دورا في التحكم في عملية التغيير.

– الإرادة و التعاون ضمن فريق العمل يساهم في خلق التعاون و الانسجام، و بالتالي التقليل من مقاومة التغيير.

*** .غياب ثقافة الاصلاحات الاستشفائية بالمؤسسة :**

– غياب ثقافة الإصلاحات الإستشفائية عند كل فرد بالمؤسسة سواء كان طبيبا أو شبه طبي أو إداريا، و عدم و عيه بدوره في ظل هذه التفاعلات، فالفرد يحمل سلوك و عادات العمل القديمة و يواجه تغييرات لا يعلم منها غير الدور التقليدي و هو العلاج، دون أن نتكلم عن نوعية العلاج.

***عدم القدرة على تجسيد فكرة الشفافية و نوعية علاج.**

- عدم قدرة المؤسسة على خلق علاقة ثقة بينها و بين المريض و المواطن بصفة عامة، عن طريق احترام حقوقه وإنشاء علاقة شفافية، والتكفل بالشكاوى المقدمة من طرفه، و بعد المؤسسة عن بلورة فكرة الزبون و المنافسة، وذلك يعود لأسباب عديدة منها:
- طبيعة وكثافة النشاط الاستشفائي تعيق تجسيد نوعية في العلاج و تغيير النظرة نحو المريض كزبون
- المشاكل التنظيمية و نقص التنسيق بين المصالح الاستشفائية.
- عدم وعي الأفراد بأهمية نوعية العلاج و تحسين الاستقبال على مستقبل المؤسسة.
- ترسخ فكرة مجانية العلاج لدى المريض لعدة سنوات.

*** الاعتماد على الوسائل المادية في تسيير التغييرات**

المؤسسة كإدارة معتمدة على توفير **العوامل المادية أكثر من** خلق الوسائل **التسييرية الحديثة** التي تدمج الفرد ضمن إشكالية التغيير و ضمن الثقافة الجديدة، في حين أنه يجب إلى جانب توفير الموارد المادية تحسيس الأفراد و إفهامهم و إعادة إفهامهم للوصول إلى النتائج المبتغاة، كالاعتماد على تقنيات لإدارة بالمشاركة التي من شأنها أن ترافق سيرورة التغيير من جهة، و القدرة على التغلب على المشاكل التنظيمية تدريجيا التي قد تكون بذور لمقاومة التغيير، و يضمن أيضا توحيد الجهود الطبية و الإدارية و شبه طبية و إيجاد لغة مشتركة بينهم.

–عدم تبلور فكرة تسيير الموارد البشرية و عدم استغلال المؤشرات و المعايير الموضوعية في التسيير، من أجل توجيه المستخدمين توجيها عقلانيا، و عدم تحيين الوظائف مع واقع الإصلاحات.

*** دور التسيير القديم و عدم تعاون المحيط في تعطيل التغييرات.**

و هناك عوائق ناتجة عن عدم التعاون و التنسيق مع المحيط بمختلف فاعليه، مع هيئات ضمان الاجتماعي والجماعات المحلية و القطاع الخاص بالرغم من الدور الاستراتيجي لكل منهم.

نتائج السياسات السابقة كان لها دورا في تعطيل الإصلاحات الإستشفائية، فالمؤسسة اليوم بين معالجة المتغيرات الجديدة و بين رواسب السياسات المركزية السابقة والتي يصعب محوها بين ليلة و ضحاها والدليل على ذلك:

– العجز المستمر للهياكل في تلبية احتياجات المواطنين، و التقسيم الإداري الذي لم يكن متناسقا مع التقسيم الصحي،

و التوزيع غير العادل للموارد البشرية و المادية بين مناطق الوطن.

- سلبية التمويل الجزافي من جهة و سياسة الميزانية الشاملة؛ حيث أدى ذلك إلى اتجاه الإنفاق المالي على الهياكل دون اعتماد النشاطات الصحية من ناحية، و من ناحية أخرى طغيان المعيار التقليدي لموازنة الإنفاق للموارد بدل اعتماد النتائج كمؤشرات دالة، و هذا كان له التأثير السلبي في إرساء ثقافة الإنفاق من طرف المسيرين، ومن طرف المسؤول على المصلحة وكل فرد بالمؤسسة، و إهمال للجانب الإحصائي والمعلوماتي و غياب المؤشرات الطبية والإدارية.

2.2.علاقة سياسة الاتصال و التحفيز المتبعة بمقاومة التغيير.

لقد أظهرت النتائج في مجملها أن هنـــاك حاجة للتحفيز و الاتصال لإقناع الأفراد و إبادة المخاوف و خصوصا ما لاحظناه من فروق ناتجة عن مدى استيعاب الأفراد للتغيير، وخصوصا أن هذه التغييرات جوهرية تمس ثقافات وسلوكات عميقة تعلقت أساسا بتكوين و هوية المهن من جهة و متعلقة أيضا بفكرة مهمة المرفق العمومي، مما يتطلب التأهب بسياسة اتصالية وتحفيزية ،سوف نعرض أهم النتائج فيما يخص السياسة الاتصالية و التحفيزية بالمؤسسة و علاقتها بمقاومة التغيير .

2.2.2. مقاومة التغيير نتيجة السياسة الاتصالية

إن مقاومة التغيير بالمؤسسة **أصلها ليس سلبية الموظف**، و إنما في السياسة الاتصالية المتبعة من طرف الإدارة التي لا تخدم أهداف التغييرات بعدم استغلال أساليب الاتصال لجذب انتباه العاملين و تحفيزهم، فهناك إرادة من طرف الأفراد لمعرفة المواضيع التي أتت بها الإصلاحات الاستشفائية، فالفرد بالمؤسسة غير سلبي أمام المواقف و المشاكل و يريد تقديم اقتراحات، فالسياسة الاتصالية المتبعة هي التي جعلت الفرد غير مهيأ ضمن الإشكالية الجديدة، لأنها تحمل العديد من العيوب:

* **نقص توفير المعلومات للموظف حول المفاهيم الرئيسية التي أتت بها الإصلاحات الاستشفائية** وعدم التأكد من رجوع المعلومة و معالجتها تجعل الفرد في المؤسسة سواء كان طبيبا أو ممرضا أو إداريا غير واع بحيثيات عديدة بالمؤسسة، و غير مندمج في الثقافة الجديدة، و تقيده بالدور التقليدي.

فساحة المعلومة وانتشارها على كل الأصعدة لا تستغل لنقل المعلومات الخاصة بالإصلاحات الإستشفائية، و إنما لنقل المشاكل الجانبية، و التي تثار حسب ما تقتضيه المصالح الشخصية لبعض الأفراد.

* **عدم استغلال المعلومة** من طرف إدارة المؤسسة لاتخاذ قرارات عقلانية، قائمة على مؤشرات عقلانية، بالرغم من توفر الأدوات التسييرية التي تعطي معلومات دقيقة وفعالة. و التي كان يمكنها أن تكون معلومات مدعمة لأهداف التغييرات.

* **ضعف جهودات كبيرة لتغيير نظرة الأفراد نحو أفكار الاصلاحات الاستشفائية:** بعدم شرح و إعادة شرح وتحسيس الأفراد بأهمية أفكار الاصلاحات الاستشفائية: عدم إقناع الفرد بالمؤسسة، كل حسب دوره الجديد بايجابيات التغييرات المقدمة أو أهميتها، لتفادي المقاومة التي قد تنشأ من الخوف و عدم فهم هذه التغييرات.

* **الاستغلال المتواضع لقنوات الاتصال الموجودة لعرض أفكار التغيير**

- عدم الاستغلال الجيد لقنوات الاتصال المفضلة لدى الأفراد، من طرف الادارة لإرساء التغيير التنظيمي، ولتفادي الأفكار الجانبية والتي تشكل حواجز تشوش على مراحل التغيير، والتي من بين هذه الأساليب، علاقات القرابة و غلبة السلطة غير الرسمية خصوصا في السلك شبه الطبي، والتي غير مستغلة استغلالا جيدا لتمرير المعلومات اللازمة عن الإصلاحات الإستشفائية.

-عدم استغلال الهيئات المهمة التي تعتبر مكانا مثاليا لطرح أفكار الإصلاحات الاستشفائية وتكوين الوعي خصوصا لدى الأطباء.

-الأفراد المطالبين بتمرير و تطبيق الإصلاحات و التغييرات، بحكم مناصبهم غير واعين بأهمية التغييرات و غير مؤهلين لنقل التغييرات.

*** عدم استعمال الإدارة بالمشاركة**

من أجل الاستماع إلى المشاكل الحقيقية التي تشكل مقاومة للتغيير، منها عدم تفعيل اللجان المختلفة التي أتت بها الإصلاحات الاستشفائية لتنظيم المعلومات و الوصول إلى تشخيص دقيق.

أهمية هذه الإدارة تكمن في تلقي معلومات نوعية و كمية عن العوائق و المشاكل التي تواجهها أثناء التغييرات التنظيمية، فهي تضمن مشاركة أفراد آخرين و معرفة دقيقة للمشاكل ليس من خلال النظرة الطبية فقط و إنما النظرة التقنية، ومشاركة الأفراد في اتخاذ القرارات، و مساحة للتعبير عن آرائهم

و تثمين للقرارات الإدارية،و أهميتها في الاستماع إلى أرضية الميدان مع التقييم المستمر.

و هذا يعني أن التغيير يتم بطريقة أحادية الجوانب وليس نتاج جماعي، ومازال ينظر التغيير عن طريق تعليمة أو مذكرة.

عدم الأخذ بعين الاعتبار باقتراحات، يقيم الهوة بين الإدارة و موظفيها ولا تعزز روح المبادرة و التي تعتبر عناصر معيقة في أي مرحلة من مراحل التغيير.

* عدم إيمان الأفراد بقدرة الاجتماعات على حل المشاكل، لعدم قدرتها على حل كافة المشاكل و عدم متابعتها وتقييم النتائج ميدانيا.

***تأثير خصوصية المعلومات و علاقات السلطة بالمؤسسة في تعطيل الإصلاحات**

حيث أن قيام العلاقات على الشبكات الاجتماعية و فساحة المعلومات خارج السلم الإداري وخارج المؤسسة، ساهم في تجسيد الفوضى و انحرافها عن مواضيع الإصلاحات الاستشفائية فنجد:

* التداخل القوي في الصلاحيات بين مهام كل من الممرض رئيس المصلحة، و الطبيب رئيس المصلحة بالإضافة إلى عدم وجود وثائق إدارية كتابية تضمن عدم التداخل بين المصالح.

* التجاوز في درجات السلم الإداري خلق خللا في التنسيق بين المهام و إحباطا، وشعور باللامبالاة، وعدم التفاعل لدفع العمال نحو التغيير.

كل هذه العوامل في وسائل و قنوات الاتصال، و السياسة الاتصالية المتبعة من طرف الإدارة لا تشجع على إقامة تغييرات، سواء بالنسبة لكمية المعلومات ونوعيتها أو بالنسبة لاستغلال لعلاقات السلطة وقنوات الاتصال التي تضمن سرعة و ضمان قابلية التغييرات.

ومع هذا فان التغيير لا يحتاج إلى سياسة اتصالية فقط، بل يحتاج إلى تحفيز الأفراد لدفعهم نحو التغيير، اذن فما هي السياسة التحفيزية المتبعة و مدى إفادتها في إقامة تغييرات .

3.2.2 التحفيزات القانونية الحالية لا تخدم أهداف التغييرات :

إن قانون الوظيفة العمومية لا يعطي الحرية التامة للمسير في توزيع التحفيزات المالية حسب الأهداف التي يضعها لمؤسسته، فهي أجور موحدة محددة بمعايير ثابتة ومسبقة، كما أن الأجور التي يتلقاها الموظف بالمؤسسات الاستشفائية بصفة عامة غير مناسبة بالنسبة لصعوبة عملهم.

حتى الترقية في مفهومها الحالي تخلو من تشجيع القدرات و الكفاءات فهي تتم بصفة ذاتية في أغلب الأحيان و النقاط التي تعطى لا تعبر عن حقيقة عمل الموظف و إما بعلاقاته مع رئيسه أو مع الإدارة.

*** عدم استغلال المسير للتحفيزات الموجودة لخدمة التغييرات**

بالرغم من العوائق المذكورة، إلا أن هناك بعض التحفيزات التي تمنح للتشجيع على العمل و تحسينه، إلا أنه في المؤسسة تعطى بصفة متساوية كل حسب السلك الذي ينتمي إليه، مما يخلق التنافس السلبي بين الأفراد و يخلق التقاعس في انجاز المهام.

الموظف غير مستفيد من حقوقه القانونية بصفة تامة، فهناك خلل في جداول الترقية وكذلك في التكوين، بالرغم من دورهما الأساسي في إعطاء دفع للموظف لتقديم الأفضل و رفع الروح المعنوية، وفي تفادي مقاومة التغيير الناتجة عن عدم المعرفة وفي تسهيل إدماج و تقبل الأفراد للتغيير، و أهميتهما في المساهمة في دعم الحياة الاجتماعية و في نقل الأفكار بين المصالح الاستشفائية و بين الأفراد .

– مواضيع التكوين لا تتناسب مع محتوى الإصلاحات الاستشفائية، بالرغم من أن الموظفين لهم رغبة في معرفة هذه المواضيع الجديدة و استكشافها.

و قد لاحظنا أن السلك الأقل استفادة من التكوين و الترقية "السلك الشبه الطبي" هو السلك الأكثر مقاومة للإصلاحات الاستشفائية.

***التركيز على التحفيز المادي دون المعنوي**

– تركيز الإدارة على توفير التحفيزات المادية " الأجهزة " الطبية و الإعلام الآلي و المكتبية و توسيع المصالح .

– ضعف الروح الاجتماعية بين الأفراد، إلا العلاقات الناتجة عن الزمالة الطويلة أو الصداقة والقرابة،

و لكن لا يوجد اجتماعات دورية بين المصالح الاستشفائية تسمح بتبادل المعلومات المهنية بدون رسمية و بكل شفافية، تضمن تبادل الخبرات

و الكفاءات المهنية و تطوير الخدمات المقدمة للمريض، وتزيد من روابط الروح الاجتماعية ورفع الروح المعنوية.

– قلة اهتمام الإدارة بأهمية ثقافة الانتماء خصوصا في عهد الإصلاحات الاستشفائية التي يبرر وجودها بصفة قوية، فالمؤسسة الاستشفائية مطالبة بتقديم صورة جيدة عن نفسها بالنسبة للمريض والمواطن، بتحسين الاستقبال و تنظيم المواعيد، و إظهار التفاهم بين الأفراد وكل هذا لا يكون إلا إذا أحس الموظف بثقافة الانتماء للمؤسسة التي يعمل بها، لنقل صورة جيدة عن مؤسسته.

ولهذا نتساءل، في كل هذه الظروف و التي أهمها التقصير في تقديم التحفيزات التي من حق الموظف، كيف لنا أن نطالبه بتغيير أفكاره وسلوكاته، دون أن تقدم أي جهودات لتحفيزه ولو بجهودات بسيطة التي قد تسهم في تنمية الروح المعنوية لديه؟

الخاتــمة :

إن التغيير هو حقيقة لا يمكن الهروب منها، و لكن الذي يميزه اليوم، هو الوتيرة السريعة وصعوبة التنبؤ بالمحيط، ما يتطلب من المؤسسة طريقة تسيير مرنة قائمة على التفتح على المحيط

وانتهاج الإدارة بالمشاركة، بالإضافة إلى ضرورة الاهتمام بالجانب الاجتماعي داخلها .

صعوبة التغييرات لا تعود فقط لعمق و حجم هذه التغييرات و إنما أيضا لطبيعة المؤسسة الصحية نظرا لحساسية مهمتها ولاختلاف اللغات و تعدد مراكز السلطة بها، ما يتطلب إيجاد صيغة مناسبة لطرح التغيير، قادرة على التنسيق و مراعاة هذه الاختلافات داخل المؤسسة و خارجها، و خصوصا ضمن التعريف الموسع للصحة العمومية و عدم اقتصاره على المؤسسة الصحية و إنما بتنسيق و تضافر الجهود مع هيئات إدارية أخرى.

وقد خلصنا من خلال الدراسة إلى أن هناك خللا في تطبيق إجراءات الإصلاحات الاستشفائية التنظيمية من طرف الأفراد، ، فالفرد مهما كان طبيبا أو ممرضا أو إداريا غير واع بهذه الحقيقة، مازال يمارس مهامه بأفكار قديمة و غير مدمج داخل حقيقة التغيير، والذي من أسبابه الأساسية :

- عدم تقبل الثقافة الجديدة، من ثقافة أصلها قائم على أسس علاقاتية إلى ثقافة قائمة على الإجراءات و التقيد بالكتابة،انتقال من أدوار تقليدية إلى أدوار جديدة معقدة.
- التصادم بين التكوين الأصلي و بين الواقع المهني.
- عدم وعي الأفراد بأهمية العمل الذي يقومون به و نتائجه على المؤسسة.
- الخوف من فقدان الكفاءة و السيطرة.
- عدم تقبل ثقافة التقييم و الأرقام نظرا لترسخ فكرة مجانية العلاج و تأثيرا لتسيير القديم على انتشار ثقافة اللامبالاة، عدم التقييم و إهمال للنشاطات بين سلوك الأفراد.

أما بالنسبة إلى فكرة الشفافية والأنسنة تحتاج إلى الكثير من التحفيز و إلى تنظيم العمل

و العلاقات داخل المنظمة و إرساء روح التضامن، كما أن ضغوطات العمل قد تحد من تحقيقها.

فهذا يعني أن مقاومة التغيير داخل المؤسسة ليست ناتجة فقط عن عدم توفر المعلومات و لا متعلقة بسلبية الموظف، و إنما هي ذات بعد نفسي و تنظيمي، فالتغيير أعمق من أن يكون تطبيق مذكرة أو تعليمة، فهو ترسيخ لأفكار جديدة و تقييم لمراحل التغيير، و مرافقة وتوجيه سلوكات الأفراد نحو الأهداف الجديدة. لا بد فيها من إتباع إستراتيجية اتصال وتحفيز.

و قد خلصنا إلى أن الاتصال الموجود داخل المؤسسة لا يخدم أهداف التغيير، من أجل:

- إدخال المفاهيم الجديدة ضمن الحياة اليومية بالمؤسسة بشرح و إعادة شرح، وإقناع وتحسيس لمستخدمين بأهمية الإجراءات الجديدة و أثارها، و مرافقتهم نحو تبني أدوار جديدة.
- باستغلال لكافة اللجان و الوسائل التسييرية الحديثة التي تسهم في ضم الأفراد ضمن مشروع مشترك يحسون من خلاله بأنهم مشتركون في تقرير حياة المؤسسة، و أهميتها في ترسيخ أفكار الإصلاحات على أرض الميدان.
- عدم استغلال ميزة علاقات السلطة وطرق الاتصال غير الرسمية الموجودة لنشر الثقافة الجديدة و ايصال المعلومات بسرعة.باعتبارها وسيلة هامة في سرعة تنقل المعلومات وتلقائيتها و أقربها للتقبل من طرف الأفراد.

كما لاحظنا عدم مواكبة سياسة التحفيز للتغييرات حيث أن:

- معظم الأفراد غير مستفيدة من حقوقها في الترقية.
- اعتماد المؤسسة طرق التحفيز المادية فقط، دون الاعتماد على الطرق الأكثر فاعلية من ناحية تغيير السلوكات، كالاعتماد على خلق روح الانتماء لدى الأشخاص و تأثيرها على تقديم صورة جيدة على المؤسسة.
- فئة قليلة جدا مستفيدة من التكوين، بالإضافة إلى أن مواضيع التكوين لا تتناسب مع مواضيع الإصلاحات الإستشفائية و لا تخدمها.
- التحفيزات المقدمة للأفراد بصفة متساوية تساهم في خلق التقاعس و عدم انجاز المهام.
- عدم توفر الجانب الاجتماعي اللازم بين المصالح لا يخدم إقامة تغييرات تنظيمية التي لا بد أن تتحقق و تتطور في إطار اجتماعي جيد.

الهوامش:

[1]– علي عبد الرازق جلبي، علم اجتماع تنظيم، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، الإسكندرية 1999، ص 178.

[1]– (BONMATI) Jean-Marc, Les ressources humaines à l'Hôpital un patrimoine à valoriser, Berer-Levrault, Paris, année 1998, page 81 et après.

[1]– Benkadi.H, Prestations de soins ou prestations de services, revue santé- Maghreb, 01 décembre 2004.

[1]– Benkadi.H, op .cit ,prestations de soins ou prestations de services, revue santé – Maghreb, 01 décembre 2004.

[1]– Benkadi. H, Ibid.

[1]– د/ علي عبد الرازق جلبي، **علم اجتماع التنظيم**، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، الإسكندرية 1999، ص 193-195.

[1]– د/ علي عبد الرازق جلبي، مرجع سابق، ص 195.

[1]- Michel crozier et Edhardfredeberg, l'acteur et le système, seuilcoll, France, 1997, P. 50.

[1]– Michel crozier et Edhardfredeberg, Op.cit, P. 51.

[1]– Michel crozier et Edhardfredeberg, Op.cit, P. 53.

[111]- Michel crozier et Edhardfredeberg, Ibid, P. 54.

المراجع :

الكتب :

1–علي عبد الرزاق جلبي ،علم اجتماع تنظيم ،دار المعرفة الجامعية ،الطبعة الأولى 1999.

2-Michel crozier et Edhardfredeberg, l'acteur et le système, seuilcoll, France,1977.

الوثائق:

3-Benkadi.Hocine , ,prestations de soins ou prestations de services, revue santé – Maghreb, 01 décembre 2004.

4-BONMATI) Jean-Marc, Les ressources humaines à l'Hôpital un patrimoine à valoriser, berer-Levrault, Paris, année 1999.

المركب الإضافي والمركب التأليفي: دراسة تقابلية

Les Construits Et Les Composés En Arabe : Une Etude Comparative

MAMMERI Mahmoud Fawzi
Université Blida 2, El-Affroun (Algérie)

ملخص

يعتبر التأليف، من وجهات نظر متعددة، الوجيهة بامتياز بين الصرافة والتراكيب. فإذا كانت التراكيب عبارة عن إلصاق كلمات لتكوين جمل، فإنّ التأليف يُعَدُّ بصورة نموذجية إلصاق كلمات لتأليف كلمات أخرى. إنّ هذا النوع من التراكيب الاسمية، المعروفة تحت تسمية التراكيب التآلفية، يُعتبَر جدُّ منتج في العربية، وعلى وجه الخصوص التأليفات من نوع اسم-اسم. نوعٌ ثان من التراكيب الاسمية ذات الإنتاج الواسع والمفضلة كثيرا في العربية يتمثل في المركب الإضافي وبصورة خاصة التراكيب الاسمية من نوع اسم-اسم (المضاف والمضاف إليه في التقليد النحوي العربي). وقد نوقِشت هذه التراكيب بإسهاب في الأدبيات التوليدية، ومن المسلّم به، اعتمادا على التحليل الخاص لهذه التراكيب، أنّها تُعتَبَر كعناصر للتركيبيات.

في إطار هذا البحث، نقترح مقابلة بين المركب التأليفي والمركب الإضافي بغرض إظهار أوجه التشابه والاختلاف بينهما. وبما أنّ هذين التركيبين يختلفان أكثر ممّا يتشابهان، سوف نستعرض أوجه الاختلاف بينهما في شكل مجموعة من الاختبارات، يمكن استعمالها كلما كانت الحاجة للتحقق من تأليفية اسميٍّ من نوع اسم-اسم. وكنتيجة مهمّة لهذا العمل، تكون التراكيب التأليفية أفضل إذا ما عومِلت ككلمات وعليه يجب أن تُفَسَّر داخل المعجم، فيما تعامل التراكيب الإضافية كمركبات وتعالج داخل التركيبيات.

كلمات مفاتيح: مركب إضافي اسم-اسم، مركب تأليفي اسم-اسم، مركب اسمي عربي

Résumé

À bien des égards, la composition représente l'interface entre la morphologie et la syntaxe par excellence. Si la syntaxe peut être considérée comme la concaténation de mots pour former des phrases, la composition est prototypiquement la concaténation de mots pour former d'autres mots. Ce premiers type de constructions nominales, connues sous la dénomination de constructions composées sont très productives en arabe, surtout les composés de type Nom-Nom. Un deuxième type de constructions nominales qui sont à la fois très privilégiées et à forte production en arabe est l'état construit, et plus particulièrement les états construits nominaux de type Nom-Nom. Ces constructions ont été largement discuté dans la littérature générative, et il est admit, en tenant compte de leur analyse spécifique, qu'ils sont considérés comme des composants de la syntaxe. Il s'agit dans ce travail d'opposer les deux constructions arabes composés et construits en faisant apparaître les similarités et les différences qu'ils présentent les uns par rapport aux autres. Étant plus différentes que similaires, nous présenterons les différences entre ces deux types de construction sous la forme d'un ensemble de tests, lesquelles nous utilisons à chaque fois qu'il s'agit de valider la 'compoundness' d'un nominal de type Nom-Nom. Une conséquence importante de ce travail est que les composés sont mieux vus comme des mots et doivent donc être rendu compte dans le lexique, alors que les construits sont syntaxiquement des syntagmes et d'où ils sont traités par la syntaxe.

Mots clés : état construit N-N, composé N-N, syntagme nominal arabe

Introduction

À bien des égards, la composition représente l'interface entre la morphologie et la syntaxe par excellence. Si la syntaxe peut être considérée comme la concaténation de mots pour former des phrases, la composition est prototypiquement la concaténation de mots pour former d'autres mots. Ce premier type de constructions nominales, connues sous la dénomination de constructions composées sont très productives en arabe, surtout les composés de type N-N. Un deuxième type de constructions nominales qui sont à la fois très privilégiées et à forte production en arabe est l'état construit, et plus particulièrement les états construits nominaux de type N-N. Ces constructions ont été largement discutées dans la littérature générative, et il est admit, en tenant compte de leur analyse spécifique, qu'elles sont considérées comme des composants de la syntaxe. Il s'agit dans ce texte d'opposer les composés aux construits en faisant apparaître les similarités et les différences qu'ils présentent les uns par rapport aux autres. Étant plus différentes que similaires, nous présenterons les différences entre ces deux types de constructions sous la forme d'un ensemble de principes de bonne formation (ou tests de validation), que nous utilisons à chaque fois qu'il s'agit de vérifier si une construction donnée est bien un composé. L'intérêt porté dans ce travail aux composés N-N est du principalement à la montée spectaculaire du phénomène du néologisme dans des domaines aussi variés qu'Internet, la médecine, la génétique, la politique, etc. « Si l'on fait l'inventaire du vocabulaire des langues de spécialité, on se rend compte que les substantifs constituent l'essentiel du vocabulaire et que parmi eux les noms composés s'y taillent la part du lion. » (G. Gross, 1996 :27) En effet, magazines, journaux, télévision, …, montrent tous que le nombre considérable de mots composés est une réalité. Dans ce contexte, l'arabe, comme d'autres langues du monde, recoure à la néologie traductive ; en d'autres termes, elle reçoit et adapte les termes d'autres langues (spécialement de l'anglais). Ce qui justifie tout l'intérêt du travail que nous entreprenons à travers cet article.

Comme tout travail de recherche, cet article utilise un certain nombre de concepts que nous avons jugés définir afin d'éviter toute confusion terminologique. C'est ce que nous allons découvrir d'une manière concise dans la section subséquente.

1. Repères terminologiques

1.1. État construit

L'état construit (ÉC) a été largement discutée en littérature sémitique. En linguistique sémitique, le terme ÉC (en arabe: al-muḍāf wa al-muḍāf ʼilayh) qualifie les constructions formées à partir d'un nom immédiatement suivi par (i) un autre nom au génitif jouant le rôle d'un modifieur (e.g. *kitābu al-muʻallim-i*) ou (ii) un pronom lié (i.e. cliticisé) ayant la fonction d'un possessif (*kitābu-hu*). L'ÉC est un phénomène linguistique trans-catégoriel : en arabe, la tête de l'ÉC peut être un nom, un adjectif, un quantificateur, un ordinal, un cardinal, un participe actif, une préposition, etc. La construction en état construit possède un ensemble de propriétés clairement décrites depuis Borer (1984) : (i) seul le dernier élément d'un ÉC est marqué pour la (in)definitude, (ii) tout les membres d'un ÉC sauf le premier sont marqués au genitive, (iii) les membres d'un ÉC sont adjacent, (iv) l'ÉC forme un mot phonologique, (v) un pronom démonstratif ne peut précéder un construit pour en former ensemble un nouveau construit, (vi) les suffixes *-ni* du duel et *-na* du pluriel masculin sain ne peuvent être affixés à la tête d'un construit, (vii) l'antécédent d'une proposition relative subordonnée peut être indifféremment l'un ou l'autre des deux membres du construit de la proposition matrice, et enfin (viii) on peut toujours préfixer des conjonctions et des prépositions à lettre unique (single-letter conjunctions, single-letter prepositions) aux ÉCs. Pour une étude complète sur ces propriétés, le lecteur intéressé pourra consulter). (معمري، 63– 2015:220)

1.2. Compositionalité

Le principe de compositionnalité stipule que : « le sens d'une expression complexe est une fonction du sens de ses parties et de leur mode de combinaison » (Nicolas, 2006). Selon ce principe (du à Gottlob Frege et Richard Montague), le sens d'un texte, d'une phrase, d'un syntagme, ..., même jamais entendu auparavant, est calculé à partir des significations de ses parties constitutives. Ainsi, si le sens de chaque

unité lexicale non ambiguë est fixé dans le lexique, la combinaison de ces sens guidée par une structure syntaxique permettra d'aboutir à l'interprétation de l'expression formée. Ainsi, pour calculer la sémantique de la construction *'arūsu al-rağuli*, il suffit de combiner les sens des deux composants *'arūs* « bride » et *rağul* « man » ; en d'autres termes, le sens de la totalité de la construction est la somme des sens des parties qui la constituent. Le principe de la compositionalité sémantique est donc validé sur ce premier exemple puisque le sens du syntagme nominal complet est fonction des sens de ses parties. En revanche, combiner les sens des deux constituants *'arūs* « bride » et *al-baḥr* « sea » ne donne pas le sens qu'on attend pour l'expression *'arūs-u al-baḥr*[12] ; sa sémantique n'est pas compositionnelle au sens du principe de la compositionalité sémantique. Cependant, la limite entre ces deux types de construction n'est pas toujours claire, et seules d'autres informations linguistiques et extralinguistiques peuvent permettre de trancher. Un syntagme nominal tel que *dār-u al-aytām-i* peut avoir deux lectures possibles. La première, compositionnelle, ayant pour signification « la maison des orphelins », et que nous pouvons paraphraser en : « il existe des orphelins, et il existe une maison qui leur appartient ». La seconde, non compositionnelle, ayant pour interprétation « l'orphelinat ».

1.3. Composition

Le mot composé est traditionnellement définit comme un : « mot contenant deux, ou plus de deux, morphèmes lexicaux et correspondant à une unité significative ». La notion de composition fait depuis près d'un siècle et demi[13] un sujet de débat. Elle n'est pas spécifique à l'arabe mais diffère d'une communauté à une autre. Nous nous intéressons dans ce texte à la notion de nom composé. Les noms composés forment un sous-ensemble de l'ensemble des états construits nominaux qui ont la particularité d'être sémantiquement non compositionnels. Nous pouvons les définir ainsi : « mot contenant deux, ou plus de deux, noms, correspondant à une unité significative et ayant un sens non compositionnel ». Les noms composés se situent dans le cadre de la néologie et, plus exactement, de la néologie morphosémantique. Ainsi, ils génèrent des problèmes de traduction. Et c'est tout l'intérêt porté à ce type de construction en traitement automatique des langues naturelles. Plusieurs critères de définition des composés ont été définis. Radimský (2005 :44) propose deux grilles de critères : l'une pour les différencier des dérivés et l'autre pour les différencier des syntagmes syntaxiquement libres. Ainsi, sera reconnu comme un composé prototypique un lexème : (i) graphiquement et phonologiquement soudé, (ii) ayant la distribution d'un lexème simple, (iii) dont les parties ne peuvent pas être actualisées séparément, (iv) dont les composants étaient autonomes au moment de la fusion et continuent à l'être, (v) au sein duquel les transformations sont complètement bloquées, (vi) qui ne comporte aucune marque de liaison syntaxique entre ses constituants, (vii) qui appartient par sa structure à un modèle productif, (viii) qui exprime un signifié précis et unique et (ix) sémantiquement opaque. Il sera dit non prototypique s'il ne satisfaisait pas à certains de ces critères. Si l'unité en question ne satisfait plutôt à aucun critère, il s'agirait d'un syntagme syntaxiquement libre. De plus, les éléments d'un composé prototypique devraient (x) appartenir aux parties du discours majeures et (xi) être dotés d'un sens référentiel.

1.4. Tête

Nous définissons la tête d'une construction (construction syntaxique, lexicale ou sémantique) comme l'élément composant qui transmet à la construction l'ensemble des traits morphologiques, syntaxiques et/ou sémantiques (catégorie syntaxique, genre, nombre, cas, définitude, animéité, humanité, abstraction, comptabilité, le sens selon la condition EST-UN, …) nécessaire à des opérations telles que l'accord, l'unification ou le calcul du sens. Ainsi, le constituant *al-kitābu* est la tête de la construction *al-kitābu al-'aḥmaru,* car tous les deux (i.e. tête et construction) sont des noms, masculins, singuliers, au nominatif, définis, animés, inhumains, concrets, comptables, … et *al-kitābu al-'aḥmaru* EST-UN (type de) *kitāb.* Dans certaines analyses, on peut s'intéresser uniquement à un sous-ensemble des propriétés d'un constituant : on parle alors de tête lexicale, tête syntaxique ou tête sémantique. Pour identifier la tête d'une construction donnée (dans une langue donnée), plusieurs critères ont été discutés en littérature (headedness criteria, fr. critères pour la capitalité)[14].

1.5. Productivité

La productivité, quoiqu'elle existe depuis très longtemps de façon implicite en syntaxe, n'a été définie pour la première fois qu'en morphologie constructionnelle. Dans ce dernier cadre, cette notion a été définie de plusieurs façons dont deux sont largement soutenues. Le premier type de définition appréhende la productivité sous un angle qualitatif. Il s'agit de voir la productivité comme une notion binaire : « un procédé constructionnel ne peut être qu'apte ou inapte à former de nouveaux mots » (Dal, 2003 :11). En d'autres termes, il existe des procédés qu'on peut qualifier de productifs et d'autres qui sont improductifs ; d'autres auteurs parlent de disponibilité (disponible vs. non disponible). Dans une approche quantitative, il s'agit de voir la productivité comme une notion scalaire pouvant par exemple aller du peu productif au très productif; on parle aussi de rentabilité (rentable vs. non rentable). Dans ce qui suit, nous allons plutôt utiliser la notion de productivité dans le procédé de formation des composés et des construits. C'est pour cette raison que nous n'allons pas aller dans le détail de la définition et nous nous contentons d'une définition basique qui est commune à toutes les approches de définition du terme productivité en ces termes : « la productivité est conçue comme l'aptitude d'un procédé à former de nouvelles unités lexicales, indépendamment de toute autre considération. » Enfin, il est utile de distinguer entre la productivité d'un modèle et la productivité d'un élément dans un modèle. L'ÉC arabe de la forme N-N est par exemple un modèle de composition extrêmement productif : *dāru al-baladiyyati*, *sayāratu 'uğratin*, *kuratu al-qadami*, *ğabhatu al-taḥrīri*, etc. Dans ce modèle, le paradigme *dār*-N est lui aussi productif. En effet, l'élément tête *dāru* forme un riche paradigme, c'est-à-dire qu'il y a plusieurs composés arabes où *dār* en serait une tête : *dār-u al-baladiyyati*, *dār-u al-šabābi*, *dār-u al-naṣri*, *dār-u al-'aytām-i*, *dār-u al-'islāmi*, *dār-u al-kufri*, etc.

2. Constructions construites vs. constructions composées en arabe

Il est facile de montrer que l'arabe possède des composés. Les exemples en (1.a-g) montrent la possibilité d'avoir des concaténations de deux noms donnant lieu à des noms composés dont le sens n'est ni compositionnel ni prévisible à partir des sens individuels des noms qui y participent.

(1) a. كَاتِبُ العَدْلِ
kātib-u al-'adl-i
editor-nom the-law-gen
'the lawyer', 'the notary public'
'le notaire'

b. بَيْتُ المالِ
bayt-u al-māl-i
house-nom the-funds-gen
'the funds', 'government department in charge of public finance'
'le Trésor public'

c. دارُ الأيتامِ
dār-u al-'aytām-i
house-nom the-orphans-gen
'orphanage'
'orphelinat'

Il est alors intéressant de mettre en clair les frontières entre les composés tels qu'en (1) et les construits, tels qu'en (2) ci-après, qui, en étant eux aussi des suites de noms concaténés, sont syntaxiquement productifs et sémantiquement compositionnels ; i.e. ayant un sens entièrement prédictible à partir de leurs parties.

(2) a. كاتِبُ المَقَالِ
kātib-u al-maqāl-i
editor-nom the-article-gen
'the editor of the article'
'l'éditeur de l'article'
b. بَيْتُ الوَزيرِ
bayt-u al-wazīr-i
house-nom the-minister-gen
'the house of the minister'
'la maison du ministre'
c. دارُ المُعَلِّمِ
dār-u al-mu'allim-i
house-nom the-teacher-gen
'the house of the teacher'
'la maison de l'instituteur'

Certes, les nominaux en (1) et en (2) diffèrent sur un certain nombre de points, que nous développerons dans la section 3 ci-après, mais partagent en revanche les mêmes formes morphophonologiques, ainsi que le fait qu'il s'agit dans les deux cas de composés nominaux qui ont pour tête un nom en état construit, et c'est ce que nous allons voir dans la section subséquente.

Notons enfin que les nominaux en (1) peuvent perdre leur lecture compositionnelle au profit d'une lecture équivalente à celle des nominaux en (2). L'exemple en (1.c), reprit en (3) ci-dessous, peut avoir selon le contexte l'une des deux lectures (3.a), qui est compositionnelle, ou (3.b), qui ne l'est pas.

(3) a. دارُ الأَيْتامِ
dār-u al-'aytām-i
house-nom the-orphans-gen
'orphanage'
'orphelinat'
b. دارُ الأَيْتامِ
dār-u al-'aytām-i
house-nom the-orphans-gen
'the house of the orphans', 'the orphans' house'
'la maison des orphelins'

3. Construits et composés : similarités

Les états construits nominaux et les composés nominaux se croisent sur beaucoup de points communs que nous résumons en ces termes :

3.1. Au niveau phonologique

PREMIEREMENT Les combinaisons N+N (construits et composés) sont des mots prosodiques. Des combinaisons telles que (1) et (2), ci-haut, présentent un seul accent primaire qui tombe sur le complément (ou constituant non-tête). Les formes singulières féminines se terminant par *-a* lorsqu'elles sont à la forme libre (cf. 4.a et 5.a), exposent une forme liée distincte lorsqu'elles sont utilisées aussi bien dans les construits (cf. 4.b) que dans les composés (cf. 5.b).

(4) a. مَدْرَسَه
madras-a
school-fem
'school'
'école'

b. مَدْرَسَةُ الحَيِّ
madras-at-u al-ḥayy-i
school-fem-nom def-district-gen
'the school of the district'
'l'école du quartier'

(5) a. كاتِبَه
kātib-a
secretary-fem
'secretary'
'secrétaire'
b. كاتِبَةُ مُدِيرِيّةٍ
kātib-at-u mudīriyyat-i-n
secretary-fem-nom management-gen-indef
'executive secretary'
'secrétaire de direction'

DEUXIEMEMENT Les formes plurielles masculines régulières (ou pluriels sains) se terminant par *-ūna* lorsqu'elles sont à la forme libre (cf. 6.a et 7.a), montrent une forme liée diminuée (*-ū*) une fois utilisées comme têtes dans des construits (6.b) ou des composés (7.b).

(6) a. مُعَلِّمُونَ
mu'allim-ūna
teacher-pl.masc
'teachers'
'des instituteurs'
b. مُعَلِّمو الرِّياضِيّاتِ
mu'allim-ū al-riyādiyyāt-i
teacher-pl.masc def-mathematics-gen
'the teachers of mathematics'
'les instituteurs de mathématiques'

(7) a. مُديرونَ
mudīr-ūna
director-pl.masc
'directors'
'des directeurs'
b. مُديرو الأَخْبارِ
mudīr-ū al-'aḫbār-i
director-pl def-information-gen
'information managers'
'les directeurs de l'information'

TROISIEMEMENT Les formes duelles se terminant par *-āni* (duel masculin au nominatif) ou *-at-āni* (duel féminin au nominatif) lorsqu'elles sont à la forme libre (cf. 8.a et 9.a), montrent elles aussi une forme liée diminuée *(-ā* pour le duel masculin et *-at-ā* pour le duel féminin) une fois utilisées comme têtes dans des construits (8.b) ou des composés (9.b).

(8) a. مُعَلِّمانِ (مُعَلِّمَتانِ)
mu'allim-āni (-at-āni)
teacher-dl.masc (-fem-dl)
'two teachers'
'deux instituteurs' ('deux institutrices')

b. مُعَلِّما (مُعَلِّمَتا) الرِّياضِيّاتِ
mu’allim-ā (-at-ā) al-riyādiyyāt-i
teacher-dl.masc (-fem-dl) def-mathematics-gen
‘the two teachers of mathematics’
‘les deux instituteurs de mathématiques’ (‘les deux institutrices de mathématiques’)

(9) a. مُديرانِ (مُديرَتانِ)
mudīr-āni (-at-āni)
director-dl.masc (-fem-dl)
‘two directors’
‘deux directeurs’ (‘deux directrices’)

b. مُديرا (مُديرَتا) الأَخْبارِ
mudīr-ā (-at-ā) al-’aẖbār-i
director-dl (-fem-dl) def-information-gen
‘the two information managers’
‘les deux directeurs de l’information’ (‘les deux directrices de l’information’)

3.2. Au niveau syntaxique

Les similarités entre les deux constructions concernent la majorité des propriétés reconnues pour les états construits nominaux :

PREMIEREMENT Ni la tête d’un construit ni celle d’un composé ne peut être directement modifiée. En effet, alors que dans les nominaux libres, un adjectif modificateur apparait entre la tête et tout autre constituant non-tête additionnel (cf. 10), le modificateur d’un construit doit suivre le construit en entier. En d’autres termes, les deux membres du construit sont adjacents et tout modificateur doit suivre ensemble le constituant tête et le constituant non-tête (cf. 11.a-b). De plus, si le construit renferme plusieurs constituants non-têtes, le modificateur suivra le dernier. Cette restriction est valable aussi pour les composés (cf. 12.a-b).

(10) الدّارُ الجَديدَةُ
al-dār-u al-ǧadīdat-u (un nominal libre modifié)
the-house-nom the-new-nom
‘the new house’
‘la nouvelle maison’

(11) a. دارُ المُعَلِّمِ الجَديدَةُ
dār-u al-mu‘allim-i al-ǧadīdat-u (un construit modifié)
house-nom the-teacher-gen the-new-nom
‘the new teacher’s house’
‘la nouvelle maison de l’instituteur’

b. دارُ الجَديدَةُ المُعَلِّمِ
*dār-u al-ǧadīdat-u al-mu‘allim-i
house-nom the-new-nom the-teacher-gen

(12) a. دارُ الأَيْتامِ الجَديدَةُ
dār-u al-’aytām-i al-ǧadīdat-u (un composé modifié)
house-nom the-orphans-gen the-new-nom
‘the new orphanage’
‘le nouveau orphelinat’

b. دارُ الجَديدَةُ الأَيْتامِ
*dār-u al-ǧadīdat-u al-’aytām-i
house-nom the-new-nom the-orphans-gen

DEUXIEMEMENT Seul le dernier élément d’un état construit peut être marqué pour la (l’in)définitude, et c’est le même constat que nous faisons sur les composés nominaux de type N-N.

TROISIEMEMENT Tout les membres d'un construit sauf le premier sont marqués au génitif, et c'est le cas aussi pour les composés.
QUATRIEMEMENT La modification de la construction entière est toujours possible dans les deux types de nominal.

(13) كِتابُ البِنْتِ الجَديدُ
[kitāb-u al-bint-i] al-ǧadīd-u
book.nom def-girl-gen def-new-nom
'the new book of the girl', 'the new girl's book'
'le nouveau livre de la fille'

(14) رَئيسُ الجُمْهورِيَّةِ المَخْلوعُ
[ra'īsu al-ǧumhūriyyat-i] al-maḫlū'-u
president.nom def-republic-gen def-overthrown-nom
'the overthrown president'
'le président renversé'

4. Construits et composés : différences

Bien que les composés nominaux soient très similaires dans leur forme aux états construits nominaux, les deux constructions présentent des différences cruciales que nous résumons en ce qui suit :

- Les composés constituent un groupe de combinaisons fixe dont le sens est idiosyncrasique ; si nous reprenons les termes de Borer (1989), les composés sont sémantiquement opaques. La formation des constructions régulières (i.e. les construits) est, par contre, productive et donne lieu à des combinaisons sémantiquement compositionnelles montrant divers relations sémantiques et aucun sens sémantique typique des combinaisons lexicales.
- Le complément d'une tête construite peut être n'importe quel syntagme nominal, alors que les composés n'autorisent comme compléments que des noms sous forme de mot unique et non modifié.
- Aucun des éléments d'un composé ne peut être remplacé par un pronom.
- Borer (1989) montre que, en plus de leur opacité sémantique, qui provient du fait qu'il s'agit de produits lexicaux, les constructions composées sont aussi inaccessibles (impénétrables) par la syntaxe, alors que les construits sont syntaxiquement et sémantiquement transparents. Par exemple, les composés n'autorisent ni la coordination ni la modification du complément ni même la référence pronominale à la tête de la construction. Par contre, les états construits autorisent toutes ces trois opérations. Ces derniers ne sont ni syntaxiquement ni sémantiquement opaques, et ne peuvent être le produit d'une opération lexicale.
- Si la tête d'un composé est un nom d'action (ou *maṣdar*), le complément est toujours l'objet sous-entendu (15), alors que le complément d'un construit peut être soit le sujet (16.a) soit l'objet (16.b).

(15) لُعْبَةُ الشِطْرَنْجِ
lu'bat-u al-šiṭranǧ-i
game-nom def-chess-gen
'chess'
'les échecs'

(16) a. خَلْقُ اللهِ
ḫalq-u al-lāh-i (subjective genitive, Thakston (1994, 67-8))
creation-nom def-god-gen
'God's creating (creation)'
'la création de dieu'

b. خَلْقُ الأَرْضِ
ẖalq-u al-’arḍ-i (objective genitive, ibidem)
creation-nom def-earth-gen
‘creating the earth’
‘la création de la terre’

Étant donnée cette vue globale sur les divergences entre les états construits nominaux et les composés nominaux, nous rediscutons en détail dans les sections subséquentes les différences constatées aux deux niveaux syntaxique et sémantique.

4.1. Structure syntagmatique

En se basant sur Borer (2008), nous avons développé un certain nombre de points de différence entre les composés et les construits arabes sous forme de critères. Ces critères seront utilisés à chaque fois qu’il serait question de reconnaitre une expression nominale comme un composé de type N-N (i.e. vérifier la ‘COMPOUNDNESS’ d’une expression nominale).

4.1.1. Pronominalisation du complément

Quand le complément est pronominalisé, si la structure résultante est grammaticale, alors il s’agit d’un construit et non d’un composé; le complément d’un composé ne peut se réaliser sous la forme d’un marqueur d’objet.

En (17.b) un marqueur d’objet postposé à la tête de l’état construit renvoie au complément. Une telle référence est impossible en (18.b) et (19.b) sous peine de perdre la lecture non-compositionnelle (composée). Dans une lecture compositionnelle de l’exemple en (20.a), (20.b) serait considérée comme grammaticale.

(17) a. مُديرُ الشَّرِكَةِ
mudīr-u al-šarikat-i
director-nom def-company-gen
‘the director of the company’, ‘the head of the company’
‘le directeur de la société’
b. مُديرُها
mudīr-u-hā
director.sg.masc-nom-it.sg.fem
‘the director of it’, ‘it’s director’
‘son directeur’

(18) a. بِطاقَةُ التَّعْريفِ
biṭāqat-u al-ta‘rīf-i
card.sg.fem-nom def-identification/definition-gen
‘identity card’
‘la carte d’identité’
b. بِطاقَتُهُ
*biṭāqat-u-hu
card.sg.fem-nom-him
‘the card of him’, ‘his card’
‘sa carte’

(19) a. دارُ الأَيْتامِ
dār-u al-'aytām-i
house-nom def -orphans-gen
'the orphanage'
'l'orphelinat'
b. دارُهُمْ
*dār-u-hum
house-nom-their

(20) a. دارُ الأَيْتامِ
dār-u al-'aytām-i
house-nom def-orphans-gen
'orphans' house', 'the house of the orphans'
'la maison des orphelins'
b. دارُهُمْ
dār-u-hum
house-nom-their
'their house', 'the house of their'
'leur maison'

4.1.2. Pronominalisation de la tête dans une coordination

Lorsqu'on coordonne deux états construits ayant la même tête, la tête coordonnée peut être remplacée par un pronom coréférentiel, i.e. ayant la même référence que la tête du premier conjoint. Une telle référence est impossible avec une lecture non compositionnelle.

Comme le montre les indices dans (21.b) et (22.b), les pronoms *'āẖar* « other (masc) » et *'uẖrā* « other (fem) » font référence respectivement aux noms *kūb-* (glass) et *mil'aqat-* « tablespoonful » qui sont respectivement les têtes des construits *kūb-ay fārīnat* « two glassfuls » et *mil'aqat-ay milḥ* « two tablespoonfuls». Dans le cas d'une coordination de composés, ce type de coréférence n'est pas possible, comme le montre l'agrammaticalité de l'exemple (23.b), et les têtes des composés conjoints doivent être répétées après chaque conjonction, comme en (23.a).

(21) a. (أَضيفي) كوبَيْ فارينَه وَ كوبَ سُكَّر
('aḍīfī) kūb-ay fārīnat wa kūb-a sukkar
(add.imp.fem) glass-dl.acc flour and glass-sg.acc sugar
'(add) two glassfuls of flour and one glassful of sugar'
'ajoutez deux verres de farine et un verre de sucre'
b. (أَضيفي) كوبَيْ فارينَه وَ آخَرَ سُكَّر
('aḍīfī) kūb-ay$_1$ fārīnat wa 'āẖar-a$_1$ sukkar
(add.imp.fem) glass-dl.acc flour and another.masc-acc sugar
(add) two glassfuls of flour and another of sugar
'ajoutez deux verres de farine et un autre de sucre'

(22) a. (أَضيفي) مِلْعَقَتَيْ زَيْت وَ مِلْعَقَةَ مِلْح
('aḍīfī) mil'aqat-ay zayt wa mil'aqat-a milḥ
(add.imp.fem) tablespoonful.fem.dl-acc oil and tablespoonful.fem.sg-acc salt
'(add) two tablespoonfuls of oil and one tablespoonful of salt'
'ajoutez deux cuillères à soupe d'huile et une cuillère à soupe de sel'

	b. (أضيفي)	مِلْعَقَتَيْ	زَيْت	وَ	أُخْرَى	مِلْح
	(’aḍīfī)	mil‘aqat-ay$_2$	zayt	wa	’uẖrā$_2$	milḥ
	(add.imp.fem)	tablespoonfuls.fem.dl-acc	oil	and	another.fem	salt’

‘(add) two tablespoonfuls of oil and one of salt’
‘ajoutez deux cuillères à soupe d’huile et une autre sel’

(23)	a. (دَشَّنَ	الوَزيرُ)	دارَ	شَبابٍ	وَ	دارَ	عَجَزَةٍ
	(daššana	al-wazīru)	dār-a	šabāb-i-n	wa	dār-a	‘ağazat-i-n
	(open.perf	the-minister)	house-acc	young.pl-gen-indef	and	house-acc	old.pl-gen-indef

‘(the minister has opened) a youth club and a rest home’
‘(le minister a inauguré) une maison des jeunes et une maison de repos’

b. (دَشَّنَ	الوَزيرُ)	دارَ	شَبابٍ	وَ	أُخْرَى	عَجَزَةٍ
*(daššana	al-wazīru)	dār-a	šabāb-i-n	wa	‘ukhrā	‘ağazat-i-n
(open.perf	the-minister)	house-acc	young.pl-gen-indef	and	another	old.pl-gen-indef

4.1.3. Modification du complément

Il est possible de modifier le complément d’un construit mais non celui d’un composé. Si la modification du complément génère une nouvelle expression acceptable, cela signifie qu’il ne s’agit pas d’un composé, sous peine de perdre la lecture non compositionnelle. Ceci est facile à montrer avec les exemples suivants :

(24)	a. اِبْنُ	المَلِكِ	
	’ibn-u	al-malik-i	
	son-nom	def-king-gen	

‘the son of the king’
‘le fils du roi’

b. اِبْنُ	المَلِكِ	العادِلِ
‘ibn-u	al-malik-i	al-‘ādil-i
son-nom	def-king-gen	def-impartial-gen

‘the son of the impartial king’
‘le fils du roi impartial’

(25)	a. دارُ	الأَيْتامِ
	dār-u	al-’aytām-i
	house-nom	def-orphans-gen

‘the orphanage’
‘l’orphelinat’

b. دارُ	الأَيْتامِ	الصِّغارِ
*dār-u	al-’aytām-i	al-siġār-i
house-nom	def-orphans-gen	def-little-gen

Dans l’exemple (24.b), l’adjectif *al-‘ādil* « the impartial » modifie le complément *al-malik* « the king » et non la tête du construit. Ceci est évident du fait du marquage de cas au génitif. Cette modification n’est pas possible dans le cas d’un composé comme le montre l’agrammaticalité de l’exemple (25.b).

4.1.4. Coordination du complément

Le complément d’un construit peut être formé à partir de la coordination de deux noms ou plus. La tête du construit peut alors être utilisée soit au singulier, soit au duel, soit encore au pluriel, pour donner lieu à des construits grammaticaux mais avec des sens différents. Dans le cas des composés, la coordination des compléments implique nécessairement l’utilisation du duel ou du pluriel sinon le composé est agrammatical.

En (26.a), nous avons coordonné deux états construits qui ont la même tête *‘amal-* « work ». En, (26.c), la tête a été utilisée au duel pour que la coordination donne un sens équivalent à celui en (26.a). Par contre, coordonner les deux compléments sans procéder au changement morphologique au niveau du nombre de la tête (i.e. du singulier au duel) comme en (26.b), nous mène à un autre sens différent de

ceux en (26.a,c). En effet, si dans une coordination on met la tête des deux construits en facteur, celle-ci doit suivre en nombre le nombre de coordonnants utilisés ; en d'autres termes, le nombre de conjonctions de coordination utilisées. Ceci est montré dans l'exemple (26.d), où *'a'māl-* « works » est le pluriel de *'amal-* puisque nous avons utilisé deux fois la même conjonction *wa* « and ». Si, par contre, la tête demeure au singulier, malgré qu'il y ait coordination de compléments, le complément prend le sens d'une seule unité.

(26) a. (المُشرِفُ قَرَأَ) عَمَلَ الطَّالِبِ وَ عَمَلَ الطَّالِبَةِ
(qara'a al-mušrif-u) ['amal-a al-ṭālib-i] wa ['amal-a al-ṭālib-at-i]
(read def-adviser-nom) work-acc def-student-gen and work-acc def-student-fem-gen
Litt. (the adviser read) the work of the student (masc) and the work of the student (fem)
Litt. (le directeur de thèse a lu) le travail de l'étudiant et le travail de l'étudiante

b. (المُشْرِفُ قَرَأَ) عَمَلَ الطَّالِبِ وَ الطَّالِبَةِ
(qara'a al-mušrif-u) 'amal-a al-ṭālib-i wa al-ṭālib-at-i
(read def-adviser-nom) work-acc def-student-gen and def-student-fem-gen
Litt. (the adviser read) the work of the students (masc) and the student (fem)
Litt. (le directeur de thèse a lu) le travail de l'étudiant et l'étudiante

c. (المُشْرِفُ قَرَأَ) عَمَلَيْ الطَّالِبِ وَ الطَّالِبَةِ
(qara'a al-mušrif-u) 'amal-ay al-ṭālib-i wa al-ṭālib-at-i
(read def-adviser-nom) work-dl.acc def-student-gen and def-student-fem-gen
Litt. (the adviser read) the two works of the student (masc) and the student (fem)
Litt. (le directeur de thèse a lu) les deux travaux de l'étudiant et l'étudiante

d. (المُشْرِفُ قَرَأَ) أَعْمَالَ سَلِيم وَ صالِح وَ فَوْزي
(qara'a al-mušrif-u) 'a'māl-a salīm wa sālih wa fawzī
(read def-adviser-nom) works-acc Salim and Salah and Fawzi
Litt. (the adviser read) the two works of Salim, Salah and Fawzi
Litt. (le directeur de thèse a lu) les travaux de Salim, Salah et Fawzi

e. (المُشْرِفُ قَرَأَ) عَمَلَ سَلِيم وَ صالِح وَ فَوْزي
(qara'a al-mušrif-u) 'amal-a salīm wa sālih wa fawzī
(read def-adviser-nom) work-acc Salim and Salah and Fawzi
Litt. (the adviser read) the work of Salim, Salah and Fawzi
Litt. (le directeur de thèse a lu) le travail de Salim, Salah et Fawzi (le travail auquel les trois y ont participé)

La construction en (27.b) est agrammatical parce que *dār-a al-'ağazat-i wa al-ṯaqāfat-i* n'est pas un composé malgré que *dār-a al-'ağazat-i* « the rest home » et *dār-a al-ṯaqāfat-i* « the community arts centre » sont toutes les deux des composés. La même justification est valable pour l'exemple en (27.e). En effet, *dār-a al-'ağazat-i*, *dār-a al-ṯaqāfat-i* et *dār-a al-šabāb-i* « youth clubs » sont toutes les trois des composés, mais *dār-a al-'ağazat-i wa al-ṯaqāfat-i wa al-šabāb-i* ne peut pas avoir une lecture compositionnelle.

(27) a. دارَ العَجَزَةِ وَ دارَ الثَّقافَةِ
dār-a al-'ağazat-i wa dār-a al-ṯaqāfat-i
house-acc def-old.pl-gen and house-acc def-arts-gen
'the rest home and the community arts centre'
'la maison de repos et la maison de la culture'

b. دارَ العَجَزَةِ وَ الثَّقافَةِ
*dār-a [al-'ağazat-i wa al-ṯaqāfat-i]
house-acc def-old.pl-gen and def-arts-gen
Litt. 'the house of old person and arts'
Litt. 'la maison de repos et de la culture'

c. دارَيْ العَجَزَةِ وَ الثَّقافَةِ
dār-ay al-'ağazat-i wa al-ṯaqāfati-i
house-dl.acc def-old.pl -gen and def-arts-gen
'the rest home and the community arts centre'
'la maison de repos et la maison de la culture'

d. دُورَ	العَجَزَةِ	وَ	الثَّقافَةِ	وَ	الشَّبابِ
dūr-a	al-‘ağazat-i	wa	al-ṯaqāfat-i	wa	al-šabāb-i
houses-acc	def-old.pl-gen	and	def-arts-gen	and	def-young.pl-gen

‘rest homes, community arts centres and youth clubs’
‘les maisons de repos, de culture et des jeunes’

e. دارَ	العَجَزَةِ	وَ	الثَّقافَةِ	وَ	الشَّباب
*dār-a	al-‘ağazat-i	wa	al-ṯaqāfat-i	wa	al-šabāb-i
house-acc	def-old.pl-gen	and	def-arts-gen	and	def-young.pl-gen

Litt. ‘house of old person, arts and young person’
Litt. ‘la maison des vieux, de culture et des jeunes’

Par conséquent, les sens que nous avons obtenus en (26.b) et (26.e) pour les construits ne peuvent pas être obtenus dans le cas des composés.

4.1.5. Coordination de la tête

Si deux construits sont formés à partir du même complément, deux types de simplification peuvent avoir lieu : (i) soit obtenir un nouveau construit dont la tête est la coordination des deux têtes et dont le complément est leur complément commun, en d’autres termes, il y a distribution du complément sur les deux têtes coordonnées ; (ii) soit réaliser le complément du second construit sous la forme d’un pronom clitique et coordonner directement les deux construits.

En (28.a), nous avons coordonné les deux états construits *’atbā‘-u al-wazīr-i* « the partisans of the minister » et *mu‘āriḍ-ū al-wazīr-i* « the opposants of the minister », ayant un élément en commun : le complément *al-wazīr* « the minister ». Cette conjonction peut être simplifiée : (i) soit en coordonnant les deux têtes, *’atbā‘-u* « the partisants » et *mu‘āriḍ-ū* « the opposants », et en mettant le complément commun *al-wazīr* en facteur, comme en (28.b); (ii) soit en supprimant le complément du second conjoint, et en lui substituant le marqueur d’objet *-hu* comme en (28.c).

(28) a. أَتْبَاعُ	الوَزيرِ	وَ	مُعارِضُو	الوَزيرِ
’atbā‘-u	al-wazīr-i	wa	mu‘āriḍ-ū	al-wazīr-i
partisans-nom	def-minister-gen	and	opposants-nom	def-minister-gen

litt. ‘the partisans of the minister and the opposants of the minister’
litt. ‘les partisants du minister et les opposants du ministre’

b. أَتْبَاعُ	وَ	مُعارِضُو	الوَزيرِ
[’atbā‘-u	wa	mu‘āriḍ-ū]	al-wazīr-i
partisans-nom	and	opposants-nom	def-minister-gen

‘the partisans and the opposants of the minister’
‘les partisants et les opposants du ministre’

c. أَتْبَاعُ	الوَزيرِ	وَ	مُعارِضُوهُ
’atbā‘-u	al-wazīr-i	wa	mu‘āriḍ-ū-hu
partisans-nom	def-minister-gen	and	opposants-nom-his

‘the partisans of the minister and his opposants’
‘les partisants du ministre et ses opposants’

Ce type de simplification ne peut avoir lieu dans le cas du composé (cf. (29.a)). En effet, les deux coordinations en (29.b) et (29.c) sont agrammaticales : ni l’une ni l’autre ne donnent lieu à un composé.

(29) a. رَئِيسُ	الجُمْهُورِيَّةِ	وَ	وَكِيلُ	الجُمْهُورِيَّةِ	(تَصَافَحَا)
ra’īs-u	al-ğumhūriyyat-i	wa	wakīl-u	al-ğumhūriyyat-i	(tasāfaḥā)
president-nom	def-republic-gen	and	proxy-nom	def-republic-gen	(shook hands)

‘the President of the Republic and the public prosecutor (shook hands)’
‘le président de la république et le procureur de la république (se sont serrés les mains)’

b. رَئِيسُ	وَ	وَكِيلُ	الجُمْهُورِيَّةِ	(تَصَافَحَا)
*[ra'īs-u	wa	wakīl-u]	al-ǧumhūriyyat-i	(tasāfaḥā)
president-nom	and	proxy-nom	def-republic-gen	(shook hands)

Litt. '(the President and the proxy) of the republic (shook hands)'
Litt. '(le président et le procureur) de la république (se sont serrés les mains)'

c. رَئِيسُ	الجُمْهُورِيَّةِ	وَ	وَكِيلُهَا	(تَصَافَحَا)
*ra'īs-u	al-ǧumhūriyyat-i	wa	wakīl-u-hā	(tasāfaḥā)
president-nom	def-republic-gen	and	proxy-nom-her	(shook hands)

Litt. 'the President of the Republic$_i$ and its$_i$ proxy (shook hands)'
Litt. 'le président de la république$_i$ et son$_i$ procureur (se sont serrés les mains)'

4.1.6. Coordination mixte (état construit et composé)

Lors de la coordination d'un composé et d'un construit, la simplification de l'expression résultante ne peut avoir lieu que si le composé constitue le complément du construit. En effet, lors d'une coordination mixte où le construit et le composé ont le même complément, celui-ci ne peut être réalisé comme pronom clitique ni sur la tête du construit ni sur la tête du composé.

Il est toujours possible de simplifier une coordination de deux construits dont l'un constitue le complément de l'autre (i.e. si l'un des deux construits est X, le second est de la forme YX, où Y est la tête et X le complément (cf. 30.a)). Cette simplification est matérialisée par la réalisation du complément du deuxième conjoint sous la forme d'un pronom clitique comme nous pouvons le constater à travers l'exemple (30.b).

(30)

a. دارُ	المُديرِ	وَ	ساحَةُ	دارِ	المُديرِ
dār-u	al-mudīr-i	wa	sāḥat-u	dār-i	al-mudīr-i
house-nom	def-director-gen	and	courtyard-nom	house-gen	def-director-gen

Litt. 'the house of the director and the courtyard of the house of the director',
'the director's house and the director's house courtyard'
Litt. 'la maison du directeur et la cour de la maison du directeur'

b. دارُ	المُديرِ	وَ	ساحَتُهَا
dār-u$_1$	al-mudīr-i	wa	sāḥat-u-hā$_1$
house-nom	def-director-gen	and	courtyard-nom-her

'the house$_1$ of the director and it's$_1$ courtyard', 'the director's house$_1$ and it's$_1$ courtyard'
'la maison$_1$ du directeur et sa$_1$ cour'

Ce type de simplification est possible aussi dans une coordination mixte telle que celle en (31.a) où le composé serait le complément du construit. Dans l'exemple (31.b), le premier conjoint *dār-u al-'aytām-i* « the orphanage », qui est un composé, est coordonné à un construit dont le complément est réalisé comme un pronom clitique faisant référence à la tête du composé (i.e. le premier conjoint).

(31)

a. دارُ	الأَيْتَامِ	وَ	أَسِرَّةُ	دارِ	الأَيْتَامِ
dār-u	al-'aytām-i	wa	'asirrat-u	dār-i	al-'aytām-i
house-nom	def-orphan.pl-gen	and	bed.pl-nom	house-gen	def-orphan.pl-gen

Litt. 'the orphanage and the bed of the orphanage'
Litt. 'l'orphelinat et les lits de l'orphelinat'

b. دارُ	الأَيْتَامِ	وَ	أَسِرَّتُهَا
dār-u$_1$	al-'aytām-i	wa	'asirrat-u-hā$_1$
house-nom	def-orphan.pl-gen	and	bed.pl-nom-her

'the orphanage$_1$ and it's$_1$ beds'
'l'orphelinat$_1$ et ses$_1$ lits'

Maintenant, si nous coordonnons deux construits ayant le même complément, comme en (32.a), l'expression résultante peut être simplifiée comme en (32.b), où le complément du second conjoint est réalisé comme un pronom clitique coréférentiel avec le complément du premier conjoint.

(32) a. كِتابُ الوَلَدِ وَ كُرّاسُ الوَلَدِ
[kitāb-u al-walad-i] wa [kurrās-u al-walad-i]
book-nom def-boy-gen and notebook-nom def-boy-gen
Litt. 'the boy's book and the boy's notebook', 'the book of the boy and the notebook of the boy'
Litt. 'le livre du garçon et le cahier du garçon'
b. كِتابُ الوَلَدِ وَ كُرّاسُهُ
kitāb-u al-walad-i$_1$ wa kurrās-u-hu$_1$
book-nom def-boy-gen and notebook-nom-his
'the book of the boy$_1$ and his$_1$ notebook'
'le livre du garçon$_1$ et son$_1$ cahier'

Une telle coordination n'est pas possible pour les composés, à moins de donner lieu à un sens compositionnel. En (33.a), nous avons un composé *dār-u al-'aytām-i* « the orphanage » coordonné à un construit *'asirrat-u al-'aytām-i* « the beds of the orphans ». Les deux constructions ont le même complément *al-'aytām* « the-orphans ». La simplification de (33.a) aboutira à une agrammaticalité, comme on le voit en (33.b). En effet, si le pronom clitique *-hum* « their » du construit *'asirratu-hum* « beds-their » est coréférentiel avec le complément du composé (i.e. celui du premier conjoint) *al-'aytām-i* « the-orphans », alors l'expression *dār-u al-'aytām-i* « house the-orphans » ne peut être un composé et possède alors une lecture compositionnelle.

(33) a. دارُ الأَيْتامِ وَ أَسِرَّةُ الأَيْتامِ
dār-u al-'aytām-i wa 'asirrat-u al-'aytām-i
house-nom def-orphan.pl-gen and bed.pl-nom def-orphan.pl-gen
'the house of the orphans and the beds of the orphans', lecture compositionnelle
'the orphanage and the orphans' beds', lecture non compositionnelle
b. دارُ الأَيْتامِ وَ أَسِرَّتُهُمْ
*dār-u al-'aytām-i$_2$ wa 'asirrat-u-hum$_2$
house-nom def-orphan.pl-gen and bed.pl-nom-their
'the house of the orphans$_2$ and their$_2$ beds', 'the orphanage$_1$ and their$_3$ beds'
'la maison des orphelins$_2$ et leurs$_2$ lits', 'l'orphelinat$_1$ et leurs$_3$ lits'

En (34.a), nous avons inversé l'ordre des conjoints de l'exemple (33.a). L'essai de simplification de cette conjonction mène à l'agrammaticalité en (34.b). En effet, l'expression *dāru-hum* « house-their » ne peut être considérée comme un composé puisque le complément d'un composé ne peut se réaliser sous la forme d'un marqueur d'objet.

(34) a. أَسِرَّةُ الأَيْتامِ وَ دارُ الأَيْتامِ
'asirrat-u al-'aytām-i wa dār-u al-'aytām-i
bed.pl-nom def-orphan.pl-gen and house-nom def-orphan.pl-gen
'the beds of the orphans and the house of the orphans', 'the beds of the orphans and the orphanage'
'les lits des orphelins et la maison des orphelins', 'les lits des orphelins et l'orphelinat'
b. أَسِرَّةُ الأَيْتامِ وَ دارُهُمْ
*'asirrat-u al-'aytām-i$_2$ wa dār-u-hum$_2$
bed.pl-nom def-orphan.pl-gen and house-nom-their
'the beds of the orphans$_1$ and their$_1$ orphanage'
'les lits des orphelins$_1$ et leur$_1$ orphelinat'

4.1.7. Récursivité

Les enchâssements dans les états construits nominaux (ÉCNs) sont toujours possibles; en théorie, il est possible de rallonger un état construit à l'infinie. L'enchâssement au sein du composé est, par contre, toujours agrammatical. Cela découle d'un constat évident que nous pouvons formuler ainsi : « Dans la formation des construits nominaux, le point de départ est toujours un nom. Une fois formé, un construit nominal peut toujours être utilisé pour faire partie d'un nouvel ÉCN, ceci en lui concaténant un nouveau nom à sa

droite. Ceci n'est pas le cas du composé, qui, une fois formé, ne peut faire l'objet d'une réutilisation : il est en principe clos. »

Avec le nom *bāb* « door » en (35.a), nous avons construit les trois états construits en (35.b-d), qui sont tous différents. Nous pouvons leur enchâsser n'importe quel(s) autre(s) nom(s) dans l'une des positions du complément pour en construire, à nouveau, un nouveau construit bien formé. C'est la raison pour laquelle le construit est considéré comme une construction des plus (sinon la plus) privilégiée de la langue arabe.

(35) a. البابُ
al-bāb-u
def-door-nom
'the door'
'la porte'
b. بابُ المَنْزِلِ
bāb-u al-manzil-i
door-nom def-house-gen
'the door of the house'
'la porte de la maison'
c. بابُ مَنْزِلِ المُعَلِّمِ
bāb-u manzil-i al-mu'allim-i
door-nom house-gen def-teacher.masc-gen
'the door of the house of the teacher'
'la porte de la maison de la l'instituteur'
d. بابُ مَنْزِلِ مُعَلِّمِ الفَرَنْسِيَّةِ
bāb-u manzil-i mu'allim-i al-faransiyyat-i
door-nom house-gen def-teacher.masc-gen def-french-gen
'the door of the house of the teacher of French'
'la porte de la maison de la l'instituteur de français'

Ce type de constructions n'est pas possible avec les composés. Ceci est éclairci en (36), où les deux composés en (36.a) et (36.b), *'arūsu al-baḥri* « the siren » et *baḥru al-šamāl* « the north sea », ne peuvent pas donner lieu par composition à un nouveau composé, ce qui est confirmé par l'agrammaticalité en (36.c).

(36) a. عَرُوسُ البَحْرِ
'arūs-u al-baḥr-i
bride-nom def-sea-gen
'the siren'
'la sirène'
b. بَحْرُ الشَّمَالِ
baḥr-u al-šamāl-i
sea-nom def-north-gen
'north sea'
'la mer du nord'
c. عَرُوسُ بَحْرِ الشَّمَالِ
*'arūs-u baḥr-i al-šamāl-i
bride-nom sea-gen def-north-gen

4.1.8. Nombre (countability)

Les construits sont sensibles au trait Nombre; ils peuvent toujours être mis au duel et au pluriel. Les composés, quant à eux sont idiosyncrasiques à cet égard; en effet, il y a des

composés qui sont toujours au singulier, d'autres toujours au pluriel, et d'autre encore peuvent être mis soit au singulier soit au duel soit au pluriel.

Les construits *kutubu al-mu'allimi* « the books of the teacher » et *kitābā al-mu'allimi* « the two books of the teacher » (respectivement en (37.b) et (37.c)) représentent respectivement le pluriel et le duel nominatifs du construit *kitābu al-mu'allimi* « the book of the teacher » en (37.a).

(37) a. كِتابُ المُعَلِّمِ
kitāb-u al-mu'allim-i
book-nom def-teacher-gen
'the book of the teacher'
'le livre de l'instituteur'

b. كُتُبُ المُعَلِّمِ
kutub-u al-mu'allim-i
book.pl-nom def-teacher-gen
'the books of the teacher'
'les livres de l'instituteur'

c. كِتَابَا المُعَلِّمِ
kitāb-ā al-mu'allim-i
book.dl-nom def-teacher-gen
'the two books of the teacher'
'les deux livres de l'instituteur'

En (38.a), le composé *'al'ābu al-qiwā* « athletics » est formé d'une tête *'al'ābu* « games » et d'un complément *al-qiwā* « forces » qui sont tous les deux au pluriel. Les constructions mal formées en (38.b), (38.c) et (38.d) montrent que le composé *'al'ābu al-qiwā* ne peut être mis au singulier; en effet, ni la tête (cf. (38.b)) ni le complément (cf. (38.c)) ni les deux en même temps (cf. (38.d)) ne peuvent être mis au singulier. Ce qui exclu la possibilité de générer un composé singulier. Par conséquent, le composé *'al'ābu al-qiwā* est toujours utilisé au pluriel.

(38) a. أَلْعابُ القِوَى
'al'āb-u al-qiwā
game.pl-nom def-force.pl
'athletics'
'l'athletisme'

b. لُعْبَةُ القِوَى
*lu'bat-u al-qiwā
game.sg-nom def-force.pl
'the game of forces'
'le jeux des forces'

c. أَلْعابُ القُوَّةِ
*'al'āb-u al-quwwat-i
game.pl-nom def-force.sg-gen
'the games of force'
'les jeux de la force'

d. لُعْبَةُ القُوَّةِ
*lu'bat-u al-quwwat-i
game.sg-nom def-force.sg-gen
'the game of force'
'le jeux de la force'

En (39.a), nous avons un composé *al-baḥr-u al-'aḥmar-u* « the red sea » qui est du type Nom-Adjectif. Si nous essayons de mettre ce composé au pluriel, nous obtenons la construction en (39.b) qui n'est pas elle-même un composé.

(39) a. البَحْرُ الأَحْمَرُ
al-baḥr-u al-'aḥmar-u
def-sea.masc.sg-nom def-red.masc.sg-nom
'the Red Sea'
'la mer rouge'
b. البِحَارُ الحَمْرَاءُ
*al-biḥār-u al-ḥamrā'-u
def-sea.fem.pl-nom def-red.fem.pl-nom
'the red seas'
'les mers rouges'

Le composé en (40.a) *ra'īs-u al-baladiyyat-i* « mayor » peut avoir deux pluriels : (i) celui en (40.b), où seule la tête est au pluriel, et (ii) celui en (40.c), où les deux éléments du composé (i.e. tête et complément) sont au pluriel. Ces deux constructions plurielles valides ne sont pas toutefois sémantiquement équivalentes. Si le complément du composé est seul au pluriel, nous aboutirons à une construction mal formée, comme en (40.d).

(40) a. رَئِيسُ البَلَدِيَّةِ
ra'īs-u al-baladiyyat-i
president.sg-nom def-hall.sg-gen
'mayor'
'le maire'
b. رُؤَسَاءُ البَلَدِيَّةِ
ru'asā'-u al-baladiyyat-i
president.pl-nom def-hall.sg-gen
'mayors', 'litt. the mayors of the city council'
'litt. les (différents) présidents de la mairie'
c. رُؤَسَاءُ البَلَدِيَّاتِ
ru'asā'-u al-baladiyyāt-i
president.pl-nom def-hall.pl-gen
'mayors', 'litt. the mayors of the city councils'
'litt. les présidents des (différentes) mairies'
d. رَئِيسُ البَلَدِيَّاتِ
*ra'īs-u al-baladiyyāt-i
president.sg-nom def-hall.pl-gen

3.2. Propagation de la définitude

Nous savons que l'article défini ne peut s'attacher qu'au dernier membre non tête aussi bien du construit de type N-N que du composé de type N-N. Cette définitude cache, en réalité, un comportement différent dans les deux types de constructions. Dans le construit, la définitude marquée sur le membre non-tête n'est pas associée seulement avec le construit en entier, mais aussi avec ses deux membres tête et non-tête s'il s'agit d'un construit bi-nominal. Si de plus le construit est formé de plus de deux membres, la définitude concerne en même temps le construit et chacun de ses membres isolément. Ceci peut être démontré par la modification du construit ou de l'un de ses constituants en utilisant le test de modification connu dans différentes langues. Dans la tradition grammaticale arabe, ce test se base sur une propriété fondamentale qui est la nécessité d'avoir un accord entre le modifieur et le modifié.

Test de la définitude par la modification du nom en arabe

> Pour calculer la valeur du trait de définitude d'un nom donné, il suffit de procéder à sa modification par un adjectif défini (lui concordant en genre, nombre et cas). Si le constituant qui en résulte est syntaxiquement bien formé (i.e. s'il y a bien accord entre modifieur et modifié) alors le nom en question est bien défini. (version modifiée de معمري (2015:158))

Comme on peut le voir dans l'exemple en (41) ci-dessous, l'adjectif *al-ǧadīdat* « the new » utilisé en (41.a) modifie la tête du construit *sayyārat* « car » et non l'un de ses autres membres. Pourquoi une telle interprétation? Cela est du au fait que le modifieur *al-ǧadīdat* (i) d'une part, suit le nom tête *sayyārat* en genre, nombre et cas; ils sont tous les deux féminins, singuliers et au nominatifs et (ii) d'autre part, ne s'accorde ni avec le premier complément *mu'allim* « teacher » ni avec le second *al-tilmīḏ* « schoolboy » à la fois en genre et en cas. Qu'en est-il alors de la définitude? Nous considérons la valeur de ce trait comme décidable, du fait qu'elle est à DEF *+* au niveau du modifieur et à DEF *neutre* au niveau de la tête modifiée; ce qui veut dire que les deux traits au niveau des deux éléments ne sont pas contradictoires, mais plutôt, ils sont unifiables. Ce qui nous laisse conclure que *al-ǧadīdat* en (41.a) modifie bien la tête du construit et non l'un de ses compléments. Ensuite, dans l'exemple en (41.b), l'adjectif *al-ǧadīd* modifie cette fois-ci le premier complément du construit *mu'allim*. En effet, il ne s'accorde ni en genre ni en cas avec la tête, ni encore en genre avec le second complément. Enfin, dans le dernier exemple en (41.c), le même adjectif *al-ǧadīd* modifie le second complément du construit *al-tilmīḏat* « schoolgirl » puisqu'il ne s'accorde ni en cas avec la tête et ni en genre avec le premier complément.

(41) a. سَيَّارَةُ مُعَلِّمِ التِّلْمِيذِ الجَدِيدَةُ

sayyārat-u	mu'allim-i	al-tilmīḏ-i	al-ǧadīdat-u
car.fem.sg-nom	teacher.masc.sg-gen	def-schoolchild.masc.sg-gen	def-new.fem.sg-nom

'the new car of the schoolboy's teacher', 'the new schoolboy teacher's car'
'la nouvelle voiture de l'instituteur de l'écolier'

b. سَيَّارَةُ مُعَلِّمِ التِّلْمِيذَةِ الجَدِيدِ

sayyārat-u	mu'allim-i	al-tilmīḏ-at-i	al-ǧadīd-i
car.fem.sg-nom	teacher.masc.sg-gen	def-schoolchiild-fem.sg-gen	def-new.masc.sg-gen

'the car of the new teacher of the schoolgirl', 'the schoolgirl new teacher's car'
'la voiture du nouvel instituteur de l'écolière'

c. سَيَّارَةُ مُعَلِّمِ التِّلْمِيذَةِ الجَدِيدَةِ

sayyārat-u	mu'allim-i	al-tilmīḏ-at-i	al-ǧadīdat-i
car.fem.sg-nom	teacher.masc.sg-gen	def-schoolchiild-fem.sg-gen	def-new.fem.sg-gen

'the car of the teacher of the new schoolgirl', 'the new schoolgirl teacher's car'
'la voiture de l'instituteur de la nouvelle écolière'

Faut-il noté ici que nous avons délibérément choisi d'éviter dans l'exemple (41) toute ambiguïté au sein du construit. Dans l'exemple (42), nous avons un cas d'un construit totalement ambigu. Dans ce cas, on ne peut décider lequel des trois membres du construit est modifié par l'adjectif *al-ǧadīd*.

(42) هَاتِفِ مُعَلِّمِ التِّلْمِيذِ الجَدِيدِ

hātif-i	mu'allim-i	al-tilmīḏ-i	al-ǧadīd-i
telephone.masc.sg-gen	teacher.masc.sg-gen	def-schoolchild.masc.sg-gen	def-new.masc.sg-gen

'the new phone of the teacher of the schoolboy'
'the phone of the new teacher of the schoolboy'
'the phone of the teacher of the new schoolboy'
'le nouveau téléphone de l'instituteur de l'écolier'
'le téléphone du nouvel instituteur de l'écolier'
'le téléphone de l'instituteur du nouvel écolier'

Avec les composés, le comportement est assez différent. Malgré que le membre non tête soit marqué explicitement pour la définitude, il n'est cependant pas interprété comme étant un nom défini, du fait qu'il n'est pas référentiel. Il est sémantiquement libre[15]. Dans l'exemple (43.a), le syntagme nominale non tête *al-'aytām* « the-orphans » correspond à des individus qui ne sont pas forcément spécifiques ou

obligé d'exister totalement. Le même constat pour *al-malik* « the king » en (43.b), qui ne doit ni être forcément spécifique ni exister réellement.

(43) a. دارُ الأَيْتَامِ
dār-u al-'aytām-i
house-nom def-orphan.pl-gen
'the orphanage'
'l'orphelinat'

b. اِبْنُ المَلِكِ
'ibn-u al-malik-i[16]
son-nom def-king-gen
litt. 'the king's son'
'the prince'

4.3. Capitalité sémantique

Une méthode pertinente pour traiter de la nature fondamentalement compositionnel des processus de formation des mots a été proposé par Allen (1978) qui a appliqué la condition 'EST UN' (IS A)[17] aux composés de l'anglais. Borer (2008) a adapté quelque peu cette condition aux construits et aux composés en hébreu pour faire émerger une certaine différence. Pour l'arabe, nous suivrons la même logique en disant qu' « un construit EST UNE version modifiée de sa tête ». Ceci est illustré en (44.a-b). Dans cet exemple, la condition 'EST-UN' permet de conclure que le construit *dār-u al-'awlād-i* « the house of the boy » est une spécialisation du concept général *dār* « house » : est-ce que *dār-u al-'awlād-i* « the house of the boy » EST-UN type de *dār* « house » ou EST-il UN type de *'awlād* « boys »?

(44) a. دارُ الأَوْلادِ
dār-u al-'awlād-i
house-nom def-boy.pl-gen
'the house of the boys', 'the boys' house'
'la maison des enfants'

b. كِتابُ المُعَلِّمِ
kitāb-u al-mu'allim-i
book-nom def-teacher-gen
'the book of the teacher', 'the teacher's book'
'le livre de l'instituteur'

Cependant, malgré que cela paraisse évident dans certains composés (45.d), une telle relation sémantique n'est pas typique aux composés (45.a-c).

(45) a. دارُ البَلَدِيَّةِ
dār-u al-baladiyyat-i
house-nom def-town-gen
'town hall'
'la mairie'

b. قَصْرُ العَدَالَةِ
qasr-u al-'adālat-i
palace-nom def-justice-gen
'law courts'
'palais de justice'

c. عَرُوسُ البَحْرِ
'arūsu al-baḥr-i
épouse-nom def-mer-gen
'siren'
'sirène'

d. سَيَّارَةُ الأُجْرَةِ
sayyārat-u al-ʻuǧrat-i
car-nom def-pay-gen
'taxi'

Conclusion

Nous avons tenté d'énumérer tout au long de ce travail quelles sont les propriétés linguistiques des noms composés et des construits du type N-N. Ce travail contribuera à une meilleure description de ce phénomène propre aux langues naturelles. Une conséquence naturelle de ces observations est que les composés sont mieux vus comme des mots, alors que les construits sont syntaxiquement des syntagmes. Nous pouvons ainsi adopter l'hypothèse suivante : les composés sont des mots et doivent donc être rendu compte dans le lexique, les construits quant à eux sont des syntagmes et d'où ils sont traités par la syntaxe. Ainsi, dans une perspective de traitement automatique des langues, les composés sont répertoriés dans des dictionnaires électroniques qui seront utilisés, entre autres, par des analyseurs syntaxiques. La condition pour parvenir à ces résultats serait donc de construire des ressources dont des transducteurs qui permettraient de décrire ce type de composés. Dans une perspective de traduction, la question est de savoir comment traduire, par exemple, des noms composés anglais en arabe (l'anglais est la langue qui produit le plus de néologies actuellement mais on pourrait imaginer d'autres langues). La compréhension des composés, et particulièrement les composés arabes, contribuera à la construction de dictionnaires électroniques d'équivalences (e.g. anglais-arabe) à partir de corpus parallèles. Ce type de ressources pourrait être utilisé dans le cadre d'outils d'aide à la traduction des noms composés de l'anglais vers l'arabe ; en d'autres termes, on pourrait, à partir d'un corpus multilingue, récupérer des traductions pour des termes anglais en arabe.

Bibliographie

1. Borer, H. (1984). Parametric syntax : case studies in Semitic and Romance languages. *Studies in Generative Grammar*, volume 13. Foris Publications, Dordrecht-Holland.
2. Borer, H. (1988). On the morphological parallelism between compounds and constructs. In Booij, G. and van Marle, J., editors, *Yearbook of Morphology*, volume 1, pages 45–65. Foris Publications, Dordrecht.
3. Borer, H. (2008). Compounds: The view from Hebrew. In R. Lieber & P. Stekauer (Eds.). *The oxford handbook of compounds*. Oxford: Oxford University Press.
4. Dal, G. (2003). Productivité morphologique : définitions et notions connexes. In: *Langue française*, numéro 140. La productivité morphologique en questions et en expérimentations. pp. 3-23
5. Darmesteter, A. (1894). *Traité de la formation des mots composés dans la langue française.* Paris, Émile Bouillon, 2ème édition revue, corrigée et en partie refondue.
6. Gross, G. (1996). *Les expressions figées en français, noms composés et autres locutions*. Paris, Ophrys.
7. Nicolas, D. (2006). Compositionnalité : questions philosophiques. In Godard, D., Roussarie, L. et Corblin, F., éditeurs, *Sémanticlopédie : dictionnaire de sémantique*. GDR Sémantique & Modélisation, CNRS, http://www.semantique-gdr.net/dico/
8. Radimský, J. (2005). *Les composés italiens actuels*. PhD thesis, Université Charles, Prague, Tchéquie.
9. Thackston, M. W. (1944, reprinted 2000). *An introduction to Koranic and classical Arabic: An Elementary Grammar of the Language*. Bethesda, Md.: Ibex Publishers.

المراجع بالعربية

1- معمري، محمود فوزي. 2015. نحْوَ تصميم نَحْوٍ حاسوبي للعربيّة: دراسة وتحليل المركّب الاسمي. أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة البليدة 2، البليدة، الجزائر.

Références

1- Littéralement, « the sea's bride »/« la mariée de la mer ».
2- Le premier document qui a donné naissance à la reflexion contemporaine sur la composition est le *Traité de la formation des noms composés* de Darmesteter publié en 1874.
3- Ces critères sont traditionnellement connus sous l'appellation « Critères de Zwicky ».
4- Un syntagme nominal est sémantiquement libre si son index ne correspond à celui d'aucun autre syntagme du même domaine.
5- Comme dans " *'abnā'u al-mulūki lā yugālisūna al-'āmmata*".
6-Connue aussi dans les termes : 'est une sorte de'.

تدريس البيولوجيا باللّغة الفرنسية في محيط متعدد اللّغات: بأي لغات ؟ لأي وظائف ؟

L'enseignement De La Biologie En Français En Contexte Plurilingue : Quelles Langues ? Pour Quelles Fonctions ?

Seddiki Zinab (MCB)
Université Ziane Achour, Djelfa, Algérie

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى وصف الممارسات التعليمية في الجامعة الجزائرية حيث من المفترض أن تكون الفرنسية هي المنبع الوحيد لإيصال للمعرفة في تخصصات التكنولوجيا و العلوم. من خلال تسجيل حصتين أعمال موجهة تخصص بيولوجيا ، نحاول تحديد وظائف المزيج اللغوي في خطاب الأستاذ. لقد لاحظنا أن بعض الأساتذة ينقلون الممارسات اللغوية الخاصة بالحيات اليومية في أقسامهم ، حيث يمزجون بين الفرنسية و الدارجة إضافة إلى العربية الفصحة التي نسمعها نادرا في المحيط الخارجي . هل هذا خيار لتسهيل الدخول إلى المحتوى المعرفي أو عادة لغوية ؟

الكلمات المفتاحية:

تدريس اللغة الفرنسية، تعدد اللغات، المزيج اللغوي، طريقة التدريس حسب المحيط.

Résumé

Cette présente contribution consiste à décrire les pratiques enseignantes à l'université algérienne, là où le français est censé être utilisé comme unique vecteur de savoir dans les filières scientifiques et techniques. À travers l'enregistrement de deux séances de travaux dirigés (TD) de biologie, nous tentons de dégager les fonctions des alternances codiques dans le discours de l'enseignant. Nous avons remarqué certains enseignants transposer les pratiques langagières de la vie sociale dans leurs salles dans la mesure où ils mélangent entre le français, la darija ainsi que l'arabe standard que nous retrouvons rarement dans l'environnement extérieur.
S'agit-il d'un choix pour faciliter l'entrée aux contenus cognitifs ou d'une simple habitude discursive ?

Mots clés

Français langue d'enseignement, plurilinguisme, alternance codique, didactique contextualisée.

Introduction

L'arabe dialectal connu sous le nom de la « darija[18] », et le berbère avec ses différentes variétés sont l'un ou l'autre la langue maternelle des Algériens. Cependant, ces deux langues ne jouent aucun rôle au niveau des institutions notamment au niveau de l'enseignement. La politique linguistique a choisi comme vecteur de savoir ; l'arabe standard du primaire jusqu'au secondaire et le français dans l'enseignement supérieur pour les filières techniques et scientifiques.
L'échec universitaire est dans la plupart du temps liée au problème de la langue française, car les étudiants arrivent avec une formation arabophone. Ils ont du mal à comprendre un cours en français, ce qui entraine une certaine insécurité lorsque leurs capacités de compréhension dans cette langue leur paraissent trop justes.
On pense que les Algériens maitrisent parfaitement le français, mais cela est loin d'être la réalité. Il s'agit d'une image faussée, véhiculée par les médias. Il suffit de sillonner les différentes villes des quatre coins du pays pour remarquer qu'il est beaucoup plus ancré au nord et tout particulièrement dans la capitale d'Alger.

Dans cette étude, nous nous intéressons à la parole de l'enseignant. Nous voulons voir comment il prend en compte le malaise des nouveaux bacheliers face au changement brutal de langue d'enseignement.
Malgré ce qui est imposée par l'Etat : l'emploi du français comme unique outil d'enseignement pour les filières scientifiques et techniques à l'université, nous constatons la présence de l'arabe (la darija / l'arabe standard) dans quelques classes[19].
En effet, « Le passage dynamique d'une langue à l'autre dans une même interaction » (Causa, 2002 : 2) est réellement présent dans le paysage algérien tout comme les pays où plusieurs langues coexistent. C'est pour cela que nous pensons que certains enseignants favorisent la transposition de ce qui se passe dans l'environnement sociale de l'étudiant en classe afin de faciliter l'accès aux contenus.
Dans l'enseignement des langues étrangères, des chercheurs comme Blanchet, Moore, Rahal (2008), Plane et Rispail (2006) se sont intéressés à la didactique contextualisée. Ils estiment qu'il est primordial de prendre le contexte social de l'apprenant afin de construire une didactique de français (pour ceux qu'ils ne l'ont pas comme langue maternelle) aboutissant à des résultats favorables aux apprenants. Morre et Causa (2002) ont démontré, dans ce sens, que les alternances codiques sont des stratégies permettant l'interaction entre apprenants / enseignants.
Ces questions se posent aussi quand une langue devient véhicule de savoirs, sans être directement enseignée pour elle-même, car sans maîtrise de la langue d'enseignement, comment faire passer et exploiter des contenus scientifiques ?
C'est ce que nous tentons d'étudier dans cette présente contribution. Cela nous permettra de réfléchir à une didactique du plurilinguisme dans l'enseignement du supérieur.

Méthode

Nous avons enregistré deux TD à l'université de Ouargla (ville qui se situe à 800 km au sud de d'Alger la capitale). Ces enregistrements ont pour objectif de décrire la façon dont l'enseignant adapte son discours en fonction de ses étudiants. Autrement dit, de voir si le plurilinguisme algérien est pris en charge.
Pour notre enquête, nous avons choisi des étudiants inscrits en première année de biologie. Ce public fait partie de ceux qui sont passés de l'enseignement DU français à l'enseignement EN français. Les étudiants de notre recherche ont eu le français comme langue enseignée dès la quatrième année primaire, c'est-à-dire vers l'âge de 9 ans. Ils ont suivi un cursus scolaire entièrement en arabe standard.
Nous allons étudier les fonctions de l'intervention de la darija et de l'arabe standard dans le français qui représente la langue dominante. Si nous ne mentionnons pas le berbère c'est parce qu'il n'est pas présent en salle de cours : la majorité du public est d'origine arabe.
Afin d'analyser la fonction de l'arabe (darija / arabe standard) dans le discours de l'enseignant, nous nous sommes basée sur quatre fonctions proposées par Jakobson (métalinguistique, conative, référentielle). Puisqu'il s'agit d'un discours informatif / explicatif, nous n'avons pas jugé nécessaire de retenir la fonction poétique et expressive. En revanche, à partir de notre analyse, nous en avons proposé deux autres : pédagogique et organisatrice. Pour éclaircir ces 5 fonctions, nous allons, dans ce qui suit, les expliquer brièvement :
-fonction métalinguistique : nous rangeons dans cette catégorie les actes de parole relatifs au code, c'est à dire lorsqu'il s'agit de donner l'explication d'un mot scientifique ou autre par le biais des traductions arabes ;
-fonction conative : ce sont les actes de parole utilisés pour faire agir les étudiants. Il s'agit de sollicitations sur leur compréhension ou leurs connaissances, d'ordres et de consignes ;
-fonction référentielle : c'est tout ce qui concerne le savoir. Autrement dit, les connaissances transmises par l'enseignant. Il s'agit d'éléments cognitifs oraux d'information ;

-fonction pédagogique : elle regroupe les appels à des souvenirs, l'éveil, des réponses à des sollicitations lorsque celles-ci ne concernent pas la traduction d'un mot ;
-fonction organisatrice : elle concerne tout ce qui est en relation avec la gestion des étudiants et de la classe.
Passons, à présent, aux principaux résultats.

Résultats

La séquence « déroulement[20] » contient des passages où la darija et l'arabe standard sont présents dans le discours de l'enseignant. Nous analyserons ensemble, les fonctions de l'arabe standard et la darija.

La fonction métalinguistique

On remarque que l'arabe standard est très courant pour traduire. On traduit en arabe standard lorsqu'il s'agit de termes de spécialité ou d'outils de description permettant de caractériser. La traduction se fait de deux manières :

- À l'aide d'un marqueur en darija permettant de souligner ce passage (**wala** (ou) / **maânaHa** (ça veut dire) :
  E1 : le sommet **maâna:Ha[21]_** *al_ qima_* **ou:** (veut dire *le sommet* et) la base *al_ qa:âida* (*le base*).
- Par simple juxtaposition des deux langues (arabe/français) :
  E2: donc le tissu musculaire / c'est un tissu adapté à la contraction // **taqalouS** (contraction).

Nous avons relevé un seul énoncé où l'enseignant traduit en darija. L'enseignant reformule le mot « endroit » par l'emprunt linguistique « lplaça » (la place) et ce, sans le recours à un marqueur pour signaler ce passage. On pourrait expliquer le non recours à la darija au service de la traduction pour les deux raisons suivantes :
-l'arabe standard est la langue d'enseignement du primaire au secondaire ;
-il est difficile, voire impossible de trouver l'équivalent des mots scientifiques en darija.

La fonction conative explicite

Nous avons repéré des moments où l'enseignant sollicite explicitement l'étudiant en faisant appel à la darija. Nous les avons regroupés en 4 catégories qui varient selon son intention :
a) Demander une information sur le sujet enseigné :
E1 : *al_ Sanawbiriya:t* (*les pins*) / **kifa:ch_ âandHoum** (comment ils ont) les: / les feuilles ?
b) Demander une connaissance
E1 : le maïs **taâarfou:H** (vous le connaissez) ?
c) Solliciter une autre réponse
E2 : **i:H_ zi:dou:** (oui encore).
d) Réaliser une tâche
E2 : **akatbou_ wach_ ra:ni_ naktab_ fal_** *Sabou:ra* (écrivez ce que j'écris au *tableau)*

Mis à part le cas « c », nous observons le mélange de deux ou trois langues : la darija et le français dans l'énoncé « b », la darija et l'arabe standard dans l'exemple « d », et l'arabe standard, la drarija et le français dans l'énoncé « a ».
Le sujet des questions qui, dans la plupart du temps concerne un mot scientifique, est soit en français soit en arabe standard quant au verbe des interrogations, il est exprimé dans la majorité de notre corpus en darija. Cela peut s'expliquer par le fait qu'elle représente la langue de l'extérieur. Pour interpeller l'étudiant, l'enseignant va choisir l'une des deux langues[22] du peuple algérien.

La fonction conative implicite

L'arabe standard est systématiquement employé pour attirer l'attention des étudiants sur un dessin porté au tableau. Durant l'explication, l'enseignant invite implicitement les étudiants à garder un schéma en tête :

1) E1 : **ri:cha_ ja:ya_** *bi:_ Hadha:_ al_ chakal* (une plume est *de cette forme*) (l'enseignante dessine au tableau).
2) E1 : pénée *Houwa_ Hadha:_ al_ chakal* (*c'est cette forme*) (l'enseignante dessine au tableau) // c'est comme les pennes d'une plume.
3) E1 : les folioles // **mahTouTi:n_** *bi:_ Ha:dha_ al_ chakal* (sont disposés *de cette façon*) qui est / en pair.

Dans les 3 extraits, l'emploi de l'arabe standard permet de désigner un dessin au tableau. Cependant, il n'est pas employé seul, il est toujours accompagné d'une autre langue. Dans les cas 1, il est alterné avec la darija qui a pour fonction d'annoncer le sujet et l'action. Dans le deuxième cas, il est mêlé au français (c'est le sujet qui est exprimé en français). Le cas 3 se compose de trois langues : le français pour introduire le sujet, la darija pour le verbe, et l'arabe standard pour désigner le dessin. Cette imbrication des 3 langues est telle qu'on peut se demander dans quelle mesure elle est consciente ou spontanée. Ne s'agit-il pas d'une seule langue algérienne et universitaire forgée à partir de trois origines différentes pour construire un seul discours ?

La fonction référentielle

Dans l'ensemble de la séquence « déroulement », il y a un seul moment où l'enseignant fait appel à l'arabe standard pour remplir la fonction référentielle :

E1 : c'est une feuille // donc c'est une feuille à limbe entier / qu'on appelle / simple //simple / […] *ka:mil_* **ma:chi:_** *moutaqa:Tiâ* (*entier* c'est pas *découpé*) / il n'est pas découpé / continu / *mafHou:m* (*c'est clair*) ? // donc si le limbe est continu / on l'appelle / donc il est formé / sous / une seule feuille / **nsamou:H** (on l'appelle) simple.

L'arabe standard apparaît dans une périphrase pour reformuler l'explication de la feuille simple en se focalisant sur la caractérisation du limbe. Deux adjectifs sont ainsi employés pour qualifier le limbe de la feuille simple *« ka:mil / moutaqaTiâ »* (*entier* / *découpé*). Puis l'enseignant exprime la même périphrase en français, sans doute pour enrichir le répertoire lexical français de l'étudiant.

En revanche, pour expliquer un contenu, on fait appel à la darija systématiquement :

1) E1 : les gymnospermes en général c'est les pré les: les: végétaux de bois / *yaâni:_* **li:_ nalga:wHoum_ fa** (*c'est-à-dire* ce qu'on trouve dans) les forêts.
2) E2 : le muscle cardiaque / cardiaque aussi euh / il constitue des stries / **naqadrou:_ ngou:lou:_ tha:ni:** (on peut dire aussi) c'est un muscle strié / **baSah_ ngoulou:lou:** (mais on le dit) cardiaque pac'que **âandou:** (il a) des particularités [[*imayzou:*]] **ghi:r_ Houwa** ([[*qu'il le distingue*]] particulièrement) / le type **Hadha:_ nta:â** (celui-là de) le muscle **ka:yan_ ghir_ fa** (il y en a uniquement dans) le cœur **maka:nach_ fa:** (il y en a pas dans) les muscles **loukhri:n** (les autres).

Dans l'exemple 1, la darija est employée pour reformuler « les végétaux de bois » par une périphrase. Elle est introduite par l'outil de reformulation « *yaâni: »* (c'est-à-dire) en arabe standard. Cette périphrase se compose de la darija pour annoncer le verbe d'action et du français pour donner le synonyme de « bois ». Le début du second énoncé est en français, par la suite, nous voyons apparaître des groupes verbaux en darija permettant d'introduire une dénomination « **naqadrou:_ ngou:lou:_ tha:ni:** » (on peut dire aussi), d'exprimer : la possession « **âandou:** » (il a), l'existence d'un élément « **ka:yan_ ghir_ fal** » (il y en a uniquement dans) ou encore d'exprimer la négation « **ma:_ka:nach_ fa** » (il y en a pas dans). Dans ce même extrait, l'enseignant fait appel au verbe « [[*imayzou*]] *»* ([[*il le distingue*]]) qui permet d'introduire une particularité. On voit que la darija est utilisée tantôt pour l'explication, tantôt pour relier les idées ou alterner des fragments d'énoncés.

Fonction pédagogique

Pour amener les étudiants à se rappeler de ce qui a été dit auparavant ou pour répondre à une question, l'enseignant utilise la darija seule ou avec le français.

1) E1 : le maïs **ka:mal_ chaftou:** (vous avez tous vu) les feuilles **ntawâou:** (à elle).
2) E1 : donc **goulna:** (on a dit) chez les dicotylédones **âandna:** (on a) / deux types de nervations.
3) E2 : **i:H** (oui) **Hadhi_ Hiya** (c'est ça) la contraction.
4) E2 : le tableau est un monstre ? / **yakhi:_ tfou:tou:_ ou:_ nwari:lkoum_ wa:ch_ takatbou:** (vous passez et je vous montre ce que vous écrivez) normal.

Dans l'exemple 1, on donne un exemple de plante. Dans cet énoncé, deux mots sont en français le nom de la plante (le sujet de l'énoncé) « le maïs » et le thème dont il est question « les feuilles ». Quant au reste, soit l'action et le pronom possessif, ils sont en darija. Dans le 2ème exemple, nous observons la même chose sauf qu'ici il n'est pas question d'éveiller les étudiants mais de faire un rappel de ce qui a été dit. L'exemple 3 est une réponse à une question posée par un étudiant. L'enseignant confirme la réponse en darija, le français n'apparaît que pour reprendre ce qui a été dit par l'étudiant. Dans le dernier extrait, l'enseignant s'adresse aux étudiants en darija et en français pour les motiver à passer au tableau. On encourage et on dynamise par le passage à la langue familière : la darija.

La fonction organisatrice

Le recours à la darija sert à maintenir l'organisation des étudiants. Nous avons repéré 3 moments qui ont pour objectifs de :

-Gérer l'organisation de la séance **:**

E1 : la feuille de présence ↑ / **ktabtou:_ ka:mal_ asmawa:tkoum** (vous avez tous écrit vos noms) ?

-Gérer l'organisation du temps de la séance :

E1 : est-ce que vous avez terminé ? **khafou:_ chwaya_ li:_ kamlou:** (dépêchez-vous un peu ceux qui ont terminé) (…) **kla:S** (ça y est) ?

E2 : **Ha:Hou:_ ka:yan** (il y a) un exercice / on va le faire.

-Apporter des données sur l'organisation du module :

E2 : les scalariformes / **ra:koum_ fa:l** (vous allez dans le) tp **di:rou:** (vous allez faire) l'observation microscopique.

Nous avons regroupé dans la fonction organisatrice 3 catégories d'apparition de la darija, la première concerne l'organisation du TD. Pour savoir si tout le monde a signé, l'enseignant pose la question en darija. Ce qui est dit en français est « la feuille de présence », cette expression est très utilisée dans la communauté universitaire. Il s'agit de relations pédagogiques et non cognitives. La 2ème catégorie renferme deux énoncés où l'enseignante fait appel à la darija pour gérer le temps consacré à la séance : le premier énoncé renferme une question et un ordre adressés aux étudiants. La question a pour objectif de savoir s'ils ont terminé, elle est posée en français (sans doute parce qu'elle est en relation avec « le savoir »). Quant à l'ordre, il est exprimé en darija, il amène les étudiants à réfléchir rapidement à la solution, il a pour but de rappeler les étudiants que peu de temps leur est consacré (une sorte de rapprochement enseignant / étudiant). Dans le 2ème énoncé, la darija est alternée au français pour annoncer aux apprenants que le 2ème temps de la séance est destiné à des exercices qui leur permettront de mieux comprendre. La darija permet d'annoncer l'existence d'une chose «**Ha:Hou:_ ka:yan** » (il y a) et le français sert à exprimer le complément « un exercice ». Enfin, dans la dernière catégorie, il s'agit d'informer les étudiants sur un point qui sera abordé en TP (assuré par un autre enseignant). Dans cet extrait, deux langues sont utilisées : la darija pour les verbes et le français pour les mots techniques. Ce partage est significatif et efficace.

Conclusion

Il apparaît d'après notre analyse que le français n'est pas la seule langue présente en salle de TD, la darija et l'arabe standard apparaissent aussi dans le discours de l'enseignant. On voit une certaine « didactisation du plurilinguisme » (Blanchet, Morre et Rahal, 2008) en présence dans le paysage algérien. Conscients des lacunes linguistiques qui dépassent les savoirs scientifiques de leur public, quelques enseignants recourent à l'alternance codique comme une stratégie d'aide à l'interaction et à la compréhension. Ce sont des gestes qui dépassent leurs compétences professionnelles car aucune formation n'est proposée dans ce sens.

Cependant, l'arabe en classe n'est pas toujours délibéré dans un but pédagogique mais un réflexe de la part du locuteur qui dépend sans doute d'une habitude langagière ou même une incapacité de parler uniquement français.

En outre, nous avons pu remarquer que cette aide n'est pas systématique. Pour certains les savoirs priment avant toute chose, soucieux de donner le plus d'informations, on oublie qu'on est face à un public « frustré » de la langue. Dans l'étude menée par Amorouayach (2009 : 139-150) sur 100 étudiants inscrits en 1ère année de médecine à l'université d'Alger, 72,1% éprouvent des difficultés à comprendre les cours. Pour la plupart des étudiants, les difficultés concernent le français général (connaissances insuffisantes en grammaire, syntaxe, et vocabulaire usuel). Nous pensons que pour donner plus de confiance aux étudiants dans la prise de parole, il faudrait que cette ressource plurilingue soit reconnue par la politique éducative algérienne, à tous les niveaux. Cela conduirait à élaborer des alternances codiques de manière officielle, d'abord dans les interactions scolaires puis universitaires à des fins d'enseignement et d'apprentissage, au lieu de viser une pureté linguistique artificielle et impossible. .

Notons que lors de la Conférence nationale sur l'évaluation de la mise en œuvre de la réforme de l'école qui s'est déroulée au Palais des Nations à Alger les 26 et 27 juillet 2015, il a été recommandé d'intégrer la darija ou l'une des variantes du tamazight selon les régions au primaire à partir de l'année 2015/2016[23]. Cette initiative malgré critiquée, montre une certaine prise de conscience de l'importance du plurilinguisme algérien.

REFERENCES BIBIOGRAPHIQUES

ABBESS-KARA, A-y., (2004), L'alternance codique comme stratégie langagière dans la réalité algérienne, in Boyer, H. (éd.), *Langues et contacts de langues dans l'aire méditerranéenne, Pratiques, représentations, gestions*, Paris, l'Harmattan, pp.31-38.

AMOROUAYACH, E., (2009), « Pratiques langagières d'étudiants en médecine de la faculté d'Alger », in *Synergie,* n°5, Algérie, pp. 139-150.

BLANCHET, Ph., MOORE, D. et ASSELAH RAHAL, S., (2008), *Perspectives pour une didactique des langues contextualisée*, Paris, archives contemporaines/AUF, 210 p.

CAUSA, M., (2002), *L'AC dans l'enseignement d'une langue étrangère : Stratégies d'enseignement bilingues et transmission de savoir en langue étrangère*, Bern, Peter Lang, 294 p.

MOORE, D., (2006), *Plurilinguisme à l'école*, Paris, Didier.

PLANE, S. et RISPAIL, M., (2006), La didactique du français dans les différents contextes linguistiques et sociolinguistiques, in *La Lettre de l'AIRDF*, n° 38, pp. 5-12.

ANNEXE

Tableau 1 : Codification du passage à la traduction

Code de la langue source	**Code de la traduction vers le français**
darija : minuscule gras	minuscule non gras
arabe standard : italique	italique souligné non gras
français : non italique /non gras / non souligné	italique gras
anglais : [majuscule non gras]	[majuscule non gras]
emprunt au français [[minuscule non gras]]	[[minuscule italique gras]]
emprunt à l'arabe classique : [[minuscule italique non gras]]	[[minuscule italique non gras souligné]]

1. **Langue de communication avec un substrat arabe et des ajouts en berbère, turc, français et espagnol.**
2. **Nous avons assisté à des séances où le français est la seule langue utilisée.**
3. **A partir du moment où l'enseignant transmet des contenus.**
4. **Voir le tableau en Annexe pour les traductions.**
5. Le tamazhit ou la darija. Dans notre cas, il s'agit de la darija.
6. Cette mesure n'a pas été appliquée au cours de cette année.

---

[1] **Langue de communication avec un substrat arabe et des ajouts en berbère, turc, français et espagnol.**
[1] **Nous avons assisté à des séances où le français est la seule langue utilisée.**
[1] **A partir du moment où l'enseignant transmet des contenus.**
[1] **Voir le tableau en Annexe pour les traductions.**
[1] Le tamazhit ou la darija. Dans notre cas, il s'agit de la darija.
[1] **Cette mesure n'a pas été appliquée au cours de cette année.**

الميدان : جزء مركزي لبرنامج الفرنسية على المرمى الأكاديمي (الـ FOU)

Le Terrain : Une Partie Centrale Pour Un Programme FOU (Français Sur Objectif Universitaire)

Lamia Boukhannouche,
Université de Blida 2

ملخص

الغرض الرئيسي من هذا المقال هو المشاركة في نهج FOU،المستمدة من نهج FOS، والفروق الدقيقة التي قد تؤدي إلى مبادئها في السياق الجزائري، وتطبيقه في سياق البيطري. هذ ه المداخلة سوف تقدم لمحة عامة عن منهجية البحث المتبعة ، والتي ستستعرض مبادئ النمذجة وتلك من البعد جنبا إلى جنب، وهما واقعية-استطرادي الحاضر ة في تحقيق تسلسل التدريس للعلوم البيطرية.

كلمات المفتاحية: FOS-خطوات-المهارات اللغوية-كتابة-العلوم البيطرية تحريريا

Résumé

L'objet majeur de l'article est de faire part de la démarche FOU, dérivée de la démarche FOS, les nuances qu'elle peut entrainer de par ses principes en contexte algérien, et son application dans le contexte vétérinaire. Cette communication présentera également un aperçu global de la méthodologie de la recherche suivie qui passera en revue les principes de la modélisation et ceux de la dimension combinée, à savoir, la pragmatico-discursive qui sont présents dans la réalisation des séquences pédagogiques pour les sciences vétérinaires.

Mots-clés : FOS- démarche- compétences langagières- rédaction- sciences vétérinaires

Abstract
The major object of the article is to inform of the approach FOU, derived from the approach FOS, the nuances which it can involve from its principles in Algerian context, and its application in the veterinary context. This communication will also present a total outline of the methodology of the followed research which will review the principles of modeling and those of the combined dimension, namely, the discursive one which are present in the realization of the teaching sequences for sciences veterinary surgeons.

Keywords: FOS- approach- language skills- writing- veterinary science

Introduction

La transition secondaire-supérieur dans les filières scientifiques est une des préoccupations majeures qui dure maintenant depuis des années. Et à la transition entre l'environnement scolaire, secondaire et universitaire, s'ajoute la question cruciale de la langue d'étude considérée comme insuffisamment maitrisée par les étudiants et qui est nécessaire à leur réussite universitaire. Cette réalité entraine de grandes difficultés que vit l'étudiant telles que le redoublement, les résultats

faibles et l'abandon définitif des études. La maitrise de la langue constitue un des principaux facteurs de la difficulté, et d'insuccès qui apparaissent dans le parcours universitaire des étudiants.

La maitrise du français est nécessaire à toutes les situations de communications que rencontre l'étudiant durant son cursus. Les situations sont d'ordre oral comme écouter un cours magistral ou présenter un exposé.

Le travail universitaire ne repose pas uniquement sur les compétences orales mais aussi sur les compétences écrites qui jouent également un rôle déterminant. Les études supérieures supposent un travail de lecture important. Par ailleurs, la réussite passe essentiellement par des examens qui nécessitent une bonne maitrise de l'écriture.

On mesure à quel point la maitrise de la compétence scripturale s'avère très importante chez les étudiants algériens faisant leurs études en langue française. Une compétence qui par définition ne ressemble pas à celle développée dans des formations antérieures. Il s'agit d'une compétence s'inscrivant dans une perspective qui n'est pas seulement linguistique mais plutôt pragmatique.

C'est ce constat qui nous a conduites à mener la présente recherche auprès des étudiants inscrits en sciences vétérinaires. Le but est de développer leurs réelles compétences langagières afin de réussir les tâches rédactionnelles qui leur sont assignées car présenter des écrits qui obéissent à des règles pragmatiques et linguistiques requises dans les travaux des études vétérinaires est une tâche qui nécessite beaucoup de réflexion.

Ainsi, le développement de ces compétences scripturales passe nécessairement par une proposition de renouvellement de la formation linguistique. La réflexion sur cette nouvelle vision de la formation linguistique s'inscrit dans une approche méthodologique (FOS-FOU).

I Aspects théoriques

I.1 Distinction des concepts

Avant de parler de la mise en œuvre du FOS en milieu universitaire, c'est-à-dire du français sur objectif universitaire, il est serait important de distinguer entre ce qu'on appelle le FLE, FG, FOS et FOU. Ces concepts sont représentés dans le schéma suivant :

Le français langue étrangère est enseigné à des non francophones ayant un objectif culturel, professionnel ou encore touristique.

Nous avons d'un autre côté le français général qui amène l'apprenant à communiquer dans différentes situations de la vie quotidienne.

Pour ce qui est du FOS, il vise à développer chez l'apprenant des compétences de communication professionnelle en collaboration avec les acteurs professionnels.

Le FOS peut donner naissance à ce qu'on appelle le FS (français de spécialité) qui ne désigne pas une langue à part, mais une terminologie, une syntaxe et une organisation discursive qui visent la non ambiguïté de la communication dans un domaine particulier. Nous pouvons citer à titre d'exemple : le français médical, le français des affaires, etc.

Quant au FOU, considéré aussi comme une branche du FOS, il cherche à donner une nouvelle dimension au français langue de communication scientifique et permet aux étudiants d'acquérir des compétences langagières, disciplinaires et méthodologiques. En général, les domaines du FOU concernent la vie de l'université, la compréhension orale du discours universitaire et les exigences de l'expression écrite.

Après avoir passé en revue les concepts cités ci-dessus, il semble important maintenant d'expliquer le vrai positionnement du FOU par rapport au FOS. En général, le FOU ne se situe pas au même niveau que le FOS, il s'agit au contraire d'une déclinaison qui s'applique en milieu universitaire.

Le FOS a toujours été défini comme une manière de monter des programmes de français au plus près des situations qui sont celles dans lesquelles beaucoup de gens concernés se trouveront. On peut par exemple former des futurs réceptionnistes d'hôtel au même titre qu'on peut former des étudiants qui se trouveront en situation d'apprentissage dans les universités françaises ou francophones. Donc, le FOU n'est qu'une application du FOS en milieu universitaire.

I.2 Etapes de la démarche FOU

D'après J.M Mangiante et C. Parpette (2011), une formation linguistique dans un centre de langue ou dans l'université porte essentiellement sur la langue, la méthodologie, l'aspect culturel et institutionnel. Il s'agit de dimensions importantes pour l'intégration des étudiants dans l'enseignement supérieur. Cet état de fait nous amène à nous interroger sur une démarche didactique à mettre en œuvre afin d'élaborer un programme de formation optimal dans un délai de temps limité. Les auteurs nous proposent une déclinaison de la démarche FOS. Il s'agit de l'élaboration d'un programme de FOU qui passe par une étape centrale, à savoir la collecte des données précédée par l'analyse des compétences langagières à développer chez les apprenants ayant pour objectif l'intégration universitaire. La collecte réunit l'ensemble des documents qui serviront de supports de formation. Cette initiative de conception de programme FOS-FOU est censée prendre en compte également toutes « les contraintes matérielles et temporelles » pour agir en toute urgence. Cette réflexion conduit à la conception d'un programme FOU qui se déroule en fonction des étapes de la démarche FOS :

- Identification de la demande

Une demande peut être formulée dans le cadre d'un partenariat entre l'université d'origine et l'université d'accueil afin de mettre en place un stage de préparation linguistique pour un public précis et homogène. Dans le contexte algérien, on assiste à des offres institutionnelles mises en place par des centres d'enseignement intensif des langues et qu'on appelle CEIL. C'est des centres qui offrent des cours de langues et préparations aux certifications internationales telles que DELF, DALF, TCF, etc. un renforcement de la pratique professionnelle en français et en anglais sur objectif spécifique et un partage des ressources et des outils nécessaires à la promotion de l'enseignement des langues étrangères[24].

- Analyse des besoins

Il s'agit d'une étape qui mène à un recensement de situations universitaires et des compétences exigées à partir d'enquêtes menées auprès des étudiants et des enseignants de disciplines. Les besoins d'un étudiant universitaire dans les universités françaises sont la compréhension d'un

cours, TD ou TP, la maitrise des productions écrites (dissertations, commentaires, etc.) et des présentations orales (exposés oraux…). Mais si on se réfère au contexte algérien, on estime que les compétences nécessaires à la réussite des étudiants dans la formation universitaire relèvent certes de la compréhension des discours oraux dans lesquels on peut mettre les CM (cours magistraux) par exemple mais relève en particulier de la rédaction de différents types d'écrits auxquels ces derniers seront confrontés et essentiellement de la rédaction des projets de fin d'études.

- Collecte des données

Comme dans chaque contexte FOS et tel est le cas des universitaires françaises, les données en milieu universitaire sont réparties en deux genres :

Il existe ce qu'on appelle les *données existantes* qui sont constituées en discours oraux ou documents écrits recueillis sur le terrain. Et des *données* appelées *sollicitées* qui sont collectées à partir d'entretien, de test ou d'interviews menés auprès des acteurs de l'université (enseignants, étudiants, administrateurs, secrétaires, etc.).

En Algérie, les données existantes recueillies peuvent être généralement orales et nous avons dans ce cas là des exemples comme les discours oraux, exposés oraux ou encore interactions orales des étudiants avec leurs enseignants. Quant aux données écrites, celles-ci se répartissent en deux : nous avons d'un côté des écrits lus par les étudiants qui se constituent en sujet d'examen, polycopiés, extraits d'ouvrages de spécialité, articles de revue scientifique, etc. et d'un autre, des écrits produits qui consistent en copies d'examen, rapport de TP, mémoire de fin d'études, etc. Quant aux données sollicitées, des entretiens ou questionnaires peuvent être soumis à l'ensemble des acteurs de l'institution à savoir, cadre administratif, étudiant, enseignant, etc. afin de relever leurs représentations sur les compétences langagières exigées par l'institution et sur la manière dont se présentent ces dernières.

- Analyse des données

Il s'agit d'une étape précaire pour le concepteur du programme FOU dans la mesure où elle nécessite un tri et un choix très précis qui laisse une bonne partie des données recueillies de côté. De plus, l'enseignant-concepteur découvre des discours dotés de caractéristiques très diverses (lexicales, discursives, syntaxiques) devant les traiter d'une manière minutieuse dans un laps de temps limité. Dans le contexte algérien par exemple, l'analyse des données existantes en partie écrites et présentes durant le cursus universitaire et collectés pendant la phase de l'analyse des besoins peut être réalisée en deux niveaux : un niveau *micro* qui s'attache à relever les caractéristiques *phrastiques* des textes écrits et un niveau *macro* qui amène à définir les éléments *textuels* assurant la cohérence des textes écrits. Quant à l'analyse des données sollicitées, celle-ci peut concerner les réponses obtenues lors des questionnaires ou entretiens soumis préalablement au public de l'expérimentation.

- Elaboration didactique

La conception des unités didactiques nécessite la détermination d'une stratégie, disciplinaire (données propres à telle ou telle discipline) ou transversale (contenus pour étudiants de disciplines différentes), de contenus notionnels à aborder, de traitement technique des données (son, extrait),

de type d'activités (travail de classe, travail de groupe), et des dispositifs d'enseignement-apprentissage (en présentiel ou à distance).

Dans le supérieur algérien, la mise en place d'une formation FOU représente de nombreuses contraintes institutionnelles. D'abord, le facteur temps, nous l'avons déjà dit, est considéré comme un axe important pour la bienfaisance de la formation. Le volume horaire exigé dans l'enseignement des contenus reste insuffisant puisqu'en moyenne, une université algérienne consacre 20 à 30 heures par semestre à la formation linguistique dans les disciplines scientifiques ou techniques.

II Principes méthodologiques

Notre travail de recherche nous a dirigées vers le terrain et sur lequel nous avons été confrontées à des besoins. Cet état de fait nous a conduites à réfléchir sur des propositions pédagogiques. La description réalisée en tout début de notre recherche a donc pour finalité de suggérer une proposition de matériel pédagogique.

La mise en place d'un modèle de programme de formation linguistique, dans notre cas, du français sur objectif universitaire en contexte vétérinaire, entraine la coopération des différents acteurs de l'institution et suscite une synergie entre les enseignants de français et les enseignants de la spécialité (sciences vétérinaires). L'intérêt de l'existence du programme est de pouvoir le communiquer entre enseignants afin d'en faire bon usage et tant que cela n'existe pas, cela signifie que chaque enseignant de langue travaille seul dans son coin. Le matériel pédagogique est à notre avis, beaucoup plus qu'un outil de travail commun. Il remplit le rôle de véhicule de perfectionnement des connaissances de l'enseignant et devient par là le prolongement de son action.

Par ailleurs, notre construction des séquences comporte à ce titre, deux éléments importants : le QUOI enseigner et le COMMENT enseigner.

Le QUOI enseigner s'occupe principalement des contenus d'enseignement censés être préalablement déterminés et a pour but d'identifier les objectifs à atteindre et les compétences à faire développer et acquérir par les étudiants

S'interroger sur le COMMENT enseigner, c'est chercher une méthodologie à suivre pour un enseignement efficace. Il indique la manière de construire les connaissances et le chemin à suivre pour y parvenir.

Ainsi, notre recherche veille à proposer, aussi bien des fiches pédagogiques pour étudiants définissant le quoi enseigner (savoir, contenus, exercices) que des fiches pédagogiques pour enseignants comprenant à la fois les corrigés des exercices soumis aux étudiants et les fiches expliquant la façon de procéder pour aborder tel et tel point (grammatical, lexical, discursif, etc.)

II.1 Démarche par modélisation : de la compréhension à la production

Former les étudiants à l'expression écrite, c'est s'appuyer principalement sur le savoir-lire. Il est important de travailler un texte en phase de lecture pour maitriser les règles qui sous-tendent le même type de texte.

Nous tenons à dire que la lecture représente la matière permettant à l'apprenant- lecteur, devenant scripteur, de développer des capacités d'analyse, d'observation de textes de référence dans le but de parvenir à une production d'un texte lisible et efficace.

Nous considérons donc que les qualités de l'acte de lire ne se limitent pas uniquement à la compréhension de la logique de sens véhiculée par le texte de référence, mais l'exploitation de ce même texte de référence donne la possibilité de réussir la rédaction des écrits largement enrichis.

Cette perspective exige un travail qui consiste à analyser la manière dont le texte est construit, pour en déterminer une sorte de « modèle » qui permet ensuite de construire son propre texte[25]. On se retrouve donc dans une reproduction de modèle qui avant tout a été préalablement analysé. Mais pour considérer tel type d'écrit comme un modèle à suivre, nous étions dans l'obligation au cours de notre travail de collecte de données de nous appuyer sur un certain nombre de critères nous aidant justement à cerner cette problématique.

II.2 Deux dimensions combinées : pragmatico-discursive et linguistique

Notre travail se situe dans une perspective d'écriture qui est fondée principalement sur la dimension pragmatico-discursive. Une dimension ayant pour fonction de relier les aspects internes de la langue (aspect syntaxique, lexical, etc.) aux aspects contextuels (aspect pragmatique) du discours. Elle prend en compte la relation entre les unités fonctionnelles de la langue et le contexte de leur utilisation. Il s'agit d'une dimension qui est étroitement liée à la sémantique car cette dernière étudie en premier lieu les signifiés des signes, autrement-dit, le sens. Sauf que la différence est que la première ne se contente pas d'analyser les mots ou les énoncés sans se référer à leur contexte d'utilisation.

Conclusion

La finalité de la recherche est la réalisation d'une ébauche de programme FOU d'aide à la rédaction universitaire en sciences vétérinaires. Il s'agit de quelques fiches pédagogiques qui portent sur la maitrise de la production écrite d'un type écrits tel est le cas du projet de fin d'études en contexte vétérinaire. Le but est d'illustrer la démarche FOU dont l'objectif est toujours la constitution d'une démarche et d'un matériel d'enseignement.

Références

Boukhannouche, L, « Les écrits scientifiques en sciences vétérinaires », Synergie Algérie, n°15, 2012, pp 95-106

Gahmia, A « Méthodologie d'élaboration d'un cours de français sur objectifs spécifiques (FOS) dans des établissements de la formation professionnelle », Synergie Algérie N°8- 2009, p.12

Mangiante, J-M et Parpette, C Le Français sur objectifs spécifiques : de l´analyse des besoins à l´élaboration d´un cours, Hachette, 2004

Mangiante, J-M et Parpette, C Le français sur objectif universitaire, PUG, 2011

[1] La lettre du réseau algérien des centres d'enseignement intensif des langues –RACEIL, numéro zéro, Mai- octobre 2009

[2] Dans la mesure où la lecture des textes a pour fonction non pas de développer la compréhension écrite mais de conduire à l'expression écrite pour la reproduction, il serait important de travailler sur des textes qui doivent être parfaitement compris par le public visé.

من أجل مقاربة تعليمية في أدب الرحلة وإجراءات كتاب الرحلة إلى أمريكا

« Pour Une Approche Didactique De La Littérature De Voyage Et Du Processus D'écriture Des Écrivains Voyageurs En Amérique »

Boughazi-Dali youcef Fatima Zohra
Université Abou Bakr Belkaid, Tlemcen

الملخص :

تشكل تعليمية النصوص الأدبية مجالا هاما يتيح لجمهور الباحثين التحكم في أصول و ضوابط منهجية البحث العلمي التي توظف الأدوات الأساسية في عملية التحليل .

وإذ نقترح في هذا المقال إمكانية التفكير في مقاربة عملية اخترنا لها عنوان :(ثلاث محطات في الكتابة) ، وظيفتها الجوهرية بلوغ مستوى رؤية متزنة و هادفة عن الكتابة في موضوعات تتعلق بأدب الرحلة حول الحملات على أمريكا ، وفي ذلك اشتغلنا على موضوع متصل بثلاث روايات أبطالها : شاتوبرياند – كوبر – عيمارد .

و في اعتقادنا أن الكتابة عن أدب الرحلة تستجيب كرونولوجيا لثلاث محطات : المرحلة التي يعايش فيها الكاتب الأحداث ، وتليها المرحلة الخاصة بمدوناته التي يجمعها أثناء الرحلة ، انتهاء بالمرحلة التي يعيد فيها الكاتب بناء المدونة بقراءة متجددة تفضي إلى البناء الجيد للنص و القراءة المتأنية للأحداث.

الكلمات المفتاحية : الكتابة-الرحلة-للأحداث-المرحلة-الحملات

Résumé

La didactique des textes littéraires est une discipline qui permet au chercheur d'acquérir une méthodologie de travail scientifique qui met en place les outils nécessaires d'analyser un corpus. Dans cet article, nous nous proposons de réfléchir une approche pratique que nous avons intitulée "les trois escales d'écriture" et qui permettrait d'avoir un regard plus distant sur l'écriture du récit de voyage, en particulier celui qui a concerné la conquête de l'Amérique. Nous avons travaillé sur un corpus extrait de trois romans, appartenant aux auteurs voyageurs suivants: Chateaubriand, Cooper et Aimard. L'écriture d'un récit de voyage devrait répondre à trois moments (escales): le pré construit ou le vécu d'un écrivain voyageur, les notes de voyage et la reconstitution de ces dernières avec le recul nécessaire pour relater les faits.

Mots Clés : écriture, voyage, conquête, moments, vécu.

Trois écrivains voyageurs du 18° et 19° siècle, René de Chateaubriand[26], Fenimore Cooper[27] et Gustave Aimard[28] ont eu un parcours certes différent mais, chacun à son époque, vivait la même passion à savoir, les expéditions en Amérique et l'écriture des récits relatant leurs voyages. La thématique reste aussi presque commune puisque tous les trois auteurs voyageurs ont décrit une société indienne dans une Amérique en plein construction et où, la conquête de ces terres lointaines a rajouté une valeur sûre, celle de l'altérité et les regards croisés avec l'autre.

Pour mieux expliciter le processus d'écriture avec lequel les trois auteurs ont procédé dans leur projet de mettre en œuvre leur production, nous nous proposons d'exposer les trois grands moments qui ont permis aux trois voyageurs de réaliser leur œuvre. La réflexion que nous menons porte sur une analyse intertextuelle basée essentiellement sur un corpus composé extrait des romans suivants : « *le*

voyage en Amérique » 1861, « *Atala* » 1881 de Chateaubriand, « *Les bandits de l'Arizona* » 1881 d'Aimard et « *Le dernier des Mohicans* » 1864 de Cooper.

Pour ce faire, nous nous sommes basés sur des extraits pris du roman de Chateaubriand, intitulé « *voyage en Amérique* » alors qu'on pouvait présenter la même réflexion aussi bien sur « *Atala* » ou « *René* » que sur « *L'itinéraire de Paris à Jérusalem* ». Nous considérons cet auteur le référent et le précurseur des écrivains voyageurs et, à cet effet, nous illustrerons nos réflexions par des extraits pris de ce corpus précisément et nous opérerons par des parallèles que nous puiserons des autres textes, ceux de Cooper et d'Aimard.

Pour des raisons d'ordre méthodologiques évidentes, nous nous référons, lors de cette analyse, aux trois grand moments qui furent à l'origine de la réalisation des romans constituant notre grand corpus, même si on a du mal à admettre cette dénomination de « roman » du fait de la caractéristique très particulière de la littérature de voyage. Nous nous référerons ainsi sur la théorie d'Umberto Eco, celle qui nous a inspirée pour établir cette réflexion. Ainsi, ces différentes phases d'écriture, ou comme nous pouvons les appeler aussi « escales d'écriture » il sera question de « *phases* » voire « *situations » d'écriture*, pour rester ainsi sur la même dynamique du « voyage ». que nous suggère l'œuvre de Chateaubriand.[29] Voici par ordre chronologique, les trois moments d'écriture par lesquels les trois écrivains sont passés:

Une écriture basée sur un préconstruit : La référence au vécu des auteurs

Selon Umberto ECO, cette étape reste décisive dans le processus d'écriture dans la vie d'un auteur. L'appartenance géographique et à celle d'un peuple déterminent l'essence d'une production artistique quelque soit les influences subies lors de son parcours.

Pour mieux comprendre les différents usages des déictiques, les variations dans l'emploi des pronoms personnels et aux personnes auxquelles ils renvoient ainsi que le choix de certains éléments discursifs utilisés par tel ou tel auteur pour décrire une situation ou un paysage, nous avons jugé nécessaire de remonter jusqu'à leur enfance et à la période qui a précédé leurs voyages.

Chateaubriand en France : une enfance et un parcours controversés, à la recherche d'un idéal lointain :

Nous avons constaté, dans le corpus sur lequel nous avons travaillé, un certain nombre d'éléments discursifs témoignant d'une ambigüité identitaire de la part de l'auteur par les différents usages des déictiques et des pronoms personnels notamment les « *je* », « *nous* » et « *on* » qui vont s'intercaler parfois même dans des énoncés juxtaposés :

> « *Nous en sommes réduits partout aux formes usées d'une civilisation vieillie (je ne parle pas des populations de l'Asie, arrêtées depuis quatre mille ans dans un despotisme qui tient de l'enfance). On a trouvé chez ses sauvages du Canada, de la Nouvelle Angleterre et des Florides, des commencements de toutes les coutumes et de toutes les lois de ces Grecs, des Romains, et des Hébreux.* »[30]

Ce qui nous a mis sur cette piste, c'est la vie qu'a menée l'auteur dans son enfance durant laquelle notre jeune Chateaubriand se cherchait encore, en manifestant une affection parfois exagérée envers sa sœur Lucile, tout en développant sa vocation pour la littérature et son désir ardent d'effectuer des voyages, notamment celui de « *redécouvrir* » l'Amérique. Chateaubriand fut aussi une âme solitaire mais qui se voulut aussi témoin exemplaire, porteur de grandeur et de beautés absolues. Ce sont là des signes de sa personnalité qu'on retrouve dans son écriture et le rapport qu'il entretînt avec les personnages qu'il mit en scène dans ses textes.

Gustave AIMARD : Une référence et un stimulus imprégnés de l'idéologie contextuelle.

De son vrai nom, Olivier Gloux, le romancier français Gustave Aimard est né à Paris en 1818. Il est de parents inconnus et nous pouvons deviner donc la vie qu'il a dû mener en l'absence d'une appartenance génétique reconnue. En revanche, cela a dû susciter en lui ce paradoxe, en l'occurrence cette envie de voyager et d'incarner le statut d'aventurier. C'est plus tard qu'il se donnera à lui-même le prénom de Gustave. Sa vie énigmatique ne s'arrêta pas là puisque ce n'est qu'après sa mort qu'on a découvert que son père s'appelait Sebastiani, qui, après avoir été général, fut ensuite ambassadeur et même ministre. Il fut embarqué jeune pour l'Amérique, abandonné par ses parents adoptifs, il prend la

fuite à l'âge de neuf ans, et s'engage en qualité de mousse dans un bateau. Tout comme Chateaubriand, Gustave Aimard eut une enfance très controversée, ce qui a, à notre avis, engendré ce désir d'aller chercher cet autre idéal dans des pays lointains.

A cet effet, nous pouvons deviner l'appartenance socioculturelle de Gustave Aimard à travers l'étude de ses œuvres qui nous semble intéressante pour la connaissance du roman d'aventures et de son fonctionnement idéologique et romanesque. Quand on regarde tout ce qu'on a écrit sur cet auteur, nous nous rendons très vite compte qu'il s'agit d'un écrivain aux qualités littéraires « d'aventurier» comme on l'a souvent qualifiée. Son roman, « *Balle-Franche »* par exemple, ne renouvelle pas la vision de l'Ouest, telle qu'elle a été conçue par ses prédécesseurs. L'Indien y demeure ce « sauvage » respecté pour sa différence, mais finalement inférieur à cause de son appartenance à une race « vouée à être dominée ».

Gustave Aimard était trop imprégné par son époque car il n'a pas pu se soustraire à l'idéologie racialiste et aux clichés qu'elle véhicule. Ses textes doivent donc être lus en gardant à l'esprit les données du contexte idéologique et culturel du milieu du XIXème siècle.

Nous pouvons en juger par les passages suivants qui manifestent de cette idéologie radicalisée, montrant l'indien comme une race soumise :

« *Votre idée était excellente, Sans Traces, vous avez eu tort de ne pas la mettre à exécution ; mais il n'y a pas de temps perdu. Avec l'autorisation du colonel, je vais lui mettre une couple de balles dans la tête, et ce sera fini.»,* (Aimard, *Les Bandits de l'Arizona*, P. 18).

Dans cet exemple, l'auteur, représenté par un narrateur désigné par « je », qui n'est autre que ce chasseur qui connaît bien le désert, prend la parole (discours direct) et prononce ce discours. Dans ce contexte précis, on montre comment, selon les rites imposés par la loi du désert, on punit « Sans Traces », comme on le fait avec les enfants ; c'est une humiliation pour un grand homme qui connait le désert mieux que les autres. Il incarne alors le rôle du dénonciateur.

Punir un grand guerrier constitue une entrave à l'éthique même de la grandeur humaine. A travers cet acte qu'il exhibe dans cette séquence de l'histoire, nous confirmons l'idéologie véhiculée et à travers laquelle la suprématie du blanc consiste à punir l'autre, le sauvage.

Comme nous l'avons remarqué chez Chateaubriand, l'emploi des pronoms personnels dans les textes d'Aimard reste très incertain. L'influence du destinataire est à l'origine de cette incertitude mais aussi du fait de son enfance et de cette identité recherchée, ne sachant comment se considérer, comme un être déstabilisé ou comme on l'a toujours nommé : l'écrivain aventurier.

Observons ces passages extraits de son roman « Les Bandits de l'Arizona »

« Au *désert, nous raisonnons autrement, nous n'avons qu'une peine, la mort ! Et nous l'appliquons sans hésiter ; les coquins le savent et ils se tiennent sur leurs gardes* », (P 27).

Là aussi, il s'agit du discours direct où le narrateur prend la parole en utilisant le « nous » : « Au *désert, nous raisonnons autrement, nous n'avons qu'une peine, la mort ! »* - Dans ce passage, le « *nous* » engage et le narrateur et les gens du désert. Cependant, nous retrouvons aussi la vision idéologique que voudrait véhiculer les décideurs « blancs » de l'époque visant à anéantir la race dite sauvage et surestimer le colon blanc. A l'idée de la mort avec laquelle « nous » « raisonnons », ou « ils » « raisonnent » au désert, on prétend opposer une vision plus civilisationelle que celle pratiquée dans le désert austère du sud Américain.

Cette séquence dénote aussi quelque part cet esprit aventureux d'Aimard car, rappelons-le, il a pris la fuite à l'âge de neuf ans de la maison de ses parents adoptifs et donc, il a appris à errer dans les rues et à s'auto-défendre : c'est ce qui ressort à travers l'exemple que nous venons de voir.

Dans l'exemple qui va suivre, la distanciation entre l'auteur et le narrateur est réduite du fait que c'est la vie qu'il a menée (réf. Escale 1) puisqu'il est né à Paris et a dû embarquer très jeune en Amérique : c'est une aventure tant rêvée par un certain nombre de Parisiens de l'époque :

« *Oui j'étais comme vous à mon retour d'Europe, mais j'ai bien vite reconnu que j'étais dupe de mon cœur. L'expérience vous apprendra, malgré vous, de quelle façon il faut agir avec les bandits de toute sorte qui pullule au désert* », **P 27.**

Observons le passage suivant :

« *Vous habitez sans doute en Sonora*[31]*, dit le colonel ; si cela était, moi qui ne connais personne dans ce pays, je serai heureux de cultiver une connaissance si singulière entamée* » P27.

Aimard passa de longues années en Amérique, notamment parmi les peaux rouges. Il avait participé à l'expédition de la Sonora (Mexique) qui avait la réputation d'être une région ayant fait l'objet d'expéditions diverses et que cette contrée était devenue une référence dans les propos et de manière indirecte, chez le lecteur aussi.

Dans la séquence qui va suivre, nous avons la preuve de la nostalgie éprouvée par Aimard à propos des savanes et des indiens. Cet éthos est transmis à travers l'état d'âme dans lequel se trouvent les personnages du récit. C'est une prise de parole par le narrateur qui n'est autre que cet anglais qui avait la fonction de chasseur et de soldat en même temps:

« *J'ai beaucoup entendu parler de ces Indiens, mais je vous avoue que je serai très curieux de faire leur connaissance* » P 28**.**

James Fénimore Cooper : Parcours quelque peu paradoxal d'un écrivain voyageur

James Fénimore Cooper est le seul écrivain parmi les trois qui a eu une vie différente des deux autres. Il est né le 05 septembre 1789 à Burlington (New Jersey), aux états unis alors qu'il est d'origine anglaise par son père et suédoise par sa mère. Il s'agit de l'âge d'or des colonies européennes en Amérique alors que tout n'avait pas été exploré encore dans ce continent lointain et tant convoité par les Irlandais, les Anglais, les Français et les Espagnols.

James Fénimore Cooper est le onzième des douze enfants Cooper. Cet état de choses a dû influencer ce jeune Anglo-américain, élevé en gentleman dans la colonie Cooperstown. Le goût à la découverte de l'autre et à l'aventure fut déjà initié dès son jeune âge et son rapport avec des cultures diverses s'est développé très tôt chez lui au sein même de son entourage dont l'appartenance socioculturelle était intéressante et décisive pour sa future vocation, à savoir, l'écriture.

Il était le fils d'un propriétaire foncier fort prospère qui fonda Cooperstown, sur le *lac Otsego* dans l'état de New York où il a grandi et développé ses aspirations aux voyages et ses rapports avec des personnes d'appartenance différente.

Nous verrons à ce propos que dans son discours dans « *le dernier des Mohicans* », son rapport avec les tribus indiennes, leurs rites et leurs us et coutumes diffère des autres auteurs dans la mesure où, tout en étant européen d'origine, il avait grandi aux Etats-Unis avant de retourner en Europe pour revenir une nouvelle fois dans ces terres lointaines, à la recherche comme les deux autres, de sensations et d'émotions fortes.

Tout comme Chateaubriand et Aimard, James Fénimore Cooper est loin d'assumer lui aussi l'usage du « *je* » et l'on comprend, à travers son discours énonciatif (un narrateur omniprésent par l'emploi du « on » et du « nous ») qu'il ne se démarque pas des autres et ce, malgré son côté « connaisseur » de ces peuples, de leurs situations et de leur particularité. Cependant, son « *nous* » à lui est loin d'être ambigu[32], comme nous le remarquons dans les énoncés suivants, extraits du roman « *Le Dernier des Mohicans »*, composant les textes constituant mon corpus d'analyse :

« *Oui, **je** ne lui aurais pas accordé **ma** confiance, et surtout en ce moment. **Il** est, dit-**on**, Canadien de naissance, et cependant **il** a servi avec **nos** amis les Mohawks qui comme **vous** le savez, sont une des nations alliées* », p. 32.

Nous assistons ici à un « jeu » d'énonciation où se mêlent les « je », « il », « on » et « vous ». En effet, dans cet exemple cooper évoque « Mohawks », une des cinq tribus indiennes occupant le Nord-Ouest de la colonie de New York. Il y a des restes de tout ce peuple encore existant sur les territoires qui leur sont assignés par le gouvernement, sous peu, il ne restera plus rien que leurs noms, ces peuples sont perdus avec leur us et coutumes. Les conflits externes et d'autres internes font que la variété des pronoms personnels crée ce mouvement d'identité dans le discours.

Dans cet énoncé, Alice, la fille du général, est représentée par le « je » de narration et c'est donc elle qui prend la parole dans ce passage. « Il », c'est l'indien qui allait les ramener Alice et sa sœur Cora chez leur père. Après la trahison du premier guide, on a trouvé ce dernier Mohican qui va les aider à retrouver leur père vivant. Quant à l'emploi du « vous », ce sont les destinataires de ce discours rapporté en l'occurrence, le Major Heyward, Cora et sa sœur Alice.

Analysons aussi le discours suivant :

« Les deux nations se réunissaient ainsi pour dépouiller les possesseurs sauvages des bois de ses rives du droit d perpétuer son nom primitif de Lac Horican », p.20.

Dans ce cas de figure, les deux nations dont parle l'auteur sont d'abord la France qui voulait être maître de la situation pour pouvoir frapper les ennemis du côté des fleuves et, d'un autre côté, l'Angleterre qui croyait faire assez d'honneur pour donner un nom aux eaux d'où ils passaient[33].

Cet exemple est très significatif car Cooper voulait nous montrer que les tribus indiennes avaient leur propre langage ou dialecte ; elles donnent ordinairement différents noms aux mêmes lieux, quoique presque tous leurs termes soient descriptifs, ainsi la traduction littérale du « Lac Horican » adopté par la tribu qui habitait ces rivages.

Enfin, regardons cet exemple très riche en référents idéologiques et culturels :
« *Un **pin** croissait alors où **vous** voyez ce **châtaignier**. Les premiers visages-pâles qui vinrent parmi nous ne parlaient pas anglais, ils arrivèrent dans un grand canot, quand mes pères eurent enterré le **tomahawk** au milieu des **hommes rouges**. Alors **Œil de Faucon**, et la voix de l'Indien ne trahit la vive émotion qu'il éprouvait en ce moment qu'en descendant à ce ton bas et guttural **qui rendait presque harmonieuse la langue de ce peuple**, alors Œil de Faucon, nous ne faisions qu'un peuple, **et nous étions heureux*** », p 49.

C'est l'indien qui raconte au chasseur anglais ce qui s'est passé, que les indiens enterraient un tomahawk pour exprimer que la guerre était finie, seuls ceux qui ont vécu avec les indiens connaitront ce terme indien.

La variété des références auxquelles fait appel l'auteur (les arbres nobles, les tribus, les dénominations des indiens, l'harmonie de la langue du peuple) montre richesse des cultures métissées et composantes de la natures et le tout, couronné par une entente dans la communication qui rend finalement ces gens unis et heureux ; « …nous ne faisions qu'un peuple et nous étions heureux ! ».

Chateaubriand, Cooper et Aimard, au moment de l'exploration : une écriture situationnelle au moment du contact avec l'autre

En effet, il s'agit d'une phase d'écriture que nous jugeons être intéressante puisque, vue à l'état brut[34], elle constitue l'essence même de sa production, celle qui fut la genèse de leur roman. Nous la caractérisons par ce que nous appellerons une « *écriture en situation* », celle qui relèverait de la spontanéité et qui serait marquée par des appréciations mêlées à la fois par les sentiments et les représentations d'un jeune Français ou anglais, débarquant en Amérique mais aussi par son ardeur expressive à vouloir aller vers l'autre et découvrir ces « *sauvages* » ou ces « *indiens* » dont « *on* » parlait beaucoup autour de lui en Europe de l'ouest. Bien évidemment, il s'agit dans le processus d'une étape d'écriture effective par laquelle nos auteurs sont réellement passé afin de reconstituer leur texte « finalisé » mais à laquelle nous y référons, même si elle paraît virtuelle pour notre travail, pour montrer l'emploi différé du « *je* » d'énonciation lors des deux « *escales* » qui, même si l'auteur s'y identifie de la même manière, nous verrons dans certains passages, que leur « *je* » est beaucoup plus accentué et plus engagé encore, lors de la phase de « *réécriture* », celle de la dernière phase d'écriture.

Pour mieux expliciter cette partie précise du processus, celle qui justifie une écriture de situation, de découverte, motivée par le désir d'aller conquérir les terres d'Amérique, à la recherche d'un exotisme d'abord imaginé par le peuple européen, puis développé sous la forme d'un besoin vital pour assouvir leur curiosité, nous nous proposons de relater les trois sources de motivation qui ont suscité le désir de produire les récits de voyage.

La découverte d'une nature hors du commun

L'une des caractéristiques de la littérature de voyage est l'exotisme. Ce dernier est recherché dans plusieurs paramètres lors des découvertes dans les expéditions. Le plus reconnu dans ce type de récit est celui de la nature sauvage et dans les textes qui nous intéressent, nous pouvons noter deux grands espaces décrits en commun par les trois auteurs : les hautes montagnes et le désert. A ces deux éléments, nous pouvons associer les rivières, les réserves les plaines et la savane, comme nous pouvons le constater dans les extraits suivants :

« *Dans ce moment même, les crocodiles, aux approches du coucher du soleil commençaient à faire entendre leurs rugissements. (...). Tout était calme et superbe au désert. La cigogne criait sur son nid, les bois retentissaient du chant monotone des cailles, du sifflement des perruches, du mugissement des boissons et du hennissement des cavales séminoles.* » (Atala, p : 46-47, éd. Hachette).

L'auteur *d'Atala* fait plonger d'emblée son lecteur dans une dimension exceptionnelle à partir d'une description dans laquelle il a été associé la vue de sites naturels hors du communs, présentés avec des couleurs exotiques évoquant le sensationnel et répondant ainsi aux aspirations d'un lecteur européen avide de tableaux relatant la nature à l'état sauvage.

Dans ce passage, Chateaubriand met en exergue les couleurs sonores et celles relatives au visuel : « *à faire entendre leurs rugissements……, La cigogne criait……., les bois retentissaient du chant monotone……., du sifflement des perruches, du mugissement des boissons et du hennissement des cavales séminoles…. ».*

Concernant la description relative au plaisir de la vue : « *crocodiles, aux approches du coucher du soleil... ».*

Nous pouvons confirmer à travers ces passages que la description « exotique » demeure une caractéristique fondamentale dans ce genre littéraire qu'est le récit de voyage.

Chez Cooper, le principe est le même puisque l'exotisme dans les séquences descriptives dominent son texte, comme nous le constatons dans le passage suivant :

« *Nous arrivâmes de l'endroit où le soleil se cache pendant la nuit, en traversant les grandes plaines qui nourrissent les buffles sur les bords e la grande rivière* », (Le dernier Des Mohicans, p : 49).

A travers cet exemple, nous pouvons dégager l'autre caractéristique du récit de voyage à savoir, l'itinérance au moment de décrire[35]. La description itinérante instaure une certaine dynamique des sites présentés et rend les lieux plus parlants et plus captivants.

Quand à Aimard, dans le même ordre d'idée, il agrémente sa description par des éléments de « mystère » et d' « énigme », rajoutant à la fonction exotique du récit de voyage sa touche personnelle où l'intrigue domine dans ses formes d'écriture :

« Aujourd'hui, l'Arizona est restée ce qu'elle était lorsqu'elle se nommait « Cibola », c'est-à-dire une contrée mystérieuse, pleine de légendes sinistres, de prodiges effrayants ; peuplée d'animaux inconnus et féroce ; son sol bouleversées par les peuples inconnus. » (Les Bandits de l'Arizona, p : 05).

Cet exotisme à la fois préconstruit, recherché et reconstitué, constitue l'élément nodal du récit de voyage. A travers la description des grands espaces uniques de l'Arizona ou de la réserve des coyotes, le lecteur est sensé découvrir toute la splendeur de cette nature décrite comme étant dure mais cet exotisme si bien écrit la rend plus accessible au plus lointain lecteur qui se trouve de l'autre côté de l'Océan.

Observons dans les extraits qui suivent, la performance à la fois linguistique et esthétique à laquelle les auteurs du récit de voyage ont souvent recours pour reconquérir un lecteur à la recherche d'un exotisme palpitant :

« *Les arbres jetèrent des ombres plus épaisses sur les fortifications et sur les rivières, et il s'établit dans tout le camp un silence aussi profond que celui qui régnait dans la vaste forêt.* », (Le Dernier des Mohicans, p : 25).

« *Le sol en était divisé, comme le champ commun des moissons, en autant de lots qu'il y avait des familles. Chaque lot faisait à lui seul un bois qui variait selon le goût de ceux qui l'avaient planté. Un ruisseau serpentait sans bruit au milieu de ces bocages ; on l'appelait le Ruisseau de la paix.* », (Atala, Hachette, p : 76).

« *Le chasseur, sans y songer, avait laissé son calumet s'éteindre. Il admirait le paysage grandiose qui se déroulait sous les yeux et devenait plus saisissant au fur et à mesure que les ténèbres remplaçaient la lumière du jour*. », (Les Bandits de l'Arizona, p : 07).

Dans les extraits que nous venons de commenter, les trois auteurs ont recours à la même finalité d'écriture à savoir, séduire un lecteur européen avide d'exotisme littéraire. A cet effet, même si les techniques de séduction sont différentes (le mystère, les sites sauvages, des personnages peu

ordinaires etc.), le but reste le même et les stratégies utilisées sont très semblables, répondant ainsi aux caractéristiques de la littérature de voyage.

La découverte de personnages mythiques

L'autre caractéristique du récit de voyage est celle des portraits des personnages plus ou moins énigmatiques mais qui, en fin de compte, répondent à l'image que l'on se fait d'eux et des représentations que le lectorat d'Europe de l'ouest qu'il a de tous ces acteurs dont quelques-uns sont devenus des mythes dans l'histoire de l'Amérique.

Dans le roman de Chateaubriand par exemple, les personnages tels que *Atala et Chactas,* sont devenus des héros de la littérature de voyage.

Chez Aimard aussi, l'accent a été mis sur le jeune français *Coulon de Villiers* qui erre dans le désert qui, de roman en roman, est devenu une référence dans la littérature de voyage[36].

L'autre caractéristique presque commune chez les trois auteurs c'est que souvent on met en scène une famille française perdue dans le désert. Ceci explique aussi la souveraineté de la France transférée aux états unis : nous faisons allusion ici aux terres souvent évoquées dans le territoire Mexicain et aux états unis. L'appropriation des lieux et des terres est l'un des phénomènes qui sont traités dans les trois textes sur lesquels nous travaillons.

Cependant, Aimard présente un autre aspect dans le choix des personnages : Il les choisit comme trappeur ou bandit mais leur donne une dimension mythique ; ses personnages sont des rebelles qui fuient la civilisation dans le désert car ils ne peuvent s'adapter avec la vie civilisée qu'ils mènent :

« Le second personnage, celui que l'on nommé de colonel, était un jeune homme de trente cinq ans au plus : il était grand, bien fait, élégant, très vigoureux ; sous une apparence un peu efféminée, il cachait une énergie et une volonté implacable.

Enfin, chez Cooper, le personnage de *Bas de Cuir* revient dans plusieurs romans, il lui change juste le nom. Dans « le Dernier des Mohicans » c'est le père de *Uncas* (dernier des mohicans) qui est *Chingachgook* et qui est toujours le personnage sage au bord de l'âge, mûr, celui qui connait la savane et qui vient à l'aide des autres. Ce personnage contribue a éveiller la curiosité des lecteurs, depuis ses allures sauvages et le rôle qu'il joue dans l'histoire de l'Amérique septentrionale.

Cooper le présente dans son cadre naturel, soit dans la sombre forêt, soit dans la plaine :

« ***Il était assis sur une vieille souche couverte de mousse, dans une attitude qui lui permettait d'ajouter à l'effet de son langage expressif par les gestes calmes mais éloquent d'un indien qui discute. Son corps presque nu présentait un effrayant emblème de mort, tracé en blanc et en noir.* », (**Le Dernier des Mohicans, p : 44).

Cooper décrit cet indien comme un guerrier et c'est à travers ce personnage qu'il nous initie à ses mœurs et à son costume différent. D'emblée, il le présente comme un ami de homme blanc : dans « le dernier des mohicans », Uncas et son père sont amis avec un homme Anglais qui est *Œil de Faucon.*

La découverte de pratiques rituelles particulières

Ce qui attire l'attention dans le récit de voyage ce sont les us et coutumes qui y sont rapportées et ce, chez les trois auteurs.

Cooper évoque dans ses écrits une autre forme de traditions et de rituels :

« *Vos traditions même se prononcent en ma faveur, Chingachgook, (...) Vos père vinrent du couchant, traversent la grande rivière, combattirent les habitants du pays, et s'emparèrent de leurs terres ; les miens vinrent du côté où les firmaments se pare le matin de brillantes couleurs, après avoir traversé le grand lac d'eau salée*[37]*, et de mirent en besogne en suivant à peu près l'exemple que les vôtres avaient donné. Que Dieu soit donc juge entre nous, et que les amis ne se querellent pas à ce sujet !* », (Cooper, p : 45).

Ainsi, les tribus étaient connues par un rituel un peu particulier qui est le scalpe[38], comme nous le verrons dans les extraits qui vont suivre :

-« *Tue moi donc tout de suite, au lieu de me dire un tas de sottises qui n'ont ni queue ni tête… »*

-*« Non, je ne te tuerai pas, répondis-je… »*

- *« Et le prenant à l'improviste, je lui enlevai la chevelure d'un seul coup. Il poussa des hurlements de douleur et éclata en sanglots comme une vieille femme. (...) à chaque seconde il s'arrêtait en*

geignant, je le piquais avec la pointe de mon couteau à scalper pour le presser ; en arrivant à terre, il se laissa tomber sur l'herbe me suppliant de l'achever », (Aimard, p : 32).

Le rite de l'enterrement par exemple a été le premier qui est ressorti dans le roman de Chateaubriand « *voyage en Amérique* » et « *Atala* ». Les différentes manières d'enterrer les morts et les pratiques coutumières quant aux jours et aux mois qui suivent le deuil, sont inhabituelles et s'inscrivent donc dans cette liste des découvertes exotiques que le lecteur, quelque soit sa nature, voudrait connaître.

Nous pouvons constater ce phénomène dans ce passage, extrait *d'Atala* de Chateaubriand :

« *Nous passâmes sous l'arche unique de ce pont, et nous nous trouvâmes devant une autre merveille : c'était le cimetière des Indiens de la mission, ou les Bocage de la mort. Le père Aubry avait permis à ses néophites*[39] *d'ensevelir leurs morts à leur manière et de conserver au lieu de leurs sépultures son nom sauvages ; il avait seulement sacrifié*[40] *ce lieu par une croix*[41] », Atala, p : 76).

Aussi, la présence de la religion chrétienne est très présente dans les romans des trois auteurs et plus particulièrement chez Chateaubriand :

« *Qui pouvait sauver Atala ? Qui pouvait l'empêcher de succomber à la nature ? Rien qu'un miracle fut fait ! La fille de Simaghan eut recours au Dieu des chrétiens ; elle se précipita sur la terre, et prononça une fervente oraison*[42]*, adressée à sa mère et à la reine des vièrges*[43]*. C'est de ce moment, ô René, que j'ai conçu une merveilleuse idée de cette religion*[44] *qui, dans les forêts, au milieu de toute les privations de la vie, peut remplir de mille dons les infortunés ; cette religion qui, opposant sa puissance au torrent des passions, suffit seule pour les vaincre, lorsque tout les favorise, et le secret des bois, et l'absence des hommes, et la fidélité des ombres. Ah qu'elle me parut divine, la simple Sauvage, l'ignorante Atala, qui à genoux devant un vieux pin tombé, comme au pied d'un autel*[45]*, offrait à son Dieu des vœux*[46] *pour un amant idolâtre ! Ses yeux levés vers l'astre de la nuit, ses joues brillantes des pleurs de la religion et de l'amour, étaient d'une beauté immortelle.*», (Atala, p : 50-51).

En définitive, nous pouvons dire qu'à travers tous ces choix de personnages, des terres transférées et de l'adoption de la religion chrétienne qui est mise en exergue chez les auteurs, nous pouvons ainsi conclure qu'au-delà de la dimension littéraire des récits, nos trois auteurs se sont donnés aussi comme mission d'accompagner les conquêtes des terres Américaines en suggérant aussi les valeurs culturelles de leurs pays respectifs, en les mettant en interaction avec celles des autochtones.

La reconstitution des notes de voyage : Une écriture et une récriture.

Nous faisons allusion ici au moment même où les auteurs évoquent les souvenirs de leurs différents déplacements et la phase où ils entreprennent la « *réécriture »* de l'histoire vécue et des expériences échangées lors de leurs différents périples. Nous pensons que lors de cette étape d'écriture (ou réécriture) qui concerne un autre contexte (espace et temps décalés) et durant laquelle nos « *voyageurs* » reprennent véritablement leur statut d'« *écrivain* », leur discours est caractérisé par des marques énonciatives intéressantes à soulever, témoignant de plus de recul, plus de distanciation par rapport, d'une part à une première étape antérieure à celle-ci, relative à celle du voyage effectué et, d'autre part, à leur propre vie « civilisée », celle vécue en Europe depuis leur tendre enfance, celle qui a forgé leur personnalité et leur identité première.

Une nouvelle situation de communication : l'identification à travers les marques d'énonciation

Lors de cette dernière phase de ce processus d'écriture, celle de la réécriture des notes de voyage, les auteurs sont confrontés à une étape transitoire au niveau des éléments énonciateurs : lors du premier contact avec l'Amérique et les autochtones, la présence du « jeu » d'énonciation devait être plus récurrente ; cela s'expliquerait par cette « subjectivité » presque inévitable à cette phase proprement dite.

Au moment de la réécriture des récits et de la reconstitution des événements vécus, nous avons conclu que les trois auteurs voyageurs avaient reconsidéré cet usage du discours en essayant au maximum de se confondre aux autres acteurs du récit, qu'ils soient présents ou omniprésents[47].

Toutes ces observations d'ordre discursif seront examinées dans la partie qui suivra, celle qui sera consacrée à l'analyse de quelques échantillons extrait de notre grand corpus.

Une réécriture pour un destinataire pluriel

Le processus d'écriture permet par ailleurs d'identifier le ou les sujet (s) auxquels la production est destinée. Quand on parle de processus, nous pensons sans risque de nous tromper aussi aux différentes phases idéologiques et politiques par lesquelles sont passés les trois auteurs-voyageurs. Lors des deux premières situations d'écriture, que nous pouvons qualifier d' « inconsciente », ils écrivaient presque de manière spontanée leurs notes de voyage. Tantôt, ils devaient s'adresser aux lecteurs, tantôt à leurs proches voire aux responsables politiques de leurs pays respectifs qui devaient eux aussi prendre connaissance de leurs écrits.

Après le recul incontournable de cette troisième phase du processus, les auteurs, dans la plupart du temps engagés dans leurs idées, tentent de réécrire en s'adressant à public pluriel, d'où la difficulté parfois de canaliser le système d'énonciation, ce qui provoque, comme nous le verrons dans les corpus, une certaine ambigüité manifestant parfois même une certaine incohérence dans le discours produit. On n'arrive pas ainsi à discerner le narrateur/auteur de l'expéditeur envoyé par les décideurs politiques, celui qui devait aussi répondre et accompagner la politique colonisatrice de ces pays européens entre le XVIII ° et le XIX° siècle.

Conclusion

A travers cette réflexion, nous pouvons d'ors et déjà retenir cette approche que nous qualifions de didactique de la littérature de voyage, une méthodologie axée essentiellement sur trois moments ou escales d'écritures : Le vécu de l'auteur, les événements qui ont marqué son enfance ainsi que tous les faits sociaux et les conflits qui se sont produits à cette phase de sa vie, contribuent à cette immersion qui le prédestine à entreprendre le voyage dans un pays lointain, en quête de réponses à ses questionnements. La deuxième escale consiste en ce moment précis où l'auteur voyageur entre en contact direct avec cette terre et ses habitants : durant cette période où des notes de voyage sont prises, l'auteur confronte souvent ses représentations et les aprioris qu'il se faisait de la contrée à la réalité qu'il rencontre. Cependant, la dernière escale est le produit final, le récit de voyage présenté comme un roman : c'est la reconstitution de toutes les notes de voyage récoltées au moment de l'exploration, des notes qui sont réécrites avec la distanciation nécessaire qui lui permet de produire un discours le moins subjectif possible.

----

[1] François-Auguste, comme il a longtemps signé ses propres ouvrages, fils d'Auguste, Comte de Chateaubriand et d'Apolline-Susanne-Jeanne de Bedée, naquit le 04 septembre 1768, à Saint Malo. Des neuf enfants nés avant lui, un frère et quatre sœurs survivaient, il était d'une branche cadette d'une famille ancienne de Bretagne, il passa une enfance rude et rêveuse au château de Combourg, aimant à s'évader avec sa sœur Lucile dans un univers irréel.

Le romancier français Gustave Aimard est né à Paris en 1818 de parents inconnus, son vrai nom est Olivier Gloux, c'est plus tard qu'il se donnera à lui-même le prénom de Gustave, ce n'est qu'après sa mort qu'on a découvert que son père s'appelait Sebastiani, qui, après avoir été général, fut ensuite ambassadeur et même ministre. Il fut embarqué jeune pour l'Amérique, abandonné par ses parents adoptifs, il prend la fuite à l'âge de neuf ans, et s'engage en qualité de mousse dans un bateau.

[3] Nous faisons allusion ici à ce qui peut paraître comme étant un jeu de mots, un effet produit par le mot « escale » qui veut dire « périple, halte dans un voyage, une étape… » et au concept que nous voudrions donner à cette « étape » mais d'écriture cette fois-ci.

[4] Chateaubriand, Voyage en Amérique, La Bibliothèque, Paris, 2009. P 330

[5] Sonora, province di Mexique

[6] Dans le récit de Chateaubriand et celui d'Aimard, le « nous » renvoie très souvent à la fois au narrateur, aux autres personnages, incluant aussi le lecteur comme co-énonciateur ; alors que chez Cooper, le nous implique directement le « je » du narrateur.

[7] Le symbole de l'eau est très récurrent dans les trois romans que nous analysons puisqu'on le retrouve aussi chez les autres auteurs voyageurs.

[8] Les premières notes de voyage, elles qu'elles ont été écrite les toutes premières fois.

[9] Dans la littérature en général, il existe deux procédés différents de raconter et de décrire : soit une description statique, où le narrateur peint un tableau sans bouger ; soit une description itinérante, celle qui est privilégiée.
[10] Dans un autre travail de recherche, il est envisageable de travailler sur la dimension génétique des personnages et analyser leur évolution à travers les écrits qui se succèdent.
[11] Grand lac d'eau salée : Mississippi. Le chasseur fait allusion à une tradition qui est très populaire parmi les Etats de l'Atlantique ; on deduit de cette circonstance une nouvelle preuve de leur origine asiatique, quoiqu'une grande incertitude règne dans l'histoire des Indiens. (Note de Cooper p 536)
[12] Le scalpe, couper une touffe de cheveux de la personne capturée, est devenu un procédé mythique qui souvent été repris dans l'industrie cinématographique Hollywoodienne, dans les films connus sous l'appellation « les westerns », où souvent l'indien est représenté comme un personnage dangereux.
[13] Personnes nouvellement converties et baptisées.
[14] Rendu saint
[15] « Le père Aubry avait fait comme les jésuites à la chine, qui permettaient aux chinois d'enterrer leurs parents dans leurs jardins, selon leur ancienne coutume » note de Chateaubriand, Atala p 76
[16] Prière ardente
[17] La vierge Marie (note de bas de page de Chateaubriand)
[18] Atala parle de la religion chrétienne
[19] Table où l'on célèbre la messe
[20] Promesse faites à Dieu
[21] Nous faisons allusion ici à deux types de référents inclus dans les pronoms personnels utilisés dans leurs énoncés : d'une part, la référence faite aux autres actants de la narration elle-même et, d'autre part, au lecteur qui est le destinataire principal des récits et avec lesquels les écrivains composent de manière implicite.

Bibliographie

- Aimard Gustave, Les Bandits de l'Arizona, L'Atlantique, Paris, 1956
- Chateaubriand René , *Atala*, Hachette, 2011.
- Chateaubriand, *Atala, René, Le Dernier Abancerage,* Classique, Bacrelone, 2011.
- Chateaubriand, *Atala, René, Le voyage en Amérique, Vie de Rancé,* La bibiothèque, Le Figaro, Paris, 2009.
- Cooper James Fenimore, *Le Dernier des Mohicans*, De Borée, 2012
- KEEBRAT-ORICCHIONI Cathrine, *L'enonciation de la subjectivité dans le langage,* Arman Colin, Collection U, 4ème 2dition, Paris 2009.
- KRISTEVA Julia, *Etrangers à nous-mêmes*, Folio Essais, France, 2011.
- MAIGENEAU Dominique, *Linguistique pour le texte littéraire,* Nathan Université, 4ème édition, Paris, 2004.
- MAINGENEAU Dominique, *Les termes clés de l'analyse du discours,* Edition du Seuil, Paris, 2009. / 2002 réedition seuil
- MOURA Jean Marc, *La littérature des lointains, histoire de l'exotisme européen au XXème siècle,* paris, Honore Champion, 1998.